

يوميات خليل السكاكيني

يوميات . رسائل . تأملات



الكتاب الثاني

النهضة الأرثوذكسية . الحرب العظمى . النفي الى دمشق

١٩١٤ - ١٩١٨

تحرير أكرم مسلم



مؤسسة الدراسات المقدسية



مركز خليل السكاكيني الثقافي

تم نشر هذا الكتاب بسخي من

This book was published through a generous contribution from

مؤسسة عبد المحسن القطان

The A. M. Qattan Foundation



مؤسسة الأمير كلاوس

The Prince Claus Fund for Culture and Development

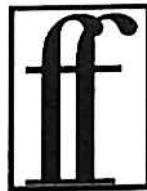
The Netherlands



F o n d s

مؤسسة فورد

The Ford Foundation



9

وزارة الثقافة الفلسطينية

يوميات خليل السكاكيني

يوميات، رسائل وتأمُّلات

الكتاب الثاني
النهضة الارثوذكسية، الحرب العظمى
النفي إلى دمشق
١٩١٤-١٩١٨

تحرير: أكرم مسلم

رام الله ٢٠٠٤

يوميات خليل السكاكيني

الكتاب الثاني: النهضة الأرثوذكسية. الحرب العظمى. النفي الى دمشق

تحرير: أكرم مسلم

تدقيق لغوي: منذر عامر

تقديم وتعقيب: عادل مناع

تحقيق: جابر عزام

ساهم في مراجعة المجلد الثاني: تانيا ناصر

الناشر:

مركز خليل السكاكيني الثقافي

مؤسسة الدراسات المقدسية

رام الله - ٢٠٠٤

© جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة

المعلومات أو استنساخه بأي شكل دون إذن رسمي من الناشر

هيئة التحرير للمجلدات الكاملة:

عادل مناع، عادلة العايدي، عصام نصار، سليم تماري

تصميم الغلاف: لينا صبح، باليترا

طباعة وتنضيد: مؤسسة الأيام - رام الله

The Diaries of Khalil Sakakini

Volume Two: orthodox Renaissance, World War I, Exile to Damascus

Akram Musallam, Editor

© Published by Khalil Sakakini Cultural Centre, Ramallah, and

The Institute of Jerusalem Studies, Jerusalem 2004

ISBN 0-88728-294-6

المحتويات

٩	عادل مناع	مقدمة.....
		الفصل الأول:
٢٩		النهضة الأرثوذكسية، الأسرة والمدرسة
		الفصل الثاني:
٩٥		صدى الحرب
		الفصل الثالث:
١٦١		الكشكول
		الفصل الرابع:
١٩١		دمشق السجن والمنفى
		الفصل الخامس:
٣٦٧		حلمي
٣٨٥		الفهرس

قائمة بمحتويات الصور

٥١	سلطانة و خليل مع سري / ١٩١٤
٦٩	خليل يحمل سري / ١٩١٤
٧٩	سلطانة مع سري / ١٩١٤
٨٩	خليل السكاكيني شاباً
١٠٥	منانة الصيداوي / ١٩٣٣
١٢٩	سجناء يحرسهم جنود عثمانيون
٢١٧	دخول الجنرال النبي إلى القدس ١٩١٧
٢٣١	دمشق العام ١٨٩٨ ، وصورتان لألتر ليفين
٢٧٣	السكاكيني يوصي بدفاتر يومياته ١٩١٨
٢٧٩	صورة نادرة لداود الصيداوي ١٩٠٨
٢٩٩	موسى العلمي مع ميليا و خليل في الاربعينيات



تقديم

محنة السكاكيني ويومياته

فترة الحرب العالمية الاولى

(١٩١٤-١٩١٨)

عادل مناع

يغطي هذا المجلد الثاني من يوميات خليل السكاكيني السنوات الاخيرة للعهد العثماني في المشرق العربي قبل افول نجم هذا الحكم الذي امتد على اربعة قرون ونيّف (١٥١٦-١٩١٨). ورغم طول مدة هذا العهد وأهميته، قليلة هي الدراسات التاريخية التي نشرت باللغة العربية عن تاريخ فلسطين خلال الفترة العثمانية. وهذا القليل المتوفر في المكتبة العربية هو عادة دراسات جامعية وابحاث أكاديمية تصل الى عدد محدود ومتخصص من القراء والباحثين. اما الاغلبية الساحقة من الناس فينبون رأيهم وموقفهم من العهد العثماني على اساس بعض حكايات التاريخ الشفوي عن ايام «السفر برك» واستبداد السلطان عبد الحميد وما الى ذلك. واما الكتب المتداولة عن تاريخ فلسطين الحديث فتكفي باشارات عابرة الى اواخر العهد العثماني او «الحكم التركي ومظالمه» قبل الانتقال الى الصهيونية، والمقاومة الفلسطينية لها^(١). ومعظم الكتابات التاريخية التي تتطرق لاواخر العهد العثماني مليء بالتعميمات النمطية التي تدمغ ذلك العهد بقرونه الاربع بصفات الاستبداد والقمع والفساد والاضطهاد. كما يتم وصف الحكم العثماني وادارته على مدى الاجيال بالتأخر والانحطاط ويغيب دور السكان العرب في الحكم والاقتصاد والثقافة وكافة جوانب الحياة وانشطتها^(٢).

هذا النمط من الكتابة القومية المعادية بشكل كلي للأتراك والحكم العثماني، نشأ على خلفية سنوات الحرب العالمية الاولى ومآسيها وسياسة التتريك بعد العام ١٩٠٨ واضطهاد السلطان عبد الحميد الثاني ورجاله لنشيطي القومية العربية قبل ذلك. وقد وصلت ملاحقة رجالات الحركة القومية العربية اوجها بعد نشوب ثورة الشريف حسين واولاده العام ١٩١٦ فنصبت المشانق في دمشق وبيروت وزج بالمئات في السجون لأنفه الشبهات. اما عامة الشعب فقاست خلال سنوات الحرب الكبرى جراء التجنيد القسري للخدمة العسكرية وفرض اعمال السخرة لصالح المجهود الحربي. كما عانى الناس من انتشار المجاعة والأوبئة والجراد وغيرها من المصائب التي حلت بسكان المنطقة نتيجة لظروف الحرب^(٣). هذه التجارب القاسية تركت بصماتها على الذاكرة الجماعية للفلسطينيين، مثلهم مثل بقية شعوب المشرق العربي. ثم غدت

تلك الذاكرة بعد ذلك كتابات فكرية ودراسات تاريخية قومية جذرت الصورة النمطية والاراء التعميمية السلبية عن العهد العثماني كله بدون تمييز بين فترة واخرى .
والكتابات التعميمية والنمطية عن «حكم الاتراك» واستبدادهم طوال اربعة قرون لم تغيب عن الانظار التدقيق في التاريخ الحقيقي للعهد العثماني فقط وانما غيبت ايضا الحوار الجريء بين الواقع المعاصر والماضي الغابر . كما غيبت الخطاب القومي احيانا مسؤولية قيادات القرن العشرين عن الاحوال التي وصلت اليها الشعوب العربية بعد الحرب العالمية ورمت باوزار التأخر والاحتلال والصهيونية على «الاحتلال التركي» واستبداده . والرواية القومية العربية للتاريخ الحديث تعاني مثل غيرها من الروايات القومية والايديولوجية الاخرى من عيوب ونواقص لا يتسع المجال هنا للخوض فيها . كما ان الدخول في تحليل عميق وجاد للاسباب التي دفعت المفكرين والمؤرخين الفلسطينيين الى صياغة رواية مسطحة واختزالية لتاريخ العهد العثماني كله يخرج عن نطاق هذا التقديم للمجلد الثاني من يوميات السكاكيني . لكن هذا الموضوع جدير بأن تخصص له ابحاث ودراسات جادة وتقديرة دون الافتتان بروايات اسلاموية او ايديولوجية اخرى . وفي هذه العجالة تجدر الاشارة الى ان اليوميات التي غطت السنوات الاخيرة للحكم العثماني بظروفها العامة الصعبة والمحنة الشخصية التي واجهها السكاكيني وقادت الى سجنه وتقيده لم تخرجه عن اتزانه وتوثيقه للاحداث بامانة ونزاهة نادرتين .

١ . ثقافة السكاكيني وأهمية يومياته

تنقل لنا صفحات هذا المجلد الثاني من يوميات خليل السكاكيني نبض الحياة كما عاشها المؤلف في السنوات الاربع الاخيرة للحكم العثماني (١٩١٤-١٩١٨) . وتجدر الاشارة الى انه رغم ازدياد عدد خريجي المدارس الحديثة وتوسع حرية التعبير والنشر بعد العام ١٩٠٨ فان عددا قليلا من المثقفين ترك لنا تسجيلا صادقا وشاملا لابرز احداث ذلك العهد . فالثقافة العربية عامة وفي فلسطين خاصة لم تكن قد جعلت من المذكرات والسيرة الذاتية وكذلك اليوميات جزءا شرعيا ومقبولا من ادبياتها . وندرة مثل هذه الاعمال الادبية التي تؤرخ لحوادث ذلك الزمان من زاوية مختلفة عن وجهة نظر الدولة ومستخدميها تعطي يوميات السكاكيني اهمية اضافية . لكن جودة هذه اليوميات ومثابرة كاتبها على نقل صورة ما يدور حوله بصدق وامانة هي السمة الاهم لهذا العمل الذي يندر وجود امثاله في المكتبة العربية^(١) .

تميز اليوميات عن المذكرات وكذلك السيرة الذاتية بانها تقدم صوراً يومية من الواقع الخاص والعام كما يراها ويعاينها الكاتب ساعة الحدث . اما المذكرات فتفصلها عن الحدث فجوة طويلة من الزمن تجعل كاتبها يحاول

استعادة صور الماضي من الذاكرة التي يمحو فيها مرور الوقت صفحات وفقرات من كتاب الايام . كما ان الكاتب الذي يقرر تسجيل مذكراته او نشر سيرته الذاتية يقوم عن قصد احيانا وعن غير قصد احيانا اخرى باتقاء بعض من صور الماضي يعتقد انها تليق بالمقام وتناسب مع روح العصر الذي يعيشه ومع متطلباته . اما اليوميات فهي الى حد كبير تصوير معاصر لما يجري بدون رتوش او مكياج . فاليوميات اذا هي أشبه بلقطات فيلم وثائقي التقطت صورته يوما بعد يوم . اما المذكرات والسيرة الذاتية فهي عمل فني يقوم بطل القصة وكاتبها باتتاج فيلم روائي تاريخي عن شخصه وحياته واعماله .

وتماز يوميات السكاكيني بأن كاتبها كان من صغره مثقفا راقيا ووطنيا ملتزما ، لكنه في نفس الوقت ناقدا لمجتمعه وبيئته . فهو ينقل لنا صورا عن حياته واحداث موطنه ، القدس ، دون تحرير او مونتاج . وهو بعكس رجال السياسة والمترجمين لا يركز فقط على دوره في الحيز العام لتبرير اعماله وتفخيم اثره وطمس نواقصه وهفواته . السكاكيني سنوات الحرب العالمية الاولى مثقف ملتزم يركض وراء لقمة العيش ويصور لنا الاحداث من موقعه الاجتماعي المتواضع وليس من منظار عليية القوم الذين يقاسمون رجال الدولة مناعم سدة الحكم وثوراته . وصاحب اليوميات صادق مع نفسه وقرائه ، يسجل لحظات ضعفه وقوته وساعات فرجه وحزنه مع افراد عائلته وتلاميذه واصدقائه . ورغم ان السكاكيني كان واعيا الى ان تسجيلاته اليومية تكتب للنشر وليس لحفظها في خزانة العائلة فقط فان استقامته وامانه المعروفة في اقواله واعماله جعلت هذا السجل توثيقا صادقا لحياته الشخصية والعائلية من جهة وليسته ومجمعه من جهة اخرى .

لا يتسع المجال هنا لعرض اهمية يوميات السكاكيني ولن نحاول هذه المقدمة عرض ملخص لحياته السكاكيني او افكاره وآثاره . لقد نشر العديد من الباحثين في نصف القرن الماضي ابحاثا ودراسات عن صاحب اليوميات وما زالت الحاجة قائمة للمزيد منها⁽⁵⁾ . اما الصفحات التالية فسوف تتمحور بالاساس حول اضاءة جوانب معينة من حياته ترتبط بيوميات هذا المجلد الذي يغطي السنوات الاخيرة للحكم العثماني في فلسطين والمشرق العربي . هذه السنوات شكلت مفترق طرق مهما في تاريخ المنطقة شهدت افول نجم اخر الامبراطوريات الاسلامية وصعود نجم بريطانيا وفرنسا اللتين ورثتا حكم بلدان المشرق العربي . اما بالنسبة لفلسطين وسكانها العرب فقد كان لاصدار وعد بلفور الذي بارك اقامة وطن قومي لليهود دور اساسي في سياسة الانتداب البريطاني التي قادت الى اقامة دولة اسرائيل . ورغم ان السكاكيني ليس مؤرخا يدرس تلك التطورات ولا يوثقها بشكل مباشر فان يومياته تنقل لنا روح العصر ونبض الحياة اليومية الذي يغيب عادة في دراسات المؤرخين لمثل تلك الاحداث . لذا فان يوميات السكاكيني تفتح لقارئها نافذة يطل منها على ساحة احداث الحيز العام لا تقل اهمية عن الصور اليومية التي ينقلها لنا عن حياته الشخصية .

كان السكاكيني مثقفا راقيا وملتزما يقرن مبادئه وارهه بالممارسة واعطاء القدوة الحسنة في شتى ميادين الحياة من السياسة والصهيونية الى الرياضة والصحة الجسدية، ومن التعليم والثقافة الى الاسرة ومكانة المرأة ومن الدين واستبداد رجال الكنيسة الى نبذه للطائفية ودعوته الى الوحدة الوطنية. لقد نضجت مواقفه من كل هذه القضايا وهو في الثلاثينات من عمره دون دراسة او علم حصله من جامعات او كليات. فما هي منابع ثقافته وما هي مصادر تكوين شخصيته وثقافته؟

يشير يوسف حداد في دراسته الشاملة لحياة السكاكيني ومواقفه وآثاره الى افراد عائلته بثقافتهم متعددة الاصول واللغات كواحد من تلك الينابيع التي شرب منها في طفولته وشبابه^(٦). كما يذكرنا بحب السكاكيني للمطالعة وتمكنه من اللغة الانكليزية والتي من خلالها تعرف على مستجدات الثقافة الغربية وتراثها اضافة الى الثقافة العربية وآدابها. وقبل تعداد مصادر خارجية اخرى أثرت على ثقافة السكاكيني وساهمت في بناء شخصيته وافكاره لا بد من ذكر ذكائه الفطري وعقليته المنفتحة المحبة للمعرفة والاكتشاف والمتطلعة دائما الى التعلم من تجارب الحياة، كما من القراءة والاستماع للآخرين. هذه الشخصية مكنت السكاكيني من تثقيف نفسه وبلورة افكاره وارهه الخاصة. لكن ذلك كله لم يأت من فراغ وانما ضمن عملية تحول تاريخي بدأت باصلاحات عثمانية وانفتاح على الغرب افرزت نهضة ثقافية تعود جذورها الى اواسط القرن التاسع عشر^(٧). هذه التحولات افرزت نهضة عامة في شتى مجالات الحياة وسمحت بنشوء شخصيات رائدة نقلت تجربتها وثقافتها للاجيال اللاحقة.

نالت القدس حصة الاسد في التحولات الجذرية التي شهدتها فلسطين منذ اواسط القرن التاسع عشر و اشار السكاكيني نفسه الى بعض جوانبها في يومياته، فقد استفادت اجيال من المثقفين المقدسين وغيرهم في مدن فلسطين من اقامة مؤسسات التعليم الحديثة وعلى رأسها المدارس التبشيرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وبما ان المجال لا يتسع هنا لذكر العديد من رواد تلك النهضة نكتفي اولا بالاشارة الى ابرز هؤلاء الاعلام المقدسين، يوسف ضياء الخالدي، الذي لم يجد حتى الان من يخصص لشخصيته واعماله دراسات وابحاث متعمقة باللغة العربية^(٨). شغل يوسف ضياء مناصب ادارية متعددة منها رئاسة بلدية القدس مدة عشر سنوات، ونائب متصرفية القدس في البرلمان (مجلس المبعوثان) العثماني (١٨٧٧-١٨٧٨) وقنصلا ثم حاكما على مقاطعة يسكنها الاكراد في شمال شرق تركيا. وكان يوسف ضياء سياسيا قديرا وخطيبا جريئا نصر الاصلاح والدستور وعارض سياسة السلطان عبد الحميد الاستبدادية. وتنبه الى اخطار الحركة الصهيونية العالمية منذ قيامها بعد مؤتمر بازل فكتب رسالة الى هر تسل في الاول من آذار ١٨٩٩ يحذره من مغبة تنفيذ المشروع الصهيوني باقامة دولة اليهود في فلسطين. هذا المشروع سيواجه

معارضة المسلمين والمسيحيين في فلسطين والعالم اجمع ، ولذا ختم الخالدي رسالته بقوله «بحق الله اتركوا فلسطين بسلام»^(١٠) .

كان يوسف ضياء الخالدي (١٨٤٣-١٩٠٦) احد افراد النخبة المقدسية الذين عاصروا التنظيمات العثمانية واطلعوا على الثقافة الغربية وتأثروا بها بدون التنازل عن هويته العربية وثقافته الاسلامية الشرقية . ثم تلى يوسف ضياء جيل ثان من المثقفين سار على نفس الطريق ابرزهم روجي الخالدي (١٨٦٤-١٩١٣)^(١١) . في تلك الفترة من اواخر العهد العثماني استقادت ابناء الطوائف المسيحية في البلاد أكثر من غيرهم من الانفتاح على الغرب وانتشار المدارس التبشيرية في البلاد . كما هاجر الى فلسطين من لبنان ودول عربية اخرى بعض المثقفين الذي أدوا دورا مهما في سلك التربية والتعليم والصحافة وغيرها من ميادين الثقافة . وبين هؤلاء الذين عاصروا السكاكيني وذكرهم في يومياته نشير الى بندلي الجوزي (١٨٧١-١٩٤٢) ونجيب نصار (١٨٦٥-١٩٤٨) وحنا عبد الله العيسى (١٨٥٨-١٩٠٩) وشقيقه يوسف وابن عمه عيسى العيسى وجورج متى (١٨٧٢-١٩٢٤) والمعلم نخلة زريق (١٨٦١-١٩٢١)^(١٢) ، وهذا الاخير كان صاحب فضل كبير على تلميذه خليل السكاكيني الذي ذكره مرات عديدة في يومياته واكفى عادة بتسميته الاستاذ .

لقد تخرج نخله زريق على شيوخ النهضة العربية في بيروت وجاء الى القدس العام ١٨٨٩ ثم اصبح مديرا لمدرسة الشبان الاعدادية فيها العام ١٨٩٢^(١٣) . ومن يعقد مقارنة بسيطة بين شخصية المعلم نخلة زريق وتلميذه السكاكيني لا يجد صعوبة في ملاحظة السمات المشتركة لكليهما . فزريق ايضا كان مغرما باقتناء الكتب ومطالعتها وقد يكون بين المؤثرين على تلميذه في هذا الاتجاه . وكان المعلم ايضا شديد الاعتزاز باللغة العربية معجبا باسرار الفصاحة وبلاغة القرآن . ومع اطلاعه على الثقافة الغربية ظل متحمسا للأدب العربي والتراث الشرقي . وكان يكره التقليد السطحي للغرب ويرى في ذلك خطرا على العقيدة الوطنية وروح الاستقلال والاصالة . وبعد وفاته العام ١٩٢١ نشر السكاكيني لمحة عن حياة نخلة زريق في مجلة المقتطف ، عدد تشرين الثاني/نوفمبر ذكر فيها ابرز ملامح شخصية استاذة . وقد اكمل التلميذ مشوار معلمه فطور اسلوبه في التربية والتعليم وبلور افكاره الخاصة المقرونة بالممارسة العملية لتطوير القدرات العقلية والجسدية . فالسكاكيني ، اذا ، تلميذ نابغ لجيل سابق من الاساتذة ورواد النهضة الثقافية في فلسطين والبلدان العربية المجاورة التي لم تكن قسّمها بعد حدود الدول الاقليمية الضيقة .

٢ . مواقفه الوطنية والانسانية

حافظ السكاكيني سنوات الحرب العالمية الاولى على موقفه الانساني الصلب رغم المعاناة التي طالته مثل

غيره من مآسي تلك الحرب وويلاتها . كما بقيت قامة السكاكيني عالية منتصبة بكبرياء لم تنجح احوال الحرب باطفاء شعلة الامل والتفاؤل العقلاني حتى ايام سجنه ومنفاه . لكن بعض الكتاب والباحثين بالغوا احيانا باضفاء صفات البطولة والثورة والنقاء الملائكي على صاحب اليوميات حتى جعلوا من الرجل شيئا هو اقرب الى الاسطورة^(١٣) . ورغم اهمية ابراز فضائل رواد النهضة الثقافية والحركة الوطنية الفلسطينية وتقديمهم كقدوة حسنة للاجيال اللاحقة فان الاتزان والامانة العلمية والنقد يجب ان تبقى اساسا ونبراسا لعمل الباحثين . ولقد اهتدى السكاكيني نفسه بهذه الفضائل في يومياته فكان مثالا يحتذى في الكتابة النقدية والاستقامة والامانة في حديثه عن نفسه وعن الآخرين .

كان السكاكيني انسانا من لحم ودم وليس اسطورة او شخصية مثالية معصومة عن الخطأ والضعف او محصنة تماما من الشعور بالاغتراب واليأس احيانا . والنماذج المقدمة فيما يلي من يوميات هذا المجلد لا تقلل من قدر هذا المربي الوطني صاحب المبادئ الانسانية العالية وانما تهدف الى انزاله من سماء الاسطورة الى ارض الواقع المر والتحديات الصعبة التي واجهها السكاكيني خاصة سنوات الحرب العالمية الاولى . فالصورة التي يتركها لنا صاحب اليوميات اكثر انسانية وتركيبا من الصفات المثالية شبه الاسطورية التي يرسمها بعض الدارسين والمؤرخين لحياته ومواقفه واعماله . فالسكاكيني «التائر والمتمرد على السلطة المستبدة والوجهات والمؤسسات والتقاليد والارتزاق» هو ايضا انسان واقعي ومسؤول عن اعالة افراد عائلته في زمن القلة والتقيير . وصاحب اليوميات الوطني الذي تنبه لاطار الصهيونية على مستقبل فلسطين وسكانها العرب ، لم يختزل بعض ناشطيها الذين عرفهم عن قرب الى اعداء مكارين ولم يجردهم من انسانياتهم . فالسكاكيني يدرس بعض هؤلاء اللغة العربية ويحاوهم ويناقشهم ليس فقط في المسألة القومية وانما ايضا في قضايا اللغة والدين ومكانة المرأة وغيرها من الامور . اما محنته مع التريلفين الذي اجاره في بيته ثم عانى معه السجن والمنفى فلم تؤثر على علاقة الصداقة والمودة التي ربطتهما مدة طويلة كما سنعود لبيان ذلك فيما بعد .

لقد كان السكاكيني وطنيا متحمسا واصلاحيا آمن ان التعليم والثقافة هما وسيلتان مهمتان لرفع المجتمع العربي من الدرك الاسفل الى اعالي المجتمعات الراقية . وعمل هذا المربي بعد عودته من امريكا مع غيره من مثقفي القدس على تطوير اوضاع التعليم ودفع عجلة النهضة الثقافية في البلد . لكن المثقف الوطني المتمرد على قيود الكنيسة الارثوذكسية وتحكم الوجهات المتعاونة مع السلطة الفاسدة ، اكتشف اكثر من مرة ان المصالح الضيقة والنفوس الضعيفة هي خصم لا يستهان به . ورغم الصعاب والنكسات فان صاحب اليوميات ظل على ايمانه العميق بإمكانية بناء عالم فاضل ومجتمع راق يقوم على انقاض البيئة الفاسدة التي عاصرها . ومع ذلك ، فان شعلة الامل التي اضاءت الطريق لمبادئ السكاكيني وممارساته اليومية كانت تخبو احيانا

حتى تدفعه الى اليأس والاغتراب لدرجة التفكير والتخطيط للهجرة والابتعاد عن الوطن والاحباب .
ففي يوم السبت ٧ اذار ١٩١٤ وبعد تعليم «الخواجا ابري» درسا في اللغة العربية ومناقشة مسألة المرأة
في الشرق والغرب قضى خليل السكاكيني وقتا غير قليل بالتفكير في مستقبله . وكان قد بدأ يفكر بالهجرة
الى مصر والعمل بها بعد ان اغلقت امامه الابواب وواجه صعوبات شتى في تأمين معيشة عائلته . ولما قام
بتلخيص لنجاحاته واخفاقاته في السنوات الماضية وجد القليل من التفاؤل يستمد من تجارب الاعوام
الخمس او الستة الماضية «سافرت الى بلاد الانجليز ثم الى امريكا ورجعت الى وطني خائبا . ثم اشتغلت
في النهضة الارثوذكسية وجاهدت فيها جهاد الابطال فكان من وراء ذلك ان استفاد كيرون على ظهري . ثم
اسست مدرستي الدستورية وتعاطيت التعليم الخصوصي . ولكن لا ازال الى اليوم قليل الدخل لا يرتاح لي
فكر ولا يطمئن بي خاطر»^(١٤) . صحيح ان هذه المصاعب والافكار لم تدفعه الى اليأس او التنازل عن مبادئه
ولكنها دون شك جعلته يتأمل حياته وبيئته بعين ناقدة غير مطمئنة لما تخبئه الايام والسنين .

لقد خاض السكاكيني معارك ضارية لتعريب الكنيسة الارثوذكسية وعمل مع غيره مدة لاعلاء حركة
النهضة فيها^(١٥) . لكنه اكتشف ان العديد من معارفه وشركائه في تلك المعارك كانوا على استعداد للمساومة
والتراجع عن المبادئ امام المغريات المادية او الضغوط الروحانية . وعبر صاحب اليوميات عن خيبة امله من
اصحابه وبعض احبابه لانتهازيتهم وعدم نزاهتهم دون ان يغير ذلك من تفاوله العقلاني المؤمن بالاصلاح
الاجتماعي وضرورة تحرير الانسان من الانحطاط والرذيلة . لكن وطنية السكاكيني وتفاوله كانسان يؤمن
بالتغيير لا تحجب عن عينيه الواقع الصعب الذي يفت في عزمته ويدفعه الى القنوط احيانا . ففي ٣١ اذار
١٩١٤ سجل في نهاية يومياته سطورا تعبر عن مدى الاغتراب واليأس اللذين شعر بهما : «لا تلوح لي بارقة
امل يوما الا توالت بعدها صدمات اليأس اياما . هكذا كنت ولا ازال منذ عشرين سنة ، ولولا غضاضة
الشباب وعنفوان الصبي لاصبحت خرقة بالية . نزلت امس الى البلد فلم تقع عيني على احد الا اشمازت
نفسي واتقبض صدري . لا أتصفح الوجوه الا رأيت علانم الانحطاط . كان يجب ان ارحل عن القدس من
زمان طويل ، لأنها لا يستطيع الحياة فيها الا اصحاب العقول السخيفة والنفوس الصغيرة ، والوجدانات البالية
والمبادئ الساقطة . لا أستطيع ان اشتغل فيها وحدي ولا أستطيع ان اخالط الناس . ان الحياة في مثل هذا
البلد لمرّة على من كان مثلي»^(١٦) .

مثل هذه اللحظات من القنوط والاغتراب التي سجلها السكاكيني في يومياته تضيء بعدا انساني آخر في
شخصية هذا المثقف المتفائل عادة ، قلما تعرض لها الباحثون او أبرزوها^(١٧) . فالوطني الحقيقي مهما اشد
حماسه لشعبه ووطنه لا يفقد القدرة على رؤية عيوب مجتمعه ولا يتسّر عليها وهو يعمل جاهدا لتغييرها

واصلاحها . والانسان مهما ملك من تفاؤل ثوري وحماس وطني تغلبه النكسات والصدمات احيانا كما فعلت بصاحب هذه اليوميات . لكن عزيمة السكاكيني القوية كانت تتغلب بسرعة على لحظات اليأس القصيرة فيعود الى عمله الدؤوب ونشاطه الجسدي والعقلي فيمدانه بطاقات جديدة . فالانسان النهضوي الراقى الذي كانه السكاكيني لا يترك الصعوبات تثبط عزيمته ، فينهض من كبوته ليستمر في عمله ومبادراته ومشاريعه . والمربي الذي كان يؤمن بقيم الحياة والسرور ويؤمن بنهضة امته من سباتها الطويل لا يملك ترف الاستسلام الى القنوط مهما تراكمت الصعاب . بل ان تلك المصاعب كانت تدفعه الى شحذ عزيمته واكمال مسيرته بعقلانية انسانية متنورة تجد نقاط الضوء التي تثير الطريق حتى في احلك الاوقات واصعبها .

وربما كانت شخصية السكاكيني متعددة الابعاد والقيم الانسانية هي التي ساعدته على رؤية نجاحاته واخفاقاته بمنظار النسبية البعيدة عن مواقف المبشرين بالمثاليات المطلقة . فصاحب اليوميات وطني يرى عيوب مجتمعة ويحاول اصلاحها بالتربية والتعليم والقدوة الحسنة . ورغم نقده للدولة العثمانية وادارتها لشؤون السياسة والحكم كما عاينها في القدس فان موقفه القومي لا يدفعه الى تحميل الاتراك كل اوزار الانحطاط والتأخر كما فعل بعض رجال السياسة والفكر بعد زوال العثمانيين وقدموهم حكم الانكليز . فالسكاكيني الناقد للاستبداد والفساد لا تدفعه وطنيته الى مواقف قومية متعصبة وحاقدة على الاتراك بشكل كلي . فهو يعبر عن خشيته من دخول الدولة العثمانية الحرب الى جانب المانيا ويتوقع هزيمة جيوشها اذا قامت بمهاجمة الانكليز في مصر^(١٨) . وعندما يحصل ما يخشاه وتسير الجيوش العثمانية نحو سيناء فهو يتحدث عن «جيوشنا» التي يخاف عليها من التعب والعطش والجوع في الصحراء مقابل «الاعداء» الانكليز^(١٩) . وهو الذي ضاق بالاستبداد وفساد الحكم العثماني لا يسعه الا ان يعترف «ان العنصر التركي قد دب فيه الحياة وكنت اتمنى لو تدب الحياة في العنصر العربي»^(٢٠) .

ويرتفع صوت السكاكيني الانسان البعيد عن التعصب حتى بعد ان رأى الكثير من ولايات الحرب التي جلبها العثمانيون على اهل البلاد فيصرح مرة اخرى بانسانيته وايمانه بقيمة الانسان اولا قبل النظر الى ديانته وقوميته . «انا لست مسيحيا ولا بوذيا ولا مسلما ولا يهوديا . كما اني لست عربيا ولا انكليزيا ولا المانيا ولا روسيا ولا تركيا ، بل انا فرد من افراد هذه الانسانية»^(٢١) . ثم يضيف في نفس السياق بانه ولد في وسط عربي فعمل على انهاضه وبث الحياة فيه «كما لو قدر لي ان اكون في بر الاناضول او اواسط افريقيا او الهند او الشرق او الغرب فاني ارى من واجبي ، بل من دواعي سروري وطربي ان اشتغل فيما يكون به خير للناس على اختلاف الوانهم واديانهم ولغاتهم»^(٢٢) . هذا الصوت الانساني الذي امتلكه السكاكيني يعلو في اكثر من مكان وزمان حتى في احلك الاوقات كما هو الحال في السنوات التي تغطيها صفحات هذا المجلد من يومياته .

٣ . مواقف من اليهود والصهيونية :

لقد ابرز الباحثون العرب في دراساتهم لحياة السكاكيني ومواقفه تعبير صاحب اليوميات عن عدائه للصهيونية ودفاعه عن حقوق العرب في وطنهم واستشرافه لمخاطر المشروع الصهيوني على مستقبل فلسطين^(٢٣) . لكن جوانب اخرى من محاورات السكاكيني مع تلميذه «الخواججا ابري» وصديقه «التر ليفين» لم تلق اهتماما كافيا حتى الان . ومسألة موقف السكاكيني من اليهود والصهيونية لا ترتبط فقط بسنوات الحرب العالمية الاولى التي يعالجها هذا المجلد كما ان دراستها بتعمق تخرج عن نطاق هذا التقديم المتواضع . لذا فان الملاحظات التالية هي مجرد فتح لملف هذه المسألة كما يعرضها هذا الجزء من اليوميات . وتبقى مسألة دراسة هذا الموضوع بشكل شامل وعميق قائمة بانتظار من يقوم بها في المستقبل .

تنبه خليل السكاكيني عشية الحرب العالمية الاولى ، كما بعض مثقفي جيله الوطنيين من امثال روجي الخالدي ، ونجيب نصار وعيسى العيسى وغيرهم الى اخطار الصهيونية على مستقبل فلسطين وسكانها العرب^(٢٤) . وعبر السكاكيني مثلهم عن موقفه المعادي للصهيونية في مقالاته المنشورة في الصحافة وفي مجالسه ودروسه التي اعطاها لتلاميذه العرب واليهود . وقد برز بين تلاميذه اليهود العام ١٩١٤ اثنان كانا من النشيطين المتحمسين للمشروع الصهيوني : الخواججا ابري والياس افندي فراحي . وقد تحولت بعض دروس العربية التي اعطاها السكاكيني للخواججا ابري الى مناقشات سياسية حول فلسطين والصهيونية . كما ناقش الاستاذ مع «تلميذه» هذا قضايا مهمة اخرى تتعلق بالتوراة والتاريخ ومكانة المرأة وغيرها . ويبدو من هذه الدروس واللقاءات المتكررة مع تلاميذه وبعض معارفه من اليهود ان السكاكيني ظل يميز بين موقفه السياسي الايدلوجي ضد الصهيونية وبين العلاقة الشخصية الانسانية . وقبل ان نتعرض لهذه المحاورات ومواقف السكاكيني من اليهود والصهيونية يجدر ان نعرف القارئ على هوية هذين التلميذين اللذين اخذا دروسا خصوصية في اللغة العربية .

في ١٧ اذار ١٩١٤ سجل السكاكيني بارتياح ان دروسه الخصوصية كثرت هذه الايام بحيث «استغرقت اوقات نهاري وليلي ، ولولاها لكنت ضقت ذرعا بالمعيشة لان دخلي من المدرسة قليل جدا لا يسد عوزا ولا يغني من جوع»^(٢٥) . ثم سجل تفاصيل دخله بالفرنكات في ذلك الشهر فبلغ المجموع ٢٢١ فرنكا منها دخل ستة دروس للخواججا ابري واربعة دروس لالياس فراحي . اما السيد فراحي والذي اسماه السكاكيني الياس افندي فهو المحامي الياهو فراحي الذي يلف الغموض معرفتنا باصوله وحياته واعماله . وما نعرفه انه كان من اوائل المحامين اليهود في القدس عشية الحرب العالمية الاولى وانه عمل مستشارا قضائيا مع شركة الاستيطان اليهودية «يكا» (JCA=Jewish Colonization Association) التي نشطت مع غيرها من

المؤسسات والشركات الصهيونية في شراء الاراضي واقامة المستوطنات^(٢٦) . وعلى كل الاحوال فان دروس اللغة العربية التي تعلمها فراجي على استاذة لم تتحول الى مناقشات ومحاورات سياسية وثقافية كما حصل في حالة دروس «الخواججا ابري» . لذا فان يوميات السكاكيني لا تساعد القارئ التعرف اكثر على السيد فراجي هذا ولا على اعماله وآرائه .

اما الخواججا ابري فهو بنيامين بن يسرائيل برشطين (Baørstein) الذي ولد في روسيا لعائلة ميسورة الحال العام ١٨٧٠ ، تنقل في شبابه بين جنيف وبرلين وباريس حيث اكمل دراسته فتعرف على هرتسل وغيره من زعماء الحركة الصهيونية خلال تلك الفترة (١٨٩٥-١٨٩٨) . وفي العام ١٩٠٦ استقر في لندن حيث تقرب الى أحاد هعام (١٨٥٦-١٩٢٧) احد مفكري الحركة الصهيونية البارزين . وفي لندن كما يبدو اتخذ برشطين لنفسه اسما جديدا هو «عبري» (وبالانكليزية Ibray) وحصل العام ١٩١٢ على جنسية بريطانية^(٢٧) . ثم رحل «عبري» الى فلسطين في بداية آذار ١٩١٣ حيث تنقل من مدة لآخرى بين يافا والقدس . وقد وصل عبري الى القدس في بداية العام ١٩١٤ حيث قضى بضعة اشهر في فندق «فاست» حيث علمه السكاكيني دروسا في اللغة العربية . وكان هذا التلميذ من محبي الكتب والمطالعة اتقن خمس لغات مما اوجد ارضية مشتركة للمناقشة والحوار مع استاذة الذي يصغره سنا . واهتمام «عبري» هذا باللغة العربية مثل فراجي لم يكن حبا بالثقافة فقط بل لتسهيل المهمة الجديدة التي اخذها على عاتقه بعد وصوله الى فلسطين الا وهي الاتصال بتجار الاراضي العرب^(٢٨) . اما اهم صفقة اراض قام بها بنيامين عبري (برشطين) فكانت شراء اراض في جبل المشارف (Mount Scopus) من السير جون جري هيل الانكليزي لاقامة مباني الجامعة العبرية .

تعكس اليوميات المنشورة في هذا المجلد العلاقة الانسانية المركبة التي ربطت السكاكيني مع «الخواججا ابري» الذي تعدت الصداقة التي نمت بينهما حدود العلاقة الرسمية بين الاستاذ وتلميذه . فعندما اكتشف السكاكيني ان تلميذه لم يكن متواجدا في فندق «فاست» «لانه ذهب الى يافا لاستقبال روتشيلد كبير اليهود في هذا العصر» اشار في يوميته ايضا الى مسألة نهوض الامة اليهودية وتنبيه شعورها الجنسي (القومي) ونزوعها الى اعادة حياتها الاستقلالية في فلسطين^(٢٩) . كما انه اشار بعدها بايام قليلة الى ان صديقه الحميم حسين افندي سليم الحسيني ، رئيس بلدية القدس ، قد اخبره «ان روتشيلد تبرع بألف ليرة مساعدة للمسلمين» . وان في نيته [اي حسين افندي] «ان يؤسس جمعية على شكل جمعية اتحاد الشبان المسيحية ، يسميها جمعية الناشئة الاسلامية»^(٣٠) .

وعموما فان مسألة الصهيونية وموقفه منها أشغلت السكاكيني مدة طويلة ، لكن يومياته في شهر شباط العام

١٩١٤ تعكس انشغاله بهذه القضية أكثر من اي وقت آخر ، فقد وجد في دروسه ومحاوراته مع تلميذه الخواجا إبري فرصة لتسجيل مواقفه من الصهيونية وخطارها وهي قضايا أشار إليها العديد من الباحثين الذين كتبوا عن حياة السكاكيني وأفكاره .

وظل السكاكيني في الايام المقبلة يفكر بمسألة نهضة الأمة العربية واسباب قوتها الكامنة مقابل الأمة اليهودية التي تحاول حركتها الصهيونية اقامة دولة مستقلة لها في فلسطين . وعاد الاستاذ لمناقشة الصهيونية مع تلميذه «عبري» مبينا له اسباب كرهه لهذه الحركة ومخططاتها التي «تريد نهوضها من وهدة الشقاء ودركات الضعف . . . على انقاض غيرها ، فباحلالها فلسطين كأنها احتلت قلب الأمة العربية»^(٢١) . والسكاكيني المنصف لا يكتفي بتسجيل رأيه وموقفه من الصهيونية بل ينقل لنا ايضا مواقف تلميذه الذي كان من مؤيدي الصهيونية الروحانية بقيادة احاد هعام^(٢٢) . فالسكاكيني لا يتمص في يومياته دور المبشر القومي والداعية فقط ، بل يحاور ويعرض مواقفه في نفس الوقت الذي يستمع ويتعلم . ثم يخلص بعد ذلك الى القول «ان احتكاكي بغيري ينير بصيرتي ويوسع معلوماتي ، لا بد لي من الدرس والمطالعة والوقوف على حقائق الامور في نطاقها . ولذلك عولت ان ابتاع دائرة معارف انكليزية ادفع ثمنها اقساطا ، وان اطالع بعض الكتب في اللغة الانكليزية»^(٢٣) . وبعد ان طالع بالفعل بعض الكتب الانكليزية والمترجمة لتوسيع معارفه ومداركه كتب السكاكيني في يومياته : «لا أقرأ كتابا في اللغة الانكليزية ، او في اللغة العربية مترجما عن الانكليزية وغيرها ، الا تكشف لي أسرار ارتقاء البلاد الغربية وتفوقها علينا بدرجات . في اللغات الأوروبية روايات عديدة لأكابر الكتاب ترمي الى أغراض مختلفة أخلاقية وعلمية (. . .) وكلها مكتوبة بلغة مفهومة منزعة من الحياة» . وفي مكان آخر يقول الاستاذ المستعد دائما للتعلم وأخذ الدروس العملية من الغير في سبيل نجاح نهضة امته انه «لكي تكون مدارسنا نافعة مفيدة يجب ان نزرع المدارس الاسرائيلية والاجنبية على اختلاف صبغاتها لنرى كيف يديرون مدارسهم وماذا يعلمون وكيف يعلمون وما هي الكتب التي يستعملونها»^(٢٤) .

وأخيرا تجدر الإشارة ثانية الى الفرق الكبير في العلاقة التي تطورت بين السكاكيني وتلميذه «الخواجا إبري» مقارنة بعلاقته مع تلميذه الياس افندي فراجي . فعدا ذكر معلومة اعطاء دروس اللغة العربية للسيد فراجي من حين لآخر فان اليوميات لا تورد شيئا يذكر عن اي نقاشات او محاورات تخللت تلك الدروس . اما «الخواجا إبري» فعدا المناقشات لمواضيع مختلفة مع السكاكيني فان علاقة مودة اخذت تتطور فيما بينهما . فقد ذكر الاستاذ في يومياته بصراحة بعد انتهاء احد الدروس ما يلي : «كل يوم تستحکم المودة بيني وبينه» . حتى ان التلميذ سمح لنفسه القول لاستاذ «متى اخذت بيتا (في القدس) هيأت لك أركيلة ، فتجيء وندخن وتباحث وتقرأ . . .»^(٢٥) . وتجدر الإشارة هنا الى ان علاقات السكاكيني مع مثقفين يهود

في القدس تعدت تلاميذه الذين درسوا عليه اللغة العربية العام ١٩١٤ ، كما ان آخرين اخذوا عنده دروسا خصوصية في اللغة العربية بعد الحرب العالمية الاولى ايضا ، ولما كان المجال لا يتسع هنا لذكر كل هذه العلاقات فاننا سنشير فيما يلي فقط الى احدى تلك العلاقات المهمة مع السيد أتر ليفين .

٤ . محنة السكاكيني مع أتر ليفين

كان أتر ليفين ناشطا صهيونيا يسكن القدس ، اجاره السكاكيني في بيته عشية سقوط المدينة بايدي الانكليز ما ادى بالاثنين معا الى دخول السجن ثم المنفى في دمشق ، لا نعرف متى بدأت العلاقة بينهما ولكن السكاكيني يروي في يوميات هذا المجلد تفاصيل محنته مع صديقه ليفين . لقد عرف السكاكيني ان الحكومة العثمانية «اعلنت عن ضرورة تسليم المواطنين الامريكان انفسهم خلال اربع وعشرين ساعة ، ومن لا يسلم نفسه يعتبر جاسوسا ، ومن خبا امريكا عمدا او بلا عمد يعتبر جاسوسا ايضا»^(٣٦) . ولما طرق ليفين باب بيت صاحب اليوميات مستجيرا مستغيا قرر هذا اجارة صديقه رغم علمه خطورة عمله الذي قد يعرضه لحكم الاعدام . وفي ٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٧ اي قبل سقوط القدس بايدي الانكليز باقل من اسبوع طرق باب السكاكيني عارف بك رئيس شرطة المدينة ومعه عجوز يهودية جاءت تدل على البيت الذي اختبا فيه أتر ليفين . وبقية قصة دخول ليفين والسكاكيني السجن ونقلهما الى دمشق حيث قضى صاحب اليوميات شهرا وستة ايام في السجن ، اطلق سراحه بعدها على ان يبقى منفيا في تلك المدينة ، والقصة معروفة ومذكورة في هذا المجلد بتفاصيلها^(٣٧) . فمن هو أتر ليفين هذا؟

أتر ليفين ، هو اساف هليفي (١٨٨٣-١٩٣٣) مقدسي ، هاجر الى فلسطين مع عائلته من روسيا العام ١٨٩١ وعمل وكيلا لشركات تأمين عالمية . كان ليفين على علاقات متشعبة مع قنصل امريكا والقنصل الاسباني وغيرهما فاتهمته الحكومة العثمانية بالجاسوسية اضافة الى كونه مواطنا امريكيا لم يسلم نفسه للسلطات بعد ان دخلت الولايات المتحدة الحرب الى جانب دول الحلفاء^(٣٨) . ولا يخبرنا السكاكيني متى وكيف تعرف على أتر ليفين ولذا تبقى بداية العلاقة بينهما غامضة . لكننا نعرف ان ليفين كان شاعرا ومثقفا قرا كثيرا واتقن عدة لغات اوروبية اضافة الى اللغة العبرية . ولم يتنكر السكاكيني لعلاقته بالتر ليفين حتى بعد خروجه من السجن وبقاء رفيقه داخله لعدة اشهر اخرى فقام بزيارته عدة مرات . ثم حافظ الرفيقان على علاقتهما بعد خروج ليفين من السجن في دمشق وانتقاله من هناك الى حلب ومدن اخرى . ثم استمرت العلاقة بينهما في القدس ايام الانتداب البريطاني ولم يتنكر السكاكيني لعلاقته مع أتر ليفين ولم يندم على اجارته له رغم ما جلبته هذه العلاقة من سجن ومنفى في دمشق بعيدا عن عائلته واحبابه . وعندما وضع

ليفين حدا لحياته العام ١٩٣٣ بالانتحار كتب السكاكيني لابنه سري ما يلي :

«إذا وصلتك جريدة «فلسطين» فلا بد انك عثرت فيها على خبر انتحار يهودي متمول . أتعرف من هذا اليهودي المتمول؟ هو رفيقي في السجن المستر أتر ليفين الذي لجأ إلي في اواخر ايام الترك في القدس قبلته ، فتعقبوه فوجدوه فأخذوه وأخذوني معه الى السجن ثم نقلونا الى دمشق مكبلين . مسكين ، لقد أسفت عليه كثيرا فقد كان شاعرا في اللغة العبرانية وله ديوان او ديوانان . وكان مهذبا يجيد اللغة الافرنسية والانكليزية والالمانية والعبرانية وكانت مكتبته من اعظم المكاتب في فلسطين . وكان كثير المطالعة . ولم يكن يلقاني الا حتى رأسه اجلالا لأنني خاطرت بنفسي قبلته في بيتي على حين انه طرق بيوتا كثيرة من بيوت قومه فلم يقبلوه . يقولون انه انتحر لاسباب عائلية . لو تأخر الانكليز قليلا عن دخول القدس لكان نصيبي ونصيبه المشنقة . هذا الرجل الذي نجا من مشنقة الاترك شفق نفسه بيده فلا حول ولا . فر من الموت وفي الموت وقع رحمه الله^(٣٩) .

ويبقى بعض الغموض يخيم على هذه العلاقة القوية التي ربطت السكاكيني بالتر ليفين والتي قد تكون الثقافة والمطالعة وحب الكتب قواعدها الاساسية . كما ان غموضا أكبر يلف شخصية أتر ليفين هذا وعلاقاته المتنوعة مع قناصل الدول الاجنبية وزعماء الحركة الصهيونية . هذا الغموض هو الذي دفع احد رجال المخابرات الاترك (عزيز بك) الى ان يذكر في مذكراته ان الجاسوس الأهم والأكبر الذي افاد الانكليز في الحرب العالمية الاولى هو «أتر ليفي» وليس شبكة الجاسوسية اليهودية المسماة «نيللي» بقيادة أرونسون^(٤٠) . وحسب راي عزيز بك فان أتر الذي تنقل في مدن الشرق الرئيسية اقام فيها شبكة من بيوت الدعارة كان يحصل عن طريق العاملات فيها على معلومات مخابراتية مهمة^(٤١) . ويظهر ان ممدوح عدوان الذي نشر مؤخرا رواية «أعدائي» قد قرأ مذكرات عزيز بك واستفاد منها مثل اعتماده على يوميات السكاكيني ومذكرات نجيب نصار وغيرهما لحبك روايته المشيرة بشخصياتها المتعددة التي تصدرها أتر ليفي الجاسوس الماكر وعارف بك الفلسطيني ، ضابط الشرطة الوطني المتقاني في خدمة الدولة والوطن حتى اللحظات الاخيرة للحكم العثماني في فلسطين وبلاد الشام^(٤٢) .

ورواية ممدوح عدوان «أعدائي» تعالج جذور الصراع الفلسطيني الاسرائيلي خلال السنوات الاخيرة للدولة العثمانية ايام الحرب العالمية الاولى . والرواية كما هو معروف لا تكتب تاريخا دقيقا او «موضوعيا» معتمدا على وثائق السلطة وارشيفاتها . فالعمل الادبي يسمح لنفسه ان يحلق فوق قيود الواقع وسلطاته فيسائل الحاضر وحكامه باضاعة جوانب جديدة وشخصيات فذة ومغمورة من الماضي . والرواية كما يقول دراج في تحليله لعمل ممدوح عدوان تسمح لنفسها «ان تقول ما لا يرغب المؤرخون بقوله ، وما شاء الروائي

ان يقوله في «موضوع تاريخي»^(٤٣). ويحلل دراج رواية «اعدائي» فيجدها اطروحتان مهمتان تتعدى حكمتها حدود مكان الرواية وزمانها ، وتصل الزمن الحاضر بالماضي الغابر . تقول العبرة الاولى : يضع المستبد داخله كل شيء ولا يترك لخارجه شيئا . ينتبه الى ما يحميه ويلتف ما تبقى . يهدم المستبد معنى التاريخ وهو يقوض القيم لأن في تكوين الاستبداد وبنية ما يبده قيم الحرية والعدالة والمساواة . وتقول الثانية : العداء الجوهرى الوحيد في نظام الاستبداد هو القائم بين المستبد والرعية . يرى الاول في الخارج عدوا له ، وترى الرعية في المستبد عدوا لها^(٤٤) .

يضيق المجال هنا حتى أي محاولة لتحليل رواية ممدوح عدوان وربط شخصياتها الروائية التاريخية ، صهيونية كانت ام عربية واجنبية مع الشخصيات الحقيقية التي ورد ذكرها في يوميات السكاكيني . ويكفي هنا ان نكرر ما ذكرناه سابقا ان الرواية تسمح بقراءة «أكثر تحررا» من قيود الايدلوجية والسلطات المستبدة وتخلط اوراق الماضي بالحاضر بشكل يمكن القارئ معاينة التاريخ بشكل خلاق يحرر ذهنه ووعيه من القوالب الجاهزة التي تختزل التاريخ وشخصياته وتجسها في قوالب عقائدية جاهزة . هكذا تغني الرواية احيانا قراءتنا لاحداث التاريخ وتضيء جوانب مغيبة في دراسات المؤرخين . كما يستعين العمل الادبي بشخصيات واحداث تاريخية ليمرر الى قرائه عبرا واطروحات يستعصي التعبير عنها بطرق اخرى بسبب الرقابة والحصار الذي تفرضه السلطة على المعلومات وعلى حريات الفكر والتعبير .

لكن الرواية مهما كانت راقية وخلاقة لا تشكل بديلا عن كتابة التاريخ ، فالعمل الأدبي يستفيد من احداث التاريخ وشخصياته ويسمح للخيال الابداعي ان يمتزج مع الوقائع ليقدم قراءة الروائي لآحداث الماضي المتصلة بهوم الحاضر . أما المؤرخ فتحكمه في عمله قواعد الكتابة التاريخية ومنهجها فيحاول قدر المستطاع ان يعيد بناء الاحداث التاريخية على أساس الوثائق والمصادر المتوفرة . وبينما يخلق الروائي فوق قيود السلطة والوقائع دون ان يحاسب على ذلك او يحسب عليه ، فان المؤرخ يجب ان يدعم ما يقول عن احداث الماضي وشخصياته بتوثيق لا مجال للشك فيه او الخيال . فمن هو التريلفين (ليفى) اذا؟ سؤال مثير ، قدمت الرواية اجابة معينة عليه اعتمادا على مصادر تاريخية منها يوميات السكاكيني ومذكرات لآخرين عاصروه . وبقى ان يحاول المؤرخون اعطاء اجابات اخرى تكشف الستار عن هذه الشخصية التي تقاطع مسلكها مع طريق السكاكيني فسارا معا الى السجن والمنفى . وكما شكلت اليوميات (ومذكرات عزيز بك) مصدرا والهاما لرواية عدوان يجدر ان يكون في نشرها كاملة محفزا لايحاث ودراسات تاريخية جديدة تضيء جوانب اخرى من احداث وشخصيات ذلك العصر وتجلو عنها بعض الغموض الذي ما زال يلفها حتى الآن .

كان السكاكيني قد وصل سن الأربعين حينما انتهت محنته في السجن ثم المنفى في دمشق العام ١٩١٨ ،

ثم خرج من هناك ملتحقاً مثل غيره من القوميين العرب بقوات الشريف حسين واولاده الذين تعاونوا مع بريطانيا في سبيل التخلص من الحكم العثماني . ومع دخول السكاكيني عقده الخامس وعودته الى فلسطين التي وقعت تحت الحكم البريطاني تبدأ مرحلة جديدة في حياة صاحب اليوميات تغطيها المجلدات التالية . وللخلاصة ، فان هذا المجلد الثاني يفتح امام القراء فرصة التعرف على تفاصيل مهمة من حياة السكاكيني في مرحلة الانتقال من جيل الشباب الثائر والمغامر الى مرحلة النضوج والكهولة . اما في الحيز العام فان هذا المجلد من اليوميات يفتح نافذة مهمة يمكن الاطلاع منها على نبض الحياة اليومية في القدس ودمشق قبيل افول نجم آخر الامبراطوريات الاسلامية عن المنطقة العربية . وقد اكتشف السكاكيني مثل غيره من القوميين العرب بعد حين ان بريطانيا العظمى لم تأت الى المنطقة العربية لتحرر شعوبها من «الاستبداد التركي» ، وانما بسبب اطماعها ومصالحها الاستعمارية . كما ان سياستها المؤيدة للصهيونية في وعد بلفور وأسس حكومة الانتداب لم تكن سهوا ولا هفوة عابرة بل سياسة ثابتة للغرب الاستعماري منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا .

الهوامش

- ١ . كتاب عبد الوهاب الكيالي ، تاريخ فلسطين الحديث ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٠ ، هو نموذج جيد لتلك الكتب . فقد طبع منذ نشره اول مرة عدة طبعات متتالية وتلמד عليه عدد كبير من طلبة الجامعات . ومعظم الكتب التي عالجت تاريخ فلسطين الحديث بعده سارت على نفس الطريق فعززت من المواقف التعميمية السلبية من الحكم العثماني دون دراسة او تدقيق علمي في الحقائق التاريخية .
- ٢ . ومن الكتب المليئة بتلك المواقف النمطية السلبية من العهد العثماني ما يعالج منها تاريخ الثقافة او الصحافة او شخصيات معينة عاصرت اواخر العهد العثماني . مثال على ذلك كتاب يوسف حداد ، خليل السكاكيني : حياته ، مواقفه وآثاره . الناصرة : جمعية الصوت ، ١٩٨٥ . وقد نشر المؤرخ الفلسطيني بشارة دومانى دراسة نقدية تحليلية جريئة لهذا الموضوع : Beshara Doumani, Rediscovering Ottoman Palestine: Writing Palestinians into History. Journal of Palestine Studies, vol .21, no .2 (Winter 1992) pp .5-28.
- ٣ . للمزيد في هذا الموضوع يمكن مراجعة : عادل مناع ، تاريخ فلسطين في اواخر العهد العثماني ١٧٠٠-١٩١٨ (قراءة جديدة) بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٩٩ ص ٢٥٨-٢٦٦ ومراجع اخرى ذكرت في هوامش تلك الدراسة .
- ٤ . كان جرجي زيدان (١٨٦١-١٩١٤) من اوائل العرب الذين كتبوا مذكراتهم قبيل الحرب العالمية الاولى . وقد كتب زيدان الذي هاجر من لبنان الى مصر هذه المذكرات العام ١٩٠٨ ولكن نشرها ووصولها الى المكتبة العربية تأخر كثيرا حتى العام ١٩٦٨ .
- ٥ . أشمل دراسة عن خليل السكاكيني وأوسعها حتى الآن باللغة العربية هي كتاب يوسف حداد المذكور أعلاه (هامش رقم ٢) . وقد صدرت منذ أواسط الثمانينيات دراسات أخرى نذكر منها كتاب اسحق موسى الحسيني ، خليل السكاكيني : الأديب المجدد ، القدس : مركز الأبحاث الاسلامية ، ١٩٨٩ . كما تمت ترجمة مقاطع واسعة من اليوميات التي صدرت في كتاب «كذا أنا يا دنيا» الى العبرية . القدس : كيتز ، ١٩٩٠ . وقد أضاف المترجم ، جدعون شيلو الى الترجمة ملاحظات

ومقدمة قيمة .

- ٦ . حداد ، ص ٩٩-١٠٠ .
- ٧ . أفضل دراسة كتبت عن هذا الموضوع وأشملها هي كتاب الكسندر شولش ، تحولات جذرية في فلسطين ١٨٥٦-١٨٨٢ ، عمان ، ١٩٨٨ . طبعة ثانية ، ١٩٩٠ . أيضا : مناع ، تاريخ فلسطين ، ص ١٦٥-٣١٠ .
- ٨ . بالاضافة الى شولش ومناع اللذين خصص كل منهما فصلا في كتابه عن يوسف ضياء الخالدي يمكن مراجعة عادل مناع ، أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني ، بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٩٥ وطبعة ثالثة ، ١٩٩٧ .
- ٩ . نفس المصادر أعلاه . وقد رد هرتسل على رسالة الخالدي بعد اسابيع قليلة محاولا تهدئة المخاوف من آثار المشروع الصهيوني على سكان فلسطين العرب ، مسلمين ومسيحيين قائلا ان هدف الصهيونية هو تطوير البلاد من اجل جميع سكانها .
- ١٠ . ناصر الدين الأسد ، محمد روجي الخالدي ، القاهرة : معهد البحوث ، ١٩٧٠ .
- ١١ . يمكن مراجعة تراجم عن كل واحد من هؤلاء الأعلام في كتاب مناع ، أعلام فلسطين المذكور أعلاه . وايضا : يعقوب العودات ، أعلام الفكر والأدب في فلسطين ، عمان ١٩٧٦ .
- ١٢ . مناع ، ص ١٩٢ .

١٣ . هناك أمثلة عديدة لذلك في أكثر من دراسة عن حياة السكاكيني ومواقفه وآثاره باللغة العربية قد يكون أبرزها ما ورد في دراسة يوسف حداد الشاملة المذكورة أعلاه . انظروا مثلا حداد ، ص ١٤-١٥ ، ١٠٥-١٠٦ ، ١٢٢-١٢٤ وغيرها .

١٤ . هذا المجلد الثاني من اليوميات ، ص ٧٣ .

١٥ . بالاضافة الى ما ذكره السكاكيني نفسه في يومياته عن هذا الموضوع وتطرق الباحثين الذين كتبوا عن حياة السكاكيني ومواقفه مثل يوسف حداد وغيره الى هذه القضية يمكن ايضا مراجعة الأبحاث التي كتبها :

Daphne Tsimhoni: The British Mandate and the Arab Christians in Palestine 1920-1925.

Ph .D . thesis, SOAS, University of London, 1976.

وأيا :
:

D . Tsimhoni :The Arab Christians and the Palestinian Arab National Movement during the Formative Stage . in G . Ben-Dor ,ed, The Palestinians and the Middle East Conflict .Tel Aviv, 1978 (pp . 73-98.)

١٦ . المجلد الثاني من يوميات السكاكيني ص ٨٧ . وقد عبّر السكاكيني عن شعوره هذا بالاغتراب حتى الاشمزاز مرات أخرى في يومياته . فمثلا سجل في يومية ٧ شباط ١٩١٥ ما يلي : «لا يمر يوم الا زاد ضجري من الحياة . لا أجالس أحدا الا رأيت نفسي غريبا عنه ، ولا يقع نظري على شيء الا اشمازت نفسي منه» . ص ١٥٥ .

١٧ . معظم الدراسات التي كتبت عن السكاكيني باللغة العربية تتجاهل مشاعر السكاكيني بالاغتراب ولحظات يأسه وقتوته من الحياة والمجتمع وتشدد على قامته المنتصبه دائما وتقاؤله في أحلك اللحظات في السجن والمنفى وغير ذلك . وقد دفعته مشاعر الاغتراب واليأس تلك الى التفكير بالهجرة أكثر من مرة الى مصر وغيرها . وعندما قبع في سجنه بدمشق مثلا فكر ثانية بالهجرة الى امريكا «فاني وان كنت أحب القدس وقد عشت فيها دهرا طويلا سعيدا ، الا اني لا أحسن من نفسي الا اني غريب فيها ، سيكون اول ما أهتم به بعد الحرب ان عشت ان أقوض خيامي واحمل عائلتي وهاجر الى امريكا» يومية ٢٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٧ ، صفحة ٢٠٥ ، في هذا المجلد .

١٨ . المجلد الثاني من يوميات السكاكيني ، ص ١٠٤ .

١٩ . نفس المصدر ، ص ١١١ .

٢٠. هناك، ص ١٤٢.

٢١. هناك، ص ١٥٧.

٢٢. هناك.

٢٣. حداد، ص ٦٤-٦٥، ١٣٠-١٣٣. نبيل خالد الآغا، وجوه فلسطين خالدة. عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢، ص ٩٤-٩٥.

٢٤. مناع، تاريخ فلسطين، ص ٢٥٠-٢٥٨ وللتوسع أكثر في هذه المسألة يمكن مراجعة:

N. Mandel, The Arabs and Zionism before World War I. London, 1976.

٢٥. المجلد الثاني من يوميات السكاكيني، ص ٨١.

٢٦. جاد فرومكين، مسلك قاضي في القدس تل اييب، ١٩٥٤ (بالعبرية) ص ١. يذكر هذا القاضي في مذكراته انه بعد تخرجه من كلية القانون وعودته الى القدس ليعمل محاميا في أواخر العام ١٩١٤ لم يجد في المدينة قبله الا أربعة محامين هم: علي أفندي جار الله، ونجيب أبو صوان واثان من اليهود احدهما الياهو فراجي الذي عمل مستشارا قضائيا لشركة «بيكا» الاستيطانية. ٢٧. جدعون شيلو «درس في الصهيونية: احجية اختفاء الخواجا عبري» مجلة كاتدرا، عدد ٥٨، كانون الاول (ديسمبر) ١٩٩٠، ص ٨٤-١١٠ (بالعبرية).

٢٨. نفس المصدر، ص ٩٤-٩٥.

٢٩. هذا المجلد الثاني من يوميات السكاكيني، ص ٥٥.

٣٠. هناك، ص ٥٩.

٣١. هناك، ص ٦١ وانظروا ايضا ص ٥٧-٥٨، ٥٩-٦٠.

٣٢. إحداد هعام (١٨٥٦-١٩٢٧) هو آشر تسفي غينزبرغ أحد ابرز الفلاسفة اليهود الصهيونيين والذي يعتبر مؤسس ما يسمى الصهيونية الثقافية او الروحانية. وقد انتقد إحداد هعام بشدة المستوطنين اليهود الأوائل بعد اول زيارة قام بها الى فلسطين العام ١٨٩١ وسجل انتقاداته تلك في رسالة كتبها عن انطباعاته في هذه الزيارة. وتجدر الإشارة هنا الى ان احد انتقادات إحداد هعام للمستوطنين الأوائل كانت انعزالهم عن العرب وعدم تعلمهم اللغة العربية «لا يوجد بيننا حتى الآن ولو شخص واحد موثوق به، يعرف على الأقل قراءة العربية كما ينبغي». ثم اضاف في تعليقه على استعلاء المستوطنين ومواقفهم من العرب «ساد لدينا الاعتقاد خارج البلد بأن العرب جميعهم متوحشون صحراويون، شعب يشبه الحمير، لا يرون ولا يفهمون ما يدور حولهم، ولكن هذا خطأ كبير. لأن العرب، خصوصا سكان المدن، يرون ويفهمون نشاطنا وأهدافنا في البلدان ولكنهم يسكتون ويتظاهرون كأنهم لا يعلمون». للمزيد في هذا الموضوع يمكن مراجعة كتاب صبري جريس، تاريخ الصهيونية. الجزء الأول، القدس، ١٩٨٧.

٣٣. المجلد الثاني من يوميات السكاكيني، ص ٦٢ وكذلك ص ٧٤.

٣٤. نفس المصدر، ص ٨٥.


٣٥. هناك، ص ٧٣.

٣٦. هناك، ص ٥٩.

٣٧. تجدر الإشارة هنا الى ان المؤرخ توم سيغف الذي سمح له الاطلاع على اليوميات الكاملة قبل سنوات عالج في كتابه عن فلسطين فترة الانتداب العلاقة بين التريفيين والسكاكيني بتوسع:

Tom Segev, One Palestine Complete: Jews and Arabs under the British Mandate. New York: Metropolitan Books, 2000.

- ٣٨ . نشر سيفغ كتابه المذكور أعلاه باللغة العبرية العام ١٩٩٨ قبل نشره باللغة الانكليزية . سيفغ (بالعبرية) ص ١٩ - ٢٠ .
- ٣٩ . خليل السكاكيني ، كذا أنا يا دنيا ، القدس ١٩٥٥ . طبعة ثانية ، بيروت ، ١٩٨٢ . ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .
- ٤٠ . عزيز بك ، الاستخبارات والجاسوسية في لبنان وسورية وفلسطين خلال الحرب العالمية الاولى ، بيروت ، ١٩٣٧ . وكانت طبعة سابقة من هذا الكتاب قد صدرت قبل ذلك في بيروت العام ١٩٣٣ بعد ان نشرت على مراحل في الصحيفة البيروتية «الاحرار» .
- ٤١ . مسألة مدى دقة المعلومات الواردة في مذكرات عزيز بك مفتوحة للنقاش والبحث والتدقيق . من ناحية اخرى تجدر الاشارة هنا الى ان رسالة ماجستير قدمتها دانيلا راينغ في جامعة حيفا مؤخرا كشفت عن حقيقة ان الوكالة اليهودية كانت وراء اقامة شبكة واسعة من بيوت الهوى والدعارة التي شغلت آلاف المضيفات خاصة في منطقة تل ابيب خلال سنوات الحرب العالمية الثانية . وكانت الوظيفة الأساسية لتلك المضيفات تسلية ضباط وجنود الجيش البريطاني وحلفائه الذين رابطوا في فلسطين ووصل عددهم حوالي مائة الف جندي . داليا شحوري «قيادة الشوف تطلب من بنات اسرائيل تسلية جنود الانتداب» صحيفة هآرتس ، ١١ نيسان ٢٠٠٤ ، ص ٧ ب .
- ٤٢ . ممدوح عدوان ، أعدائي ، رواية ، بيروت : دار الريس ، ٢٠٠٠ .
- ٤٣ . فيصل دراج ، الرواية وتاويل التاريخ : بيروت والدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي ، ٢٠٠٤ ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .
- ٤٤ . دراج ، ص ١٠٨ .



الفصل الأول

النهضة الارثوذكسية، الأسرة و«المدرسة»

كانون الثاني سنة ١٩١٤

الخميس ١ و١٩ و٣ صفر^(١) عيد الختانة^(٢) (غ)

قمنا صباحاً باكراً جداً وذهبنا أنا وميليا وعز الدين ومنانة وعفيفة وأمين صيداوي وميري فراج وذهب معنا موسى فيضي العلمي^(٣) وأخته نعمتي إلى البقعة حيث نزل الطيار الافرنسي بوتيه، وذلك بجانب القصر الخرب على طريق بيت لحم وقد خرجت القدس بأسرها لوداعه .
كما خرجت عصر أمس الساعة الثالثة والنصف لاستقباله وقد كان عن حضوره عدة فوائد لا بأس من الإشارة إلى بعضها هنا منها :

(١) كثيرون مثلي كانوا منهمكين في أمور كثيرة تتجاوزهم الأشغال والشواغل من كل جانب لا يرتاح لهم بال ولا يطمئن بهم خاطر، فلما جاء الطيار ترك كل واحد همومه وشواغله ولو إلى وقت قصير وانصرفوا إلى التحدث بأمر الطيار والاعجاب به والثناء على جرأته إلخ .

(٢) تولدت في الصدور عواطف جديدة سامية وحدثت في المدينة حركة فكرية، الواحد يقول: يجب أن نطأطئ الرؤوس أمام العلم والآخر يقول: حتى كم نحن في خمول، والآخر: ماذا استفدنا من علومنا وتهافتنا على درس اللغة العربية والتجمل بظواهر المدينة إلى غير ذلك، فكان روحاً سماوية هبت على القدس رفعت الناس ولو إلى وقت قصير من الدرك الأسفل إلى الجو الأعلى .

(٣) اضطر الناس في مثل هذا اليوم الجديد من السنة الجديدة إلى الخروج باكراً من أوكارهم الحقيرة إلى الطبيعة الجميلة مشياً على الاقدام مسافة ليست قليلة، يستنشقون الهواء النقي الممزوج بأنفاس سماوية عطرة، فكان هذه الطيارة كانت رسول هذه السنة الجديدة فجعل الناس هذا النهار نيروزا احتفالاً بسنتهم القادمة . . إلى غير ذلك من الفوائد التي لا يتسع هذا المجال لتعدادها ، وعند الساعة التاسعة أدار الطيار آله فجعلت تدرج على الأرض ثم ارتفعت في السماء فهتف الناس وعزفت موسيقى [المدرسة] الصلاحية . . . ولولا حرصي على أن يكون هذا النهار عيداً سعيداً لكنت أشرت هنا إلى ما تم من أمر النهضة الأرثوذكسية ولكن غدا لناظره قريب . . . اعتمدت أن أخصص يومية لسري أذكر فيها كل ما يتعلق به . جاءني اليوم قصيدة تهنته بسري من نظم الشيخ علي أفندي الريماوي .

(١) نبه هنا إلى أن السكاكيني يعتمد في العادة أكثر من تقويم، والإشارة هنا مثلاً إلى (١) كانون الأول وفق التقويم الميلادي الشرقي، (١٩) منه وفق التقويم الميلادي الغربي، و (٣) صفر وفق التقويم الهجري، وهكذا، كما ان السكاكيني لا يعتمد شكلاً وترتيباً موحداً لهذه التقويمات فأبقيتها كما جاءت في الأصل .

(٢) عيد ختانة السيد المسيح .

(٣) موسى فيضي العلمي: ١٨٩٧-١٩٨٤ مفكر وسياسي ومحام مقدسي، كان والده رئيس بلدية القدس من ١٩٠٤ - ١٩٠٩ ونائباً في «المبعوثان» . درس في كمبريدج . كان من المنظرين للقضية الفلسطينية . حافظ على سمعته كمنكسر . حاول في وقت مبكر مأسسة مقاومة بيع الأراضي للصهاينة . صاحب كتب نقدية تحليلية مبكرة وعميقة في التاريخ الفلسطيني . تركز دوره في السياسة الخارجية .

الجمعة ٢ و ٢٠ ك ١٩١٤ / ٤ صفر

النهضة الأرثوذكسية : نزلت إلى البلد فذهبت إلى مكتب جورجي زخريا فقال : انتظرتك فلم تجيء فاضطرت أن أذهب وحدي لمواجهة عزمي بك وقد كلفت يوسف العيسى ليذهب معي فرفض . قال لي عزمي بك : كونوا مطمئنين ففي يومين أو ثلاثة أنهي مسألتكم ، لم أفهم لماذا رفض يوسف العيسى الذهاب معي لعله يحب أن يفاوض عزمي بك وحده ، أو لعله سمع شيئا يكرهه عنا أو لعل له مآرب أخرى مما اشتمت منه أن يسيء الظن به فذهبت أفتش عن يوسف العيسى ، فسألته لماذا لم يذهب مع جرجي زخريا ، فقال : قابلت عزمي بك ، فقال : لي إن الرهبان لا يفتحون المجلس المختلط^(٤) إلا إذا بدل الأعضاء القدماء كلهم ومن جملتهم عضو يافا وانهم يرفضون تأسيس مدرستين عاليتين للصبيان والبنات في يافا ، وقد فهمت منه أنه يعتقد أن جرجي زخريا هو الذي يعارض في ذلك ، ثم تركته وذهبت لمواجهة رئيس البلدية [حسين أفندي سليم] ، فجاء جرجي زخريا ، فقال حسين أفندي سليم إنه كان عند عزمي بك وكان هناك المتصرف فجعلنا يجاملان الواحد الآخر ويتبادلان الثناء على حل المسألة الأرثوذكسية مما فهمت منه أن المسألة تكاد تنتهي وأما تفاصيل حلها فلم أعرفها . وبعد الظهر اجتمع يوسف بجرجي واطلع الأول الثاني على ما بلغه من لسان عزمي بك فقررنا أن نواجه عزمي بك غدا ونعرض على تحامل الرهبان على يافا وبذل الوسع في بقاء نصف الأعضاء القدماء في المجلس المختلط هذه السنة وفي تأسيس مدرستين في يافا . التقيت بعلي أفندي جار الله وعرضت عليه فكرة عرض ميزانية المدرسة عن سنتها الماضية على المجلس العمومي والطلب منه أن يخصص مساعدة مالية لمدرستنا ، فاستحسن ذلك ، وقال : قد تكلمت بهذا الخصوص مع بعض أعضائه . ذهبت اليوم سلطانة مع سري لزيارة المستشفى الإنكليزي فسروا بسري كثيرا .

تحدثني نفسي إذا لم تنته المسألة الأرثوذكسية في مدة عطلة عيد الميلاد انصرفت إلى الاهتمام بمدرستي .

السبت ٣ و ٢١ ك ١٩١٤ / ٥ صفر

ذهبت أنا وجرجي زخريا وأنضوني الغوري لمواجهة عزمي بك ، ونحن هناك جاء الرهبان لمواجهة فلم يكن معه وقت طويل لمفاوضتنا ، اعترضنا على إخراج أعضاء المجلس المختلط الثلاثة القدماء والتمسنا منه أن يكون نصف الأعضاء من القدماء والنصف الآخر من الجدد حسب قرار مجلس الوكلاء ، فقال : لا سبيل إلى ذلك وقد أرغمت الرهبان على أشياء كثيرة فيجب أن تتساهلوا أتم في هذه ولا سيما وهي من الأمور الثانوية ، ثم التمسنا منه أن يقرر فتح مدرستين عاليتين للصبيان والبنات في يافا فوعد أن يبذل وسعه

(٤) المجلس المختلط : تابع للطائفة الأرثوذكسية ، يضم رجال دين وعلمانيين من الطائفة .

في ذلك . ثم رجعنا إلى مكتب جورجي زخريا وكان هناك نواب الأبرشيات و[المناطق السكنية] عدد من أفراد الملة الأرثوذكسية في القدس فجعلوا يتناقشون في عضوية المجلس المختلط ، الأعضاء الجدد يعترضون على اعتبار آخر المدة شهر آب لأنهم بذلك يخسرون حقهم في بضعة أشهر ، لأن لهم الحق في خدمة سنة كاملة ، مما اشمازت منه نفسي لأنهم أظهروا بذلك أنهم إنما يقاتلون لأجل منافعهم الشخصية . ظهر لي من يوسف العيسى أنه إذا قرّر إخراجه من المجلس المختلط حاول أن يقيم العثرات والصعوبات في وجه تنفيذ القرار وفض المشكل . لا يزال يعتقد أن لجرجي زخريا يداً في ذلك كله .

خطر لي اليوم فكرة نقل المدرسة الدستورية إلى يافا لقلّة المدارس فيها فلا بدّ أن أصادف هناك إقبالاً عليها ولا سيما من قبل الإسلام . استشرت يوسف العيسى في ذلك فقال : نسعى أن نجعل المجلس البلدي يُخصّص لك مساعدة بدلاً من القيمة التي كتّ تأخذها من المجلس البلدي هناك . سأفكر بهذا ملياً والأمور مرهونة بأوقاتها . . . لقيت مس بست Miss Best فقالت لي : إنها ستوقف دروسها الآن إلى مدة ثلاثة أشهر فأكون قد خسرت بذلك نحو عشرين فرنكاً في الشهر . في المساء عقدنا اجتماعاً ملياً في بيت قسطندي الخوري وكان الحاضرون كثيرين ، ممّا قدّرت معه أن هذه الاجتماعات ستبعث الحياة في النهضة ، ولذلك سأواصلها مساء كل سبت . فهمنا اليوم أن القومسيون سيبلغنا غداً أو بعده أن نباشر الانتخاب للمجلس المختلط ومجلس المتولية .

الأحد في ٤ و ٢٢ ك ١٩١٤ / ٦ صفر

يوسف العيسى يعتقد أن جرجي زخريا هو الذي دبر [أمر] إخراجه من المجلس المختلط ليخلو له الجو فيه ويتلعب بأعضائه الجدد البسطاء . فهو ينوي أن يعترض على ما يُقرره القومسيون^(٥) جاءني اليوم صباحاً جميل الزنانيري من قبل جرجي زخريا يعرض عليّ أن أقبل أن أكون في نظارة المدارس . وقال : إن جرجي زخريا سيطلب أن يكون يوسف العيسى في هذه النظارة تعويضاً له عن عضوية المجلس المختلط وتطيباً لخاطره وإرضاءً لأهل يافا . . . فإن صحّ رأي يوسف العيسى في ما يعتقد في جرجي زخريا ، فعرض نظارة المدارس عليّ وعليه مما يصحّ أن يكون دليلاً عليه ممهداً للشبهة فيه زرت حسين أفندي سليم فعرضت له بتحمل الرهبان على يافا بمحاولتهم إخراج يوسف من المجلس المختلط وحرمان يافا من المدرستين العاليتين للصبيان والبنات ، فقال : قد ارضوا يوسف اليوم بفتح المدرستين في يافا وغير ذلك ، ثم استشرته فيما طلبناه من القومسيون من أن يطلعنا على قراراته قبل تبليغنا إياها سلفاً لعل هناك ما يحتاج إلى

(٥) يفهم من السياق ان الحديث يدور عن لجنة او هيئة حكومية لها علاقة بالانتخابات ، وفض الخلافات بين الملة والكيسة .

تعديل ، فكان من رأيه أن لا نفتح هذا الباب لئلا تكثر المناقشات والاعتراضات بما يخشى منه أن يشوش العمل أو يؤدي إلى إبطال كل القرارات . . . أرسل القومسيون إلى غزة وبيت جالا ل ينتخبوا عضوين للمجلس المختلط وربما بلغونا غداً ، وقيل إنهم عينوا القائم مقام^(٦) وبشارة حبيب للمشاركة على الانتخاب في القدس . التقيت بجرجي زخريا قرب المساء فعرضت عليه أن نُجري الانتخاب قبل أن نطلب الاطلاع على قرارات القومسيون ، وأن الأولى أن لا نفتح هذا الباب فتوهم أن يوسف العيسى أو عز إليّ بذلك ، فقال : أنا لا أكون تحت أمر يوسف العيسى إذا رضي نرضى وإذا أبي أبينا ، فعنفته على ذلك . . . زرت يوسف العيسى في المساء فوجدت عنده عودة السالم وسلطي الإبراهيم فجعلوا يتناولون القدسين بكلامهم بأنهم استأثروا بفوائد النهضة ، ولم يُبالوا بأحد غيرهم ، فاستأت من ذلك لأنه ظهر لي أنهم إنما استأثروا لأن أحدهم عودة السالم سيخرج من المجلس والثاني سلطي الإبراهيم سيخدم سبعة أشهر لا سنة كاملة ، وإلا لكانوا راضين مسرورين .

الاثنين ٥ و٢٣/١٩١٤ و٧ صفر

اليوم بعد الظهر أرسل البطريرك داميانوس كباين بإمضائه إلى الخوري إبراهيم فرح يقول في الأول أن يبلغ الشعب أن ينتخب له عضواً في المجلس المختلط وفي الثاني أن ينتخب وكيلاً لكنيسة مار يعقوب التي تقرر فتحها ، فاجتمع الكهنة في بيت الخوري عيسى قسطندي ، واستدعوني أنا وجرجي زخريا ، فذهبنا وبعد قليل جاء بعض أفراد الملة ، فلما اطلعونا على كتاب البطريرك الثاني استغربنا قوله ان نتخب وكيلاً لكنيسة مار يعقوب التي تقرر فتحها مع أن الذي عرفناه من عزمي بك أن نتخب مسؤولين لإدارة الكنائس والمدارس والمستشفيات وسائر المؤسسات الخيرية العائدة للوطنيين ، وقررنا مراجعة عزمي بك في ذلك . . . ومهما يكن الأمر فإن إعادة فتح المجلس المختلط وانتخاب وكلاء للملة لهو انتصار كبير بعد أن أعلن الرهبان أنهم لا يفتحون المجلس ولا ينفذون شيئاً ، وبعد أن حملوا فريقاً كبيراً من الطائفة ومن جملتهم الكهنة على ممالأتهم على صنيعهم هذا . قررنا أن نباشر الانتخاب يوم الخميس القادم من هذا الأسبوع واتخذنا التدابير اللازمة لمنع كل عبث وتلاعب ، من ذلك أن لا تكتب أوراق الانتخاب إلا في محل الانتخاب لا في الأسواق والبيوت والقهاوي [المقاهي] ، وأن لا توضع أوراق الانتخاب في الصندوق إلا بعد أن تقرأها اللجنة المعينة على سمع المنتخب إذا كان أمياً لئلا يكون كلف أحداً بكتابة بعض أسماء فكتب له غيرها ، وأن تكتب أسماء المنتخبين في قائمة على حسب الحروف الهجائية لئلا يتكرر الانتخاب ، وبعد ذلك قمنا وذهبنا لتواجه عزمي بك فلما أطلعناه على فحوى كتاب البطريرك بخصوص انتخاب وكلاء للملة ، فقال : هذا غير صحيح ، ولكن الذي قررناه أن يكون لها وكلاء لإدارة الكنائس والمدارس والمستشفيات وسائر المؤسسات الخيرية ، ومتى

(٦) القائم مقام: رتبة ادارية عثمانية، تطلق على من يتولى المسؤولية عن قضاء (وهو جزء من اللواء) وفق التقسيمات الإدارية العثمانية.

انتخبتم اكتبوا هكذا في مضببطكم التي ترفعونها إليّ، ثم سألتناه عن نظارة المدارس الاختصاصية فقال: سأعين فيها خليل السكاكيني وأما تعيين يوسف العيسى فسأسعى في تحقيقه أيضاً، ثم قال: سأبلغكم ما قرره واستكونون مسرورين جداً، ولكن الآن أقول لكم: إني لم أمسّ قرار مجلس الوكلاء في شيء بل أيده بكل ما قرره ولست أكنتمكم أني فعلت لكم ما لست أظن أن أحداً غيري يستطيعه، ولا فخر فقد كان الرهبان يمانعون في فتح المجلس أشد الممانعة ثم جعلوا يرسلون إليّ الفريق الأكبر من الملة هنا ومضابط عديدة من سائر الأبرشيات في طلب إغائه، ولكن لم أزل بهم حتى أرغمتهم على فتحه وقد أثر ذلك في البطريرك حتى أنه مرض ولزم الفراش، وأني معتبط بما وفقت إليه لأنني أحسب أني قمت بما يجب عليّ كوطني. ثم إن أمامي أشياء أخرى سأخدمكم فيها متى رجعت إلى الأستانة، قال هذا وقد أخذت منه الحماسة فلمعت عيناه. ثم قال: أرجو أن تبدلوا وسعكم لأن يكون بين المنتخبين اثنان من الحزب الآخر، فقلنا له: إن الانتخاب في يد الشعب ومع ذلك فسنبذل وسعنا في حمل حزبنا على انتخاب اثنين من الحزب الآخر إكراماً لخاطرك، فإذا لم يخرج أحد منهم في الانتخاب أدخلنا اثنين منهم علاوة، فقال لا بأس... ثم قمنا فقبلنا يده وأثنينا على وطنيته الصادقة وشخصيته الراقية وخرجنا ونحن نفكر في إقامة احتفال تكريم له ولأعضاء القومسيون، وفي تقديم هدية لكل منهم، كما طلبنا منه أن يهدينا رسمة [صورته] لنحفظه تذكراً عندنا... ثم أرسلنا من يدعو الشعب للاجتماع الليلة في بيت متري المنى لنبلغه أمر الانتخاب. بعد ذلك التقيت بيوسف العيسى وأبي نقولا ابن عمه، قال يوسف: ستكشف لك الأيام أن ظني في جرجي زخريا في محله فقد قال لي عزمي بك: إنه حاول أن يحرمننا كل شيء، ولكن عزمي بك وبخه على ذلك ولم يجبه إلى طلبه ولم يحقق أمله. ولكن أكنتم ذلك الآن وستعرفه بعد حين... بعد العشاء ذهبت إلى بيت متري المنى وكان هناك جمهور كبير من الملة فبلغتهم أمر الانتخاب وبيّنت لهم التدابير التي سنأخذها لتلايق تلاعب فسروا كثيراً. وحذرتهم من أن يقع الانتخاب في غير محله. حذرتهم من ضعفاء المبادئ الساقطي الهمم، الفارغي العيون، المشكوك في وطنيتهم وإخلاصهم، والذين لا يصلحون للعمل. وقلت لهم أن يلاحظوا في الذين ينتخبونهم صفتين: الأولى، أن يكونوا من ذوي المبادئ الصحيحة والغيرة والوطنية. والثانية، أن يكونوا من ذوي الاقتدار على العمل فإذا فقدت إحدى هاتين الصفتين فالانتخاب يكون في غير محله.

الثلاثاء ٦ و٢٤ ك/١٩١٤ و٨ صفر عيد الغطاس (غ) (٧)

لم يكن معي غير متليك (٨) واحد ولكن بلغنا أن «المعارف» وقعت أمس معاش شهر فأرسلت شكري

(٧) عيد الغطاس: عيد معمودية السيد المسيح، ويصادف السادس من كانون الثاني. والتسمية تعبر عن التيمن بمعمودية المسيح الذي جرى تعطيسه في مياه نهر الأردن من قبل يوحنا المعمدان.
(٨) متليك: هو أصغر جزء من العملة العثمانية.

أفندي رصاص إلى دائرة المعارف فقبض القيمة المعينة ثم دفع لي أحد الأولاد نصف ليرة عن رسمه في المدرسة، فدفعت من ذلك كله معاش الخادم عبد علي ومعاش شكري أفندي المذكور، ودفعت ليرة فرنساوية إلى قسطندي الخوري بقية معاشه عن ك١، وليرة أخرى إلى جميل الزنايري من أصل حسابه، وريالاً مجيدياً إلى الدكتور نجيب الجمل عن عيادة لأمي وثمان دواء... نزلت إلى البلد فاجتمعنا أنا وجرجي زخريا وأنضوني الغوري وسليمان ددا وعيسى الطبّه وجميل الزنايري في محل فايك الألماني، ونظرنا في ترشيح أعضاء للمختلط وللمتولية وفي اتخاذ التدابير اللازمة لاكتساب الأصوات فرشحنا جرجي زخريا للمختلط، ورشحت أنا ونخلة كتن وأفتيم مشبك وجميل الزنايري للمدارس، ورشحنا أنضوني الغوري ومخائيل اطليل وأنضوني حنايا للكنايس... مما أشير إليه بسرور هنا أنني كتبت المرشح لجميل الزنايري للمدارس. وجعلت أثني عليه وأعلن أنه يحمل شهادة علمية لا يحملها غيره في القدس وأنه كان من الممتازين في الكلية الأميركية، بل أن رئيسها أعلن يوم سلمه شهادته أنه منذ تأسيس المدرسة الكلية لم يظهر تلميذ مثله في الرياضيات، فعسى أن يكون لنا منه عضو نافع في الملة الأرثوذكسية. ثم عينا لكل واحد منا قائمة بأسماء كثيرة من الملة ليتولى مراجعتهم وحملهم على انتخاب من عينا، وقررنا أن نجتمع مساء للغرض ذاته. وقد بلغنا أن الحزب الآخر ساع في اكتساب الأصوات. وقد أرسل سماسرتة يطوفون بين الناس، وربما ساعده الكهنة والمخاتير، وإن كنا على يقين أنهم لا يفلحون ولكن رأينا من باب الاحتياط أن نأخذ للأمر أهبتة... كان جرجي زخريا قبل اليوم يقول: لا أدخل المجلس المختلط، وكان دائماً يلح علي أن أكون فيه واليوم عدل عن رأيه مما لم أستغربه منه، فهو لا يطيق أن يرى غيره فيه، وما ادعأوه أنه لا يدخله ولا يريد به إلا للتح عليه، حتى إذا دخله كان ذلك ادعى إلى افتخاره، وتبجح، على أنني أعتقد أنه لا يصلح له غيره، وإن كتبت لا أرضى عن كثير من أخلاقه ومبادئه... في المساء اجتمعنا في بيت إلياس الخوري اسكندر عيدة وكنا قد التقينا قبيل المساء بيوسف العيسى وحننا أبو نقولا ابن عمه فطلبنا منا أن يسهرنا معنا فلم نبدأ من دعوتهما. دخلنا في أحاديث مختلفة إلى أن وصلنا إلى ما قرره عزمي بك، فجعل يوسف يقلل من أهمية ما عمله عزمي بك، مما اقتبض له الحاضرون واستولى عليهم به الفتور وداخلهم الريب، فلم أبدأ أن أتدارك الأمر فقلت: لو لم يعمل عزمي بك شيئاً إلا أنه فتح المجلس المختلط وجعله إدارة مستقلة لكفى، لأن في إعادة فتح المجلس المختلط حياة القرار كله، وإذا لم ينفذ جميع مواد قرار مجلس الوكلاء فإنه لم يبلغ منها شيئاً بل مهد الطريق لتنفيذها. وذلك، أولاً، عين قيمة لسكن الملة الأرثوذكسية. وقد كانت هذه المسألة حجرة عثرة في العمل لأنهم كانوا كلما أرادوا أن ينفذوا شيئاً يطالبهم البطريك بحل مسألة سكن القدس فإذا عينوا قيمة قليلة لم يرض القديسون، وإذا عينوا قيمة كبيرة لم يرض نواب الأبرشيات. ثانياً، قرر

تأسيس مدرستين عاليتين مستقلتين للصبيان والبنات في القدس ومثلهما في يافا . ثالثاً ، قرر أن تكون النظارة الاختصاصية للمدارس من العلمانيين ولا دخل لأحد من الرهبان فيها ، وأن لا يكون فيها أحد من أعضاء المجلس المختلط . رابعاً ، قرر أن لا تكون اللغة اليونانية لغة التعليم ولا لغة إجبارية . خامساً ، جعل انتخاب أعضاء المجلس المختلط حراً تحت نظارة الحكومة . سادساً ، قرر تأليف مجالس متولية لكل الجهات ومجلس وكلاء أو نظار للقدس مع أنها كانت محرومة من ذلك . ثم قلت لهم : إذا جاز لأحد أن يشكو من أعمال عزمي بك فالأبرشيات لا القدس ، لأن القدس قد أخذت نحو نصف القيمة من ثلث الواردات ، وهكذا ، حتى نفقت تأثير كلام يوسف العيسى السابق عليهم ، ثم جعل يوسف يزيد كلامي ، وعند الساعة العاشرة قام يوسف وابن عمه فذهبت معهما وأنا أظن أن الجلسة قد انقضت ولكن لم يخرج من الحاضرين أحد ، فلما وصلت إلى البيت حدثني النفس أن أرجع إلى الجلسة فرجعت فرأيت الجميع لا يزالون هناك ، فجعلنا نعين لكل واحد فريقاً من أفراد الطائفة ليلبغهم أسماء المرشحين . والخلاصة ، فقد عزمنا على اتخاذ الاحتياطات اللازمة واستقراغ الجهد والله الموفق . . التقيت اليوم بكامل بك صوايا مدير الريجي [دائرة التبغ] ، فقال لي : كما بالأمس أنا وحسين أفندي سليم رئيس البلدية عند عزمي بك ، فجعل يستطلعنا رأينا عن يمين في النظارة الاختصاصية للمدارس من الملة في القدس فقلنا له : ليس لها غير خليل السكاكيني فإن كنت تحب أن تكون فيها راجعناه . فقلت : إذا لم يكن بدُّ أن يكون فيها واحد من القدس فالطائفة لا تنتخب غيري ، ولكن كيف لا يعارض البطريرك في ذلك وقد استحکم العداء بيني وبينه مما حمله علي الرد علي في منشوره وتحذير الطائفة أن لا تخالطني ولا تصغي إلى أقوالي ، فضحك . ثم قلت له : الذي أحبه الآن أن تسعى في تعيين يوسف العيسى في هذه النظارة ، فإن سنحت لكم الفرصة فتكلموا في ذلك ، وقبل أن أختم الكلام عن هذا اليوم أحب أن أثبت هنا شيئاً عن بعض أفراد الملة فأقول : في الملة عدد كبير من الشبان المتخرجين في المدارس المترزين بالزبي الإفرنجي مثل جريس سعيد وحننا أسطفان وداود دعدس وقسطندي سلامة وتوفيق فرح ومثري فراج وقسطندي لباط وغيرهم ، قامت النهضة واجتازت مراحل كثيرة وهم لا في العير ولا النفير ، لا يحضرون اجتماعاً ولا يشتركون في عمل ويحسبون إذا سألوا من وقت إلى آخر عما تم فقد قاموا بواجباتهم ، ثم هم ينتظرون أن تذكرهم الطائفة في انتخاباتها ، أخص منهم جريس سعيد الذي عيناه كاتباً للمجلس المختلط وعيناه له عشر ليرات معاشاً شهرياً ، ولكنه يتحاشى من الاشتراك مع الطائفة في شيء لئلا يستاء منه الرهبان ، أعوذ بالله من هذه النفوس الصغيرة . . وأما أفتيم مشبك فكم حاولنا أن نحياه ونقدمه ولكنه حامل فاطر الهمة كأنه ابن تسعين مما جعل الطائفة تنفر منه وتحقره ولا تعيره أقل اهتمام . . . بقي لي ملاحظة أخرى لا يجب أن أغفلها ، وهي إذا وقفت النهضة عند

هذا الحدّ خرجت عن مبدأها الأساسي بل كانت عقيمة لا فائدة منها بل لا تلبث أن تموت . فالنهضة ليست نهضة سدّ حاجات بل هي نهضة حياة وإصلاح ، فإذا لم تستقم الرئاسة الروحية ولم تنظم فلا فائدة منها وإذا اكتفينا بما حصلنا عليه إلى التساهل والقبول اليوم ، فإنهم لا يلبثون إن رأوا منا تهاونا وقتوراً أن يعودوا إلى حالتهم الأولى ، ولذلك لا غنى للطائفة أن تقف دائماً بإزاء هذه النهضة موقف الرجال ، أن تؤلف الجمعيات وتتعدّد روح النهضة فإذا تمرد الرهبان واستخفوا بها رأوا منها ما تميد به الأرض تحت أقدامهم ، ثم عليها أن تحسن إدارة المدارس وتخلص في التعليم والتربية حتى يكون لها من الناشئة الجديدة في المستقبل من يستأنف العمل بهمة أعلى ومبادئ أصحّ وتضامن أشدّ وأوثق إن شاء الله .

الأربعاء ٧ و ٢٥ ك ١/١٩١٤ و ٩ صفر

عيد الميلاد (ش)

أرسل عزمي بك بشارة حبيب يلحّ علينا أن نجرب أن يكون بين المنتخبين اثنان أو ثلاثة من الحزب الآخر حسماً للخلاف فتذكرنا في الأمر مع بعض أفراد الملة من حزبنا فلم يرقهم ذلك ، بل رأينا منهم أنهم سيذلون الوسع في حرمانهم من اكتساب شيء من الأصوات ثم أرسل إلينا عزمي بك ، راغب بك النشاشيبي^(٩) فأخذني أنا وجرجي زخريا إلى جانب وأفضى إلينا بطلب عزمي بك وأنه ينتظر أن يكون بين المنتخبين ولو اثنان ، وقال : إن ذلك أوفق لمصلحتكم لأنهم لا يعودون بعد ذلك يعارضونكم فتأمنون جانبهم ، فقلنا له : إن للحزب الآخر أتباعاً وأنصاراً كثيرين ينتخبونهم فهم في غنى عن أن نعطيهم أصواتنا ومع ذلك فإذا لم يخرج منهم أحد أضفنا اثنين منهم إلى المنتخبين إكراماً لخاطر عزمي بك لأنه عزيز علينا . ثم مشيت مع راغب بك إلى لوكدة فاست ، فقال : يا خليل كفاك تهوراً فإنهم يستفيدون على ظهرك وأنت لا تدري ، ثم قال : جرى ذكرك بالأمس في مجلس عزمي بك وأثنى الحاضرون على وطنيتك وإخلاصك وصحة مبادئك وكبر نفسك ، فقال عزمي بك : إنه يُحبك كثيراً بل هو مُعجب بك وفي نيته أن يُعينك في نظارة المدارس الاختصاصية بناءً على ما سمع من إجماع الناس على مدحك والشاء عليك وعلى ما يُرى من ملامحك ، فقد قال : إن رأسه الكبير وما يظهر على وجهه من أمارات الألفة وعزّة النفس وعلو الهمة كل ذلك يجعل له جاذبية يملك بها القلوب ، فقابلت كلامه هذا بالشكر والشاء . . . ثم ودّعته لأنهم ذاهبون هو وعزمي بك والمتصرف

(٩) راغب النشاشيبي (١٨٨٣ - ١٩٥١) ، ولد في القدس ومثلها في مجلس المبعوثان ، اسدّعه سلطات الانتداب العام ١٩٢٠ وعينه رئيساً لبلدية القدس بدل موسى كاطم الحسيني ، الذي عزل لنشاطه الوطني ، ظل في منصبه حتى ١٩٣٤ حين هزّمه حسين فخري الخالدي مرشح القائمة الوطنية ، وفي السنة ذاتها أسس «حزب الدفاع الوطني» في مواجهة «الحزب العربي الفلسطيني» والمجلس الإسلامي الأعلى برئاسة الحاج أمين الحسيني . بعد النكبة عين وزيراً في الحكومة الأردنية ، ثم حاكماً عاماً للضفة الغربية عنها ، ثم عضواً في مجلس الأعيان .

وحسين أفندي سليم وغيرهم إلى أريحا ليومين أو ثلاثة، ثم رجعت إلى مكتب جرجي زخريا وكان هناك بعض أفراد الملة ينتظرون قتلنا لهم: دعوا الانتخاب يجري في مجراه، فإن خرج من الحزب الآخر أحد كان به وإلا ضمنا إلى المنتخبين اثنين من الحزب الآخر مثل فوتي اطليل صهر تودر يانكو وإبراهيم زوانه ابن أخته... بعد الظهر ذهبنا إلى بيت جرجي زخريا أنا ويوسف العيسى وحننا العيسى وميخائيل اطليل وجرجي قرط وعيسى الطبه وسليم السلفيتي وجميل الزنايري وقسطندي الخوري، وبعد أن أقمنا عنده قليلا ذهبنا من هناك جميعا إلى بيت شكري ديب وشربنا قليلا على ذكر النهضة، وكان السرور شاملا، وقد سرتني بالأخص زوال النفرة بين جرجي زخريا ويوسف العيسى وابن عمه وقدّرت أن العمل سيسير في سبيله بدون معاكسة أو معارضة إن شاء الله. من الطرق التي اتخذها الحزب الآخر ليفوز في الانتخاب، ما أوعزوا به إلى بعض أفراد الملة من أنه إذا كان الانتخاب من الفريقين كانوا رقباء بعضهم على بعض فتؤمن المصلحة، فتداركنا هذا الأمر بأن ذلك يجيء بالعكس، فبدلاً من أن يراقبوا بعضهم بعضاً يفسدون بعضهم على بعض ولا يتفقون على أمر... إن مجيء عزمي بك إلى القدس جدد حياة النهضة وشدد العزائم المرتخية وأنهض النفوس وأحيا الآمال وملا الصدور جرأة وعرف الناس قيمة الثبات... لو لم يجيء عزمي بك لألغى المجلس المختلط ومن ثم ألغى القرار كله. إذا خطر للربان بعد اليوم أن يعودوا إلى المراوغة عرفت الملة كيف تقابلهم وعلي أي خطة يجب أن نسير لإرغام أنوفهم، فهي، أولاً، تغلق الكنائس. ثانياً، تعقد الاجتماعات المتوالية. ثالثاً، تقاطع الرهبان. رابعاً، تتابع التلغرافات الشديدة اللهجة إلى الأستانة. خامساً، ترسل وفداً إلى الأستانة. إلى غير ذلك من الوسائط التي عرفت بالاختبار أنها تضمن نجاحها وتكفل إيصالها إلى حقوقها. أرسل إلي أشيل سيقلي أنه سينشر المقالة التي أرسلتها إليه عن قنصل روسيا في القدس ومدير البوسطة الروسية فيها، في إحدى الجرائد الإفرنسية قريباً.

الخميس ٨ و ٢٦ ك ١٩١٤ / ١٠ صفر

التقيت بجرجي نقولا الحلبي ترجمان السفارة الروسية في القدس خارجاً من بيته، فقال: كنت أحب أن ألقاك أمس لأكلفك أن ترشحوني لمجلس المتولين فقلت له: لقد فات الوقت الآن ولو عرف الناس ذلك لكانوا رشحوك وانتخبوك ولكنهم في مثل هذه الانتخابات لا يرشحون أحداً من المستخدمين عند الأجانب، ولا سيما عند الروس، لئلا يدعي الرهبان أن هناك اصعباً أجنبية، ثم تركته وذهبت إلى كيسة مار يعقوب وأنا أعجب كيف يطمع أن تنتخبه الملة وهي لا تعرفه وقد مر على نهضتها خمس سنوات، وهي لم تره في اجتماع ولم تونس منه أقل اهتمام... بل عجبت كيف يكلفني ذلك وقد كلفته قبل اليوم أن يسعى لي في

أن أكون أستاذ اللغة العربية في مدرسة بيت جالا الروسية للبنات في مركز المرحوم المعلم شاهين عطية، فطمأنني بحيث أمسكت عن السعي بنفسي ثم سعى لصهره المعلم عساف .

أخذت الملة تفد على كيسة مار يعقوب وكان هناك من قبل الحكومة بشارة أفندي حبيب مدير الأمور الأجنبية ، ونوري بك مدير البوليس ، وقد جلس معهما الكهنة الوطنيون وجرجي زخريا ، وعدد كبير من أفراد الملة . كانت أوراق الانتخاب مختومة بختم الخوري إبراهيم فرح ، وعليها أعداد متسلسلة فكلمنا أعطوا واحدا ورقة منها كتبوا اسمه وعدد ورقته ، وقد اتخذ جرجي زخريا هذه الطريقة ليعرف من مراجعة الأوراق أسماء أصحابها ومن انتخبوا . وقد انبث هنا وهناك كثيرون ليكتبوا للذين لا يعرفون الكتابة ، فإن كانوا من حزبنا أرشدوهم إلى أسماء الذين رشحنهم ، وقد كان من قبل الحزب الآخر استاوري القاري ، فإن جاء أحد ممن يخصوصونهم أخذوه إلى كيسة الأربعين شهيدا وكتبوا له ورقته كما يريدون . وكان كثيرون من حزبنا يطوفون الأسواق ويحضرون معهم من يجدونه في طريقهم لينتخب ، بعد أن يفهموه من ينتخب . وعلى هذه الطريقة حصرنا الانتخاب في من رشحنهم وذهبت أعاب الحزب الآخر سدى . وعند الثانية بعد الظهر فتح الصندوق وقبل فتحه كتب جرجي زخريا مضبطة ، قال فيها : إن الانتخاب جرى بحضور مأموري الحكومة والكهنة الوطنيين وعدد كبير من الملة ، وأنه كان بحسب الأصول خاليا من كل تلاعب ، وأنه يختار من المنتخبين ثمانية ممن حازوا الأكثرية ، يُنتخب أحدهم للمجلس المختلط وستة للمتولية ، وأمضى المضبطة من الكهنة ومأموري الحكومة وعدد كبير من الملة ، ثم فتح الصندوق وقرئت الأوراق وكان عددها يزيد على الثلاث مئة . أصاب جرجي زخريا مئتان وسبعة وثمانون صوتا ، وأصابني مئتان وسبعة وسبعون . وقد فهمت بعد ذلك أن بعض الذين كانوا يكتبون الأوراق كانوا يقولون للذين يكلفونهم بالكتابة ، إن جرجي زخريا وخلييل السكاكيني سيحوزان الأكثرية بدون شك ، فهما في غنى عن أصواتكم ، فالأحسن أن تعطوا الصوت لغيرهما ، ولولا ذلك لكنا أخذنا الأصوات كلها . وقد لاحظت أن اسمي كان يرد مع اسم تودر يانكو وسليم القاري مما دلني على أن الحزب الثاني لا ينظر إليّ نظر العداة ، بل كان اسم جرجي زخريا يرد بين أسماء الحزب الثاني ، مما يدل على صفاء نية وطيبة قلب . أما بقية المنتخبين فقد كانوا من حزبنا . . إن الأكثرية التي أصبناها وإن تكن لا تهمني لأنني أجل نفسي عن أن أطمع في وظيفة ولكنها دلت الرهبان والحكومة على نفوذنا في الشعب ومكانتنا لديه . أخرجنا من الذين حازوا الأكثرية ثمانية أشخاص فصوتنا لمن يكون منهم عضوا في المجلس المختلط ، فأصاب جرجي زخريا أكثرية الأصوات وأصابني صوت واحد ثم صوتنا على ستة لمجلس المتولية ، فخرج أنضوني الغوري وميخائيل اطليل ونخلة كتن وأنضوني حنانيا وجميل زانيري وأنا . وقد كنت أفضل أن لا يكون ذلك بالتصويت ، بل نراعي في انتخابهم الأكثرية التي حازها كل منهم لأن ذلك حق وأسلم عاقبة ، ولو فعلنا ذلك لكان جرجي قرط بدل أنضوني حنانيا لأنه يجيء بعده في الأكثرية . وقد كان في الامكان

أن يتواطأ الثمانية فأسقط في الانتخاب كما فعلوا يوم انتخبنا جرجي زخريا لعضوية المجلس المختلط لأول مرة. فقد أخذت من الأصوات ما يزيد عليه إذا لم يكن مثله، ولكن لما اجتمعنا للمرة الثانية لانتخاب واحد للمجلس المختلط خشي جرجي زخريا أن أكتسب الأكرية دونه فأوعز إلى بقية اللجنة التي كانت مؤلفة من اثني عشر شخصا، فلم تعطني إلا صوتاً أو صوتين. وقد اعترف جرجي زخريا بعد ذلك بفعله هذه، فقد قال: أتريدون أن أجعل السكاكيني يكتسب عضوية المجلس المختلط. وقد حفظت ذلك في نفسي يومئذ ولم أفتح أحداً به. ولكن جرجي قرط هذه المرة أنكر علينا هذا العمل واعترض عليه، ولكن جرجي زخريا جامله وأرضاه بحجة أن خروج أنصوني حنايا في جملة المنتخبين نعدّه أمام الحكومة مُجاملة للحزب الثاني لاتسابه إلى جرجي حبيب حنايا، ونكون بذلك قد راعينا خاطر عزمي بك الذي أَلحَّ علينا أن نُجرب أن يكون في المنتخبين بعض الحزب الثاني، ثم إن خليل السكاكيني سيستعفي لأنه سيعين في نظارة المدارس، وجميل زنايري سيستعفي أيضاً لأننا سنعيّنه معلماً في المدرسة، فضلاً عن أنه دون الثلاثين من عمره لأن قانون المتولية يمنع أن يكون في عداد المنتخبين من كان دون الثلاثين، وربما استعفى نخلة كتن أيضاً، فتدخل أنت وأفيم مشبك، وهكذا أرضاه وسرّى عنه استيائه. وبعد أن نظمت مضبطان بانتخاب جرجي زخريا للمجلس المختلط وانتخاب الستة المذكورين لمجلس المتولية، وكان ذلك نحو الساعة السادسة مساءً سلمناهما لمأموري الحكومة وخرجنا في موكب حافل. ثم ذهب فريق منا فعيّدنا على عيسى البيبي وعيسى الطّبه. هو ذا قد انتخبت الملة ولكن هل يكون عن هذا الانتخاب فائدة لها. هل يكون المجلس المختلط مجلساً نافعاً؟ هل يقلع الرهبان عن المراوغة والمواربة؟ هل يُخلص الأعضاء العلمانيون النية؟ هل تتفق كلمتهم على خدمة المصلحة العامة؟ هل يكونون عند آمال الملة فيهم؟ ثم هل يُحسن الأعضاء الستة العمل والإدارة؟ هل يقومون بما عهد إليهم حق القيام؟ هل يمكنهم الرهبان من إدارة المدارس والكنائس والمستشفيات وسائر المؤسسات الخيرية العائدة للوطنيين كما يريدون وتقتضي المصلحة العامة ويتطلبه الواجب، فتتحسن أحوال الملة وتجنّي ثمرة أتعابها وخسائرها وتُبارك النهضة؟ أم هل يكون المجلس المختلط ومجالس المتولية أسماء بلا مُسميات؟ هل يؤثر الأعضاء منافعهم الشخصية ومصالحهم الذاتية على كل شيء؟ إن ذلك سيكشفه المستقبل القريب إن شاء الله. ثم قد انتخبنا ولم تبلغ قرارات القومسيون، وغاية ما عرفناه منها ما كنا نلتقطه من هنا وهناك فما أدرانا أنها لا تُوافقنا.. أو أنها تحتمل وجهين فيقوم الخلاف بيننا وبين الرهبان... على أننا قد عقدنا النية إذا لم تُوافقنا القرارات أو تمنع الرهبان عن تنفيذها أن لا نفتح كنائسنا ولا نلقي بسلاحنا حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً...

الجمعة ٩ و ٢٧ ك ١/١٩١٤ و ١١ صفر

نزلت صباحاً إلى مكتب جرجي زخريا وكان بعض أفراد الملة هناك، فتجادبنا الحديث عن الانتخاب، ثم جاء جرجي قرط والياس مشبك، فقال جرجي زخريا سيستعفي اثنان أو ثلاثة من المتولين فيدخل جرجي قرط وأفتيم مشبك، فقال جرجي قرط لا أدخل وقال إلياس مشبك إن أخي لا يدخل ولو أخذ الأكرية، مما دل على أنهما غير راضيين عن الانتخاب.. ثم ذهبت مع جرجي زخريا وجميل زانيري نعيد على الخوري عيسى قسطندي وبعد المداولة في أحاديث مختلفة، قال الخوري عيسى: ذهبنا نحن الكهنة اليوم نعيد على البطريك وكان هناك بشارة حبيب وبعض مأموري الحكومة. فسأل البطريك عن الانتخاب، فقال له بشارة حبيب: إنه قد جرى أمس حسب الأصول، فخرج جرجي زخريا للمختلط وستة آخرون لمجلس المتولية، وكان البطريك عرف من هم الستة أو ان الحزب الآخر اعترض على الانتخاب لديه. فقال: هل الملة هي التي تنتخب المتولية أو ان ذلك عائد على المجلس المختلط، فعجبنا لذلك، وهو الذي كتب إلى الخوري إبراهيم فرح تحت إمضائه أن يدعو الملة لانتخاب عضو للمجلس المختلط وستة وكلاء، وهو الذي كلفنا بانتخاب متولية قبل نحو سنتين فانتخبناهم نحن لا المجلس المختلط، لا بد أنه سيفاجئنا بأمر جديد فيجب أن نكون على حذر... ثم ذكروا كيف أن الخوري إبراهيم فرح الذي جلس أمس للانتخاب من الصباح إلى المساء من دون أكل، ولما نظرنا المضبطة بانتخاب المتولية استأذن بالانصراف، بحجة أنه أخذه الدوار من التعب والجوع، وذهب ولم يمض المضبطة. فقال جرجي زخريا سنكلفه بإمضائها وإذا كان له غرض في ذلك فلا يفيد لأنه أمضى المضبطة الأولى التي صرحنا فيها أننا اجتمعنا لانتخاب عضو للمجلس المختلط وستة للمتولية، وبعد أن تكلمنا في شؤون كثيرة قمنا وانصرفنا.. قلت لجرجي زخريا في الطريق: لا بد لك من أمرين: الأول، أن تؤلف جمعية من الملة لتكون مرجعاً لك تفاوضها في كل ما تجر به في المجلس. والثاني، أن تكون أعمال المجلس علنية فتشتر وقائع كل جلسة في جريدة فلسطين لتكون الملة على بصيرة... أخذت الملة تقترح ما تشاء. الواحد يقول: ابنا المنازل القديمة الخربة، والآخر أسسوا مأوى عجرة، والآخر أدخلوا عدداً كبيراً من الصبيان والبنات في المدرستين الداخليتين، والآخر: إذا لم تعملوا شيئاً هذه المرة ماتت النهضة ولم تقم لها قائمة، إلى غير ذلك من الأقوال والاقتراحات التي تشف عما يفهمه الشعب من النهضة وما يتوقعه منها. بعد الظهر علمت الدكتور كوربت وامراته لأول مرة بعد طول الانقطاع. ثم نزلت إلى البلد فاجتمعنا أنا ويوسف العيسى وحنا العيسى وعيسى الطبة وجميل الزانيري في قهوة قسطندي دعدس، جاء تلغراف إلى يوسف العيسى من يافا أن عيسى العيسى قادم غداً في قطار الظهر إلى القدس، بدلاً من حنا الملك لمواجهة عزمي بك. قلت ليوسف: إذا لم تدخل في نظارة المدارس فلا

أدخلها . فقال : دعني منها ، ولعله يقبل بعد حين . لم أزل منذ أيام أفكر في نظارة المدارس ، هل أدخلها فأُنظّم مدارس فلسطين وما وراء الأردن كما أريد ، وكما تقتضيه حاجة الملة وتطلبه روح العصر فيكون أمامي مجال واسع للعمل ، أم أرفض الدخول فأكتفي بأن أتولى إدارة مدارس القدس وحدها ، فأختار لها المعلمين الذين أريد وأرفض المعلمين الأذلاء الأחסاء الذين لا يهمهم إلا رضى الرهبان ، والذين لا يستحقون أن يكونوا في عداد المعلمين . إلى الآن لم أقرّ على رأي ، وسأنتظر قليلاً ريثما أوفي هذه المسألة حقها من النظر .

السبت ١٠ و ٢٨ ك ١/ ١٩١٤ و ١٢ صفر

نزلت إلى البلد صباحاً فذهبت توّأ إلى مكتب جرجي زخريا ، ثم جاء يوسف العيسى وابن عمّه أبو نقولا ، ولم نلبث أن دخل علينا جماعة من أهل بيت جالا فسألناهم : هل انتخبوا ، فقالوا : أنقسم البلد إلى قسمين ، وانتخب كلٌّ على حده ستة أشخاص ، ثم انتخب كل ستة واحداً للمجلس المختلط ، ونظّموا مضبطة به ، إلا أنّهما غير متساويين في الأصوات ، فمنتخب حزب الشعب أصاب الأكرية على منتخب حزب الدير ، فلمنّاهم على اتخاذ هذه الطريقة ، ثم أشرنا عليهم أن يواجهوا عزمي بك . . . وبعد أن انصرفوا جعلنا ننظر في الخطة التي يجب أن تتبعها ، فرأينا أن الأوفق أن تتساهل في أول الأمر ، فنستلم المدارس على علاقتها ، ونقسم المدرسة الداخلية في القدس إلى قسمين : قسم نرسله إلى مدرسة يافا ، وقسم نُبقيه في القدس ، وبعد امتحان التلاميذ في آخر السنة نخرج المتصرّين ونضع نظاماً بانتخاب غيرهم ، كل بلد وما يصيبه ، أما لغة التعليم فترك الخيار فيها للبلد الذي تكون فيه المدرسة . فإذا اختار بلد اللغة الإنكليزية جعلنا التعليم بها وإذا اختار اللغة الإفرنسية وافقناه . ثم نظرنا في نظارة المدارس الاختصاصية . فقلت ليوسف العيسى : إذا لم تكن فيها فلا أدخلها . فقال جرجي زخريا وحنّا العيسى : هذا لا بدّ منه . ثم نظرنا في عضو ثالث فرشح يوسف العيسى الخواجا ريبور الإفرنسي لأنّ الدير لا يعارض في قبوله . وبينما نحن كذلك إذ جاء رسول من قبل عزمي يدعو جرجي زخريا ، فقمنا لنراه ، فوجدناه خارجاً من دار الحكومة . فقال لجرجي زخريا : خذوا فريقاً من الطائفة مع المتولين وواجهوا البطريك ، وأما مقرراتنا فسنبلغكم إياها اليوم . فاجتمعنا للنظر في ذلك فكان الرأي أن نكلف القومسيون أن يذهب معنا أحد أعضائه ، أما أنا فلا أذهب في أول الأمر لما بيني وبين البطريك من العداة فإذا كانوا عند البطريك خاطبوه في شأني ثم يستدعونني . كان في النية ، أن نذهب اليوم عند البطريك ولكن بسبب الشتاء الغزير ، ولأننا لم نكلف القومسيون بعد ، بما قرّر الرأي عليه ، أجلنا مواجهته إلى الغد . . . انتظرنا أن يبلغونا مقررات القومسيون فلم يفعلوا وفي المساء رأينا بشارة حبيب يسأل عن دار الخوري إبراهيم فرح ، فلم نشك أنه يحمل المقررات إليه ، فسأنا ذلك كثيراً فقرّرنا

مواجهة عزمي بك وسؤاله عن ذلك، فذهبت أنا وأنضوني الغوري. فقال: إن المقررات لم تنته ترجمتها ونسخها بعد، ولكن غداً إن شاء الله نرسل صورة عنها إلى البطريركية ونسلمكم صورة، ثم تنشرون تلك الصورة في جريدة فلسطين أو تطبعونها على حدة وتوزعونها على الأبرشيات كلها.

الأحد ١١ و ٢٩ ك ١/١٩١٤ و ١٣ صفر

استدعى البطريرك الكهنة الوطنيين وسألهم عن انتخاب يوم الخميس فقالوا له: إن الانتخاب جرى بحضورنا وحضور مأموري الحكومة على أصوله، ثم سألهم عن المنتخبين، فقالوا: إنهم من ذوي الكفاية واللياقة والأهلية. فقال: إذا أتم راضون عن الانتخاب والمنتخبين فقالوا: نعم. ثم قالوا له: إن الشعب يريد أن يزورك اليوم فادعى أنه مريض والله أعلم.

اليوم سافر طبلاريوس مستشار البطريرك في قطار الظهر، ويقال إنه لن يرجع إلى القدس. جاء طبلاريوس هذا إلى القدس ليدبر دفة سفينة الرهينة في وسط هذه الأمواج المتلاطمة وليتخطى بها ما يعترضها من العقبات والعثرات. وقد كان البطريرك يتوقع أن يكون على يده الخلاص، فسلمه الدفة واسترسل في الثقة به وجعله مستشاره، وما أحوج هذه الرئاسة الروحية إلى مدير ومستشار، لأن كل رجالها ضيقو الفكر، قصار النظر، عاجزو الرأي، سيئو التدبير. ولكن طبلاريوس هذا وإن يكون أقدر منهم وأعرف بالمعاملات الرسمية، إلا أنه لا يستطيع أن يبث الحياة في الدير أو يتداركه بالإصلاح الحقيقي، بل جل اعتماده على الدهاء، وأخلق بمثله أن يزيد المشاكل ويوسع الخرق ولا يجدي سعيه وتديره قليلاً. حتى إن كثيرين من الرهبان أنفسهم كانوا يكرهونه ويتأذون منه وكان القومسيون رأى تأثيره على البطريرك فلم يربداً من إبعاده، بل لعله هو أحسن أن الشعب ناظم عليه، مضر له السوء، فرحل من تلقاء نفسه راضياً من الغنيمة بالإياب... وقد اعترف البطريرك أن الخطأ التي جرى عليها إلى الآن لا تجديه نفعاً، وأن الذين حولهم هم الذين حملوه على ركوب هذا المركب الخشن والجري في تلك الخطأ، بعد الظهر كان عزمي بك عند عبد الحميد باشا قومندان العسكرية، فأرسل يدعونا فذهبت أنا وجرجي زخريا وأنضوني الغوري وميخائيل اطليل. وجعل يقول كم لقي من الصعوبات في حمل البطريرك على إعادة فتح المجلس المختلط وانتخاب متولية، وجعل المدارس مستقلة إلى آخر ما هنالك، ثم قال: بخصوص فتح الكنائس أن نأخذ مفتاحها ونسلمه للبطريرك، وهو يرجعه إلينا. طلبنا منه أن يكون الصلح بيننا وبين البطريرك على يده، فإما أن يذهب معنا فتمشي الملة وراءه، وإما أن يسبقنا. فقال: لا هذا ولا ذلك، بل الأوفق أن تذهبوا وحدكم ومن تلقاء أنفسكم، كأن ليس بينكم شيء، قلنا له: إن قصدنا من ذلك أن يعرف الرهبان أن لنا من الحكومة أما ترعانا وتسهر على حقوقنا، فاعتذر. وقال:

نرسل معكم بشارة حبيب فقلنا : إذا كنت لا تذهب معنا فلا يذهب معنا أحد . . طلب إليه جرجي زخريا أن يُوجَل فتح المجلس إلى يوم الثلاثاء . فقال : لا . بل غداً ، بعد الظهر . وقد طلب الرهبان مني ذلك بالبحاح ، فلم أُجبهم إلى طلبهم .

أما وميعاد الصلح غداً فقد أخذتني الحيرة ، ماذا أعمل وعلى أي شيء أقرّ ، هل أذهب في من يذهب وأساير قومي وأتساهل مع الرهبان ، أم أن أتخلف عن الذهاب ، وإذا لم يكن بُدّاً من ذهاب المتولية جميعهم فاستعفي . لا بُدَّ أن الملة تلج علي في الذهاب وتدّعي أن استعفائي يُعرق العمل ويخلق مشاكل جديدة ، وذلك ما يتمناه الرهبان . لا أتصور أنني سأستغل مع الرهبان ، إلا اشمازت نفسي وحدثتني بالاستغفاء ، وقطع كل علاقة لي مع الرهبان ومع الملة . بل حدثتني نفسي أن انسحب من الكنيسة الأرثوذكسية وأندمج في كنيسة المطران الإنكليزي ، أو جماعة الكويكرس^(١٠) ، وأخلص من النهضة لا علي ولا لي . . ولا سيما وقد أصبحت النهضة نهضة سدّ حاجات وقضاء نفوذ . جعل كثيرون من الملة يُلحون علي بالتساهل والتغاضي والسير في العمل بعد الآن بالملائنة والمهادنة إلى أن تلوح لنا ظروف أخرى ، فعيد الكرة بعد أن نكون قد استجمعنا قوانا ، وهياًنا أنفسنا ومعدّاتنا . . . بعد العشاء جلست وراء طاولتي أدخّن أركلتي ، وأفكار كثيرة تجول فيّ ، وخواطر عديدة تتازعني ، فكأنني كنت على أحرّ من الجمر . ثمّ قمت وذهبت إلى بيت قومندان العسكرية عبد الحميد باشا أستشيريه في أمري . فاستقبلني مرحباً ، وأقبل عليّ بأنسه ولطفه ، وجعل يُعيد عليّ ما لقوه من الصعوبات في مفاوضة البطيركية إلى ما يفوق حدّ الاحتمال . وقد فهمت منه أن متصرف القدس كان من أوّل الأمر إلى آخره ملتزماً بجانب الرهبان ، كأنه وكيل عنهم . قلت له : تأتي عليّ نفسي أن أذهب غداً مع الذاهبين إلى البطيركية ، وتحدثتني أن استعفي من عداد المتولية . فقال : قد يتخذون ذلك سبباً لمشاكل جديدة ، فالأولى أن تذهب وإن كان ذلك صعباً عليك . استغرقت جلستنا وقتاً طويلاً ، وبعد أن شكرت لطفه ووطنيته وكرم أخلاقه استأذنت بالانصراف .

الاثنين ١٢ كانون الثاني و ٣٠ كانون الأول ١٩١٤ و ١٤ صفر

نزلت إلى البلد ، فقيل : لي إن بشارة أفندي حبيب ، مدير الأمور الأجنبية طلبك ، وهو ينتظر في دار الحكومة ، فنزلت أنا وجميل الزنايري ، فوجدت أن جرجي زخريا وأنضوني الغوري قد سبقانا . قال بشارة أفندي : إن عزمي بك يرجو أن تستعفي أنت وجميل زنايري من المسؤولية ، لأنك ستكون في نظارة

(١٠) جمعية اسها البروتستانتية الليبرالية الانكليزية جورج فوكس منتصف القرن السابع عشر ، وكانت اول نشرة تدعو الى تحريم الرق وتحمل توقيع الكويكرز صدرت في ولاية بنسلفينيا الامريكية العام ١٦٨٨ م .

المدارس ، ولأن جميل زنايري سيكون معلماً في المدرسة ، فسبقني جرجي زخريا وقال : يستعفيان ولكن يدخل في المتولين من يجيء بعدهما من المنتخبين ، كأنه فهم أن مراد عزمي بك بذلك أن يدخل تودر يانكو في محلنا ، فذهب بشارة أفندي حبيب ليبلغ القومسيون ذلك ، وإذا بعبد الحميد باشا دخل علينا ، فبادره جرجي زخريا ، وقال له : أرجوك يا عبد الحميد باشا بل أتوقع [=ارتمي] على اقدامك ، أن لا تكلمنا في شيء ، لأنه يعز علينا أن تطلب منا شيئاً فلا نجيبك إليه . وجعل يلح عليه في ذلك ولم يترك له وقتاً للكلام فقام ولم يقل شيئاً . ثم دعانا القومسيون فدخلنا عليهم ، وجعل عزمي بك يلح علينا أن نقبل أن يكون تودر يانكو في عداد المتولين ، وجعل جرجي زخريا يرفض حتى احتد اللجاج وارتفعت الأصوات وخرج عزمي بك إلى الحدة ، وقال : إذا لا أفذ شيئاً وأترك العمل وأسافر ، وأبلغ الحكومة أنكم أنتم الذين ترفضون تنفيذ القرار ، فقال له جرجي زخريا : هذا شغلك ، ونحن نفضل أن نترك الكنيسة الأرثوذكسية من أن نجبر على قبول تودر يانكو في عداد المتولين . وخرجنا وما أبعدنا قليلاً حتى أرسل إليّ عزمي بك رسوله يدعوني فذهبت فقال : يا خليل أفندي الجميع يعرف أنك أنت الوحيد الذي تشتغل في هذه النهضة عن مبدأ ، وأنت ضحيت بنفسك على حين كان غيرك يستفيد على ظهرك ، وبعد هذه المقدمة ، قال : أريد منك الآن أن تذهب وتقع الشعب أن يقبلوا تودر يانكو وتذهبوا وتصطلحوا مع البطريك وتفتحوا الكنيسة . فجعلت ألطف من حدته وأطيب خاطرته ، ووعدته أن أبذل وسعي ، وذهبت فلقيت جرجي زخريا وبقية الجماعة ، فقر الرأي أن نذهب ونجتمع في بيت الخوري عيسى وكان هناك جميع الكهنة ، وحضر فريق من الطائفة ، فجعل جرجي زخريا يقنع الملة بقبول تودر يانكو في عداد المتولين والملة ترفض ، لأنها ترى في ذلك ضغطاً على حريتها ومسا لكرامتها . أخيراً قال الكهنة : إن العادة القديمة إذا مات وكيل كنيسة ماري يعقوب أو استعفى أن يكلف البطريك الكهنة بانتخاب خلف له ، فاختلف وجه المسألة ، وقلنا : إذا هذا حق كهنتنا الوطنيين لا حق البطريك ، وهذا أهون على الملة قبوله . قالوا : إن هذا الحق مشترك بين الشعب والكهنة فالشعب ينتخب والكهنة ينتخبون ، فانتخابكم قد تم فاعطونا حق الانتخاب نحن ، فقلنا : إذا نظموا مضبطة وانتخبوا من تشاؤون علاوة على المتولين الذين انتخبناهم نحن ، فقال الشعب : لماذا لم تطلبوا بهذا الحق قبل اليوم ؟ ولماذا لم تذكروا ذلك يوم انتخبنا ؟ فقالوا : إن انتخابكم كان عموماً أي للمدارس والكنائس والمستشفيات وسائر المؤسسات الخيرية ولذلك لم تتعرض لكم في شيء ، وأما الآن والمقصود ، انتخاب وكلاء للكنيسة فقط ، فلنا الحق أن ننتخب ، فقلنا للشعب : إذا هانت المسألة وليس فيها ما يتوهم أن البطريك يحاول إجبارنا على انتخاب تودر يانكو إجباراً ، وجل اعتراضنا كان على هذه المسألة والكهنة منا وفينا ، فإذا انتخبوا فكأننا نحن الذين انتخبنا ، وبقي هذا الحق لنا ، وإذا كنتم لا تريدون تودر يانكو فيكمي أنه ليس منتخبكم ، وإذا كنتم لا تأمنون جانبه فهو واحد من أربعة فلا يستطيع أن يقدم أو

يؤخر، فضلاً عن أن هذه المسألة ثانوية، فلا يجب أن نقيمها حجر عشرة في سبيل تنفيذ القرار. ثم قمنا وتركنا الكهنة ينظمون مضبّطهم، وذهبت لأبلغ عزمي بك النتيجة، وكان قد أرسل إليّ مرة ثانية أنه ينتظرنى الساعة الواحدة والنصف في لوكدة فاست. وإذ وجدت متسعاً في الوقت رأيت أن أذهب أواجه عبد الحميد باشا أولاً، فوجدته متأثراً من جرجي زخريا فلطفت خاطرته، وقلت له: نعم إن رفضنا أن نسمع كلامك صعب علينا وعليك، ولكن أن تطلب منا شيئاً فنفرض أصعب، ثم قصصت عليه ما جرى، ثم تركته وذهبت عند عزمي بك، فقال: أرسل إليّ الكهنة مضبّطة انتخبوا فيها تودر يانكو وثلاثة من منتخبكم وهم مخائيل اطليل ونخلة كزن وأنصوني حانيا، وقلت له كيف أقتنعنا الشعب ومع ذلك فلا يزال فريق منهم يعترض، ثم قال لي: خذوا الكهنة وفريقاً من الشعب وواجهوا البطريرك قبل الساعة الثالثة ليعاد فتح المجلس، فنزلت لأبلغ الكهنة، وطلبت جرجي زخريا فقبل: إنه في المجلس العمومي، فذهبت إليه وأخذته عند عزمي بك وذهب معنا أنصوني الغوري وبلغناه أننا عملنا حسب إشارته. ثم ذهبنا ودعونا الشعب والكهنة إلى بيت الخوري عيسى، وذهب معنا راغب بك النشاشيبي، فقامت وقلت للشعب: إن القومسيون عمل كذا وكذا، فيجب أن تتساهل في قبول تودر يانكو، ولا نجعل من ذلك حجر عشرة في سبيل العمل. ومن هناك قمنا وذهبنا إلى البطريركية ودخلنا الصالون، وكان هناك المطارنة وعدد كبير من رجال الدير، وابتدأت المجاملات الكاذبة. جعل البطريرك يسأل عن صحة هذا وذاك حتى انتهى إليّ وقال: كيف صحتك، فقلت: مثل الحديد. ثارت نفسي، رأيت أنني لا أستطيع أن أكون في الملة الأرثوذكسية بعد اليوم، لا أستطيع أن أكون تحت رئاسة هؤلاء الرهبان الفاسدين ولا من تلك الملة، وقلت: هوذا قد أكملت عملي، فيجب أن أقطع كل علاقة لي مع الكنيسة الأرثوذكسية. ثم قاموا ليعقدوا جلسة أولى للمجلس المختلط، وقبل أن ينصرف أحد خرجت وذهبت علمت مس أندرسن... ولست أعرف ماذا تم بعد ذلك، ولا أريد أن أعرف. لست أرثوذكسياً بعد اليوم. إن بقائي في هذه الكنيسة ينغص عيشي ولا يفيدني شيئاً ولا يفيد أحداً. نفسي مشمّزة وشعوري مسموم. خدمتك أيها النهضة خمس سنوات ضحيت فيها أوقاتي وجاهدت جهاد الأبطال، أما وقد وصلنا إلى ما وصلنا إليه الآن، فهذا آخر العهد بك. لست أرثوذكسياً لست أرثوذكسياً... اتفقت مع سلطانة أن نطلب من مطران الإنكليز أن نعمد سرّياً في كنيسته في أقرب وقت... لو تركت الكنيسة الأرثوذكسية وانقطعت عن النهضة قبل اليوم، لقالوا: هربت من الواجب وختت النهضة، ولكن الآن وقد فتحوا المجلس المختلط وانتخبوا وكلاء للكنيسة واستقلوا بمدارسهم واصطلحوا مع البطريرك ورجال الدير، وضغطت على نفسي وقسرت طبعي وذهبت معهم إلى الدير، وقبلت يد بطريركهم، فلا لوم عليّ إذا انقطعت عن العمل، بل إن ذلك أشرف لي وقد وعدوني أن أكون في نظارة المدارس بمعاش لا يقل عن خمس عشرة ليرة في الشهر، وأنا في حال يعلمها الجميع ولا يصبر عليها أحد. إن

خروجي من الكنيسة وانسحابي من النهضة في مثل هذا الوقت، وقت اقتسام الغنائم، هو عين الشرف وعنوان الفخر. بل إن خروجي اليوم وفي بقية من الهمة والنشاط أضمن لمستقبلي وأوفق لمبادئي، لأنني لو بقيت في الكنيسة أشتغل في هذه النهضة مع أناس لا يفهموني ولا أفهمهم، لا يوافقونني على مبادئ وأخلاقي ولا أوافقهم، مما يجذبني إلى الوراثة ويفضي بي إلى الانحطاط وينغص عيشي ويورثني آلاماً نفسانية لا طاقة لي عليها. ثم لو كنت أعتقد أن التعب في سبيل إحياء الكنيسة الأرثوذكسية وإصلاح شؤونها مما يجدي أقل نفع، لربما أرغمت نفسي على متابعة العمل، ولكنني صرت أعتقد اليوم بعد الاختبار الطويل، إن الكنيسة الأرثوذكسية بلغت من الكبر عتياً، ووصلت من الانحطاط إلى درجة قصوى لا يمكن معها أن تحيا وتلحق بالكنائس الأخرى. وخير من محاولة إصلاحها على غير جدوى أن يفصل الناس عنها الواحد بعد الآخر، حتى لا يبقى فيها إلا رؤساء ساقطون وشعب جاهل خامل، لا يلبث أن يضمحل ويتلاشى فتداعى الكنيسة وتصبح أثراً بعد عين.

كانون الثاني سنة ١٩١٤م

الثلاثاء ١٣ كانون الثاني و ٣١ كانون الأول و ١٥ صفر

اليوم أفتح صفحة جديدة من حياتي. ومما يسرنني أن هذا الدور الجديد لم يصادف إلا هوى ورضى عند سلطنة وأمي وأختي وحسبي ذلك. اتفقت مع سلطنة أن نواجه اليوم مسس واي Mrs Way ونطلب منها أن تسعى لدى المطران بخصوص تعميم سري في كنيسته. عند الساعة التاسعة والنصف أخذنا سرياً في عربته ودرجنا به إلى مستعمرة الأميركان لنضعه عندهم، ريثما نواجه مسس واي المذكورة. فاستقبلونا بما فطروا عليه من اللطف والأنس... فتركت سلطنة سرياً عند جدته الجديدة مسس وايتنك Mrs Whiting وذهبت. وذهبت أنا إلى مدرسة الأميركان لأسأل السيدة الموكلة بعز الدين عما يلزمه لأنهم قبلوه اليوم كداخلي، بعد أن أقام عندنا سنتين وثلاثة أشهر وألفنا وألفناه وأصبح كعضو من عائلتنا. أرجو أن يضمن له دخوله مستعمرة الأميركان مستقبلاً مجيداً جميلاً إن شاء الله. اعتمدت أن أهتم بمدرستي أقصر عليها كل اهتمامي وأقف عليها كل أيامي. لست أطمع أن يكون دخلي منها كافياً، ولكن أرى في استقلالي بنفسني واعتمادي عليها غبطة وسروراً... وسأهتم أيضاً بدروسي الخصوصية. ولعل [نظارة] المعارف إن فتح المكتب السلطاني أو دار المعلمين، أن يتدبوني للتعليم في أحدهما كما وعدني مدير المعارف. وعلى كل حال فإنني مطمئن مغتبط مسرور. ذهبت أفتش عن صاحب السينما توغراف^(١١)، لأتفق معه على الليلة التي

(١١) السينما توغراف: قد تعني آلة العرض السينمائي، وقد تعني فن إنتاج السينما.

سيحيها لمنفعة المدرسة الدستورية فلم أجدته، وسأقتش عنه غداً . . . قابلت سلطنة مسس واي فسرت بما اعتمدنا [=اتفقنا] عليه، وطلبت أن تكون إشيينة سري في عماده. وستواجه اليوم المطران وترد لنا الجواب. لم يكن ليسألني أحد عن النهضة الأرثوذكسية إلا أعلنت له انسحابي منها وخروجي من الكنيسة الأرثوذكسية، فيستغرب ويتأسف.

جاءني في بريد المساء ربطتا رقبة جميلتان من يعقوب جريس خليل، أحد أبناء رام الله المهاجرين إلى أميركا هدية رأس السنة، وقد أرسل إلي قبل اليوم نسختين من مجلة أميركية وأعداداً كثيرة من جرائد أميركية. سأكتب له وأثني على وفائه وولائه وفضله . . . سيكون هذا اليوم الذي انسحبت فيه من النهضة، وخرجت من الكنيسة الأرثوذكسية عيداً عظيماً عند الرهبان، وسيقابل المعلمون الأذلاء الأخساء وسائر صنائع الدير وآلاته خبر استعفائي من نظارة المدارس، وانسحابي من النهضة، وخروجي بتاتاً من الكنيسة بسرور عظيم . . . كما سيقابل هذا الخبر كل ذوي النفوس الصغيرة والعقول الضيقة والههم الفاترة بالدهشة والاستغراب . . . ومن المنتظر أن الملة حين يبلغها ذلك ترسل إلي وفوداً ليحملوني على العدول عن هذه الخطة، وبالغوا في تخجيلي ويتوسطوا أصدقائي لدي، ولا يتركوا واسطة من الوسائط حتى يتخذوها لأبقي في الكنيسة الأرثوذكسية وأواصل العمل، ولكن عقدت النية أن لا أرجع عن خطتي الجديدة مهما تخرج موقفي.

الأربعاء ١٤ و ١ كانون الثاني / ١٩١٤ و ١٦ صفر

اليوم عيد زواجنا فيكون قد مر علينا سنتان. وفي هذا اليوم يبلغ سري أربعة أشهر من عمره. قمنا صباحاً وأفطرنا كعادة احتفالاً بالعيدين. عيد زواجنا وعيد سري. ثم نزلت أعيد على أقاربي وذوي، فزرت אחتي هيلانة وعمي طناس وابنة عمي لبيبة وابنة عمي حنة. بلغني أن الطائفة تفتش عني. جاءتنا رسالة من ابنة المطران تدعوني أنا وسلطنة لمواجهة المطران غداً، وقد أرسلت إلينا ثلاث نسخ من صورة سري التي أخذوها يوم زارتهم سلطنة أخيراً. تتابعت الرسل إلى البيت يدعوني فاضطرت أن أكتب رسالة إلى جرجي زخريا، أكلفه أن يعلن انسحابي من النهضة وخروجي من الكنيسة الأرثوذكسية. بعد الظهر جاء جرجي زخريا مع جمهور كبير من الملة فخرجت، قبل أن يصلوا، من الباب الآخر، ومشيت على طريق جبل الزيتون حتى كدت أصل دار المعبدي وأنا أفكر في أمري، ولم أرجع إلا بعد الساعة الرابعة، فقيل لي: إنهم قالوا لا يتركونني أبداً وإنهم سيجيئون في المساء بعدد كبير من الملة، فلم أربداً أن أذهب إلى مكتب جرجي زخريا لأشكره وأكلفه أن لا يجعل للمسألة أهمية، فلقيت هناك بعض أفراد

الطائفة وبعض كبار المسلمين فبادروني بالعتاب والتخجيل . قالوا : كسرت قلوب الملة الأرثوذكسية بأسرها وسيّت لها حزناً عظيماً في مثل هذا اليوم . إذا تركت الملة فهي لا تترك فانت ابنتها وزعيمها ؛ تعبت كثيراً ، وجاهدت في سبيل نهضتها جهاد الأبطال ، لم يتوكل كلال ولم يتخون همك فتور . أين الاجتماعات التي كت تعقدها ، والخطب التي كت تلقيها والرسائل والمناشير والكراريس والكتب المفتوحة التي كانت توحىها إليك وطنيتك ، ويدبجها قلمك البليغ؟ إذا كت تعبت فاشتغل شهرين أو ثلاثة ريثما يمشي العمل ثم استرح ، أو كت رأيت شيئاً لا يروقك فقل لنزيله . ولم يزالوا بهذا الكلام ومثله وأنا أعتذر وأتأسف وأشكر وأهون الخطب وأتمس العذر وأستميح العفو على غير فائدة . ثم قام جرجي زخريا وهو يكاد يبكي وقبلني وأخذ كل واحد من الحضور يصفحني ويرجونني حتى كدت أذوب خجلاً . . . فلزمت السكوت ، فاعتبر ذلك رضى . ثم قالوا لنذهب عند عبد الحميد باشا ونشكره باسم الملة فقد ذهبنا اليوم إلى الشكّة العسكرية فلم نجده . فلم يسعني إلا أن أذهب معهم . . . في المساء أرسل إليّ يعقوب ابن خالتي رقعة يقول فيها :

«عزيزي خليل . كل عام وانت مع جميع أفراد العائلة بصحة وسرور . وقتي لا يسمح لي أن أواجهك . أخذت عنك خبراً أزعجني جداً . لا أقدر أن أصدقه ولن أصدقه أصلاً . سمعت أنك ستعمد ابنك عند البروتستانت . هذا عيب ولا يليق بك أنت صاحب المبدأ . أنت تعرف من هم البروتستانت . المذهب هو مبدأ وليس ثوباً يغيره الإنسان حين الحاجة . إذا كت لا تحب أن تشتغل في أمور الطائفة فلا أحد يجبرك على ذلك . جميع أصدقائك تكذبوا من هذا الخبر حتى الخواجا أنتيوف (كتسليرووسيا) ، ولا أقدر أن أصف لك اندهاشنا من هذا العمل . آمل منك أن ترجع عن عزمك وتقبل خالص محبتي .»

فقرأت الرسالة على سلطنة واستغربنا هذا الاهتمام ، على حين يعرفون أنني لست ممن يتاجرون بالدين . وهل إعلاني أنني خرجت من الكنيسة الأرثوذكسية يجعلني بروتستانتيّاً؟ وهل الكنيسة البروتستانتية تقبلني وكل رؤسائها يعرفون أفكارني ومبادئني؟ إذا كانوا لا يقبلونني معلماً في مدارسهم لما يعرفون من حرية أفكارني وفساد عقيدتي ، فهل يقبلونني عضواً في كنيستهم؟ وهل يقبلون أن يعمدوا سرّياً وأنا وسلطانة لم نعتق البروتستانتية بعد؟ إذا كت لا أرضى عن الأرثوذكسية وأنا لست منها في شيء ، ولا أحد يسألني عن صلاتي وصيامي ، فهل أطيق أن أكون بروتستانتيّاً؟ فإذا تهاونت في فروضي الدينية ألقوني وتقاضوني [=الزوموني] حضور الصلاة والاجتماعات الدينية ، والقيام بسائر ما هناك من الفروض التي لا أسلم بها ولو كت مجنوناً . نعم إن للبروتستانتية مزايا كثيرة على غيرها من المذاهب المسيحية . يكفيها أن لا رهبة فيها ، وأن كل عضو من أعضائها ولي أمره مستقل بنفسه يقرأ الكتاب المقدس ويفهم على قدر اجتهاده واستعداده ،



سلطانة و خليل مع سري العام ١٩١٤ . من مجموعة عائلة
السكاكيني

لا يتقيد بأقوال آباء ولا يسلم تسليم أعمى ، إلى آخر ما هناك من المزايا . ولكن أصول البروتستانتية تشبه أصول كل دين ، فهي وبقية المذاهب سواء . . . بل أفضل أن أكون أرثوذكسياً أولاً لا اعتزازي بقومي ، وثانياً لأن الأرثوذكسية اسم بلا مسمى ، فإذا شئت أن تعتبرها ديناً كانت ديناً والعكس بالعكس ، وثالثاً لأن هناك مجالاً واسعاً للعمل ؛ لو شئت أن أعظ في الكنيسة كما أريد وأبث من الأفكار ما شئت لما ينكر علي أحد . ذلك وقد فعلت قبل اليوم حين كنت أعظ في كنيسة مار يعقوب وأفسر الإنجيل تفسيراً لم يفسه أحد قبلي ، فلا أجد معارضاً أو منكراً . والخلاصة فإنني لم أعلن أنني خرجت من الكنيسة الأرثوذكسية إلا على أمل أن أرتاح قليلاً من النهضة الأرثوذكسية التي أنهكت قواي وغلت يدي عن كل عمل . . . وما دام الناس يعتبرونني أرثوذكسياً رجعوا إلي في أمورهم وتقاضوني الاشتراك معهم في العمل .

الخميس ١٥ و ٢ كانون الثاني ١٩١٤ و ١٧ صفر .

بعد المدرسة أخذت سلطنة وذهبت أواجه مطران الإنكليز فسألني : ماذا أريد؟ قلت له : لي طفل عمره أربعة أشهر وإلى اليوم لم يعمد ، لما تعرف من الحرب بيننا وبين الرئاسة الروحية ، فإذا شئت أن أعمده عند الروم ، فلا يقومون بخدمة دينية إلا بعد أن [اعترف] بهذه الرئاسة ، وأنا أنكرها الآن . فقال : لا دخل لهذه الحرب في الفروض الدينية ، وفضلاً عن ذلك فإنني إذا عمدته في كنيستي فلا تعترف كنيستكم بعماده ، بل لا بد أن تعيد عماده ، وهذا لا أقبله . ثم أفاض في الكلام عن وجوب القيام بالفروض الدينية ، وعن فوائد العماد الروحية .

من ١٥ كانون الثاني غ إلى ١٥ شباط غ / ١٩١٤م

انقطعت عن الكتابة كل هذه المدة لأسباب عديدة أهمها اضطراب نفسي بحيث لم أكن أجد في نشاطاً للكتابة . . . وأهم حوادث هذه المدة :

١ - عين لي المجلس العمومي ثلاثين ليرة عثمانية مساعدة سنوية للمدرسة [الدستورية] ، فيكون مجموع دخل المدرسة ما عدا الرسوم التي تقاضاها من الأولاد مئة وعشرين ليرة عثمانية . وهذه القيمة على قلتها لا يستهان بها ، فإذا استطعت أن أدبر موارد أخرى ضمنت سير المدرسة ، بل أرجعت لها عصرها الذهبي في سنواتها الثلاث الأولى . فإما أن أفتح كتاباً سنوياً يشترك فيه أصدقاء المدرسة في سوريا وفلسطين ومصر وأميركا ، يدفع كل واحد خمسة فرنكات في السنة ، وإما أن أقيم بازاراً مرة في السنة أو

أعمل يانصيباً ، إلى غير ذلك ، وسأدرس هذه المسألة بما تستحق من الاهتمام .

٢ - أحييت ليلة سينماتوغرافية مساء يوم الجمعة الواقع في ١٧ و ٣٠ كانون الثاني سنة ١٩١٤م في محل الخواجا أوجين جوريتش الكائن في بستان أنتيموس على طريق يافا . وقد كان البيع في أول الأمر قليلاً بحيث كدت أنوي أن أعدل عن إحياء هذه الليلة ، ولكن لم تلبث أن أقبل الناس على مساعدة هذا المشروع ، وكان الدخل لا يقل عن خمس وعشرين ليرة فرنساوية ما عدا المصاريف ، فدفعت من ذلك بقية أجرة الدار وبعض معاشات المعلمين .

٣ - وردتني عدة نسخ من الجريدة الفرنسية التي نشر فيها أشيل سيقلي المقالة الفرنسية عن قنصل روسيا ومدير البوسطة الروسية الخواجا سلاميان ، فدفعتها إلى يعقوب بن خالتي ، لأنه لم يشأ أن نوزعها على الناس ، ثم لم تلبث أن رأيناها مترجمة في جريدة فلسطين .

٤ - كتبت رسالة إلى الخواجا أشيل سيقلي أشكره على رسالته المذكورة وأحثه على متابعة الكتابة في هذا الموضوع ، لعل الرجل يرتدع عن مشايعة الرهبان وتأييد جانبهم ، أو لعل روسيا تستبدله بآخر أعرف بتقاليد روسيا الأدبية وأحرص على مصالحها ، وطلبت منه أن يفتش لي عن شغل في مصر كمعلم ، لأن مستقبلي في القدس أصبح مظلماً وحياتي صعبة . وقد نويت أن أكتب أيضاً إلى الكلية الأميركية في بيروت .

٥ - وفاة ابن خالي داود يوسف الحرامي ، أحد الذين أصابهم رشاش الرصاص في عيد الغطاس في أريحا ، فحملوه إلى المستشفى الألماني فأقام فيه خمسة عشر يوماً ، بذلوا فيها جهدهم ولكن على غير جدوى ، فمات في مقبل العمر وجدة الشباب . وكان رحمه الله جميل الصورة قوي البنية مكنتز العضل نشيطاً رضي الأخلاق ، وكانت جنازته حافلة جداً ، حمله الشبان على أكتفهم إلى القبر .

٦ - وردتني رسالة من الخواجا بندلي الجوزي يشني فيها على همتي ووطنيتي ويستحني على المضي في خطتي والاستمرار على عملي ، وقال : إنه بسبب مرضه في هذه المدة اضطر إلى تأجيل حضوره إلى القدس إلى صيف سنة ١٩١٥م .

٧ - قدمت محاضرة في نادي جمعية اتحاد الشبان المسيحيين عن المتنبي قابلها السامعون بالإيثار والاستحسان ، تكلمت عنه ككثير وكبي وكشاعر .

٨ - في ١٤ و ١٥ شباط سنة ١٩١٤م بلغ سري الشهر الخامس من عمره . لا يزال إلى اليوم يعيش على حليب أمه . صار أكثر حركة واتباهاً . إذا ألقناه على ظهره يرفع رأسه كأنه يهيم أن يجلس . لا تدني إليه شيئاً إلا تناوله بإحدى يديه ، والأغلب اليسرى أو تناوله بيديه معاً وأدناه من فمه . .

٩ - ألفت صفحاً ليلياً لدرس اللغة العربية اشترك فيه يعقوب الغصين وصبحي الغصين من الرملة وموسى

العلمي وحسن جار الله وشكري رصاص وحناء حمامة وأنصوني مشبك . وقد ابتدأت معهم في درس البحري فأخذنا قصائده التي مدح بها بعض الوزراء والأمراء بما فيهم وبما يجب أن يكون فيهم ، فكاننا كنا ندرس واجبات الحكام والصفات التي يجب أن يتلبسوا بها ، وكنا نعرض حكام الدولة العثمانية من وزراء وولاة ومتصرفين على تلك القواعد وقيسهم بتلك الأقيسة ، ثم نتطرق إلى بيان ضعف الدولة العثمانية وأسباب انحطاطها ، إلى آخر ما هنالك مما لو علمت به الحكومة العثمانية ، لكنت بادرت إلى تعطيل مدرستي ونفيي من هذه البلاد . . .

الاثنين في ١٦ و ٣ شباط سنة ١٩١٤م و ٢٠ ربيع الأول

ذهبت لأعلم تلميذا لي في لوكدة فاست اسمه الخواجا أبري ، وهو يهودي فلم أجده لأنه ذهب إلى يافا لاستقبال روتشلد كبير اليهود في هذا العصر ، مع ما يقال عن نهوض الأمة اليهودية وتنبه شعورها الجنسي [= القومي] ونزوعها إلى إعادة حياتها الاستقلالية في فلسطين ، فإني لا أزال أرى فيها تلك الأمة المنحطة . على أنني سأدرس هذه المسألة بما تستحق من الاهتمام ، وأبين رأيي فيها في غير هذا المحل إن شاء الله . إذا كانت الأمم تمر بها أدوار تنام فيها وتستغرق في سباتها ، فالأمة العربية اليوم في دور سباتها . ولكن مع ما بلغت إليه من الضعف والانحطاط فإنها لا تزال أرقى من الأمة اليهودية . وهي لا تحتاج في نهوضها من دركات تأخرها ووهنها إلا أن يتنبه فيها شعورها الوطني .

الثلاثاء في ١٧ و ٤ شباط سنة ١٩١٤م و ٢١ ربيع الأول

خطر لي أن أقدم إلى متصرف القدس استدعاء أطلب فيه منه تعييني كمعلم في المكتب السلطاني ، واني مستعد أن أدخل في مسابقة مع جملة الطالبين . عرضت هذا الفكر على حسين أفندي سليم فشجعني عليه . اليوم بعد الظهر نزلت مع سلطنة عند الخياطة لتقيس بدلة لها ، فرأينا اليهود يتأهبون لاستقبال روتشلد ، فوقف الجماهير منهم من لوكدة كافتس حيث ينزل روتشلد إلى المحطة ، وخرج تلامذة المدارس بأعلامهم إلى المحطة لاستقباله ، ولكن لم أجد في مظاهراتهم ما يروع ويستحق الالتفات . الأمة العربية تحتاج إلى رجل مثل روتشلد ينفق أمواله في سبيل إحيائها . . مع ما يستولي علي أحيانا من اليأس من نجاح هذه الأمة العربية ، وما أجده من الحطة في انتسابي إليها ، فإني لا أستطيع إلا أن أكون وطنيا ، بل أفضل أن أنتسب إلى أمة ولو بلغت من الانحطاط ما بلغت من أن أكون عاريا من كل جنسية ، مجردا عن كل وطنية . نعم لا أنكر أن الإنسانية صائرة إلى الوحدة ، وأن هذه الفوارق الجنسية والدينية ستزول في المستقبل القريب أو البعيد ،

ولكن ما دامت كل أمة تعدّ بجنسيتها وتفاخر بها وتسعى في إعلاء شأنها ، وتخلق لنفسها آمالاً تملأ جانب تصورها ، وتملك كل عواطفها وتضرم قلوبها وتثير حماسها ، فمن العجز أن أتبرأ من جنسيتي في دور انحطاطها . . . بل لو كنت من جنسية راقية مثل الجنسية الإنكليزية أو الفرنسية أو الأميركية لكنت وفقت حياتي على خدمة الأمة العربية وبذلت وسعي في إنهاضها وإقامة أحوالها ، لتلحق ببقية الجنسيات ، فليس من العدل أن ترقى بعض الجنسيات إلى أعلى ذروات المجد ، وينزل بعضها إلى دركات الذل والهوان . وإذا كنت أكره الحركة الصهيونية فلا أكرهها إلا لأنها تحاول أن تبني وجودها الاستقلالي على أنقاض غيرها . . . ولست أعجب إلا من الحكومة العثمانية التي ترى ذلك ولا تتلافاه ، ومن الحكومات الأوروبية التي تحاول أن تتخلص من اليهود على نفقة غيرها . لست أكره أن تسعى الأمة اليهودية في سبيل وجودها الاستقلالي ، بل أحب أن كل أمة متفرقة منحطة أن تنهض وتتضامن وتعيش مستقلة . ولكن الذي أكرهه هذا المبدأ الذي قامت عليه حركتها ، وهو أن تذلل غيرها لتعز وتقتل أمة بأسرها لتعيش ، فكأنها بذلك تحاول أن تسرق استقلالها سرقة ، وتختلسها من يد الزمان اختلاساً ، ولا عجب فهذا شأنها في كل أمر . وهذا ما جعلها مكروهة ممقوتة عند كل الأمم . . . وأي فخر لها أن تنال استقلالها من هذا السبيل ؟ بل إن هذا الاستقلال الذي ينال بالدرهم وتنتهز فيه فرصة سبات الأمم الأخرى وضعفها وخمولها لهو استقلال ضعيف قائم على رمل . ماذا يعمل اليهود إذا تنبّ الشعور الوطني في الأمة العربية ، فهل تستطيع معها ثباتاً ؟

أيملك الملك والأسياف ظامئةً
والطير جائعة لحم على وخم
من لو رأني ماء مات من ظمأ
ولو عرضت له في النوم لم ينم
ميعاد كل رقيق الشفرتين غدا
ومن عصى من ملوك العرب والعجم
فإن أجابوا فما قصدي بها لهم
وأن تولوا فما أرضى لها بهم

(المتنبّي)

كانت هذه الآيات درس هذا النهار مع تلامذة الصف الثالث ، فحدثهم عن الصهيونية ومقاصدها ووسائلها ، وطبقت هذه الآيات على حالتنا معهم فكان لذلك تأثير كبير على نفوسهم ، حتى أن أحد التلاميذ وهو ألماني

اسمه خريستوف هوفمن قال لي: إن المتنبي مثل [الشاعر الألماني] شلر، وعزم على شراء ديوانه وحفظ هذه الأبيات وغيرها منه، بل خطر لي أن أكلف أحد الموسيقيين أن يضع لها نغماً حماسياً فنجعلها نشيدنا الوطني.

الأربعاء في ١٨ و ٥ شباط سنة ١٩١٤م و ٢٢ ربيع الأول

كُتبت صورة الاستدعاء الذي سأقدمه إلى المتصرف بطلب تعييني كمعلم في المكتب السلطاني، وأخذته وذهبت إلى المجلس البلدي وأريته لحسين أفندي سليم، فقال: تعال غداً قبل الظهر، وأنا أذهب معك عند المتصرف وأكلمه بشأنك. لم أزل كل النهار أفكر في حالة الأمة العربية، وعندني أن نهوضها واسترجاعها مجدها القديم وتكوين أمة حية راقية منها، كل ذلك أقرب من تكوين الأمة اليهودية لأسباب عديدة سأقتصر على البعض منها هنا:

١ - إن الأمة العربية مع انحطاطها وتفرق كلمتها وتخاذلها وتقاطعها وخمولها فإنها لا تزال تجمعها جامعة، فعرب الجزيرة والعراق وسوريا ومصر وأفريقيا كلهم إلى اليوم يتكلمون اللغة العربية. نعم تختلف اللهجات العامية، ولكن بسبب المدارس وكثرة الجرائد والمجلات والكتب أخذت اللهجات العامية ترتقي وتتقارب، كما أن اللغة المكتوبة دبت فيها الحياة وأصبحت بسبب انتشار الجرائد وإقبال الناشئة على المدارس مألوفة مفهومة، ولا يبعد أن يجيء وقت تتقارب اللهجات العامية من اللغة المكتوبة فتصبح اللغتان لغة واحدة.

٢ - إن الأمة العربية كثيرة العدد، فإذا نهضت وتضامنت كانت أمة قوية الجانب يخشى بأسها ويخطب ودّها.

٣ - إن الأمة العربية متجاورة في خط متصل من جزيرة العرب إلى العراق إلى سوريا إلى مصر إلى أفريقيا، وليست كالأمة اليهودية المتفرقة في العالم، المختلفة في الأخلاق والأفكار والمصالح. فاتحاد الأمة العربية أهون من اتحاد الأمة اليهودية، ليس فقط بتجاورها، ولكن لأنها لا تزال تتكلم لغة واحدة، واللغة أهم جامعة تجمع الناس.

٤ - لأن ثلاث مئة مليون مسلم يعطفون على الأمة العربية ويحترمونها ويؤيدونها، وهي في ذلك ليست كالأمة اليهودية التي لا يعطف عليها أحد لأسباب عديدة:

(٤ - ١) لانحطاط مبادئها الاجتماعي فهي مكروهة في كل محل.

(٤ - ٢) لأن المسيحيين يعتقدون أن الأمة اليهودية متمردة على الله لأنها رفضت المسيح الموعود به.

(٤ - ٣) لأن المسيحية والإسلامية تعتقدان أن الأمة اليهودية هي التي قتلت المسيح، وسمت محمداً.

(٤ - ٤) لأن الأمة اليهودية تحاول أن تبني وجودها الاستقلالي على أنقاض غيرها ، إلى غير ذلك من الأسباب .

٥ - لأن العربية مع انحطاطها لا تزال فيها بقايا تلك الأخلاق الكريمة التي كانت من أهم الأسباب في نهضتها عند ظهور الإسلام .

٦ - لأن للعربية تاريخاً مجيداً تفاخر به ينزع بها إلى أوليتها وسابق عهدها .

٧ - إن أدبيات الأمة العربية غير أدبيات الأمة اليهودية . فأدبيات الأمة العربية حماسية وأدبيات الأمة اليهودية مرث ومناحات ، فهي عبارة عن أفيون ليشل الأعصاب ويقتل النفوس إلخ

الخميس ١٩ و ٦ شباط و ٢٣ سنة ١٩١٤ ربيع الأول

نزلت قبل الظهر إلى المجلس البلدي فلقيت رئيسه حسين أفندي سليم فذهبت معه إلى دار الحكومة لنواجه المتصرف وتقدم له الاستدعاء وهذه صورته :

«لما كنت من المعلمين الوطنيين الذين زاولوا مهنة التعليم مدة طويلة في مدارس القدس على اختلاف درجاتها ونزعاتها ، ووقفوا على الأساليب السهلة الحديثة عن طريق الدرس والاختبار ، وتبسطوا في آداب اللغة العربية وأحكامها ، أرى أن لي الحق أن أتمس من عطوفتكم إن احتجتم إلى معلمين في المكتب السلطاني ، الذي لم يقم إلا بهمتكم السماء ، معلمين مخلصين وقفوا حياتهم على خدمة وطنهم يربون الناشئة على المبادئ الوطنية ، ويبشون فيهم روحاً جديدة يدخلون معها إلى ميدان العالم برؤوس مرفوعة وبصائر نيرة ، وهمم عالية ونفوس كبيرة ، أن تذكروا هذا العاجز ، وإني مستعد أن أدخل في المسابقة مع جملة الطالبين والأمر لمن له الأمر ، مولاي . . . » فلما خلا المجلس ، قال الرئيس : إن خليل أفندي السكاكيني رئيس المدرسة الدستورية من المتضلعين بآداب اللغة العربية ، الخبيرين بأساليب التعليم والتربية الحديثة ، الغيورين على وطنهم المتفانين في خدمته ، فإذا عيناه في المكتب السلطاني أفاده كثيراً ، فقال المتصرف : أعرف ذلك ، ثم استدعى مدير المعارف ونظر معه في تعييني في المكتب المذكور ، فقال المدير : إن المكتب الآن في أول نشأته والتلاميذ قليلون ، فلا يحتمل معلمين ، لأن المعلم الأول وهو الشيخ موسى البديري قد عينته نظارة المعارف في الأساتنة لأنه من المعلمين القدماء وهو الآن يكفي ، ولكن في السنة القادمة متى زاد عدد التلاميذ وكملت الصفوف ، فلا غنى عن معلم آخر ، وحينئذ فليس أحق من المعلم خليل السكاكيني ، لأنه مشهور في معارفه وأساليبه الحديثة . فارتأى المتصرف أن يدبر لي درساً ليلياً في المكتب المذكور ، وقال حسين أفندي سليم : إن المعلم خليل مستعد أن يعلم مجاناً الآن ، ولئلا نحرّم خدمته فليأخذ ولو درساً واحداً في الأسبوع ، وليكن ذلك يوم الجمعة من كل أسبوع فاستمهلهم المدير ريثما يدبر ذلك ، ثم قمنا

وانصرفنا . ذهبنا مع مدير المعارف فقال : سنؤسس داراً للمعلمين ، وهناك لا غنى عنك ، وقد قال ذلك أيضاً للمتصرف ووعدني أن يعطيني الجواب يوم الإثنين القادم . . . مهما يكن الأمر فقد مكنت رجلي في المكتب المذكور ، وإذا أخذت فيه ولو درساً واحداً ألهمت نفوس التلاميذ واستملت قلوبهم وبشت فيهم روحاً جديدة . وفي أول فرصة يخلو مركز فيه أو يحتاجون فيه إلى معلم آخر انتدوني ، وسيكون ذلك دوراً جديداً في حياتي . . .

قال لي حسين أفندي سليم : إن روتشيلد تبرع بألف ليرة مساعدة للمسلمين . وإن في نيته [أي : حسين أفندي] أن يؤسس جمعية على شكل جمعية اتحاد الشبان المسيحية ، يسميها جمعية الناشئة الإسلامية ، وأنه سيعتمد عليّ فيها . . . في المساء جاء تلاميذ الصف الليلي فأعطيتهم موضوعاً للإنشاء : الأمة العربية والأمة الإسرائيلية^(١٢) ونهوض أيتهما أقرب منالاً وأكثر احتمالاً ، ولقنتهم رؤوس أفكار في الموضوع . . . ثم فاوضتهم في تأسيس جمعية لهم ، وإصدار جريدة يتولون كتابتها فقالوا متى ذلك؟ متى ذلك؟ مما شف عن تعطشهم إليه واهتمامهم به ، فوعدتهم أن أدرس المسألة قريباً وأبلغهم ما يقر عليه الرأي والله الموفق . . .

الجمعة ٢٠ و٧ شباط سنة ١٩١٤ و٢٤ ربيع الأول

نقوم صباحاً باكراً عند الساعة الخامسة أو قبلها أو بعدها على زقزقة سرّي ، فأخذه إلى فراشي وأداعبه قليلاً ريثما تكون سلطانة قد أغلت القهوة فنشرب ، ثم أخرج إلى الهواء الطلق أمام الدار ، والفجر لم يبزغ بعد ، وألعب ألعابي الرياضية فأروض رجلي ويدي ورقبتي وبطني وخاصرتي وكل جسدي ، ثم أشرب أركيلتي فأكتب أو أقرأ ، ثم أستحمّ بالماء البارد وأنشف جسمي جيداً ، وألبس ثيابي وأذهب ركضاً إلى دروسي الخصوصية . . . أحسُّ بنار تلهب في جسمي إذا مشيت نهبت الأرض نهباً ، ثم لا أتمالك أن أركض ، وليس في القدس من وطنيين وأجانب من يركض في الطريق غيري . لا يزداد شبابي مع الأيام إلا رواء ولا همّتي إلا علاءً ولا فكرتي إلا مضاءً ولا نفسي إلا إباء . . . ومع ما لقيته وألقاه من عثرات الآمال وصدّات اليأس ، فإني بالغ من دهري ما أريد . . . سأعالج هذه الأمة العربية وأبث فيها الحياة وكل آت قريب . . . التقيت اليوم بإسعاف النشاشيبي وحدثته عما أنويه من وضع مقاله في الأمة اليهودية والأمة العربية ، فأعجب بما سردته عليه من الأفكار والآراء ، وقال : لم يستوف أحد قبلك هذا الموضوع . ثم حشّته على متابعة الكتابة في آداب اللغة العربية وتوخي العبارة المأنوسة المألوفة . . . خطر لي أن ألقى محاضرة في الموضوع المذكور أدعو إليها الناشئة والمتأدبين من المسلمين والمسيحيين ، ففاوضت بذلك بعض أعضاء جمعية اتحاد الشبان المسيحيين فاستحسنوه . . . ذهبت مساء ، علمت الكنتسليير [الروسي] وسردت عليه خلاصة أفكارني عن الأمة اليهودية

(١٢) تعبير يقصد به الطائفة اليهودية وفق تعبيرات ذلك العصر .

والأمة العربية، فقابلها بالتأمل والتفكير، وقال: طرقت مواضيع كثيرة.. تناقشنا في قضية أن الإنسانية صائرة إلى الوحدة فأفضت في بيان أفكارى مما لا يتسع له المجال هنا، وعولت أن أبدأ بالكتابة والتعليق استيفاءً للموضوع... بعد درس الكنتسليبر ذهبت إلى دار فيضي أفندي العلمي، حيث جاء عبد الحميد باشا قومندان العسكرية الذي يسافر غداً إلى بغداد، فتجاذبنا أحاديث مختلفة إلى أن أفضى بنا الكلام إلى الحركة الصهيونية، فاندفعت أبين آرائى قلت: إن العربية مع ما استولى عليها من الخمول وانتشر فيها من الأدواء الاجتماعية لم تمت لأمرين: (١) لأن لها لغة. (٢) لأن لها مكاناً.. وإذا أردت أن تقتل أمة فاقتل لغتها وأبكم لسانها واملك مكانها.. ولذلك فإننى أكاد أعتقد أن الحركة الصهيونية حركة وهمية، لأنها أضاعت لسانها وفقدت مكانها... أما الأمة العربية فحياتها ميسورة لأنه لا ينقصها إلا أن يتنبه فيها الشعور الوطني.

السبت ٢١ و ٨ شباط سنة ١٩١٤ و ٢٥ ربيع الأول

سافر اليوم عبد الحميد باشا قومندان العسكرية عن طريق نابلس، فخرجت المدينة لوداعه، ولم يسبق أنها ودعت قومنداناً بمثل ما ودعته، ولعل السبب أنه ابن عرب. وهذا من طلائع تنبه الشعور الوطني.. اليوم كان الناس ينتظرون مجيء الطيار العثماني، فخرج الناس لاستقباله، ولكنه لم يجيء لأنه يقال إن طيارته تعطلت في بيروت فاضطر أن يتأخر إلى أن يصلحها. كانت سلطانة تنوي أن تزور بيت شكري ديب في البقعة^(١٣) وتقيم عندهم إلى أن يجيء الطيار ويذهب، ولكن لما عرفنا أنه يتأخر أجلنا الزيارة إلى أن يرد الخبر اليقين. علمت تلميذي الخواججا أبري وقد جعلت أدرس فيه أخلاق الأمة اليهودية، وسأكتب عنه بعض ما عن لي في غير هذا المحل.

الأحد ٢٢ و ٩ شباط سنة ١٩١٤ و ٢٦ ربيع الأول

علمت الخواججا أبري. تكلمنا عن التوراة، قال: ظهر لعلماء الانتقاد أن الذين كتبوا التوراة أربعة؛ الواحد يتكلم عن الله كإله، والثاني كآلهة، والثالث ككاهن، والرابع كملك على ما أذكر، وكتابة الواحد تختلف عن كتابة الآخر لغة وأسلوباً وفكراً، فقلت له: سمعت بالأمس خطاباً لأحد علماء الدين ذكر فيه تدرج الفكرة الدينية في معرفة الله كإله ثم ككاهن ثم ككبي ثم كأب. فعلماء الانتقاد ينسبون هذا الاختلاف إلى اختلاف الكتاب، وعلماء الدين ينسبونه إلى التدرج في معرفة الله. ومهما يكن الأمر فالتوراة كتاب قديم جداً أكل الدهر عليه وشرب والبحث فيه عقيم، وموقف علماء الدين فيه موقف ضعيف إلى آخر ما هنالك. ثم رجعت إلى

(١٣) البقعة: ضاحية من ضواحي القدس.

البيت فأفطرت، ثم نزلت إلى البلد وصرفت قليلاً من الوقت، ثم رجعت إلى البيت ولم يكن أحد في البيت غير سلطنة، لأن أمي ذهبت ليلة أمس إلى بيت ابن خالي يوسف الحرامي، الكبير، ولم ترجع، وذهبت ميليا إلى بيت ابن خالتها يعقوب فراج ولم ترجع أيضاً، فاضطرت سلطنة أن تطبخ فوجدتها مغاظة، لأنها بينما كانت تعالج الطبخ إذ يبكي سري فتذهب إليه فوبختها على ذلك، ولكنني من الجهة الأخرى لم أرض عن تغيب أمي وأختي. بعد الغداء نمت وبعد النوم أخذنا سرياً ودرجنا به في عربته على طريق جبل الزيتون، وقد كان الطقس جميلاً جداً.

الاثنين ٢٣ و ١٠ شباط سنة ١٩١٤ و ٢٧ ربيع الأول

اليوم دخلت مع الخواجا أبري رأساً في موضوع الصهيونية، قلت له: إذا اشتغلت للأمة العربية ووقفت نفسي على خدمتها فليس ذلك لأنني أكره الجنسيات الأخرى، أو أنني أفضل الأمة العربية على غيرها، بل لأن ذلك واجب عليّ، أولاً كفرد من أفراد هذه الأمة، وثانياً كفرد من أفراد الإنسانية. وإذا كنت أكره الصهيونية، فليس لأنني أكره حياة الأمة الاسرائيلية ونهوضها من وهدة الشقاء ودركات الضعف، ولكن لأنني أكره المبدأ الذي تقوم عليه الحركة الصهيونية، لأنها تحاول أن تبني قوميتها على أنقاض غيرها، فباحتلها فلسطين كأنها احتلت قلب الأمة العربية، لأن فلسطين هي الحلقة التي تربط جزيرة العرب بمصر وأفريقيا، فإذا احتلها اليهود حالوا دون اتصال الأمة العربية، بل قسموها إلى قسمين لا صلة بينهما. وهذا يضعف شأن [الأمة] العربية ويحول دون تضامنها واتحادها كأمة.. فقال: لا خوف من ذلك على الأمة العربية، لأنه لا يهاجر إلى فلسطين من الأمة اليهودية أكثر من مئتين أو ثلاث مئة ألف يهودي على الأكثر، لأن فكرة تكوين أمة يهودية في فلسطين ماتت لأن اليهود عرفوا أن البلاد لا تسعهم، فقلت: إذا ما الفائدة من مجيء مئتين أو ثلاث مئة ألف منهم إلى فلسطين؟ فقال: القصد من ذلك أدبي روحي، لأن العالم يحتاج إلى تورا جديدة، فاليهود الذين يجيئون إلى هذه البلاد لا يجيئون إلا مدفوعين بقوة دينية روحية، فإذا رجعوا إلى جبالهم وبلاد آبائهم وأجدادهم واستظلوا بسماء الأنبياء، فقد يظهر بينهم شيخ مثل موسى أو عيسى أو محمد يهز العالم، ويضيف صفحات مجيدة إلى التاريخ، فقلت له: ليس هذا العصر عصر أنبياء، فقال: لا فرق بين هذا العصر والعصور السابقة، فقد كان قبل اليوم مدنات راقية وعلماء وفلاسفة وشعراء فظهر الأنبياء ولم يكونوا أهل علم ولا فلسفة، كما لم يكونوا أهل حول وطول، ولكنهم كانوا قوة كبيرة بنفوسهم وأخلاقهم فتغلبوا على كل شيء. قلت: إذا كان النبي من يأتي إلى العالم بفكر جديد، من يدل العالم إلى طريق جديدة للحياة، من يخفف الشقاء، من يوسع الفكر البشري، من ينير البصائر، من ينهض الأمم

ويقودها في معارج التقدم والفلاح، من يخفف من أحزانها، من يعطيها قوة حيوية . الخ، فالأنبياء في هذا العصر كثيرون وأناجيلهم وتورياتهم [ج توراة] عديدة. ثم ليست العبرة أن يقدم رجل فيستميل الرأي العام إما بعلمه أو بفصاحة لسانه أو بقوة نفسه أو بعظم أخلاقه، فهذا ليس مستحيلاً أو بعيداً، ولكن العبرة: هل يقودهم إلى الأمام أو إلى الوراء . ثم ليس كل العالم يحتاج إلى نبي بل بعض الأمم أحوج من بعض، والنبوة لا تجيء من فوق، بل يستمدها الناس بعضهم من بعض، فالنبي الشرقي يستمد النبوة الحيوية من الغرب وبعلمها لقومه. ويظهر لي أنكم أتم اليهود أحوج الناس إلى توراة، ولكن أخشى أن يكون نصيب النبي فيكم اليوم نصيب أسلافه الذين حرقتموهم وقتلتموهم، وأن يكون حالكم في هذا العصر كما كان في كل عصر الأنبياء، والتوراة منكم ولكن ليست لكم. إذا كنتم تشعررون بحاجتكم إلى توراة جديدة فيجب أن تستمدوها من غيركم. إذا كنتم نجوماً مظلمة فيجب أن تفتشوا عن شمسكم فتدوروا حولها، لأن تنظروا وأنتم نجمة صغيرة مظلمة أن العالم بأسره بشموسه وأقماره يدور حولكم. ثم تكلمنا عن الجنسيات، فقلت له: إن العالم صائر إلى الوحدة. سيتألف من هذه العناصر الصغيرة العديدة أجسام كبيرة جنسية فقلل الجنسيات واللغات، وربما تغلب أحد هذه الأجسام الكبيرة على غيره وابتلعها، فلا يكون حينئذ في العالم غير جنسية واحدة ولغة واحدة. وهذا أفضل للإنسانية إذ يتأخى البشر وتقل بينهم الحروب والمشاحنات، ويجب على كل إنسان أن يساعد في الوصول إلى هذه النتيجة. فقال: الذي أراه أن الأجسام الكبيرة ستجزأ فتتعدد العناصر والجنسيات. فروسيا الكبيرة ستجزأ إلى أمم عديدة مستقلة بعضها عن بعض، وأميركا التي يقال أنها تبلع الجنسيات العديدة التي تهاجر إليها وتندمج فيها، ظهرت فيها حركة جديدة؛ فكل عنصر فيها يحاول أن يستقل ويحافظ على جنسيته. فقلت له: إن هذه العناصر أشبه بكواكب السماء، فلا بد للنجوم الصغيرة المظلمة من شمس تدور حولها تستمد منها النور والحرارة، وإلا فالعنصر الذي يستقل بذاته ويعيش منفصلاً عن غيره يموت. . هذا خلاصة ما دار بيني وبينه، ولا بد لي أن أستنج من ذلك عدة نتائج (١) إن احتكاكي بغيري ينير بصيرتي ويوسع معلوماتي. (٢) لا بد لي من الدرس والمطالعة والوقوف على حقائق الأمور في نطاقها، ولذلك عولت أن أبتاع دائرة معارف إنكليزية أدفع ثمنها أقساطاً، وأن أطلع بعض الكتب في اللغة الإنكليزية. (٣) أن أحرص على كتابة يومياتي وتدوين كل تأثيراتي ومعلوماتي واختباراتي اليومية. (٤) أن أهيئ نفسي لعمل عظيم، أنفع به قومي، والله المستعان.

الثلاثاء ٢٤ و ١١ شباط سنة ١٩١٤ و ٢٨ ربيع الأول

اجتمعت اليوم بجرجي زخريا فقال: نشغل الآن بمسألة المدارس، وحثني على القبول بأن أكون في هيئة

ادارة المدارس ، فقلت له : أحس من نفسي أن لي وظيفة أخرى أعم وأفيد من هذه الوظيفة ، ولا أستطيع أن أجمع بين الوظيفتين . . فقال : هذا لا بد منه ولا غنى لنا عنك ، ومتى حان الوقت نظرنا في ذلك . . في المساء التأمت المدرسة الليلية وكان درسنا إنشاء وموضوعه الصهيونية ، فظهر لي أن حنا حمامة وانضوني مشبك أقدر الجميع على الكتابة . ثم نظرنا في تأليف جمعية للناشئة واصدار جريدة خطية يتولون كتابتها فارتاحوا إلى ذلك . وعزمت على درس هذه المسألة وإنعام النظر فيها . . مر عليّ زمان طويل وأنا اشتغل في هذا العالم ، ولكنني إلى الآن لست راضياً عن كل شيء عملته ، بل أحس من نفسي أنها تتطلب مني عملاً أعظم ، وأشعر بأن فيّ قوى كثيرة لو أحسنت استعمالها لأفدت ولو في وسطي الصغير فائدة كبيرة ، ولا بد لي أن أتهياً لذلك ، وأتغلب على كل المشطات والعثرات والمواقف إن شاء الله .

الأربعاء ٢٥ و ١٢ شباط سنة ١٩١٤ و ٢٩ ربيع الأول

لتنبيه الشعور الوطني في الأمة العربية عدة وسائل: (١) المدارس (٢) الجمعيات (٣) الجرائد (٤) التمثيل (٥) المعابد - قدمت بالذكر المدارس لأنها أهم واسطة وأنجعها . أكثر مدارس هذه الأمة اجنبية دينية ، ومدارس الحكومة إلى اليوم لا تزال عرضة لسوء الاستعمال ، ولكن لا بد أن يظهر مع الأيام في عداد المعلمين معلمون وطنيون يعالجون هذه العاطفة الوطنية ، ولو كانوا في مدارس اجنبية أو مدارس الحكومة . وأكبر عامل في إيقاظ الشعور الوطني هو أدبيات اللغة . والمعلم الوطني لا يعدم في أدبيات اللغة العربية ما يثير الحماسة في نفوس التلاميذ ويبث فيهم الحياة . إن أمة عندها أمثال المتنبي وأبي فراس وأبي تمام والبحري وأبي العلاء وعنتر لا يمكن أن تموت . ولا بد أن كثيرين من المعلمين يعدلون مع الوقت عن بعض ما في أدبيات اللغة العربية من الحكم الفارغة والخمريات والغزليات والمراثي ، التي تسمم النفوس وتخدح الحواس ، إلى ما فيها من الحماسيات ، التي تولد في النفوس النزوع إلى المجد والفخر ، وتبعث في الصدور الإقدام والشجاعة والرجولية مما يناسب روح هذا العصر . وسأجرب أن أختار لتلاميذي من أدبيات اللغة العربية ما يفي بهذا الغرض ، وسأبث هذه الروح في من حولي من المعلمين إن شاء الله . . . أما الجمعيات فقد ابتدأت الأمة العربية تعرف أهميتها وفائدتها ، ولكنها لم تتدرب بعد على تأسيسها وإدارتها . بالأمس تأسست جمعيات الإصلاح في سوريا ومصر والتأم مؤتمرها في باريس ، ولا يمكن أن تذهب هذه الجمعيات بدون فائدة . والناشئة العربية في الأستانة لها جمعية يعظم نفوذها يوماً بعد يوم ، بل أعتقد أن كل مدرسة هي جمعية كما أن كل جمعية هي مدرسة . . وقد عزمت أن أوسس جمعية لتلاميذي أدعو إليها الناشئة والمتأدين في القدس . أما الجرائد فقد أصبحت لا تعيش ولا تزوج إلا إذا

كانت وطنية محضة، وكذلك التمثيل تدرج في الإرتقاء في مصر، فبعد أن كانت رواياته كلها مترجمة، أصبح فريق منها وطنياً محضاً، كرواية صلاح الدين الأيوبي المشهورة لنجيب الحداد وغادة الأندلس ومصر الجديدة وهذه الأخيرة لفرح انطون، ولا بد أن يجيء يوم قريباً إن شاء الله نرى فن التمثيل رائجاً في كل محل، وأما المعابد فستتحول مع الزمان إلى جمعيات أو مدارس وطنية، وبدلاً من الوعظ في الأمور الدينية سيكون في الأمور الوطنية، كما أن الأديان في الشرق سواء كانت مسيحية أو اسلامية، فستتحول إلى أديان ومذاهب وطنية يقصد بها إحياء اللغة العربية وإيقاظ العواطف الوطنية وكل آت قريب، ولي في كل هذه آراء وأفكار سائنها في غير هذا المحل. والخلاصة فإننا في زمان لا نستطيع الأمم فيه إلا أن تتحرك، ولكن منها ما يمشي في الطليعة ومنها ما يمشي في المؤخرة.

الخميس ٢٦ و ١٣ شباط سنة ١٩١٤ و ١ ربيع الثاني

الطقس جميل، انتظر الناس الطيارين العثمانيين، ثم جاء خبر أنهما يأتيان غداً. قررت سلطنة اليوم أن تضيف [من ضيافة] صديقتها كاتينكو حنانا عقيلة الخواجا شكري ديب في البقعة ريثما يجيء الطياران ويذهبان. وكان اليوم ميعاد مجيء السياح الأميركيين المسافرين مع كلارك، فعند الساعة الرابعة أخذت سلطنة وسرياً ودرجنا به إلى البقعة. عرجنا في طريقنا على المحطة لنشاهد مجيء الأميركيين وعددهم سبع مئة، ما عدا مئة وخمسة وعشرين منهم يجيئون عن طريق حيفا، فيكون المجموع ثمان مئة وخمسة وعشرين. كانت المحطة مكتظة بالعربات. سيقمون في القدس إلى يوم الاثنين. عجيب أمر هؤلاء الأميركيين لا يعرفون إلا السرعة، جاؤوا اليوم من يافا والبعض منهم نزلوا الليلة إلى أريحا، فيصلون في الليل ويرجعون غداً في النهار، ثم يجرون من محل إلى آخر كالبرق الخاطف، ثم يقولون أنهم جاؤوا إلى فلسطين، وربما كتب بعضهم الكتب عنها. . . دعاني مستر دوتورن، كاتم أسرار جمعية اتحاد الشبان المسيحيين لتناول العشاء، وكان مدعواً أيضاً البروفسر روننصن، أستاذ مدرسة الآثار الأميركية، والدكتور كنعان. وبعد العشاء اجتمع عدد كبير من أعضاء الجمعية في ناديها، ليقسموا اللوكدات ويطوفوا على السياح الأميركيين في طلب مساعدة لجمعية اتحاد الشبان المسيحيين، برسم [تحت اسم] بناء محل للجمعية، فكلفت أن أذهب مع أحد الأعضاء إلى اللوكدة الفرنسية فذهبتنا ولكن لم نوفق. وعولت على أن لا أرجع مرة ثانية، لأنني رأيت أنني لا أصلح لهذا العمل. . . اليوم دفعت لنا المعارف معاش شهر، فدفعت أجرة المعلم شكري رصاص. . . وصلني اليوم في البريد الروسي علم وخبر [= اشعار] بهدية أرسلها إلي الخواجا بندلي الجوزي، وهي ملاعق من الفضة لا أعرف عددها بعد، وقد قدر ثمنها في الكمرك [= الجمرك] بنحو ثلاث ليرات

فرنساوية، وهي هدية عرسنا، فسرتت بذلك كثيراً، وإن كان مر على زواجنا ما يزيد على سنتين. أرسلت العلم والخبر إلى عيسى العيسى ليستلم الأمانة من الكمرك ويرسلها إليّ، وكلفته في المكاتب ذاته أن يرشح الآتسة لبيبة نصيف، لرئاسة مدرسة البنات الداخلية في يافا.

الجمعة ٢٧ و ١٤ شباط سنة ١٩١٤ و ٢ ربيع الثاني

بمناسبة مجيء الطيار العثماني اليوم عطلنا المدرسة بدلاً من يوم الجمعة القادم الذي هو أول يوم جمعة في الشهر. علمت تلميذي الخواجا أبري، ثم أفطرت وذهبت إلى البقعة، فكان الناس يتوافدون إلى المحل المعد لنزول الطائرة، حيث ضربت الخيام ورفعت الأعلام واصطففت تلامذة المدارس الوطنية، واجتمع جمهور كبير من الناس لا يقل عن عشرات الألوف. وكان الطقس جميلاً جداً، وكلهم أنظار شاخصة إلى الأفق الشمالي من حيث قدروا مجيء الطائرة. وكان المقدر أن تجيء الطائرة قبيل الظهر، فلم تجيء، فأرسلت التلغرافات إلى الشام وإلى محلات كثيرة يستعلمون عنها، فورد تلغراف من الشام أنها قامت [=أقلعت] من هناك الساعة الثامنة صباحاً فتطير [=تشاءم] الناس من هذا الإبطاء، وأشفقوا أن يكون قد أصاب الطائرة مصيبة. وبعد الظهر الساعة الثالثة أخذ الناس يرجعون وكلهم قلوب واجفة. وفي المساء وردت تلغرافات عديدة أن الطائرة احترقت قرب طبريا، فسقطت بعد أن احترق الطياران فتحي بك وصادق بك فاستولت على المدينة كآبة عظيمة.. هذه أول مصيبة أصابت العثمانيين، وكم من المصائب حلت قبلها بالأوروبيين والأميركيين. لا شك أن هذا العصر عصر جنون. ولكن لا بد من الضحايا في كل عمل جديد. إن فن الطيران يقتضي أن يتربى الناس له على الاستهانة بالحياة وتوقع الموت، وهذه عاطفة جديدة أخذت تتولد في الناس، عاطفة الاستخفاف بالموت وركوب الأخطار. في المساء علمت الكنتسler [الروسي] الخواجا اتبيوف، جعلنا ننظر في هذه المدينة من الجهة السوداء. إن السواد الأعظم في أوروبا وأميركا عمال يشتغلون في المناجم تحت الأرض، أو في المعامل حيث يتعرضون لأخطار عديدة، لا يعرفون نور الشمس ولا الهواء النقي المطلق، يشتغلون مثل آلات صماء بأجور قليلة لا تسد عوزاً ولا تغني من جوع. ما هذه المدينة التي يضطر مئاً ألف امرأة فيها أن يعن شرفهن ليعشن في أسواق لندن؟ ما هذه المدينة التي فيها ألوف من الأولاد لا يعرفون الطبيعة ولا يرون الحقول ولا الزهور؟ ما هذه المدينة القائمة على الحركة العنيفة والزحام الهائل، مما يدعو إلى هياج الأعصاب، بحيث كثر الجنون وتعددت اليمارسانات [=المصححات العقلية] ولعل السبب في ذلك إعراض الناس هناك عن الزراعة [و] عن المعيشة في الحقول، وتهافتهم على الصناعة والتجارة والإستخدام ولو في المعاش الدنيئة في المدن.. إلا أن هذه المدن الكبيرة المكتظة بالعمران التي يفاخر بها الأوروبيون والأميركيون مثل لندن وباريس ونيويورك هي سبب هذا الشقاء.

السبت ٢٨ و ١٥ شباط سنة ١٩١٤ و ٢ ربيع الثاني

ذهبت صباحاً ، الساعة السابعة والنصف افرنجية ، علمت الخواجا أبري . تكلمنا عن الحركة الصهيونية ورجوع اليهود إلى هذه البلاد ، قال : منذ صارت هذه البلاد إلى العرب لعبت بها أيدي الخراب ، وخيم فوقها ظل الموت وأصبحت جرداء قاحلة ، كل الأمم التي استعمرت هذه البلاد قبل العرب تركت لها آثاراً تدل عليها إلا العرب . فلو سألكم سائل بأي حق تملكون هذه البلاد ، فماذا تقولون ؟ هذه البلاد لم تكن لكم ، ثم مر عليكم فيها أجيال طوال ولم تعملوا فيها شيئاً . نعم إن الأمة اليهودية لم تولع بالبناء ولم تكن ذات مدنية مادية ، ولكنها فاقت كل الأمم في الروحيات ، وقد جعلت لفلسطين تاريخاً جميلاً . فتاريخ اليهود الجميل وحنينهم الدائم إلى هذه البلاد يخولانهم الحق في الرجوع إليها ، وأما أنتم فليس لكم إلا حق واحد ، وهو أنكم تسكنون هذه البلاد من أجيال طوال . فليهود حق التاريخ وحق الحنين ولكم حق المعيشة . ولما كانت هذه البلاد واسعة الأرجاء خصيبة التربة فلا حق لكم في ممانعة اليهود من الرجوع إليها والمعيشة فيها معكم . اليهود لا يحبون أن يجلوكم عنها ، بل يحبون أن يعايشوكم فيها ، بل هم في احتياج إلى الامتزاج بكم ، هم يحتاجون إلى دمكم . ومهما ظهر لكم من اعتزال اليهود الآن ، فلا بد في المستقبل أن يتخلقوا بأخلاقكم ويتكلموا بلغتكم ، بل هم الآن قد أخذوا في التقرب ، وإذا هاجر كثيرون منهم إلى هذه البلاد كانت أشبه بسويسرا ، أي مزدوجة اللغة ، فاليهود يتكلمون العبرانية والعربية ، ولا بد أن العرب يتعلمون بواسطة التعامل وتبادل المصلحة اللغة العبرانية ، وعقلاء اليهود يحبون أن يمازجوكم والاجتماع بكم في المنتديات ، ولكن امراً يحول دون ذلك الآن ، وهو المرأة ، فإن اليهود يحبون أن تحضر نساؤهم اجتماعاتهم ، وأما المسلمون فلا يسمحون بذلك لنسائهم ، ولكن الزمان كليل يحل هذا المشكل . . . قلت له : إذا سئل العرب بأي حق تملكون هذه البلاد ، قالوا : إنها قطعة طبيعية من البلاد العربية ، نعم لم تكن مهذا لتمدن العربي ولكنها لم تحرم من نصيب منه ، فهذا الحرم وهذه مدارسها المندرسه آثار ناطقة بأن البلاد عربية إسلامية . وإذا لم تكن الأمة العربية أمة عمرانية مثل الأمة الرومانية فقدرها أنها دولة فاتحة ، لم تخل في زمن من الأزمان من شن الغارات أو دفعها . . . وقد استعمر العرب هذه البلاد من زمان قديم جداً ، وإذا كانت هذه البلاد مهد روحياتكم وموطن تاريخكم ، فإن للعرب حقاً آخر لا ينكر ، وهو أنهم نشروا فيها لغتهم وأديباتهم فحقكم مات بمرور الزمان وحقنا حيّ ثابت . . . ثم قلت : يجب أن تتوسع في هذا الموضوع في فرصة أخرى . بعد الظهر ذهبت إلى بيت شكري ديب ، وأخذت سلطانة والسيدة كاتينكو امرأة شكري ديب وسرياً وجرجي وماري وذهبتنا نمشي في تلك الأراضي المنبسطة المكسوة حلالاً خضراً من وشي الربيع ، ونمت هناك .

الأحد أول آذار غ و ١٦ شباط سنة ١٩١٤ و ٣ ربيع الثاني

قمنا صباحاً فاستحمت، وكان شكري يشتغل بعمل كفاة ثم أفطرنا، وبعد الفطور نزلت إلى البلد، ثم رجعت بعد الظهر وتناولت العشاء معهم وسهرت عندهم إلى الساعة العاشرة، ثم نزلت إلى البلد ونمت في بيتنا.

الاثنين ٢ آذار و ١٧ شباط سنة ١٩١٤ و ٤ ربيع الثاني

عند الساعة العاشرة صباحاً نزلت إلى البلد، فذهبت إلى مكتب جرجي زخريا، فقرأ عليّ تقرير اللجنة المعينة للنظر في أمر المدارس. عينوا [= قرروا] أن يكون في هيئة الإدارة أربعة أعضاء، واحد من القدس بصورة دائمة، وواحد من الرهبان، وواحد من الأبرشية والرابع أجنبي، فخطر لي أن نتدب الدكتور سبور لذلك، فطلب اليّ جرجي زخريا أن أفوضه وأستطلع رأيه، فذهبت فآنست منه ارتياحاً وقبولاً. اخترت الدكتور سبور لعدة أسباب: (١) لأنه مقيم في القدس قريب منا نستطيع أن نفاوضه في الأمر ونراجعه ويراجعنا إلى أن نقر على أمر، ولو شئنا أن نختار شخصاً آخر من بلاد الانكليز أو من أميركا فقد تستغرق المفاوضات والمراجعات وقتاً طويلاً. (٢) لأنه يعرف البلاد، يعرف لغتها وتاريخها وأخلاقها وحاجاتها. (٣) لأنه غير ضيق الفكر لا ينتمي إلى إحدى الجمعيات التبشيرية، وقد آنست منه منذ عرفته اهتماماً بالكنائس الشرقية. (٤) لأنه لا يزال شاباً نشيطاً. (٥) لأنه قد يشرك امرأته معه في تنظيم مدارس البنات والمشاركة عليها وهي كاتبة أدبية. . إلى غير ذلك من الاعتبارات. سألني: هل أكون في هيئة الإدارة؟ فقلت له: يلحون عليّ في ذلك، ولكن أفضل أن أبقى خارجاً ليدكر الرهبان دائماً أن النهضة حية لم تمت. فقال: الرأي أن تتولى ادارة المدارس وتشتغل في سبيل ترقيتها وتحسينها، وبذلك تستطيع أن تخدم ملك خدمة حقيقية. وإذا اشركنا أنا وأنت في العمل فكنت بجانبك وكنت بجانبك، سرنا بالمدارس سيرا حسناً. . سأكلف جرجي زخريا أن يحمل البطريك على الكتابة إلى الدكتور سبور واستدعائه للعمل. . في المساء خرجت إلى دار شكري ديب وسهرت هناك إلى نحو الساعة العاشرة، ثم رجعت إلى البيت ونمت.

الثلاثاء ٣ آذار سنة ١٩١٤ و ١٨ شباط و ٥ ربيع الثاني

جاء عيسى العيسى في قطار الظهر، لأن غداً ميعاد محاكمة جريدة فلسطين في محكمة الاستئناف. أحضر معه هدية الخواجا بندلي الجوزي، وهي اثنا عشرة ملعقة من الفضة، وقد نقش عليها الحرفان الأولان من اسمي. بعد الظهر أخذت عربة وذهبت واحضرت سلطانة وسرياً. رأيت على وجه سري شيئاً

من الاصفرار ولعله قارب دور التسنين، فقد كان يتلمس ما يضعه في فمه، ولما دنوت منه لأقبله أمسك رأسي بيديه والتقم خدي التماماً، وكما إذا اعطيناه شيئاً ليلعب به يضعه من فوره في فمه، كأنه يحك به لحمه أسنانه، وإذا أخذناه منه ترامي عليه ليأخذه، فإذا أبعدنا عنه غضب وجعل يحرك يديه بعنف، كأنه يحاول أن يثب أو يطير أو يسبح.. . أطلعت عيسى على ما دار بيني وبين الخواجا أبري من الحديث، فطلب اليّ أن أنشره في فلسطين تباعاً، تحت عنوان: حديث مع صهيوني كبير.. . ثم ذكرت له بعض ما قررته لجنة المدارس، فقال: بما أن المدرستين الكبيرتين الداخليتين هما في القدس ويافا، فيجب أن يكون اثنان من أعضاء الهيئة الادارية من القدس ويافا، فإذا رشحتني لذلك قبلت بشرط أن تكون أنت عضو القدس.

الأربعاء ٤ آذار و ١٩ شباط سنة ١٩١٤ و ربيع الثاني

علمت الخواجا أبري ولكن لم تقرأ، بل جعلنا نتكلم، وكان موضوعنا الصهيونية. قلت له: لو كت تقرأ الجرائد العربية أو تسمع ما يقوله الناس ويعتقدونه فيكم، لرأيت أن هناك عداوة بينكم وبين الوطنيين تعظم كل يوم، وتبعة ذلك عليكم، وسببه (١) مقاطعتكم الوطنيين فلا تعاملون إلا بعضكم بعضاً. بالأمس قاطعتم البردقان [=البرتقال] الوطني فلا تشترون البردقان، إلا إذا كان من بيارات يهودية، لا تركبون عربة إلا إذا كان الحوزي يهودياً. قصد يهودي أن يشتغل بالعربات، فوضع علامة فارقة لعرباته ليعرفها اليهود، ولم يستخدم عنده إلا يهوداً. البنك اليهودي كل مستخدميه يهود. إذا أردتم أن تنبوا داراً جربتكم أن تحصروها في اليهود من نجارين وبنائين وحدادين ونحاتين، ولا تكادون تأخذون وطنياً، إلا إذا لم يكن عندكم مثله يهودياً، ولا تعاملون الوطنيين إلا إذا اضطررتم إلى ذلك اضطراراً، على حين نرى الوطنيين لا يفكرون بذلك، تراهم يعاملون اليهود ويستخدمونهم في كل شيء.. . (٢) لا تراعون احساسات الوطنيين في شيء، فاللغة العربية تشوهونها، والأزياء الوطنية أو المستحسنة لا تراعونها احتقاراً لغيركم واستخفافاً بهم، لا تراعون النظافة، فجيرانكم من الوطنيين يتأذون من مجاورتكم، وهم لا يحسبون ذلك عدم مبالاة منكم بالنظافة، ولكنهم يعتقدون أنكم تتخذون الأوساخ والأقذار واسطة لتبعدهم عنكم لئلا يجاوركم منهم مجاور.. . (٣) تحاولون تنفير المسلمين من المسيحيين والمسيحيين من المسلمين، تقولون للمسيحيين: نحن لا نستطيع أن نثق بالمسلم فضلاً عن الامتزاج به، لأنه منحط الأخلاق فاسد المبادئ همجي الطباع لا يراعي أصول التمدن بل يحترقه ويعدايه، وتقولون للمسلمين: إن المسيحيين اعداء الوطن يتمنون دائماً أن تنقسمه الدول الأوروبية، ولا نستطيع الامتزاج بهم لأنهم ليسوا شرقيين، فمنهم من هم من بقايا الصليبيين ومنهم يونانيو الأصل، وأما نحن وأنتم فشرقيون من أرومة واحدة، إلى غير ذلك من الأقوال التي تنفر القلوب، وتجعل الوطنيين من مسلمين



هذه الصورة
أخذها السيد
م. لاريدس في
القدس

خليل يحمل سري العام ١٩١٤ ، مجموعة عائلة السكاكيني

ومسيحين يتقارضون بينهم النظر الشرر، ويعتقدون بعضهم لبعض العداوة والبغضاء . . فقال: إذا كان ثم شيء من ذلك فسببه أن السواد الأعظم من اليهود في هذه البلاد ولا سيما في القدس من الطبقة الواطئة، وأصحاب النفوذ فيهم لا يهمهم إلا مصالحهم الشخصية. فقلت: كان يجب أن تجعلوا في طليعة المهاجرين منكم إلى هذه البلاد أهل فضل وتمدن وأخلاق راقية، ليكتسبوا محبة الناس ويملكوا قلوبهم، قبل أن يملكوا شبرا من أراضيهم. فقال: لي بعض أصدقاء في بلاد الإنكليز من المتخرجين في أعلى مدارس بلاد الإنكليز مثل أكسفورد وكمبردج ينوون أن يجيئوا إلى هذه البلاد ليسكنوا فيها، فمتى جاؤوا عرفتك بهم وألنا جمعية ولو من عدد صغير، وسأخذ لي داراً أجمع فيها كتي وأضم إليها أهم الكتب العلمية والتاريخية والفلسفية والأدبية. هذا خلاصة ما دار بيني وبينه اليوم. في المساء علمت الكونتسليير وعدنا إلى حديث مصير الأمم، بما لا يتسع له المجال ولا الوقت لتدوينه.

الخميس ٥ آذار سنة ١٩١٤ و ٢٠ شباط و ٧ ربيع الثاني

جاءني جرجي زخريا قبل الظهر بعد أن عقدوا اجتماعاً في البطيركية للنظر في أمر المدارس، وجعل يشكو مما يقاسيه من التعب، وما يجده من العناء في سبيل هذه النهضة، وأن الرهبان شديدي المراس لا يؤخذون إلا بالملاينة، وأنه لولا القيل لترك الملة وشأنها إلى غير ذلك، فقال: إن البطيرك يحبك ويحترمك ويعجب بمبادئك وعلو نفسك، وهو لا يمانع في أن تكون في هيئة إدارة المدارس. ولكنه يرجوك أن تترك الشدة وتأخذ الأمور بالمهاودة واللطف والتأني، وقد عرضت عليهم أن يكون يوسف العيسى أو عيسى العيسى في هيئة الإدارة فرفضوا كل الرفض، والرأي الآن أن نكتفي بك وبأحد الرهبان، وترك الباب مفتوحاً لعضوين آخرين، وقد أحوأ أن يكون خليل بيدس في هيئة الإدارة فرفضت، ولم أزل بهم حتى أقنعتهم . . والآن أريد منك أن تعقد النية على القبول. فقلت له: مع ما أعتقد من وجوب أخذ الرهبان بالملاينة والسير في العمل بالتؤدة والحكمة، فإني لا أرى أنني أقدر على ذلك، فالأوفق أن تفتشوا عن غيري، فقال: ليس في الملة غيرك وهذا لا أحب أن أسمعه منك. بعد انصرافه أخذت أحل كلامه (١) ما معنى الحاحه علي في أن أكون في هيئة إدارة المدارس، بعد أن أعلنت له مراراً أنني لا أدخلها ولا أصلح لها، لأنها تقتضي الرفق في السياسة، والملاينة في المعاملة وسعة صدر، وامتلاك النفس ومداهنة الرهبان، إلى غير ذلك مما تأباه نفسي ولا تطاوعني فيه أخلاقي. (٢) ما معنى هذا التأفف والتذمر من الرهبان والشكوى من التعب وادعائه أن الرهبان لا يؤخذون إلا بالملاينة؟ إذا آنس فينا أملاً في ثبات النهضة واستثمارها عارضنا باليأس، وقال: كيف ننجح والطائفة منحطة متفرقة الكلمة والرهبان دهاة أردياء كذابون منافقون، والحكومة ضعيفة إلى غير

ذلك، وإذا جاريناه في يأسه وقلنا: يظهر لنا أن الرهبان لا يريدون أن يعملوا شيئاً، ولا نرى منهم إلا مواعيد فارغة إلى غير ذلك، غير لهجته وقال: لا بل يريدون أن يعملوا كل شيء، وجعل يعدد من المشاريع والإقتراحات ما لا يصدق. (٣) ما معنى قوله: إن الرهبان يرفضون وجود يوسف العيسى أو عيسى العيسى في هيئة الإدارة المدرسية رفضاً باتاً، وادعاءه أنه بذل وسعه في أقناعهم على غير جدوى؟! وهل قبولي أهون على الرهبان من قبول أحدهما. (٤) ما معنى وجود راهب في هيئة الإدارة، على حين قرار الكومسيون بصرح أن الهيئة ستؤلف من الوطنيين؟! (٥) ما معنى إلحاحه عليّ في أن أغير خطتي وأسائر الرهبان وأرفق بالمعلمين، وأقتصر في عملي على درس أحوال المدارس ووضع تقرير بها، والإكفاء الآن بالحالة الحاضرة فلا نغير بروغراماً [=برنامجاً] ولا نستبدل كتباً ولا نتعرض لأحد المعلمين، ولا نفصل مدرستنا عن مدرسة الرهبان، ولا أولادنا عن أولادهم، على خلاف ما كنا نرمي إليه وتوخاه؟. كل ذلك يبعث على الظن أن وراء الأكمة ما وراءها، وأن المقصود منه استدراجي إلى السكوت والتغاضي وتشويه اسمي وزعزعة مكاتي عند قومي، والتوصل بذلك إلى قتل النهضة.. هذا ما خطر لي، ومع ذلك فإنني سأدرس المسألة بما تستحق من إنعام النظر قبل أن أقر على شيء.

الجمعة ٦ آذار سنة ١٩١٤ و ٢١ شباط و ٨ ربيع الثاني

كنت أقدر أن أكون سعيداً بعد زواجي (١) لأنني أعتقد أن سلطنة أفضل قيات القدس عقلاً وآداباً وأكملهن تهذيباً، وأليهن عريكة وأرقهن إحساساً (٢) لأن اقتراني بها كان عن حب صحيح متبادل بيننا (٣) لعلاق القرابة بين عائلتنا وعائلتها، فأمي تعتبرها مثل ابنتها، وأختي مثل أختها، فكانها عضو من عائلتنا. لهذه الأسباب وغيرها كنت أقدر أن زواجي سيكون بداية [كذا] دور جديد، أصافح فيه السعادة وأحالف الهناء.. وأن الناس سيغبطونني على زواجي وسعادتي، ولكن ما كدت أتزوج حتى تنافرت القلوب وتسمم الشعور، وتنغصت حياتنا البيئية. ولست أدري كيف أتلافى الأمر. أمي وأختي وسلطنة عزيزات عليّ. ومعاذ الله، وابت المروءة ومكارم الأخلاق أن أضغط على إحداهن.. سلطنة تريد أن نعيش وحدنا وتترك أمي وأختي تعيشان وحدهما، وهذا لا أحبه ولا أستطيعه بوجه من الوجوه. ولما استحکم منها هذا الفكر لم تعد تطيق أمي وأختي، بل جعلت تتكره حركاتهما وسكناتهما وتعد عليهما الذنوب، تمر الأيام تلو الأيام وهي لا تشافههما ولا تحييهما بتحية صباح أو مساء. ولما رأت أمي وأختي منها ذلك اعرضتا عنها. وهكذا لا يزلن جميعهن لا يزددن على الأيام إلا نبوة وجفاء.. هذا هو بيتي الذي أوي إليه من متاعب الحياة، فلا أجد إلا المقت والنكد. فلن أشكو؟. مرات كثيرة أتمنى لو أحرم حياتي بيدي وأخلص من هذه الحياة

المرّة. بالأمس جئت إلى البيت فقرأت على وجوههنّ علامات الانقباض والبغضاء، فلم أتمالك أن تناولت عصاي وضربت بها رأسي فانكسرت.. ماذا يكون تأثير ذلك على سري إذا كبر؟.. هذه أول مرة أشرت إلى ذلك، وعسى أن لا أعود إليها إن شاء الله.

السبت ٧ آذار و ٢٢ شباط سنة ١٩١٤ و ٩ ربيع الثاني

علمت الخواجا ابري، تكلمنا عن المرأة في الغرب والشرق، قلت له من جملة الكلام: إن المرأة في الغرب قد فقدت مركزها الأثوي الجميل، وبعد أن كانت معبودة الرجل وموضع محبته وعنايته، أصبحت خصيمته لمزاحمتها له في أعماله، وفي ذلك خطر على كيان العائلات الخ.. كل يوم تستحکم المودة بيني وبينه. قال: متى أخذت بيتاً هيأت لك أركيلة، فتجيء وندخن وتباحث ونقرأ..

لم أزل كل النهار أفكر في مستقبلي، إذا لم يردني جواب من أشيل سيقلي بالرحيل إلى مصر، فإني منصرف إلى العناية بمدرستي والاهتمام بدروسي الخصوصية، ويخيل إلي أن مدرستي ستتحسن مع الأيام، وأن الاقبال عليها سيزيد. يكفيني استقلالي ومعيشتي كما أريد، لا كما يريد غيري. دخلي هذه السنة أحسن منه قبلها. لا يقل مصروفنا في الشهر عن اثني عشرة ليرة أو أكثر، وإلى الآن لم أستدن. نعم أسكن في غرفة واحدة أنام واستقبل ضيوف في فيها، ولكن إذا تحسنت أحوالي قليلاً، كان ذلك غاية ما أتنى. ولا بد لي إذا أحببت أن أعيش مستقلاً، من العناية بصحتي وشبابي لأستطيع أن أشغل في الليل والنهار..

كنت أقدر حين دخلت العالم أنه لا تمر عليّ خمس سنوات أو ست، حتى أكون قد ضمنت مستقبلي، فمرت السنوات تلو السنوات وأنا كريحشة في مهب الريح، لا أستقر على حال من القلق. علمت في المدارس الإنكليزية والفرنسية والروسية، ثم تركتها جميعها وسافرت إلى بلاد الإنكليز ثم إلى أميركا ورجعت إلى وطني خائباً، ثم اشتغلت في النهضة الأرثوذكسية وجاهدت فيها جهاد الأبطال، فكان من وراء ذلك أن استفاد كثيرون على ظهري، ثم أسست مدرستي الدستورية، وتعاطيت التعليم الخصوصي، ولكن لا أزال إلى اليوم قليل الدخل لا يرتاح لي فكر ولا يطمئن بي خاطر، على أنني لا يسعني إلا الرضى عن ذلك كله (١) لأنني حافظت في كل حياتي على مبدأي حتى في أشد الصعوبات (٢) لأن صعوبة الحياة لم تكن إلا لتزيدني قوة ونشاطاً واثباتاً ورجولية، فلو كانت حياتي سهلة ومستقبلي مضموناً، فلربما استولت عليّ الشيخوخة وانتشر في الضعف، وتضاءلت همتي وأصبحت خرقة بالية، فإذا كان الناس يشكون من الصعوبات فإني أشكرها على حدّ قول المتنبي:

سبحان خيالق نفسي كيف لذتها في ما النفوس تراه غاية الألم
الأحد في ٨ اذار و ٢٣ شباط سنة ١٩١٤ و ٢٠ ربيع الثاني

اقترح اليوم جرجي زخريا أن تؤلف جمعية من بعض أفراد الطائفة للمذاكرة في شؤون النهضة . وسمى نحو أربعة عشر شخصا من أتباعه ، وسيكون أول اجتماعها يوم الأحد القادم في بيت الخواجا عيسى الطبة . على أنني إذا قررت الاشتغال في النهضة ، فإنني سأؤلف جمعية من شبان الطائفة ، للمحافظة على روح النهضة ومبادئها .

من الاثنين في ٩ و ٢٤ شباط و ١١ ربيع الثاني إلى الجمعة في ١٣ و ٢٨ شباط
و ١٥ ربيع الثاني

(١) اشتريت الجزء الأول من رواية الجريمة والعقاب [لدوستوفسكي] وكراسة الإشرافية لسلامة موسى^(١٤) . أعجب بكل ما يترجمه أو يؤلفه أو يكتبه سلامة موسى ، ولكنه ضعيف في اللغة العربية جداً . استعرت الموجز في علم الاقتصاد لمت ترجميه حافظ ابراهيم و خليل مطران ، وقرأت الجزء الأول منه ، فاطلعت على علم واسع وأبحاث جميلة ، وتعرفت بالفاظ ومستحدثات جديدة ، فعولت أن أقرأه بما يستحق من الاهتمام وربما قرأته مع تلاميذي الليلين .

(٢) يوم الأربعاء [٤] كان ميعاد مجيء الطيارين العثمانيين نوري بك واسماعيل بك إلى القدس ، فخرجت القدس بأسرها إلى المحل المعد لنزولهما ، وأخذت سلطانة وميليا وسرياً وذهبنا مع الذاهبين ، وكان الطقس جميلاً جداً ، ولكن عبر النهار ولم نر الطيارة ، وأخيراً بلغنا أنهما [الطياران] سقطا في البحر ، فمات نوري بك وسلم رفيقه فتأسفنا جداً . هذه هي المصيبة الثانية .

(٣) لا أقرأ كتاباً في اللغة الإنكليزية ، أو في اللغة العربية مترجماً عن الإنكليزية وغيرها ، إلا تكشف لي أسرار ارتقاء البلاد الغربية وتفوقها على بلادنا بدرجات . في اللغات الأوروبية روايات عديدة لأكابر الكتاب ترمي إلى أغراض مختلفة أخلاقية وعلمية وأدبية وعمرانية وسياسية ودينية ، وكلها مكتوبة بلغة مفهومة منتزعة من الحياة ، يقرأها الجميع من الكبير إلى الصغير ، ويقتبسون ألفاظها ويمثلون بأشخاصها ، أما نحن فأشهر رواياتنا ألف ليلة وليلة ، ورواية عنتره ، وكتاهما ملفقتان تليقاً بعيداً عن الطبع ، فضلاً عما فيهما من

(١٤) سلامة موسى : أحد الاشتراكيين المصريين الرواد .

أخبار الخلاعة والتهتك مما يفسد الآداب ويحط الأخلاق . وأما الروايات الجديدة فهي : أولاً : مكتوبة بلغة غير مفهومة ولا مألوفة ، وثانياً : غير منتزعة من حياتنا فهي غريبة عن أخلاقنا وعاداتنا ، وثالثاً : لا يقرأها إلا العدد القليل منا بسبب نفشي الأمية في البلاد . . ثم في أوروبا مراسح [مسارح] التشخيص [= التمثيل] التي هي بمثابة مدارس للأمة ، وكل الروايات التي تشخص فيها منتزعة من حياتهم أو تاريخهم مكتوبة بلغة مفهومة . وأما نحن فلا مراسح عندنا ولا تشخيص ، اللهم إلا في مصر ، وأكثر الروايات التي تشخص هناك مترجمة عن اللغات الأوروبية ، وموضوعة في لغة تكاد تكون غير مفهومة عند العامة . وإذا أقبل الناس عليها فليس إلا لسماع النشيد أو لمشاهدة مواقف الغرام ، مما لا ينفع الأمة في أخلاقها ولا ينير بصائرهم أو يثير نفوسها ويبعث فيها الحياة ، إلى غير ذلك من الاعتبارات . أما الكتب فهي عندهم كثيرة مبتذلة رخيصة موفرة فضلاً عن المكاتب [المكتبات] الكبيرة والصغيرة العمومية ، وأما عندنا فإن الكتب قليلة جداً ، وفوق ذلك فهي ثينة لا يتيسر لكل أحد اقتناؤها ، وليس عندنا مكاتب عمومية لتستفيد منها الأمة ، فشان ما بيننا وبينهم .

(٤) سري . إن انقطاع سلطنة إلى العناية بسري لما يستحق الثناء والاعجاب . لا أقبله بغيره من الأطفال ممن هم أكبر منه أو أصغر إلا حمدت نصيبي . ولا يراه أحد من وطنيين وأجانب إلا أعجبوا بصحته ونظافته وجماله ، وما يلوح على وجهه من علائم النجابة والشرف . إذا رزق الحياة فسأعلم الناس كيف تكون تربية الأولاد ومحبتهم والعناية بهم . سيكون فخري وفخر أمه إن شاء الله .

(٥) كان موضوع الحديث بيني وبين الخواجا ابري في أحد أيام هذه الأسبوع اللغة العربية . قلت : إذا قابلت اللغة العربية بغيرها وجدت لها مزايا عديدة :

(١) انها لغة فخيمة . فيها من الحروف الفخيمة ما لا تقابل به لغة أخرى ، وكل حروفها وأصواتها واضحة صريحة ، فلا تسمع كلمة منها إلا سمعت كل حروفها وبينت كل أصواتها . على حين تجد أن كثيراً من الحروف في اللغات الأوروبية صامتة أو خفية ، والحركات عديدة ، منها خالصة ومنها بين بين . . ثم نجد في اللغة العربية حروفاً حلقية لا نجدها في غيرها من اللغات ، فما السر في ذلك . . السر أنه لما كانت الأمة العربية عريقة في البداوة تعيش في الهواء النقي المطلق ، كانت حلوقها قوية تقدر على اخراج تلك الأصوات ، بل إن الأصوات التي تخرج من أعماق الحلق تدل على أن الأمة التي تنطق بها شديدة التأثير حارة الطبع لا تطبق الهمس والغمغمة بل تميل إلى الصراحة والوضوح ، ولا تتكلم إلا عن تأثر ، وأنها تعني ما تقول . وقد كان في بعض اللغات الأوروبية مثل هذه الأصوات ، ولكنها لم تلبث أن ماتت فيها ، وربما ماتت بعض الحروف الأخرى بحيث لا يتكلم الناس بها إلا همساً . . بل إن العرب أنفسهم في دور انحطاطهم هذا لئنوا القاف

فجعلوها همزة، وحذفوا العين من بعض كلماتهم مثل «إسّا»، هذه الساعة، و «للسّا»، لهذه الساعة، لأن حلوهم بسبب تحضرهم قد ضعفت فصارت تستثقل هذه الأصوات، بل استبدلوا الحركات القصيرة في بعض الكلمات بحركات طويلة لارتخاء في نفوسهم. . . فقم يلفظونها أوم. . . وقل أول الخ.

(٢) إنها لغة إيجاز، وذلك: أولاً لأنها لغة إعرابية، فتغيير حركة آخر الكلمة يغني عن تغيير ترتيب الجملة أو زيادة بعض حروف أو كلمات ويؤدي المعنى المراد على أوضح صورة الخ. وثانياً، لأنها لغة اشتقاقية، بل هي أرقى اللغات في الاشتقاق. فنقل الكلمة من وزن إلى وزن آخر يفيد معنى جديداً قد لا يؤدي في لغة أخرى إلا بعدة كلمات الخ. ثالثاً، لأنها غنية في أفعالها «فلكل معنى لفظ خاص، حتى أشباه المعاني أو فروعها وجزئياتها» كما قال [جرجي] زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية، على حين ترى اللغات الأخرى قليلة الأفعال، فبدلاً من أن تؤدي المعنى بلفظ واحد خاص به، تؤديه بلفظين أو أكثر، ولا سيما اللغة الانكليزية، فهي تلجأ في كثير من المعاني إلى استعمال الصفة مع فعل صار أو حصل أو أحس مثل I get better أو I felt happy أو I caught cold أو I become sick الخ. ثم لما كان لكل شخص علامة خصوصية تدخل على الفعل أو تلحق به، مثل التاء في ضربت والهمزة في أضرب، فكيف استعملت الفعل فلا يقع التباس، على حين ترى اللغات الأوروبية لدفع هذا الإلتباس تضطر الى تفسير التركيب واستعمال كلمات أخرى، مما لا يتسع المجال هنا لبيانها. ورابعاً، لأنها غنية في حروفها ففيها من حروف الجر والنفي والنداء والاستفهام، على كثرة ما تتضمنه من المعاني والاعتبارات، ما لا تضاهيها فيه لغة أخرى. خامساً، لأنها تحتمل الإضمار والتقدير والتقديم والتأخير والحذف أكثر من غيرها. لهذه الأسباب وغيرها امتازت اللغة العربية بإيجازها، حتى كأنه فطرة فيها، بحيث لا يظهر فقط في ألفاظها وتراكيبها بل في قراءتها، إذ تتصل الكلمات ويأخذ بعضها برقاب بعض، بل في خطها وكتابتها، وذلك أولاً لأن الحروف العربية الابتدائية والوسطى صغيرة الحجم دقيقة الشكل، وثانياً لأن العرب يلغون الحركات القصيرة لأنها في اعتبارهم مفهومة لا حاجة إلى كتابتها، بل يظهر الإيجاز في أمثالها وأشعارها وخطبها ورسائلها وسائر فروع أدبياتها، فهم يكرهون التطويل الممل. فقد تجد مثلاً قليل الألفاظ يتضمن معنى كبيراً. وعندهم كثير من التراكيب التي تسمى في عرفهم جوامع الكلم الخ، مثل قولهم: القتل اتقى للقتل، ونحو: «ولكم في القصص حياة يا أولي الأبواب» وغير ذلك.

(٣) إنها لغة شعرية (٣ - ١) لكثرة استعمال المجاز والكناية والاستعارات والإشارات والتشابه، وهذا مألوف فيها حتى في اللغة العامية، مثل قولهم: فلان مبسوط اليد، أي: كريم ومقبوض اليد أي بخيل وطويل

النجاد أي طويل وكثير الرماد أي مضياف الخ . . (٣ - ٢) لأنها كثيرة المترادفات فلا يضيق الشاعر بها ذرعاً . (٣ - ٣) لأنها كثيرة التراكيب الإعرابية . . فإذا تعذر الإتيان بهذا التركيب جيء بغيره ، فموقع الكلمة في الجملة ، يظهر إما بعلامات الإعراب أو الترتيب أو القرينة ، على خلاف اللغات الأخرى ، أو تعتمد في بيان موقع الكلمة في الجملة على الترتيب فقط .

(٤) لأن ألفاظها تختلف بين الفخامة والرقّة ، بحيث يستطيع العربي أن يختار لكل مقام من الألفاظ ما يناسبه الخ . .

(٥) لو قابلت كثيراً من مفرداتها بمثلها في لغات أخرى يظهر لك أنها أنسب للمعنى ، وأبين للفكر ، وأطوع لإظهار أعماق التأثيرات . فلفظة لا النافية أنسب من كل أدوات النفي في أية لغة كانت ، إذ يسهل معها مدّ الصوت . والصفات فيها التي تجيء على وزن فاعل مثل واسع وغافر وطاهر وكامل ، أو على وزن فاعل أو فعول مثل كبير عظيم عليم سميع أو صبور غفور شكور ، أطوع للتعبير عن أعماق التأثيرات لما فيها من الحركات الطويلة الخ . . وكلمة حق بحائها وقافها المشددة العميقة ، لا تعادلها كلمة أخرى من أي لغة في الدلالة على معناها ، ولا بد أن الناطق بهذه اللفظة يشعر بالحق أكثر من غيره ، وليس ذلك فقط ، بل لها تأثير على السامع بحيث تصل إلى أعماق قلبه ، وتحدث في نفسه هزة . وكلمة حب لا تعادلها كلمة أخرى في جمالها وقوتها ، بل إن هذه اللفظة تكاد تشم منها رائحة الحب ، لأنها تخرج من أعماق القلب مصحوبة بنفس المحب ، وحق العرب أن يفاخروا بهذه الكلمة ، لأنها تدل على أن الحب عندهم من القلب وليس من الشفاه . وليس أجمل من ضم هذه الحاء واطباق الشفتين على بائها المشددة مما يستشف منه الحزم والثبات الخ . وكلمة مرحبا ، هذه اللفظة الجميلة بميمها ورائها وحائها وبائها وتنوينها وحركات الفتح فيها ، كأنها قطعة موسيقية يتبادلها الناس . . ثم إذا نظرنا في اللغة العربية من جهة الحركات لرأينا لها مزية على غيرها . حركاتها ثلاث ؛ الضم والفتح والخفض [= الكسر] ، ومعلوم أن الضم أفخم الحركات ، والفتح أخفها والخفض أثقلها ، واللغة التي يكثر فيها صوت الكسر ثقيلة مستكرهة ، وإذا استقرت ألفاظ اللغة العربية ومواطن الضم أو الفتح أو الخفض الإعرابية فيها ، لرأيت الخفض أقلها والفتح أكثرها ، وهذا مما يكسبها جمالاً ورشاقة الخ . . ويصدق معه القول : إنها لغة شعرية . . هذه خلاصة ما ذكرته من مزايا هذه اللغة العربية ، وكلها أبحاث لم يسبقني إليها أحد على ما أذكر ، وتحتمل زيادة في الكلام لا يتسع لها المجال . . فقال [الخواججا ابري] : لو أخذنا الكتب الدينية : التوراة والانجيل والقرآن وكلها شرقية لرأينا أنه لم ترأع فيها النسبة (proportion) بين اللفظ والمعنى ، ولو كان أصحاب هذه الكتب من الغربيين لضمنوها ورقات معدودة . . فقلت قد يمكن

ذلك، ولكن يذهب ذلك بجمالها وتأثيرها في النفوس، لأنها كتب دينية موضوعة للشعب عموماً، وليست كتباً علمية يقصد بها تقرير حقائق في ألفاظ محدودة لا تقبل الزيادة ولا النقصان، وقد كتبت في أزمته كانت [فيها] الألفاظ تلعب بالنفوس ما لا تجد إليه المعاني سيلاً...

السبت ١٤ و ١ آذار و ١٦ ربيع الثاني ١٩١٤

بلغ سريّ اليوم الشهر السادس من عمره، فاعتمدنا [=قررنا] أن نصوره على أشكال مختلفة. أخذ اليوم يكرر حرف التاء، كأنه يحاول لفظ كلمة تعال، التي كنا نكررها على سمعه..
جاء اليوم وفد من مسيحيي يافا مؤلف من الخواجات فرنسيس الخياط وحنّا العيسى لدعوة المسيحيين إلى تأليف حزب سياسي للمحافظة على حقوق المسيحيين الذين هم الأقلية في البلاد، وقد دعوانني للمفاوضة في ذلك، فلم أجد وقتاً.

الأحد ١٥ و ٢ آذار و ١٧ ربيع الثاني ١٩١٤

كان اليوم موعد اجتماع اللجنة المليّة حسب الاتفاق في الأحد الماضي، فذهبت إلى بيت الخواجة عيسى الطبة وحضر سليمان داود وجرجي قرط وسليم سلفيّ، أما جرجي زخريا فاعتذر. قلت لهم: إن جرجي زخريا قد اعتمد خطة التساهل مع الرهبان، فيجب أن نمهله ونمهلهم أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، فإذا نجحت خطته كان بها، وإلا فلا بد من استئناف القتال وإغلاق الكنائس وإحداث ضجة كبيرة، ثم استأذنت بالانصراف، وجئت إلى البيت فجاء المعلم نخلة زريق ليهنئنا ببلوغ سريّ الشهر السادس من عمره. وبعد الظهر أخذت سرياً وسلطانة وذهبتنا عند المصور ملبياوي عبده، فتصورنا أولاً كلنا معاً، ثم تصورت سلطنة وهي مع سريّ ثم تصورت معه، وقد نوينا أن نصوره وحده عارياً، ولكنه لم يمتنع عن الحركة فأجلنا تصويره إلى فرصة أخرى.

في المساء زارني فرنسيس الخياط وحنّا العيسى فجلسنا نتباحث في الأمر الذي حضرا لأجله.. قالوا: ذهبنا اليوم إلى بيت لحم وبيت جالا وجمعنا المسيحيين وعرضنا عليهم مشروعنا، وبعد الأخذ والرد استحسّنوه، ووعدوا بالإنضمام إلينا. قلت: لو فرضنا أنكم اتفقتم كلكم، فماذا أنتم فاعلون؟ قال: نراجع الحكومة، فإما أن تعطينا حق انتخاب عضو مسيحي للمبعوثان، وإلا امتنعنا عن الدخول في الانتخاب. قلت: لو فرضنا أنها أعطتكم هذا الحق فما الفائدة من ذلك، وماذا يستطيع عضو واحد، أو عضوان أو ثلاثة أن



سلطانة مع سري العام ١٩١٤ . مجموعة عائلة
السكاكيني

يفعلوا؟ بل أخشى أننا بعملنا هذا نفر الأعضاء المسلمين، وحينئذ فلا الأعضاء المسلمون يهتمون بنا، بل ربما عاكسونا، ولا الأعضاء المسيحيون يقدرّون أن يفيدونا شيئاً. هذا على فرض أن الحكومة أجابتنا إلى طلبنا، ولكن لو فرضنا أن الحكومة لم تجبنا إلى طلبنا فماذا ينفعنا الامتناع عن الانتخاب؟ بل ماذا يهمّ الحكومة ذلك؟. فقالا: الحكومة تشجع هذا العمل كما شجعت في سوريا لأنها تأمن جانب المسيحيين أكثر من المسلمين العرب حرصاً على الخلافة. فقلت: إذا تكون النتيجة خدمة أفراد من المسيحيين ليكونوا في مجلس المبعوثان على غير فائدة منهم تذكر للطوائف المسيحية من جهة، وخدمة أغراض الأمة التركية من جهة أخرى. ثم إذا كنتم تخشون من التعصب الإسلامي، فبعملكم هذا تزيدونه لا تقللونه، لأنكم وأنتم تحاولون أن تقاوموه تكونون تعصباً مسيحياً، والتعصب لا ينفي التعصب. وبعد أخذ ورد في هذا الموضوع، قلت: إذا كان غرضكم سياسياً فأنا لا أستحسنه، لأنني عربي قبل كل شيء، وعندني أن الأفضل أن تؤلف حزبا وطنياً يجمع كلمة أبناء الوطن على اختلاف المذاهب والنحل، لننبه الشعور الوطني وبث روح جديدة في النفوس، وحينئذ فإذا كان المنتخبون لمجلس المبعوثان مسلمين أو مسيحيين فإنهم يشتغلون لما فيه خير الوطن.

الاثنين ١٦ و ٣ آذار و ١٨ ربيع الثاني ١٩١٤

دفعت اليوم خمس ليرات فرنساوية بقية كميالة حسين أفندي سليم بعشر ليرات. التقيت بفرنسيس أفندي الخياط وحنا أفندي العيسى، فقالا: إن طائفة اللاتين عقدت اجتماعا وقررت الاشتراك في المطالبة بحقوق الأقلية، وأنهما قابلا كثيرين من الملة الأرثوذكسية فارتاحوا إلى المشروع وواعدوا بالاشتراك فيه.

الثلاثاء في ١٧ آذار و ٤ آذار و ١٩ ربيع الثاني ١٩١٤

تألف قومسيون للمعارف في لواء القدس، فعينت عضوا فيه لمدة أربع سنوات، ومتى اجتمعنا لأول مرة كتبت عن وظيفته وصلاحيته. أعطيت اليوم أول درس لالياس أفندي فراجي وهو محام يهودي، لا يعرف إلا اللغة التركية واللغة الفرنسية، فاستعنت ببعض الكلمات التي أعرفها في اللغة الفرنسية في التفاهم معه. وصيت اليوم على بدلتين ودفعت عربوناً خمس فرنكات. أرسل إلي الخواجا رفة الحمصي، الذي انتقل من القدس إلى بيروت، يقول: إن القيمة التي له على أخي يوسف تبلغ عشر ليرات فرنساوية وبضعة فرنكات، وعين أجلا لدفعها مدة سنة.

صار سري في هذين اليومين يستطيع القعود لأول مرة من تلقاء نفسه. وقد قررنا أن لا نحاول إجباره على شيء قبل أوانه.

كثرت دروسي الخصوصية في هذه الأيام بحيث استغرقت أوقات نهاري وليلي ، ولولاها لكنت ضقت ذرعاً بالمعيشة ، لأن دخلي من المدرسة قليل جداً لا يسدّ عوزاً ولا يغني من جوع ، ومصروف البيت في الشهر لا يقل عن عشر ليرات أو اثنتي عشرة ، ولحد الآن لم أستدن والحمد لله . أما دخلي من دروسي الخصوصية على ما بلغ إليه في هذا الشهر فهو كما يأتي :

فرنكات

- ٢٠ الكنتسليز درسان في الأسبوع .
- ٢٠ مس اندرسن درسان في الأسبوع .
- ٢٠ كتن هتشنس درسان في الأسبوع .
- ١٠ مس بيست درس واحد في الأسبوع .
- ٦٠ الخواجا أبري ٦ دروس في الأسبوع .
- ٤٠ الخواجا الياس فراجي ٤ دروس في الأسبوع .
- ١٥ من الصف الليلي درسان في الأسبوع .
- ٢٤ سارة ابنة خالي جورج وعز الدين الشوا ، درسان في الأسبوع .
- ١٢ الدكتور كوربت وامراته درس واحد في الأسبوع .

[المجموع] ٢٢١

على أن هذا الدخل لا يستمر على حال واحد ، لأنه قد تعترضني أو تعترض بعض تلاميذي أشغال فيتعطل الدرس ويقل الدخل ، ولذلك لا أستطيع أن أعتد على الدروس الخصوصية ، ولست أحب أن أعيش منها وحدها ، لأنها تستهلك قواي ولا أزال معها على قلق ، فضلاً عن أنها لا لذة فيها ، على حين لو استعملت قواي ومواهبني في مدرسة يدخلني منها دخل كافٍ معلوم مضمون ، لأفدت بلادي وضمنت مستقبلي . أرسلت اليوم رسالة الى الخواجا بندلي الجوزي ، أشكره على هديته الجميلة .

الأربعاء ١٨ آذار و ٥ آذار و ٢٠ ربيع الثاني ١٩١٤

كل يوم تشدّ بي الحاجة الى درس اللغة الفرنسية . ولذلك خطر لي أمس واليوم أن آخذ دروساً فيها . . كان حديثي الليلة مع كنتسليز روسيا الخواجا انتيوف عن أعمال جمعية فلسطين الروسية . . قلت : لولا عناية

جمعية فلسطين بالزوار الروس وتوفيرها أسباب راحتهم وتقليلها نفقاتهم، لقل عددهم سنة عن سنة، فيقل دخل الرهبان فيضعف شأنهم، وليست جمعية فلسطين في عملها هذا إلا واسطة لخدمة مصلحة الرهبان الخ.

الخميس ١٩ آذار و ٦ آذار و ٢١ ربيع الثاني ١٩١٤

اليوم بعد الظهر، بينما كانت سلطنة تشتغل بنشر الغسيل كان الخادم عبد يجر عربة سري بالقرب منها، فاصطدمت العربة بحجر، فانقلبت والتطم رأس سري بالعربة، ولولا القليل لوقع على الأرض، وكان سرياً تألم من هذه اللطمة فجعل يصيح فتراكضنا وصاح الجيران: وقع الولد وقع الولد. فحملته أمه ثم أخذته وحملته، وجعلت أقبه وهو يبكي بكاءً شديداً، ولم نزل به حتى هدأ روعه. هذه أول الحوادث وعمره ستة أشهر وستة أيام.

الجمعة ٢٠ آذار و ٧ آذار و ٢٢ ربيع الثاني ١٩١٤

في هذين اليومين سمعت سرياً يحاول أن يلفظ حرف ث، كأنه الصوت الطبيعي الذي يجيء بعد حرف ت.. إذا استولى عليه النعاس جعل يغني، وكذلك إذا قام من النوم كأن للنوم علاقة بالغناء.

السبت ٢١ آذار و ٨ آذار و ٢٣ ربيع الثاني ١٩١٤

التقيت في آخر النهار بحسين أفندي سليم ذاهباً إلى بيته فمشيت معه. ذكرنا أمر الانتخاب للمبعوثان فقلت: إذا كانت جمعية الاتحاد والترقي هي التي ترشح الأعضاء، فلم يعد ذلك انتخاباً، بل هو أشبه بالتعيين منه بالانتخاب، فقال: إن الجمعية كحزب سياسي تسعى في ترشيح من تشاء، ولكن ذلك لا يمنع أن تستعمل حريتها في انتخاب من تشاء ولا سيما والجمعية هذه المرة لم تستعمل الضغط ولم تتداخل في الانتخاب كما فعلت في المرة الماضية. قلت: يكفي أنها رشحت بعض الأشخاص، فلا بد أن يقع الانتخاب عليهم لأنها إذا لم تضغط على الأمة لنتخبهم فهي تنتخبهم تزلماً منها.. لأن الكبار منها طلاب وظائف، والصغار جاهلون خاملون. ولذلك فالحاجة ماسة إلى تأليف جمعيات وطنية، لتعليم الأمة وتنوير بصائرهم وتنبيه شعورها الوطني.. وقد كنت ذكرت لي أنك تريد أن تؤلف جمعية للناشئة الإسلامية، فقال: لا أزال على عزمي وسننظر في ذلك قريباً.. ثم سأله عن تجديد انتخاب رئاسة البلدية، فقال: أرجح أنني سأبقى فيها لأنه ليس هناك من يزاحمني عليها، وإذا وجد فلست أظن أنه يفوز علي، وإذا لم أوفق فلا أبالي لأنني عشت كل عمري بدون وظائف، وإني أستطيع أن أعيش بدونها. وقبل

أن انفصل عنه قال لي : كمت تفتش في أول السنة عن محل قرب الأميركان قلت : نعم ولكن لم أجد ، فقال : بعد يومين أو ثلاثة أقدم لك داراً جميلة يحيطها بستان فتسكن فيها لأربعة أو خمسة أشهر ، فشكرته على ذلك .

الأحد في ٢٢ آذار و ٩ آذار و ٢٤ ربيع الثاني ١٩١٤

زرنا اليوم الدكتور سبور ، فسألني عما تم في أمر مدارس العلة الأرثوذكسية فقلت : لم يقرروا شيئاً بعد ، ولست أظن أنهم يقررون شيئاً قبل عيد الفصح ، وقد اعتمدنا أن لا نتعرض لهم في شيء الآن ، فإذا لم يقرروا شيئاً من الآن إلى العيد استأنفنا القتال بشدة . ثم سألني عن مدرستي ، فقلت له : تحسنت عن قبل ، ويا حبذا لو استطع أن أجد انكليزياً أو أميركياً يشترك معي في العمل ، فقال : سر الآن في عملك ولا بد أنك تنجح . . بعد الظهر زرنا بيت سابا عبده أنا وسلطانة وسري وكاتينكو .

الاثنين ٢٣ آذار و ١٠ آذار و ٢٥ ربيع الثاني ١٩١٤

بما أن قوام معيشتي هو الدروس الخصوصية ، فيجب أن أضع كتاباً جديداً في هذه الدروس يسهل تناولها على التلاميذ . ولما كانت تشد بي الحاجة يوماً فيوماً إلى اللغة الفرنسية ، فيجب أن أبدأ بدرسها . ولذلك لا غنى عن أن أرتب أوقاتي لتسع كل أعمالي . أقوم الساعة الخامسة صباحاً فألعب ألعابي وأستحم إلى الساعة السادسة ، ثم أجلس وراء طاولتي فأكتب وقائعي اليومية وأشتغل في كتاب الدروس الخصوصية إلى الساعة السابعة ، ثم أتعاطى أشغال النهار . ثم أشغل أوقات فراغي قبل الظهر وبعده بدرس اللغة الفرنسية والمطالعة والتعليق . كلما زادت أشغالي زادت همتي وتجدد وسروري .

الثلاثاء ٢٤ آذار و ١١ آذار و ٢٦ ربيع الثاني ١٩١٤

ذهبت علمت تلميذي الياس افندي فراجي ، ونحن في الدرس ، إذ جاء صديق له فجلس يسمع فارتاح إلى الدرس وأحب أن يشترك فيه وسيبدأ غداً . كانت الليلة ميعاد الصف الليلي . جاءني تلميذ جديد ، وهو سليمان بن الشيخ محمد صالح صاحب مدرسة روضة المعارف . سأبذل وسعي في تنبيه الشعور الوطني في تلاميذي واعدادهم لأن يكونوا رجال المستقبل إن شاء الله . اجتمعت اليوم بجرجي زخريا ، ففهمت منه أن الرهبان رفضوا تأليف هيئة ادارة للمدارس خوفاً من أن أكون فيها وهو يظن أن لبعض الوطنيين اصعباً في ذلك ، وقبل أن تم الكلام دخل عليه بعض ذوي الاشغال فتركنا بقية الحديث إلى الغد ، متى استوعبت كل

حديثه نظرت في ما يجب أن أعمل .

الأربعاء في ٢٥ آذار و ١٢ آذار و ٢٧ ربيع الثاني ١٩١٤

استأنفت درس الخواجا أبري بعد انقطاعه عنه الأسبوع الماضي لتغييه في يافا . ثم ذهبت علمت الياس أفندي فراجي وحده لأن صديقه لم يحضر ، وبعد الظهر كان ميعاد درس مس ولس ، ولكن بسبب وفاة إحدى السيدات الأميركانيات في المستعمرة الأميركية اعتذرت ، وذهبت مع سلطانة إلى الجنازة ، وفي المساء ذهبت علمت الكنتسليير . قابلت مع الخواجا أبري بين المدينة الغربية والمدينة الشرقية ، وتكلمت مع الكنتسليير عن السعادة ، وسأكتب خلاصة ما دار بيننا في هذين الموضوعين في فرصة أخرى .

الخميس في ٢٦ آذار و ١٣ آذار و ٢٨ ربيع الثاني ١٩١٤

(١) أخذت كميالة من حسين أفندي سليم بعشر ليرات فرنسية على البنك الوطني لمدة ثلاثة أشهر من تاريخ هذا اليوم ، لتسديد حسابات هذا الشهر .

(٢) كان اليوم موعد أول جلسة لقومسيون المعارف الذي عينت عضواً فيه ، فاجتمعنا في ادارة المعارف ، فطلبنا بيان وظيفة هذا المجلس ، فإذا بها تتعلق بالمدارس الابتدائية في لواء القدس ؛ تناول تعيين المعلمين وعزلهم وتحويلهم من درجة الى درجة ، ونقلهم من محل إلى محل ، والنظر في كل شكاية من معلم على آخر ومشاركة [مراقبة] التعليم الخ . . يلوح لي أنها وظيفة مهمة ، إذا أخذناها باليد اليمنى ، فقد نستطيع خدمة المدارس وتحسينها نوعاً ما . وقد رأيت أنني سأكون فيها أهم عضو ، لأنني أعرف من غيري من الأعضاء بأمور التعليم والتربية ، ولا بد أن يتدبوني لمشاركة التعليم في القدس ، والتجول في اللواء كله لهذا الغرض . وهذه فرصة لأن أستعمل كل قواي ومواهبني ، وأبث مبادئي وأنفخ من روحي في المعلمين والتلاميذ .

الجمعة في ٢٧ آذار و ١٤ آذار و ٢٩ ربيع الثاني ١٩١٤

علمت اليوم الخواجا أبري والياس أفندي فراجي والدكتور كوربت وامراته ومس اندرسن ومس ولس وكنتسليير روسيا المسيو أنتيبوف ، فيكون مقدار دخلي من هذه الدروس خمسة عشر فرنكاً ونصفاً . . دفعت اليوم من ثمن بدلتي ثلاثين فرنكاً . .

في المساء زارني مدير المعارف ، ورضا بك ، ومفتش المعارف حمدي أفندي التير وبعض معلمي

المعارف . قلت : لا بد لنا إذا أردنا أن تكون مدارسنا نافعة مفيدة من عدة أمور :
أولاً ، أن نزور المدارس الإسرائيلية والأجنبية على اختلاف صبغاتها ، لنرى كيف يديرون مدارسهم ، وماذا يعلمون وكيف يعلمون ، وما هي الكتب التي يستعملونها ، الخ .
ثانياً ، أن نؤلف جمعية للمعلمين نلقي فيها خطاباً في أصول التعليم والتربية الحديثة ، ودرجة المعلم توقف على ما يظهره في هذه الجمعية من الاجتهاد والاقترار والاخلاص والشغف بوظيفته .
ثالثاً ، أن نستنهض همة أعضاء قومسيون المعارف الخصوصي والعمومي للاهتمام بأمر التعليم ، وتوخي المنفعة العامة على المنفعة الخاصة .

قالوا : أكبر عثرة في سبيل ترقية المعارف وتحسين المدارس ، هو تداخل المتنفذين في تعيين المعلمين وعزلهم ، بحيث لو شاءت ادارة المعارف عزل معلم أو نقله من محل إلى آخر ، لحال المتنفذون دون ذلك ، بل لو أرادت استبدال كتاب [تعليمي] بآخر لم يخل الأمر من تداخلهم باسم الدين أو لأغراض أخرى ، فقررت أن أدرس حالة المدارس الأميرية [= الحكومية] وأضع تقريراً بذلك .

السبت ٢٨ آذار و ١٥ آذار و ١ جمادى الأولى ١٩١٤

علمت اليوم الخواجا ابري والياس أفندي فراحي .

(١) أخذنا سرياً إلى المستشفى الإنكليزي لتطعيمه . لما كشفنا عن ذراعه ، قال الدكتور كوربت : لم أر طفلاً مثل هذا في هذه البلاد . كان إذا حاول البكاء من ألم وخز السكين ، صفقت له بيدي فيحاول الضحك . . أجمع الناس على لزوم التطعيم وقاية من هذا المرض المخيف . وقد زار بيتنا هذا المرض يوم كنا أطفالاً فلم يبق أحد من اخوتي وأخواتي وأولاد عمي إلا أصيب به ، فمات منا اثنان : أختي جوليا وابن عمي وكان وحيداً لأبيه . وكنت من الذين سلموا منه ومن آثاره في الوجه . . وقد كان ذلك لأننا لم نطعم ، ولكن مع التطعيم لا يبقى الدم صافياً . . بل تدخله مادة أخرى تبقى فيه إلى الأبد .

(٢) اجتمعت بجرجي زخريا ، قال لي : إن الرهبان يعترضون على وجودك في هيئة إدارة المدارس ، وكذلك بعض أفراد الطائفة ، ولكنني لم أزل بالبطريك حتى أقنعتهم ، ولكنه لا يزال مصراً أن الذين يتعينون لهيئة ادارة المدارس ، يجب أن يعطوا درسا ولو ساعة في اليوم ، فأحب منك أن تنظر في الأمر وتتساهل في إعطاء هذا الدرس ، فقلت له : سأفكر . . وفي النية أن أعارض في هذا الشرط ، سواء دخلت هيئة الإدارة أو دخلها غيري ، لأنه لا يخلو إصرارهم على ذلك من إرب في النفس .

(٣) في المساء جاء موسى فيضي العلمي وحننا حمامة ، ودعواني لأذهب معهما الى السينما توغراف .

الأحد ٢٩ آذار و ١٦ آذار و ٢ جمادى الأولى ١٩١٤

لا يمر بي يوم إلا شعرت بتغير خفي بطيء في أخلاقي وأفكاري وأمياي وتصوراتي وشعوري، بل وجسدي. ولا شك أن ذلك تأثير الزمان والمحيط ونوع المعيشة والعمل. . . ولست أدري هل هو ارتقاء أم انحطاط. لما كنت دون العشرين كنت مولعاً باللغو والسرور، أحب الموسيقى والغناء والرقص والتأنق في الثياب، أهتم بالفتيات اهتماماً عظيماً وأعجب بالجمال، بل أكاد أعبد.

كنت أطرب للشعر، أنظمه واقرأه وأسمعه، إلى آخر ما هنالك مما هو مسطور في يومياتي الأولى. . . وأما اليوم فهجرت الموسيقى ومللت الشعر، ولم أعد أعبأ بالجمال، بل تكاد تصبح الدنيا في نظري طائف وصيانيات. فهل دخلت في دور الشيخوخة أم صرت أرقى مما كنت عليه قبل اليوم؟ . . . إن سفري إلى بلاد الإنكليز وأميركا وزواجي، كل ذلك غير من حياتي. كنت أحسب قبل سفري إلى بلاد الإنكليز وأميركا أنني موسيقي وشاعر، وأني أفهم الحياة وأعرف ما بدا وما اختفى منها، كثير الاختبار واسع المعرفة بعيد النظر، فلما انتقلت إلى ذلك الوسط الراقي، فرأيت المدينة الباهرة بعيني ولمستها بيدي، وقد قدر لي أن اتصل بكبار القوم؛ بعلماء وأساتذة ودكاترة وأفاضل، وسمعت أرقى الأصواق الموسيقية وحضرت أرقى الأصواق التشخيصية، لم تعد أمياي وتصوراتي واختباراتي ومعارفي ترضيني. فالموسيقى التي كنت أطرب لها لم تعد تثير في نفسي طرباً، وقس على ذلك غيره مما أستطيع معه أن أرجح أن هذا التغير في ليس إلا ارتقاء.

وسأتناول هذا الموضوع في فرصة أخرى بالبسط والايضاح إن شاء الله.

الاثنين ٣٠ و ١٧ آذار و ٣ جمادى الأولى ١٩١٤

اجتمعت اليوم بجرجي زخريا، فقال لي: زرت قنصل روسيا فسألته: هل تعتقدون أن المجلس المختلط نافع أم مضر؟ فقال: إن المجلس المختلط جعل لإصلاح ذات البين وحسم كل خلاف وتأييد السلام، ولكن منذ تأسس إلى اليوم لم يكن إلا مثاراً للخلاف والشقاق، فإذا استمر الحال كذلك فتعطيله أولى، ثم نصحه أن يعتمدوا خطة الملاينة والتساهل ويتدرجوا في مطالبهم تدرجاً، لأن العسف والشدة لا يؤديان إلا إلى الخصام والعداء. وقال له: كنت اجتمعت مراراً مع خليل السكاكيني وبينت له رأبي في ذلك. أما بخصوص المدارس، فإذا كنتم تريدون أن تجعلوا رئاسة الهيئة الإدارية أجنبية فيجب أن تكون روسية. وكذلك إذا أردتم أن تجعلوا لغة التعليم لغة أجنبية فيجب أن تكون اللغة الروسية.

من الثلاثاء في ٣١ آذارغ إلى الأحد في ٥ نيسان و٢٣ آذار

(١) ابتداء سري يحاول الزحف، وصارت الأصوات التي يتلفظ بها أوضح.

(٢) كتبت رسالة إلى الخواجا أشيل سيقلي، أطلب فيها منه أن يفتش لي عن شغل في مصر كمعلم.

(٣) جاءت جريدة اقدم وفي صدرها كلام عني وعن مدرستي، ولعل أشيل سيقلي يطلع عليها فيبرزها

لرؤساء المدارس هناك.

(٤) بلغني حسين أفندي سليم أن البلدية لا تستطيع هذه السنة أن تدفع لي الثلاثين ليرة، لقلة وارداتها

وكثرة مصاريفها.

(٥) لم ينم سري في الليلتين الأخيرتين، لأن يده كانت ترعاه [=تتمنمه] فلم نتم معه، بل كما تتناوب حملة

أنا وسلطانة.

(٦) لا تلوح لي بارقة أمل يوماً إلا توات بعد ما صدمات اليأس أياماً. هكذا كنت ولا أزال منذ عشرين

سنة، ولولا غضاضة الشباب وعنفوان الصبي، لأصبحت خرقة بالية. نزلت أمس إلى البلد فلم تقع عيني

على أحد إلا اشمازت نفسي وانقبض صدري. لا أتصفح الوجوه إلا رأيت علائم الانحطاط. كان يجب أن

أرحل عن القدس من زمان طويل، لأنها بلد لا يستطيع الحياة فيه إلا أصحاب العقول السخيفة والنفوس

الصغيرة، والوجدانات البالية والمبادئ الساقطة، لا أستطيع أن أشغل فيه وحدي ولا أستطيع أن أخاطب

الناس. إن الحياة في مثل هذا الوسط لمرّة على من كان مثلي.

من الأحد إلى الأحد

من ٥ نيسان إلى ١٢ نيسان غ سنة

(١) باشرنا امتحان التلاميذ. عطلنا المدرسة يوم الخميس في ٩ نيسان غ وستمّد العطلة إلى يوم

الخميس في ٢٣ منه.

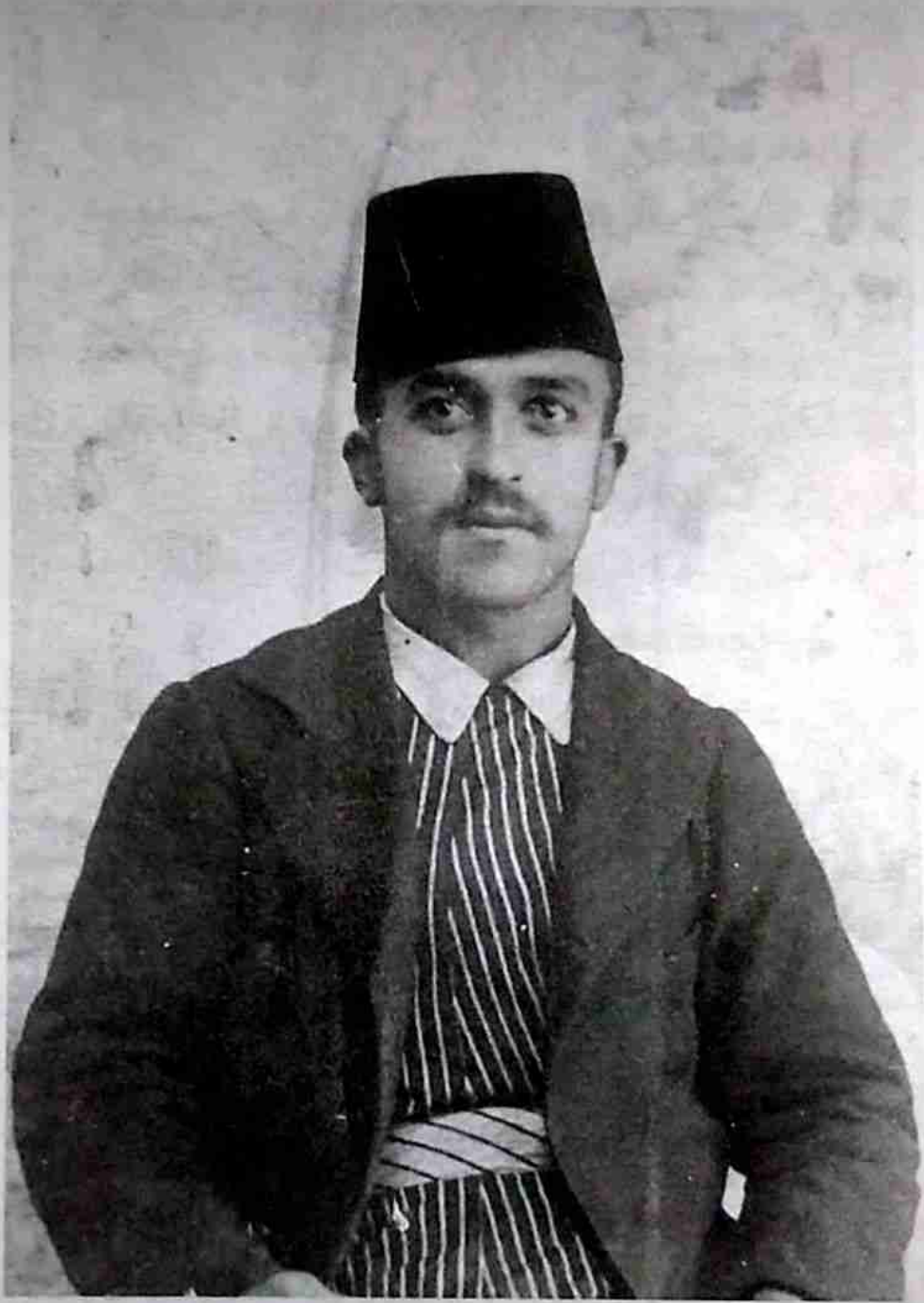
(٢) أوقف أكثر تلاميذي الخصوصيون دروسهم بمناسبة الأعياد في هذه الأيام.

(٣) اشترينا لسري مستعملة^(١٥) وقبل الاستعمال أعطيناه إياها ليلعب بها، فكان لا يتفك عن نقلها بين يديه

ووضعها في فمه، كأنها من جملة أدوات ألعابه. أما طريقة تعويده استعمالها، فهي أن نضع فيها ماءً حاراً

ونجلسه عليها.

(١٥) بالعامية الفلسطينية «نونية» وهي وعاء خاص بالأطفال لقضاء حاجتهم قبل تدريبهم على استعمال المراض.



خليل السكاكيني شاباً . مجموعة عائلة السكاكيني

(٤) صار سرّي إذا جئت إلى البيت يمد إليّ ذراعيه لأحمله ، وإذا حملته لا يحب أن يذهب إلى غيري بل يتعلق بعنقي ويحاول البكاء .

من ١٣ نيسان غ إلى ١٨ أيار غ سنة ١٩١٤ م
من أهم ما مرّ بي في هذه المدة ما يأتي :

(١) وصول الطيارين العثمانيين سالم بك وكمال بك إلى القدس صباح يوم الجمعة الواقع في أول أيار غ الساعة الثامنة والرّبع ، فاحتفلت القدس بهما احتفالاً عظيماً ، ويوم السبت بعد الظهر حلق أحدهما مع عمر أفندي بيطار ، رئيس بلدية يافا ، في جوّ القدس ، وقد أخذت سلطنة وسرياً وذهبت معنا الأنسة جوليا كرايديان فالتقينا بالخوجا موسى فرج الله ، فأحضر عربية وذهبنا فيها إلى المحلّ المعدّ لنزول الطيّارة وسررنا جداً . . . ويوم الإثنين الساعة الخامسة صباحاً طارا إلى مصر .

(٢) كتبت إلى أشيل سيقلي ووهبة العيسى أرجوهما أن يفتشا لي عن شغل في مصر ، وإلى اليوم لم يردني جوابهما ، وعسى أن يكون في هذه العاقبة [كذا] خير .

(٣) قطعت عني نظارة المعارف الستين ليرة العثمانية التي كانت تدفعها لي كل سنة على سبيل المساعدة ، فخطر لي أن أعطل المدرسة ، ولكن رأيت أنني إن عطّلتها أو استمرت في عملي فإني مديون على كل حال ، ولذلك آثرت المضي في العمل ، فذلك أعذر لي .

(٤) طلب إليّ مستر رينولدس [رئيس مدرسة كيسة مطران الإنكليز] أن أشغل معهم مرة أخرى ، فلما ذهبت لمقابلته وجدت أنهم لا يحتاجون إلى كل وقتي ، ولا يستطيعون أن يدفعوا لي ما يرضيني فرفضت .

(٥) طلب إليّ جميل الخالدي أن أذهب إلى يافا ، لأشغل معه في مدرسة دار العلوم الإسلامية ، ودفع لي ثمانين أو تسع ليرات في أول الأمر ، فرفضت لأنني لا أستطيع أن أترك مدرستي الآن قبل نهاية السنة .

(٦) التأم المجلس المختلط بعد عطلة العيد الكبير (الفصح) وعيّنوا هيئة إدارية للمدارس الأرثوذكسية ، مؤلفة من أربعة أعضاء وطنيين وعضوين راهبين . أما الوطنيون فهم أنا وأفتيم مشبك وخليل بيدس وابراهيم شماس ، فجاءني جرجي زخريا يعرض عليّ ذلك فرفضت رفضاً تاماً ، فجعل يرسل إليّ الوفود ويتوسط الناس من مسلمين ومسيحيين لإقناعي ، فلم أزل مصراً على الرفض ، قال : إذا كان لا بدّ لأعضاء هذه الهيئة من إعطاء بعض دروس فانت مستثنى من ذلك ، وإن كنت لا تحبّ التجول في فلسطين لتفقد المدارس أرسلنا غيرك ، وإن كنت لا تحبّ أن تشغل مع بيدس وشماس أخرجناهما ، وإن كنت لا تستطيع أن تكرّس وقتك كله فليكن اجتماعكم مرة أو مرتين في الأسبوع ، وإن كنت تخشى أن لا تكون حرّاً في عملك فأنا أعدك أن

الرهبان لا يعارضونك البتة. فلك الصلاحية التامة في تعيين المعلمين وعزلهم وترقيتهم وتبديلهم وفي وضع البروغرام الذي تريده، لا يعارضك أحد. وهكذا لم يزل بي حتى أكرهني على الرضى، وأخذني مع أقيم مشبك لمواجهة البطريك يوم الأربعاء الواقع في ١٣ أيارغ سنة ١٩١٤م قبل الظهر، فلما دخلت أحسست بحمى في جسدي. قال البطريك: عيناكما مع بيدس وشماس لإدارة المدارس، ولم يكذب ينهي من كلامه ويسألني عن رأيي حتى بادرت من فوري بقولي: سأفكر، وقد كان يظن أنني رضيت وانتهى الأمر، فلما سمع مني هذا الكلام أخذته وسائر الموجودين البغثة، فالتفت إلي جرجي زخريا، وقال: ما هذا يا خليل؟ ولماذا جئنا إلى هنا؟ ألم أتعهد لك بكل ما تريده؟ فقلت له: لا أشغل مع خليل بيدس وابراهيم شماس، فقال: لن يدخلوا الهيئة ولن يحضروا اجتماعاً. ولم يزل بي حتى قلت: سأجرب، وبعد الظهر اتفقت مع أقيم مشبك ونزلنا إلى مكتب نظارة المدارس، وإذا بخليل بيدس هناك، فلم أسلم عليه ولم ألتفت إليه، بل ذهبت تواء إلى قاعة المجلس المختلط، وقرأت قراره بخصوص العمدة، ثم رجعت فوجدت بيدس قد انسحب من تلقاء ذاته. اتفقنا على الاجتماع يوم الجمعة بعد الظهر فقال أحد الرهبان: وسندعو بيدس وشماس، فلما سمعت ذلك قلت في نفسي: لعلهما لا يعرفان ما تم الاتفاق عليه. فلما التقيت بجرجي زخريا أبلغته ما سمعت، فقال: لا بأس، فثار ثائري، وقلت له: إن ذلك لا يمكن وأعد نفسي مستعنياً ولكن آسف كثيراً أنني قبلت بدخول هذه الهيئة... فأكون قد عينت قبل الظهر واستعفيت بعد الظهر... إذا لم يخرج بيدس وشماس فإني معيد الكرة على هؤلاء الرهبان، ولن أدعهم يستريحون ما دمت حياً.

(٧) في ١٤ أيارغ وأول أيارش بلغ سري الشهر الثامن من عمره. صحته جيدة جداً، جسده ممتلئ، لونه مشرق، شعره ذهبي مرسل. رأسه وجبينه وحاجباه وعيانه وأذناه وأنفه وفمه وذقنه وعنقه وكتفاه وذراعاها وصدره وظهره وبطنه وفخذه وساقاه وقدماه وأصابع يديه ورجليه، كل ذلك مفرغ في قالب الجمال... لقد ملأت يا سري حياتي بهجة وجمالاً، كما ملأت صدري محبة ورقة وحنواً... لا تزال إلى اليوم تعيش على حليب أمك، ولم تدخل في دور التسنين بعد. يقال: إنه خير للطفل أن تتأخر أسنانه، لأنه يكون أقدر على احتمال ما يرافقها من الآلام والأعراض، وكلما تأخرت الأسنان كانت أقوى وأمتن... ويقال: إن الذكور يتأخرون عن الإناث في كل شيء في دور الطفولية.

الثلاثاء في ١٩ أيار و ٦ أيارش سنة ١٩١٤م

قرر بعض الأصدقاء من الملة الأرثوذكسية أن يجمعوني بجرجي زخريا، للمناقشة في مسألة انتخابي

في هيئة إدارة المدارس، فاجتمعنا بعد الظهر في مكتب جرجي زخريا، وكان هناك ممن أذكر: متري تادرس وشكري ديب وأفتيم مشبك والياس مشبك وعيسى البيبي وعيسى الطبّة وجميل الزنايري واسكندر الخوري البيتجالي وغيرهم. فقال جرجي زخريا: لا أنكر أنني لاحقت خليل مدة طويلة لإقناعه بالقبول، ولم أترك أحداً إلا توسطته لديه، ولا واسطة إلا اتخذتها إليه، ولا وعداً إلا وعدته به، فقد وعدته أن نخرج بيدس وإبرهيم شماس من نظارة المدارس، وأنهما إلى أن نخرجهما لا يحضران جلسة من جلسات الهيئة الإدارية، وقد أكدت له ذلك في آخر دقيقة حين كنا عند البطريك، ولكن الظاهر أن الرهبان من تلقاء أنفسهم، أو بتأثير بعض أفراد الحزب الثاني، تمسكوا بحضور بيدس وشماس الجلسات. ولست أشك أن غرضهم تنفير خليل من العمل للتخلص منه، لأنهم يخافونه ولا يحبونه. وعندني أن المصلحة تقتضي أن يتساهل خليل في هذه المسألة ويقبل بالاجتماع معهما مؤقتاً إلى فرصة أخرى، وعسى أن تكون قريبة، لتتخذ ما يتهيأ من الوسائط لإخراج المذكورين من الهيئة الإدارية، ولا يسعني إلا أن أعترف أننا الآن لا نستطيع إخراجهما، وإن رفض خليل القبول مما يتمناه الرهبان، وإذا كنت الأحق خليل وألح عليه بالقبول، فليس إلا لأنني أعتقد أنه أقدر إنسان يستطيع أن يحسن حالة المدارس، ولكن بالتدرج والرفق في السياسة والمعاملة، ولذلك أكرر الآن الرجاء أمام الجميع، أن يتساهل ويقبل. فقلت: إما أن نكون قادرين على إخراجهما أو لا. فإن كنا قادرين فلا يجب أن نتساهل، وإن كنا غير قادرين فلا فائدة من كل ما نعمل، والأولى أن نترك العمل إلى أن تلوح فرصة أخرى. على أنني أعتقد أننا قادرين، ولكن لم نستعمل بعد الوسائط اللازمة لإخراجهما، ولذلك فلا أقل من أن نبذل الوسع فإن ذلك أعذر لنا... وأنا أطلب إخراجهما ليس إلا لأنني أعتقد أن وجودهما يضرّ مصلحتنا، إذ لا أشك أنه إذا وقع خلاف بيننا وبين الرهبان كانوا في جانب الرهبان... وبينما نحن في مثل هذا الكلام، والجميع يلح عليّ أن أتساهل وأقبل، بل قال البعض: مهما تكن الأسباب التي تمنعك من الدخول فإننا كأصدقاء لك مخلصين، لنا عليك دالة ولديك حرمة، نرغمك على الدخول إرغاماً، وإذا أبت عليك نفسك ذلك، فقل لها: إن أصدقائي أرغموني والسلام. بينما نحن في مثل هذا الكلام إذ جاء عيسى العيسى في قطار المساء فأشركناه في الأمر، فقال: أنا آت من يافا لأقرر مع أصدقائك الخطة التي يجب أن نسير عليها، وقد كلفت من دار العلوم الإسلامية في يافا أن أعرض عليك شغلاً فيها، فلم أبدأ أن أوجّل البت في الأمر إلى الغد، ريثما أدرس الأمر مع عيسى، فقمنا وانصرفنا. وقد جاءني من مصر من وهبة العيسى رسالة يقول فيها: إنه سيجتمع مع أشيل سيقلي ويسعيان معاً في تدبير شغل لي هناك قريباً. فالآن أمامي ثلاثة مراكز؛ إما أن أذهب إلى مصر أو إلى يافا أو أن أشتغل في هيئة إدارة مدارس الروم الأرثوذكس... في المساء اجتمعنا

في بيت يعقوب ابن خالتي ، أنا ويعقوب وعيسى ، وجعلنا تقابل بين المراكز الثلاثة نبين حسنات كل منها وسيئاته .

مركز يافا :


حسناته : (١) أول حسنات الشغل في يافا أني أترك القدس ، وأخرج من جو مللت ناسه وأشياءه وأرضه وسماه .. إلخ . (٢) لأنني أكون في يافا حراً مستقلاً أتصرف بالمدرسة كما أشاء ، ليس [هناك] من يعارضني وأعارضه ويدافعني وأدافعه . (٣) لأن صداقة عيسى العيسى أثمن من كل صداقة .. إلخ . وأما السيئات : (١) فلأن دخلي في يافا لا يعادل دخلي في القدس . (٢) لأن القدس تكاد تكون أوروبية ولكثرة أصدقائنا بين الأوروبيين فيها . (٣) لأن ثقتي بكل المشاريع الوطنية ضعيفة ، فأخشى أن تفر همم القائمين بالعمل أو يقع الخلاف بينهم فيفضي الأمر إلى تعطيل المدرسة .. إلخ .

(٤) لأن أمي وأختي لا تريدان أن تذهبا إلى يافا ، فأضطر إلى فتح بيتين ، الواحد في القدس والآخر في يافا . وهناك اعتبارات أخرى تحملني على البقاء في القدس ... أما مصر فستنظر فيها متى وردنا الجواب النهائي ، ولذلك قرّ رأي يعقوب وعيسى على إجباري على القبول بالدخول في عضوية الهيئة الإدارية للمدارس ، فلم يسعني إلا القبول ، وعسى أن يكون في ذلك خير لي وللملة إن شاء الله .

الأربعاء في ٢٠ أيار و ٧ أيار سنة ١٩١٤م

ذهبت إلى نظارة المدارس ، وعقدنا جلسة أولى ، وعينا أوقات الاجتماع . بقبولي هذا الشغل أكون في أهم مركز أدبي في البلاد ، ويكون لي نفوذ في مئات من المدارس ؛ مدارس الحكومة في لواء القدس ومدارس الملة الأرثوذكسية في فلسطين وما وراء [نهر] الأردن ، فضلاً عن مدرستي الدستورية ، التي سأجرب أن أجدد شبابها ، وأعيد إليها عصرها الذهبي .

[.. وهنا يتقطع السكاكيني عن كتابة يومياته حتى ١٤ أيلول ١٩١٤]



الفصل الثاني
صدى الحرب

يوم الاثنين ١٤ أيلول و ١ أيلول سنة ١٩١٤م

اليوم عيد ميلاد سريّ. بلغ في هذا اليوم السنة الأولى من عمره. كان في النية أن نقيم له احتفالاً بهيجاً بعيده الأول، ولكن بسبب الأحوال الحاضرة، قررنا أن تقتصر على تقبيله أوفاً من القبلات، وموعداً بالاحتفال الباهر العيد القادم إن شاء الله. أخذناه بعد الظهر عند المصورّ وصورناه على شكلين. ألبسناه في الواحد ثوباً أبيض قصير الأكمام، وفي الثاني أوقفناه عارياً. في المساء جاء بعض الأصدقاء لمعايدته، وهذه أسماؤهم: جورج سعيد وأخوه سابا ووديع سنونو وحنّا أسطفان وفخري حسيني وحلمي حسيني وإبراهيم حسيني، وقد أهداه فخري حسيني أخو مفتي الديار المقدسية علبة شوكولاتة. سهرنا إلى الساعة الحادية عشرة، وبعد ذلك أويت إلى فراشي، وعند الساعة الثانية عشرة والنصف، سمعت خادمة مسس واي تناديني قائلة: لصوص في الدار يعالجون [=يحاولون فتح] بيت الدجاج، فركضنا إلى الخارج، وكان قد اتبه عزيز الخادم والحاج اسماعيل، الناطور، فأركن اللصوص إلى الفرار، ولم يتمكنوا أن يأخذوا إلا أربع دجاجات بينها ديك سريّ.

يوم الثلاثاء في ١٥ أيلول و ٢ أيلول سنة ١٩١٤م^(١٦)

قد علمنا هذه الحرب العمومية [=العالمية] الاقتصاد بل التقتير، فإننا منذ نشبت إلى اليوم أي منذ نحو شهر ونصف، لم يتجاوز مصروفنا اليومي القرشين أو الثلاثة، فقد كانت تمر علينا عدة أيام لا نأكل فيها غير الخبز والعنب أو السلاطة، أما اللحم فلم تدخل دارنا، ومع أن أكثر تلاميذي من الإنكليز سافروا، ولم يبق عندي إلا دروس قليلة لا أتناول [=أكسب] منها شيئاً، فإني لم أستدن إلا بضعة فرنكات... فإذا كان للأزمات فائدة فإن الاقتصاد والتدبير من أهم فوائدها. صار لي عند دير الروم ثلاثون ليرة أجرة شهرين لم آخذ منها غير أربعين فرنكاً، فلم أربداً أن أقصد حسين أفندي سليم رئيس البلدية، فوعد أن يقدم لي في هذه الأزمة الطحين والخبزة واللحمة وسائر لوازم البيت فشكرته.

لا يقرأ الناس اليوم غير التلغرافات، لأن أكثر الجرائد المحلية عطلت والجرائد المصرية منعت [من قبل الحكومة بسبب الحرب]، ولذلك لا بد أن يألف الناس لغة التلغرافات، وستمكن منهم ملكة الاختصار، فإذا تكلموا أو كتبوا نزعوا إلى أداء أفكارهم بأقصر ما يمكن، وأقل عبارة، ولعل هذا من فوائد هذه الأيام.

(١٦) وردت هذه اليومية في «كذا أنا يا دنيا» على أنها يومية ٣٠ أيلول والصحيح ما نقله هنا عن الأصل.

يوم الأربعاء في ١٦ و ٣ أيلول غ سنة ١٩١٤م

ومن فوائد هذه الأيام أن الناس هجروا أسباب السرور والتلهي، وصاروا أقرب إلى البساطة في لباسهم ومعيشتهم. فبعد أن كت أمسح حذائي كل يوم مرة أو مرتين، لم أعد أمسحه إلا مرة في الأسبوع، وبعد أن كت لا ألبس إلا أفخر ثيابي وأجدّها، صرت اليوم لا أستكف من لبس ثيابي وأحذيتي القديمة، وبعد أن كت أغير قباتي كل يوم أو يومين، صرت اليوم لا أغيرها إلا مرة في الأسبوع، وبعد أن كت لا أعرف قيمة الدراهم قلت أو كثرت، صرت اليوم أحرص من نملة على المتليكات، مع أننا لا نزال في بداية الأزمة. مع كل هذا الضيق وهذا الاضطراب، فإني لا أزال حريصاً على حماماتي وألعايي... بل ألف الناس الضيق، فبعد أن كانوا يخافون من لا شيء، أصبحوا اليوم لا يبالون بشيء، فكان هذه الضيقات وما يتهددهم من الأخطار خلقت لهم قلوباً غير قلوبهم، فصاروا أقرب إلى الرجولية والشجاعة منهم قبلها...

يوم الخميس في ١٧ و ٤ أيلول غ سنة ١٩١٤م

ترددت بين أن أفتح مدرستي هذه السنة أو أن أوقفها إلى السنة القادمة، فإذا فتحتها أخاف أن لا أجد معلمين لها، لأن أكثر المعلمين مطلوبون للخدمة العسكرية، وأن لا أصيب واردات تضمن سير المدرسة لأن البلاد في ضيق عظيم، وإذا أوقفها أخاف أن لا أستطيع استئناف العمل، إذ تقل ثقة الأهالي بي، وإذا خسرت تلاميذي هذه السنة فلا يرجعون إليّ وذلك لا يهون عليّ... سأنظر في هذه المسألة ملياً وأقرر هذا الأمر أو ذلك.

ثم إن هناك مشكلاً آخر، وهو مسألة سكني، فإذا أوقفت المدرسة فلا أستطيع استئجار الدار التي نحن فيها الآن، وإذا فتحتها فلا تكفيني غرفة واحدة فيها، وإذا استأجرت داراً جديدة الآن، فهل أضمن أنني أستطيع أن أدفع أجرتها؟ هل يستطيع دير الروم أن يدفع لي خمس عشرة ليرة في الشهر، أو هل تضطره الأحوال والظروف إلى تقليل هذه القيمة أو إلغائها بتاتاً؟... مهما يكن الأمر فإن هذه السنة صعبة جداً، ولا بد لنا أن نتحملها رضيماً أو لم نرض...

الحكومة العثمانية ميّالة إلى الأمة الألمانية في هذه الحرب العمومية، وقد تابعها في ذلك كل الأمة الإسلامية، أما المسيحيون، ما عدا الذين تربوا في المدارس الألمانية، فهم ميّالون إلى حكومات الإئتفاق الثلاثي^(١٧)، وأخشى أن يكون من ذلك فتور في العلائق بين المسيحيين والمسلمين، وهذا من أكبر سيئات

(١٧) حكومات الإئتفاق الثلاثي، تضم فرنسا وبريطانيا وروسيا، وكان يطلق عليها دول الحلف الثلاثي.

هذه الحرب على بلادنا .

يوم الجمعة في ١٨ أيلول و ٥ أيلول غ سنة ١٩١٤م

بعد العابي واستحمامي وفطوري ذهبت لأعلم الياس أفندي فراجي فلم أجده ، ثم نزلت إلى البلد فالتقيت بالأرشمندريت يوسف فدفع إلي ثلاث ليرات من أصل حسابي ، فسري عني بعض ما أجد من الانقباض ، إذ مرّ عليّ يومان لا أملك شيئاً . . . بالقرب من دار عبده على طريق [مدرسة] المصلبة دار صغيرة مستقلة تخص أحد الرهبان ، بلغني اليوم أن الساكن فيها وهو أخو الأرشمندريت يوسف عزم على تركها ، فكلفت الأرشمندريت يوسف أن يدبرها لي فوعد أن يبذل جهده فشكرته . . . يقال : إن الحكومة العثمانية أرسلت قوات كبيرة إلى حدود مصر ، وستلحقها بقوات أخرى آتية من الشام ، والناس يتحدثون بغزوة مصر ، حتى أن قائد فرقة الفرسان بينما كان يتناول الغداء مع فرسانه في قرية المالحة وقد تناول قليلاً من الخمر ، لم يتمالك أن قال : إن شاء الله سنتناول الغداء الثاني في القاهرة . . . إن صح ذلك فإن هذا تهوّر من الحكومة العثمانية لأسباب عديدة : أولاً ، لأن الحكومة الإنكليزية لا تتخلى عن مصر مهما كلفها ذلك . ثانياً ، لأن لا طريق للجيش العثمانية لتغزو مصر إلا من ترعة السويس ، والخط هناك لا يتجاوز العشرين كيلومتراً ، فإذا وضعت الحكومة الإنكليزية قوة صغيرة هناك تستطيع أن ترد الجيوش العثمانية مهما زادت عليها عدداً ، وإذا لم يكن لها هناك قلاع وحصون ، فستطيع أن تضع مدرعتين أو ثلاثاً في التربة تقذف قنابلها إلى بعد عشرة كيلومترات . ثالثاً ، لأن كل الأراضي بجوار ترعة السويس قفار رملية لا ماء فيها ، ولا سيما في مثل هذه الأيام الحارة ، فلا بد أن تجد الحكومة العثمانية صعوبة كبيرة في تدبير ماء لجيوشها . رابعاً ، لأن لا جسر على ترعة السويس ، فكان التربة على هذه الصورة حصون طبيعية ترد عن مصر الجيوش الهاجمة . خامساً ، لأن لا أسطول للحكومة العثمانية ، والعمدة في حروب هذه الأيام على الأساطيل . سادساً ، لأن الحكومة العثمانية وإن تكن قد تنبّهت من غفلتها وبالغت في تدريب عساكرها ، فإنها لم تبلغ من التدريب والإستعداد ما يؤهلها لأن تحارب دولة عظيمة كأنكلترا . ومع هذا فلا بد أن تكون الحكومة العثمانية قد عرفت كل ذلك ، فأخذت أهبتها له وفوق كل ذي علم عليم . . .

منذ ثلاثة أيام ضرب جرجي حبيب وأمه امرأته ابنة خالتي أنيسة ، فرجع عليه أخاها دعوى ، فألقته الحكومة في السجن ، وقد مرّ عليه إلى هذه الساعة يومان في السجن تأديباً له .

السبت في ١٩ أيلول و ٦ أيلول سنة ١٩١٤م

ألفت صفاً من سارة ابنة خالي، وسلطانة حلبي ربيبة المستعمرة الأميركية، ومستر اينر، أعطيتهم دروساً في اللغة العربية ثلاث مرات في الأسبوع، وقد ابتدأت معهم في ١٧ أيلول غ سنة ١٩١٤. واليوم بعد أن أعطيتهم درساً، مررت على أبي الفضل^(١٨) وقد استندت منه إلى اليوم بسبب الأزمة الحاضرة أربعة عشر فرنكاً. ثم نزلت إلى البلد فقرأت بعض الجرائد. يقال: إن بين إيطاليا وانكلترا اتفاقاً وهو إذا هاجمت تركيا مصر فإن إيطاليا تهاجم تركيا، وقد أحست ألمانيا بذلك، فأوعزت الى تركيا بالتريص.

بعد الظهر نزلت إلى ادارة المعارف على تقدير أن هناك جلسة لقومسيون المعارف، فلم أجد أحداً فخرجت إلى باب الخليل. بحثت عن الأرشمندرت يوسف لأسأله عما فعل بخصوص الدار التي كلفته باستجارها فلم أجده. إذا توقفت إلى استجار هذه الدار ضمنت راحتي. . في المساء علمت مس كار.

الأحد في ٢٠ أيلول و ٧ أيلول سنة ١٩١٤م

نزلت صباحاً إلى البلد أتسم الأخبار، فالتقيت بكثيرين من الأصدقاء المسلمين، فأوينا إلى زاوية في أحد الحوانيت فعبأوا لي أركيلة، وجعلنا نتجاذب أطراف الحديث، فذكرنا غزوة الجيوش العثمانية مصر، فبينت ما يعترضها من الصعوبات والعثرات مما أثبتته في غير هذا الموضع، إلى أن قلت: لست أعتقد أن الحكومة العثمانية تنوي الحملة على مصر، وإنما هذه مناورة ترمي بها إلى مشاغلة الإنكليز واقلاق خواطرهم واضطرارهم إلى وضع مئين أو ثلاث مئة ألف جندي على الحدود، وفي ذلك خدمة للحكومة الألمانية، كما اضطرت الحكومة الروسية إلى وضع خمس مئة ألف جندي على حدود تركيا، فكأنها بعملها هذا سحبت من ساحات القتال نحو مليون عسكري من عساكر الإئتاق الثلاثي وهذه خدمة عظيمة. . ولا بد أن الحكومة العثمانية لم تقدم على هذا العمل، إلا وهي تعتقد أن الأمة الألمانية ستخرج من الحرب منتصرة، ولست أدري على أي شيء تستند في ذلك. فإن صحت فراستها فقد ضمنت مصلحتها، وإلا فقد عرضت نفسها للخطر والله أعلم. . ثم قمت من هناك فالتقيت بجرجي زخريا، وكلفته أن يسعى في تدبير الدار التي راجعت الأرشمندرت يوسف بخصوصها، فوعد أن يذهب معي غداً أو بعده لمواجهة الأرشمندرت يوسف. . بعد الظهر أخذنا سرياً ورجعنا به على طريق جبل الزيتون. . في المساء جاء أبو الفضل يحمل القرآن، فجعلنا نقرأ، وقد عنت لي عدة ملاحظات سأبثها في غير هذا الموضع. .

(١٨) أبا الفضل: كية اسعاف الناشيبي، وتم اطلاقها عليه تيمناً بديم الزمان الهمذاني، الذي كان الناشيبي مولعاً به.

يوم الاثنين في ٢١ أيلول و ٨ أيلول سنة ١٩١٤م

ذهبت إلى المستعمرة الأميركية وعلمت صف سارة، ثم نزلت إلى البلد فزرت الأرشمندريت يوسف في غرفته في الدير، فوجدته جالسا وراء طاولته وفي يده جريدة يونانية يطالعها، وأمامه كأس عرق وصحن زيتون أسود كأنه يستميل نفسه لتناول الغداء، فدعا غلاما له وأحضر لي كأس عرق، ثم دخل راهب شيخ وهو عمه فعرفني به. العالم في الخارج قلق مضطرب جانح، والرهبان لا تلوح على وجوههم إلا علامات الغبطة والطمأنينة. الناس تتعب وهم مرتاحون. الناس تهتم وهم مطمئنون. الناس تجوع وهم شبعانون.

كفته أن يدعو صاحب الدار فدعاه وسألناه، فقال: إن الدار خالية لم توجر بعد، وهي تحتاج الى شيء من الإصلاح والترميم، فطلبنا منه أن يذهب معنا لنراها فقال غدا بعد الظهر...

أرسلت إلي مس كار أنها مسافرة غدا صباحاً، وتطلب مني أن أرسل إليها حسابها لتدفعه، فذهبت إليها في المساء وعرضت عليها أن لا تدفع لي شيئا الآن إذا كانت لا تستغني عن دراهمها، فقالت: إنها تستطيع أن تدفع بكل سهولة، فلم أبدأ من الرضى فدفعت لي اثنين وعشرين فرنكا ونصفاً عن تسعة دروس، ثم ودعتها وانصرفت.

الثلاثاء في ٢٢ أيلول و ٩ أيلول سنة ١٩١٤م

لم يعطف أحد على الأمة الألمانية في هذه الحرب العمومية الكبرى إلا الحكومة العثمانية، ولم يساعدها أحد كما ساعدتها، يكفي أنها اضطرت روسيا أن تضع خمس مئة [ألف] جندي على حدود تركيا، وهي تحاول الآن أن تضطر انكلترا أن تضع بضع مئات من الألوف من عساكرها على ترعة السويس. وإذا حلت عواطف الأمة الإسلامية وجدتها: أولاً، أنها تعتقد أن ألمانيا ستنتصر، ثانياً، أنها تريد لها هذا الانتصار، ولست أدري: هل الاعتقاد سبق الإرادة أم الإرادة سبقت الاعتقاد، ومن اعتقد النصر لأن ثم إرادة فإذا ورده خبر انتصار كبره وعظمه، وإذا ورده خبر انكسار كذبه أو صغره، ثم ما هي الأسباب التي حملت الحكومة العثمانية والأمة الإسلامية على هذا الميل إلى الحكومة الألمانية؟ إذا كانت تعتقد أن النصر لألمانيا، فهي تميل إليها تزلفاً منها وطمعاً في اكتساب ودّها. وإذا كانت تريد لها النصر، سواء كانت تعتقد أن النصر حليفها أم لا، فلعل سببه ما بينها وبين روسيا من العداة القديم والأحقاد المستحكمة من النفوس، فهي تريد النصر لألمانيا انتقاماً من روسيا وتشفياً، ثم كرهت فرنسا وانكلترا لأنهما ساعدتا روسيا... وقد يكون للتعصب الديني يد في ذلك، لأن روسيا وانكلترا وفرنسا هي الدول المسيحية التي تحكم أكثر العالم الإسلامي. ولما كانت هذه الأميال في مصلحة ألمانيا فهي لا تألو جهداً في ترويجها وتشجيعها، ولذلك قيل: إن ألمانيا تروج

فكرة الدعوة إلى الجامعة الإسلامية . . ذهبت اليوم رأيت الدار التي نويت أن أستأجرها فإذا بها ضيقة جداً ولكن أهلت صاحبها يوماً أو يومين في ردّ الجواب .

الأربعاء في ٢٣ أيلول و ١٠ أيلول سنة ١٩١٤م

فرضت العسكرية على الملة الأرثوذكسية ألف «مضريّة»^(١٩) للعسكر ، أصابني منها مضربتان دفعت ثمنهما ٢٢ غرشاً . كان عرض عليّ قبل بضعة أيام صديقي الأبرّ حسين أفندي سليم الحسيني ، رئيس المجلس البلديّ ، أن يدبّر لي لوازم البيت من طحين وخبزة ولحمة وسائر الأشياء ، إلى أن تمر هذه الأزمة ، واليوم أوصى أحد تجار الطحين الخواجا حنا شتكلف أن يرسل إليّ كيسي طحين ، وأوصى أحد باعة الخبزة أن يرسل إليّ ما احتاجه يوماً فيوماً ، فشكرت فضله وأثيت على وفائه ومروءته ، واعتبّطت بهذه الصداقة التي لا تثمن . .

عقدنا اليوم جلسة في نظارة مدارس الروم الأرثوذكس ، ونظرنا في ما نستطيع أن نعمله في هذه الأحوال الحرجة . . فوجدت الفرصة سانحة لأن تتخلص من كثير من المعلمين والمعلمات ، فاقترحت أن نلغي مدارس البنات كلها ومدرسة القدس الداخليّة ومدارس القرى الصغيرة ، ثم نأخذ المدارس التي قررنا فتحها وننظر في معلمينا ، فمن كان منهم صالحاً للتعليم ابقيناه ، وإلا صرفناه ، ولا أحد يلومنا لأن لنا من الأزمة الحالية عذرا مقبولاً . . فإن توفقت في ذلك تمكنا من ادخال الإصلاح الذي نريده في مدارسنا ، وجعلناها نافعة مفيدة ، لا مأوى عجزة من المعلمين والمعلمات ، وقد اعتمدت أن أبذل وسعي في سبيل ذلك .

الخميس ٢٤ أيلول و ١١ أيلول سنة ١٩١٤م

ذهبت صباحاً فعلمت صفي في مستعمرة الأميركان ، وكان عز الدين الشوا قد رجع من غزة فحضر الدرس لأول مرة بعد عطلة الصيف . أرسل إليّ الطحان الذي أوصاه حسين أفندي سليم كيسي طحين ، وتعهّد بائع الخضر أن يرسل إليّ كل ما احتاجه . ثم ذهبت إلى غرفة الأرشمندريت يوسف وكلفته أن يأخذ لي الدار من صاحبها الراهب ، فوعد أن يقوم بذلك في القريب العاجل .

بعد الظهر نزلت إلى دائرة المعارف فحضر بعض الأعضاء ، إلا أن المدير كان متغيباً في مجلس الإدارة ، فانتظرنا طويلاً فلم يحضر فأجلنا الاجتماع إلى يوم آخر .

(١٩) المضريّة نوع من الرداء .

الجمعة في ٢٥ أيلول و ١٢ أيلول سنة ١٩١٤م

ذهبت إلى نظارة المدارس الأرثوذكسية، فوضعنا تقريراً عن أعمالنا منذ تولينا نظارة المدارس إلى اليوم، وضمناه اقتراحنا بتعطيل مدارس البنات ومدارس القرى ومدرسة القدس الداخلية، فأنزلنا عدد المدارس التي ستفتح هذه السنة إلى نحو ٤٠ مدرسة، أي أقل من النصف.. ولكن يظهر لي أن هؤلاء الرهبان لا يريدون أن يعملوا شيئاً، بل لا يقدرّون أن يعملوا، وأنهم لا يبالون بمصير الملة ولا يعرفون طرق الإصلاح، وإذا عرفوها تعاملوا عنها، وإذا تظاهروا بالسير فيها، أساؤوا الإستعمال وأضرّوا من حيث يوهمون أنهم يريدون النفع.. وأكبر عثرة في سبيل إصلاح المدارس هو دوسيئوس الذي عينوه رئيساً للنظارة، بل وجوده في هذه النظارة أكبر دليل على سوء نيتهم وخبث طبيعتهم، لأنه أحط الرهبان أخلاقاً وأفسدهم آداباً وأكثرهم خبثاً ونفاقاً، وسأبين في غير هذا المحل أعماله في النظارة بالتفصيل. وهو يظن أنه يستطيع أن يسلس قيادي ويستجرتني إلى التساهل والملاينة، ولكن ساء فآله، فسأريه كيف يكون القيام بالواجب.

السبت في ٢٦ أيلول و ١٣ أيلول سنة ١٩١٤م

بعد الظهر كان عندنا جلسة في دائرة المعارف.. نظرنا في بروغرام الدروس الذي وضعته نظارة المعارف، وفي الكتب التي اختارتها، فبينت مواطن الخطأ في ذلك البروغرام، واعترضت على بعض الكتب المستعملة في المدارس.. وقلت لهم: لقد مرّ علينا في هذا المجلس زمان طويل ولم نعمل عملاً يستحق الذكر، فإمّا أن نجعل مجلسنا حياً مفيداً ونكون عند آمال الناس فينا، ونبذل أقصى ما في إمكاننا في أن نخدم المعارف خدمة تذكر، وإلا فلننسحب وترك المجلس لغيرنا، واقترحت أن نوجه اهتمامنا إلى مدرسة البنات، فإذا تمكنا من ادخال شيء من الإصلاح ولو طفيفاً، نكون قد عملنا عملاً كبيراً، فارتاحوا إلى اقتراحي، وقررنا زيارة المدرسة يوم الاثنين..

يوم الأحد في ٢٧ و ١٤ أيلول سنة ١٩١٤م

سمعنا اليوم أن فرق العساكر الموجودة في القدس ستسافر غداً صباحاً إلى الجنوب، فلم يشك أحد أن الحرب واقعة، فاستولى القلق على الناس، وأظلمت الدنيا في وجوههم. غداً يسافر الجيش مشياً على الأقدام تحت أشعة الشمس المحرقة، يحملون أثقالهم على ظهورهم، يقطعون المسافات الشاسعة، لا يجدون ماء ولا ظلاً، ثم يدخلون الصحراء فيقاسون ما يقاسون من الحرّ والعطش والتعب والجوع، إلى أن يصلوا إلى حدود مصر، حيث يلتقون بجيوش الأعداء. فمن الناس من يعتقد أن جيوشنا لا تصل حدود

مصر، إلا وهي منهوكة من التعب والعطش والجوع والحرّ فلا تقوى على مقابلة الأعداء، ومنهم من يعتقد أن الجيوش العثمانية ستتمكن بمساعدة البدو المخيمين في تلك النواحي من طمر ترعة السويس بالرمال، لتعبر منها إلى مصر، وتستولي عليها.. وإذا اشتبكت الدولة العثمانية مع الإنكليز في حرب فلا يبقى أحد من ابن عشرين إلى خمس وأربعين إلا ويطلب للخدمة العسكرية، فترد كل يوم قوائم بأسماء القتلى والجرحى والأسرى، ثم قد ترسل إنكلترا بعض قطع من أسطولها فتزل جنوداً في غزة، لتقطع خط الرجعة على الجنود العثمانية، فتقوم البلاد وتقع وتتابع الولايات والمصائب، فضلاً عما يتهدد البلاد من الجوع والأمراض إنج إنج، هكذا جعل الناس يفكرون ويتحدثون والجميع آووا إلى بيوتهم في المساء سكارى، وما هم [ب] سكارى، لطف الله بعباده...

الاثنين في ٢٨ أيلول و ١٥ أيلول سنة ١٩١٤م

نزلت صباحاً إلى باب الخليل^(٢٠)، وكان الحرّ شديداً والهواء جافاً، أنتظر مرور الجنود لأودع توفيق الحسيني وحلمي الحسيني وعلي النشاشيبي وغيرهم ممن أعرف. وكانت ساحة باب الخليل مكظة بالناس فوقت مع الواقفين، وإذا بالفرقة المعسكرة بالقرب من قرية لفتاً، قد أقبلت، فما كادت تصل باب الخليل حتى كان الغبار قد جللها، فكنت ترى الجندي أو الضابط معفراً بالغبار من رأسه إلى قدمه والعرق يتصبب منه، وكانت الشمس تشويهم شيئاً، فكانوا يمرون سراعاً لا يلتفتون يمنة ولا يسرة كأنهم أصنام محرّكة، وكان الواقفون كأنك قد أخذت بمخنتهم فلا يتكلمون.. لم أظفر إلا بعلي النشاشيبي أبي حسين فودعته وتمنيت له السلامة.. ثم ذهبت إلى دائرة المعارف وقد ملكني الوحشة وتولاني الانقباض.. فوجدت هناك المدير والمفتش والشيخ حسن الجماعي، فذهبنا إلى مدرسة البنات وتفقدنا صفوفها، كما إذا دخلنا الصف تجيء المعلمة ملتفة بإزارها إلى الباب، وتأخذ سلامنا على الطريقة التركية. أما البنات فالكبيرات متحجبات والصغيرات سافرات. امتحنا الصف الكبير في القراءة العربية، وهو الصف الذي تعلمه أختي، فوجدت أن البنات يحسن القراءة، ويفهم ما يقرآن ويتكلمنه، ويستطعن أن يتصرفن به. فقد كلفت إحدى البنات أن تحول القصة من المذكور إلى المؤنث ففعلت، مما سررت له كثيراً. إلا أن الشيخ حسن لم يكتب بذلك أو لعله لم يقدره قدره، فجعل يسأل البنات أسئلة في الصرف والنحو على طريقة قديمة، ولما لم يفهم مراده قال: إنهن لا يعرفن شيئاً، ثم سألناهن في الحساب والجغرافية فوجدناهن ضعيفات جداً، والسبب أن معلمتهن ضعيفة أيضاً، بل جاهلة بالفرع الذي تعلمه. وقد كان يجب على المديرية التي هي منانة صيداوي، أن تتلافى هذا النقص لو كانت تعرف أصول التعليم. ثم دخلنا بقية

(٢٠) باب الخليل: المدخل الغربي الرئيس للبلدة القديمة في القدس، سمي بهذا الاسم، لأن الطريق إلى مدينة الخليل كانت تبدأ عند هذا الباب.



منانة الصيداوي ١٩٣٣ ، من مجموعة السيدة منى الحلبي

الصفوف فوجدناها مكنتة بالبنات على اختلاف أعمارهن ، وكلهن لا يعرفن شيئاً ، فاعتذرت منانة أن أكثرهن جديدات ، والقديمات منهن لم يكن يواظبن على الحضور ، والمعلمات لا يستطعن أن يعلمنهن شيئاً ، وأنها ضاقت بهؤلاء المعلمات ذرعا ، فلا تستطيع أن ترشدهن إلى كيفية التعليم ، ولا تستطيع أن تستبدلن بغيرهن . . . وبعد أن عرفت أحوال المدرسة وأخذت الملاحظات اللازمة خرجنا ، وفي النية أن أشغل في إصلاح المدرسة على ما يساعد عليه الإمكان .

شاع بعد الظهر أن العساكر سترجع في المساء إلى القدس ، لأن سفرهم في الصباح لم يكن إلا مناورة ، فاطمأنت القلوب ، ورفضت المخاوف .

الثلاثاء في ٢٩ أيلول و ١٦ أيلول سنة ١٩١٤م

واجهت الأرشمندريت يوسف أسأله عما فعل بخصوص الدار ، فقال : إن صاحبها يطلب خمساً وعشرين ليرة أجرتها ، على شرط أن تدفع له الآن ليرتين ، وفي أول محرم نصف الباقي ، وبعد شهرين من محرم البقية ، فحاول أن يقنعه أن ندفع له الأجرة في أول فرصة يتمكن الدير من دفع معاشات مستخدميه فلم يقبل ، فقلقت قليلاً وانصرفت ، وأنا افكر ماذا أعمل . . . لقيت جرجي زخريا فحدثته بما جرى ، فقال : أنا أدبرها لك ، وإذا أصر على شروطه فالدير يتعهد له بها ، لأن لك عندهم ما يبلغ ضعف الأجرة .

الأربعاء في ٣٠ أيلول و ١٧ أيلول سنة ١٩١٤م

عقدنا جلسة في نظارة المدرسة ، وقررنا فتح مدرسة القدس الخارجية يوم الإثنين القادم ، وباشرنا وضع بروغرام دروسها . . . ثم كان الأرشمندريت دونيسوس قد نقل معلم جفنة إلى بيرزيت ، ومعلم رام الله إلى مادبا لشكايات عليهما بدون أن يحقق [في] تلك الشكايات ، وبدون أن تقرر ذلك في جلساتنا ، فاعترضت على الأمرين معاً فقررنا : أولاً ، أنه لا يجوز نقل معلم أو عزله أو ترفيعه أو تنزله ، حسب اصطلاحهم ، إلا بعد التحقيق . ثانياً ، لا يعمل بالنتيجة إلا بعد قرار الهيئة عليها . . . بناءً على ذلك كلفت حنا وأفتيم مشبك والشماس سيذروس أن نذهب يوم الجمعة بعد الظهر إلى رام الله وجفنة وبيرزيت كهيئة تحقيق عن بعض المعلمين هناك . . . وقصدي من ذلك أن تكون هيئتنا مستقلة ، لا يتداخل أحد في شؤونها ، فلا ننقل معلماً من محل إلى آخر مراعاة لخاطر أحد . فإذا ثبت بعد التحقيق أن المعلم الفلاني لا يقوم بواجباته أو أنه رديء السيرة غير صحيح الآداب ، أو انه يسعى في زرع بذور الفساد والقاء الشقاق في البلد الذي يشتغل فيه ، حكمنا عليه حسب ذنبه ، ولو شفع فيه كل أهل ذلك البلد ، وإذا ظهر لنا أنه قائم بواجباته مخلص في عمله ،

مجتهد نشيط حسن السلوك فلا نلتفت إلى وشاية واش، بحيث لا نكون في عمل من أعمالنا تحت نفوذ أحد. هذا من الجهة الواحدة، وأما من الجهة الأخرى فإني أقصد أن لا أدع دويسيوس يتفرد بعمل من الأعمال كأننا في معيته ولسنا أعضاء.

الخميس في ١ ت ١ غ و ١٨ أيلول ش سنة ١٩١٤م

كان اليوم ميعاد إبطال [=الغاء] البوسطات الأجنبية، فنزلت إلى البلد فوجدت البوسطات كلها مغلقة. لم يبق الآن إلا البوسطة العثمانية، وقد أضافوا عدداً كبيراً من المستخدمين إلى مستخدميها، من جملتهم موسى فيضي العلمي وشريف النشاشيبي وطاهر الحسيني ابن المفتي، وأحمد محمود الحسيني ويوسف القاطرجي وعيسى حنا خميس وغيرهم. لا يسعني إلا أن أذكر البوسطات الأجنبية بالخير، فقد كانت فضلاً عن حسن إدارتها وضبط أعمالها، مما كانت به موضع ثقة الناس، واسطة لدخول الكتب والجرائد والمجلات الممنوعة إلى هذه البلاد، ولا سيما قبل الدستور، يوم كانت الحكومة العثمانية تخاف الأفكار الحرة وترتجف لكل وميض. . . بعد الظهر نزلت إلى دائرة المعارف فنظرنا في خلاف وقع بين المعلم الأول في مدرسة القدس الابتدائية إبراهيم نسيبة، والمعلم الثاني جمال الداودي، فأصلحنا بينهما، ثم أخذنا ننظر في أمر مدرسة البنات، فطلب الشيخ محمد صالح امتحان المعلمات كلهن، فالتى تجوز [=تجتاز] الإمتحان ورأينا فيها الكفاية أبقيناها، والتي تسقط في الامتحان فصلناها واخرنا غيرها، وقد لاح لي أنه يقصد بذلك أن ينتقم من منانة صيداوي لأنها لم تقبل بنته كمساعدتين في المدرسة، فإذا دخلت الإمتحان فلا يعدم هو ومن يتابعه في فكره من بقية الأعضاء ما يعجز به منانة، ويحتج به في عدم اقتدارها، فتركت النضال عنها إلى فرصة أخرى. وإذا كان الوقت قد مضى، استدعيت [=طلبت] أن نؤجل البحث في ذلك إلى فرصة أخرى. فاتفقنا أن نجتمع مساء يوم الاثنين القادم في دائرة المعارف.

الجمعة في ٢ ت ١ غ و ١٩ أيلول ش سنة ١٩١٤م

كان في النية أن يحتفل الأهالي بهذا النهار، تذكراً لافتتاح القدس على يد صلاح الدين الأيوبي، ولكن الظاهر أن الحكومة منعت ذلك، لأن الأهالي لا يعرفون من الاحتفالات إلا إعلان العداء لأوروبا، ولكمهم أكفوا بزيارة مقبرة مأمّن الله، حيث دفن قتلى المسلمين في تلك الحروب. . .

نزلت إلى البلد فأخذت شكري ديب وذهبنا نواجه الارشمندرت يوسف نسأله عن الدار، فقال: إن صاحبها أجرها، ومع أنني خشيت أن لا أجد داراً أخرى لفوات الوقت، فقد وجدت الخيرة في ذلك، لئلا

يتوهم الناس أنني أخذت داراً من الدير مثل بقية أبناء الملة الارثوذكسية الأدياء .. كان في النية أن أذهب أنا وأفتيم مشبك والشماس سيدروس اليوم بعد الظهر إلى رام الله وجفنة وبيرزيت كهيئة تحقيق عن شؤون مدرسية، ولكن اضطررنا إلى تأجيل هذه الدورة إلى فرصة أخرى بسبب الأزمة المالية، ولكنني اقترحت أن نكتب إلى رؤساء الكنائس هناك، أن يبقى كل معلم في محله ريثما تتمكن من إرسال هيئة تحقيق ..

بعد هذا ذهبت إلى دائرة البلدية، فلقيت صديقي الأبرّ حسين أفندي سليم رئيس المجلس البلدي فقصصت عليه أمر الدار، فقال: لا حاجة لأن تستأجر داراً فمسس واي لا ترجع قبل خمسة أو ستة أشهر إن لم يكن أكثر، وبعد الشتاء أذهب بعائلي إلى إحدى قرانا فأتارك لك الدار لتسكن فيها إلى أن تنقضي السنة، ثم ناولني سيكارة وقال: دخن ولا تبال، وإذا احتجت إلى دراهم فإني آخذ لك من الدير .. إن مثل هذه الصداقة لتمحو عندي كل سيئات الزمان.

فهمت أن الحكومة منعت الأهالي من الاحتفال بهذا النهار، لأنها عرفت أنهم ينوون بعد الطواف في المدينة أن يذهبوا إلى المدرسة الصلاحية، بحجة أنهم يريدون الصلاة في محرابها على روح صلاح الدين الأيوبي، كما أن المسيحيين يذهبون في أوقات معلومة في السنة إلى مسجد النبي داود، وإلى الحرم الشريف وإلى القلعة العسكرية التي بجوار الحرم، ويصلون، ولا أحد يعارضهم، فلماذا لا يفعلون هم كذلك؟، وفي المدرسة المذكورة محراب لصلاح الدين الأيوبي، ولكنهم كانوا ينوون إذا دخلوا المدرسة أن لا يخرجوا منها؟! وبذلك يستخلصونها من أيدي المسيحيين، فلما درى المتصرف ماجد بك بذلك منعهم، ويقال: إنه قد وردت أوامر من نظارة الداخلية بمنع الاحتفال ..

وكيفما كان الحال، فإن إحياء مثل هذا العيد يرجع بالناس إلى زمان الحروب الصليبية، ويبعث روح التعصب الذي ما صدقنا أن دفته الأيام .. فمنع مثل هذه الأعياد مما تمدح الحكومة عليه، ولا سيما وهي تعرف أن الأمة جاهلة، فإذا سارت في هذا السبيل فلا تعرف حداً تقف عنده. وهناك من أصحاب العمائم من يمدّ هذه الأمة الجاهلة المسكينة في طغيانها، ويتحكم في أميالها وعواطفها ويقودها إلى الوراء، وفي ذلك ما فيه من الخطر والخراب .. كثيرون من المسيحيين كانوا يوجسون خيفة من هذا النهار.

السبت في ٣ ت ١ غ و ٢٠ أيلول ش سنة ١٩١٤م

قررنا فتح مدرسة القدس للروم الأرثوذكس يوم الإثنين، وكتبنا إعلاناً بذلك ودفعته للطبع. قررت أن أبقى في دار اسماعيل التجار هذه السنة، فتخصص لنا ثلاث غرف للسكن، وغرفة نضع فيها كل أدوات المدرسة ومقاعدنا، ونؤجر غرفتين.

الأحد في ٤ ت ١ غ و ٢١ أيلول ش سنة ١٩١٤م

نزلت سلطنة من الصباح إلى دار أبيها . تغديت عند أمي . في المساء سهرنا في بيت المعلم نخلة زريق أنا وأبو الفضل وحسين أفندي سليم ، امتدت سهرتنا إلى الساعة الحادية عشرة . أخذ المسلمون يشككون في انتصار ألمانيا .

لا تزال الحكومة تلح في تكليف الأهالي بتدبير لوازم العسكر بحيث جاوزوا الحد ، وأخذ الناس يضجون من ثقل هذه التكاليف ، ويخشى أن لا يبقى شيء بين أيدي الناس . . . فقد الحطب فارتأوا أن يقطعوا أشجار الزيتون في سعد وسعيد ، ومحلات أخرى . . .

يظهر من الحاح الحكومة في مطالبيها أنها لا تعرف حالة البلاد ، أو أنها لا تريد أن تعرف ذلك . ومع شدة إلحاحها لم تجمع إلا نحو العُشر من جملة مطالبيها التي كلفت بها الناس .

الاثنين في ٥ ت ١ غ و ٢٢ أيلول ش سنة ١٩١٤م

اليوم فتحنا المدرسة الأرثوذكسية الخارجية وأخذنا في كتابة أسماء التلاميذ ، وقسمتهم إلى صفوف . جعلنا اللغة الإنكليزية قاعدة التقسيم ، أي جعلنا التلاميذ في صفوفهم حسب معرفتهم اللغة الإنكليزية . بلغ عدد التلاميذ الجدد نحو عشرين تلميذاً ، وأكثرهم من تلامذة مدرستنا الدستورية .

سأبذل وسعي في الحصول على أمرين ، ويرجح عندي أنني سأنجح (١) أن نعتمد في مدرستنا على البروغرام الجديد (٢) أن نستقل بمدرستنا وتلاميذنا ، أي : أن نجعل تلاميذنا من أبناء الطائفة الوطنية في دائرة وحدهم ، إما في المدرسة الكبيرة أو في مدرسة البنات ، لأنها خالية بحيث لا يختلطون بأبناء اليونان .

كانت اليوم جنازة جريس أفندي جوهرية المشهور بظرفه وكياسته في الخامسة والسبعين من عمره ، وكان موته إيذاناً بانقضاء دولة الظرف ، فخرجنا في جنازته آسفين ، وكلُّ يذكر شيئاً من نوادره وملحه .

الثلاثاء في ٦ ت ١ غ و ٢٣ أيلول ش سنة ١٩١٤م

لا أدخل المدرسة الأرثوذكسية إلا اشمازت نفسي وانقبض صدري من معلمها وتلامذة اليونان ورؤسائها الرهبان . ولست أدري هل أستطيع أن أتغلب على نفسي وأعودها التفاضلي والتساهل ، أم تتغلب علي فأترك

الشغل وأنسحب من كل عمل يتعلق بالطائفة، ولا أعود أخطرها في بالي .
اجتمع اليوم رئيس المدرسة القديم ياكوبوس وديوثيسوس وسيدروس وغيرهم من الرهبان في المدرسة لإقامة صلاة قبل مباشرة العمل، فأخذوا التلاميذ والمعلمين إلى الغرفة الكبيرة، فأشعلت سيكارتني وخرجت من المدرسة تقادياً من حضور صلاة يقيمها أمثال هؤلاء الدنسين القذرين .
لا أتأمل في حالة الأمة العثمانية، إلا عجبت كيف تستطيع أن تحافظ على كيانها وترد الطامعين فيها، وهي على ما هي عليه من الضعف والانحطاط.. عبأت جنودها وكلهم أشداء أقوياء ليس أصبر منهم على التعب والجوع وشظف العيش وخشوته، ولكنهم غير مدربين، ويدخل تحت الدربة السرعة والرشاقة والانتباه وسرعة الخاطر ومعرفة الواجب وإحسان استعمال السلاح، إلى غير ذلك من الصفات التي لا تتوفر في أمة إلا تحت شرائط عديدة، لا تستوفيتها إذا نهضت من خمولها إلا في أجيال.. كيف تستطيع الأمة العثمانية وهذه حالتها أن تدخل في حرب مع إحدى الدول الأوروبية ولو كانت أصغرهن؟ . كيف تستطيع أن تحارب، وهي لا تزال تنقل ذخائرها من محل إلى آخر على ظهور الجمال؟ ماذا تعمل غداً حين يدخل الشتاء فتجري السيول وتنقطع الطرق، وتتعدر المواصلات على أي وجه كان؟ .. إن دخولها في حرب مع أحد تهوّر ومخاطرة.. إذا رأيت أمة قليلة العدد كالأمة الانكليزية تملك الأقطار وتحكم ملايين من البشر، فما سبب ذلك إلا ضعف المستعمرين وانحطاطهم، وليس الاستعمار دليلاً على قوة الأمة المستعمرة فقط.. كما يتبادر للذهن لأول وهلة .

الأربعاء في ٧ ت ١ غ و ٢٤ أيلول ش سنة ١٩١٤م

عقدت جلسة صغيرة مع حسين أفندي سليم وحلمي أفندي الحسيني، وتفاوضنا في أمر فتح المدرسة، فقرر حلمي أفندي المذكور الانسحاب من مدرسة روضة المعارف والدخول معي في المدرسة الدستورية، واعتمدنا أن نفتح المدرسة الدستورية الآن، فأشتغل بها وحدي إلى أن تمر هذه الأزمة، وينطلق حلمي أفندي من الخدمة العسكرية فأسلمه المدرسة حينئذ . وقد آثرت فتح المدرسة لعدة أسباب (١) لأنه يعز علي أن أعطيها بعد أن تعبت فيها عدة سنوات، بعد أن عرفها الناس واعتبرها فريق منهم كحاجة من حاجات البلاد . نعم لم يزل تلاميذها قليلين، ولكن الذين يرتاحون إلى مبدأ مدرستها يزداد عددهم يوماً فيوماً .. (٢) لأنه يعز علي أن أترك تلاميذتي يهيمنون على وجوههم، أو أن يذهبوا إلى مدرسة أخرى، لا تنطبق روحها ومبادئها ونظاماتها [=أنظمتها] على روح مدرستي ومبادئها ونظاماتها .. (٣) لأنني لا أقدر أني سأستطيع البقاء في مركزي عند الروم، فقد أضطر يوماً من الأيام عاجلاً أو آجلاً أن أترك هذا المركز، فتكون المدرسة الدستورية

حاضرة ..

لهذه الأسباب وغيرها حدثتني نفسي أن أفتح المدرسة هذه السنة، فإذا نجحت فذاك ما أتمنى، وإلا فلي من الأحوال الحاضرة ما يقوم به عذري .

الخميس في ٨ ت ١ غ و ٢٥ أيلول ش سنة ١٩١٤م

خصصنا هذا الأسبوع لقبول الطلبة في مدرسة الروم، واعتمدنا أن نبدأ الدروس يوم الإثنين القادم إن شاء الله . . اتفقت مع اسماعيل النجار اللفتاوي على أن أسكن القسم الأسفل من داره بأجرة أربعين ليرة في السنة .

الجمعة في ٩ ت ١ غ و ٢٦ أيلول ش سنة ١٩١٤م

طرقنا اللصوص الليلة نحو الساعة الثامنة مساءً، فسرقوا فراش الناطور وثيابه، وأشعلوا النار في غرفته وفروا، فشممنا رائحة الحريق فهرعنا وأطفأنا النار، وذهبت ناديت البوليس للتحري عن اللصوص . .

من السبت في ١٠ ت ١ غ إلى السبت في ١٧ ت ١ غ سنة ١٩١٤م

لا أرى بداً أن أغير خطة الكتابة في يومي هذه وأن أعتمد الإختصار، لأنني لا أكاد أصيب وقتاً لذلك. فإني أقوم باكراً فألعب ألعابي التي تستغرق نحو ثلاثة أرباع الساعة، ثم استحم فاستغرق مثل هذا المقدار من الوقت، ثم أفطر واقفاً وأخرج إلى شغلي الذي يستغرق أوقات نهاري كلها، ففي الصباح أذهب إلى مدرسة الروم وبعد الظهر أذهب إلى المدرسة الدستورية، وبعد الساعة الرابعة أذهب إلى دروسي الخصوصية، وقد أذهب إليها في بعض ليالي، وفوق ذلك، فإني عضو في قومسيون معارف اللواء، وعضو في نظارة مدارس الروم في فلسطين وما وراء الأردن، فضلاً عما هناك من الشواغل الكثيرة التي لا أخلو منها، ولذلك فإني لا أرى بداً من تغيير خطة الكتابة، واعتماد الإختصار ما أمكن . .

أما الخطة التي سأعتمدها فهي كما يأتي (١) أن أقصر على أهم الحوادث التي تستحق التدوين، إما لفائدتها أو لما تتضمنه من العبرة أو الإختبار أو الحكمة الخ . . . (٢) أن أستبدل اليومية بأسبوعية، فإذا لم أستطع الكتابة اليوم فلا أعدم وقتاً غداً أو بعده (٣) أن أشير إلى ما يختلج في صدري من العواطف وما

يجول في رأسي من الأفكار، وما يبدو لي في الحياة من الملاحظات، لتكون يوميتي أو أسبوعيتي كتاباً مفيداً أرجع إليه في المستقبل، ثم أهديه إلى ولدي سري إن شاء الله.

(١) إن العابي واستحماماتي وإن استغرقت جانباً كبيراً من وقتي فإنها تفيدني فوائد عديدة: (١) تقوي جسدي وتبعث فيه النشاط وتكسبه الرشاقة فكأنني أكتسب منها كل يوم قوة جديدة لمكافحة الزمان ومغالبة الصعوبات (٢) تحفظ شبابي وتبقي على غضاضتي، وتنقي دمي وتزيد لوني اشراقاً، على حين أرى كثيرين من أتريبي ومن هم أصغر أو أكبر مني قليلاً ذابلي الوجوه مكمدي الألوان مترهلي الأجسام منتفخي البطون محدودبي الظهور الخ . . (٣) تنشط نفسي وتقوي إرادتي وتشدّد عزائمي وترهف فكري وتصلق قريحتي وتبعث في الإقدام، وتحسن أخلاقي وتدمث طباعي وتضرم صدري، فبينما أرى كثيرين يزدادون كل يوم ضعفاً في أجسادهم ونفوسهم ويتقدمون من الشيخوخة شيئاً فشيئاً، أحس من نفسي أنني أخلق كل يوم خلقاً جديداً . . ولذلك فإني سأحافظ على حماماتي والعابي ما دمت حياً . الصحة والقوة والنشاط والرشاقة، من أهم أركان السعادة وبواعث السرور .

(٢) مرّ على الأمة التركية والدولة العثمانية سنة أو أكثر وهي تحاول النهوض والحق بالأمم المتمدنة، فلم تترك شيئاً من أسباب التقدم إلا أخذت به، فأسست المدارس ونشطت الأقلام ورقّت الصحافة، وألفت الجمعيات المختلفة وأحيت جيشها، وتعهدت عاطفة الوطنية والقومية، إلى غير ذلك من الأمور التي تضمن لها النجاح، ولكن هناك أموراً كثيرة تتخلف فيها عن الأمم المتمدنة المسيحية وهي المبادئ الأدبية، فإنها لا تستطيع أن تقبلها كلها لأنها لا تلتئم جميعها مع مبادئ القرآن، وهذا مبحث طويل لا تتسع له هذه العجالة، اقتصر على أمر واحد، وهو حالة المرأة، فقد تشبه بالأمم المسيحية في كل شيء إلا في مسألة المرأة، فمدارس الذكور ستكون كمدارس الذكور في أوروبا، بل قد تستطيع أن تعلم أولادها في أوروبا، وجيشها سيكون كجيوش مجاورها إلى غير ذلك، ولكن سيقال في المستقبل إن الأمة التي مدارس إناثها أرقى ستكون أرقى . . أي إذا شابهت أوروبا في كل شيء، بحيث لا يقال إن أوروبا أرقى في تركيا لأن جيشها أحسن نظاماً وأكمل عدة وعدداً وأوفر قوى معنوية، أو لأن مدارس الذكور الإبتدائية والوسطى والعليا أرقى من مدارس تركيا الخ . . ولكن سيقال: إن أوروبا أرقى من تركيا لأن حالة المرأة ومدارس الإناث أرقى منها في تركيا . . لأنني لا أعتقد أن تركيا والأمة الإسلامية مهما بلغت من الرقي، أنها تستطيع أن تجاري أوروبا في العناية بالبيت والمرأة . . .

(٣) لا ألتقي في الصباح بأحد تلاميذي مثل حنا حمامة أو أنضوني مشبك أو جرجي خميس أو موسى العلمي أو بهؤلاء المذكورين معاً، إلا أقيت عليهم أربعة أسئلة وهي:

(١) هل استحمت؟

(٢) هل لعبت ألعابك الرياضية؟

(٣) هل أكلت؟

(٤) هل قرأت؟

يجب على كل شاب قبل أن يبرح بيته كل صباح أن يستحم ويلعب ويأكل ويقرا ، وإذا أخل بشرط من هذه الشروط أو بها كلها ، فهو منحط خامل جسدا وعقلا .

(٤) إذا لم تكن الحياة في تحسن مستمر فلا معنى لها .

(٥) مهما كنت فكن موضع اعجاب الناس .

من السبت في ١٧ ت ١ غ إلى السبت في ٢٤ ت ١ غ سنة ١٩١٤م

(١) لا يزال دوثيسوس وياكوبوس الراهبان ، الأول رئيس نظارة المدارس والثاني رئيس مدرسة القدس يحاولان أن يخرجوني فيخرجوني أو يستدرجونني إلى الجري على خطتهم المعهودة ، وهي : القديم على قدمه ، فلم أرَ بدا أن أضع تقريرا أقدمه للمجلس المختلط ، أبين فيه حالة النظارة وحالة مدرسة القدس ، ومع ما التزمت فيه من الإختصار ، فقد جاء طويلا . فإذا لم يكن له تأثير طبعته ونشرته في طول البلاد وعرضها لتكون الملة على بصيرة من أمرها ، ولأخلص من التبعة والمسؤولية ، وسأضمن يوميتي هذه خلاصته .

(٢) يقال : إنه قد وردت أوامر باستثناء المعلمين من الخدمة العسكرية .

(٣) كتبت منشورا إلى أهل الناصرة ، عددت فيه الصفات التي يجب أن يطلبوها في المطران الجديد ، إلا أنني ختمته بقولي «على أنني لست أكتفكم أنني لا أعتقد أنكم ستجدون مطلوبكم في رجال الدير ، لاني هذا الجيل ولا في الجيل الآتي» .

يوم الخميس الواقع في ٢٩ ت ١ غ سنة ١٩١٤م

رجعت الظهر إلى البيت ، وكان سري يلعب بأدواته ، فلما رأني صفق بيديه وناداني أبا أبا ، فكادت أطيح فرحا ، فحملته وقبلته ثم أركبته على ظهري وجعلت أركض به . . . واليوم لأول مرة وقف على رجله بدون أن يستند إلى شيء .

يوم الجمعة في ٣٠ ت ١ غ سنة ١٩١٤م

زارنا عادل أفندي جبر^(٢١) قادماً من نابلس، فسررنا بلقائه وعقدنا جلسات عديدة، تجاذبنا فيها البحث في مواضيع مختلفة، منها الجامعة الإسلامية، فانتقدت الدعوة إليها بكلام طويل لا محل له هنا . .

يوم السبت في ٣١ ت ١ غ سنة ١٩١٤م

نزلت صباحاً إلى البلد، فرأيت في طريقي العلم الإيطالي يخفق فوق العمارة الروسية، فلم أشك أن الحرب واقعة، ثم رأينا العلم الإسباني فوق قنصلاتو فرنسا، وقيل: إن انكلترا عهدت بحماية رعاياها ومصالحها إلى قنصلاتو أميركا. ثم جعلت أتسم الأخبار، فقيل: إن الأسطول العثماني كان يتمرن في البحر الأسود، فتعرض له الأسطول الروسي فنشب القتال بينهما، ثم ذهب الأسطول العثماني وضرب بعض موانئ روسيا وأغرق بعض سفنها، والشائع أن تركيا هي التي تحرشت بروسيا. ويقال: إن الطرادين الألمانيين هما اللذان تهجما على روسيا بدون معرفة الباب العالي. . فإذا صح ذلك فتكون ألمانيا قذفت بنا إلى هذه الحرب لمصلحتها. وقد بلغني أن بعض الضباط الألمان الذين ذهبوا إلى العقبة حاول التحرش بالجنود المصرية على الحدود، فأبى عليهم ذلك الضباط العثمانيون لأنهم ليس معهم أوامر بذلك. . كأن ألمانيا لما رأت أن الدولة العثمانية تهتم بتسريح جيوشها لعجزها عن الإنفاق عليهم، ورأت من الجانب الآخر أن انكلترا وفرنسا وروسيا يطاولون الدولة العثمانية، ويحاولون استرجاع نفوذهم في تركيا، قاموا بهذه الحركات لإيغار الصدور واضرام نار الحرب واحباط كل مسعى بالسلم، ولو كان في ذلك خراب العالم. . لم ألق أحداً من المسلمين والمسيحيين إلا استعاذ بالله من ألمانيا وسوء نيتها، ومحاولتها تضحية العالم في سبيل الإنتقام من دول الإتفاق الثلاثي.

يوم الأحد في ١ ت ٢ غ سنة ١٩١٤م

لم تعلن الحرب بعد، وإنما اكتفي لحد الآن بقطع العلائق، فمن الناس من يعتقد أن الحرب واقعة، ومنهم من يرجح أن تركيا سترضى روسيا، وتفثاً جأشها فيحل الإشكال ويزول الخطر. . لم يعرف أحد تأثير هذه الحرب إن نشبت على البلقان، وأي دول البلقان تكون في جانب تركيا، وأيها يكون عليها. على أن ألمانيا لم تدفع تركيا إلى هذه الحرب، وهي تعرف أن تركيا تستطيع أن تشغل دول الإتفاق الثلاثي، ولكنها لا شك أنها قدرت أن العالم الإسلامي سيأثر كله، ويقوم لنصرة تركيا، ويغتنم الفرصة

(٢١) عادل جبر: من يافا، أحد الكُتاب والصحافيين والمرجمين المجددين في مطلع القرن الماضي، شغل مركز مدير المتحف الإسلامي ودار الكتب بالقدس الشريف في العشرينيات. تزوج منانة الصيداوي شقيقة داود الصيداوي.

لخلع نير روسيا وانكلترا وفرنسا ، ولكن لا بد أن هذه الدول ستأخذ الحيطة ، هذا فضلاً عن أن العالم الإسلامي ميت لا يتأثر ، وإذا تأثر فهو غير مسلح ، والله أعلم .

يوم الإثنين في ٢ ت ٢ غ سنة ١٩١٤م

أهم حوادث هذا النهار : أولاً ، سافر الطابور الثاني الذي كان معسكراً في جنوب القدس إلى نابلس . ثانياً ، أخذت العسكرية تستولي على الدراجات فلم يكن يمر أحد من باب الخليل على دراجته إلا أنزلوه وأخذوها منه . ثالثاً ، ألفت يدها على بنك كريدليونة والبنك الإنكليزي ، وغيرهما من المصارف الصغيرة التي تخص رعايا الروس أو الانكليز أو الفرنسيين . رابعاً ، لم تسمح الحكومة لقناصل إنكلترا وفرنسا وروسيا بالسفر . خامساً ، استولت الحكومة على السكة الحديدية بين القدس ويافا .

يوم الثلاثاء في ٣ ت ٢ غ سنة ١٩١٤م

فتحنا المدرسة بعد عطلة عيد الأضحى ، عزمت على مواصلة فتحها ، ولو كان التلاميذ قليلين والدخل قليلاً . ولكن إذا عطلت المدارس الإنكليزية فلا بد أن التلاميذ يقبلون على مدرستي ، وقد عزمت أن أضيف سابا الصائغ إلى عداد المعلمين . . بعد أن أعطيت درساً في المدرسة الدستورية نزلت إلى البلد وكانت السماء ماطرة . يقال : إن الحرب لم تعلن بعد ، ولكن ورد في تلغرافات الشركة العثمانية أن الانكليز أغرقوا باخرتين عثمانيتين . لسنا ندري هل تلزم دول الاتفاق الثلاثي خطة الدفاع ، أم تأخذ خطة الهجوم . على أنه يظهر من صنيع الانكليز أنهم سيأخذون خطة الهجوم . .

طلبت الحكومة للخدمة العسكرية من أبناء الرابعة والعشرين إلى الخامسة والثلاثين ، ولا بد أن تطلب من فوقهم فيدركي الطلب . . استولت الحكومة اليوم على المستشفيات الإنكليزية والفرنسية والروسية . أخلى الرهبان والراهبات الكاثوليك كل أديرتهم خارج المدينة ، فوضعوا الرهبان في عمارة نوتردام والراهبات في الدار الجديدة . ويقال : إن راهبات جبل الزيتون اللواتي يعشن تحت الأرض فلا يرين ولا يكلمن أحداً ، لما أخرجن من ديرهن بكين . اعتمدت أن أجعل شعاري هذه السنة هذه الكلمة «الذي ينزل من السماء تتلقاه الأرض» . هذه الحرب علمتني الإستخفاف بالمصائب والإزدراء بالحياة ، فإذا عشت أو مت فعلى حدٍ سوى . ما الحياة وآمالها ومسراتها إلا طفاف لا قيمة لها . على أنني لا أزال مولعاً بالأعابي وحماتي ، ولا أزال رابط الجأش مطمئن الخاطر ، ولا أزال على فلسفتي القديمة ، فلسفة السرور . لو هاجمنا العدو واقتمم الجند البيوت لوجدوني في غرفتي استحم ، أو في الهواء النقي ألعب أو وراء طاولتي أدخن وأقرأ أو أكتب .

رزق شكري ديب غلاماً .

يوم الأربعاء في ٤ ت ٢ غ سنة ١٩١٤ م ماذا يقول الناس؟

منهم من يقول: إن دول أوروبا المسيحية ما عدا ألمانيا والنمسا ، سترسل كل واحدة منهن مدرعة إلى يافا تنزل نصف عساكرها إلى البر ، وترسلهم إلى القدس ليحافظوا على الأماكن المقدسة . . . ومنهم من يقول: إن اليابان سترسل مدرعاتها إلى الخليج العجمي . . . ومنهم من يقول: إن الدولة العثمانية تقصد من هذه الحرب أن تعتبر حامية المسلمين في العالم ، كما أن فرنسا وروسيا تدعي كل منهما أنها حامية المسيحيين في الشرق - ومنهم من يقول: إن رومانيا وبلغاريا ستلزم كل منهما الحياد ، ومنهم من يعتقد أنهما ستنتصران لتركيا ، وأن العجم سيعلمون الحرب على روسيا . ويشاع أن إيطاليا دخلت الحرب ، وأن البرتغال أكدت لانكترا أنها ستضم إلى الحلفاء ، إلى غير ذلك من الآراء والأراجيف التي يتخبط فيها الناس خبط عشواء . .

خرجت صباحاً بعد أن استغرقت العاي في الهواء النقي نحو ساعة ، كنت فيها عاري القدمين مكشوف الرأس ، وكانت الأرض مبللة بالمطر ، وبعد أن استحممت وفركت بدني ومسدته نحو ساعة أخرى ، وقد حملت سلطانة منذ نحو شهر على متابعتي في خطتي هذه ، فصارت تستحم بالماء البارد وتلعب ألعاباً مختلفة تكسبها قوة ورشاقة ، وبعد أن استحم سري ولكن بالماء الفاتر ، وقد أضفت إلى ألعابه وأدواته قطعة من dumbells^(٢٢) ، فجعل من وقت إلى آخر يحاول أن يحملها بيد واحدة . . خرجت صباحاً مملوءاً قوة ونشاطاً ، فلقيت حسين أفندي سليم ، سألته: هل راجع دير الروم بخصوص أجرتي؟ فقال: راجعتهم فوعدوا أن يدفعوا لك سريعاً ، ثم سألته: هل يرى خطراً على الدار التي أسكن فيها أن يحتلها العسكر ، لأنها دار انكليزية ، فقال: لا خطر في ذلك ، ثم حشته أن يبذل وسعه في مساعدة الأجانب وحمائهم إن استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فقابلني بما عهد فيه من المروءة والأريحية ، ووعد أن يساعد الجميع بكل ما يصل إليه إمكانه . . . أتفتت اليوم مع سبابا الصانع أن يعطي دروساً في المدرسة الدستورية ثلاث ساعات في النهار . . . جاء في التلغرافات العثمانية اليوم ان نصف الوزراء استعفوا ، مما يدل على أن في الأستانة حركة ضد الحرب . وقد أشيع أن الانكليز ضربوا حيفا . . . جاء [ت] بعد الظهر عدة عربات من الشام عن طريق نابلس ، تحمل أدوات العجن والخبز ، ونادى المنادي اليوم ان الناس يجب أن يأووا إلى بيوتهم قبل الساعة السابعة ،

(٢٢) ائقال من كلتي حديد أو اسنت يتوسطها قضيب حديدي

والذي يرى في الطريق بعد هذا الميعاد يعدم رمياً بالرصاص . فما أزفت الساعة حتى كتبت ترى الناس يهرولون الى بيوتهم . أما نحن فتركنا سرياً في عهدة الخادمة عزيزة خادمة مسس واي ، وذهبنا سهرنا في بيت الخواجا فيشر جارنا ، ولكن تسلقنا الجدار الذي بيننا وبينه . . . ورد في التلغرافات العثمانية اليوم أيضاً ، أن الجرائد العثمانية تعتبر هذه الحرب جهاداً مقدساً ، فإذا صح ذلك تكون هذه الحرب قد أثارت روحاً قديمة ، ورجعت بنا مئات من السنين الى الوراء ، وكل ذلك بفضل ألمانيا التي اتسخت يداها فمسحتها بغيرها . .

يوم الخميس في ٥ ت ٢ غ سنة ١٩١٤م

أعلنت إدارة البريد أنها لا تقبل الرسائل إلا إذا كانت مفتوحة ، وكانت مكتوبة باللغة العربية أو التركية أو الفرنسية أو الألمانية . . . وضعت الحكومة ضريبة عشرين غرشاً على كل شعار يعلق على المخازن والمحال التجارية وغيرها ، فجعل الناس ينزلون اللوحات المعلقة ، بحيث ما كاد ينتصف النهار حتى رأيت الشوارع والمنازل والجدران مجردة من كل شعار ، أما أنا فقد عزمت على نزع شعار المدرسة المعلق عند مدخلها . . أرسلت الحكومة قناصل الانكليز والفرنسيين والروس مع تراجمهم في يافا الى القدس كأسرى حرب ، يشيع الألمان والنمساويون في القدس أن رومانيا وبلغاريا ستدخلان الحرب في جانب تركيا . . يشيعون أن الانكليز ضربوا رفح وبددوا العساكر العثمانية المخيمة هناك . . . يقال : إن الألمان في القدس يدفعون الحكومة الى تحري منازل الإنكليز والإستيلاء على ما فيها كغنائم حربية ، توسيعاً للخرق وقطعاً لكل أمل بالصلح . . . جاء القطار الساعة السادسة ، وآخر الساعة الثامنة يجر عربات عديدة مملوءة عائلات إسلامية من يافا ، جاؤوا الى القدس خوفاً من تعدي الأسطول الانكليزي على يافا . . . فتح بنك كريدبليونة اليوم ، ولكنهم منعه أن يعطي شيئاً من الدراهم لإفرنسي ، فذهبت رئيسة راهبات المحبة تجر وراءها الأولاد الصغار الذين يعيشون عند الراهبات الى قومندان [= قائد] الموقع ، والتمست للبنك منه باسم هؤلاء الأولاد ، أن يسمح للبنك الإفرنسي أن يعطيها نقوداً ، فتأثر لذلك وسمح للبنك أن يعطيها ما تشاء . . لا شك ان هذه أريحية تذكر فتشكر . . القدس ملاءى بالجند والضباط وكل يوم يخرجون تتقدمهم الموسيقى الى ضواحي المدينة للتمرّن ، بحيث أصبحوا أشداء أقوياء مكنتزي العضل مدمجي الأعضاء ، مفتولي السواعد ، عراض المناكب ، سمر الألوان ، تلوح على وجوههم علائم الشجاعة والإباء . ومن قابل الجندية اليوم بما كانت عليه قبل عشرين سنة بل عشر سنوات بل سنة ، رأى ارتقاء كبيراً ؛ كانت الجندية قبل اليوم عبارة عن خدمة سنة أو سنتين أو ثلاث أو أكثر ، يعرفها الجندي في ظلال القلاع يزجي وقته بالثوباء ، وكان الضباط لا همّ لهم إلا الإنعكاف على السكر والإنغماس في الملذات ، بحيث كان يصح في الدولة العثمانية أنها رجل مريض أو الدولة العجوز ، بل

عَجَبَ كيف استطاعت الدولة العثمانية أن تعيش الى اليوم، ولم يُستغرب انكسارها في حرب البلقان وعجزها عن إخماد الفتن في ألبانيا أو أرمينية أو حوران أو اليمن، كما لم يستغرب، من الجهة الثانية، جراتها على إعلان الحرب على روسيا وحليفاتها، فإنها اليوم غيرها بالأمس. على ان كثيرين يتمنون لو لم تدخل في حرب الآن، إلى أن تستكمل نموها الطبيعي، لأن الجيوش لا تخلق خلقاً كما قال أحد كتّاب الإنكليز، بل تنمو نمواً، لأنه لا يزال ينقص الجندية العثمانية أشياء كثيرة منها:

(١) لا يزال الجانب الأكبر من ضباطها من الطرز القديم

(٢) لا تزال بلادها قليلة الحصون والقلاع الحديثة وقليلة المواصلات

(٣) لا يزال سكانها وجندها قريبي العهد بالإستبداد، وزمان الجهل والإنحطاط

(٤) لا يزال الجهل مخيماً على أكثر بلادها، ولا تزال الوطنية ضعيفة، ولا يزال الشقاق مستحكماً بين عناصرها المختلفة، الى غير ذلك مما لا يُتلافى إلا مع الأيام، ومما يحتاج إصلاحه إلى سلم طويل وأيد عاملة، ورؤوس مفكرة وصدور تضطرم وطنية وحمية. . على أنه ما أدرانا أن الدولة العثمانية لو لم تدخل في الحرب اليوم عادت إلى خمولها مرة ثانية، وأهملت وسائل الإصلاح وأسباب الترقى، فإن هذه الحرب للدولة حرب حياة أو موت، والنصر بيد الله يؤتیه من يشاء.

يوم الجمعة في ٦ ت ٢ غ سنة ١٩١٤م

سافر اليوم صباحاً طابور الى الرملة، خطب فيهم قومندان الموقع، بما يثير الحماسة ويشد العزائم، ثم تلاه عبد القادر المزغر^(٢٣)، وكان خطابه دينياً اقتبس فيه آيات كثيرة من القرآن، مع أن الجيش اليوم مؤلف من جميع المذاهب، فكان يجب أن يكون الخطاب وطنياً صرفاً، ولعله لا يستطيع الكلام إلا في المواضيع الدينية. قبل الضباط بعضهم بعضاً وكان الوداع مؤثراً جداً. . . ويقال: إنه ستلحق بهم قوات أخرى حين تصل المدافع التي ينتظرونها اليوم عن طريق نابلس. . . ألقوا اليوم Mr Forder في السجن، لأنهم وجدوا مع بعض الأميركيين الذين كانوا ينوون السفر رسائل يامضائه لم يعلم ما كتب فيها بعد، فعسى أن لا يكون فيها ما يلحقه منه أقل تبعة. . . رزق اليوم صباحاً الساعة السابعة افرنجية ابن خالتي يعقوب غلاماً، فعسى أن يكون قدومه خيراً. جاء نحو الساعة الثانية بعد الظهر طابور من نابلس إلى القدس فخرج الجند لاستقباله. . . لا تدخل أمة في حرب إلا إذا اعتقدت أنها قوية أولاً، وإذا كان هناك شعور عمومي بوجوب هذه الحرب

(٢٣) المقصود الشيخ عبد القادر المظفر من القدس (١٨٨٠-١٩٤٩) هو مفتي الجيش الرابع العثماني الذي عين العثمانيون جمال باشا الصغير المارسيني قائداً له خلفاً لجمال باشا الكبير (السفاح)، ومن هنا يتردد اسمه بالمصغر والمزغر في اليوميات في ما يبدو أنه تطور كلقب نظراً للعلاقة بين الرجلين والاسمين.

ثانياً . . . كيف تعتقد الأمة العثمانية أنها قادرة على دخول هذه الحرب، وهي تعرف أن الجنود العثمانية قليلة بالنسبة الى غيرها، وأن خزائنها فارغة؟ فلتدرك هذا الأمر جعلوا يوهمون الشعب، وهو بسيط جاهل، أن الحكومة تستطيع أن تجند عشرة ملايين، ومنهم من يعتقد أنها تجند عشرين وأن عدد المتطوعين من البدو لا يقل عن أربعة ملايين، وأن العالم الاسلامي سيثور كله، وأن مسلمي روسيا أرسلوا إلى الحكومة العثمانية أنهم ينتظرون الجنود العثمانية لينضموا إليها، وأن إيران ستضم إلى تركيا في هذه الحرب، وأن الأفغان سيزحفون على الهند، وأن المراكشيين والتونسيين والسنوسيين سيثورون، إلى غير ذلك مما يعتقد معه المسلم البسيط الجاهل أن الحكومة العثمانية ستملك العالم . . . بل يقال: إن هناك رسلاً كثيرين في العالم الإسلامي يدعون إلى الجامعة الإسلامية، بل يقال: إن اجتهاد الألمان في تعميم هذه الدعوة وترويجها لا يقل عن اجتهاد المسلمين، وأما من جهة المال فقد جعلوا يوهمون الشعب أن الحكومة جمعت من التكاليف والإعانات والبدلات في هذين الشهرين، ما لا يقل عن مئة وخمسين مليون ليرة، فضلاً عن المساعدات التي تردها من الألمان ومن العالم الإسلامي . . . ثم من الجهة الأخرى يهللون بقوة ألمانيا واستعدادها للحرب، ولا يذكرون لها إلا التقدم والانتصار، كما يحطون من شأن الدول الأخرى، ولا يذكرون لها إلا الإنكسار تلو الإنكسار، أما عن اختراعات ألمانيا الحربية الحديثة فحدث عنها ولا حرج. يقولون: إنهم اخترعوا نوعاً من المدافع إذا نصبوه على شواطئ بلجيكا ضربوا به بلاد الإنكليز، وإنهم اخترعوا سائلاً إذا وضعوه في البحر تحول إلى بلور وأوقفوا حركة الأسطول الإنكليزي، وأنهم هبأوا أسطولاً هوائياً [جويًا] مؤلفاً من مئة طائرة من طائرات زبلين، فإذا أخذوا [مدينة] كاله الفرنسية اتخذوها قاعدة حربية لهذه الطائرات، وهاجموا بها الأسطول الإنكليزي، وأن الغواصات الألمانية ستعمل العجائب، فإذا كان الإنكليز ملكوا سطح البحر بمدركاتهم وطراداتهم ونسافاتهم وغيرها، فإن الألمان ملكوا ما تحت سطح البحر بغواصاتهم، إلى غير ذلك من الأقوال التي لا يتردد الشعب البسيط الجاهل في تصديقها، بل يزيد عليها وبالغ فيها. وإذا راجت مثل هذه الأقاويل في أمة، فلا شك أنها تعتقد القوة في نفسها وأن كفتها راجحة . . . أما من جهة أن يكون في الأمة شعور عمومي بوجوب هذه الحرب، فلا سبيل إلى ذلك إلا بواسطة الدين، فقد سمعت فلاحاً مسلماً يقول لآخر مسيحي: إن الروسيين يضطهدون المسلمين في بلادهم ويجبروهم على عبادة الصليب، بل سمعت من كثيرين من أدباء المسلمين ومتورثهم أن الفرنسيين يحاولون أن يقتلوا اللغة العربية في مستعمراتهم في افريقيا، وأنهم يسيئون معاملة المسلمين ولا يراعون إحساساتهم، وأنهم يضعون الجنود المسلمين الذين يأخذونهم من هذه المستعمرات قسراً في مقدمة الجيش المحارب، ليموتوا دون الفرنسيين، وأن الإنكليز يحاولون القضاء على العالم الإسلامي

ونزع كل سلطة منه، إلى غير ذلك من الأقوال التي يغضب لها المسلم ويتوَعَّر صدره حنقاً. فإذا قال المسلمون: إذا كيف نحالف ألمانيا وهي مسيحية؟ قالوا لهم: إن ألمانيا اعتنقت الدين الإسلامي وإنها ستقاسم تركيا كل البلاد التي ستفتحها، وإنها لا تنصب علمها في بلاد، إلا ركزت بجانبه العلم العثماني، وإن امبراطور الألمان سُمي محمّداً، وأنه سيذهب إلى الحج، ويقال: إن الفلاحين كانوا يقولون في أهازيجهم حين كانوا يتوافدون إلى القدس للخدمة العسكرية «غليوم^(٢٤) يا خالنا، بسيفك ناخذ ثارنا»، بل يحاولوا أن يبثوا روح الانتقام في المسلمين من المسيحيين، إذ يقولون لهم: إن المسيحيين في حرب البلقان كانوا يخطفون النساء المسلمات فيمتهنون حرمتهن، وينتهكون عفافهن، ثم يقطعون أثداءهن ويبقرون بطونهن، وإنهم كانوا يأخذون أطفال المسلمين فيقذفون بهم في الهواء، ويتلقفونهم بالسيف ورؤوس الحراب. وقد بلغني أن في الشكايات العسكرية صوراً كثيرة معلقة هناك تمثل هذه الفظائع. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى المسيحيين الوطنيين، ولو من طرف خفي، فقد سمع أن الأولاد الصغار من المسلمين، إذا التقوا بأترابهم من المسيحيين أو بعض النساء المسيحيات، يقولون: سنذبحك ونطردك من بلادنا، مما يستشف منه أن ذلك حديث آبائهم وإخوتهم في البيوت. وقد ظهر أن للألمان اليد الطولى في زرع هذه العداوة وإثارة هذه الأحقاد، فإنهم لما رأوا أن مسيحيي هذه البلاد ميّالون إلى الإنكليز والفرنسيين أو الروس، يؤثرونهم عليهم، جعلوا يوغرون صدور المسلمين عليهم ويحذرونهم منهم. فقد قيل: إن طبيباً ألمانياً في يافا يطوف على بيوت المسلمين، ويقول لهم: إن هؤلاء المسيحيين خائنون لبلادهم جواسيس للإنكليز وحلفائهم، فاذبحوهم وطهروا البلاد منهم، بل كنت أرى في كل مساء، حين يجتمع الناس أمام البوسطات ينتظرون البريد ويتساءلون عن الأخبار، كنت أرى كثيرين من الألمان مبثوثين بين الناس يحادثون الشيوخ، يتركون الواحد ويمسكون الآخر، بقصد أن يستميلوهم إلى ألمانيا وينفروهم من غيرها. وإذا صح خبر ذلك الطبيب المذكور آنفاً، فلا يبعد أنهم يحرضونهم على مسيحيي هذه البلاد أيضاً. هذا كله يكاد يخلق شعوراً عمومياً في الأمة الإسلامية بوجود هذه الحرب التي يعتبرونها جهاداً مقدساً، وقد قرأت على الأعلام التي يحملها الجيش هذه العبارة «لا إله إلا الله ومحمد رسول الله».

السبت في ٧ ت ٢ غ سنة ١٩١٤م

أرسل إلي الطحان كيس طحين... نمي [=وصل] إلى الحكومة، أن في كيسة مطران الإنكليز مدفعاً

(٢٤) غليوم: هو غليوم الثاني قيصر ألمانيا، زار الأراضي المقدسة في العام ١٨٩٨، وكانت زيارته توجيهاً لبدايات اهتمام ألمانيا وتدخلها في الشأن الفلسطيني، وفي العام نفسه قام غليوم بتدشين قبة جرس كيسة المخلص في القدس.

مدفوناً تحت بلاط الكنيسة، بالقرب من المذبح، فأرسلت بعض الضباط ورجال البوليس وترجمان المتصرفية للتحري، وقبل أن ينزعوا البلاط وينقبوا الأرض، جاءهم داود كمال قواس المطران وناطور العمارة والقواس يوسف، وكلهم كانوا في خدمة المطران قبل بناء الكنيسة، وقالوا: نحن وقفنا على بناء هذا المحل من أوله إلى آخره، ولم نر إنه قد دُفن فيه ولا في غيره شيء مما تذكرون، وإنا بريئون من الدين الإسلامي والوطنية إذا كنا غير صادقين، ومع هذا فائقبوا حيث شتم إزالة لكل شبهة. ويقال: إن الذي بلغ الحكومة ذلك، وهو فتى مسلم من محلة [=حارة] باب حطة كان معهم، فأشار إلى المحل الذي زعم أنهم دفنوا فيه مدفعا، فنزعوا البلاط ونقبوا الأرض نحو ذراع فلم يجدوا شيئا، ثم تحروا الآبار وكل محل، ولما لم يجدوا شيئا قال أحد الضباط لمستر رنولدس: نشكركم على أنكم سمحتم لنا بالتحري، ونأسف جدا لوقوع ذلك، على أننا نرجو أن تكونوا مسرورين، لأننا بعملنا هذا قد أزلنا عنكم كل شبهة، وقطعنا السنة التمامين المفسدين.. كيف زعم هذا الفتى أن في الكنيسة مدفعا؟ وكيف صدقت الحكومة زعمه، وهي تعرف أن المحل محل عبادة، لا يمكن أن يتصور العقل أن تدفن فيه مدافع؟ ثم ما الفائدة من دفن مدفع؟ وهل يستطيع الإنكليز أن يستعملوا هذا المدفع هجوماً أو دفاعاً؟ ومن يستعمله وكلهم أقسة ورجال تبشير، وقد نرحوا من هذه البلاد قبل إعلان الحرب، ولم يبق منهم غير واحد أو اثنين؟.. على أنني أخشى أن يكون ذلك بتشويق من بعض الألمان في القدس، تشفياً وانتقاماً، وتجرئة للمسلمين على انتهاك حرمة الكنائس والمعابد إثارة لخواطر الإنكليز، وهذا ما يريدونه لئلا يبقى محل للصلح والسلام.. فهت بعد كتابة هذه السطور من نوري الدين ياور قومندان الموقع، أنه هو الذي اعتذر لرئيس المدرسة، وأنهم وضعوا المخبر في السجن..

يوم الأحد في ٨ ت ٢ غ سنة ١٩١٤م

أعدموا اليوم صباحاً أحد الجنود رمية بالرصاص لأنه فر من الجندية مرتين، وهو شاب في مقتبل العمر من قرى يافا. صدر الحكم بالإعدام عليه أمس، فأمسكوه اليوم وألبسوه ثوباً أبيض، وربطوه إلى شجرة على طريق مارالياس، وأوقفوا أمامه إثني عشر جندياً ببنادقهم، ومن ورائهم ثلاثين جندياً، حتى إذا لم يصبه الصف الأول أعدمه الصف الثاني، وكان الجنود كلهم واقفين يشهدون إعدامه ليعتبروا. ويقال: إن أحد الجنود من الإسرائيليين أغمي عليه حين أطلق الجند الرصاص، ثم حملوا المعدم على أعواد ودفنوه، فتأثرت جداً لهذا الحادث... ويقال: إنهم سيعدمون غيره قريباً... اليوم احتل الجنود مدرسة راتزبون الواقعة غربي المدينة. سألت اليوم عن مستر فوردر، فقيل: إن مسألته بسيطة، وربما أطلقوا سراحه قريباً. أمامي

مواضيع كثيرة للكتابة فيها لو يساعديني الوقت ، منها : ولدي سريّ وتنبه قواه العاقلة ، وحسن معاملة الحكومة والأهالي للأجانب من انكليز وفرنسيين وروس ، وتلغرافات الشركة العثمانية ، والجامعة الإسلامية ، وغير ذلك مما لا بدّ أن أشير إليه في يوميتي هذه قريباً إن شاء الله . . . اليوم علّقت في الأسواق نشرات مطبوعة يامضاء قائد الفيلق الثامن جمال ، يشيرون فيها إلى إعلان إنكلترا الحرب على تركيا ، ومحاولتها ضرب العقبة بالقنابل وإنزال جنود فيها ، وإلى المناوشات التي وقعت بين الجنود العثمانية والجنود الروسية على الحدود . . . لم يبق لدينا مصادر نستقي منها الأخبار غير تلغرافات السفارة الألمانية ، وتلغرافات الشركة العثمانية . . .

يوم الاثنين في ٩ ت ٢ غ سنة ١٩١٤م

ما أتعس ألمانيا وما أتعس البشر بها ، مرّ عليها أربعون سنة أو أكثر وهي تعادي البشر والبشر يعادونها . أساءت إلى نفسها لأنها أثقلت عاتقها بنفقات التسليح ، وحرمت نفسها كل قرار . بالإستعداد للحرب يولد الطفل قلبسه أمه الثياب العسكرية ، ولا تعيد على سمعه إلاّ أحاديث الطعن والضرب ، ثم يذهب إلى المدرسة فيلتقاه المعلم بالدروس الحربية والتمارين العسكرية ، ويشربه روح العداء للعالم ، وكره كل ما ليس ألمانياً . يذهب إلى الكنيسة فيرى في قسيسه صورة ضابط ، لا يرى في وجهه غير ملامح القسوة ، ولا يقرع سمعه منه غير أصوات الخشونة ، ولا يمثل له الله إلاّ كرب الجنود ، بل لا يمر في طريقه إلاّ رأى خطوطاً حديدية حربية ، ولا يقع بصره إلاّ على قلاع واستحكامات ، وكيفما التفت لا يرى إلاّ جنوداً وضباطاً . ثم يدخل العسكرية فيتحول إلى آلة صماء ، لا يغمض له جفن إلاّ وهو يحلم بالمواقع والمعارك ، ولا يقوم إلاّ للهجوم أو الدفاع . وعلى الجملة فقد جعلت ألمانيا [نفسها] بأسرها ثكنة عسكرية وأساءت إلى غيرها ، لأنها اضطرتهم إلى أن يحذوا حذوها ، وبالفعل في الاستعداد اتقاءً لشرّها . ثم لم يكفها ذلك ولم تقف عند هذا الحدّ ، بل تجاوزته إلى إضرار نار الحرب التي لم تمر عليها أربعة أشهر ، حتى اشتبك فيها نحو نصف سكان البسيطة ، ومن يعلم من يضطر للدخول فيها بعد اليوم من النصف الباقي ؟ على أن الأرض كلها قد تأثرت لهذه الحرب ، ولم يبق أحد إلاّ أحس بلهيبها رأساً أو بالواسطة . . . أما جنائتها الكبرى التي لا تُغتفر فهي (١) دفع تركيا إلى دخول هذه الحرب ، والقاء العداوة بينها وبين دول الإتفاق الثلاثي ، التي هي أقدر على إلحاق الأذى بتركيا منها هي على حمايتها . (٢) إثارة العداوة بين الإسلام والنصرانية . مهما طالّت هذه الحرب فلا بدّ أن تنتهي وتضع أوزارها ، ثم يتصافح الأعداء ويتناسوا ويلاّت هذه الحرب الطاحنة ، وأما العداء بين الإسلام والنصرانية فسيستمر أجيالاً .

الثلاثاء في ١٠ ت ٢ غ ١٩١٤م

طلبت العسكرية اليوم مدرسة البنات St. Mary's Home لتضع فيها الجند ، فأخذوا يفرغون الغرف ويهيئونها لهم . نزلت إلى البلد أنتسم الأخبار ، فوقعت على إشاعات مختلفة . ومن الغريب أن الذي ينقل لك خبراً ، يقول : سمعته من مصدر ثقة . فمن تلك الأخبار المنقولة عن ثقة ، أن الروس جمعوا جيشاً ضخماً على حدود تركيا ، اكتسحوا به ولاية أرض روم ، ثم اتفق المتحاربون على هدنة سبعة أيام . طلب الروس من الدولة العثمانية عدة مطالب (١) أن تسلم الطرادين الألمانين غوين وبرسلو للدولة الإنكليزية (٢) أن تفتح [مضيق] الدردنيل (٣) أن تخرج الضباط الألمانين من تركيا (٤) أن تسرح جيشها ، وغير ذلك . وقد مر على الهدنة أربعة أيام وبقي ثلاثة . ومن تلك الأخبار أن بلجيكا أعلنت الحرب على تركيا ، وستتبعها صربيا . ومنها أن الأخبار التي وردت قبل بضعة أيام أن الإنكليز ضربوا العقبة وهاجموا الدردنيل عارية عن الصحة ، والله أعلم . . . سمعت اليوم أن الطبيب الإنكليزي في غزة Dr. Stirling أُلقي في السجن منذ ثمانية أيام بتهمة الجاسوسية . . . لم أزل منذ أعدم ذلك الجندي المسكين قلق الخاطر منقبض الصدر ، ولا سيما وقد أشيع أن الحكومة ستعدم غيره ، فجعلت أسأل الكثيرين ، حتى قيل لي : ليس هناك أمر جديد بإعدام أحد ، فاطمان خاطري . . . طلب إلي سليم أيوب أن أعلم ولده شارل اللغة العربية أربع مرات في الأسبوع ، وسأبدأ غداً . قال لي جرجي زخريا : إن البطيركية وعدت أن تدفع لمستخدميها أجرة شهر أو شهرين غداً ، فكلفته أن يقبض لي أجرتي . . . يقال : إن تسعين في المئة من النساء والأولاد في يافا نزحوا إلى غيرها ، وقسماً كبيراً منهم جاء إلى القدس ؛ أما المسلمون فخوفاً من تعرض الأسطول الإنكليزي ليافا ، وأما المسيحيون فبعضهم خوفاً من ذلك أيضاً ، والبعض الآخر لأنهم لا يستطيعون أن يعايشوا مسلمي يافا في مثل هذا الوقت ، الذي ينظرون فيه ، ولا سيما رعاعهم ، إلى المسيحيين حتى الوطنيين منهم ، كأعداء ، ولأن حاكم يافا العسكري متهور . . . وكلهم يحسبون أن القدس أفضل البلاد ، وأسعدهن حظاً بقومندانها ومتصرفها المتمدين العاقلين ، ولأن مسلميها من أصحاب البيوتات القديمة المشهورة بالتساهل والمروءة والكرم .

الأربعاء في ١١ ت ٢ غ سنة ١٩١٤م

سمعت اليوم أن الحكومة دخلت دار الطبيب الإنكليزي في الخليل Dr. Peterson وضبطت أوراقه ، وأنها أرسلت قوة إلى دير اللاتين في القدس اليوم صباحاً للتحري . ولست أدري ، هل فعلت ذلك من تلقاء ذاتها ، أو نبهها إلى ذلك مخبر صادق حسب العادة . . . طلب جميل الزنايري للخدمة العسكرية قبل يومين ،

فجاءني يقول: طلب غيري من المعلمين ، ولكنهم تركوهم لأنهم لا يحتاجون إليهم الآن ، أو أن هناك أمراً باستثناء المعلمين ، فذهبت معه أسعى في فكاكه كمعلم في المدرسة الدستورية ، وقد كلفت صديقي علي أفندي النشاشيبي ، المطار العسكري أن يساعدني في ذلك ، فأجاب ملتسماً ، فذهبنا معاً ، فوعد الضابط أن ينظر في الأمر ، فعسى أن تتوفق .

كفني وكيل مطران الإنكليز Canon Hichens أن أطلب من القومندان أن يمهلوهم يومين آخرين في إخلاء دار مدرسة البنات ، فذهبت إلى صديقي الأبرّ حسين أفندي سليم أستشيريه في الأمر ، فما كان منه إلا أن ذهب بنفسه إلى الدائرة العسكرية ، فأجابوه إلى طلبه وأمهلونا يومين آخرين ، فشكرته شكراً جزيلاً . . . سافر اليوم طابور إلى خان يونس . . . فرض اليوم قومسيون البلدية إعانة [=مساهمة] على تراجم القناصل ومستخدميها وبعض التجار ، تتراوح بين أربع ليرات وعشر ، فأصاب ابن خالتي يعقوب فراج أربع ليرات ، وهو لا يكاد يملك شيئاً ، ولم يعرف ماذا يعمل ، فوعدته أن أواجه حسين أفندي سليم ، وأطلب منه أن يعفوه أو يخفضوا القيمة . وفي المساء ذهبت إلى بيت حسين أفندي وطلبت مساعدته في أمور كثيرة ، منها مسألة ابن خالتي يعقوب فوعدني خيراً ، ثم جعل يحدثني عن أعماله في النهار ، وعماً يقاسيه في الإهتمام بأمر كثيرة . . . عزم عادل أفندي جبر أن يجيء بعائلته من يافا إلى القدس ، فخطر لي أن أدبر له الكلية الإنكليزية ليسكن فيها ، فواجهت موسى أفندي شقيق صاحب الدار فقبل ، ولكن أمهلي ريثما يرى Mr. Sykes رئيس المدرسة بهذا الخصوص ، ثم كفني أن أنوب عنه في ذلك . . . هذه حوادث هذا النهار . . .

كنت أسأل نفسي ، ماذا يصير بعد الحرب؟ إن هذا السؤال وإن كنت أعجز من أن أجيب عليه ، لأنني لست من رجال السياسة ، ولا من الراسخين في العلم ، إلا أنني كمفكر ، لا أستطيع إلا أن أجاري فكري ، فأقول: قد تنتشر المبادئ الاشتراكية ويتأخى البشر ، ويرجعون السيوف إلى أعمادها إلى الأبد ، لأن الأسباب التي كانت تهدد السلم ، منها النعرات الجنسية والدينية ، وامتداد نفوذ بعض الأمم وتقلص ظل البعض الآخر ، واستقلال البعض واستعباد غيرهم ، وتمتع البعض بأكثر من حقوقهم الطبيعية ، وضياح حقوق كثيرين ، كل ذلك مما تتكفل بإزالته المبادئ الاشتراكية ، مما لا يتسع له المجال هنا ، كما قد تقوى في البشر الأميال الحربية ، وتترزع بهم نفوسهم إلى مجد السيف ، ويرجعون إلى عهد الغزوات والفتوحات ، فتزحف أمم على أمم . تتصلب القلوب وتتحجر العواطف ، فلا يعود معنى للحنان والرحمة ، ولا يعبأ بعد ذلك بحقوق وعهود . ولكل امرئ من دهره ما تعود . . لا بد لي أن أقف القلم هنا لأتابع كتابة يوميتي ، وسأعود إلى تنمة هذا البحث في ذيل كل يومية إن شاء الله .

الخميس في ١٢ ت ٢ غ سنة ١٩١٤م

بلغني اليوم أن الحكومة لم تتحرّر [تفتش] دير اللاتين، إلا قطعاً لألسنة النمامين الذين يتسترون تحت اسم مخبرين صادقين، وأن الهيئة التي أرسلت للتحرّي، اكتفت أن دخلت من باب وخرجت من باب... وقد ضبطت الحكومة اليوم أوراق قنصلاتو فرنسا وقنصلاتو روسيا، وبينما كانت تتحرى قنصلاتو فرنسا، دخل قنصل اسبانيا، فحمل رزمة من الأوراق وخرج بها، فاعترضه رجال الخفية [=الأمن] فقال: إن الأوراق تخصني، ولما لم يسمحوا له بالمرور تهددهم أن يقيم دعوى عليهم، وأن يكتب إلى السفارة في الأستانة أن الحكومة هنا لا تحترم القناصل، وبعد علاج قليل خرج بتلك الرزمة... أشيع اليوم أن المفاوضات بالصلح بين الدولة العثمانية ودول الإئتفاق الثلاثي ناجحة، والمأمول أن يتم الصلح بينهم قريباً إن شاء الله...

- ماذا يصير بعد الحرب -

من المنتظر أن بعض الأمم تهدم عروش ملوكها، وتقيم على أنقاضها جمهوريات تحكم أممها بتعقل ورزانة... وأن الأمم المستعمرة توسع حقوق مستعمراتها، وتحسن سياستها لتأمين انتفاضها عليها كلما آنت نهرة من الزمان... أو تضيق عليها الخناق، فلا تقوم لها قائمة فيما بعد...

الجمعة في ١٣ ت ٢ غ سنة ١٩١٤م

مع تعمقي في اللغة العربية ووقوفني على آدابها، واطلاعي على كثير من أدبياتها، وإعجابي بكثيرين من رجال الملة الإسلامية، ولا سيما في صدر الإسلام، ومع كثرة أصدقائي من المسلمين وامتزاجي بهم، وتقليبي بينهم، ومع ما بيننا من الشبه في كثير من الأخلاق والأميال والعوائد والتقاليد، ومع اعتزازي بقوميّتي وافتخاري بعربيّتي، فإني لا أستطيع أن أكون مسلماً... كما أن كثيرين منهم، مع مروفتهم من الدين وتقلّبهم بين المسيحيين، وتخرجهم في مدارسهم واحتكاكهم بهم واطلاعهم على الآداب الغربية، فإنهم لا يزالون مسلمين... اليوم علمت الخواجا شارل أيوب لأول مرة. وبعد الظهر خرجنا في جنازة اسحق أفندي أبو السعود محامي دير الروم. مات فجأة في مقتبل العمر.

السبت في ١٤ ت ٢ غ سنة ١٩١٤م

جاء في تلغرافات الشركة العثمانية، أن قد صدرت الإرادة السنية باعتبار البلاد العثمانية في حالة حرب مع روسيا وإنكلترا وفرنسا، وقد ورد فيها أن الإنكليز لم يزالوا من أمد بعيد، يحاولون القضاء على العالم

الإسلامي وتقويض عرش الخلافة، عملاً بقول غلادستون^(٢٥)، الذي قال على زعمهم «لا يتم السلام في العالم إلا إذا أزيل القرآن منه».. هذه ليست أول مرة تستخدم السياسة الدين آلة لأغراضها... أشيع أمس واليوم أن الفرنسيين استولوا على [مدينة] متس الألمانية، ويقولون أن قد وردت رسالة من أحد الجنود الفرنسيين إلى أهله في القدس من متس، وعليها طابع فرنساوي، وأشيع أن اليوم ميعاد محاصرة الإنكليز لبلادنا بحرا... ورد أمر بطلب الضباط الألمان في الجيش العثماني على حدود مصر إلى الشام... يقال: إنه أجزى لقنصلي إنكلترا وفرنسا أن يسافرا وحدهما دون قنصل روسيا...

الأحد في ١٥ ت ٢ غ سنة ١٩١٤م

قمنا صباحاً باكراً جدا علي زقزقة سري وتقلبه في سريره، فخرجت إلى الهواء الطلق ولعبت العايبي المختلفة مكشوف الرأس حافيا ما يزيد على الساعة... إذا كانت السعادة في الصحة والنشاط، فإني أسعد خلق الله... فإن ما أجده من اللذة في العايبي وفي شعوري بما أجده كل يوم من القوة، وما أكتسبه من النشاط لا يفوقها لذة... ومما يزيدني لذة وسرورا وغبطة وسعادة، أن سلطانة لا تقل عني شغفا بالعابها واستحمامها، فهي لا تزداد مع الأيام إلا رشاقة ونشاطا وجمالا ورواء، مما يجعلها جديرة أن تحمل اسم سلطانة... أما سري فهو تاج سعادتنا وعنوان فخرنا. أما جسمه فينمو كل يوم، وأما ذكاؤه فإني أرى كل يوم من علامته وإماراته ما يدهشني، وسأخصص له فصلا في يوميتي هذه، أوفيه حقه فيه من الوصف والبيان قريبا إن شاء الله... بعد أن نومنا سرياً في سريره وتركناه إلى عهدة المريية جوليا مزهر، نزلنا إلى البلد وكان الطقس جميلاً، فزرننا بيت عمي طناس وابنة عمي حنة، ثم عرجنا على بيت شكري ديب نهنته بمولوده الجديد. لا أقابل سلطانة غيرها، إلا غبطت نفسي أنها لي، ولعلها إن قابلتني بغيري من رجال القدس، غبطت نفسها أني لها. أما أنت يا سري فستفخر في المستقبل بأبويك كما يفخران بك، ولكن لا يفك أن هذا الكلام كله تأثير كأس خمر شربها أبوك قبل العشاء...

يقال: إن قنصلي إنكلترا وفرنسا في القدس سيسافران غداً... طلب اليوم كثيرون من أصحاب الأعدار من أبناء الملة الارثوذكسية للخدمة العسكرية، فأراد البعض أن يدفعوا بدلاً منهم فلم يجابوا إلى طلبهم... إذا طلبت للخدمة العسكرية، فإما أن تدفع بذلك أو تذهب إلى الخدمة ساكناً صابراً بدون أن تزعب أحداً... فإذا قدرت لك السلامة، رجعت قوياً نشيطاً مستوفياً شرائط الرجولية، وإذا مت في ساحة القتال، فلست أول من مات، والسلام...

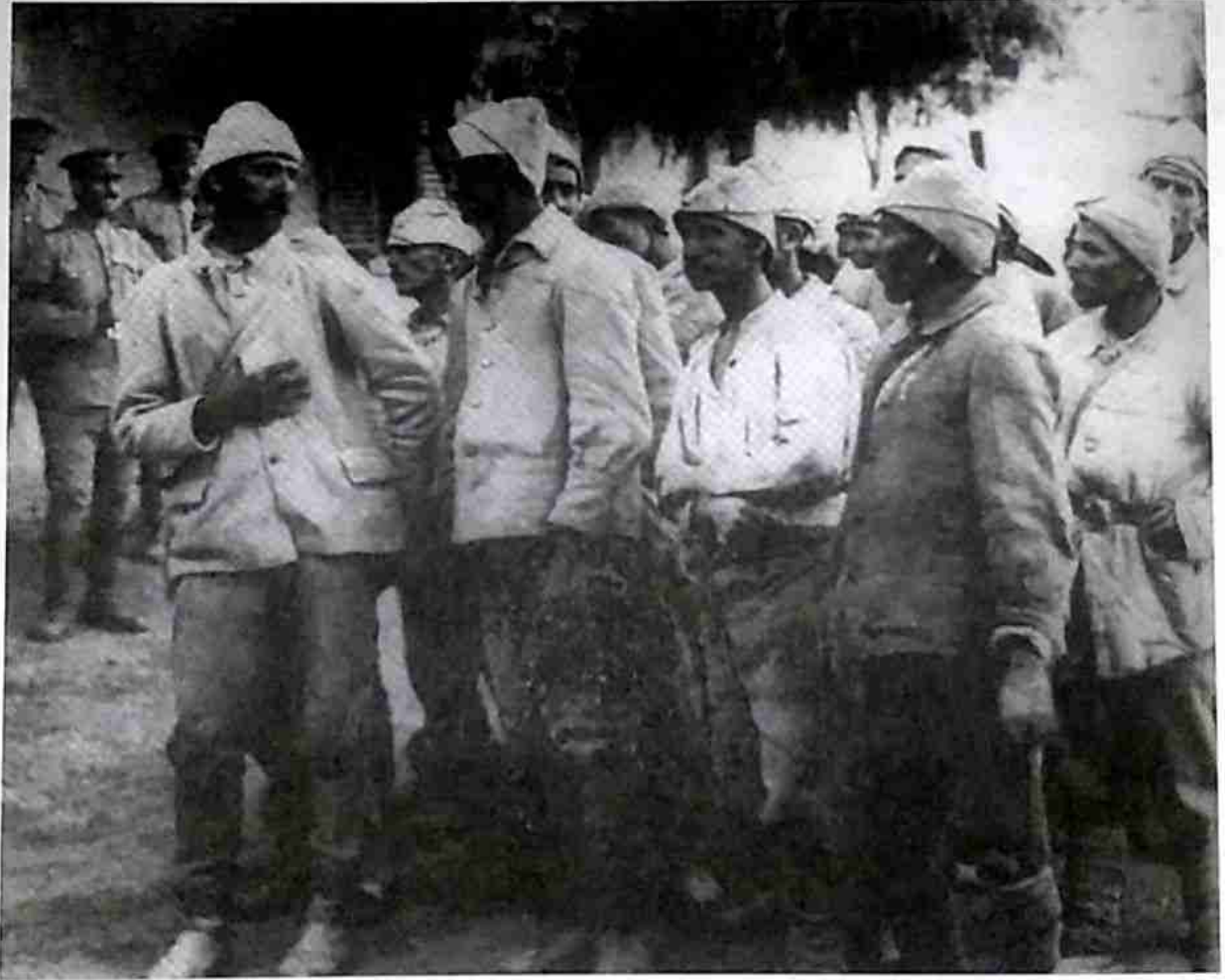
(٢٥) غلادستون، هو رئيس وزراء بريطانيا، آنذاك.

الاثنين في ١٦ ت ٢ غ سنة ١٩١٤م

سافر اليوم في قطار الظهر قنصلا انكلترا وفرنسا إلى يافا ليركبا البحر إلى بلادهما ، أما بقية الرعاية الأجنبية فهي رهينة عند الحكومة العثمانية ، حتى إذا تعدى الأسطول الانكليزي على أحد الثغور العثمانية الغير محصنة^(٢٦) ، انتقمت الحكومة العثمانية من الأجانب في بلادها ، هذا ما كتبه الجرائد وأذاعته التلغرافات العثمانية على ما يقولون ، لأنني لم أقرأ شيئاً بهذا المعنى . . . ورد في تلغرافات الشركة العثمانية اليوم أن جلالة السلطان أصدر إرادته السنية بدعوة المسلمين في العالم كله إلى الجهاد . . . خرج الطبيب الانكليزي Dr Stirling في غزة من السجن وجاء إلى القدس . وأما Mr Forder فلا يزال مسجوناً في الثكنة العسكرية . لا أنظر في الحياة في هذه الأيام إلا تكشف لي عن طوائف فارغة . . . (١) إنها قصيرة جداً . كنت إذا التفت ورائي قبل اليوم أحسب أن المسافة التي قطعتها من الحياة طويلة جداً ، وأن الأدوار التي جزتها : الطفولية والصبوة والشبيبة ، كل دور منها استغرق سنين طويلاً . ولكن يوم ولد سري رأيت الحياة قصيرة ، خرج إلى العالم كتلة لحم ولم يمر عليه الأسبوع الأول ، حتى أخذ يظهر شكله ولونه وتبدو ملامحه ثم أخذ ينمو وتنبه قواه العقلية فصار يزقزق ويتحرك ويتعرف ما حوله ثم برزت أسنانه وصار يأكل ، ثم غداً يصير صبياً يتكلم ويلعب ويرضى ويغضب ويأكل ويشرب ، ثم يذهب إلى المدرسة فيتعلم ، ثم لا نلبث أن نراه شاباً ، ثم ينبت شارباه ولحيته ، ثم يتغضن وجهه ويبيض شعره أو يسقط فيصلع ، ثم يضعف جسده وترتخي أعصابه ثم يشيخ ثم يموت ، بل أن كثيرين من تلاميذي الذين كانوا عندي يوم اشتغلت بالتعليم خرجوا من عندي وذهبوا إلى مدارس أخرى ، ولم أعد أراهم كما لا أتذكرهم إلا اطفالاً . واليوم أسمع أنهم طلبوا للخدمة العسكرية ، وحين كنت التقي بعضهم اتفاقاً ، أراهم قد صاروا رجالاً فأعجب لسرعة نموهم ، على حين أشعر من نفسي أنني لم أدرك سن الرجال إلا بعد أن طال في هذه الحياة مقامي . . . على أنه كيفما كانت الحياة قصيرة أو طويلة فإنها تنتهي بالموت ، وكل شيء بلغ الحد انتهى ولذلك فهي لا تستحق أن يشاق إليها أو يؤسف عليها .

(٢) ليست الحياة أمراً عظيماً ولا سراً مكتوماً ولا هبة سماوية أو أعجوبة أرضية ، فإذا شاءت أمة كثرة العدد فليتزوج رجالها بنسائها وليعددوا الزوجات ، فلا يمضي زمان طويل عليها حتى يصبح نسلها كرمل البحر أو كنجوم السماء . إن هذه الألوف التي تسقط في ساحات القتال أو التي تهلكها الأمراض والأوبئة ليس أسهل من تعويضها ، فإن مواليد سنة واحدة تسدّ هذا النقص . قد يخسر الإنسان شيئاً زهيداً في هذه الحياة فلا يستطيع الاعتياض عنه ، قد يهدم بيته فلا يستطيع أن يبنيه أو قد يفقد رأس ماله فلا يستطيع تجديده أو يخسر

(٢٦) الغير محصنة ، خطأ لفة ، والصحيح غير المحصنة ، حيث لا تدخل آل التعريف على «غير» لايفالها في الإهام .



مجموعة سجناء يحرسهم جنود عثمانيون بدايات القرن الماضي . المجموعة الجوهريّة - مؤسسة
الدراسات الفلسطينية - بيروت

مركه فلا يستطيع استرجاعه وأما النسل فما أهون الحصول عليه . إن الفقير الذي لا يستطيع أن يجد قوته ، قد يتزوج فيرزق عدة أولاد ، والرجل الخامل الجاهل الذي لا يستطيع عملاً ولا يحسن تدبيراً ولا يملك من العقل ذرة قد يتزوج فيرزق بنات وبنين ، بل الأعمى والأعرج والأخرس والأطرش والمقعّد والمفلوج والمسلول وغيرهم من أصحاب العاهات والأمراض الذين لا يصلحون للحياة قد يتزوجون بنساء مثلهم ، ثم لا يلبثون أن تكتظ بيوتهم بالأولاد ، فهل تعد الحياة بعد ذلك أمراً عظيماً؟

(٣) لا غرض لها . . نأكل ونشرب لنحيا ، ولكن نحيا لماذا؟ الغرض من الحياة كالغرض من كل الموجودات لم يهتد أحد إلى معرفته ، فقد قسم العلماء البحث العلمي إلى ثلاثة أقسام ، البحث عن الماهية والبحث عن الكيفية والبحث عن الغاية ، وإلى اليوم لم يتجاوزوا البحث الأولين ، أي عرفوا ماهية الموجودات وكيفية وجودها ، وأما غاية وجودها فلم يهتدوا إلى وجهها على الإطلاق ، بل منهم من يحسب ذلك عقيماً لا فائدة منه . . . والحياة بدون غرض لا معنى لها ، بل هي عبء ثقيل .

(٤) سريعة العطب ، مهما كان الإنسان قوي الجسم صحيح البنية تقيّ الدم ، فإنه لا يأمن ضربة شمس أو هبة هواء أو عثرة رجل أو ميكروب مرض من الأمراض ، يدخل جسمه من لسعة برغوث أو بعوضة أو يستنشقه مع الهواء أو يشربه مع الماء ، أو يعلق به من ملامسة مريض ، كما لا يأمن الموت قتلاً أو سحقاً أو غرقاً أو حرقاً أو خنقاً أو تسمماً أو جوعاً أو همماً أو عطشاً أو تعباً ، بل قد تؤدي به الراحة إلى غير ذلك من الأسباب والعوارض المعروفة وغير المعروفة ، مما يجعل الحياة سريعة العطب قريبة الزوال .

(٥) كثيرة التعب والآلام وافرة الشقاء ، لا ينعم الإنسان بها يوماً إلا شقي أياماً . . ولكل دور من أدوار الحياة أتعاب وآلام خصوصية .

(٦) كل سراتها واطئة صيانية لا قيمة لها بحدّ ذاتها ، ومع ذلك فإنها نادرة بعيدة المنال لا ينالها واحد حتى يخسرها ألوف .

ومع ذلك فإنني راغب في الحياة مقبل عليها مغتبط بها . ولعل الفضل في ذلك راجع إلى ما فيّ من القوى الحيوية في جسدي وعقلي ونفسي ، على أنني لا أتمثل في هذه الحياة إلا بقول المتنبّي :

لا تلق دهرك إلا غير مكترثٍ ما دام يصحب فيه روحك البدنُ

يوم الثلاثاء في ١٧ ت ٢ غ سنة ١٩١٤م

ورد في تلغرافات الشركة العثمانية أن قد صدرت فتوى الجهاد ، فوقع ما كنا نحاذره ونخشاه ، فلا حول ولا قوة إلا بالله . . سمعت اليوم أن بضعة ألوف من الأكراد في الشام تطوعوا وذهبوا إلى الحدود المصرية تحت

إمرة عبد الرحمان اليوسف ، وأن ابن عبد القادر الجزائري جمع ألوفاً من المغاربة وذهب بهم إلى حدود مصر أيضاً ، وقد فعل مثلهما الأمير شكيب أرسلان فجمع ألوفاً من متطوعي الدروز وزحف بهم معهم .
بلغني أن أحد النمساويين في يافا ، قال : إذا أعلن الجهاد الديني فإنني أتطوع في قتل خمسين مسيحياً من مسيحيي يافا . . طلبت الحكومة من الناس أن يقدم كل واحد لها صندوق كاز فارغاً وصفيحتين فارغتين وكيسين من الخيش . . أشيع اليوم أن الباخرة الإيطالية التي رست في يافا أمس نقلت خيراً مفاده ، أن الروس أسروا من الألمان في المواقع الأخيرة مئة وخمسين ألفاً ، وأن الفرنسيين أخرجوا الألمان من بلجيكا ، والله أعلم .

يوم الأربعاء في ١٨ ت ٢ غ سنة ١٩١٤م

خرج المنادي يدعو الناس إلى اجتماع عمومي في باحة الحرم الشريف للاحتجاج على روسيا وانكلترا وفرنسا والدعاء للدولة العثمانية ومحالفها بالنصر ، فأقفلت المدينة وطاف الشبان المسلمون والمسيحيون بأعلامهم في المدينة ، ثم نزلوا إلى الحرم مسلمين ومسيحيين واسرائيليين ، فخطب فيهم المفتي [كامل أفندي الحسيني] وقومندان الموقع ، ثم ترجم خطاب القومندان الشيخ عبد القادر المزغر ، ومن هناك ذهبوا إلى الثكنة العسكرية ، ثم خرجوا من باب الخليل وقنصلا ألمانيا والنمسا في عربة أمام الجمع . . فاتفق أني كنت قريباً من باب الخليل فتبعت القوم فلما وصل الموكب إلى أول العمارة الروسية ، وقف الشيخ عبد القادر المزغر ، وقال : هذا معهد الدولة الظالمة الجائرة الملعونة . . كم أساء هذا المعهد إلى العثمانيين ، إلى الإنسانية ، إلى المسلمين ، لتسقط هذه الدولة ولتحى الدولة الألمانية ، ثم كأن بعض الممرضات الروسيات أطلن من نوافذ المستشفى الروسي ليتفرجن فرفع كثيرون من الحشد عصيهم وجعلوا يهددونهن . . ثم سار الموكب والموسيقى العسكرية تتقدمه إلى دار قنصلاتو ألمانيا ، حيث وقف قنصل ألمانيا على جناح الدار ، وخطب في القوم خطاباً تركيا أعرب فيه عن علائق الوداد بين تركيا وألمانيا من قديم الزمان ، ثم شكر عواطف الأمة العثمانية نحو الأمة الألمانية وتمنى النصر على الأعداء ، ولما انتهى من كلامه انبرى الشيخ عبد القادر المزغر بترجمته ثم زاد عليه من عنده فجعل يلعن انكلترا وروسيا وفرنسا ، ويشي على ألمانيا نصيرة الإنسانية ، ثم خرج الناس وساروا إلى دار قنصلاتو النمسا .

أما أنا فتركهم وذهبت إلى المدرسة ثم نزلت إلى البلد ، وكان الموكب قد وصل في رجوعه إلى المنتدى العسكري داخل باب الخليل ، فصعد الشيخ عبد القادر المزغر خطيب الموكب ووقف على جناح المنتدى ، واستأنف الخطابة وجعل يحث الناس على التطوع في الجهاد والأغنياء منهم على التبرع بالمساعدات المالية ، ولا بد لي قبل أن أمسح القلم من كتابة وقائع هذا اليوم أن أشير إلى بعض ملاحظات عنت لي^(١) كانت الحكومة العثمانية تهدد أوروبا بإعلان الجهاد الديني ، ولم تعلم أوروبا مبلغ هذه الدعوة من الخطر ، لأن

الحكومة العثمانية كانت تهدد بها ولم تعلنها قبل اليوم، فإذا استفادت اليوم الحكومة العثمانية من هذه الدعوة، ثبت خطرهما وإلا سقطت أهميتها ولم يعد أحد يعبأ بها . . (٢) لو انفردت الحكومة العثمانية في هذه الحرب فلربما راجت هذه الدعوة، ولكن كيف تدعو إلى الجهاد الديني وهي تحارب مع دولتين مسيحيين جنبا إلى جنب . (٣) لو كانت الخدمة العسكرية مقصورة على المسلمين دون المسيحيين والاسرائيليين لصحت هذه الدعوة، ولكن كيف يعتقد الجندي المسلم أنه مجاهد ويرى إلى جانبه الجندي المسيحي والاسرائيلي . (٤) كانت تصح هذه الدعوة لو كانت الدول المسيحية هي البادئة بالعدوان، أما وقد كانت الدولة العثمانية هي التي دخلت غمار هذه الحرب لغير سبب إلا مساعدتها لألمانيا والنمسا، فمن المنتظر أن لا يكون لهذه الدعوة الأثر المطلوب . (٥) يظهر من الروح الجديدة التي دبت في تركيا أن العنصر التركي يحاول أن يؤسس دولة تركية عظيمة، فهو لا يهتم إلا لنفسه، وقد قال أحد رجاله في محاضرة ألقاها في شهر رمضان الفائت في أحد منتديات الاستانة «أنا تركي أولاً ثم مسلم»، إن اسلاميتي قد أغيرها وأعتنق مذهبا آخر وأما تركيتي فلا، فالدعوة إلى الجهاد الديني اليوم لا يقصد بها إلا الدفاع عن العنصر التركي، وتأييد سلطته، لا الدفاع عن الدين الاسلامي . (٦) إن الدعوة إلى الجهاد الديني، قد تضر بالعالم الاسلامي أكثر من غيره، لأنها قد تدعو الدول المسيحية إلى دعوة دينية مثلها فتجد الدول المتحايدة [=ملتزمة الحياد] الكبيرة والصغيرة سبباً للدخول في هذه الحرب، أضف إلى ذلك أن الدعوة إلى الجهاد الديني، قد تصرف العالم الاسلامي عن اتخاذ الأسباب الحقيقية للتقدم . (٧) إن هذا العصر الذي انتشرت فيه المدنية الأوروبية وتبتهت العاطفة الوطنية، ونزع فيه كل عنصر إلى الاستقلال بنفسه لا تروج فيه مثل هذه الدعوة . (٨) أضف إلى كل ذلك ما تقيمه الدول المعادية لتركيا من الحواجز دون انتشار هذه الدعوة، وما تتخذه من الاحتياطات دون تحقيقها . . . ولا أستطيع إلا أن أقف القلم هنا دون كتابة بقية ملاحظاتي، إذ لا يتسع الوقت لها .

الخميس في ١٩ ت ٢ غ سنة ١٩١٤م

يقال: إن المفتي كامل أفندي الحسيني، قال في أثناء خطابه أمس: إن المقصود من الجهاد الدفاع عن الوطن، وإذا كنا نحارب روسيا وفرنسا وانكلترا فإننا نحارب جنودهم في ساحات القتال، وليس المقيمون منهم بين أظهرنا، فهؤلاء لا يجوز أن يتعرض لهم بسوء . لا شك أن ذلك غاية في كرم الأخلاق .

الجمعة في ٢٠ ت ٢ غ سنة ١٩١٤م

رجعت في المساء إلى البيت، فبشرتني سلطنة أن سريراً مشى اليوم لأول مرة بضع خطوات وحده .

فأخذته بين يديّ وقبلته وداعبته ثم أوقفناه ووقفنا بعيداً عنه ، وجعلنا نناديه فاندفع يمشي نحو أمه وهو يضحك ، كأنه مسرور لسرورنا أو مفتخر بعمله . بلغ من العمر اليوم سنة وشهرين وستة أيام . أشيع اليوم نقلاً عن الباخرة الإيطالية في يافا أن الروس أخذوا برزمسل وهم يحاصرون اليوم كراكوف ، وأن الفرنسيين استرجعوا ليل ، وأنهم أخرجوا الألمان من فرنسا ، وأن الإنكليز أخذوا أوستند وأن في الاستانة ثورة ضد الحرب ، وأن الثائرين أطلقوا الرصاص على سفارة ألمانيا ، وألقوا قنبلة على أنور وحاشيته ، فقتل منهم سبعة وكلهم من الألمانين ، أما أنور فجرح جرحاً خفيفاً . أخذت الحكومة اليوم دار كتسليار الروس ومستخدمي القنصلاتو ، وجعلتها دائرة للبوليس . وصل إلى القدس من حمص جمال عديدة تحمل أقواتاً . ويقال أن وراءهم عدداً كبيراً من الجند باتوا الليلة في البيرة .

السبت في ٢١ ت ٢ غ سنة ١٩١٤م

عطلت مدرسة الفرير ، ويقال : إنهم سينقلون إليها المكتب السلطاني ، وقد سمعت أنهم سيعطلون سائر المدارس الأجنبية ما عدا المدارس الألمانية ، فإن صح ذلك فلا بد أن يأتي إلى مدرستي كليون من الأولاد ، ولذلك عزمت أن أهتم بها اهتماماً كبيراً وربما كتبت إلى عادل أفندي جبر بالحضور ليتولى تدريس اللغة الفرنسية ، التقت بسعيد أفندي الحسيني وراغب بك نشاشيبي مبعوثي القدس ، فوعد كل منهما أن يرسل إلي عدة أولاد يوم الاثنين . . وما أصدق قول الشاعر أبي الطيب [المتنبى] : مصائب قوم عند قوم فوائد

.....

يقال : إن هولاندا وإيطاليا ستدخلان الحرب ضد ألمانيا ، وإن الفرنسيين مع حلفائهم استرجعوا أنفوس . . سمعت اليوم أن الحكومة اكتشفت مؤامرة بين الضباط في القدس بقصد التمرد والعصيان إذا سيقوا إلى الحرب ، وقيل بقصد طلب الاستقلال ، ولكنني لم أعرف هذا الخبر ثقتي لأنه يظهر لي أنه بعيد الوقوع . . رزق اليوم حسين أفندي سليم الحسيني رئيس البلدية ولده الثاني . . كنت قرأت قبل اليوم أنهم لاحظوا أن المواليد بعد الحرب السبعينية^(٢٧) أكثرهم ذكور ، وقد رأيت أن أكثر مواليد هذه الأيام ذكور أيضاً ، فقد رزق كل من يعقوب فراج وشكري ديب وجيل عبدو وحسين سليم غلاما .

الأحد في ٢٢ ت ٢ غ سنة ١٩١٤م

ورد أمر بتعطيل مدارس الإنكليز والفرنسيين والروس ، وإذا ضاقت مدارس الحكومة أو المدارس الخصوصية

(٢٧) الحرب السبعينية : حرب ١٨٧٦ - ١٨٧٨ بين روسيا ودول البلقان من جهة والدول العثمانية من جهة أخرى ، وقد تكبد العثمانيون فيها خسائر فادحة في النفوس وفي الأراضي .

الوطنية بأولادها تعطى إحدى المدارس الأجنبية بأدواتها ومقاعدتها ، وقد قمنا هذا الصباح ، وبعض رجال البوليس يراقبون محلتنا [= حارتنا] لأن أكثر المدارس الانكليزية فيها . . خرج المنادي اليوم يعلن العفو عن المساجين الذين هم في سن العسكرية مهما كان جرمهم ، والهاربين من الخدمة العسكرية مع امهالهم ثلاثين يوماً من تاريخ هذا الإعلان . . يقال : إن الخديوي الجديد الذي عينه الانكليز صرح في خطابه يوم تعيينه أن فلسطين من أملاك مصر القديمة . تحققت اليوم أن الحكومة اعتقلت أحد الضباط واسمه حلمي أفندي بتهمة سياسية فيما يتعلق بالعرب والترك ، وأوقفت معه كثيرين من بعض شبان المسلمين ، وقد اشتبهت بعلي أفندي النشاشيبي لأنهم يزعمون أنهم رأوه يمشي مع حلمي أفندي أو أنه يسهر عنده ، فاستنطقوه ثم اطلقوا سراحه ، ويقال : أن لعبد القادر المزغريدا في هذه المسألة .

الاثنين في ٢٣ ت ٢ غ سنة ١٩١٤م

عطلت الحكومة اليوم مدرسة مطران الانكليز المعروفة بـ St. George's . . زارني في المدرسة الدستورية هذا الصباح سعيد أفندي الحسيني وأنور بك المحاسبجي القديم ، واقترحا علي أن أزيد صفوف مدرستي وأطبق بروغرامها على بروغرام مدرسة الفرير ، وأن أعنى باللغة الافرنسية ، وأن أدبر لها أساتذة مقتدرين ، فيقبل على مدرستي أكثر تلامذة مدرسة الفرير ، فقررت أن أكتب إلى عادل أفندي جبر ثم ذكر لي سعيد أفندي شارل أيوب بن الخواجا سليم أيوب ، وقال : أنا ذاهب الآن لأواجه أباه بهذا الخصوص ، وقبل أن ينصرفا أمهلاني أسبوعاً ريثما أتمكن من تدبير كل شيء . . جاءني اليوم تلاميذ كثيرون من مدرسة الفرير ومدرسة المطران ، ثم زارني راغب بك النشاشيبي وأحضر بعض التلامذة . . ثم لما كان الأمر الصادر بتعطيل المدارس الأجنبية قد جاء فيه أن المدارس التي تضيق بتلامذتها تعطى إحدى المدارس الاجنبية ، رأيت أن أطلب مدرسة المطران لا لحاجتي إليها ، ولو احتجتها فإني أجل نفسي أن أستفيد من مثل هذه الأحوال ، ولكن بقصد خدمة مدرسة المطران لئلا يستعملوها ككلية عسكرية ، أو أن يطلبها الشيخ محمد صالح أو غيره فيسيء استعمالها ، وقبل أن أطلب ذلك من المتصرف رأيت أن أراجع مستر رينولدس Mr Reynolds وأعرض عليه الأمر ، فاجتمع مع القسيس Nick فاستحسنوا اقتراحي وشكروني عليه ، فنزلت حالا إلى البلد واستشرت حسين أفندي سليم وراغب بك النشاشيبي فقالا سندبرها لك . . قابلت سليم أيوب فارتاح إلى طلبي ووعد أن يقدم لي ابنه كأستاذ للغة الإفرنسية . . أما من جهة الرسم فقد رأيت أن أرفع رسم التلاميذ الجدد لأتمكن من القيام بالنفقات الجديدة . . أشيع اليوم أن الروس أخذوا كراكوف وزحفوا على بوزن وأن الفرنسيين دخلوا الأراضي الألمانية .

الثلاثاء في ٢٤ ت ٢ غ سنة ١٩١٤م

جعل الأولاد يتهافون على المدرسة، وجعل الوالدون يسألونني عن البروغرام والأساتذة، فأمهلم أسبوعاً ريثما أهيء كل شيء .. وعدني مدير المعارف أن يعطيني الجواب النهائي بخصوص مدرسة المطران في يومين أو ثلاثة، وجعل كثيرون يطلبون شغلاً، هذا كأستاذ للغة العربية وهذا للغة الانكليزية وذلك كمدير، ولكن قررت أن استقل بعلمي، أتصرف به كما أشاء، وإذا حضر عادل جبر وجدت فيه أكبر مساعد.

الأربعاء في ٢٥ ت ٢ غ سنة ١٩١٤م

قابلت حسين أفندي سليم صباحاً، فأشار عليّ أن أقدم استدعاءً إلى المتصرف بطلب إحدى المدارس الاجنبية لأنقل إليها مدرستي ففعلت، فأحالني المتصرف إلى مدير المعارف، وكان حسين أفندي سليم جالساً مع المتصرف حين قدمت استدعائي فخاطبه بشأني .. أخذت رسالة من عادل أفندي جبر يلبي فيها طلبي، وانه سيجيء يوم الجمعة، فسرتت كثيراً وتفاءلت خيراً. لا يزال الأولاد يتدققون على المدرسة فأمهلم إلى يوم الاثنين .. لست أجهل أنه إذا انتهت الحرب ورجعت المياه إلى مجاريها وفتحت المدارس الأجنبية أن الناس يرجعون أولادهم إليها، لأن ثقتهم بالمدارس الوطنية ضعيفة، ولكن أرجو إذا وفرت وسائل التعليم والتربية في مدرستي واستطعت أن أكتسب ثقة الأهالي من الآن إلى أن تنتهي الحرب، فلا بد أن كثيرين يعيرونني ثقتهم ويتركون أولادهم عندي .. لأسباب، أولاً: لأن مدرستي لا تتعرض لأحد في دينه. ثانياً لأنها تعنى باللغة العربية أكثر من كل مدرسة، ثالثاً: لأن غرضها من التربية إشراب التلاميذ روح الاستقلال وتنشئتهم على العزة والأفنة والرجولية. رابعاً: لأن المعلمين عندي أحسن من أكثر معلمي المدارس الأجنبية، التي تلفق المعلمين تليفقاً اعتماداً على ثقة الأهالي بها.

من يوم الخميس في ٢٦ ت ٢ إلى يوم الخميس في ١٠ ك ١ غ سنة ١٩١٤م

انقطعت عن الكتابة كل هذه المدة لاهتمامي بمدرستي، وسأقتصر على ذكر أهم ما يحضرنني:

١- بعد أن سعيت في أخذ مدرسة المطران وتخطيت كل العوائق، وكدت أخذها، قررت أن أبقى في مدرستي لأسباب أهمها: (١-١) قد تحسب الحكومة من تلقاء ذاتها أو بسعاية بعض المفسدين أن هناك اتفاقاً بيني وبين الانكليز، على أن أفتح مدرستهم تحت اسم مدرستي، وأني أجنبي النزعة .. الخ، كما قد يحسب الانكليز أنني إنما سعيت في أخذ مدرسة المطران عملاً بقول الشاعر، مصائب قوم عند قوم فوائد،

وأنى ممن يعيشون بالاغتصاب والنهب والسلب أو من يشمتون بالناس ويغتمون الفرص للاعتداء عليهم والنكاية بهم، إلى غير ذلك مما أترفع عنه وأتعالى علياً كبيراً. (١-٢) لأن الحكومة قد تحتاج إلى هذه المدرسة فتخرجني منها فأعرض نفسي للسخرية والهزؤ، وأضطر إلى الرجوع إلى مدرستي، فبقائي فيها أولى وأفضل. (١-٣) مهما طالت الحرب فلا بد أن تنتهي ثم ترجع المياه إلى مجاريها فيتقاضاني الإنكليز أنفسهم الخروج منها، وربما طالبوني بغرم عن لوح زجاج انكسر أو رشاشة حبر على مقعد أو حائط. ثم ما أدراني أن قد تآذن الحكومة نفسها بفتح المدارس الأجنبية بعد شهر، فأتحمل كلفة النقل إلى مدرستي. (١-٤) بل ما أدراني أن الحكومة تضع علي شروط عمر بن الخطاب حين استلام المدرسة. لهذه الأسباب وغيرها فضلت أن أبقى في مدرستي ولا أقبل من التلامذة ما يزيد عما تسعه غرفها وصفوفها...

٢. يوم الاثنين الواقع في ٦ ك ١٤ غ سنة ١٩١٤

أصبح سري محموماً فحسبنا ذلك سبباً عن التسنين فأبقيناه في غرفة النوم، واستدعينا الدكتور نجيب جمل فطمأننا، وقال: هي نزلة رشح ووصف لنا أن نضع قدميه في الماء الحار، ثم جاءت مسس [زوجة] فستر السيدة بيرثا^(٢٨) جارتنا فأشارت على سلطانة أن تضع قطعة صوف على رقبته وصدرة، وأعطتنا دهنًا ندهن به صدره.. وفي الليل لم يسترح في نومه فسهرنا طول الليل نحمله تارة ونضعه في عربته أخرى إلى الصباح، فهبطت الحمى قليلاً ثم ارتفعت الحرارة بعد الظهر كثيراً، وجاوزت الدرجة الأربعين فصار ينتفض من وقت إلى آخر ويتشنج، فأرسلت اطلب عند المساء الدكتور أبو شديد فلم يجئ ثم طلبت الدكتور جمل فأعذر أنه لا يستطيع الخروج ليلاً لأنه لا يحمل وثيقة [= تصريح]، فقلت عسى أن يكون خيراً. وفي الساعة الثامنة زارنا الخواجا فستر وامرأته يعودان سريراً وكانت حماه مرتفعة جداً، على حين كانت أطرافه باردة كالثلج، فأرسلت السيدة زوجها إلى بيتهم يحضر قنينتي ماء حار لنضعهما بين رجليه، وقنينة كاكو مع خبز وزبدة لسلطانة لتأكل، فحمدت مروؤتهما وأثنت على إنسانيتهما. كانت السيدة بالأمس قد قدرت أن حمى سري سببه عن التهاب لوزيته، فلما رأته الآن على هذه الحالة، قالت: استدعوا طبيباً فحفظنا كثيراً وخرجت مع عادل أفندي جبر نقش عن طبيب، فخطر لنا أن ندعو Dr. Stirling طبيب المستشفى الإنكليزي في غزة النازل الآن في لوكدة Hansman فتركت عادل أفندي في اللوكدة ينتظره، وذهبت إلى نقطة البوليس بالقرب من حديقة البلدية أطلب وثيقة، فوجدت هناك بوليساً

(٢٨) شخصية معروفة في تاريخ القدس، وهي السيدة Bertha Vester Spafford، التي عاشت طويلاً مع الجالية الأمريكية، قريباً من بيوت آل الحسيني، ونشرت كتاباً مهماً عن حياتهما في القدس هو: Our Jerusalem: An American Family in the Holyland 1881-1949 (N.Y. 1950)

لا أعرفه فقال: أي طيب تطلب وكم ساعة تريد أن تأخذ، فقلت له: لا أستطيع أن أعين الطيب لأنني قد أذهب إلى الواحد فلا أجده وإذا وجدته فقد يعتذر عن الذهاب معي، ولا أستطيع أن أحدد الوقت لأنني إذا وجدت الطيب، فقد لا أجد الصيدلي، فأضطر أن أذهب من محل إلى آخر، ولست أدري كم يستغرق ذلك من الوقت، فخشي أن أكون أقصد خداعه وأني اخترعت مسألة الطيب والصيدلي لأتمكن من أخذ الوثيقة ثم أذهب حيث أشاء، فقال: لا أستطيع أن أعطيك وثيقة فيجب أن تنتظر حتى يجيء مدير البوليس أو قومسير النقطة، فقلت له: لا أنتظر دقيقة واحدة وأنا ذاهب لقضاء حاجتي والتبعة عليك وبعد علاج قليل خفض من غلوائه واعتذر وأعطاني الوثيقة، فرجعت مسرعاً إلى اللوكدة فوجدت عادل أفندي قد أخذ الطيب وسبقاني إلى البيت، فلما جئت إلى البيت وجدت الطيب قد فحص سرياً ووجد أن حمّاه سببه عن التهاب لوزتيه وأن ليس هناك ما يشغل البال، وأشار علينا أن نعطيه مسهلاً وواعد أن يزورنا غداً.. فاطمان بالنا وهدأ روعنا، ثم رجعت مع الطيب فأوصلته إلى اللوكدة. نامت عندنا حنة ابنة عمي وولدها نجيب.. لم يزل [سري] محموماً كل نهار الثلاثاء. عادة الدكتور سترلنك في الصباح وكنت قد تركت رسم العيادة مع عادل أفندي ليدفعه له، ولكنه رفض أن يأخذ شيئاً، وقال: إنما أجيء هنا كصديق وليس كطبيب، فشكروا مروءته، وبعد الظهر عند الساعة الخامسة، ذهبت مع عادل أفندي إلى لوكدة هانسمن وشكرنا الدكتور. في المساء ارتفعت حرارة سري وبع صوته قليلاً وجعل يسعل، فدخلنا الخوف وجعلنا نقدر أن النزلة امتدت إلى صدره فلم نم.. وفي صباح الأربعاء جاء الطيب فطمأننا وقال: هذه أعراض التهاب اللوزتين، وأن الحرارة ترتفع مع التهاب اللوزتين أكثر مما ترتفع مع أي مرض آخر... جعلت الحرارة تهبط.. وتحسن نوم سري وصار يشرب قليلاً من الحليب.. فتنفسنا الصعداء وحمدنا الله.. لم أشعر منذ ولد سري أنني أب كما شعرت هذين اليومين.. كنت حين أرى سرياً ملتمى في فراشه يتململ من الحمى، أحس كأن أحداً أخذ يخنقني، ولم أكن أستطيع الكلام لثلا أبكي، ولم أكن أنظر إلى سلطانة إلا رأيت عينيها مغرورقتين بالدموع، وكم تمنيت لو أكون طبيباً بل شعرت بحاجة الناس عموماً إلى معرفة مبادئ الطب، وأن من واجب المدارس أن تدرس مبادئ الطب في كل صفوفها، كما تدرس الحساب والقراءة والكتابة.. وما جاء يوم الخميس إلا وقد زابت الحمى سرياً وعاوده سروره، فالحمد لله.

من يوم الجمعة في ١١ ك إلى يوم الجمعة في ١٨ ك غ سنة ١٩١٤ م
(١) أرسلت الحكومة كثيرين من رهبان الروس ورهبان الفرنسيين في عربات إلى دمشق الشام، أما

الانكليز فقد أجلت إرسالهم إلى يوم الأحد القادم .

(٢) يوم الثلاثاء الواقع في ١٥ ك ١٥ أطلت دارعة^(٢٩) انكليزية على يافا ، ثم أنزلت طائرة مائة فسبحت على وجه الماء ، ثم طارت فوق يافا مدة ورجعت إلى الدارعة ، ويقال : إن بعض أفراد الجاندرمة أطلقوا عليها الرصاص فلم يصيبوها ، وكان عن ذلك أن الحكومة جعلت ترسل النساء والأولاد في قطر السكة الحديدية إلى الرملة واللد .

(٣) ساقى الحكومة يوسف العيسى من يافا إلى الشام إلى الديوان العرفي لمحاكمته ، لأنها وجدت مع بعض صناع المطبعة أوراقاً فيها أخبار منقولة عن المقطم ، فاتهم يوسف العيسى أنه هو الذي اعطى صنّاعه تلك الأخبار ليذيعوها في البلدة ، فعسى أن يخرج من هذه التهمة بريئاً .

(٤) استعدت القدس لاستقبال الجيش القادم من الشام وألفت لجنة للاهتمام باستقباله ، وقد عُينت من جملة أعضائها ، ولكني لم أحضر إلا اجتماعاً واحداً ، قبل قدومه بيومين أو ثلاثة رفعت الأعلام على أبواب المخازن وشرفات المنازل وأقيمت أقواس النصر ، ويوم الجمعة الواقع في ١٨ ك ١٨ غ سنة ١٩١٤م كان ميعاد قدومه فخرجت المدينة بأسرها وانتشرت على الطرق من قرب دار علي أفندي جار الله إلى باب الخليل ، وعند الساعة العاشرة بدأت طلائعه ، وكما بالقرب من الخيمة المضروبة في ذلك المحل ، فجعل الناس يهتفون ويصفقون بالأيدي ويلوحون بالأعلام وتلاميذ المدارس المختلفة ينشدون الأناشيد ، وبعد الظهر أخذت سلطنة وسرياً وخرجنا نمشي على طريق رام الله وكان الطقس جميلاً جداً ، ثم رجعنا فوقفنا في منزل الخواجا جون وايتنك أحد أفراد المستعمرة الأميركية ، وبنحو الساعة الخامسة قدم جمال بيك قائد الحملة [على مصر] في أتوموبيله ووراءه أتوموبيلان آخران فيهما أركان حربه ، وكان متصرف القدس ماجد بك جالسا بجانبه . . أما بقية الجيش فستوافد تباعاً . . إن هذه الأيام في تاريخ القدس لأيام مشهودة ، كيف التفت لا ترى إلا ضباطاً وجنداً وهجانة وخيالة وجمالاً تحمل المؤونة وقطع المدافع والرصاص ، وعربات تنقل معدات القتال ، وأتوموبيلات تروح وتجيء تصفر وفيها الضباط . . مع كرهني للحرب وقلقي مما نحن فيه من الضيق وما يتهددنا من الأخطار والمجاعات ، فإني مسرور أنني أدركت هذا الزمان . . إذا قرأ الناس في المستقبل عن حوادث هذه الأيام فإني من شهودها . وبا حبذا لو أستطيع أن أرافق الجيش إلى ساحات القتال فإذا مت فالخطب هين ، وإذا عشت عرفت ما لم أكن أعرف . ولكن أنى لي ذلك وليس [هناك] من يعول بيتي غيري .

(٢٩) الدارعة: البارجة الحربية .

السبت في ١٩ ك ١٤ غ سنة ١٩١٤م

اليوم عيد مولد سلطنة، إذا عشنا بعد هذه الحرب عدنا إلى احتفالاتنا وأعيادنا السابقة، وإلا فالسلام على الدنيا .. ورد أمر اليوم بالبقاء الانكليزي في القدس .. كان اليوم موعد مجيء [موكب العلم النبوي^(٣٠)]، ولكن ورد إشعار بأنه سيتأخر إلى الغد صباحا .. لا أزال أعتقد أن مهمة هذه الحملة على مصر شاقة، وأن ظفرها مشكوك فيه ... سمعت اليوم أن مطران الانكليز في القدس اللورد بلايث، الذي استقال من وظيفته قبل بضعة أشهر وذهب إلى بلاد الانكليز قد توفي .

الأحد في ٢٠ ك ١٤ غ سنة ١٩١٤م

لم تشرق الشمس إلا وقد خرجت القدس بأسرها لاستقبال العلم النبوي، فخرجت مع عادل أفندي جبر، وتركنا سلطنة في البيت لأن سرياً كان على وشك النوم. لقيت فخري أفندي الحسيني وأخاه الحاج أمين أفندي، فمشينا معاً على طريق رام الله حتى أطلنا على قرية شعفاط، حيث كانت كوكبة من الخيالة من القدس ولفتا وأبو غوش وبعض القرى المجاورة يلعبون على خيولهم. ولم نلبث قليلاً حتى أطل موكب العلم تقدمه ثلة من الفرسان وهم يهللون، فاشترك الناس في التهليل والتكبير، ثم جاؤوا إلى خيمة مضروبة أمام دار راغب بك النشاشيبي، حيث كان كبار المسلمين ووجهاؤهم ينتظرون العلم، فلما رآه الناس اندفعوا يقبلونه ويتبركون به وهم يزحمون بعضهم بعضاً ويضجون بالتهليل والتكبير، وكان جمال بك حاملاً العلم وإلى جانبه بعض الضباط من الألمان، ولست أدري ماذا كانت تأثيراتهم من ذلك المشهد، هل ضحكوا في سرهم من انحطاط الشرقيين أم استشفوا من وراء التكبير والتهليل قوة هائلة يستطيعون أن يعتمدوا عليها وليستفيدوا منها، ثم سار الموكب يتقدمه العلم والناس ينضمون إلى الموكب حتى صاروا أوفاً وكلهم يهللون ويكبرون .. وقبل أن يصلوا إلى الحرم كان اليهود قد وقفوا له على الطريق ليحيوه. أما أنا فقد كنت أنظر وأسمع وأفكر وسأقتصر هنا على بعض ما دار في خلدي وما تمثل لخاطري وما تراءى لناظري:

(١) لم يكن العلم قديماً بل كان جديداً كأنه صنع من عهد قريب جداً، فلم يشك أحد أنه لم يكن العلم النبوي، بل هو علم مرسل من الاساتنة إلى مكة.

(٢) كان الناس ينتظرون أن يروا بعض فرسان العرب على خيولهم الكرائم يحيطون بالعلم، ولكنهم لم يروا

(٣٠) العلم النبوي: عرف براءة النبي (محمد)، وهي إحدى الوسائل التي اتبعتها الدولة العثمانية لاثارة العواطف الدينية في نفوس المسلمين عبر القيام بمواكب واحتفالات تتاح فيها رؤية راية تنسب ملكيتها للنبي في المدينة المنورة ودمشق وبيت المقدس. وعمدت الدولة إلى نقل الراية أثناء الحرب الأولى مع الجيش العثماني ليترك بها.

إلا شيخاً يقال إنه مفتي الشافعية في مكة مع ولديه .

(٣) نشرت إحدى المجلات الأوروبية يوم حرب البلقان صورة تمثل البلغار والترك زاحفين إلى ساحات القتال، فالبلغار كانوا يذهبون في السكك الحديدية والترك مشياً على الأقدام، البلغار كانوا يركبون الخيول المطهمة الكبيرة المدربة، والترك كانوا يركبون خيول العربات التي جمعوها من الأستانة وغيرها، وهي خيول ضعيفة هزيلة صغيرة، ترى حصان هذا بدون لجام وحصان ذلك بدون ركاب وحصان ذلك بدون سرج . إلخ . البلغار كانوا ينقلون مدافعهم وكل معدات القتال في السكك الحديدية أو الأتوموبيلات، والترك كانوا ينقلونها على كارات تجرها الجواميس والثيران، إلى آخر ما هنالك من الفروق التي كانت من الأسباب المهمة في انتصار البلغار واندحار الترك . . . واليوم مع ما بذلته الدولة العثمانية من الجهد وما اتخذته من الاستعدادات والاحتياطات، فإنها لا تزال على حالتها يوم انتشبت حرب البلقان . . .

(٤) كان يقال: إن الشرق لا يعرف للوطنية معنى، ولكن العاطفة الدينية فيه شديدة التأثير، وكان الحكومة تعتقد ذلك بدليل إعلانها الجهاد الديني، ولكن من درس أحوال الشرق اليوم، يرى أن الانحطاط الذي صار إليه الشرق من أجيال، قد أفسد حتى هذه العاطفة الدينية. فلو استطاع المسلم أن يسرق هذا العلم وبيعه لما تأخر، وإن كان هناك من كانت عاطفتهم الدينية صحيحة قوية، فإنهم قليلون جداً .

يوم الاثنين في ٢١ ك ١ غ سنة ١٩١٤م

استأنفت اليوم اعطاء الخواجا شارل أيوب دروساً عربية، بعد أن انقطعت مدة طويلة بسبب إنهماكي في مدرستي، وكان في النية أن أستأنف الدرس مع سارة وعز الدين الشوا ومستر آيتر، ولكن أجلنا ذلك إلى ما بعد عيد الميلاد .

يوم الثلاثاء في ٢٢ ك ١ غ سنة ١٩١٤م

جاء اليوم إلى القدس أربعة مدافع كبيرة، تجرها خيول كبيرة أوروبية وجواميس، يجر المدفع الواحد ستة رؤوس من الخيل وجاموسان . أما ما دار في خلدي حين رأيته مارة من أمام منزل مسس واي فلا يتسع الوقت لكتابته .

الأربعاء في ٢٣ ك ١ غ سنة ١٩١٤م

مرّ عليّ عدة أيام، نحو اثني عشر يوماً وأنا أتألم من نيورالجيا في جانب وجهي الأيمن، وهذه ليست أول

مرة أصبت بهذه الآلام، ولعلها مسببة عن نخر في أسناني .. علمت اليوم شارل أيوب .

الخميس في ٢٤ ك ١٤ غ سنة ١٩١٤م

أهم حوادث هذا النهار ما يأتي :

(١) عزل قومندان الموقع زكي بك أو تقاعده أو نقله . وقد اختلف في سبب ذلك ، فمن الناس من يقول : لأنه كان مولعاً بالنساء إلى درجة التهتك ، وكان للنساء اليهوديات دخل في بعض إجراءاته ، ومنهم من يقول لأنه لم يكن يحب الألمان والله أعلم ، وقد عين في محله قومندان ألماني ، ويقال إن موعد مجيئه إلى القدس اليوم .

(٢) سفر الانكليز إلى يافا ومنها إلى بلادهم ، منهم مستر سايكس والدكتور ستارلنك والدكتور بترسن وغيرهم .

(٣) مرور فرق من الجيش قادمين من نابلس ومعهم استحكامات وجسور وقوارب نحو ثلاثين قارباً تجرها الجواميس .

(٤) ورد تلغراف من يوسف العيسى من دمشق الشام إلى أهله في يافا ، أن الديوان العرفي برأ ساحته ، فسررت لهذا الخبر .

الجمعة في ٢٥ ك ١٤ غ سنة ١٩١٤م

اليوم مات مفتي الشافعية الذي جاء من المدينة مع العلم النبوي ، فيكون قد عاش خمسة أيام في القدس ، ولعل الشيخوخة وتعب الطريق وبرد القدس في مثل هذه الأيام قضت عليه .

جاء قبل الظهر قسم من الجيش فخرجت القدس لاستقباله ، وكانت تلامذة المدارس تحمل أعلاماً وتنشد الأناشيد .. بلغني أن الشيخ محمد صالح قال في أحد المجالس : لماذا لم يخرج المعلم خليل مع تلامذته ، مع أن إدارة المعارف عينت له محلاً وبلغته ذلك ؟ .. يريد بذلك أن يطعن في وطنيتي وعثمانيتي لأنني زميله في المهنة .. لا شك أن اقدام تركيا على إعلان الحرب على روسيا وانكلترا وفرنسا وسائر محالفاتها ، ومبالغتها في الاستعداد ، ومحاولتها تذليل كل الصعوبات والعثرات في طريقها ، لا شك أن كل ذلك روح المانية ، ولكن لا يسع المنصف إلا أن يعترف أن العنصر التركي قد دبّ فيه الحياة ، وكنت أتمنى لو تدب الحياة في العنصر العربي ، فكم كنت اسرّ حين أرى التركي ومنه الضباط الكبار والفرسان ومثولو أمر المدافع والاستحكامات ، جاؤوا من أقاصي البلاد لتأييد سلطتهم والدفاع عنها ، على حين لم أكن أرى من العرب إلا

الجند وسواقي الجمال .. فهل قضي على العرب أن يكونوا أحط خلق الله . للتركي آمال هو ساع الآن في سيئها ، وأما العربي فلا آمال له .

السبت في ٢٦ ك ١ غ سنة ١٩١٤م

جاء إلى القدس اليوم مدافع كثيرة أصغر من تلك التي جاءت قبلاً ، ويقال : إنها نحو العشرين .. جاءت إلى يافا مدرعة أميركانية تحمل نقوداً لليهود ، ويقال : إن كثيرين من الإنكليز والفرنساويين والروس والايطاليان [=الطلليان] ركبوا فيها .. من جملتهم مستر رينولدس والقانون هتشنس وغيرهما .
جاء في تلغرافات الشركة العثمانية أن اياليا [كذا] ورومانيا اتفقتا ضد النمسا وألمانيا ، ولعل هذا يفسر اهتمام قنصل اياليا في القدس بتسفير التبعة [=الجالية] الإيطالية من رهبان وراهبات وغيرهم .

الأحد في ٢٧ ك ١ غ سنة ١٩١٤م

عقدنا صباحاً جلسة للمعلمين في بيت جرجي خميس ، ونظرنا في شؤون المدرسة ..

الاثنين في ٢٨ ك ١ غ سنة ١٩١٤م

علمت شارل أيوب ، وصف سارة ابنة خالي . يقال : إن اياليا ورومانيا أندرتا تركيا إذا هاجمت نصرانها تهاجمانها ، ويقال : إن آخر موعد الإنذار اليوم .

الثلاثاء في ٢٩ ك ١ غ سنة ١٩١٤م

يقال : إنه توقف سير الجيش إلى الجنوب لمدة شهر ، ولعل لهذا التوقيف علاقة بإنذار اياليا ورومانيا .

الأربعاء في ٣٠ ك ١ غ سنة ١٩١٤م

علمت شارل أيوب وصف سارة ابنة خالي . استعفيت من نظارة مدارس الروم قبل ثلاثة أشهر وفتحت مدرستي ، ومنذ ذلك اليوم لم يدخلني من واردات المدرسة غير نحو ليرتين فرنساويتين ، ومهما كثرت وارداتها فلا تكاد تكفي أجره للمعلمين وللدار ، وقد كنت قبل اليوم أعيش من دروسي الخصوصية فخسرتها درساً بعد درس ، حتى لم يبق عندي غير درس شارل أيوب وصف سارة ابنة خالي وكلاهما لا يتفعان غلة ..

الخميس في ٣١ ك ١ غ سنة ١٩١٤م

هذا آخر يوم من هذه السنة المشؤومة سنة ١٩١٤ وإذا كانت السنة الجديدة، مثل السنة الماضية سنة ١٩١٤ فلا مرحباً بها ولا سهلاً.. قابلت البطريرك داميانوس وطلبت منه أجرة أربعة أشهر بقيت لي عندهم، فاستمهنني إلى يوم السبت. أخذ دير الروم يعطي قمحاً بالدين لمن شاء من الطائفة، فعرضوا عليّ أن آخذ شيئاً فاستعدت بالله، وقلت: أفضل أن أتكف على قارعة الطريق من أن أحتاج دير الروم في شيء.. زارنا عمي اليوم بعد الظهر، وقد كنت أحب أن يعيش عندنا مدة من الزمان مع امرأة عمي فوعد أن يجيء بعد عيد الميلاد عند الشرقيين.

يوم الجمعة الواقع في أول كانون الثاني غ سنة ١٩١٥م

كان اليوم موعد مجيء المتطوعين عن طريق نابلس، فخرج الناس لاستقبالهم، وبسبب ذلك، ولأن اليوم الجمعة الأولى في الشهر عطلنا مدرستنا. ذهبنا قبل الظهر مع الأساتذة وبعض التلامذة، وكانت أختي ميليا معنا، ومشينا على طريق رام الله حتى كدنا نصل إلى الأكمة المطلّة على قرية شعفاط. وكان الناس منتشرين هنا وهناك لأن الطقس كان جميلاً، ثم رجعنا لأنه قيل: إنهم سيجيئون بعد الظهر.. وبعد الغداء خرجت أنا وعادل أفندي جبر والحاج أمين أفندي الحسيني^(٣١) حتى وصلنا إلى دار علي أفندي جار الله، حيث جلسنا ننظر.. ولم نلبث قليلاً حتى جاء المتطوعون وكان شيخهم وهو شنتيطي جالساً مع روشن بك في عربته ووراءه مشى المتطوعون اثنين اثنين لتظهر كثرتهم وكلهم من المغاربة، ولعلمهم نواطير الكروم في الشام وضواحيها. ألبسوهم أعبية جديدة وأعطوهم بنادق، وكانوا وهم يسيرون يضجون الله أكبر الله أكبر.. لست أظن أن الحكومة العثمانية مهما كانت مغترّة بنفسها أنها تعتمد على مثل هؤلاء.

يوم السبت ويوم الأحد في ٢ و ٣ ك ٢ غ سنة ١٩١٥م

تألّمت كثيراً من النيورالجيا فرأيت أن آوي إلى البيت وأجتنب البرد، فبلغني أن قد ورد تلغراف يبشر الأمة العثمانية بنجاح الجيوش العثمانية في معاركها مع روسيا، وأنهم أخذوا حصون أردهان، فيجب أن تعتبر الأمة

(٣١) الحاج أمين الحسيني: مفتي فلسطين ورئيس الهيئة العربية العليا، ولد في القدس، وتعلم فيها، وأكمل تعليمه في الأزهر، نادى بوجوب محاربة الحكم البريطاني والغزو الصهيوني، أسس «النادي العربي» الذي أسهم في تبلور الحركة الوطنية، اعتقل عدة مرات على يد البريطانيين، غادر إلى دمشق، وفي العام ١٩٢١ عاد ليصبح مفتياً بترشيح من القيادات الوطنية وخلفاً لأخيه كامل. أنشأ المجلس الإسلامي الأعلى وحارب بيع الأراضي للصهيانية. ترأس الهيئة العربية العليا لفلسطين (تأسست في ١٩٤٦/٦/١١)، ساهم في تنظيم جيش الجهاد المقدس. قاوم فكرة تقسيم فلسطين، مكث فترة طويلة في مصر، وانتقل إلى سورية، ومنها إلى لبنان حيث وافته المنية يوم ١٩٧٤/٧/٤.

هذا اليوم عيداً وطنياً . . . فزينوا المدينة ، وخرج الجند كل الليل يطوف احياء المدينة . الترك يهزجون أهازيجهم
والعرب يهزجون أهازيجهم . . .

الاثنين في ٤ ك ٢ غ سنة ١٩١٥م

دفع لي البطيريك خمس عشرة ليرة فرنساوية من أصل حسابي يوم السبت صباحاً ، فخرجت اليوم ودفعت
لبعض المداينين ، واشترت بعض حوائج للبيت ، وبعد المدرسة نزلت إلى البلد فلقيني مختار الروم ، فقال :
إنك مطلوب للخدمة العسكرية في طابور الحمالين الذين يسرون بين القدس والخليل ، أو الخليل وبئر السبع ،
ينقلون ما يلزم الجند من قوت وغيره فذهبت إلى دائرة الرديف لأثبت وجودي ، فأرسلوني مع ثلاثة آخرين ،
وهم حنا اشتكف ويعقوب اطليل وحننا فرح زوج ابنة زهران إلى دائرة روش بك في نوتردام أمام الباب
الجديد^(٣٢) ، وسلمونا لضابط هناك ، فقال : تعالوا غداً صباحاً إلى الثكنة العسكرية داخل باب الخليل . .
فذهبنا وكان أبو الفضل معي وجئنا إلى البيت فارتأينا أن أذهب عند حسين أفندي سليم أبلغه الأمر لعله
يستطيع أن يساعدني في إعفائي من هذه الخدمة ، لكوني صاحب مدرسة ومديرها ورئيسها وأستاذها أسوة
ببقية المعلمين الذين أعفوهم من الخدمة قبلي ، وإذا لم يكن هناك استثناء لأحد في هذه الخدمة فلا بأس ،
ولي الشرف أن أكون حمالاً . . . لقيت حسين أفندي فبلغته أمري فضحك ، وقال : تعال غداً إلى المجلس
البلدي ، فتدبر الأمر .

الثلاثاء في ٥ ك ٢ غ سنة ١٩١٥م

عرجت على حسين أفندي سليم في المجلس البلدي ، فقال : اذهب واعرض أمرك على روشن بك^(٣٣) ،
فذهبت فقال : إن هذا يتعلق برئاسة شعبة أخذ العسكر [=التجنيد] ، فاعرض أمرك عليهم ، ففهمت من ذلك
أنهم لا يستنون أحداً ، وإنما احالتي على رئاسة أخذ العسكر تفادياً من أن يردني خائباً لزيادة لطفه وكرم
أخلاقه . . فرجعت أرد الخبر على حسين أفندي فأشار علي أن أقدم استدعاء إلى المتصرف ، فكلفت علي
أفندي جار الله بكتابته وقدمته الى المتصرف فأحالته إلى إدارة المعارف ، فكتب مدير المعارف في ذيل
الاستدعاء أنني مدير المدرسة الدستورية الوطنية ، وأستاذ اللغة العربية والرياضيات فيها ، فأخذت الاستدعاء
وجئت إلى وكيل المتصرف فأحالني إلى رئاسة شعبة أخذ العسكر . . هنا وقفت لأنني عرفت جواب هذه

(٣٢) الباب الجديد : يقع شمال غرب المدينة ، وقد بني للربط بين الحي المسيحي داخل البلدة القديمة (في القدس) ، والممتلكات المسيحية خارج السور .
(٣٣) يفهم من سياقات وروده في اليوميات انه القائد العسكري الجديد لمنطقة القدس .

الدائرة بالأمس إذ قالوا: لا استثناء لأحد، وقد رأيت دير الروم يسعى لاستثناء معلميه وهو أقدر على السعي مني، فإن نجحوا نجحت وإلا ذهبت كغيري للخدمة...

الأربعاء في ٦ ك ٢ غ سنة ١٩١٥ م

قدمت بطبريكية الروم استدعاء إلى جمال باشا بخصوص معلميه، فأمهلهم في الجواب إلى الغد، فانتظرت معهم.

الخميس في ٧ ك ٢ غ سنة ١٩١٥ م

لقيت نوري الدين أفندي وهو ياور زكي بك قومندان الموقع المستقل، فسألني عما تم من أمري فسردت عليه ما عملت، فقال: إذا لم تستثن من الخدمة سعيت لك أن تقضي خدمتك في أحد المستشفيات تشتغل فيه ساعتين أو ثلاثاً ثم تذهب إلى مدرستك. وقال: قدم استدعاءك إلى شعبة أخذ العسكر، فمتى أحالوه إلينا دبرنا الأمر... ثم لقيت مفتش المعارف حمدي أفندي التير فسألني، فقلت له: قدمت استدعاء بأني صاحب مدرسة ومديرها وأستاذها، فقال: لا يأخذونك أبداً لأنهم يستثنون المعلمين والكتبة، وأكد لي ذلك فاطمان خاطري، ثم ذهبت إلى رئاسة شعبة أخذ العسكر وقدمت استدعائي فلما قرأه القولوغاصي^(٢٤) أقبل عليّ وقدم لي كرسيًا، على حين كان إذا قدم له أحد استدعاء مزقه ولم يقرأ ما فيه، ثم قال لي: اذهب الآن وسننظر في استدعائك، فطلبت منه رخصة ببضعة أيام لئلا أكون مسؤولاً أمام أحد، فكتب لي رخصة بخمسة أيام.

الجمعة في ٨ ك ٢ غ سنة ١٩١٥ م

السماء ماطرة، رخصت الحكومة لطابور الثقليات أن يستخدموا الدواب أو العربات، وقد شغلوهم اليوم في نقل الحطب والصناديق الفارغة وتنكات الكاز وأكياس الخيش من ثكنة إلى ثكنة، فكان بعض أنفار هذا الطابور يستأجرون من يحمل لهم أحمالهم... وقد استصعب كثيرون هذه الخدمة لأنهم اشتموا منها رائحة التحقير، وفضلوا عليها حمل السلاح والذهاب إلى ميادين القتال...

(٢٤) القولوغاصي: قائد الجيش.

السبت في ٩ ك ٢ غ سنة ١٩١٥م

سافر اليوم الجند ومعهم العلم النبوي إلى الجنوب، وبعد الظهر جاء جمال باشا ناظر الحربية وقائد هذه الحملة، وكانت السماء ماطرة فلم يتمكن الناس من الخروج لاستقباله. فنزل في لوكدة رفض داخل باب الخليل، وقد هياؤها له منذ يومين، ونصبوا له أعمدة التلغراف والتلفون.

الأحد في ١٠ ك ٢ غ سنة ١٩١٥م

نزلنا إلى البلد فوقفت في مخزن ابراهيم شماس في السوق الجديدة، وكان جمال باشا على أهبة النزول إلى الحرم، وقد خرج المنادون يدعون المسلمين أجمعين إلى الصلاة والذي يتخلف عن الصلاة يجازى، مر أعضاء المجلس البلدي يحملون سيفاً مفضلاً ليقدموه هدية إلى جمال باشا، وعند الظهر نزل جمال باشا في حاشيته وركبوا العربات وذهبوا إلى الحرم. . وهو قصير القامة ممتلئ الجسم ذو لحية قصيرة على الشكل الفرنسي، فجعل الناس الواقفون على جانبي الطريق يصفقون له بالأيدي ويهتفون: ليحيى جمال باشا. . وبعد الظهر أخذت سلطنة وسرياً وخرجنا نمشي على طريق المستعمرة الأميركية، وإذا بعساكر من الترك قادمة إلى القدس.

الاثنين في ١١ ك ٢ غ سنة ١٩١٥م

ذهبت اليوم أواجه مأمور النقلات لأقدم له الرخصة التي أخذتها بخمسة أيام، فلما رأني وقرأ الرخصة قال: ألم تذهب إلى الآن؟ فقلت: أنتظر نتيجة استدعائي، فقال: هذا لا يهمني ويجب أن تذهب الآن وتحضر كاره أو جملاً وتأخذ ما تجمع عليك من الاحمال وتذهب بها إلى الخليل، فقلت له: إذا لم يكن بدّ من ذلك فلا أتأخر ولكن لا أستطيع إلا أن أنتظر نتيجة استدعائي، فلم يحفل بهذا الكلام فتركته وأنا متردد بين أن أعدل عن متابعة استدعائي وأذهب مثل غيري أو أن أتريث قليلاً ريثما أستفد وسعي في السعي. . نزلت إلى البلد فواجهت حسين أفندي سليم وعرضت عليه أمري، وقال: يظهر أن لا فائدة من السعي، فودعته ثم ذهبت إلى نور الدين ياور القومندان السابق، فقال: قدّم استدعاء آخر إلى قومندان الموقع بق باشا الألماني ففعلت فأحالوه إلى رئاسة أخذ العسكر، فذهبت إلى القولو غاصي صاحبنا بالأمس فوجدت هناك روحاني الروم ينتظر نتيجة الاستدعاء الذي قدّمه البطريك بخصوص معلميه، فسألت القولو غاصي عن استدعائي ففتشنا

عنه فلم نجده ، وكان اسعاف معي فجعل يلح في السؤال حتى تبرم به القولو غاصي فكلفه بالخروج من الدائرة ، فعز ذلك علي ولكن تصبرت وأمسك اسعاف نفسه وخرج ثم كتب القولو غاصي يسأل روشن بك عن رأيه في المعلمين وأعطاني المکتوب ، وذهبت به إلى روشن بك فلما قرأ الأوراق قال تعال غداً فأعطيك الجواب .

الثلاثاء في ١٢ ك ٢ غ سنة ١٩١٥م

لقيت روحاني الروم ، فقال : لا تذهب أنت لأخذ الجواب بل أذهب أنا وأعرفك بالنتيجة . . أصدر اليوم جمال باشا اعلاناً يهدد فيه الصهيونيين إذا لم يدفعوا إلى الحكومة الأعلام الصهيونية والبول [=الطوابع] والنقود التي يتعاطونها في مدة خمسة عشر يوماً ، وإلا فمن وجد معه شيء من ذلك يعدم رماً بالرصاص ، وكذلك يأمرهم بالغاء حراسهم ومحافظيهم وجمعياتهم الخ ، وقد حفظت صورة هذا الإعلان ، وقد بلغني أنه قال لحاخام باشي اليهود انه سيفتح فلسطين قبل أن يفتح مصر ، وقد فهمت ان هذه السياسة مبنية على قرار الجمعية يقصد بها اصطناع [=استمالة] العرب وتأنفهم [=طلب الفهم ونصرتهم] .

الأربعاء في ١٣ ك ٢ سنة ١٩١٥م

ذهب روحاني الروم عند روشن بك يستعلم عن أمر المعلمين ، فقال له : أرسلت الأوراق إلى رئاسة أخذ العسكر ، فذهب إلى هناك فقبل له لم يرسل إلينا شيء ، فأرسل إلي من يقول لي أن انتظر يومين أو ثلاثة ريثما يجدون الأوراق ، فقلت : لعله خير . .

بلغني أن الشيخ محمد صالح لا يزال يتناولني بلسانه في كل مجلس ، ويتقول علي الأقاويل ، فهو يقول : ابني أجنبي النزعة وإن أميالي انكليزية واني عدو الدين والوطن ، وانه سيسكونني إلى الحكومة لتفتش منزلي وتطلع على أوراقني ، وانه سيسعى في حمل الحكومة علي أخذي في طابور الحمالين ، ومن الجهة الأخرى يوهم الأهالي أنني لم أعد أهتم بمدرستي منذ صرت وكيلاً لمسس واي لينزع ثقتهم بمدرستي ، ولكن ساء ما يتوهم وأن يده اقصر من أن تنالني بشيء فإن أمره معلوم عند الجميع [. .] .

الخميس في ١٤ ك ٢ غ سنة ١٩١٥ م

في مساء هذا اليوم منذ ثلاث سنوات، كان زواجنا، وفي هذا اليوم يكون سريّ قد بلغ الشهر الرابع بعد السنة الأولى من عمره. مع أننا لا نستطيع أن نحقل بعيد زواجنا هذا كما نريد، ومع صعوبة الأحوال الحاضرة إلى ما يفوت وسع الناس ويجاوز قدر احتمالهم، فإننا سعداء مغتبطون ليومنا هذا. . ألفت الحكومة لجنة مراقبة البريد في القدس، وأعلنت أن المكاتب يجب أن تكون بعد اليوم [ب] اللغة التركية، وإذا كانت بلغة أخرى حتى ولو باللغة العربية أرسلت إلى دمشق لمراقبتها ثم ترسل إلى محل إرسالها ولو كانت بين القدس ويافا، فإذا شئت أن أكتب إلى أحد في يافا مثلاً فإن كُتبت باللغة التركية كانت المراقبة في بريد القدس، وإلا فإن كُتبت باللغة العربية فقبل إرسال رسالتي إلى يافا، يجب أن تذهب أولاً إلى دمشق ومن هناك ترسل إلى يافا، ولم يفهم المراد من ذلك، كأنهم يحسبون اللغة العربية لغة أجنبية وفي ذلك كل العجب. . عطلنا اليوم مدرستنا بمناسبة عيد رأس السنة عند الشرقيين. .

الجمعة في ١٥ ك ٢ غ سنة ١٩١٥ م

ذهبت اليوم مع عادل أفندي جبر بعد الظهر وزرنا عارف أفندي الحسيني، وكان هناك المعلم نخلة زريق ثم جاء كامل أفندي الحسيني مفتي الديار المقدسية.

السبت في ١٦ ك ٢ غ سنة ١٩١٥ م إلى الثلاثاء في ١٩ ك ٢ سنة ١٩١٥ م

(١) سافر جمال باشا إلى ساحة الحرب، ويقال: إن الهجوم على مصر أصبح قريباً، على أنني لا أزال أعتقد أن ميعاد الهجوم بعيد، بل يخيل لي أنه لا يكون هجوم، وما المقصود من كل هذه الاستعدادات الحربية إلا مشاغلة الإنكليز والله أعلم. . كل يوم تفر إلى القدس جنود من أزمير تنشد الأناشيد التركية، ثم لا تلبث أن تذهب إلى الجنوب.

لا شك أن الجنود العثمانية من ترك وعرب أصبر الجنود وأقواها على حمل المشاق، فمن الجنود من مرّ عليهم خمسة أشهر وهم يمشون تحت الأمطار ينامون في خيامهم على الأرض، ولا يزال أمامهم مسافات شاسعة، ومع ذلك فلا تراهم إلا صابرين ساكتين لا ينبسون ببنت شفة ولا يتأفون، هكذا قضى على الجندي كأنه خالق ليشقى أو ليموت. . لا تزال الإنسانية بعيدة جداً عن السعادة.

(٢) يسعى عبد العزيز جاويز المشهور بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية أن يؤسس مدرسة إسلامية،

ويقال: إن الحكومة قدمت له المدرسة الصلاحية، وقد بعث يطلب الأساتذة من الشام وطرابلس وغيرهما..
وسأكتب عن هذه المدرسة عند افتتاحها.

(٣) سافر الجوق الموسيقي العسكري إلى ساحة الحرب، فجاءنا جوق أزمير وهو جوق راقٍ لم تسمع
القدس مثله منذ جاء امبراطور ألمانيا إلى القدس [١٨٩٨].

(٤) ذهبت إلى شعبة أخذ العسكر أخذ جواب استدعائي، فأحالوني مع يوسف قرط وحنان أيوب عمران
إلى بق باشا قومندان منطقة القدس، بعد أن شرحوا على استدعاءنا أن هؤلاء بموجب الأمر الأخير يلزم
استثناؤهم من طابور الحمالين واستخدامهم في أحد المستشفيات، فأحالنا بق باشا إلى طابور القدس
النظامي فأثر رفيقاي أن يرجعا إلى طابور الحمالين، وأما أنا فقد استخرت الله واعتمدت أن أدخل في
الطابور النظامي وأتربن على حمل السلاح والحركات العسكرية، رغبة في ترويض جسدي وتجديد شبابي،
ومهما كانت النتيجة فلتكن.. وإذا رأيت بعد ذلك أن وجودي في هذا الطابور يستغرق أوقاتي ولا يمكنني
من ملاحظة مدرستي عطلتها وكان هذا آخر العهد بها.

(٥) خرج المناادي يدعو الناس من ابن الرابعة والعشرين إلى الأربعين من مسلمين ومسيحيين واسرائيليين
متعلمين أو غير متعلمين، أن يراجعوا دائرة أخذ العسكر لاثبات وجودهم، فجعل الناس يبنون ويهدمون
ويضربون أحساساً لأسداس.

(٦) كان أمس يوم الاثنين في ١٨ ك ٢ غ سنة ١٩١٥ ميعاد كميالتي بخمس ليرات في البنك الوطني،
فكلفتهم أن يخصموا منها اثنين وعشرين فرنكاً ونصفاً، المبلغ الذي لي على الخواجا سليم أيوب عن دروس
ابنه ويجددوها لثلاثة أشهر أخرى.

(٧) شاع اليوم (يوم الثلاثاء) أن قد ورد أمر بقبول البدل [= بدل الخدمة العسكرية]، ولكن اختلف في
مقداره، فمنهم من يقول إنه خمس وستون ليرة، ومنهم من يقول: إنه مئة، وقد بلغني مؤخراً من مصدر يكاد
يكون ثقة أن الذي يدفع خمسين ليرة يشتغل في القدس كعسكري، وأما الذي يدفع مئة ليرة يعنى من كل
خدمة، فاعتمدت أن أنتظر اعلان الحكومة، وحينئذ فإن كان مقدار البدل مما أستطيع تديره دفعته، والا
دخلت في طابور القدس..

الأربعاء في ٢٠ ك ٢ غ سنة ١٩١٥ م

اعتمدت [قررت] اليوم أن أسعى لآخر مرة في أن تكون خدمتي العسكرية في القدس في أشغال
خفيفة، فنزلت صباحاً فخرجت على كامل بك صوايا مدير الريجي ليذهب معي عند المتصرف، لأخذ منه

رسالة وصاة إلى روشن بك فلما قابلنا المتصرف بادر من فوره وتناول بطاقة باسمه ، وكتب الى روشن بك ، يرجوه أن يدبر لي شغلا في القدس في أحد الأقاليم لأكون قريباً من مدرستي ، فذهبت بعد الظهر مع كامل بك المذكور عند روشن بك ، وقبل أن ندخل عليه سمعته يصيح على أحد الضباط فخامرني اليأس من مطلبي ، ولكن عدنا فدخلنا فلما اطلع على بطاقة المتصرف ، قال : هذا لا يتعلق بي ، فلم نراجعه بكلمة وقمنا حالاً . . أشار علي كامل بك أن أراجع القولو غاصي مرة ثانية وألح علي في ذلك ، فلم يسعني إلا أن أذهب وإن كانت نفسي قد اشمازت من السعي ، فلما وصلت هناك وجدت أوفاً من الناس مزدحمة تنتظر ، فوقفت إلى جانب أتأمل الناس فلم أقرأ على وجوههم إلا إعلانم الخوف والقلق والاهتمام والصغار . . وعرفت منهم من لا يستنكف من استخدام أي واسطة كانت ليخلص من الخدمة العسكرية . يلفقون الأعذار ويقبلون الأذيال ويلثمون مواطني الأقدام ويتوسطون زبداً وبكراً ، لا يملون ولا يخجلون ، والأعجب أنهم قد ينجحون ، فأخذتني الأنفة وملكتني عزة النفس ورجعت من هناك معتمداً على الدخول في سلك الجندية النظامية . . فاستغرب ذلك أصحابي وسفهوا رأيي . . أما أنا فقلت قد قضي الأمر . . كانت سلطنة قد زارت مسس سبور قبل الظهر ، فسألته عني فقصت عليها أمري من أوله إلى آخره ، فقالت : أرسلني خليل إلينا بعد الظهر لتدبير الأمر ، فذهبت فوعدني زوجها صديقي الدكتور سبور أن يخاطب بق باشا بشأني الليلة . . مما أسطره هنا بالفخر أن أمي وأختي وسلطنة لما عرفن اشمزازي من السعي ، وترفعي عن اتخاذ الوسائط الدنيئة لأخلص ، قابلن عزيزتي بالرضى والتنشيط .

الخميس في ٢١ ك ٢ غ سنة ١٩١٥م

خرجت صباحاً وأنا أرجح أنني داخل في سلك الجندية النظامية ، فخرجت على أمي فودعتها فشجعته ، وذهبت فخرجت على الدكتور سبور لأرى ماذا كانت نتيجة اجتماعه بق باشا فلم أجده ، فقالت مسس سبور : إنه خاطبه بشأنك ، فقال له أن تذهب إليه اليوم صباحاً ، ولست أشك إلا أنه تاركك لمدرستك ، فذهبت إليه ولم يكن في دائرته غير نور الدين بك صديقي ، فقال لي : إذا كان عندك عشرة معلمين فمدرستك تستغني عنك ، فقلت له : نعم إنهم عشرة ولكن أكثرهم لا يشتغل في النهار إلا ساعة ويذهب ، والذين يشتغلون طول النهار لا أستطيع أن اعتمد عليهم لأنهم حديثو العهد بمهنة التعليم ، فقال : نحن لا نريد أن نأخذ الذين يشتغلون لبلادهم ، ولكن لا أستطيع أن أعينك بتاتاً لئلا أميزك على غيرك ، فماذا أعمل لك لتبقى في القدس قريباً من مدرستك ، فقلت له : مهما كلفني فإني رهين الأمر ، فقال : تشتغل في أحد المستشفيات ساعة أو ساعتين في النهار ثم تذهب لمدرستك ، فشكرته ، وكتب لي ورقة بذلك إلى قومندان مفرزة القدس وأخرى

إلى روشن بك . . . ولا يسعني هنا إلا أن أثني على الذين اهتموا بأمرى وأظهروا لي عواطفهم، سواء ساعدوني أو لم يساعدوني، أخص منهم بالذكر اسعاف النشاشيبي وعادل جبر وعلي جار الله، وحسين سليم الحسيني والمفتي كامل أفندي الحسيني وعارف أفندي الحسيني، وحنّا ياسمينة والمعلم نخلة ونور الدين بك، ومدحت بك والأخيران ضابطان، وكامل صوايا والدكتور سبور وامراته وغيرهم.

الجمعة في ٢٢ ك ٢ غ سنة ١٩١٥م

صرفت نهاري في متابعة أوراقى على غير فائدة لأن اليوم الجمعة، والكتبة كانوا متغييبين وفي مدة انتظاري جعلت ألاحظ ما حولي وأتحرش بالجند ممن أعرف أستطلع طلع أحوالهم . . . فهمت أن أشد الضباط خشونة وقسوة على الجند هم الضباط العرب القدسيون أولاً، ثم الدمشقيون، ثم الأتراك، فقد لاحظت أن الجندي من القدس يفضل أن يكون ضابطه دمشقياً لا قدسياً، ويفضل عليهما الضابط الألماني . . .

رأيت الجندي لا يخدم ضابطه ولكن يخافه، لأن الضابط لا يخاطب الجندي إلا بأقبح الألفاظ، ولأقل الأسباب يضربه بجمع يده أو بعصاه أو بسوطه . . . رأيت جندياً واقفاً على أحد الأبواب حاجباً، وقد سمعته يقول: مرّ عليّ ثلاث ساعات وأنا واقف فمتى يجيى دور غيري؟ قال هذا لجندي آخر واقف على باب ثان، فقال له: وأنا كذلك. وقد لاحظت وسمعت ما جعلني أرثي لحال الجندي العثماني، وأشكر الله أني خلصت من هذه الورطة . . .

السبت في ٢٣ ك ٢ غ سنة ١٩١٥م

اليوم عيد ميلادي فأكون قد أنهيت السابعة والثلاثين من عمري، ودخلت الثامنة والثلاثين لأنى ولدت في مثل هذا اليوم من سنة ١٨٧٨م . . . ذهبت صباحاً لأتابع أوراقى، فوجدت الجند مع ضباطهم ذاهبين للتعليم، فقيل لي: ارجع بعد الظهر . . . جاء عيسى العيسى للمحاكمة في دعاوى كثيرة، فغبطنا على حالتنا في القدس لعسف قومندان يافا وشدة ضغطه، بحيث أن الناس هناك أصبحوا يخافون صوت بوق عربية [=سيارة] إذا سمعوه من بعيد هرعوا يختبئون من وجهه . . .

رجعت بعد الظهر أسأل عن أوراقى فوجدت الكاتب، وهو ضابط تركي، سكراناً، فقال: أرسلنا أوراقك إلى كاظم بك، فذهبت عند كاظم بك فقال: جاءت أوراقك وسنرسلها إلى محمد علي بك مرة أخرى فاذهب غداً واسأل عنها . . .

سمعت اليوم أن بق باشا سيترك القدس بعد يومين أو ثلاثة، وسيجى في محله ضابط آخر تركي،

فصحني بعض الأصدقاء أن أستعجل في إنهاء مسألتي قبل سفره، فاعتمدت إذا أخروا أوراقى غداً أن أراجع بق باشا بشأنها .

من الأحد في ٢٤ ك ٢ غ سنة ١٩١٥م إلى يوم الأحد في ٣١ ك ٢ غ سنة ١٩١٥ (١) كان يوم الأربعاء الواقع في ٢٧ ك ٢ غ سنة ١٩١٥م موعد افتتاح المدرسة الصلاحية ككلية اسلامية، وقد جاءت وفود العلماء وأصحاب العمائم من كل البلاد السورية لحضور تدشينها، أما مصير هذه الكلية فيستظهره المستقبل العاجل أو الآجل .

(٢) بعد أن اجتازت أوراقى عدة دوائر انتهت إلى رئيس الأطباء، فقال: تحضر إلى المستشفى مرة أو مرتين في الأسبوع لإثبات وجودك فقط، ثم سعت في نقل اسمي من طابور الحمالين، وكان لشريف أفندي أحد أصدقائي من الضباط يدٌ في ذلك .

(٣) ورد تلغراف إلى الحكومة أنه بسبب الأحوال الجوية، أوقفت الحرب في القفقاس، فجعل الناس يؤولون هذا التلغراف على وجوه عديدة لا محل لبيانها هنا .

(٤) يقال: إن الحرب نشبت بين الجيوش العثمانية والجيوش الانكليزية على قنال السويس منذ يوم الأربعاء الواقع في ٢٧ ك ٢، وقد أشيع أنها أجلت خمسة عشر يوماً أخرى والله أعلم بالحقيقة، وقد اختلف الناس في تقدير القوات العثمانية هناك، فمنهم من يقدرها بخمسة وعشرين ألف جندي ومنهم بثلاثين ومنهم بمئة ومنهم بأكثر .

من الأحد في ٣١ ك ٢ إلى الأحد ٧ شباط غ سنة ١٩١٥م

(١) ما كدنا نفرغ من العشاء مساء يوم الاثنين الواقع في أول شباط غ، وكان عندنا عيسى العيسى وعادل أفندي جبر، إذ سمعنا عن بُعد هتافاً وضجيجاً، ثم رأينا الأسهم النارية تشق كبد السماء، ثم تلاها دويّ اطلاق الرصاص فلم نشك أن قد ورد خبر انتصار، وبعد قليل جاء حنا حمامة فسألناه، فقال: ورد تلغراف أن الجنود العثمانيين استولت على الترعة، وأسرت ثمانية آلاف من الجنود الإنكليز، ثم جاء حسين أفندي سليم، فقال: سمعت الهتاف ودوي الرصاص فذهبت أتعرف الخبر من مصدره، فقال روشن بك: إن الجنود العثمانية استولت على ترعة السويس وأسرت ثمانية آلاف جندي، ثم قال: كت اليوم متقبضاً جداً لأنني سمعت ضابطاً ألمانيا يقول: إنه قد ورد تلغراف أن قد نشب القتال بين الجنود العثمانية والجنود الانكليزية فكانت خسائر العثمانيين نحو عشرة آلاف قتيل، وأما الآن فقد سرى ما كت أجد وليست خسارة عشرة

آلاف جندي شيئاً مذكوراً بالنسبة الى الاستيلاء على الترعة ثم قال: لم يكن بدياً للجنود العثمانية من اقتحام نيران العدو لأنها إذا لم تفعل ذلك ماتت جوعاً، لأنه لم يبق لديها من الأكل ما يكفيها نصف شهر.. ثم جعل يطنب في اطراء بسالة الجنود العثمانية وحنكة الضباط من الألمانين والترك ويخطئ السياسة الانكليزية. وبين ضعف موقف الإنكليز في مصر، لأن البلاد إسلامية والقسم الأكبر من الجيوش الإنكليزية من مسلمي الهند.. أما أنا فقد ترددت في تصديق الخبر، وإذا صح فلا يكون إلا خدعة حربية والله أعلم.. وفي الغد نزلت إلى البلد أتسم الأخبار فقيل لنا إنه عار عن الصحة..

ويوم السبت الواقع في ٦ شباط أشيع أن قد ورد تلغراف رسمي أن الجنود العثمانية اجتازت ترعة السويس واستولت على الاسماعيلية، بعد أن أطلقت النار على أربعة طرادات كانت في الترعة فغرق الواحد واحترق الثاني وتعطل الثالث وفر الرابع، وجعل الناس يهتفون بعضهم بعضاً، فكادت أصدق هذه المرة لولا ما رسخ في اعتقادي من [أن] أخذ ترعة السويس يكاد يكون مستحيلًا، ثم جعلت أتعقب الخبر، فإذا هو مثل سابقه. يوم الأحد الواقع في ٧ شباط صباحاً وردني تلغراف من يوسف العيسى من الشام يقول فيه: «الديوان العرفي منع محاكمتنا، أطلق سبيلنا فظمنوا عن التسييس» فسرت كثيراً وفتحت موزع التلغرافات ما تيسر حلوان بشارته.

من الأحد في ٧ شباط إلى الأحد في ٧ آذار في ١٩١٥م

(١) ورد تلغراف من جمال باشا من ساحة الحرب، يقول فيها بعد أن عرفوا قوات العدو الهائلة ارتدوا عن الترعة ريثما يستكملون المعدات اللازمة، وقد أشيعت على إثر ذلك اشاعات مختلفة سيظهرها المستقبل. (٢) في أواسط شهر شباط ترك قسطندي الخوري المدرسة بحجة أنه لا يطيق الأولاد الكبار في المدرسة، فترج ابن خالتي متري بدرس واحد في النهار من الساعة التاسعة إلى العاشرة، والخواج داود دعدس بساعة أخرى من الحادية عشرة إلى الثانية عشرة، واضطرت أنا أن الأزم المدرسة كل النهار، ريثما يستتب النظام.

(٣) تعرفت في هذه الأثناء بالأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي، صاحب جريدة البرهان الطرابلسية، فأعجبت بفضله وأدبه وعلمه.

(٤) رجع جمال باشا إلى القدس ونزل في لوكدة الألمان على جبل الزيتون، ولم يره أحد وسافر بق باشا الألماني إلى الأستانة.

(٥) أمسكت عن الكتابة كل هذه المدة لأنني لم أر ما يستحق التدوين، فإن كل ما هناك اشاعات

وأراجيف ما أنزل الله بها من سلطان، وإني لأعجب كيف تروح مثل هذه الاشاعات، فلا شك أن الأمة التي يجوز عليها ذلك لأمة منحطة مختلة الشعور قصيرة النظر، وإذا نشطت للكتابة بعد اليوم أشرت إلى هذه الاشاعات.

(٦) إذا كان من يشكو من وقوف الأحوال وقلة الأشغال وضيق العيش بسبب الأحوال الحاضرة، فإني أشكو من انقطاعنا عن أوروبا وخلق البلاد من الأوروبيين. لا يمر يوم إلا زاد ضجري من الحياة.. لا أجالس أحداً إلا رأيت نفسي غربياً عنه، ولا يقع نظري على شيء إلا اشمازت نفسي منه.

من الأحد في ٧ آذار إلى الأحد في ٢١ آذار غ سنة ١٩١٥م

(١) رجعت فرقة أزير من الصحراء وواصلت سيرها إلى الشمال، ولكن لا تسل كيف كان مرجعها. جاءت جديدة الثياب والأحذية، وعلائم الفتوة والحماسة بادية على وجه كل واحد فيها، وكانت تشد الأناشيد الحماسية منتفخة الأوداج محمرة الأحداق.. ورجعت من الصحراء رثة الثياب ممزقة الأحذية خائرة القوى منهوكة الأجسام مسودة الوجوه، تلوح على وجوهها علائم الشيخوخة... ولو كان أمرها إلي لأطلقت سراحها، لأنها لم تعد تصلح في نظري للخدمة العسكرية... وأما الجمال والخيل والبقر والجواميس فقد رأيت منها ما يدمي الفؤاد. ومن أعجب ما رأيت أن بعض المدافع التي كانت تجرها الخيول والجواميس كانت تجرها الآن الجمال.

(٢) طلبت مرة ثانية للاتحاق بطابور الحمالين فراجعت شعبة أخذ العسكر، وأبرزت الوثيقة التي أحملها من بق باشا ففهمت أن كل الأوامر التي أصدرها بق باشا يوم كان قومندان منطقة القدس أصبحت الآن ملغاة، فلم أربداً أن أقدم استدعاءً جديداً لجمال باشا، فظن رئيس شعبة أخذ العسكر أنني شكوته إلى جمال باشا فأبرق وأرعد، وقال: أبعد أن خدمتك خدماً جليلاً تشكوني، ثم قال: إذا كنت لا تحب أن تلتحق بطابورك فليس عندي إلا مستشفى الحيوانات في بيسان، فقلت أكتب ما تشاء، ثم فهمت من ياور جمال باشا واسمه عبد الرحيم بك، وقد تعرفت به بواسطة كامل بك صوايا، أن جمال باشا حول استدعائي إلى قومندان مركز القدس بمعاملي حسب أمر بق باشا.

(٣) مساء يوم الخميس الواقع في ١٨ آذار غ سنة ١٩١٥م أصابت سرياً نزلة صدرية فلم نم الليل كله، ولم يطلع النهار إلا وهو لا يستطيع التنفس، فبادرت وأحضرت له الدكتور فوتي اليوناني، وإن كنت لا أثق به لأنني لم أجد غيره، فأشار علينا أن نضع له على ظهره ست كاسات هواء، وحرارية على صدره وظهره، وأعطانا دواءً لنسقيه منه كل ساعتين ملعقة صغيرة.

من الأحد في ٢١ آذار إلى الأحد في ٢٨ آذار غ سنة ١٩١٥م

(١) شاع اليوم أن مدافع العثمانيين في جنق قلعة أغرقت أربع مدرعات كبيرة للإنكليز، فاضطر الأسطول [١] الانسحاب من تلك المضائق، فعزمت الحكومة على إقامة احتفال بهذا الانتصار، وجاءتني دعوة من إدارة المعارف لآخذ تلاميذي إلى كلية صلاح الدين لحضور هذا الاحتفال، فاعتذرت أن اليوم عطلة ولا أستطيع أن أجمع تلاميذي والمعلمين... ومع جواز أن يكون هذا الخبر صحيحاً فإنني لا أكاد أصدقه قياساً على الأخبار الكثيرة التي أذاعتها الحكومة وكانت كاذبة، وأما المسلمون فإنهم لا تزال الحكومة تكذب عليهم، ولا يزالون يصدقونها.

(٢) يوم الاثنين في ٢٢ آذار ظهر الجراد في سماء القدس ماراً من الشمال إلى الجنوب فهلعت القلوب.

(٣) يوم الأربعاء الواقع في ٢٤ آذار عطلنا مدرستنا بعد أن امتحنا التلاميذ.

(٤) لقيت القولوغاصي رئيس شعبة أخذ العسكر، فقال لي: انتهت معاملتك، وقد قرر إرسالك إلى بيسان، فإن صح ذلك فليس إلا أن أدبر بدلي وأستريح من هذا العناء.

(٥) يوم الخميس الواقع في ٢٥ آذار غ سنة ١٩١٥م. خطر لي أن أراجع المتصرف لعله يستطيع أن يساعدني على البقاء في القدس لمدرستي، فذهبت إلى دار الحكومة فوجدته مشغولاً بفرسته، وبعد الظهر ذهبت إلى شعبة أخذ العسكر فأعطاني القولوغاصي الأمر بتعييني في بيسان، وقال لي: تستطيع أن تراجع روشن بك لعله يدبر لك شغلاً آخر في القدس، فنزلت إلى البلد وقابلت حسين أفندي سليم رئيس المجلس البلدي، فوعدني أن يقابل روشن بك بهذا الخصوص... سمعت اليوم أن بزرمسل سقطت في يد الروس وأن الإنكليز خربوا مستعمرة الألمان في حيفا فدكوها إلى الحضيض، أطلقوا عليها نحو ٢٦٠ قنبلة، وأن جمال باشا مسافر غداً أو بعده إلى الشام. في المساء جاءني إسعاف وشيخ الهنود عبد الرحمان رياض وموسى فيضي العلمي وجرجي خميس وحنا حمامة وسابا الصانع، وقد بلغهم أنني أمرت بالذهاب إلى بيسان فعرض علي شيخ الهنود أن يأخذني إلى أحد أصدقائه من الألمان ذوي المكانة العليا والكلمة النافذة، لعله يستطيع أن يساعدنا في البقاء في القدس، فذهبت معه إليه وهو ساكن في دار أبي أنطون لونشو قرب مدرسة راتزون، وقد فهمت أن هذا الألماني يحمل كتاباً من امبراطور الألمان بخط يده يأمر به سفراءه وقناصله أن يكونوا في خدمته وعند إشارته، واسمه الدكتور بروفر، وهو شاب يحسن اللغة العربية، فدخلنا عليه فأحسن استقبالنا وقد وجدنا عنده برنسا ألمانياً فعرضنا عليه مسألتنا فوعد أن يقابل روشن بك، وقد اشتمت منه أن الأتراك يعاكسون الألمان ويكرهون نفوذهم عليهم، ثم كتب لي تذكرة إلى الدكتور ملهنس مدير

المستشفى الألماني قرب مدرستنا لعله يأخذني عنده، فأخذت رسالته وشكرت لطفه، وأنا مضمر في نفسي أن لا سبيل إلا بدفع البدل. لما رجعنا إلى البيت وجدنا حسين أفندي ينتظرنا في البيت. وتم الاتفاق أن حسين أفندي يراجع روشن بك غداً، فإذا لم ننجح دفعنا البدل وعلى الله الاتكال. اليوم (أي الخميس الواقع في ٢٥ آذارغ سنة ١٩١٥م) سمعت وأنا في دار الحكومة أنهم ألفوا فرقة جديدة سموها فرقة الزبالين لتعهد نظافة البلد، فقال الناس: ألف سلام على طابور الحمالين وطابور العملة، وصار الذين أخذوا لهذين الطابورين يشكرون الله أنهم لم يدعوا لفرقة الزبالين.

(٦) يوم الجمعة الواقع في ٢٦ آذارغ سنة ١٩١٥م ذهب صباحاً حسين أفندي سليم عند روشن بك وكلمته بخصوصي فتأسف أنه لا يستطيع أن يعمل شيئاً، فلم يبق أمامي إلا أن أدفع البدل، فذهبت عند القولوغاصي لهذا الغرض فقال: إن بذلك غير مقبول، لأن البدل لا يؤخذ من الذين يعينون في المستشفيات أو العنابر، فلم أبتس وقلت في نفسي أرجع إلى روشن بك، فرجعت إليه بعد الظهر، فقال: إرجع إلى القولوغاصي، فقلت له: كت عنده، وقال لي: إن بدلي غير مقبول، فقال أدخل في طابور العمالة لأربعة أيام ثم قدم استدعاءً تطلب فيه دفع البدل، فقلت له: أنا من طابور الحمالين ولم أباشر عملي في بيسان بعد، وأريته التحرير الذي أحمله من القولوغاصي فأخذه مني، وقال: سأرى القولوغاصي بهذا الخصوص، وأما أنت فاذهب فخرجت وأنا أعتقد أنهم لا بد أن يقبلوا البدل أخيراً، وإذا لم يقبلوه ذهبت إلى بيسان بل إلى جهنم ووفرت الخمسين ليرة... وقبل المساء زرت بعض المصريين الذين جاؤوا مع عبد العزيز جاويش وكانوا قد زارونا قبل اليوم، فساقنا الحديث إلى ذكر مسألتي، فقالوا: نذهب غداً عند جمال باشا الصغير، ونعرض عليه أمرك ولا بد أنه يترك لمدرستك... يكاد يظهر لي من كل ما تقدم أنهم يتعمدون إبعادي عن القدس، وإلا فلماذا طلبوني بعد أن أخذت أمراً من بق باشا بالبقاء في القدس، ثم لماذا طلبوني وحدي وتركوا سائر المعلمين، ولماذا لم يعطوني شغلاً في القدس كما أعطوا غيري بل قرروا إبعادي إلى بيسان وما هو ذنبي يا ترى؟... يخيل إلي أن لي ذنبين، الأول كوني مسيحياً، والمسيحيون في اعتبارهم ميالون إلى إنكلترا وفرنسا وروسيا، والثاني كوني صاحب مدرسة أث فيها روح الوطنية في نفوس التلاميذ... وقد قال لي الشيخ عبد القادر المغربي مرة: إن بعض المسلمين ممن حاولوا أن يسودوا صحيفتي وغيروا القلوب علي فلم يفلحوا أنهم قالوا له: نعجب لعلاق الوداد بينك وبين السكاكيني، فإنك أنت اتحادي وهو من دعاة النهضة العربية، فلا يبعد أنهم وشوا بي إلى روشن بك أني كذلك، فطلبني للخدمة مرة ثانية، وقرر إبعادي إلى بيسان لأعطل مدرستي، فيكون بذلك قد انتقم مني لكوني مسيحياً ولكوني عربياً. على أني مهما يكن الأمر فلست أبالي، لأنني أنا في واد، وهم في واد ولا يسعني إلا أن أقول كلمتي في هذا الشأن هنا. أنا لست مسيحياً ولا بوذياً

ولا مسلماً ولا يهودياً كما أنني لست عربياً ولا إنكليزياً ولا فرنسويّاً ولا ألمانياً ولا روسياً ولا تركياً، بل أنا فرد من أفراد هذه الإنسانية وشعاري قول الشاعر:

إذا كان أصلي من تراب فكلها بلادي وكل الناس فيها أقاربي

قدّر لي أن أعيش في هذا الوسط، فأنا أعمل على إنهاضه وبث الحياة فيه، كما لو قدّر لي أن أكون في بر الأناضول أو أواسط أفريقيا أو الهند أو في الشرق أو في الغرب، فإني أرى من واجبي بل من دواعي سروري وطربي أن أشتغل في ما يكون به الخير للناس على اختلاف ألوانهم وأديانهم ولغاتهم. أحب الحياة والقوة والنشاط والعلو والجمال، وأكره الانحطاط والخمول والضعف والجهل والدناءة. إذا كانت الوطنية في حبّ الحياة فأنا وطني، وأما إذا كانت في تفضيل دين على آخر ولغة على أخرى ومدينة على مدينة ومصالح على مصالح فلست وطنياً والسلام.

(٧) يوم السبت في ٢٧ آذار غ سنة ١٩١٥. سافر اليوم جمال باشا الكبير إلى الشام، ويقال: إنه ودع البطاركة واشترى هدايا عديدة كأنه راحل عن هذه البلاد غير راجع إليها والله أعلم... لا يمر يوم إلا استحكمت حلقات الضيق. الجنود في حالة يرثى لها من رثاثة الثياب وغثاثة المأكّل، ويقال: إن كثيرين منهم يعترضون الناس في طريقهم، يطلبون إحسانهم ويطوفون على البيوت يطلبون أكلاً، وإذا قدّم لهم طعام التهموه كأن لهم أياماً بدون أكل. يقال: إن الذين يشتغلون في الطرق منهم لا يأكلون غير العدس بدون خبز، وإن كثيرين منهم يفرون من الجوع... وقد بلغني أن بعض الجنود يقفون في الطرق في الليل يسلبون المارة ويحرقون بالنساء، هذا فضلاً عن الأمراض المنتشرة في الجند والتي يخشى أن تنتشر فيهم بسبب سوء المعيشة.

من يوم الأحد في ٢٨ آذار إلى يوم الأحد في ٤ نيسان غ سنة ١٩١٥م

أشار عليّ كثيرون من أصدقائي أن أخفي أوراقتي ودفاتري لثلايشي بي واش فيفتشوا بيتي، وإذا وجدوا دفترتي هذا وغيره فليس أمامي إلا المشنقة، فعلت برأيهم وأرسلت دفترتي هذا مع يومياتي الأخرى إلى بيت بنت عمي حنة، وأنا الآن أكتب هذه الأسطر في بيتها...

(١) لا يسعني هنا إلا أن أجهر بالثناء على أريحية صديقي حسين أفندي سليم الحسيني رئيس المجلس البلدي، فقد قدم لي ٢٢ ليرة عثمانية لأدفع نصف بدلي، وقد بلغني أن ابنة أخته كريمة زكي داوودي قد عرضت على أخي ميليا أن تدبر لي البدل، وقال لي إحسان الترجمان: إن أهل بيته قلقوا جداً عليّ كأني أحد أولادهم وحزنوا جداً حين سمعوا أنني مطلوب لبيسان، مما أسطره هنا بالثناء على عواطفهم الرقيقة. يوم

الأربعاء في ٣١ آذار دفعت البدل وشعرت كأنني انتشلت من نبر . وقد طلب صهري أبو سليم قريظم للخدمة العسكرية كزبال ، فحشته على دفع بدله فدفعه .

(٢) جاءني عمر محمود الصالح ، وقال لي : إن أحد الضباط كلفه أن يكون جاسوساً عليّ وعلى عيسى العيسى وأفتيم مشبك ، وأن يسألنا من حيث لا ندرى عدة أسئلة منها :
(١-٢) هل أخطأ جمال باشا أو أصاب في الحركة التي قام بها على ترعة السويس . (٢-٢) ما رأينا في العناصر العثمانية العرب واليونان والأرمن واليهود . (٢-٣) ما هو موقف تركيا في قفقاسيا . (٢-٤) ماذا نسمع عن أعمال الأسطول الإنكليزي في الدردنيل . . . إلخ ، فأجبت أنه لا أشغل بالسياسة ، وإنما أنا إنسان لا هم لي في هذه الحياة إلا التعليم .

(٣) بلغني أنه قد جاء إلى القدس جاسوس من بيروت ، يتعقبنني ويسأل عني ، ولست أدري ماذا يدبر لي من المهالك ؟ .

(٤) لقيني عبد القادر العلمي أحد رجال البوليس ، وقال لي : أريد أن أسالك سؤالاً ، فقلت له تفضل ، فقال الكل يسأل لماذا لا تحضر مع تلامذتك الاحتفالات الوطنية ، فقلت له : أما أولاً فلأنني لا أحب الظهور في هذه المظاهر ، وهذا دأبي منذ إعلان الدستور . ثانياً : وإن تلامذتي لا يحبون أن يحضروها ، وثالثاً لأنني لم أدع لحضورها إلا آخر مرة وكان يوم أحد ، فقال : إذا لم تحضر بعد اليوم فإنني مضطر أن أقدم بك تقريراً فقلت له : أكتب ما تشاء ، فإن وطنيتي معروفة ، حضرت الاحتفالات أو لم أحضر . خطر لي أن أعطل مدرستي وأخلص من هذه المسؤولية .

(٥) أخذوا عدداً كبيراً من المسيحيين كزبالين إلى بيت لحم وبيت جالا ، وأعطوا كلاً منهم مكسفة وقفة ومجرفة ووزعوهم على الطرق والأزقة ، فجعل أحدهم يصيح في بيت لحم «من عنده زبالة» فكانت نساء بيت لحم تظل من النوافذ وتبكي . لا شك أن هذه نهاية الذل ، وما مثلهم إلا مثل الأسرى في عهد الآشوريين والمصريين والرومان ، ومع ذلك فإن المسلمين ينتظرون من المسيحيين أن يحبوا هذه الدولة .

[وهنا ينقطع السكاكيني ، ليعاود الكتابة في دفتر صغير ، عنوانه باسم الكشكول في العام ١٩١٧ ، ويبدو أنه أراد أن يكتب فيه تأملات تتناول وجهة نظره في أشياء وظواهر مختلفة ، حيث بدأ بمقال عن الخمر ، وآخر عن التوحيد ، لكنه يعود بعدها (فيما يبدو تحت تأثير سخونة الحرب) ليكتب يوميات نادرة حول المعارك بين الإنكليز والجيش العثماني في محيط القدس . . . فإلى «الكشكول»]



الفصل الثالث

الكشكول

١٩١٧

في أول تشرين الثاني غ / ١٩١٧م

الخمير

(أ) من راجع تاريخ الأمم يرى أنها كانت منذ نشأتها سكيرية، وأنه كان للخمر عندها مقام عظيم، بل من الأمم من جعلت للخمر إليها مثل اليونان، فإن باخوس كان إله الخمر والطرب والسرور عندهم. ولا عجب، فإن للخمر تأثيراً على الإنسان يغيره من حال إلى حال في دقيقة. ولا شيء يعادل الخمر في تأثيره على الإنسان. وقد كان العرب من أشد الأمم معاقرة للخمر في الجاهلية والإسلام. ولما كانت اللغة مرآة الأمم وسجل تاريخها وممثل أحوالها في كل أدوارها، بحيث أن من تفقد ألفاظها وتدبر معانيها واستقصى تاريخها، يرى فيها آثاراً تدل على سابقها وتطورها من حال إلى حال، كما تدل الأحافير في الأرض، والعاديات القديمة على حالة الأمم الغابرة. لذلك فإن من [ي] تفقد اللغة العربية يرى فيها من الآثار ما يثبت ما كان للخمر عندهم من المكانة، وهذا ما نحاول بسطه في هذا المقام علي وجه الإختصار.

(١) إن أسماء الخمرة في اللغة العربية كثيرة جداً، بل فيها من الألفاظ ما تدل على صفات الخمر وأنواعها وأوانها وحالات الشرب ودرجات السكر مما يضيق المقام عن تعدده. من جملة أسمائها الراح وهي يرتاح شاربها لها، ويقال: بل هي التي يستطيب شاربها ريحها، ويقال: بل هي التي يجد شاربها روحاً، وقد جمع ابن الرومي هذه المعاني في قوله

والله ما أدري لأيّة علة يدعونها في الراح باسم الراح

الريحها أم روحها تحت الحشا أم لارتياح نديمها المرتاح

ومما يدل على مقام الخمر عند العرب، أنهم اشتقوا لها اسماً من أشرف ألفاظهم، أي من مادة كرم فسموها كرمة. وقد جاء في الحديث نهي عن تسميتها كرمة، هذا لفظ الحديث «لا تسموا العنب الكرم، فإنما الكرم الرجل المسلم»^(٢٥)، وليس الغرض حقيقة النهي عن تسميته كرمًا، ولكنه رمز إلى أن هذا النوع من غير الأناسي [=البشر] المسمى بالاسم المشتق من الكرم، أتم أحقاء بأن لا تؤهلوه لهذه التسمية غيرة للمسلم، التقي أن يشارك فيما سماه الله تعالى وخصه بأن جعله صنعة، فضلاً أن تسموا بالكريم من ليس بمسلم،

(٢٥) صحيح مسلم.

فكانه قال: إن تأتي لكم أن لا تسموه مثلاً باسم الكرم ولكن بالجفنه أو الحبله فافعلوا . وقوله: فإنما الكرم؛ أي فإنما المستحق للاسم المشتق من الكرم المسلم . اب (راجع مادة ك. ر. م. في القاموس) .

حاشية . . الحبل: شجر العنب، أو قضبانه، الواحدة حبله، ولا تزال هذه اللفظة مستعملة إلى اليوم في رام الله وغيرها من قرى القدس بمعنى كرم العنب .

(٢) ومن آثار تقديس الكرمة عند العرب، أن القرآن أقسم بها في قوله والعنب والتين^(٣٦)، ولا شك أنها كانت لعهد التنزيل مما يقسم به العرب، والقسم لا يكون إلا بأقدس الأشياء وأعزها . . ولعل ذلك من آثار عبادة الخمر أو عبادة الشجر .

(٣) إن الشعراء الذين كانوا يتغزلون بالعزة الإلهية، كانوا يرمزون بالخمرة عن المحبة الإلهية بل عن الله، وأشهر المنظومات في هذا الباب، قصيدة ابن الفارض التي يقول في مطلعها:

شربنا على ذكر الحبيب مدامةً سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

(٤) إن العرب لعهد النبوة كانوا يفرطون في شرب الخمر، ومنهم من كان يشرب في المسجد، ويصلون وهم سكارى، فنزلت الآية «لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى»^(٣٧) . ومعاقرتهم الخمر في المسجد أثر من آثار عبادة الخمرة، أو عبادة باخوس إله الخمر عند اليونان .

(٥) ومع أن القرآن حرم شربها، فإن العرب لم يكونوا أقل معاقرة لها في الإسلام منهم في الجاهلية، وأخبار الخلفاء ومجالس شرايهم مشهورة .

(٦) أما المسيحيون، فقد تسربت عبادة الخمرة إليهم ممن دخل إلى الكنيسة المسيحية من الأمم التي كانت تعبد الخمرة . ولعل تناول الخمر والخبز في الكنيسة أثر من تلك العبادة، وإن حاول المسيحيون أن يفسروا ذلك تفسيراً آخر لا معنى له . وفي صلاة العرس يطلب الكاهن من الله أن يملأ بيت العروسين زينة وخمراً وقمحاً، كأن وجود الخمر في البيت من بركات الله . وفي الصلاة التي يُقيمونها على القبور، لا بد من وجود آنية الخمرة عند رأس الميت، ثم يتناولها الكاهن وينضح بها ثرى القبر، وما ذلك إلا أثر من آثار عبادة الخمرة أو عبادة باخوس . وقد جاء في قول الشاعر ما يلتئم مع هذا المعنى، إذ قال:

ولا تدفنني في الفلاة فإنني أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

(٣٦) هنا خطأ السكاكيني، فلا يوجد قسم بالعنب في القرآن الكريم، والقسم هو بالتين، والآية المقصودة هي «التين والزيتون وطور سينين» (الآية ١ من سورة «التين» .
(٣٧) الآية (٤٣) من سورة «النساء» .

إذا متُّ فادفني إلى جنب كرمة

تروي عظامي بعد موتي عروقها

بل المسيح نفسه، قال: أنا الكرمة وأبي الكرام، والأغرب أن الإنجيل، يقول: إن أول معجزة عملها المسيح كانت تحويل الماء إلى خمر، وآخر عمل عمله تناوله الخمر مع تلاميذه عشية صلبه.

(٧) ثم إن الظروف التي يتعاطى الناس فيها الخمر تدل على ما لها من المقام في النفوس، فهم يتعاطونها إذا التقى الصديق بصديقه أو حين يفترقان، ويتناولونها في الأعياد والأفراح والولائم والأحزان، كأنها من المراسم الدينية التي لا غنى عنها، ولا شك أن ذلك أثر من آثار عبادة باخوس. بل كان الناس في قديم الزمان ولا يزالون يعتقدون أنها شافية. فقد ورد في إحدى رسائل مار بولس إلى أحد تلاميذه قوله: واشرب قليلاً من الخمر فإنها تقوي معدتك. وقد ورد في المزامير: قليل من الخمر يفرح قلب الإنسان. بل قد دخلت عبادة باخوس إلى الطب، إذ يستعمل الأطباء الخمر دواءً. . . ولا يزال العامة يعظمونها ويقدمونها ولو استطاعوا لأنشأوا لها الهياكل. . . فهم يشربونها في الصباح بحجة أنها تقتل الدود، ويشربونها قبل الأكل بحجة أنها تفتح الشهية، ويشربونها بعد الطعام بحجة أنها هاضمة، ويشربونها في المساء بحجة أنها منبهة إذا أرادوا السهر، وبحجة أنها منومة إذا أرادوا النوم، ويشربونها في أيام البرد بحجة أنها مدفئة، ويشربونها في أيام الحر بحجة أنها مرطبة، إلى غير ذلك من الحجج التي تشف عن إغراقهم في عبادة باخوس.

(٨) كانت صناعة الخمر محصورة في الأديار، فلم يكن دير يخلو من معصرة، وهي لا تزال صناعتهم التي لا يُجيدون غيرها، بل لا عمل لهم سواها، فإذا دخلت الدير يوماً سطمك شذاها فتحسب أنك في حانة، وإذا دخلت صوامعهم وجدت الدنان والأباريق والبواطي والتراجيد والرواقيد والكؤوس والجمامات كأنها من شعائر الدين. ومعققة الدير أطيب الخمور وأشهاها حتى ضرب بها المثل فكان الرهبان في كل عصر دعاة عبادة باخوس.

(٩) يُحكى أن بعض القسيسين خرجوا يوماً للنزهة، فلما قعدوا يأكلون، قال بعضهم لبعض: لنقرأ فصلاً من الكتاب المقدس، ففتشوا عن كتاب فلم يجدوا، ثم تناولوا زجاجات الخمر وكانت مختومة واحتاجوا إلى «بريمة» لإخراج سداداتها فمد كل واحد منهم يده إلى جيبه، وأخرج منها بريمة كأنها ألزم له من الإنجيل.

التوحيد

يقول علماء الدين: أن فكرة التوحيد هي أرقى فكرة دينية، ولكن إذا اعتبرنا أن الدين يمثل الحكومة في

الأرض، كان الإشراف بالله أرقى من فكرة التوحيد، لأن الإشراف بالله يمثل الشورى أو الحكومات الجمهورية. وهي أرقى من الحكومات المطلقة المستبدة. الأمة التي تعتقد بالتوحيد تصور الله كملك مطلق التصرف مستبد في أعماله جبار، إرادته فوق كل إرادة، تتقرب إليه بالعبودية، فيكون شأنهم معه شأن العبد مع سيده، ولذلك سمي الناس عباد الله، أي: عبيده. فهو يحيي ويميت ويغني ويفقر ولا اعتراض على حكمه، وسمي محل اجتماع الناس للصلاة مسجداً ومعبدًا، أي: محل السجود والعبادة، فإذا دخلوا إليه استشعروا خشية وإذا سجدوا أصقوا جباههم بالأرض، وإذا وقفوا رأيتهم ساكنين هيبة كأن على رؤوسهم الطير، فليست الصلاة في عرفهم إلا إعلان العبودية، ولا غرض لها إلا إذلال النفس... فإذا طال العهد على أمة وهي تدين بمثل هذا الدين فلا شك أنها تنحط وتضمحل... الديانة المسيحية ديانة توحيد، إلا أنها تختلف عن غيرها في علاقتها بالله. إذ تعتقد أن الله أب لا ملك ولا سيد، ولذلك كانت ديانة الأمم الراقية. ولذلك لا يجوز أن تعتبر أنها مشتقة من الديانة الإسرائيلية. لأنها تختلف عنها اختلافاً جوهرياً. فالديانة الإسرائيلية تذهب إلى أن الله ملك عظيم وأن الإنسان ليس إلا عبداً له. بل الديانة المسيحية ليست شرقية ولا سامية، لأن الشرق أو العنصر السامي ألف الحكومة المطلقة المستبدة. وليس الحاكم في الشرق إلا سيدياً عظيماً ينظر إلى الناس كما ينظر إلى خشاش الأرض. ولعلها يونانية أكثر منها إسرائيلية. وإذا قيض لدين من الأديان أن يعيش في المستقبل كان الدين المسيحي. كما أنه إذا لم يكن بدياً في المستقبل من حكومة، فلا بد أن يكون الحاكم إما خادماً للأمة أو أباً لها. فمن هذه الجهة يعتبر الدين المسيحي ديناً راقياً... لأنه يمثل الله كأب وهذا أرقى ما تصل إليه الحكومات. المسيحي يدخل الكنيسة كما يدخل إلى بيته بدون خشية ولا رهبة، لا يسجد كثيراً ولا يقف كثيراً، بل يجد في كنيسته مقعداً أو كرسيًا يجلس فيه ويأخذ حرته وراحته. وقد عدل الوعاظ في الكنيسة المسيحية عن لهجة التقرير والتوبيخ وتحقير الناس، كأن يقولوا لهم: أتم خطاة دنسون قدرون، أتم دود وتراب الأرض. والواعظ الذي يتخذ مثل هذه اللهجة في وعظه، أدار له الناس ظهورهم وخرجوا من كنيسته... هذا موضوع واسع لم أطلع على كلام فيه لأحد، وسأحاول أن أستوفيه في غير هذا الوقت، ولعل ابن سناء الملك تنبه لحالة الدين في الشرق، فقال:

إذا كان إدراك الهدى بتذلل رأيت الهدى أن لا أميل إلى الهدى

يوم الجمعة في ١٦ ت ٢ غ/ ١٩١٧م

إذا لم يكن بدياً من أن أدين بدين فإني أحب أن يكون الله أباً لي لا ملكي ولا سيدي، كما أنه إذا لم يكن بدياً من حاكم في هذه الأرض، فخير الحكام من كان أباً للرعية، لا سيدياً أو أميراً أو ملكاً أو إمبراطوراً إلى غير

ذلك من الأسماء . . . وإذا لم يمكن أن يكون الحاكم أباً فليكن خادماً ، إن أحس الخدمة فيه وأو فليستبدل
 بغيره . . . كما هو شأن الحكام الآن في أكثر ممالك الأرض ، فإن الحكومة ليست الملك أو الأمير أو
 الإمبراطور ، فإن هؤلاء أصبحوا اليوم أعضاء أثرية في الهيئة الاجتماعية ، وإنما الحكومة هي الوزراء ، فإذا
 اكتسبوا ثقة الأمة وبرهنوا على اقتدارهم وكفايتهم عاشت وزارتهم ، وإلا سقطت واستبدلت بغيرها . . . وما
 مثل الحكومة إلا مثل محل تجاري والحكام مديروه . فإذا احتجت إلى مدير لمحلك التجاري فإنك تختار من
 كانت فيه الكفاية والأمانة ، ولا يهّمك هل هو أسمر اللون أو أبيضه طويل أو قصير من ذوي قرباك أو غريب
 عنك . نعم إذا وجدت الكفاية والأمانة في أخيك أو ابن عمك فهو أولى من غيره ، وإلا فالغريب أولى إلى أن
 يبدو لك منه ما يدعو إلى الريبة فيه ، فتعزله عن إدارة محلك التجاري وتسند الوظيفة إلى غيره ، لأن المهم
 عندك إدارة العمل لا شخص المدير . . . على أنك إذا استطعت أن تكون أنت مدير عملك فذلك أحسن
 وأفضل . على حدّ قول الشاعر :

من حك جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك

وأنت إذا تدبرت الأمر رأيت الشبه تاماً بين الديانات والحكومات ، فالله في الديانات اليوم ليس إلا كأحد
 الملوك لا عمل له ، وإنما الإدارة كلها في يد رجال الدين أو الوزارة الدينية . فهي التي تتولى شؤون الناس
 الروحية ، كما أن الوزارت تتولى إدارة الأمم في أمورهم السياسية والإدارية والاقتصادية وغير ذلك . بل بعض
 الوزارات الدينية حلت محل الله ، فهي تمثل قوة هائلة ويدها خلاص البشر أو هلاكهم مثل الوزارة الفاتكانية ،
 وحياة هذه الوزارة توقفت ليس على حاجة الناس إليها أو نفعها لهم ، بل على نفوذها فيهم وسلطانها عليهم .
 ولا بد أن يجيء وقت ينتفض الناس عليها ويخرجون عن طاعتها ، فتداعى إلى السقوط ، فيصير كل إنسان
 إله نفسه وولي أمره ، كما يخرج الحكم من يد الملك إلى يد الوزارة ثم إلى أيدي الأفراد فيحكم كل إنسان نفسه
 بنفسه .

كانت الديانات تتداخل في كل شيء من شؤون البشر ، ثم مع توالي الزمان أصبح الناس يتحررون من
 سلطتها من حيث يدرون ولا يدرون ، ويطبقون حياتهم على الأصول العلمية لا على الأصول الدينية ، فإذا
 مرض الواحد ولو كان شديد التمسك بالدين ، فإنه يلجأ إلى الطب لا إلى الكهنة ، وإذا تعامل الناس بعضهم مع
 بعض ولو كانوا من دين واحد ، فإنهم يتعاملون حسب الأصول المرعية في العالم لا حسب الأقوال المنزلة ،
 وإذا رأيت الناس في كثير من أحوالهم يقيمون شعائر الدين ، فليس ذلك إلا على سبيل التقليد ، بحيث لم يبق
 من الدين إلا قشوره . كما لم يبق من الحكومات إلا قشورها ، والخلاصة فإن العالم يصير إلى إبطال الدين
 والحكومة والزمان كليل بذلك ، رضينا أو لم نرض .

يوم السبت في ١٧ ت ٢ غ ١٩١٧م

منذ تسعة أيام أخذت الحكومة العثمانية تتسحب من القدس، لأن الجيش الإنكليزي أصبح على الأبواب، وقد اختلفت آراؤهم في مصير القدس أو مصير فلسطين؛ فالبعض يقول: إنها ستصير إنكليزية لأن الإنكليز هم الفاتحون، والبعض يقول: إنها ستلحق بمصر، والبعض إنها ستصبح حرّة. البعض يتأسفون على العهد العثماني ويتخوفون من العهد الجديد، لأنهم ألفوا القديم ولم يألفوا الجديد. كان الناس يخافون أن تخلي الحكومة العثمانية القدس كما أخلت يافا وغزة، فلما رأوا أنها إلى اليوم لم تفعل ذلك، عدّوا لها ذلك فضلاً عظيماً يمحو كثيراً من سيئاتها الماضية. والبعض من المسلمين من الطراز القديم يتأسفون على تقلص ظل العثمانية عن هذه البلاد، لأنهم يعتقدون أن ذهابها من هذه البلاد ضربة على الإسلام، وأن دخول الإنكليز يعزز النصرانية ويعلي شأن الصليب. كما أن هناك فريقاً من المسيحيين الصعاليك من ينتظر مجيء الإنكليز لتعزز النصرانية، ومتى جاء الإنكليز شمخوا بأنوفهم وصعروا خدودهم، وقد كانوا بالأمس أذل من نقد، إذا رأى الواحد منهم غير شيء ظنّه رجلاً... ورحم الله أبا الطيب المتنبّي إذ قال:

فإني رأيت الضرّ أهون منظرًا وأجمل من مرأى صغير به كبر

.....

ومهما يكن الأمر، فإن هذه الأيام أهمّ أيام فلسطين التاريخية، وقد مرّت أجيالٌ عليها وهي تنتظر مثل هذه الأيام. وأمسك القلم هنا إلى أن نعبّر هذه الأيام فأكتب تأثراتي وخواطري في حينها قريباً إن شاء الله.

الساعة العاشرة من مساء السبت في ١٧ ت ٢ غ/١٩١٧م

ذهبت في أول المساء إلى بيت إسماعيل بك الحسيني^(٣٨) فشربنا قليلاً من الخمر ثم جاء حسين أفندي الحسيني فشربنا قليلاً، ثم ذهبنا إلى بيته واستأنفنا الشرب، حتى كدت أضرب رأسي بالحائط. ثم دعاني لتناول العشاء عنده. وبعد العشاء جاء فريد بك سر طيب الهلال الأحمر، مع حاشية من رجال الهلال الأحمر فسهرنا إلى نحو الساعة العاشرة. ثم خرجنا فودعت فريد بك وكررت الشاء على فضل الهلال الأحمر يوم كان سري مريضاً. وذهب حسين أفندي وإسماعيل بك يزوران المتصرف. شاع الليلة أن خليل الرحمن سقطت في يد الإنكليز، وأن الطيارات الإنكليزية التي حلقت فوق القدس اليوم، أقت مكاتب تقول فيها: إنهم سيدخلون غداً القدس باحتفال عظيم. ثم قد سمعت الليلة أن الحكومة

(٣٨) إسماعيل الحسيني: (١٨٦٠ - ١٩٤٥)، من أعيان القدس وأثرائها البارزين، أدى أدواراً مهمة في المعارف والإدارة العثمانية، أقام العام ١٨٩٧ بيته المشهور في حارة الشيخ جراح، والذي استقبل فيه القيصر الألماني (غليوم) العام ١٨٩٨، والذي تحول إلى فندق «نيو اورينت هاوس».

العثمانية ستقيم خطاً دفاعاً حول القدس بالقرب من مار إلياس، فإن صحَّ ذلك رأت القدس غداً ما لم يخطر لها في بال... فهمت من فريد بك أن الهلال الأحمر سيُسافر من القدس هذه الليلة، وتدلّ القرائن أن المتصرف سيُسافر هذه الليلة أيضاً... وليس لي في هذا الموقف إلا أن أقول ما قال المسيح «لا تهتم بالغد، فإن الغد يهتم بنفسه».

الأحد في ١٨ ت ٢ غ/١٩١٧م
ماذا أعمل بعد الحرب؟

الجواب على هذا السؤال، ولم تنقض الحرب بعد، قبل أوانه، ولكن سأذكر هنا ما لعله يكون كتوطئة للجواب في ما بعد:

(١) مر عليّ ثماني سنوات وأنا مستقلٌ بعلمي في المدرسة الدستورية، وقد ظهر لي أن الإستمرار على هذا العمل لا يُجديني نفعاً لسببين: أولاً لأن مدرستي بسبب أنني القائم بها وحدي، فلا جمعية تعضدني ولا شريك يُقاسمني الاهتمام بها، لا أستطيع مزاحمة المدارس الأجنبية ذوات الجمعيات الغنية، فإذا أحضرت معلماً أحضرت معلمين، وإذا خففت الرسم قليلاً جعلت التعليم مجاناً... وثانياً لأن المبادئ التي أجري عليها في مدرستي في التعليم أو التربية لم يألفها الناس، فلا أنتظر منهم أن يقدروها قدرها. هذه الجهة السيئة من اشتغالي بمدرستي، وأما الجهة الحسنة فهي أنني كنت فيها وليّ أمري، أصدر في كل شيء عن رأيي؛ أعلم ما أريد كما أريد، لا رئيس ولا مسيطر.

(٢) اشتغلت مدةً طويلة مع الأجانب، كنت معهم دائماً في عراقك؛ كانوا يُحاولون أن يلزموني أن أجري في التعليم والتربية على الطرق التي يرسمونها لي، وكانت نفسي تأبى عليّ ذلك، حتى اضطرت أخيراً إلى الإستعفاء. إلا أن أجرتي كانت كافية، والدفع كان في أوقاته.

(٣) اشتغلت في نظارة المدارس للروم الأرثوذكس، ولكن لم ألبث أن استعفيت، مع أن معاشي كان كبيراً، لم يتناول أحد من المعلمين مثله قبلي، ولكن رأيت من انحطاطهم وسوء نيتهم في مدارسهم، ما حملني على الإستعفاء والإستكفاف من الشغل معهم.

(٤) اشتغلت أخيراً في المدرسة الصلاحية وكانت أرقى المدارس الوطنية، وقد كنت أجد لذة في العمل، إلا أن عادة المدارس الوطنية الإبطاء في الدفع، بحيث يمرّ الشهر والشهران والمعلم عندهم لا ينال من معاشه شيئاً.

هذه حالة المدارس في الزمن الماضي، وأما ماذا تكون في المستقبل فالله أعلم، فهل أرجع إلى مدرستي أو أشتغل مع الأجانب أو في المدارس الوطنية، فهذا أترك الحكم فيه إلى المستقبل القريب إن شاء الله.

مساء الأحد في ١٨ ت ٢ غ/١٩١٧م

أعلنت الحكومة العثمانية أنها ستقيم في القدس خطاً دفاعاً فتولى الناس الخوف وتقسمتهم الظنون. إلا أن البعض حسب أن القصد من هذا الإعلان التهويل، لعل هناك جواسيس للإنكليز فينقلوا الخبر إليهم، فيتأخر الجيش الإنكليزي في قدومه إلى القدس، فيتسع الوقت للحكومة العثمانية لأن تنسحب من القدس، وتجمع بقايا جيشها في نقطة أخرى للدفاع. ومهما يكن الحال فقد تكون هذه الأيام أهول ما مرّ بالقدس. سُمع بالأمس دوي المدافع، ولكن لم يعرف أحد محل إطلاقها. . . وقد شاع في المساء أن الإنكليز وصلوا في زحفهم إلى قلقيليا بالقرب من نابلس. على أن هذه الحرب علمتنا أن لا نسترسل في الثقة بالإشاعات. . . قررت أن أزم بيتي إلى أن نعبّر هذه الأيام. ومهما سقط من السماء تتلقاه الأرض.

الاثنين في ١٩ ت ٢ غ/١٩١٧م

سافر اليوم الظهر الرؤساء الروحانيون: بطريرك الروم الأرثوذكس و بطريرك اللاتين ومطران الأقباط ومطران السريان ورئيس الحبش وحاخام اليهود، ولم يزل الجند العثماني منذ الصباح إلى الآن (الساعة الثانية بعد الظهر) ينسحب إلى نابلس بخيله ورجاله وسياراته وعرباتهِ وعدده ومدافعه، وقد بلغ الازدحام في الطريق اليوم أكثر من كل يوم. إذا كان هذا الجيش المنسحب، فماذا يكون الجيش الزاحف؟ وإذا كان الأمر هكذا هنا، فماذا يكون في ساحات أوروبا. . . فهل جنت الإنسانية أو رخصت النفوس أو عظم المطلوب؟ رحم الله أبا الطيب المتنبّي القائل:

ومراد النفوس أحقر من أن نتعادي فيه وأن نتفانى

.....

جاء اليوم جرحى من العرّوب مما يدلّ على أن الإنكليز جاؤوا إليها، ويُقال: إن الجيش الإنكليزي زاحف في ثلاثة خطوط: الواحد عن طريق الخليل، والثاني عن طريق الساحل، ويُقال: إنه صار قريباً من نابلس، والآخر صاعد إلى القدس عن طريق يافا، ويُقال: إنه صار قريباً من باب الوادي. وقد صرّح أحد القواد الكبار [وهو] عصمت بك، الذي مرّ بالقدس اليوم في رجوعه من الخليل، أن الإنكليز في يومين أو ثلاثة يكونون في القدس. . . وقد كان من رأي هذا القائد أن تنسحب القوى العثمانية من بئر سبع وغزة قبل نشوب القتال، ولكن فون كريس [وهو قائد عسكري ألماني] أصرّ على الدفاع والثبات أمام القوى الإنكليزية فتولى هو إدارة الحرب، ولكن لما حلّ الفشل بالجيش العثماني تركه وذهب، فقتل من قتل وفرّ من فرّ لا يلوي أولهم على آخرهم.

.....

مرت اليوم مدفعية عثمانية من القدس وسارت في طريق نابلس، فلما وصلت إلى قمة الجبل بين القدس وشعفاط، عادت فسارت في طريق جبل الزيتون، ثم لم تلبث أن رجعت فذهبت إلى قرية لفتا لتدفع الجيش الإنكليزي الصاعد إلى القدس من طريق يافا، مما يدل على حيرتهم واضطرابهم... ظهرت اليوم ثلاث طائرات إنكليزية حلقت فوق القدس قليلاً، ثم تابعت طيرانها في طريق نابلس، ولم تعد. ولكنها بالأمس ظهرت ثلاث مرات في الصباح وبعد الظهر وقيل الغروب.

الثلاثاء في ٢٠ ت ٢ غ/١٩١٧م

استيقظنا على أصوات المدافع تدوي من بعيد ولعلها في الجهة الغربية. ثم لم تلبث أن ظهرت طائرة من بعيد في الجهة التي تدوي فيها أصوات المدافع. وفي الوقت ذاته ظهرت ثلاث طائرات في سماء القدس ووجهتها طريق نابلس.

مرت كواكب كثيرة من الخيالة والهجانة، فذهبت في طريق جبل الزيتون، ثم تركت الطريق واجتازت في الحقول إلى طريق نابلس... اشتدت المدفعية قبل الظهر، وكان يتخللها دوي طلقات المتراليوز، مما يستتج منه أن محل الضرب قريب... أعلنت الحكومة اليوم أن السفر إلى نابلس ممنوع، وأما من شاء أن يسافر من أهل القدس فليس أمامه إلا طريق أريحا وطريق السلط... مما استدل منه كثيرون أن طريق نابلس مقطوعة. مرت بنا عدة أيام ونحن لا نأكل غير الخبز والزيتون، واليوم أصبحت ولا تنباك عندي فضقت أخلاقي وتولاني الضجر... أثبت هذه الملاحظة هنا لتعجب من غرائب عقول البشر. هذه الأيام أهم أيام التاريخ، والجيوش تتفانى هجوماً ودفاعاً والأمم بأجمعها شاخصة بأبصارها مشرّبة بأعناقها لترى نتيجة هذه الحرب الطامة، هل هي عليها أولها... والرجل مثلي تضيق أخلاقه ويتولاه الضجر لأنه أصبح ذات يوم وليس عنده تنباك!!! ولكن ما هذه الحرب وعلام هذا التطاحن؟! بالأمس كانت الأمم دائبة في حياتها اليومية يعامل بعضها بعضاً، يجوس الإنكليزي خلال الديار الألمانية، والألماني خلال الديار الإنكليزية فلا ينظر إليه أحد شزراً ولا تربد الوجوه من رؤيته، فما أعلنت الحرب حتى صار كل واحد للآخر عدواً بيناً. أليس ذلك من غرائب العقول، بل من دلائل الجنون؟! فليس ضجري من عدم التنباك أكثر غرابة من قيام الأمم بعضها على بعض... لنرجع إلى حوادث هذا النهار.

عادت المدفعية فاشتدت بعد الظهر إلى هبوط الظلام، ويقال: إن أهل قرية لفتا كانوا يرون بريق المدافع ودخان القنابل والغبار الذي تثيره حين تنفجر عند وقوعها، مما يدل على أن المعارك قريبة جداً. ولكن استمرار المدفعية من الصباح إلى المساء يدل على ثبات المدافعين وشجاعتهم ومنعة مواقفهم. مهما كانت

أسباب الحرب، فإذا كانت تبيحها الحياة أو الموت فيجب الثبات إلى النهاية. فإذا تفانى الإنكليز في الهجوم وتفانى العثمانيون في الدفاع، فذلك أشرف من الاستسلام إلى اليأس والرضى من الزمان بالنصيب الأخر، ومن الغنيمة بالإياب، فلا نامت أعين الجبناء.

....

ماذا عملت أنا في هذه الحرب... مرّت ثلاث سنوات على الحرب والناس من مشارق الأرض ومغاربها، يخوضون غبارها ويصلون نارها، وأنا لا همّ لي إلا في قعّين من لبن وقصعة من ثريد كما يقولون... نعم لا أحبّ الحرب ولا أرضى عنها مهما كانت أسبابها ونتائجها، وإذا لم يكن بدّ منها فعلى الأقل لا أحبّ أن ألقى إلا في جانب الحق على الباطل. أي لا أحبّ أن أكون في جانب العثمانيين لأنني عثماني، ولا في جانب الإنكليز لأنني أعجب بهم، بل أحبّ أن أكون في جانب الحق مع العثمانيين أو عليهم. وإذا لم تمكني الأحوال من معرفة الحق هل هو في هذا الجانب أو ذاك؟ بل لو فرضنا أن الحق في جانب الإنكليز بدليل انضمام العالم كله إلى جانبهم، أفلا يجب عليّ وأنا في البلاد العثمانية أن أنضمّ إلى جانب الإنسانية في الأمة العثمانية؟ إذا كنت أكره الحرب فهل أكره الإنسانية؟ إذا كنت لا أحبّ أن أحمل السلاح، أفلا يجب عليّ أن أساعد الجرحى؟ ومن أحقّ من جرحى العثمانيين بالمساعدة؟! الجندي إذا سقط في ساحة القتال قتيلاً أو جريحاً لم يعد عثمانياً أو إنكليزياً، بل يصبح إنساناً محضاً بدون صبغة ولا لون. فالميت يجب إكرامه والجريح تجب العناية به، والرافة به ولو كانت أمته معادية، أو لم تكن على حق في قتالها، بل الجندي ما دام في صفوف المقاتلين فهو ممثل أمته، فإذا سقط قتيلاً أو جريحاً أو أسيراً لم يعد يمثل إلا نفسه، والحرب ليست بين الأفراد بل بين الأمم. وحينئذ فلا يجوز أن يؤخذ بجريرة أمته... إذا كنت أكره الحرب، أفلا يجب عليّ كإنسان أن أشترك في مساعدة أولئك الأفراد الساقطين في ساحات القتال؟.. ومن أحقّ من الجرحى العثمانيين بالمساعدة؟ رأيت اليوم منظرًا يُفثت الأكباد. رأيت بعض الجرحى من الجنود العثمانيين، هذا يده معصوبة وذاك رجله مربوطة راكبين على خيول، وقد أخذ بأعنتها بعض الجنود ليذهبوا بهم إلى نابلس، وكانت السماء غائمة تنذر بالمطر وليس على الجرحى من الثياب ما يقيهم من البرد والمطر. إنما كان يجب أن يترك هؤلاء الجرحى في المستشفيات إلى أن يصحوا. وإذا كانت المستشفيات ملاءم، أفما كان يجب على الأمة العثمانية أن تفتح بيوتها وتقبل فيها أولئك الجرحى، أو على الأقل أفما كان يجب أن يُنقل أولئك الجرحى في السيارات بدلاً من أن يُنقل فيها الأخشاب والطاولات والكراسي، فمن أحقّ من الجرحى العثمانيين بالمساعدة؟

آسف جداً أنني لم أتطوّع من أول الأمر في خدمة الجرحى، ولكن ما أدراني أنني لو تطوّعت في خدمة

الجرحى أنهم يرفضون ذلك، ويكلفوني حمل السلاح أو عملاً آخر لا أنفع فيه أحداً، ولا أرى فيه إلا الإمتحان... لا يعزيني إلا أنني كنت في مدة الحرب أشتغل في تعليم الناشئة، لأن الأمة إذا كانت تحتاج إلى من يساعد في خدمة الجرحى، فهي تحتاج إلى من يعتني بأولاد أولئك الجرحى وإعدادهم للمستقبل. وفوق ذلك فإني دفعت خمسا وسبعين ليرة فرنساوية قيمة بدلي، وقدمت مرة للجيش دثارين كتكاليف حربية، ومع ذلك فإني أرى أن الذين حملوا السلاح واقتحموا الأخطار وتحملوا المشاق، أو الذين ذهبوا مع الجيوش لمساعدة الجرحى والمرضى أفضل مني وأجدر بالفخر، وليس لي الآن، وقد أصبحت بدون شغل، إلا أن أسعى في عرض نفسي لخدمة الجرحى في القدس، قبل أن تنقضي هذه الحرب ولا يكون لي فيها يد.

.....

يقال إن الرؤساء الروحانيين الذين سافروا بالأمس ليزالون في رام الله، فإن صحّ ذلك ثبت كون طريق نابلس مقطوعة.

الأربعاء في ٢١ ت ٢٢ غ/١٩١٧م

لم ينقطع المطر كل ليلة أسس، فنمت وأنا أفكر بحالة المحاربين على قمم الجبال أو في بطون الأودية وراء مدافعهم. وكنت أذهب بالفكر من الجيش العثماني إلى الجيش الإنكليزي، وأصور نفسي حالة كل من الجيشين. أتصور الجندي الإنكليزي مدثراً من رأسه إلى قدمه بالصوف والخيام المصددة مضروبة بالقرب منه، وكل حاجاته من طعام وشراب متوافرة لديه، ممتلئ الجسم صحّة وحياة، ثم أتصور الجندي العثماني جائعاً رث الثياب ممزق الحذاء، لا شيء يقيه من المطر والبرد، قائماً في العراء وراء مدفعه يتفقّف من البرد ويتضور من الجوع، فلا يجد غير كسر الخبز اليابس، ثم أتصور نفسي في فراشي آمناً مطمئناً فأستحقر نفسي، وأستصغر همّتي، بقدر ما أتجال المتحاربين وأستعظم همهم، والجندي العثماني على حالته تلك أفخم في عيني شأنًا وأعظم قدراً.

لم يكذبنيق النهار حتى أخذت المدافع تدوي في القضاء، وبتردد صداها في العراء. وكانت كأنها قريبة منا، بحيث كنا نسمع طلقات المتراليوز كأنها في جوار دارنا... ثم ظهرت طيارتان فدومتا فوق القدس قليلاً، ثم اتجهتا إلى الشمال فوق طريق نابلس.

.....

بلغت الحكومة اليوم الباقي من الدوائر العسكرية أن يسافروا عن طريق أريحا، وأن لا يأخذوا معهم إلا

الشمين والمهم من أوراق وغيرها ، وأما ما عدا ذلك فليحرقوه أو فليكسروه . ويُقال : إن في نيتها أن تسلح الجنود الذين في المستشفيات والعنابر ، فإن صح ذلك فلا بُدَّ أنهم يحتاجون إلى من يشتغل في المستشفيات ، وهنا أحسن فرصة لأن أتطوع ، وأن أحمل غيري على التطوع ، فذهبت وعرضت هذا الفكر على الخوaja فيستر فكان من رأيه أن أصبر يومين أو ثلاثة .

الدفاع عن القدس لم يكن من رأي الألمان ولا سفر الرؤساء الروحانيين ، وإنما كان ذلك برأي جمال باشا ، ولذلك سافر كل الألمان من القدس ، واليوم الساعة السادسة مساءً يسافر آخر ضابط ألماني ورد نبأ برقي بالأمس أن يهتوا أسيرة لأربع مئة جريح ، ولكن لم ينجى إلا تسعة وخمسون ، وهم الذين تمكوا من إحضارهم من الجرحى ، وأما بقية الجرحى فقد أخذهم الإنكليز . . . كانت المعركة على طريق يافا هائلة بالأمس فتراجع العثمانيون إلى القسطل فوق قرية قالونة وتقدم الإنكليز . . . ويُقال : لم يكن في معركة أمس من الإنكليز غير الخيالة والمشاة ثم جاءت السيارة المصفحة والمدفعية الكبيرة . . . لم يبق من الطرق مفتوحاً أمام العثمانيين غير طريق أريحا ، وأما طريق نابلس فقطعت تماماً ، وأما من جهة الجنوب ، فلم يبق هناك أحد من الجنود العثمانية . ولم يتقدم الإنكليز لأنه لم يبق حاجة لتقدمهم ، اكتفاءً بالقوات في جهتي الشمال والغرب ، مما يضيق الخناق على العثمانيين فيضطرون إلى الانسحاب من جهة الشرق ، وهي الجهة الوحيدة الباقية مفتوحة أمامهم . على أنه يُقال أن قد جاء أمس بعض جرحى من قرية الخضر . . . أخلى العثمانيون اليوم قرأتي لفتاً وشعفاط من سكانهما وركزوا هناك مدافعهم . فإن صح كل ذلك فالقدس على وشك السقوط غداً أو بعده والله أعلم .

استمر إطلاق المدافع بشدة إلى المساء ، ثم تلاه إطلاق المترايوزات والبنادق . سمعت أن الحكومة العثمانية نسفت محطة السكة الحديدية في القدس . بلغ أحد القادمين من رام الله أن الإنكليز على وشك الوصول إلى البيرة

الخميس في ٢٢ ت ٢٢ غ / ١٩١٧

بعد فترة قصيرة عادت المدفعية ليلة أمس إلى الضرب ، واستمرت الليل كله ، فكانت القنابل كأنها تنطلق عند أذني . وما لمع الفجر حتى أخذت تشد ، فصعدنا إلى الغرفة العليا وشاهدنا ما طالما سمعنا به أو رأيناه مصوراً في الجرائد الحربية . كما نرى القنابل تتساقط بالقرب من قرية النبي صموئيل ، فيتصاعد دخانها كقطع الغيوم ويلمع شرارها ، وبعضها كانت تقع وراء الجبل . لم نكن نرى إلا الدخان هنا وهناك ، وأما دوي المدافع حين الضرب فكان شديداً ، وكان لصوت القنابل وهي مندفعة في الهواء هزيم الرعد وجعجعة الرحي

وغططة القدر وأزيز المرجل، وغير ذلك مما لم يوضع له لفظ خصوصي، وكان الصوت يختلف من القرب إلى البعد أو من البعد إلى القرب... ثم ظهرت أربع طائرات إنكليزية ولم تلبث أن اختفت. وبعد قليل ظهرت طائرة أخرى وجعلت تدوم فوق الجبال كأنها كشافة، فجعلت المدافع تقذفها وكما نرى دخان القذائف فوقها أو تحتها أو بالقرب منها... لا شك أن الذين يسمعون دوي المدافع من بعيد يظنون أن القدس أصبحت رماداً والسكان حُمماً... لو أن المدافع التي سمعناها منذ أيام إلى اليوم كلها تصيب المرمى لوضعت الحرب أوزارها، ولكن الظاهر أن الإصابات قليلة جداً، والإستمرار على الضرب كل هذه المدة من قبيل المثل القائل: لعل بين الخواطي سهما صائباً... بل لعل الضارين يجدون في الضرب لهواً ولعباً وسروراً وطرباً.

....

عند الظهر ظهرت طائرة ألمانية، ثم ما لبثنا أن رأينا طيارتين إنكليزيتين لحقتا بها وجعلت الثلاث يتحاربن في الهواء، فكان منظراً جميلاً، ثم لاذت الطائرة الألمانية بالفرار.. إذا كانت خسائر الحرب في هذا العصر كثيرة مع كثرة الخطأ في الرماية، فماذا تكون لو أتقن الإنسان استعمال المدفع والطيارون الضرب من طياراتهم... خرجت عند الظهر أزور أبا الفضل فرأيت منظراً قبض صدري وكاد يذرف الدمع من عيني، رأيت بعض الأطفال من مدرسة الأيتام التي تأسست في مدة الحرب في القدس يطوفون بهم من محلة إلى أخرى ليوزعوهم على البيوت، لأن مدرسة الأيتام تعطلت، وكان الأطفال يكونون: هذا ينادي أمه وذاك ينادي أباه، فجمدت في موقعي وتمنيت لو أستطيع أن أضمهم إلى بيتي، وأعتني بهم عنايتي بسري، ولكن ماذا أعمل ونحن لا نملك ما يسد الرمق؟.. هذه ويلات الحروب وهذه فظائعها. موت الجنود في ساحات القتال أهون من بكاء الأيتام والأطفال.. إذا كانت هذه نتائج الحروب فالأفضل أن لا يتزوج البشر ولا يخلفوا نسلاً، بل وأد البنات في جاهلية العرب أهون من تعريض الأطفال لليتم والشقاء... ماذا يضرك أيتها الحكومة لو أبقيت على ماوى الأيتام، وتركت لهم ما يسد رمقهم إلى أن يجيء الإنكليز، بدلاً من أن تحرقني عنابرك الملائى بالقمح وغيره من لوازم الحياة؟... ليس الفخر في الإنتصار، ولا العار في الإنكسار، ولكن العار كل العار أن يصبح الأطفال مثل قطائع الغنم يعرضون على الناس عرضاً، فلا يجدون من تأخذه الرأفة بهم... امتنعوا أيها الناس عن الزواج ولا تبالوا بتناقص عددكم وقلة مواليدكم، فلا غرض للحكومات من كثرة النسل إلا زيادة عدد جنودها، فكان البيوت من جملة المعامل العسكرية. وكما تهتم الحكومات بمعامل المدافع والبنادق والقنابل والرصاص تهتم بتكثير المعامل التي تقدم لها جنوداً، كما تقدم لها تلك المدافع وغيرها من لوازم الحرب. يجب أن يكون غرض الزواج أشرف وأعلى مما تظن الحكومات. خير لك أن تبقى بلا نسل وتموت عن غير خلف من أن تجعل بيتك معملاً عسكرياً... لا واسطة لإبطال الحروب إلا امتناع الناس عن الزواج، فكان

امتناعهم هذا اعتصاب [= احتجاج] ضد الحرب... لينقطع نسل البشر وتصبح الأرض خالية خاوية كما كانت حين نشأتها ، فإن ذلك خير من أن تصبح ساحات قتال ، ومعرض شقاء ونكال .

.....

يُقال : إن الإنكليز أخذوا قرية جيب ليلة أمس بالحرب ، فتراجعت الجنود العثمانية إلى قرية النبي صموئيل ، فتبعهم الإنكليز وطردهم منها حسب ما صرح به الجرحى من الجنود العثمانية الذين جاؤوا من قرية جيب والنبي صموئيل . وإطلاق المدافع اليوم كان من جانب العثمانيين من قرية لفتا على سفح جبل النبي صموئيل المواجه للقدس منعاً للإنكليز من التقدم . وقال الذين راقبوا ما يجري في سفح ذلك الجبل بالمناظر ، إنهم كانوا يرون الجنود الإنكليزية بين صخور ذلك الجبل . ولم يُقابل الإنكليز المدفعية بمثلها لئلا تقع قنابلهم على أطراف القدس لأن الجيش العثماني قريب منها ، ويُقال : إن الإنكليز حول قرية النبي صموئيل ، يبلغون نحو ثلاثة آيات^(٣٩) .

اشتدت المدفعية بعد الظهر إلى المساء وكان الضرب كله موجهاً إلى قرية النبي صموئيل فكان نرى القنابل تتساقط على تلك القرية وعلى كرومها ومنازلها بحيث أن الدخان كان يتصاعد من ذلك الجبل وينعقد فوقها كالسحاب . . ولكن ما دخل المساء حتى سكنت المدفعية . ولعل العثمانيين نقلوا مدفعياتهم إلى محل آخر أو لاذوا بالفرار ، فإن صح ذلك كان الإنكليز غداً في القدس .

بعد الظهر عند الساعة الرابعة رأينا الدخان يتصاعد من مدرسة شنلر ، ومن محلة الروس على جبل الزيتون ، ويُقال : إن العثمانيين حرقوا ما بقي لهم في ذينك المحليين . . . لم يستول السكون والهدوء كما استوليا هذه الليلة ، ولعل ذلك لأن العثمانيين نقلوا مدافعهم إلى مركز آخر ، أو لاذوا بالفرار كما ذكرنا سابقاً والله أعلم . وعند الصباح يحمد القوم السرى . . . زارنا الليلة حسين أفندي الحسيني فصعدنا إلى الغرفة العليا ، وجلسنا حول مائدة الشراب ، وشربنا حتى كادت الأرض تميد بنا . . . لنتنظر الصباح لنرى ما ينجلي عنه هذا العارض المتألق .

(٣٩) آيات : جمع آلي وهو اللواء من الجيش .

الجمعة في ٢٣ ت ٢ غ/١٩١٧م

قلقت ليلة أمس وما صدقت أن بزغ الفجر، حتى قمت من فراشي وخرجت إلى طُنف الدار، وجعلت أنظر بمجامع عيني وأتسمع بمجامع أذني، وقد اتفق أن سمعت سهيل حصان، فقلت: هذه خيالة الإنكليز... ولكن لما طلع النهار لم أر شيئاً ثم اشتد إطلاق المترايوز إلى الظهر... صعدت إلى الغرفة العليا وأخذت المنظار وجعلت أراقب جبل النبي صموئيل، فلاح لي بعض أشخاص يروحون ويجيئون على قمته. ثم جاء إسماعيل بك الحسيني وحسين أفندي الحسيني والخواجيا فستر، وجعلنا نتطلع إلى جبل النبي صموئيل، فلاح لنا إلى الشمال منه فارس وبعض الجنود... وبعد الظهر اشتدت المدفعية، ولكن أكثرها كان على سفوح الجبال وراء جبل النبي صموئيل. وعند المساء عادت المدافع تضرب القرية، فكانت القنابل تتساقط حول جامع النبي صموئيل بحيث كان الدخان يحجب الجامع ويوت القرية عن العيون، وبعض القنابل كانت تقع حول بيت بالقرب من القرية يخص الروس... ثم ظهرت بعض الطائرات، ولما كانت تحلق فوق رؤوسنا، كانوا يطلقون عليها النار من أماكن مختلفة، ثم تذهب الطائرات وتحلق فوق المدفعية العثمانية. لاحظنا أن بعض الطائرات فرنساوية، لأننا كنا نرى في مؤخرها العلم الفرنسي. أمسكوا اليوم بعض الأسرى من الجيش الإنكليزي؛ نحو عشرة، ثلاثة منهم إنكليز والباقي منهم هنود، والإنكليز منهم يلبسون البنطلونات القصيرة مثل البنطلونات التي يلبسونها في لعب الطاولة بالرجل [كرة القدم].

بعد العشاء أخذت المنظار وتطلعت إلى الجبل، فرأيت النار في ثلاثة محلات. لاحظت اليوم أن الإنكليز حفروا خندقاً بالقرب من القرية.

ذهبت في المساء إلى بيت حسين أفندي وجاء إسماعيل بك فشرينا قليلاً... لا يسعني هنا إلا أن أثنى على حسين أفندي، فقد كان الشخص الوحيد الذي لقيت منه مساعدة الأخ لأخيه... عرفت اليوم أن الحريق الذي شب في شنلر وقع اتفاقاً، فحرق فيه اثنان مات أحدهما والثاني نُقل إلى المستشفى... أكتب هذه الأسطر والسكون سائد...

السبت في ٢٤ ت ٢ غ، سنة ١٩١٧م

ما أكثر ما يرتكب الإنسان الخطأ في أحكامه في هذه الأيام، إذا اعتمد على ما يرى أو ما يسمع من أفواه الناس... نسمع المدافع تدوي حولنا؛ ولكن لا نعرف هل هي مدافع إنكليزية أو مدافع عثمانية... نرى القنابل تتساقط على جبل النبي صموئيل فلا نعرف هل أصابت المرمى أم لا... هل القرية في يد الإنكليز أو في يد العثمانيين، وإذا كانت في يد الإنكليز فهل ثبتوا في مواقعهم تحت قنابل العثمانيين، أم انسحبوا منها فأصبح

النبي صموئيل لا انكليزياً ولا عثمانياً؟ ينقطع اطلاق المدافع، فهل كان انقطاعها عن نفاذ الذخيرة أو عن نجاحها أو فشلها أو نقلها من موضع إلى آخر... .

نسمع طلقات المترالوز، فهل هي طلقات المهاجمين أو المدافعين؟ ...

يجري كل ذلك أمام سمعنا وبصرنا، فيجعل كل واحد يؤوله كما يخطر له بدون تثبيت ولا تحقق، أو يفسره حسب أمياله [كذا] وأهوائه ومتمنياته [كذا] ورغائبه.. فما أكثر ما يرتكب الإنسان الخطأ في أحكامه. فجدير بمن كان مثلي يراقب الحرب بنظارته، أن يقتصر على ذكر ما يسمع ويرى بدون إبداء رأيه إلى أن تنجلي له الحقيقة.

* * *

ساد السكون ليلة أمس واليوم صباحاً، عند الساعة الثامنة ابتدأ اطلاق المدافع وكان الضرب متقطعاً. قمت باكراً جداً فاستحمت، ولما جئت لألبس وجدت جواري ممزقة فلبست حذائي بدون جوارب، وهذه أول مرة في حياتي جرى لي مثل ذلك، فالله يستر من الأعظم.. إذا طالت الحرب قليلاً مشيت حافياً، لأن حذائي يكاد يشبه مداس أبي قاسم المشهور.

استدنت منذ مدة خمسين قرشاً من جواد بن اسماعيل بك الحسيني، وقد جاءني بالأمس يتقاضاني [يطالبني بـ] دينه فأملته قليلاً ريثما أدبر له القيمة، ولكن ممن استدين، وماذا أعمل؟.. ليس أمامي إلا حسين أفندي الحسيني ولكن قد جاوزت الحد في التثقل عليه، ويقول المثل: لو كان صديقك عسلاً فلا تلحسه كله... .

اشتد الضرب بعد الظهر على النبي صموئيل من جهتين؛ من جهة لفتا ومن جهة شعفاط، فكانت بعض القنابل تتساقط حول الجامع حسب العادة، ومع هذا فلم يصب الجامع ولا مأذنته بضرر، بحيث يصح أن يضرب بها المثل بعد اليوم في الثبات حيث لا شك في الموت لواقف.. إلا أن بعض القنابل كانت تتساقط اليوم بكثرة على الجانب الأيمن من الجبل، فلعله بدا لهم هناك شيء جديد.. .

عادت اليوم حركة السيارات على طريق نابلس ذاهبة آتية، فهل أمنوا الخطر أو أنها لا تتجاوز رام الله والبيرة! .

لا شيء يتعب الإنسان مثل وقوفه أمام مثل هذه الحوادث جاهلاً.. ولا عجب إذا كان يميل الإنسان إلى التكهن ويفزع إلى جانب التأويل والتعليل، فإن ذلك يريحه ولو أنه لا يطمئن إلى تأويله كل الاطمئنان، بل قد ينساق إلى الاعتقاد بصحة أوهامه، ولا يرى في نفسه حاجة إلى البرهان أو الدليل، بحيث يكون خادعاً ومخدوعاً في وقت واحد.. على أنه قد يصيب بعض الأحيان في حكمه، فيحمله ذلك على الإرسال في

أوهامه والإمعان في عالم خياله ، بل يميل إلى تصديق كل اشاعة أو حديث مرجم ، ولو تناوله من أفواه أكذب الكاذبين ، ثم ينقل ما سمعه إلى غيره كأنه يرتاح إلى اشراك غيره في رأيه ومعتقده ، ثم إذا سأله ممن سمعته لم يزد على قوله : إنه من مصدر ثقة . وإذا كان السامع في حالته النفسية لم يرتب في قوله ولم يخامر فيه أقل شك . وهكذا تنفسي الأوهام وتنتشر الترهات مما كان ولا يزال شائناً معهوداً في طبائع البشر . كل ذلك لأن الإنسان لا يطيق أن يكون جاهلاً الحقيقة ، فإذا لم يعرفها فزع إلى وهمه أراحة لنفسه . . .

يظن أن سبب اشتداد المدفعية اليوم على الجانب الأيمن من جبل النبي صموئيل أن العثمانيين حاولوا الهجوم عليه من ذلك الجانب ، فأصلاهم الإنكليز ناراً حامية ، وقد رأى الذين يراقبون الجبل بنظارات جيدة ، كيف كان الجنود يفرون عند انفجار القنابل ، وقد لاحظوا فرقا بين القنابل التي كانت تتساقط على الجانب الأيمن والقنابل التي كانت تتساقط على الجبل من أيام من جهتين ؛ أولاً أن دخانها أسود كثيف ، وثانياً أنها كانت تتساقط قريباً بعضها من بعض على كل مساحة ذلك الجانب من الجبل . . . وقد راقبت بنفسي ذلك الجانب فلاحظت حركة أشخاص بالقرب من شجرة منفردة وإلى جانبها جدار ، فكان الأشخاص يسترون وراء الجدار ، وهي إلى يمين النبي صموئيل ، فلو كانوا إنكليزاً لاستروا في الجهة الأخرى من الجدار ، ولاستطاعت المدفعية في شعفاط أن تصلهم ناراً حامية . . . يظهر ان المدافع العثمانية صغيرة وتأثيرها قليل ، والا لكانت دكت الأبنية على الجبل ، وحطمت الأشجار لكثرة ما صبت من قنابلها على القرية وعلى حقولها .

يقال : إن الجرحى الذين جاؤوا بهم اليوم مساءً إلى القدس قالوا : إنهم لقوا من مدافع الإنكليز ناراً حامية . كل ذلك قرائن على أن الإنكليز هم الذين كانوا يطلقون مدافعهم على الجانب الأيمن ، بل إن بعض المراقبين قالوا : إنهم كانوا يشاهدون بريق المدافع الإنكليزية من جانب منازل القرية . . .

استمر الإطلاق بشدة إلى المساء ، ولما غابت الشمس كنت أرى بريق المدافع العثمانية من جانب شعفاط ، ثم سكنت المدافع واستولى السكون . . . والله أعلم بما يجيء به الغد «ولكنني عن علم ما في غدٍ عم . . .»

الأحد في ٢٥ ت ٢ غ ، سنة ١٩١٧م

لم يسمع قبل الظهر إطلاقات مدفعية قليلة ، ثم بعد الظهر عند الساعة الواحدة والنصف ، وقعت أول قنبلة في جوار منزل علي أفندي جار الله تحت راس أبو حلاوة عند منعطف الطريق ، فمن الناس من يظن أنها من النبي صموئيل ، ومنهم من يظن أنها من القسطل ، أولاً لأن هذا المحل مكشوف للقسطل ، وثانياً لأن المدفعية الإنكليزية الكبيرة في القسطل ، ويمكن أن الإنكليز لم يتمكنوا من نقلها إلى النبي صموئيل بعد والله أعلم . . . ثم

تبع القبلة الأولى خمس قنابل أخرى في ذات المحل ، فهل يتابعون الضرب أو يكتفون بذلك ، ثم ماذا يكون لهذه القنابل من التأثير؟ ، فالله أعلم . . .

بلغت الحكومة اليوم ستة من المستعمرة الاميركانية أن يستعدوا لمغادرة القدس غداً بعد الظهر ، وهم مستر وايتنك Mr Whiting ومستر جاسي ينتس ومستر اينر شاربورغ ومستر آرثر مايرس ومستر آرنست ومستر كلاونس .

عند الساعة الخامسة وقعت قنبلة أخرى على المحل ذاته أي على الجبل فوق منزل علي أفندي جار الله . بعد الظهر إلى المساء كان الإطلاق على النبي صموئيل خفيفاً متقطعاً ، ولم يكن إلا من جهة شعفاط فقط . ثم فهمت أن المدفعية التي كانت في قرية لفئا ودير ياسين انسحبت من هناك . ويقال : إنه لم يبق في القدس إلا مدفعية شعفاط .

يظن البعض أن الإنكليز كانوا يضربون الجناح الأيمن من جبل النبي صموئيل من قرية بيت إكسا في موقعة أمس ، ويقال : إن خسائر العثمانيين كانت جسيمة . إذا صح كل ذلك فإن الإنكليز محتلون القدس في يوم أو يومين . لم يكذب يهبط الظلام حتى استولى الهدوء والسكون على المدينة .

زررت اسماعيل بك في المساء ، وبعد أن شربنا قليلاً تناولت العشاء عنده ، أنا ومحمود أفندي الراغب الحسيني .

الاثنين في ٢٦ ت ٢ غ ، سنة ١٩١٧م

عند الساعة الثامنة صباحاً ، ابتداء إطلاق المدافع من الجهة الغربية من مكان بعيد . وقد رأينا الدخان يتصاعد وراء راس أبو حلاوة ولعله قطع غيوم . . . وعند الساعة العاشرة أخذت قنابل الإنكليز تتساقط على الطريق بين راس أبي حلاوة وشعفاط ، وقد رأيت عند انفجار احداها كثيرين يركضون بينهم خيال أطلق العنان لفرسه . . . ثم رأينا بعض الجنود من خيالة ومشاة ينحدرون من الطريق إلى جهة المنازل القريبة ليتواروا عن ضرب المدافع . . .

وفي الوقت ذاته ، كانت قنابل العثمانيين من جهة شعفاط تتساقط على الجناح الأيسر من جبل النبي صموئيل ، كأن الإنكليز مهدوا الطريق بين القسطل والنبي صموئيل لجر مدافعهم الضخمة ، فوجه العثمانيون قنابلهم إلى ذلك الجانب ليمنعوهم أو يعيقوهم . وبين هذه وتلك كانت بعض القنابل تتساقط على قرية بير نبالا إلى الشرق من قرية الجيب ، ولم يكن العثمانيون يضربون إلا من جهة شعفاط ، مما يدل على أن المدفعية التي كانت في لفئا ودير ياسين قد انسحبت من هناك . . .

أجل سفر الأميركيين ، ولعلمهم لا يسافرون . ثلاثة من مطارئة الروم الأرثوذكس الذين صدر الأمر بإبعادهم من القدس فروا ولم يهتدوا إلى محل وجودهم إلى الآن . . . وهم بندلايمون وافذروس وميتاس . حدث بعض الجرحى أن قد حدثت بينهم وبين الإنكليز ؛ معركة بالسلاح الأبيض ، ولكن لم نعرف محل تلك المعركة . . .

ظهرت الطائرات قبل الظهر وبعده . يقال : إنه قد رست في مياه يافا أربع وعشرون باخرة أميركية تحمل جنوداً وذخائر .

أعلنت الحكومة أن السفر بين القدس وبيت لحم ممنوع . ويشاع أن الإنكليز في بئر ، بل البعض يقولون إنهم في قرية المالحه^(٤٠) ، ويقول البعض إن الحكومة العثمانية أحرقت اليوم ما عندها من البنادق . أعلنت الحكومة اليوم أن خسائر الإنكليز بلغت أربعة آلاف قتيل ، وأن القوات العثمانية أوقفت تقدمهم ، وأن النجديات العثمانية ترد تباعاً ، وسأثبت نص ذلك الإعلان بحرفه [حرفياً] . بلغ الأميركيون أنهم لا يسافرون الآن . . .

استدنت اليوم من اسماعيل بك الحسيني عشرين فرنكاً دفعت نصفها لولده جواد بك الحسيني ، وذلك قيمة ما استدنته منه قبل بضعة أيام . زارنا اسماعيل بك الحسيني وسعد الدين أفندي الخليلي وبعض السيدات والأوانس من المستعمرة الأميركية ، ليشاهدوا مواقع القتال . ثم خرجت مع اسماعيل بك فوجدنا بالقرب من دارنا جندياً عثمانياً تلوح عليه علائم الجوع والتعب ، فدفعنا له أربعة قروش ، ثم لما وصلنا إلى بيت اسماعيل لقينا جندياً آخر ، ولعله فارّ من ساحة القتال فأمر له اسماعيل بك برغيف . . . وقعت بعض القنابل اليوم على بير نبالا ، فالبعض يقول : إنها في يد الإنكليز ، والبعض يقول : إنها في يد العثمانيين والله أعلم .

كان الضرب اليوم خفيفاً متقطعاً . بعض القنابل وقعت على قرية النبي صموئيل وأما غيرها فلم يعرف لها مأتى [مصدر] ولا وجه . . .

الثلاثاء في ٢٧ ت ٢ غ ، سنة ١٩١٧م

عند نصف الليل من ليلة أسس ، سمعت رجلاً يصيح على الطريق أمام باب دارنا فقمت من فراشي وأسرعت إلى النافذة ، فإذا به يهودي كان ماراً من هناك ، فاعترضه بعض الناس ، ففر منهم يصيح فتركوه ، فرجعت إلى

(٤٠) قرية المالحه : تقع الى الجنوب الغربي من مدينة القدس ، وكان خط سكة حديد يافا . القدس يمر من أراضيها .

فراشي وجعلت أتقلب وأتململ استدعاءً للنوم فلم أنم، فقممت وأشعلت القنديل وعبأت أركيكتي وجلست وراء طاولتي أكتب إلى عيسى العيسى أباسطه، ومن جملة ما قلت له: من يرني يظنني أسعد الناس حالاً، وكان رأي الناس في أثر عليّ، فصرت أظنني سعيداً، بحيث يصح عليّ أني خادع ومخدوع في وقت واحد. ولعل ذلك من جملة الدروس التي تلقيتها في هذه الأيام «توهم أنك سعيد فتسعد»، ما رأيك في هذه الفلسفة يا عيسى؟ لا تظن أني أول من ابتدعها، فقد ذهب فريق من العلماء أن الإنسان لا يحزن فيبكي بل يبكي فيحزن، وأنا أقول: إن الإنسان لا يفرح فيضحك بل يضحك فيفرح. جرب ذلك تفلح ما شاء الله، ولعلك تجد أدلة كثيرة في هذه الحياة على هذه الفلسفة المعكوسة، ثم ذكرته بشعاري الخاص «الخطب هين»، وبعد أن فرغت من المكثوب أويت إلى فراشي وكانت الساعة الثالثة. وما كدت أغمض عيني حتى سمعت طلقات الممراليوز قريبة جداً، حتى خيل إلي أنها على طريق دارنا فهبيت من نومي وهبت سلطانة، وصعدنا إلى الغرفة العليا وجعلنا نسمع بمجامع آذاننا، فكان صوت الطلقات آتياً من الجهة الغربية من وراء مدرسة شنلر، ولكن لم نر شيئاً. ثم تطلعنا إلى جبل النبي صموئيل فرأينا أنواراً كثيرة في أماكن مختلفة من الجبل، وقد رأينا مثل ذلك على الجبل بيننا وبين شعفاط، وكانت الساعة نحو الرابعة والنصف، ثم رجعنا إلى الفراش لعلنا ننام، وإذا بأصوات المدافع تدوي، وكانت قريبة جداً، أقرب من كل مرة، وشديدة جداً بحيث شعرنا أن الدار كلها تهتز بنا، فقممت أهبيء حمامي، وإذا بالباب يطرق طرقاً خفيفاً، ففتحت وإذا صديقي الخواججا ليفين الاسرائيلي، فدخل ثم بعد حديث طويل بيني وبينه هيأنا له غرفة ليقم عندنا بضعة أيام...

ثم اشتدت المدفعية من جهات مختلفة، وبين الساعة الثامنة والتاسعة ظهرت أول طيارة فأخذت القذائف تترامى بالقرب منها، وتترك آثاراً من الدخان هنا وهناك، ثم تبعتها طيارات عديدة. وعند الظهر وقعت قنبلتان على الطريق فوق منزل جار الله في المحل المعهود. وبعد الظهر اشتدت المدفعية بدون انقطاع، ولكن من مكان بعيد إلى الشمال من القدس. ومن وقت إلى آخر كانت بعض القنابل تتساقط على النبي صموئيل، جلست قليلاً في نافذة الغرفة العليا أراقب بنظارتي جبل النبي صموئيل فلاح لي على الجانب الأيمن منه أشباح عديدة يرفعون رؤوسهم ثم يخفضونها، ولعلمهم من الجنود العثمانيين والله أعلم. ومن الساعة الثالثة ابتدأت المدفعية بشدة هائلة لم يسبق لها مثيل، وكانت القنابل تتساقط مثل المطر على جامع النبي صموئيل وحوله، وفي الساعة الرابعة سقطت المأذنة بعد أن ثبتت هذا الثبات العجيب. ثم جعلت القنابل تتساقط على الجبل من أوله إلى آخره وعلى جوانبه وسفوحه والأودية التي تحيط به، بحيث أصبح مثل بركان مضطرم. ولما غابت الشمس كان لتفجر القنابل بريق يبهز الأبصار. ونحو الساعة الرابعة والنصف سقطت نحو ست قنابل على جبل شعفاط. أصابت شظايا إحدى القنبلتين اللتين وقعتا عند الظهر على الطريق

عند راس أبي حلاوة المرحوم انطون أيوب ، وكان قد ذهب هناك لينصب أعلاماً تشير إلى الطريق التي يجب أن ينقل فيها الجرحى إلى المستشفى فوق جريحا ، فأرسل الجندي الذي كان معه لينقل الخبر فما رجعوا إليه إلا وقد فاضت روحه مأسوفاً على شبابه . . ثم أخذ إطلاق المدافع يخف حتى انقطع بتاتا واستولى السكون ، والله أعلم بعدد القتلى والجرحى من الفريقين ولا شك أنه كان عظيماً . . ولعله في جانب الإنكليز أكثر لأنهم كانوا بين ثلاث نيران من لفتا وشعفاط ورام الله . .

في المساء ذهبت أنا وكسطاكي أفندي سابا عضو محكمة الاستئناف ومثري ابن خالتي إلى بيت اسماعيل بك حيث تناول العشاء كسطاكي أفندي ومثري ابن خالتي ، وأما أنا فذهبت مع حسين أفندي الحسيني وتناولت العشاء عنده ، وفي رجوعي إلى البيت مرّ بي نحو ثلاثين حصاناً تحمل جبخانة^(٤١) إلى مواقف القتال ، فعسى أن تكون واقعة اليوم آخر الوقائع والنصر من الله يؤتيه من يشاء .

الأربعاء في ٢٨ ت ٢ غ سنة ١٩١٧م

أخلى العثمانيون بعض المنازل على الطرف الغربي من المدينة ، منها منزل سابا الفران ، وركزوا فيها مدافعهم ، ويقال : إنهم سيخلون منزل سابا عبده ، ومنزل الياس مشبك الواقعين بالقرب من طاحونة الهواء على طريق دير الصليب . يقال إنه وقعت بالأمس قنبلة بالقرب من محلة البخاريين إلى الشمال الغربي من المدينة فقتل واحد . هذه طلائع الولايات التي ستحل بالقدس في هذه الأيام . وقد سمعت بالأمس أن المعركة الهوائية [الجوية] التي وقعت ظهر يوم الخميس الماضي في ٢٢ ت ٢ غ ، قتل فيها اثنان من أهل القدس . كانت المدافع تدوي من وقت إلى آخر كل ليلة أمس ، ولم ينبثق النهار حتى أخذت تدوي ولكن من بعيد ، وكان الضرب متواصلاً بدون انقطاع . ومن وقت إلى آخر كانت تسمع طلقات قريبة وبعضها كان موجهاً إلى النبي صموئيل ، مما يستدل منه أن القرية لا تزال في يد الإنكليز والله أعلم . ما أشوق الناس إلى استطلاع الأخبار في هذه الأيام ، فإنهم يرون ويسمعون ما تقلق له الخواطر وتضطرب الحواس ، ثم هم لا يطلعون على حقيقة ولا يقعون على يقين . .

في الساعة العاشرة ظهر بالون (منطاد) في الجهة الشمالية الغربية لأول مرة وكان ثابتاً لا يتحرك . بلغني أن الحكومة جمعت البدو الموجودين في القدس ، وأن المتصرف عزت بك خطب فيهم ومما قال لهم : لماذا أتم هنا؟ ألتهبوا؟ هو ذا الإنكليز يتراجعون ، فأصبح لكم أن تبعوهم وتنبهوهم فتجدوا شيئاً كثيراً ، اذهبوا من وراء [قرية] جبرين . لا تتعرضوا لهم في النهار بل اكنوا لهم إلى أن يسدل الليل ظلامه وحينئذ فاجئوهم

(٤١) عتاد عسكري وذخيرة

وانهبوا ما تصل إليه أيديكم .. أكنوا في النهار واهجموا في الليل .. فقابلوا نصيحته بالهتاف .

نشرت اليوم الحكومة إعلاناً بخصوص التبعة الأميركية تمهلهم فيه أربعاً وعشرين ساعة ، فإذا لم يسلموا أنفسهم في أثنائها اعتبرهم كجواسيس وتعاملهم بأشد الجزاء . وأما من أخفى أحداً منهم بقصد أو بغير قصد [فَ] يعامل كجاسوس . قام العثمانيون أمس بالهجوم على جبل النبي صموئيل من الثالثة بعد الظهر إلى هبوط الظلام ، فكانت المعركة هائلة جداً حجب فيها الدخان الجبل من أوله إلى آخره ، كما ذكرت في وقائع أمس ، ولم تكن نرى إلا بريق المدافع يومض من خلال الدخان على حد قول الشاعر :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوت كواكبه

ولكن الجبل لم يزل في أيدي الإنكليز .. سمعت اليوم من أفواه بعض فلاحات قرية حانينا [بيت حنينا] أن الإنكليز في بيت إكسا ، وسمعت أمس أن طلائع خيالة الإنكليز وصلت إلى القطامون . وأشيع اليوم أن خيالة الإنكليز وصلوا إلى النبي موسى من جهة الشرق . يقال : إن الجنود العثمانية جائعة ، وقد بلغ الأمر من بعضهم أن أطلقوا النار على قائدهم ..

وقعت اليوم عند الظهر ثلاث قتال على راس أبي حلاوة ، وكان العثمانيون من وقت إلى آخر يطلقون قنابلهم على جبل النبي صموئيل ..

يوم السبت في أول ك ١ غ سنة ١٩١٧م

لم أكد أخط آخر كلمة من وقائع يوم الأربعاء (١٩١٧/١١/٢٨) حتى طرق الباب الخارجي ، فنزلت لأفتح وإذا برجل من البوليس ، يقول : عارف بك في مركز البوليس يطلبك ، فلبست ثيابي وذهبت معه فلم نجد عارف بك بل وجدنا عزت بك ، فقال : ابق هنا . وجدت هناك كثيرين من التبعة الأميركية أكثرهم من اليهود ، وكثيرين من عثمانيين ونمساويين ساقوهم إلى هناك كما ساقوني . ولم أجد من المسيحيين غير جرجي أفندي الحمصي ، وقد سيق قبلي في ذلك النهار ، وبدع السنونو والياس الشدياق ترجمان دير اللاتين ، وقد سيقا بالأمس ، وبعض رهبان دير الروم ، ففهمت أن شائي كشأنهم ، ولم أشك أنهم إنما جمعونا بقصد ابعادنا من القدس ، فأرسلت ورقة إلى البيت أشجعهم وأطلب منهم أن يهيئوا لي لوازم السفر . لم يكن معي بالأمس غير متليكين ، وذلك كل ما كنت أملكه وقد أعطيتهما لسري ليكوي طربوشاً من طرايشي القديمة ، وقد قصصنا أطرافه ليحيى على رأسه . وأما ثيابي فليس لي إلا ما على جسمي ، وأما حذائي فممزق لا أمشي قليلاً حتى ينتقب فاتعل الحفا ، وأما بيتي فليس فيه ما ينقده العصفور .. ثم جعلت أتصور كيف أترك البيت في مثل هذا الوقت الحرج ، والإنكليز على الأبواب والقنابل تتساقط على أطراف المدينة ، ثم ما أدراني أن الحكومة تأمر

بالغد أن يخرج السكان بقضهم وقضيضهم من القدس ، فأين يذهبون ومن يعتني بهم؟ .
وعلى الجملة فقد أظلمت الدنيا في وجهي وجعلت أضرب أحماساً لأسداس ، إلا أنني رأيت الأوفق أن لا
استسلم إلى الجزع ، فجعلت أتلهى بالحديث مع هذا وذاك . وفي المساء أرسلوا إلي كرسياً واحراماً
وعشاءً ، فجعلت أتخطر ذهاباً وإياباً وأنا أدخن السيكارة في إثر السيكارة . وعند نصف الليل أحضروا
عدداً كبيراً من رهبان دير الروم ، ليكونوا رهينة حتى يظهر الرهبان الثلاثة الفارون . لم أذق الغمض الليل كله .
وفي الصباح جاؤوا بأخرين حتى غص المكان بهم ، وكنت أرى الدموع في وجوه كثيرين فيها جمني البكاء
فأردته وأتجلد . وفي مساء الخميس أحضروا سعيد أفندي أبو خضرا ، فلم يكذب يدخل حتى اغرورقت عيناه
بالدموع ، فجعلت أشجعه وأنا أحوج إلى من يشجعني . وقبل العشاء جاء لسعيد أفندي زجاجة عرق ، فلم
نكد نشرب الكأس الأولى والثانية حتى ورد الأمر بإطلاق سراحه ، فسررنا لذلك كثيراً . . وفي صباح الجمعة
جاءني ولده فؤاد يحمل رسالة منه ففضضتها فإذا فيها ثلاثون ليرة بانقنوط ، يقدمها لي لأستعين بها على
السفر ، ويعدني أنه سيعتني بعائلتي . فلم أستطع أن أقابل هديته إلا بالدمع ، فكشيت له أقول : إنني إذا عشت
بعد هذه الحرب كنت لسانا شاكراً ناطقاً بفضلها ومنوهاً بمروءته ، وإذا مت فإن سرياً ينوب عن أبيه في القيام
بالواجب الذي حالت الأقدار دون أن أقوم به بنفسي . . ثم جاء عمر أفندي الدقاق يسأل عن سعيد أفندي ،
فقلت له : أطلق سراحه أمس مساءً فذهب وهو معجب بمروءتكم ، فلم يكن منه إلا أن ذهب وأرسل مع
أخيه ليرة عثمانية ذهباً فاعتذرت فلم يقبل لي عذراً ، فلم يسعني إلا أن أقبلها وأنا معجب بمروءة الناس . . ولا
بد لي هنا من الجهر أنني قد جربت أخلاق الناس في هذه البلاد ، فلم أجد من أهل الفضل والمروءة غير
المسلمين ، وأما المسيحيون فليسوا إلا صعاليك وأغنياؤهم حديثو النعمة ، فلو سألتهم التراب لأوشكوا أن
يملوا ويمنعوا وإن فتشت وجدت كل أصدقائي من المسلمين ، وليس لي من المسيحيين من اتصف بالمروءة
والفضل وتخلقوا بالأخلاق الكريمة الطيبة غير عيسى العيسى ومصري تادرس وحننا ياسمينة ، ولو فتشت بين
المسيحيين في طول البلاد وعرضها لم تجد لهما مثيلاً . .

ذهبت أختي ميليا اليوم عند عزت بك وكيل مدير التحريات وقد كان أحد أساتذة الكلية الصلاحية
وأطلعته على أمري ، وقد اتفق أن كان هناك صديقي الأبر حسين أفندي سليم الحسيني ، فكان من رأيهما أن
يراجعا المتصرف بأمرني وفي المساء جاءني أمر بالخروج إلى البيت ، على أمل أن آخذ وثيقة وألحق بالكلية
الصلاحية في الشام .

واليوم (السبت في أول ك ١ غ سنة ١٩١٧) واجهت عزت بك وشكرته ، وكان من رأيه أن الأوفق أن ألحق
بالكلية الصلاحية ، وأنه يسعى لأن يدبر لي شيئاً من النقود ، وربما استطاع أن يدبر لوازم بيتي من قمح وغيره .

لا يسعني إلا أن أقول: إني في كل ما اعترضني من الصعوبات، وما وقعت فيه من المشاكل لم أعدم من أهل الفضل والمروءة من يهتم بأمرى، اهتمام الأخ بأخيه، مما يحقق عندي أنى موفق والحمد لله ..
بعد الظهر ذهبت زرت سعيد أفندي أبو خضرا أشكره على ما لقيت من فضله ومروءته، وقدمت له كميالة بالقيمة التي أخذتها منه بشهادة بديع السنونو والياس الشدياق، فأخذها ومزقتها فعددت له ذلك فضلاً جديداً .. ثم ذهبت زرت عمر أفندي الدقاق وشكرته على فضله ..

سمعت اليوم من الأخبار ما يشبه أن يكون أقرب إلى الحقيقة، وهو أن الإنكليز لم يستولوا من جبل النبي صموئيل إلا على القرية، وأما بقية الجبل حتى بعض المنازل من القرية [ف] لا يزال في يد العثمانيين، وأما القنابل التي كانت تتساقط على القرية [ف] هي من العثمانيين، وأما القنابل التي كانت تتساقط على الجبل في الجهتين الشرقية والغربية منه فهي من الإنكليز، وأنه ليس في القرية من الإنكليز إلا نحو مئتين يكمنون عند إطلاق القنابل في المغاور التي تحت الجامع، ثم عند الهجوم يخرجون بمترليوزاتهم فيردون العثمانيين منهم، وأن العثمانيين في الجبل، ويقولون عن أربع مئة جندي .. وإن الجيب لا يزال في يد العثمانيين. وأما قالوتة وعين كارم فإنهما في يد الإنكليز، ويظهر أنه بعد أربعة أو خمسة أيام تبدى الهجوم الإنكليزية .. لا يسعني إلا أن أسافر إلى الشام إلى الكلية الصلاحية، وأما كم يطول هذا الفراق عن ذوي، فالله أعلم.

يوم الأحد في ٢ ك ١ غ سنة ١٩١٧م

مررت في الصباح على عزت بك في دار المتصرف التي هي دار مطران الإنكليز لأخذ وثيقة السفر فلم أجد أحداً. لست أدري علام الحكومة العثمانية تريد إبعادي من القدس، هل تظن أن الإنكليز قد يحتاجون إلى مثلي وأنا لا أصلح إلا لأن أكون معلماً، ولا أحب إلا أن أكون مستقلاً في عملي؟ فإذا جاء الإنكليز أو بقيت البلاد في أيدي العثمانيين فإني لا أشتغل إلا في التعليم، ولا أعلم إلا ما يوحيه إلي ضميري، لا أتلف من أحد ولا أخدم أغراض أحد .. ثم لا يهمني مجيء الإنكليز إلى هذه البلاد، فإني قررت إذا عشت بعد الحرب أن أرحل عن هذه البلاد إلى أميركا فأضع ابني في مدارسها. وأينما كنت فإني لست إلا إنساناً محضاً، أي لا أتمي إلى حزب من الأحزاب الدينية أو السياسية، بل أعد نفسي وطنياً أينما كنت وأشتغل في ترقية الوسط الذي أنا فيه، سواء كان أميركياً أو إنكليزياً أو عثمانياً أو زنجياً، مسيحياً أو اسلامياً أو وثنياً. لا أشتغل إلا في خدمة العلم والعلم لا وطن له .. وما هي الوطنية؟ إذا كانت الوطنية أن يكون الإنسان صحيح الجسم قويا نشيطاً مستنير العقل حسن الأخلاق أنيساً لطيفاً فأنا وطني، وأما إذا كانت الوطنية تفضيل مذهب على

مذهب وأن يعادي الإنسان أخاه، إذا لم يكن من بلاده أو مذهبه، فلست وطنياً . .
مرّ أسس واليوم والسكون سائد كأننا لسنا في ساحة حرب، إلا أن البعض يتخوفون من هذا الهدوء، لأنهم
يظنون أن هناك استعداداً لمعارك هائلة والعياذ بالله . .
مع اشتداد حركة السيارات على طريق نابلس، فإن الإنكليز لم يطلقوا قنابلهم عليها. ويظن البعض أنه لا بدّ
أنهم عرفوا أن الحكومة تبعد التبعة الأميركية وكثيرين من سكان القدس، فامتنعوا عن الضرب والله أعلم . .
في المساء زارنا حسين أفندي سليم الحسيني واسماعيل بك الحسيني، ففقدنا جلسة وداع، لقيت فيها
من أنسهما ولطفهما ما هوّن عندي كل خطب. ثم ذهبت معهما وتناولت العشاء في بيت حسين أفندي مع
اسماعيل بك.

الإثنين في ٣ ك ١ غ سنة ١٩١٧م

اشتد إطلاق المدافع بعد نصف الليل من ليلة أمس، ولا تزال المدافع تدوي إلى هذا الصباح ولعلها في جهة
قالوننة، لأن الدوي قريب وشديد. سافر أمس بديع السنونو والياس الشدياق مع نحو عشرة من اليهود
والعثمانيين في أتوموبيل إلى نابلس ومنها إلى دمشق الشام.
نزلت اليوم إلى المدينة فحلقت وقصصت شعري ثم أودعت حذاء ألمانياً عند أحد الحذائين ليعيد
صنعه، وأوصيت جميل أفندي نسيبة بضعة أرطال من القمح وعد أن يرسلها إليّ اليوم، واشترت ربطة
رقبة. وسأجرب أن أكون مستعداً للسفر حين الطلب.
بلغني اليوم أن فون كريس أخذت تحت المحافظة [الحراسة] إلى برلين لمحاكمته على هزيمة الجيش
العثماني الذي كان يتولى قيادته في غزة وبئر السبع، لأن الهزيمة كانت كبيرة . . .
لست أشك أن كل الذين صدر الأمر بإبعادهم من القدس مظلومون مثلي، بل لعلني أشدهم ظلماً، لأن لا
عمل لي غير التعليم. جاء الإنكليز أو لم يجيئوا؛ لست طيبياً ماهراً فيستفيد الإنكليز من طربي، ولا تاجراً
مهماً فيستفيد مني الإنكليز في أن أتعهد لهم بتقديم بعض لوازم الجيش من حبوب أو خضرة أو غير ذلك،
ولست من أصحاب النفوذ فأحمل السكان على محبة الإنكليز ومساعدتهم . . وقد بلغني أن المتصرف
يقول: إن كثيرين بين المبعدين مظلومون، ولكن لا يستطيع أن يطلق سراح أحد منهم لئلا يفتح عليه هذا الباب.
ولا شك أن الحكومة لم تختصنا بالابعاد إلا بناء على وشاية بعض رجال البوليس الصعاليك الذين لا يبالون
بخراب العالم ترفلاً من رؤسائهم، وكم لهؤلاء من شهيد؟! وإذا كانت وشاية مثل هؤلاء مقبولة عند الحكومة
العثمانية، فلا شك أن ذلك دليل الخراب لو يفظنون.

يقال: إن الإنكليز أحاطوا بالأي عثمانى بالقرب من بيتونية وأسروه مع ثلاثة مدافع والله أعلم.. قيل في مجلس كان فيه مدير البوليس: يظهر من دوي المدافع أن القتال بعيد مما يدل على أننا دحرنا الإنكليز إلى الوراء، فقال: كيف ذلك والإنكليز في بيت إكسا؟.

في المساء عرجنا على بيت إسماعيل بك الحسيني فشربنا ثم تناولنا العشاء، وأما حسين أفندي فتأخر في الحضور لأن المتصرف كلفه بتصليح بعض الطرق في هذه الليلة.. ضربت الحكومة على الأهالي نحو ألفي بسات، وعهدت بذلك إلى مجلس أهلي فوزعوه على الناس.

يقال: إن دوي المدافع الذي سمع اليوم قبل الظهر كان من جانب الإنكليز. ثم استولى السكون ولا يزال.. يقال: إن الإنكليز أنزلوا جنوداً في الدردنيل لمشاغلة العثمانيين والله أعلم..

الثلاثاء في ٤ ك ١ غ سنة ١٩١٧م

ساد السكون كل ليلة أمس واليوم قبل الظهر، وعند الظهر ظهرت ست طائرات فأخذوا يطلقون عليها القنابل.. أرسلت رسالة عيسى العيسى إلى البريد. يقال: إن العثمانيين تأخروا نحو كيلومتر في الجهة الشمالية من القدس وأن الإنكليز أرسلوا أربعة طوابير إلى عين كارم. وأن العثمانيين أدخلوا طاحونة الهواء على طريق دير الصليب، وركزوا فيها مدافع. يقال: إن أحد أطباء المؤسس الصحي الأميركي بالقرب من الباب الجديد الذين أبعدهم الحكومة من مدة قد رجع إلى القدس جريحاً جرحاً خطراً.

سمعت أن الشيخ يعقوبي^(٤٢) شاعر يافا قد أبعده الإنكليز عن يافا إلى مالطة أو إلى مصر لأنهم لم يأمنوا جانبه، أو لأنه كان في مدة الحرب يمجد العثمانيين في شعره ويطن في الإنكليز.

يقول الذين خالطوا الطلائع الإنكليزية في قالونة وغيرها: إن الوفا من العملة تشتغل في الليل والنهار في تمهيد الطرق على الجبال. ويقال: إن العربات والسيارات صارت تصل إلى قرية النبي صموئيل بكل سهولة.. ويقال: إن الإنكليز الذين في نواحي الرملة لا يزالون يشربون من ماء النيل يجري إليهم في قساطل حديدية.. أخلت الحكومة عين كارم من السكان، فجاؤوا إلى القدس بقضيمهم وقضيضهم وفراشهم ولحفهم وما خف وثقل من أشياءهم.

يقال إن الحكومة تخلي المستشفيات وتستعيز عنها بمستشفيات سيارا، وذلك يدل على خطر مداهم، على حين نرى الحكومة تهتم بفتح مدارس الذكور والإناث، ففوضت اسماعيل بك الحسيني بالإهتمام

(٤٢) الشيخ يعقوبي، شاعر يافا، هو أبو اقبال يعقوبي، شاعر كلاسيكي، ومن مناصري الدولة العثمانية.

بذلك . وتهتم بمراقبة البيوت العمومية وتعيين طبيب لمعالجة المصابات بالأمراض الزهرية ، منعاً لانتشار العدوى في الجيش .

بلغني اليوم أن النابلسيين لما وفد عليهم طلبة الكلية الصلاحية أنزلوهم في بيوتهم على الرحب والسعة وبالغوا في أكرامهم والعناية بهم إلى أن سافروا ، ولما وصل الأيتام الذين كانوا في القدس إليهم ، اقتسموهم بينهم ، وأنزلوهم منزلة أولادهم ، مما ينطق بمروءتهم وفضلهم .

[هنا ينقطع الكشكول ، نتيجة نفي السكاكيني إلى دمشق ، وهناك في سجنه ومنفاه ، يواصل الكتابة]

الفصل الرابع
دمشق:
السجن والمنفى

عزيري سري^(٤٣)

آه لو استطع أن أضمك إلى صدري وأقبلك أوفاً من القبلات، أبرّد بها أشواقِي التي أحس كأنها نار تتأجج في ضلوعي. آه وأشواقِي إلى رؤيتك، إلى سماع صوتك الحلو وأحاديثك وأغانيك وأناشيدك. كل عضو في يشاق إليك، عيني تشاق إلى رؤيتك، وأنت نائم في فراشك، وأنت تستحم في الصباح، وأنت تلبس وأنت تمشي وأنت جالس على كرسي في غرفة الاستقبال، وأنت تلعب وأنت جالس إلى البيانو تعزف وتغني، وأنت جالس إلى مائدة الطعام، وأنت نازل على درج البيت وأنت تتحرك في ساحة الدار، وأنت تلاعب هرتك، وأنت تقلب صفحات كُتبي تتأمل في صورها، وأنت تكتب بقلمك على أوراقِي أو بالطباشير على اللوح، وأنت تلعب مع أترابك في المدرسة، وأنت ماش معي يدك في يدي، وأنت جالس على ركبي أو راكب على ظهري، أو وأنت ماش بجانب أمك أو جانب عمك، في ذهابكم إلى زيارة أحد الأصدقاء، وأنت مستلق في فراشي في الصباح ووجهك إلى وجهي وجسمك يلامس جسمي، تلح عليّ أن أقص عليك حكاية، ثم أن أبعها بأخرى وأخرى.. وأنت تقطف زهر الياسمين فتعلقه في صدرك، أو تقدمه إليّ أو إلى أمك أو إلى أحد الضيوف. وأنت راكب على عصاك تركض من غرفة إلى غرفة، وأنت تلعب بالكراسي فتركب منها بيوتاً وتجعل لها نوافذ وأبواباً، وأنت ماش بيني وبين أمك حين كما نخرج من البيت لنزور أحد الاصدقاء، وحين كما نقرب من المنزل الذي تقصده تسبقنا ركضاً، وتطرق على الباب ليفتحوا لنا. أشاق إليك في كل حركاتك وسكناتك:

خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي، فأين تغيب؟

عزيري سري

كنت أحب أن لا أكتب حرفاً عن هذه المصيبة التي ألمت بنا عند صفو الليالي تفادياً من ذكرها المؤلم، ولكن آثرت الكتابة لأمرين :

(١) لأن حوادث هذه الأيام من أهم بل أغرب ما مرّ أو سيمر بي في هذه الحياة، ولا بد أنها تتضمن كثيراً

(٤٣) في كتاب «كذا أنا يا دنيا»، وتحت تاريخ ١٨/١٢/١٩١٧، ثبتت حالة السكاكيني، ربما خطأ وربما بغرض إخفاء التناقض في روايته، مادة كتبها السكاكيني في تشرين الثاني ١٩١٨ في دفتر مستقل، عنوانه «حلمي»، بمناسبة مرور عام على اعتقاله تمهيدا لنفيه، هي مادة مختلفة عن هذه اليومية غير المروسة بتاريخ، والتي لا تتناول قصته الحقيقية مع الترليفين (يهودي هارب من العثمانيين)، والاستنتاج المنطقي أنه كتب هذه الرواية في دمشق مناجاة لابنه سري، لكنه أخفى أشياء كي لا تستخدم في ادائه بايواء ليفين، التي نشرها في نهاية هذا الكتاب في فصل باسم «حلمي» كتبها بعد فراره من دمشق وافر فيها؛ «اجارة» الترليفين، وفيها يسرد مبرراته.

من العبر والدروس التي لا أحب أن يفوتك استيعابها والتبصر بها ، والانسان يتعلم من مصائبه أكثر مما يتعلم من مصائب غيره .

(٢) لأقطع بها وقتي .

* * *

مساءً يوم الثلاثاء الواقع في ٤ ك ١٤ سنة ١٩١٧م ، بينما كنا نائمين آمنين ، إذ طرق باب الدار الخارجي طرقةً عنيفاً ، نحو الساعة الثالثة بعد نصف الليل ، فابطأت قليلاً لعل أحداً ممن يسكنون في القسم الأسفل من الدار ، يسمع فيقوم ويفتح لأنهم أقرب إلى الباب ، ولما لم يرقم أحد اضطرت لسوء حظي أن أقوم وأفتح ، وإذا برجال البوليس قد دخلوا الدار يطلبون الخواجا آلترليين ، جارنا ، فدللتهم على محله فأيقظوه وأخذوه وأخذوني معه ، ولو فتح لهم غيري لأخذوه بدلاً مني ، ولكن شاءت الأقدار أن أؤخذ أنا بجريرة غيري ، ولست آسف على ذلك إذا سلم غيري ووقعت أنا ، فودعت أمك وعمتك وجدتك ثم جئت إلى سيريك وكنت مستغرقاً في النوم ، فأكبت عليك فقبلتك قبله الوداع وخرجت مع رجال البوليس ، وقلبي يكاد يذوب من لوعة الوداع . . فأخذونا إلى مركز البوليس في دير الرهبان الدومينيكان ، حيث أقمنا ليلتين ثم ساقونا إلى قومندان المركز في العمارة الروسية ، ووضعونا في سجن العسكرية ، حيث أقمنا ليلتين أخريين . وفي مساء السبت الواقع في ٨ ك ١٤ سنة ١٩١٧م عند نصف الليل أيقظونا وكبلونا بالحبال أنا والخواجا آلترليين وثمانية آخرين ، ثلاثة أتراك وواحد مصري وإثنان من الجاندرمة من قرى القدس ، وآخر من مسلمي القدس ، ولم يمهلونا أن نجمع أشياءنا ونسلمها لأحد ليرسلها إلى أهلنا ، فتركنا هناك لحافاً وكريساً طويلاً لأجل النوم من خيزران ، ومطبخية من النحاس وفانوساً وابريق ماء ، ولم أستطع أن آخذ معي غير شال عمّتك واحرام أبيض من الصوف وبلي قديم لأملك فحملتها على كتفي ، وخرجنا بدون أن نترك كلمة للبيت ، وبدون أن تزود لطريقنا شيئاً من الطعام والنقود والثياب ، وكنت مكبلاً من اليدين إلى رفيقي الخواجا التري ، وكان الوثاق شديداً بحيث أحسست أن الدم يكاد يتفجر من يدي ، فلما طلبت منهم أن يخففوا الوثاق قليلاً قالوا : « ما نبالي لو مت » ، ثم خرجنا من السجن وقد رثى لنا كل من كان هناك من المساجين والمحافظين [=الحرس] ، ومشينا مشياً حثيثاً إلى أريحا ، وكنت أحس ونحن ماشون في جناح ذلك الظلام الدامس ، لا ننسب بنت شفة لأن كل واحد منا كان مشغولاً بمناجاة نفسه ، كأننا سائرون في جنازة . . وصلنا أريحا نحو الساعة الثالثة بعد الظهر ، وأوينا إلى اسطبل هناك حيث افترشنا الأرض ، وفي صباح الغد (الاثنين) مشينا إلى السلط على طريق العربات فكاد الليل يدركنا ونحن بعيدون عنها ، فمنا في مغارة على قمة جبل بالقرب من الجسر يأوي إليها بعض عائلات الأرمن ، الذين يشتغلون في الطريق ، ولم يُشجني شيء مثل أصوات أطفالهم

من هم في سنك أو أكبر أو أصغر قليلاً، فلما أصبحنا جمعت الأطفال وفرقت عليهم بعض المتلكات إكراماً لك . . ثم تفقدونا وإذا واحد منا قد فرّ تحت جناح الظلام وهو يوسف الشهابي أبو رباح، ثم مشينا إلى السلط حيث صرفنا بقية نهارنا ومننا ليلتنا، وفي الصباح (الأربعاء) مشينا إلى عمان حيث أودعونا في سجنها، ثم قمنا قبل الفجر ومشينا إلى محطة السكة الحديدية أربعة أيام، مشينا على الأقدام مشياً متواصلًا، وكنت في الطليعة أحمل سلة الطعام الذي تزودناه من أريحا . ولم نصل عمان حتى أحسست أن قدمي تقرحتا وأن ركبتي ورمتا من المشي . . ثم ركبنا السكة الحديدية وقصدنا درعا فوصلناها عند المساء . ثم قمنا من درعا في المساء وتابعتنا سيرنا إلى دمشق، فوصلناها يوم الجمعة بعد الظهر في ١٤ ك١ غ سنة ١٩١٧م، وسلمونا لقومندان المركز، ثم نقلونا إلى سجن الجامع المعلق في باب الجابية أمام سوق مدحت باشا، حيث نمنا الليلة الأولى في غرفة صغيرة لم أجد فيها محلاً للجلوس فضلاً عن النوم، وهذه الغرفة يضعون فيها المساجين الجدد إلى أن يأخذوهم إلى الحمام ويطهروا ثيابهم ثم ينقلونهم إلى ردهة السجن . وفي صباح السبت أخذونا مكبلين بالحديد إلى الحمام، ولما رجعنا منه ادخلونا إلى السجن حيث أكتب لك هذه الأسطر .

في كل هذه المدة لم أفتر عن التفكير فيكم، وتصور الحالة التي تكونون عليها حين تطلبوني فلا تجدوني، وماذا يتنازعكم من الأفكار، وماذا يفاجئكم من الهواجس فكنت أشرق بدمعي . . أرجو أن تكونوا قد ألهمتم الصبر والشجاعة والاطمئنان لأنني بريء . كما أرجو من همة أمك وعمتك أن تحسنا القيام على العائلة، ولست أشك أن كثيرين من اصدقائي الذين اعتمدت عليهم، فتهاونوا بأمرني قد أسفوا جداً ورجعوا على أنفسهم باللوم الشديد، ولات ساعة مندم، يشملون عائلتي بأنظارهم وبالبغون في العناية بها مدة غيابي التي أرجو أن لا تطول كثيراً، فأرجع فأجدكم كما تركتكم فيجدد عهد المسرة، ونعيش بقية العمر بسلام . وإذا قدر لي أن أموت غريباً في بلاد أساق كرهاً إليها، فالرجاء ممن يقع في يده هذا الدفتر أن يرسله إلى ولدي الوحيد سري السكاكيني في القدس، ولا بد أن يقابل إحسانه هذا بالشكر الجزيل والجزاء الجميل .

من يصنع الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

.....

ما أجمل الحياة بدون مصيبة، ولكن إذا وقعت المصيبة فيجدد بالعاقل أن ينتزع منها حكمة، فقد قيل: إن الحكمة مخبوءة في جيوب المصائب . وما أدراك لعل هذه المصيبة نافعة لنا فلا نخلص منها إلا ونحن أوسع صدوراً وأبعد نظراً وأرقى نفوساً، وأكمل أخلاقاً، وأكثر معرفة واختباراً .

أول ما استفدته من هذه المصيبة أنني عرفت بها قيمة البيت، وإن كنت لا أجهلها . آه كم ذكرت معيشتي

الماضية . . حين أفرش التراب ، أذكر فراشي الوثير النظيف ، حين أقوم باكراً ، فلا أغسل يدي ولا وجهي ، أذكر حماماتي اللذيذة . حين أمشي مكبلاً تحت المحافظة [=الحراسة] ، اذكر أيام كنت حراً أمشي في الأرض مرحاً ، الدهر دهري والزمان غلامي . حين أعطش فلا أجد ماءً ، أذكر ماءنا العذب اللذيذ الزلال . حين أجوع فلا أجد ما أكله أذكر اجتماعنا حول مائدة الطعام ، نأكل من حواضر البيت ما كنا ننعم به ونلتذ . حين يدخل المساء تهيج بي الأشواق إلى البيت ، حين كنت أجلس وراء طاولتي أدخن أركلتي ، فتجيء أنت وتدس نفسك بيني وبين الطاولة ، فإذا أمسكت كتاباً أمسكته قبلي ، وإذا أمسكت قلماً أخذته من يدي وطلبت ورقاً لتكتب ، وإذا حدثت أمك قاطعت حديثنا كأنك تعني أنه لا يليق بنا أن نهملك ونمنعك من الاشتراك معنا في الحديث . ثم إذا جاء ميعاد النوم نزعنا ثيابك وألبسناك قميصك وأخذناك إلى سريرك وأوسعناك تقيلاً ، ثم جعلنا نقص عليك بعض الحكايات أو نغني لك بعض الأغاني ، فكنت تنام كالملك آمناً والابتسامات على ثغرك .

آه على تلك الأيام . لا شك أنني كنت من أسعد الناس حالاً وأرغدهم عيشاً وأهنأهم بالأ . . الناس كلهم كانوا يعتقدون أنني من أسعدهم حظاً . أنا كنت أعرف ذلك ، ولكن هذه المصيبة زادت حياتي الماضية قيمة في نظري . فإذا قدر لي الرجوع عرفت كيف أوفر أسباب الراحة والسرور ، وكيف أتلافى كل أسباب الكدر إن شاء الله . وإذا مت فيكفيني عزاء أنني عشت إلى اليوم سعيداً . . .

الفائدة الثانية : أنني عرفت قدر الأسلوب الذي كنت أعيش عليه . كنت أظن [أنه] إذا مرّ عليّ يوم ولم استحم فيه ، أو إذا تابعت الليالي ولم يذق جفني غمضاً ، أو إذا اختلت معيشتي أو ساورتني الأحزان وتقسمتني الهموم واستحوذ عليّ القلق ، أو اضطرت إلى اقتحام المشقات ، أنني أصبح كالخرقة البالية . . ولكن رأيت أن الأسلوب الذي اتبعته منذ أول نشأتي إلى اليوم قد سهل عليّ احتمال المشاق والأتعاب ، وأن فلسفة السرور التي تشبعت منها قد مكنتني من مقابلة هذه المصيبة بصدر رحب ، وقلب مطمئن وجأش ثابت . فمرت بي الأيام تلو الأيام وأنا صحيح الجسم لا أعبأ بالتعب ولا الجوع ولا السهر ولا الوسخ ولا القمل ولا الأغلال ، فلا شك أن أسلوبنا سيتغلب على العالم كله . على حين كنت أرى رفاقي مع أنهم أضخم مني أجساماً وأكثر عضلاً وآلف مني ، لهذه المعيشة السيئة ، قد أصبحوا مثل الخرق البالية ، لا يحتملون البرد كما احتمله ، ولا يطيقون المشي كما أطيعه ، ولا يستطيعون السهر كما استطيعه ، فكان الواحد إذا نام لا يقوم وإذا قعد لا يتحرك كأنهم بلا عظام ولا عضل . وأما أنا فقد مرت كل مدة السفر ، إذا مشينا مشيت بنشاط وإذا أوتينا إلى محل لا أقعد بل أتخطر فيه ذهاباً وإياباً ، وإذا نمت فلا أنام إلا غراراً ، ومرات عديدة أقوم في الليل ، أتخطر في المحل الذي أوتينا إليه ذهاباً وإياباً ورفاقي نيام يغطون . لا شك أن الفضل في ذلك عائد إلى

الأسلوب الذي اتبعته في حياتي إلى الآن.

يوم الخميس في ٢٠ ك ١٤ غ سنة ١٩١٧م

أسجناً وقتلاً واشتياقاً وغربة
ونأي حبيب إن ذا لعظيم

...

ناء عن الأهل صفر الكف منفرد
كالسيف عري متناه عن الخلل

...

النجح يهلك بين العجز والضجر

...

لا تعجبوا من سقمي
عاندي الدهر فلا
لو كنت أدري علة
في غربة صماء إن
إن حياتي لعجب
يود لي إلا العطب
توجب هذا أو سبب
دعوت فيها لم أجب

...

ما كنت أحسب أن الدهر يفجعني
حتى جرى الدهر فيما بيننا بيد
ودعته وبودي لو يودعني
به ولا أن بي الأيام تفجعه
عسراء تمنعني حظي وتمنعه
صفو الحياة وإنني لا أودعه

...

فاصبر لها غير محتال ولا ضجر
في حادث الدهر ما يغني عن الحيل

...

هذه الأبيات كنت أتغنى بها في هذا النهار، وأنا أتخطر في رواق السجن.

يوم الجمعة في ٢١ ك ١٤ غ سنة ١٩١٧م

وصيتي

(١) أن يبقى سري في المستعمرة الأميركية في القدس إلى السابعة أو الثامنة من عمره، ثم يشرع في تعلم اللغتين الألمانية والإفرنسية. هذا إذا بقيت العائلة في القدس، ولكن إذا أمكنها الذهاب إلى أميركا قبل ذلك

فيكفي أن ينشأ في مدارسها .

(٢) أحب أن يكون سريّ معلماً والافطيمياً ، وبناء على ما أعهد فيه من الذكاء أرجو أن يكون فخري وفخر أمه .

(٣) أحب أن ينشأ على المبادئ التي رسمتها له في بعض دفاتري في مكتبي ، إذا كانت لا تزال موجودة ، وإلا فإن أمه وعمته أدري الناس بمبادئني ، فهما المكلفتان برعاية ذلك .

(٤) إذا لم يمكن أن تهاجر العائلة كلها إلى أميركا ، فعلى الأقل يجب أن يهاجر سريّ ويعيش هناك تحت كف عمه أو خاله .

(٥) أحب أن يولع سريّ بالألعاب الرياضية على اختلاف ضروبها ، وأن يمشي على الأسلوب الذي اتبعته منذ نشأتي وكنت ابشر به دائماً ، فما كنت ألقى أحداً من تلاميذي أو أحد أصدقائي إلا هزرت يده هزاً عنيماً ، وأسأله أربعة أسئلة :

١- هل لعبت؟

٢- هل استحمت؟

٣- هل أكلت؟

٤- هل قرأت؟

الألعاب الرياضية ، والاستحمام بالماء البارد ، والطعام المغذي ، والمطالعة ، هذا هو الأسلوب الذي سيتغلب على العالم كله . ولما كان لا بد للإنسان من صفة فلسفية ، فأحب أن تكون فلسفته فلسفة السرور ، ليأخذها عن أمه وعمته أو أحد أصدقائي الأخصاء .

(٦) لا أحب أن يتقيد في حياته بقيود سياسية أو دينية ، بل أن يكون انساناً محضاً يعتبر كل انسان أخاً له ، ويعتبر نفسه أخاً لكل انسان ، ويتمثل بقول الشاعر :

إذا كان أصلي من تراب فكلها بلادي وكل الناس فيها أقاربي

(٧) رأس الفضائل عندي العفاف ، فأحب أن يكون عفيف النفس طاهر القلب نقي الضمير ، والكلمة التي أحب أن يذكرها دائماً قول الشاعر الانكليزي : «في قوة عشرة رجال لأن قلبي طاهر» .

(٨) لا أحب أن أقيده بقيود كثيرة وأحاطه بوصايا عديدة ، ولكن أكتفي بقولي أن يعيش كما يريد حراً مطلقاً ، بشرط أن لا يتسفل في أهوائه ولا ينحط في مبادئه . ليس أكره عندي من التسفل والدناءة .

(٩) لا أرغبه في الزواج ، ولكن إذا أراد الزواج فليتزوج في أميركا أو بلاد الانكليز ، ليتزوج من ترفعه لا من تضعه . للزواج أغراض عديدة تختلف باختلاف الناس من الترقى والانحطاط ، فليكن غرضه من الزواج

شريفًا، وهذا أكله إلى مبلغ علمه وبعد نظره وسمو آدابه، وشرف أخلاقه وكبر نفسه، وأحذره من أن يكون زواجه لأجل فكرة عسكرية^(٤٤). وليستشر أمه وعمته في زواجه، وليكتف بولد أو ولدتين إذا تزوج.

(١٠) كنت دائماً أحب أن أوفر لعائلي أسباب الراحة والسرور، ولست آسف على شيء كأسني على قصوري في ذلك، فأحب من سري أن يتدارك ما فاتني، وليس ذلك على همته بعزيز.

(١١) كان لي أصدقاء كثيرون لا يتسع المقام لذكر اسمائهم، كنت منهم مكان الأخ من أخيه، فأحب من سري أن يتعرف بهم، ويقيم على ولائهم، ولا يدع فرصة تمر بدون أن يقابل جميلهم مع أبيه بمثله إن شاء الله.

(١٢) أحب من عائلي أن تحفظ يومين في السنة، الواحد يوم ميلاد سري، والثاني يوم ابعادي من القدس في ٨ كانون الأول غربي سنة ١٩١٧م.

(١٣) أوصي سرياً وأمّه وعمته بأبي وأخي يعقوب وأختي فروسو.

(١٤) إذا خطر لعائلي أن بعض الناس أساء إلي فليقابله بالعفو والسماح. الحقد لوم، والانتقام دناءة وانحطاط.

(١٥) علي ديون كثيرة أجهل الآن مقدارها فأوصي سرياً وأمّه وعمته وأخي يوسف أن يتحروا تلك الديون

ويفوها عني، ولو لزم الأمر أن يبيعوا ما فوقهم وما تحتهم، أو أن يقتروا على أنفسهم، ليخصصوا شيئاً من دخلهم لوفاء الدين، وليبدأوا بدوي قرابتي لأن فضلهم ثقل.

(١٦) أرجو أن تكون هذه الحرب آخر عهد البشر بالحروب، ولكن إذا لا سمح الله نشبت حرب، فلا

يسكن سري بلاداً في حالة حربية مع غيرها، سواء كان من ابنائها أو غريباً عنها، أولاً: لأنني أرجو أن يكون

من أنصار السلم كارهي الحرب، وثانياً: لأن البلاد التي تكون في حالة حربية تهيج أعصابها وبطيش حلمها

ويستحكم منها سوء الظن، فلا يأمن أن يؤخذ من حيث يدري ولا يدري. ما دامت البلاد في سلم فليبشر

بكره الحرب، ولكن إذا دخلت البلاد في حرب بحق أو بغير حق، فلينفذ يديه منها وليرحل عنها. لهم دينهم

وله دينه. لا يكون رحيله عن جبن، فإن الجبن دناءة ولكن ليكن رحيله عن مبدأ.

(١٧) لا يسكن سري بلاداً لأن له فيها املاكاً وعقارات، أو لأن فيها قبور آبائه وأجداده، أو لأن مناظرها

جميلة وهواءها طيب وماءها عذب، أو لأنها أرقى من غيرها في المدينة أو لغير ذلك من الأسباب، بل لا

يسكن بلاداً إلا لسبب واحد، وهو أن تكون معهد الحرية، وكل مكان ينبت العز طيب.

(١٨) أن يتأدب بآداب المسيح حسب خطبته على الجبل، لأنها في اعتباري آداب عالية جداً، وأن يكثر

من مطالعة تراجم العظماء والمفكرين والأقوياء في عقولهم ونفوسهم وأجسامهم ليتشبه بهم، فإن التشبه

بالكرام فلاح.

(٤٤) بغرض التكاثر بنية دعم المجهود الحربي بالمقاتلين.

(١٩) أرجو من سريّ رجاء خصوصياً ، أن يكون في حياته ممن يهتم بالمساجين ويعطف عليهم ويقدم لهم ما يستطيعه من المساعدة ، وليشتغل بإصلاح السجون إذا كان في أيامه سجون ، بل يعمل على إبطالها واعتماد طريق آخر منطبق على العلم الحديث ، وليشر بإنجيل الرحمة والرفق والإخاء . إذا سمع بمصيبة حلت بأحد فليبادر إلى التعزية . وإذا طرق سمعه صوت مستغيث فليبادر إلى الإغاثة . ليعز الحزين ويتفقد السجين ويساعد الضعيف وينعش الكريم إذا زلت به قدمه ، وليكن رسول سلام في هذا العالم . ليفعل ذلك أكراماً لأبيه الذي عاش مع المساجين ، وتألّم كما يتألّمون وتلهف كما يتلهفون . . .

هذه وصيتي كتبها باختصار ، وربما زدت عليها ما أتفطن له ، ولست أشك أن أمّه وعمته وكثيرين من أصدقائي سيضيفون إليها وصايا أخرى . وسأكتب عنها نسختين أسلم الواحدة لصديقي الأبر الخواجا ديمتري تادرس نزيل دمشق الآن ، وأرسل بالثانية الى سلفي الدكتور جرجي دعديس في نابلس .

كنت قبل اليوم لا أحب إلا الحياة ، وأما الآن فإنني أحب البراءة لأنني متهم ، وأحب الحرية لأنني سجين وأحب بيتي لأنني بعيد عنه . . .

مرّ عليّ نحو عشرين يوماً لم أغير فيها ثيابي البيضاء ، وإذا لم أغيرها في القريب العاجل أكلني القمل ، وتراكت عليّ الأوساخ وأتنت رائحتي وتعرضت لخطر الجرب . أفضل أن أبقى عارياً معرضاً للبرد ، من أن أبقى ثيابي البيضاء عليّ . إن ما أحسّ به من الحكمة في بدني يكاد يحرمني القرار ، بل يورثني الجنون . أخجل من نفسي أن أنزع ثيابي وأتقلّى ، أو أن أحك ظهري أو صدري بجدران السجن كما يفعل المسجونون .

.....

لم أجد محلاً أنام فيه في السجن إلا بالقرب من بعض الحشاشين . . .

المعيشة التي عشتها منذ سجنت في القدس إلى الآن ، معيشة سيئة مختلفة تخالف الأصول الهيجينية^(٤٥) على خط مستقيم ، ومع ذلك فإنني لا أزال صحيح الجسم ، ولكن إذا طال الحال على هذا المنوال ، فلا أشك أنني أصبح كالشيء البالي . يكفي قلق الفكر واضطراب النفس ولوعة الفراق .

السجين أشقى خلق الله وأشقى من السجين ، المريض ، وأشقى منهما السجين المريض الغريب ، وأشقى الجميع السجين المريض الغريب المعدم . . .

كنت أقول في قديم الزمان : لا أترك القدس إلا منياً ، فكان الأقدار شاءت أن تحقق قولِي هذا ، فجنّت إلى

(٤٥) المقصود ، الاصول الصحية ، حيث استخدم المؤلف الكلمة الانجليزية Hygienic

دمشق منفيًا مكبلًا بالحبال . . .

لا عجب إذا مرض السجين أو مات، بل العجب أن يبقى حياً معافى، وقد قال الشاعر في هذا المعنى:
لا تعجبوا من سقمي إن حياتي لعجب

.....

دمشق بلد القباقيب، فإن كل المساجين يروحون ويحيئون بالقباقيب، بل كنت أرى من نافذة السجن كثيرين من الرجال والنساء يمشون في الطريق بالقباقيب . . . ولعل ذلك دليل على ارتخاء الأخلاق، إن جاز لي أن أقول هذا . . . وإلا فإن النشاط يقتضي خلاف ذلك . . .

صدق من قال: إن دمشق مطبخ كبير، فلا حديث للناس إلا الأكل، ولعل قولهم «هذه فاكهة جديدة» بدلاً من قولهم «هذا شيء جديد» تسرب إلى اللغة من دمشق .

السجن الذي نحن فيه أصله جامع ويقال له الجامع المعلق، وهو يضاء بالكهربائية ليلة بعد ليلة، ويقال: إنه أفضل السجون . ولم يرضني فيه شيء مثل بيوت الراحة، فإنها نظيفة بسبب كثرة المياه التي تنسكب فيها، وكنت أتعذب عند الخروج [=قضاء الحاجة] منذ سجنت إلى أن جئنا دمشق، ولا سيما على الطريق ونحن نمشي أو ونحن في القطار من عمان إلى دمشق، فقد كان الواحد منا يضطر أن يخرج أمام الناس والمحافظ فوق رأسه يستعجله . . .

من أغرب الأمور التي رأيتها منذ سجنت إلى الآن، أن الكبار من أصدقائي تجنّبوني وتناسوني فلم يزوروني، ولم يسألوا عني لئلا ينالهم شيء بسببي، إلا القليل منهم، وأما صغار تلاميذي وقتيان القدس الموجودون في دمشق فإنهم ما سمعوا بسجني إلا هرعوا إليّ يعرضون عليّ خدمتهم ومساعدتهم . أول من لقيت منهم مخايل القزاز في أريحا، فقد اهتم بطعامنا وزودنا بطعام للطريق، ودفع إليّ خمسة ريالات، ثم جاءني إلى سجن دمشق توفيق جوهريّة، وجعل يتردد عليّ مرتين في النهار، ثم جاء شكري القاري، واليوم جاء شحادة ملوك، أحد تلاميذي القدماء وهو مصور فوتوغرافي عند جمال باشا الصغير، فتأسف لحالتي ووعد أن يدخل عليّ جمال باشا الصغير ويرجوه بخصوصي عند مجيئه من جبل الدروز، وبعد أن ذهب عاد وأحضر ثلاثة أرغفة تنور مع دبس وزبدة . . . إن عطف الصغير لأجمل عطف، ما أجدره بالإعجاب والثناء . . . وأحب منك يا سري أن تقف عند قراءة هذه الأسطر وتحني رأسك إجلالاً لهذه العواطف الشريفة، وأن تجدد شكري وثنائي لكل واحد من هؤلاء الصغار في السن، الكبار في همهم ومروءتهم، وأرجو أن لا يفوتك التشبه بهم، والنسج على منوالهم إن شاء الله . . .

.....

حالة أكثر المساجين مما تصدع له القلوب وتقطر له المرائر . ويا حبذا لو كنت غنياً لأشتري لهذا ثوباً
ولذلك طعاماً وللآخر دخاناً ، وأعطي غيره شيئاً من النقود ، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة ، ومع هذا فأني
أشركت كثيرين في طعامي وفي القيمة القليلة التي معي من النقود . إن عشت فسأهتم بأمر السجون ،
سأحاول أن يكون لي علاقة بالمساجين ، أساعدهم وأهتم بأمرهم وأعلمهم القراءة والكتابة ، وأرفع نفوسهم ،
وأبصر بصائرهم وأكون صديقاً لهم في السجن وبعده . . يدخل بعضهم السجن وفي جيبه بعض النقود وعليه
بعض الثياب ، ثم لا يلبث أن ينفق دريهمات ، ويأخذ في بيع ثيابه بالمزاد ، ويصبح وهو عاري الجسم يتقفف
من البرد ويتضور من الجوع ، ولا أحد يهتم بأمره ، وحينئذٍ فيما ان يستعطي من المساجين الجدد أو يتعاطى
السرقة . . أوصيك يا سري أن لا يفوتك الاهتمام بالمساجين وإن كنت لا تعرفهم . . ألف جمعية من كرام
الناس للعناية بالسجين وتفقدته ومساعدته ، وخصص شيئاً من دخلك لهذه الغاية . لما كنا في دائرة البوليس في
القدس ، كان هناك في الغرفة التي ننام فيها شيخ من الخليل اسمه عبد الرحمن بدر ، وقد مر عليه نحو شهر
في السجن ، فكانت ثيابه تنتعش بالقمل فكنا نتجنبه ، واليوم قد أصبحنا مثله . .

بعد الظهر خرجنا إلى السوق أنا ورفيقي مع نور الدين أفندي الدروري وجندي للمحافظة ، لنشتري ما نحتاج
إليه من ثياب وغيرها ، فرأيت الناس يروحون ويحيئون أحراراً وكثيرون منهم من الرجال والنساء ، ثياب أنيقة
جميلة ، وحانت مني التفاتة إلى امرأة في أحد الدكاكين ، فرأيت على وجهي علامات الشيخوخة وآثار التعب
والقلق والهم ، فارتعت لذلك أي ارتياح ، واستولى عليّ اليأس والذهول وشخصت بأبصاري إلى فوق ،
وسبحت في عالم الخيال ، وصعدت أنفاساً حارة وأرسلت نفحات محرقة ، وحننت إلى أيامي الماضية .
إلى الآن لم ترد أوراق اتهامنا ولعلها تتأخر قليلاً أو كثيراً ، والله يعلم متى يجيء دور محاكمتنا ، ومتى جاء
فكم تستغرق المحاكمة من الأيام والأسابيع ، ثم إما أن تتبرأ فيطلق سراحنا ، وإما أن يعاندنا الزمان وأبناؤه ،
فيحكم علينا بالسجن أو بالنفي إلى مكان آخر ، والخلاصة فإن الأمل بالفرج القريب غير قريب ، ثم لو فرضنا أنهم
حاكمونا فبرأونا وأطلقوا سراحنا فمتى نرجع إلى بيوتنا ، لا يمكن ذلك إلا بعد عقد الصلح العمومي عجل الله به :

أعد الليالي ليلة بعد ليلة وقد عشت دهرًا لا أعد الليالي

السبت في ٢٢ ك ١ غ سنة ١٩١٧م

اشتريت أمس بعد الظهر قميصاً وكسوناً وزوج جوارب وفرشاة أسنان وفرشاة ثياب ومشطاً وفوطة ،
وقبل النوم مسحت جسمي بالماء البارد وغيرت ثيابي . . وجدت على الجارزي [بلوزة الصوف] الحمراء
التي أخذتها من بعض أصدقائي من السلط عدداً كبيراً من القمل الكبير الذي لم أر مثله في حياتي ، ولم يخطر

لي في بال أن يكون جسيمي يوماً من الأيام مرعى له ، ولكن كيف تتقي القمل ونحن ننام بجانب المساجين ، وكلهم ينتغشون بالقمل . هذه إحدى ويلات السجون .

قمت اليوم صباحاً باكراً جداً ، وقد صممت أن آخذ حماماً بارداً في سقيفة ينحدر فيها الماء . فاستغرب المسجونون كيف استطيع ذلك والبرد شديد ، فوضعت على باب السقيفة شال أختي ودخلت وغسلت جسيمي بالصابون ، ودلكته دلكتاً جيداً حسب عادتي في القدس . ثم فليت ثيابي فوجدت بعض القمل ، ثم لبست وخرجت ، وقد أحسست لأول مرة بعد أن تركت البيت بشيء من الراحة والتلذذ .

في إحدى زوايا السجن بل الجامع غرفة صغيرة لها نافذة تطل على الطريق ينام فيها بعض كتبة السجن ، فإذا استطعنا أن نحصل على إذن بالنوم فيها ضمنا راحتنا ونظافتنا .

لا غنى لي عن بنطلون جديد ، لأن بنطلوني أصبح مثل طيلسان ابن حرب^(٤٦) ، وكذلك لا غنى عن منشفة لأجل الحمام ، لأنني سأحاول أن آخذ حماماتي كل يوم .

من الجائز أن يكون لنا أوراق اتهامية أو لا يكون . فإذا كان هناك أوراق فمتى تصل ؟ جاء متصرف القدس عزت بك ، ومدير بوليسها جلال بك ، ولم ترد الأوراق بعد . ولعلها مع قومندان المركز ، فهل جاء أو لا يزال على الطريق ؟ . ثم لو جاءت أوراقنا فمتى تجيء نوبة النظر فيها ؟ . ثم لو جاءت نوبتها ، فهل يطلق سراحنا أو يحكم علينا ؟ ثم لو حكم علينا ، فماذا يكون الحكم ، وكم تكون مدة السجن ؟ لا شك أن ذلك يستغرق وقتاً طويلاً . هذا إذا كان لنا أوراق ، وأما إذا لم يكن لنا أوراق فكيف تكون معاملتنا ، هل يهملوننا في السجن إلى ما شاء الله ، أو يستنطقوننا فيحكمون علينا أو يبرثوننا ؟ وعلى كل حال فإني أرى أن إقامتنا في السجن ستطول كثيراً وإن اجتماعنا بأحبائنا بعيد جداً . فاللهم صبراً اللهم صبراً .

كنت أستصعب فراق أحبائي وأنا شاب طائش الحلم ، وكان فراقي عنهم إلى بلاد أوروبا أو أميركا ، حيث كنت أتمتع بحريتي وأتلذذ بالمعيشة في وسط راق جميل ، فما قولك الآن ، وأنا أبو طفل صغير أحبه محبة هي العبادة ، ولي أم أقدسها قد بلغ منها الضعف وأستولى عليها الهرم قبل أوانه ، لا أظن أنها تصبر على فراقي أو تعيش إلى زمن اللقاء ، وقد كان الفراق هذه المرة على صورة تخلع القلب وتدمي الفؤاد . لم يكن من البيت بل من سجن إلى سجن إلى سجون عديدة ، حتى وصلنا دمشق اللهم صبراً ، اللهم صبراً .

.....

أمي وسري لا أذكرهما إلا بكيت ، ويلاه إذا رجعت ولم أجد أمي . مسكينة أمي كم صبرت على الجوع

(٤٦) الطيلسان هو نوع من الكساء الأخضر يلبسه الخواص من المشايخ والعلماء

والعري، رجاء أن يقبل الزمان فتعيش بقية عمرها مجبورة الخاطر، فكان جزاء صبرها أن أنقى عنها وعن سائر أحبائي بدون أن أرى أحداً. ويلاه ثم ويلاه، هل تستطيع الصبر على ذلك؟ ماذا كان حالها غداة سمعت أن ولدها سيق مكتوفاً في جنح الظلام كالمجرمين إلى حيث لا تعلم، اللهم ألهمها الصبر والسلوان، وقد رلي ولها أن أراها وتراني بعد هذه المصيبة الكبرى. لا سمح الله أن تموت وأنا بعيد عنها.. أما سري، فماذا يكون حاله حين يسأل أين البابا، ومتى يجيء البابا، ليتني لم أتزوج بل ليتني لم أولد.. القدس موطن سعادتي، القدس مستودع آمالي، القدس جنتي ونعيمي، القدس القدس...

من نافذة الغرفة الصغيرة التي في السجن رأيت شجرات عيد الميلاد، تحمل إلى البيوت فثارت أشجاني واغرورقت أجفاني، أرجو أن تكون سلطانة قد عزمت على نصب شجرة صغيرة لسري تضيئها بالشموع وتزينها أحسن زينة ثم تهديه هدية الميلاد باسمي لعل عواطفه الرقيقة الطاهرة، تؤثر على الزمان وعلى أبنائه.

الأحد في ٢٣ ك ١ غ سنة ١٩١٧م

القدس

كان فيها أنسي ومعراج قدسي
آه لو يسمح الزمان بعود
ومقامي المقام والفتح باد
فعسى أن تعود لي أعيادي

.....

جاء اليوم اثنان من قبل الصحية وطعموا كل المسجونين بالجدري.
لم يزرني أحد اليوم إلا الخواجا توفيق جوهريّة، فقد زارني مرتين.
بين المسجونين شيخ جليل اسرائيلي من تجار بيروت، اسمه موسى الشتين، ساقوه إلى دمشق بتهمة الجاسوسية وهو براء منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب. وقد اشتركا في الطعام منذ دخلنا السجن، واليوم بلغوه أن قد أحيلت أوراقه إلى الناصرة، وأنه سيسافر غداً إليها، فوجم واستكان، لا لأنه يخاف من هذه التهمة، ولكن لأنه شيخ ضعيف أعجز من أن يتحمل مشقة السفر من مكان إلى آخر، ومن سجن إلى غيره في مثل هذه الأيام الباردة الماطرة، وهذه الظروف، فتأثرنا له. عجل اللهم بالفرج عجل اللهم بالفرج..

- الخطب هين -

نعم مصيبي عظيمة، ولكن إذا قستها بمصائب غيري، فلا يسعني إلا أن أقول: «الخطب هين». بل إذا

قستها بما كان يمكن أن يصيبي لحمدت الله . فقد كان من الممكن أن أجبر بأخذ عائلتي معي ، أو ان أساق إلى بلاد لا أعرف فيها أحداً فأموت جوعاً ، أو أن أسجن في سجن آخر غير صحي أو موبوء ، أو أن أكون تحت عهدة مدير فظ الأخلاق شكس النفس أو الخ . . . لست أعني أن مصيبي خفيفة ، يكفي فراق أمي وسري ، بل لست أدري ماذا تجر وراءها من الويلات . أكثر خوفاً على أمي أن يشتد وقع هذه المصيبة عليها ، فتقضي نحبها حزناً وغماً فلا اراها . اللهم ، رفقاً اللهم رفقاً .

استحمت اليوم للمرة الثانية بالماء البارد ، وتفقدت ثيابي ، فوجدت عليها بعض القمل ، فاقشعر جسمي ، وتقززت نفسي .

الاثنين في ٢٤ ك ١ غ سنة ١٩١٧م

لا نزال على غمة من أمرنا ، كما لا نزال على قلق ، فقد يجوز أن يجيئونا في ساعة لا نتظرها ، فيسوقونا من دمشق إلى حلب أو غيرها من البلاد الداخلية البعيدة ، ولذلك عزمنا أن نكون على استعداد لكل طارئ . سأكلف اصدقائي بشراء بقية لوازمي وتدير قيمة من النقود أحفظها لحين الحاجة .

لا أعاشر في السجن غير رفيقي في المصيبة ، بل سبب مصيبي الخواجا الترفلين ، ومع سعة اطلاعه وكثرة احتكاكي به ، فإني لا أفهمه وهو لا يفهمني ، فهو ليس من اليهود القدماء ولا من الجدد ، ولولا المروءة لكنت قاطعته ، ولكن أجل نفسي أن أحقد عليه أو أريه أقل جفاء ، أو أشعره من طرف خفي أنه هو الذي أضرنني ، بل بالعكس لم أزل منذ خرجنا من القدس أعطف عليه عطف الأخ على أخيه ، وأطيب خاطره ، وأنسب ما أصابنا كلينا إلى الاقدار وسوء الحظ . . .

استحمت جيداً مع شدة البرد ، وقد أضحكني قول الرجل الذي أقمناه لخدمتنا أنه لو أعطوه مئة ليرة ، بل لو صرفوه من الخدمة العسكرية ، لما استحتم بالماء البارد في مثل هذا اليوم . . . فأحسست بنشاط وارتياح . تفقدت ثيابي فوجدت فيها عدة قممات كبيرة ، فتكدت كثيراً . . .

مر علينا عشرون يوماً منذ أخذنا من فراشنا من القدس ، وعشرة أيام منذ جئنا دمشق ، فمتى يكون الفرج ، متى ؟ . سيكون أول ما أهتم به بعد الحرب إن عشت أن أقوض خيامي وأحمل عائلتي وأهاجر إلى أميركا ، فإني وإن كنت أحب القدس وقد عشت فيها دهرًا طويلًا سعيدًا ، إلا أنني لا أحس من نفسي إلا أنني غريب فيها .

لم يزرني أحد اليوم ، ولعل ذلك بسبب الامطار الغزيرة .

لا أنظر إلى المساجين ، وأناأمل في أحوالهم وأتصفح وجوههم وأسمع أخبارهم وأحاديثهم وأغانيتهم ، مما يميظ اللثام عن نفوسهم وأفكارهم وعقولهم وأرى كيف يأكلون ويشربون ويلبسون وينامون ، وبعبارة أخرى كيف يعيشون ، إلا أحسست اني لست منهم ، وليسوا مني .

فلسفة القوة

العالم يحتاج إلى اصلاح كبير وإلا فمصيره إلى الضعف والانحطاط والزوال . يجب أن يكون الإنسان قوياً في جسده وعقله ونفسه . وليس أولئك النوايع في قوة أجسامهم وعقولهم ونفوسهم من فئات الطبيعة ، بل هم من الطبيعة وحسب أصلها ، وكأن ظهورهم من وقت إلى آخر وفي مكان دون آخر ، رجوع إلى الأصل ، وايدان أن يكون البشر كلهم مثلهم . ولا حدّ لقوة الإنسان ولا يجوز أن نقول إننا من لحم ودم ، فإن أجسامنا في أصلها أشد من الفولاذ ، ولكننا أهملناها وأسأنا استعمالها فأصبحت لحمًا ودماً . كانت حواسنا الخمس أقوى وأصح مما هي عليه الآن كانت جلودنا وعضلاتنا وأعصابنا وعظامنا وأعضاؤنا الداخلية والخارجية أصح وأقوى منها اليوم بما لا يقاس . فإذا قلنا : يجب أن يكون الإنسان قوياً فإنما نعني تلك القوة الأصلية التي خلقنا عليها ، بل إن تلك القوة قابلة للزيادة كما أنها قابلة للتقصان ، فلذلك لا حد لقوة الإنسان . . وأحق الناس بالحياة هم الذين يزيدون هذه القوة ، لا ينقصونها . يقوون الجسم كله لا يقوون عضواً على حساب غيره . إن الأجسام التي يتولاها الكلال لأقل حركة وتضعف لأقل مؤثر وتختل لأقل سبب ، إن هي إلا أجسام موتى لا أجسام أحياء . إن الجسم الذي يصيبه أقل برد أو يتعرض لأقل حر فتتزل به الأمراض ، لجسم مركب من جلود بالية ، وكذلك عقل الإنسان يجب أن يكون قوياً جداً ، لا تجوز عليه الأوهام ولا تستعصي عليه المشكلات ، ولا تروج عنده الخرافات والترهات . إن تلك العقول التي أنارت العالم ورفعت الإنسانية ، ليست عقول آلهة بل هي عقول بشر ، فيجب أن نفتش عن الوسائل التي تجعل عقول الناس جميعاً من جنس تلك العقول . إذا أهمل الإنسان عقله فلا فرق بينه وبين البهائم . . وأما النفس ، فيجب أن يبالغ في تهذيبها وتقويتها ، يجب أن نقوي أميالنا وغرائزنا ، لا أن نحاربها ونعمل على اضعافها حسب رأي القدماء . ونعني بقوة النفس أن يكون الإنسان حراً شجاعاً مستقلاً ، ذا حفاظ ومبادئ عالية ومطالب شريفة . النفس التي تجزع عند أقل مصيبة ، وتجنب أمام أقل خطر ، وتضيق تحت أقل ضيق ، وتتضاءل أمام أقل صعوبة وتقع بالدون وترضى بالكفاف وتتلاشى أمام أقل الطوارئ ، لهي نفس مريضة مهزولة مفلوجة . . القوة القوة ، هذا هو التعليم الجديد الذي يجب أن نبشر به . . من الناس من يقول : إن القوة للحق ، ومنهم من يقول : إن الحق للقوة ، وإذا تأملنا قليلاً رأينا أن الحق يجب أن يكون للقوة ، بمعنى أن القوي في جسمه وعقله ونفسه أحق من الضعيف في جسمه وعقله ونفسه بالوجود . . الأقوياء هم الذين يرثون الأرض . . حق القوي حق صريح ثابت يستند على عقل صحيح وجسد صحيح ومبدأ صحيح ، وأما حق الضعيف فهو حق مزعوم باطل يستند على عقل ضعيف ، ومبادئ منحطة وشعور مختل وجسد سقيم . . العالم مع هؤلاء

الضعفاء ، ليس إلا مستشفى مرضى او بيمارستان مجانيين كما قال الفيلسوف الألماني نيتشه ، صاحب فلسفة القوة في هذا العصر . . أحب من سري أن يتشبع من هذه الفلسفة ، وأن يكون من الأقوياء في جسده وعقله ونفسه إن شاء الله .

الثلاثاء في ٢٥ ك ١ غ سنة ١٩١٧م

اليوم عيد الميلاد ، فكم يسرني أن تكون عائلتي في القدس ، قد استقبلت هذا العيد برؤوس مرفوعة ووجوه باشة وقلوب مطمئنة ونفوس قوية . إن فعلت ذلك وما أظنها إلا فاعلة ، فاخرت بها كل عائلة . . . كان لتأملات أمس تأثير كبير عليّ ، فأحسست بنشاط وقوة وسموّ في جسدي وعقلي ونفسي ، فكأنني كنت وأنا في قرارة السجن أطل عليّ العالم من ذروة جبل شاهق . . لقد صدق من قال : إن فكر الإنسان يستطيع أن يعمل من الجحيم فردوساً ومن الفردوس جحيماً .
استحمت جيداً ، وقد كانت المياه بسبب الأمطار كدرة كالوحل ، ودلكت جسمي دلکاً جيداً على عادتي في القدس ، ثم فركته فركاً عنيفاً ، ولعبت بعض العايبي ، ثم تفقدت ثيابي وفرشيتها جيداً ثم أفطرت ، وبعد الفطور جلست على كرسيّ أدخن بأركيتي وأكّيب ، فكأنني في السجن وحدي أو أنا ونفسي .
لم يزرني أحد اليوم إلا توفيق جوهرية ، ولعل لهم عذرا .

يوم الأربعاء في ٢٦ ك ١ غ سنة ١٩١٧م

انقطع الماء اليوم عن السجن فلم استحتم ، بل اكتفيت أن مسحت جسدي مسحاً بفوطة مبلولة . تفلت مرتين وفي كل مرة وجدت من القمل شيئاً كثيراً .
لا أفكر في حالتي إلا خيل إليّ أنني سأغيب كثيراً عن البيت ، فصبراً جميلاً ، ولست أدري هل أقضي مسافة هذا الفراق في السجن في دمشق أو غيرها ، أو يطلق سراحي فأقضيها حراً .
الجهات النظيفة في السجن سبقنا إليها ، فلم نرَ بدأً أن ننام في محل وسخ بين الحشاشين ، تحت سلّم دكة [=عليّة] ينام فيها المحافظون ، فلا يزالون ليلهم ونهارهم يصعدون وينزلون . . ولا يصعد أحدهم أو ينزل إلا تساقط علينا شيء من نعالهم ، ولا ننام إلا قمنا تتغش ثيابنا بالقمل ، ولولا ذلك لكان سجننا أهون وأيسر .
لا يفاجنني الضجر إلا نفيته بالصبر ، ولا تهتاج عواظني إلا أمسكتها وتغلبت عليها ، ولا تجزع نفسي إلا تعهدتها بالتشجيع ولا تغرورق عينايا بالدموع ، إلا قلت : أكفنا ، فهل أستطيع ذلك طويلاً؟ .
رفيقنا الشيخ موسى الشتين ، بعد أن وعدوه أن ينظروا في أمره في دمشق ، عادوا هذه الليلة عند الساعة

العاشرة افرنجية فأخذوه، فتأثرنا لحالته لأنه أعجز من أن يتحمل مشقة السفر في مثل هذه الأيام، ولا سيما في ليلة ماطرة باردة مثل هذه الليلة، ولم يمهلهو أن يكتب رسالة إلى امرأته، أو أن يمر عليها، فتذكرت ليلة ابعادنا من القدس... وقد داخلتنا خشية أن يجيئوننا في جناح ليلة ظلماء، فيبعدونا الى حيث لا نعلم، ولذلك صممت أن أبذل الوسع غداً في تدبير أمرنا من جهة، وفي الاستعداد لكل طارئ مفاجئ من جهة أخرى. يظهر أن سوء المعيشة أو سوء الغذاء أو البرد أو القلق، قد أثر على معدتي فأفسدها.

الخميس في ٢٧ ك ١ غ سنة ١٩١٧م

لا يزال الماء منقطعاً عن الحبس فاكتفيت بالمسح.

يظهر أنني كمت في حاجة إلى التطعيم، وإن كمت قد جدت منذ الصغر، فإن يدي أصبحت ملتهبة في محل التطعيم. ولعل ما شعرت به من التلبك في معدتي مسبب عن ذلك. أقلنا من الطعام فلم أتناول في الصباح غير الشاي الى الظهر، ثم تناولنا لبناً مع قليل من الخبز. لم يزرني أحد غير توفيق جوهريّة.

جاءني أحد المساجين، وقال لي: أنا من عبوين، فقلت له من تعرف من دير غسانة فقال: أعرف محمود الصالح وابنه عمر، فاغرورقت عيناى بالدموع، وحنوت على ذلك السجين، كأنه أحد أقاربي، وأعطيناه قليلاً من الدراهم. سجن بسبب بيعه بندقيّة، اسمه حسن أحمد دحبور.

الجمعة في ٢٨ ك ١ غ سنة ١٩١٧م

شرف السجن ليلة أمس أحد الضباط، لقتله اثنين بسبب امرأة، ومع ذلك فهو يظن أنه مظلوم.

المعيشة في السجن

أنام بعد المساجين وأستيقظ قبلهم، فلا يروني إلا ذاهباً أثباً في رواق السجن، كأنني قيوم لا تأخذني سنة ولا نوم. قبل الفجر يقوم بعض المساجين للصلاة، ويصلي فيهم الشيخ عبد الحميد، الذي كان زارنا في القدس مع الخواجا أمين صيداوي، وكم وددت، وهم مولون وجوههم نحو الجنوب أن أصلي معهم، فأركع وأقوم وقبلتي القدس، وأقول مع الشاعر:

أنتم حديثي وشغلي
إذا وقفت أصلي

أنتم فروضي ونفلي
يا قبلتي في صلاتي

بعد الصلاة أشرب شيئاً وأدخن بأركلتي، ثم إذا كان هناك ماء استحمت، وإلا اكتفيت بالمسح، ثم أفلي ثيابي وألبس، ثم أفطر فأدخن وأكتب يوميتي . . . نصرف أكثر الوقت في غرفة الجامع بجانب النافذة التي تطل على الطريق، وهي مفروشة بحصير بال. أطوي العباءة التي أرسلها إليّ أستاذي نخلة أفندي زريق، أو احرامي الذي أتيت به من القدس فأجلس إلى أن تعب من الجلوس، فأقوم وأتخطر ذهاباً وإياباً في رواق السجن أستنشق الهواء النقي، وهذا دأبنا النهار كله. وقد أتقلى مرة أو مرتين .
وفي المساء بعد العشاء أخرج إلى الرواق مستتراً بالظلام، فأروض يدي وعضلات وجهي ورقبتي، وأما بطني وصدري وظهري وخاصرتاي ورجلاي، فأروضها وقت الاستحمام .
مرّ علينا أربعة عشر يوماً في هذا السجن، بالأمس جاء سؤال عن رفيقي الخواجا ليفين، هل هو في السجن ولماذا، لا بد أنهم سيسألون عني أيضاً .
مرّ علينا عشرون يوماً منذ تركنا القدس وأربعة وعشرون منذ تركنا البيت، فهل غيبتنا تعدّ بالأيام أو بالشهور والسنين؟ .

مرّ الآن من أمام النافذة ترجمان قنصلاتو ألمانيا في القدس الخواجا راحيل، وبالأمس مرّ محمد الخطيب فناديته، فازورّ واعتذر فتركاه، ما أشقى السجن في هذه الأيام، فإن جميع الناس يعرضون عنه ويتناسونه .

السبت في ٢٩ ك ١ غ سنة ١٩١٧م

حاريني يا نائبات الليالي
واجهدي في عداوتي وعنادي
عن يميني وتارة عن شمالي
أنت والله لم تلمي ببالي

مع أنني شرقي وابن شرقي وعريق في الشرقية ومتعصبٌ، لها فلا أتأمل في حالة الشرق إلا ضحكت في نفسي، وشرّ المصائب ما يضحك . ليس الشرق بعيداً عن الغرب فأدنى الشرق متأخم لأدنى الغرب، وأقصى الشرق متأخم لأقصى الغرب، بل الغرب قد جاس خلال الشرق بلغاته وعلومه وآدابه وعوائده وتجارته وصناعته وسائر ملبساته من زمان طويل، ومع ذلك فالشرق لا يزال شرقاً، كأن ليس بينه وبين الغرب أقل علاقة .

لا يكون الشرق شرقاً إلا إذا صار غرباً . . . لو احتكت بهائم الشرق بالغرب لظهرت عليها آثار الترقى، فما بال الناس لا يترقون، لا شك أن ذلك من المشاكل التي لا يسبر غورها ولا يدرك كنهها .
قضيت [حالماً] ليلة أمس في القدس أتجول في طرقها وأخالط ناسها، وقد كان بيني وبين أمي موقف

بكاء ، ذرفنا فيه الدمع مدراراً .

مع ما أنا عليه من القلق على أحبائي ، فإني لا أزال واثقاً بهمة ميليا وسلطانة وأمي ومروءة أصدقائي ، وأرجو أن يعتقدوا أنني جلد على هذا الدهر شديد الشكيمة أبي النفس ومهما طالت الغيبة فسأرجع إليهم كالذهب الإبريز ، وقد محصني نيران التجارب :

غيري يغيره عن حسن شيمته
لا تُغررن بأطماري وقيمتها
والنجم تستصغر الأبصار رؤيته
صرف الزمان وما يأتي من الغير
فإنما هي أصداف على درر
والذنب في ذلك محمول على البصر

الآن مرّ من أمام النافذة أبو الشر ، الذي كان أجيراً عند بنات زهران ، وقد خرج من القدس منياً .

الأحد في ٣٠ ك ١ غ سنة ١٩١٧م

لم أجد من الماء ما يكفي لغسل يدي ووجهي وفمي ، فاكفيت أن فليتُ ثيابي فوجدت والعياذ بالله شيئاً كثيراً .

أنا وأخواتي لفين على فراش واحد بسبب ضيق المحل ، وهو إذا نام تمطى فشغل من الفراش أكثر من حقه ، ولكن نحمد الله أننا ننام على فراش ، والافقد مضى علينا ليال عديدة لا نقرش غير شال رقيق ، وأرض السجج رطبة . شعرت الليلة بالبرد لأن الغطاء رقيق جداً ، وإذا نمت أنزع قميصي وألبس قميصي القديم وهو ممزق كل ممزق ، ثم ألتحف بعباءة أستاذي بدلاً من قميص النوم ، ثم أتغطى بالأحرام الأبيض ، وأما شال أختي فيتغطى به رفيقي . . سرقت اليوم فوطة وجهي فاستعملت فوطة رفيقي ، وقد سرقت أشياء كثيرة للمساجين غيرنا .

لا نزال تعذب كثيراً في أمر طعامنا ، رفيقي لا يأكل إلا من مطاعم يهودية ، وإذا أوصى على طعام جعل يشي سلفاً على نظافته وجودة طبخه كأنه لا يعتمد تناول الطعام من عند اليهود إلا لهذه الأسباب . ثم إذا جاء الطعام لا أتأوله إلا متقزراً أو مضطراً بسبب الجوع ، لأنه لا يجيء إلا متأخراً جداً ، واليوم أقرب الأيام تناولنا طعام الغداء نحو الساعة الثالثة بعد الظهر ، والطعام الذي يرسلونه لنا كلينا لا يكاد يكفي واحداً ، ثم هو لا يفكر بالطعام إلا إذا جاع ، فاضطر أن أشايه ولو تضررت جوعاً . ثم إذا جلسنا على الطعام تصرف تصرفاً غريباً . ومن جملة ما أنكرته عليه أنه إذا استاء من أحد عمم حكمه على الأمة ، فلا يقول لص بل لصوص ، ولا قاتل بل قتلة ، ولا دنياً ، بل أدنياء ، وأما اليهود فمع أنهم يحاولون امتصاص دمه ويعاملونه أسوأ معاملة ، فإنه يتغنى

بفضائلهم وفضلهم على العالم، ويعظم من شأنهم، مما يشف عن كره لكل أمة غير أمته، ولعله ينكر علي كما أنكر عليه أشياء كثيرة.

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعدّ معايبه

.....

نظرة في السجون

مع ما أنا عليه من القلق على أحبائي، وما أقاسيه من سوء المعيشة في السجن وتسفلها وهوانها، فإني لا يسعني إلا أن أكون شاكراً، ليس لأن مصيبي أخف من مصيبة غيري، ولكن لما لقيته من الدروس، وما اكتسبته من الاختبار في مدة هذا السجن.

وفي اعتقادي أنه إذا قدر لأحد أن يزور السجن ولو شهراً في حياته، كان حقيقاً أن يكون شاكراً راضياً، وإلا فإن هناك أشياء كثيرة يجهلها، ولا يمكن أن يعرفها إلا إذا زار السجن بنفسه.

لم أكن أفكر قبل اليوم بالمساجين، بل كان كل اهتمامي مصروفاً إلى المدرسة، نعم يجب أن نهتم بالتعليم والتربية، ولكن لا يجوز أن نهمل أمر السجين.

وهنا وأنا في قرارة السجن رفيق كثيرين من المساجين، أعيش كما يعيشون وأتألم كما يتألمون، أرفع صوتي الضعيف بالاحتجاج على وجود السجون في العالم.

لماذا وجدت السجون؟ لا يجوز أن يكون الغرض منها الانتقام، فإن الانتقام روح قديمة عاشت عليها الأمم في أزمان توحشها وهمجيتها، ولعلها كانت نافعة لهم، وأما اليوم فيجب أن تلغى كلمة انتقام من قاموس كل أمة. إذا لم يكن السجن للانتقام، فلا يبقى له من غرض إلا التأديب كما يزعمون.

السجن لا يصلح أن يكون واسطة للتأديب، ولا سيما إذا كان في مثل حالة سجوننا، بل أحر به أن يؤدي إلى غير الغرض الذي يقصد منه، بل هو أشبه أن يكون للانتقام منه للتأديب.

كانت المدارس إلى الزمن الأخير صورة مصغرة عن العالم، فكانت تقاص التلاميذ بالجلد والسجن، ثم عدلت عن القصاص في معالجة التلاميذ وتقويم أودهم وتعديل شاذهم، فكذلك الأمة يجب أن تعدل عن قصاص المجرمين، وكما أن المدارس لا تهتم بالذنب بل بسببه لإزالته، كذلك الأمم يجب أن لا تهتم بالإجرام بل بأسبابها لإزالتها. . كثير من غلطات التلاميذ وذنوبهم هم غير مسؤولين عنها، قد يكون الذنب ذنب الوالدين، أو ذنب الاستاذ نفسه، فضلاً عن أنها قد تكون ناشئة عن أسباب خارجية، فبأي حق تقاص التلميذ عليها. . (وهذا الموضوع من البحث يحتمل كلاماً كثيراً لا يتسع المقام لذكره هنا) كذلك الأجرام، فإن

كثيراً منها لا يجوز أن يكون المجرمون مسؤولين عنها . فكيف نقاصهم؟ .

كثير من غلطات التلاميذ ليست حقيقية، بل ليست ذنوباً، وإنما الأستاذ اما بسبب عسر هضمه أو حدة مزاجه أو قصر نظره أو شكاسة أخلاقه أو لؤم طباعه أو جهله، أو غير ذلك من الأسباب، يتوهمها ذنوباً تستحق العقاص . وإذا كانت أشبه بالذنوب أكبرها [=اعتبرها كبيرة] وقدر لها من القصاص أكثر مما تستحق، فما دام باب القصاص مفتوحاً، وما دام الأستاذ ذا سلطة مطلقة، فلا بد أن يقع ظلم أو سوء استعمال . . . وكذلك الحال في أمر الأجرام فإن كثيراً من الأجرام التي ألقى بسببها الناس في السجون ليست أجراماً حقيقية، وإنما الحاكم توهمها أجراماً لتسرع في حكمه أو لحدة في مزاجه أو لنقص في عقله، أو لغير ذلك من الأسباب فأصدر حكمه بالسجن ظلماً وعدواناً . وقد لاحظت مدة وجودي في السجن، أن أكثر المساجين مظلومون، فمنهم من هو متهم وهو بريء، ومنهم من أوقف لأمر طفيف ثم مرت الأسابيع تلو الأسابيع ولم يسأل عنه أحد، لأنه ليس له من يراجع الأحكام ويذكرهم بأمره، أو لأن أوراقه ضاعت أو لغير ذلك من الأسباب، مما لا يتسع المقام للإفاضة فيه، كما أنني لاحظت أن بعض المساجين قد ارتكبوا أجراماً كبيرة، ولكن لسبب من الأسباب كان الحكم عليهم خفيفاً، ومن سوء الاستعمال في السجون، انهم يسجنون الناس فيها على اختلاف أجرامهم، فتجد القتل واللصوص والابرياء وأصحاب الأجرام الطفيفة في سجن واحد، بدون أقل فرق .

السجن أسلوب قديم يجب الاقلاع عنه، والمجرمون لم يعودوا في نظر علماء النفس مجرمين بل مرضى، ولذلك يجب الغاء السجون، واعتماد طريقة أخرى منطبقة على [=تتلاءم مع] العلم الحديث . . . السجون لا تقلل الأجرام في العالم بل تزيدها، السجون لا تصلح السجين بل تفسده ولا سيما إذا كان حدثاً، فبدلاً من الاهتمام بالأجرام يجب الاهتمام بالأسباب، أزيلوا التجارب فتزول الأجرام، لماذا حكمتم على هذا بالسجن؟ لأنه سرق، لماذا سرق؟ لأنه فقير . لماذا هو فقير؟ لأسباب عديدة لا محل لها هنا . . . فبدلاً من الاهتمام بسرقة متى وقعت، وكيف وقعت يجب الاهتمام باستقصاء الأسباب، الى أن نصل الى السبب الأصلي فنزيله، وقد يكون السبب الأصلي غلطة اجتماعية، فكيف يؤخذ الفرد الواحد بها؟ .

بناءً على ما تقدم، يجب أن يكون الحاكم إما طبيباً أو استاذاً أو أباً، إذا فحصني الطبيب فوجد بعد التروي والتدقيق واستشارة غيره من نطس الأطباء أنني أحتاج الى عملية جراحية، وكان موضع ثقتي، فإني أسلمه نفسي باختياري، وليس لأنه ذو سلطة علي . ليس لأحد سلطة على أحد . . .

هذا موضوع واسع لم أهتم به قبل اليوم، وقد شغل أفكاري منذ دخلت السجن، ولا يتسع الوقت الآن لأن أوفيه حقه، ولكن إذا خرجت من السجن ورجعت إلى بلادي قريباً إن شاء الله، جعلت له قسماً من وقتي، والأمور مرهونة بأوقاتها .

الاثنين في ٣١ ك ١ غ سنة ١٩١٧ م

يجب على العاقل أن يتلافى الخطب قبل وقوعه، ولكن إذا وقع فيجب عليه حينئذ أن يخفف وقعه ويستفيد منه . . . والمصائب وإن حلت، فلا بد أن يكون فيها ممكن لذة أو مظهر جمال أو جانب نفع .
لم أترك أحداً من أصدقائي إلا كتبت له، فلم ألق من أكثرهم إلا الإعراض والاهمال، لعلهم قالوا: فقير يستعطي أو جان وقانا الله منه . على أنني أذكر أنني لم أكن أحجم عن تلبية نداء الأصدقاء، بل كل من دعاني عرفته أو لم أعرفه، وكم ضحيت من أوقاتي، بل عرضت نفسي لمواقف يحجم كثيرون عن الوقوف فيها في سبيل ذلك .

لا شك أنهم لا يعرفون حالة السجين ولذلك اعذرهم، ولست أتمنى لهم أن يقعوا في ما وقعت فيه، وإن كان ذلك أنفع لهم .

لست أدري لعل هذه الحرب خلعت قلوب الناس، فجعلوا إذا رأوا غير شيء ظنوه رجلاً . . . وأفسدت اخلاقهم فأوشكوا إذا سلوا التراب أن يملوا ويمنعوا، على أننا لم نسألهم شيئاً، وليس في أمرنا ما يخشئ منه .

يمر كل يوم الدكتور فريد بك والدكتور سليمان بك من أمام النافذة، وقد أبلغتهما أنني هنا، فلم يتكلفا السؤال عني، مع أنني كنت أحبهما وأعجب بهما، وانزلهما منزلة الأخ من أخيه . . .
إن وأمت نفسي من هذا فإن
عشرت يوماً فقولا لا لعا

.....

بلغت اليوم أنه ربما أطلق سراحى غداً، نعم إن الحياة خارج السجن أجمل من الحياة داخله، ولكن ما دمت بعيداً عن أحبائي، فالسجن أو دمشق أو الأسانة أو أقصى العالم في نظري سواء . . . إذا خرجت من السجن واضطرت إلى البقاء في دمشق سجت نفسي في إحدى غرفها وانقطعت عن العالم . . . السجن الجامع المعلق في باب الجابية سجن ضيق، ودمشق الفيحاء الواسعة الأرجاء سجن واسع، إذا لم أكن في بيتي بين أهلي وذوي، فأينما كنت فأنا في سجن مظلم حقير . لا نهاري نهار ولا ليلي ليل . لا أحسب نفسي حراً مطلق السراح ناعم البال رغيد العيش آمناً مطمئناً إلا إذا رجعت إلى بلادي . . . آه ما أجمل ذلك اليوم الذي يقال فيه قد وضعت الحرب أوزارها: فليرجع كل إلى وطنه . . . إن ذلك اليوم عندي لهو يوم مضاعف البركات سيد الأيام وطليلة عصر ذهبي، ولست وحدي أتشوق إلى ذلك اليوم بل العالم أجمع، سنقابله بدموع الفرح، ونستسلم فيه إلى عواطفنا، ولو خرجنا إلى حد الجنون . . . آه ما أشوقني إلى ذلك اليوم، نعم كنت أشاق قبل اليوم وأنا في بيتي وسريبي، وأما اليوم فإن شوقي إليه أعظم . . . كما أنه لو جاء ذلك اليوم وأنا

في القدس لكان فرحي به عظيماً ، ولكن إذا جاء وأنا في الغربية ، فسيكون فرحي به أعظم .

لو قالوا لي : ارجع إلى بلادك لقمتم من فوري بالثياب التي عليّ ، وركضت على أقدامي في ليلي ونهاري بدون طعام ولا شراب إلى أن أدخل على بيتي ، وألقي نفسي على أحبائي . أرجع إليهم كما خرجت عنهم وسأجعل دخولي المدينة من باب الأسباط ذلك الباب الذي خرجنا منه في جناح الظلام مكبلين بالحبال بقلوب منسحقة منكسرة كالأغنام المسوقة للذبح . . كم كنا حين نحضر تمثيل رواية روميو وجوليت نبكي ، حين يحكم على روميو بالنفي من بيرون ، ولا سيما حين يسمع ذلك الحكم وحين يودع بيرون قائلاً «بيرون موطن حبي بيرون مسكن قلبي ، بيرون مستودع آمالي ، بيرون جنتي ونعمي ، بيرون بيرون» فكأنني كنت أبكي في ذلك اليوم على نفسي في هذا اليوم قبل مجيئه ، فأنا اليوم روميو وأحبائي جوليت والقدس بيرون . صدر أمر بتخلية سبيل كثيرين من المساجين قبل انقضاء مدة سجنهم ، وبدلاً من بقية المدة يضربون ، فجمعوهم في صحن الجامع ، وكانوا ينادون كل واحد بدوره فيستلقي على وجهه ، فيمسك اثنان بيديه واثنان برجليه ويجعل أحد الضباط أو مدير السجن يضربه بعصا على مؤخر ظهره ، وكنا في نوافذ السجن نرى ونسمع ونعد العصي فتذكرت المثل القائل «ليس الذي يعد العصي مثل الذي يأكلها» ، وكان بينهم رجل كبير السن ، فبعد أن ضربه ثمانين عصا وجدوا أنهم ضربوه عن غيره فتأمل !

في المساء عبات أركلتي وجلست في زاوية الغرفة على ضوء سراج ضئيل ، ومع تجلدي وتذرعني بكل الوسائط للتلهي والتناسي ، لم أملك نفسي عن أن أذرف دموعين حاريتين . شاءت الأقدار أن أشهد آخر ليلة من سنة ١٩١٧ في سجن دمشق بعيداً عن أحبائي .

هذا حزني ، فماذا ترى يكون حزنهم ، لا شك أنهم يبكون ولا يقبلون عزاء . .
أيها الأقدار إن هذه الدموع لغوال . .

كما نظن أن الحرب تنتهي في سنة ١٩١٧ ، لا يجيء آخر يوم منها إلا والحرب قد وضعت أوزارها . فهذا آخر يوم ، فمتى تنتهي الحرب ، لقد ساء حظك أيها السنة ، فبدلاً أن تكوني سيدة السنين ستضافين إلى السنين المشومة السابقة ، ولم يبق إلا أن نضع آمالنا في شقيقتك سنة ١٩١٨ ، وعسى أن لا يخونها الحظ كما خانك ، وعلى هذا الأمل نحبيك يا سنة ١٩١٨ ، وندعو لك بالخير إن شاء الله .

الثلاثاء أول ك ٢ غ سنة ١٩١٨

أسعد الله صباحك ومساءك وأيامك ولياليك وأسابعك وشهورك ، وجعلك درّة في جبين الدهر يا سنة ١٩١٨ إن شاء الله .

زارني اليوم صباحاً عبد القادر أفندي المغربي وأعتذر عن إبطائه، وتلطف في عزائي وبشرني أن صديقي الأبر رستم بك في دور النقاهاة فسرت لذلك كثيراً .

اضطرت اليوم أن أمدّ يدي إلى المبلغ الذي كان أرسله إليّ رستم بك، فاشترت تنباكاً وحلاوة للفطور وزيباً وجوزاً لأجل العيد، وفرقت بضع متليكات على بعض المُعدّمين من المساجين .

بعد الظهر جاءني إبراهيم الأسير، وهو واحد من أسرى ثلاثة وقعوا في أيدي العثمانيين في أول الحرب بالقرب من ترعة السويس، فقال: يطلبونك في غرفة المدير، فصعدت وإذا هناك صديقي نجيب أفندي نصّار^(٤٧) صاحب جريدة «الكرمل»، فتبادلنا القبلات، عرفني بصديقه أنيس أفندي الخوري أحد شبّان حيفا الأدباء، وهو الآن كاتب في إدارة السجن . فهتمت من نجيب أفندي أنه كان رهين السجن في دمشق مدة شهرين بتهمة سياسية، ثم برّث ساحته وأطلق سراحه، وأثنى على عدل رئيس الديوان العرفي، وبشرني أنهم سيطلقون سراحي كما أطلقوا سراحه في القريب العاجل، ونصح لي أن أقدم استدعاءً إلى قومندان المركز أطلب فيه إخلاء سبيلي .

سمعنا اليوم أن قد ورد نبأ أن قد حصلت هدنة لسته أيام بين المتحاربين، فإن صح ذلك فتلك بشارة عظمي، تؤذن بقرب الفرج إن شاء الله . . .

مرّ عليّ أحد عشر يوماً لم أغير قميصي، ولم أنزعه عن جسمي لا في النهار ولا في الليل، لأن ليس لي غيره، وأما قميصي القديم الذي جئت به من القدس فقد جعلت أقطع منه كل يوم قطعة لاستعمالها صباحاً، ولذلك لا غنى عن شراء قميص آخر، ولكن من أين أدبر الدراهم . . . كلفت أستاذي أن يراجع البطريك في طلب مبلغ كبير أدفعه له في القدس، وللآن لم أعرف ماذا تمّ .

الأربعاء في ٢ ك ٢ غ سنة ١٩١٨

لم أزل منذ الصباح على مثل الجمر أنتظر أن يمرّ بي أوزيرني أحد، وللآن (نحو الساعة الثالثة بعد الظهر) لم أر أحداً فصبراً صبراً . . . إذا لم أصبر مختاراً صبرت مضطراً . قد كفى ما مرّ بي في السجن . . . إذا كنت قد سجت انتقاماً فقد قاسيت في هذه المدة ما لا يُطاق . وإذا كان السجن للتأديب، فقد جاوزت الآمي ومدة سجنني حدّ التأديب، وإن كان في السجن فوائد ودروس واختبارات، فإن نحو ثلاثين يوماً كافية لأن أتعلّم كل الدروس التي يمكن أن يستفيد منها السجين في سجنه .

(٤٧) نجيب نصّار: من طلائع الصحافيين الفلسطينيين، صاحب جريدة الكرمل الأسبوعية الحيفاوية (تأسست عام ١٩٠٨)، التي كانت منبراً مبكراً للتصدي للأطماع الصهيونية في فلسطين .

زارني أستاذي والصديق الأبرّ الخواجّا تادرس . بلغني أستاذي أن البطريرك أعطاه عشر ليرات ورق وستة ريات تقوداً ليدفعها إليّ . فطلبت منه أن يحفظها لي عنده وكلفته أن يشتري لي قميصاً وكسوناً وزوجي جوارب ...

كان في السجن معنا منذ جننا دمشق إلى اليوم شاب من صيدا اسمه صبحي ، سجن نحو ثلاثين يوماً لأمر طفيف جداً ، وقد مرّت عليه الأيام الأخيرة وهو واقف في نافذة الغرفة ، لا يدع أحداً يمرّ بدون أن يكلفه الاهتمام بأمره . وقد كانت امرأته وهي فتاة صغيرة تروح وتجيء في سبيل الإفراج عنه ، وقد رأيت من همّتها وإقدامها على حداثة سنّها ما ذكرني بهمة أختي وأمّ سريّ ، إلى أن جاءته اليوم تبشره بالفرج ، فودعنا وخرج فقبلته وهنّأته وقلبي يخفق حيناً إلى مثل هذا اليوم . متى أراك يا عائليّ المحبوبة؟ .

مع حينني إلى القدس وأسفي الشديد للخروج منها ، فإني لو كنت فيها يوم دخلها الإنكليز لكنت ذهبت إلى إحدى القرى المجاورة لأسبوع أو أسبوعين ، تفادياً من أن أرى المشاهد الباردة التي يقوم بها الصعاليك المنافقون ، الذين يتلونون بكل الألوان ولا يزالون كل يوم في شان . . . بالأمس كانوا يجاملون الحكومة العثمانية ويُداهنونها ويسبّحون بحمدها وشكرها ، واليوم يُداهنون الحكومة الإنكليزية . . . تلك مشاهد تنقرز منها نفسي ، وإني وإن كنت تألمت كثيراً في الانفصال عن عائليّ فإني لا يسعني إلا أن أكون شاكراً لأنني لم أر تلك المشاهد . . . كما أنني حمدت الله أنني لم أكن في القدس يوم إعلان الدستور ، يوم سمعت بتلك المظاهر التي قام بها أولئك المنافقون الذين لم يكونوا يفقهون معنى الدستور ، والذين كانوا يتغنّون بالحرية وهم أعداء الحرية ، بل إنهم كانوا ولا يزالون صعاليك أذلاء . . . ارفع علم الحرية فإنك ترى أنهم أول من يلتف حوله . انعق بالخراب فترى أنهم أول من يلبي نعيّك .

زارني بعد الظهر الدكتور حسين الخالدي مع بديع السنونو لأول مرة ، فقبلته من خلال قضبان باب السجن . قال لي : إنه مسافر غداً إلى بيروت مأذوناً بعد شفائه من الجرح الذي أصابه في رجله في جوار غزة ، فكلفته إهداء سلامي وأشواقي إلى أخيه أحمد . . . دفعت إلى بديع السنونو رسالتين إلى نابلس الواحدة إلى سريّ ، والأخرى إلى سلفي الدكتور جرجي دعدس .

وأنا جالس بإزاء النافذة بعد الظهر أدخّن بأركلتي وأصعد الزفرات إذ مرّ من أمام النافذة نعش مكشوف يحمله رجلان على رأسيهما فإذا فيه ميت عاري الجسم فتأثرت كثيراً ، لا شك أنه غريب ، إمّا جندي أو سجين .

صرفت ليلة أمس في القدس أتجوّل [حالمًا] في طرقها . من مزايا الأحلام أنها قد تجمع بين الأموات والأحياء وبين القريين والبعيدين ، فقد نقلتني إلى القدس وأقامت أبي من قبره ، وأحضرت أخي يوسف من



دخول الجنرال النبي الى القدس في كانون الاول ١٩١٧ . باب الخليل .
المجموعة الجوهريّة . مؤسسة الدراسات الفلسطينية - بيروت .

أميركا ، فقد رأيتهما يُدخنان بالأركيلة . فتذكرت بعض آيات كت نظمها يوم كت في أميركا ، وأرسلتها إلى البيت ، منها هذان البيتان :

هَذَا وَلَوْلَا أَنَّنِي أَرَأَيْكُمْ فِي حَلْمِي
لَكُنْتُ فَضَلْتُ عَلَى هَذَا الْوَجُودِ عَدْمِي

الخميس / ٣ ك ٢ غ سنة ١٩١٨م

دخلنا السجن في أواخر سنة ١٩١٧م ، وما نحن لا نزال في أوائل سنة ١٩١٨ ، بحيث نستطيع أن نقول إننا أقمنا في السجن سنتين ١٧ - ١٨ بل يلوح لي أن الأيام في السجن تكاد تكون في نظرنا أعواماً .
اليوم زارني صديقي الأبر رستم بك لأول مرة مع بعض أساتذة الكلية الصلاحية ، وبالغوا في العزاء ، فكان سروري بهم عظيماً . ظهر لي رستم بك حفظه الله كأنه قائم من الموت لشدة هزاله واصفرار وجهه . . . لا يمكن أن نحاكم إلا إذا كان لنا أوراق وإذا لم يكن لنا أوراق فلا سبيل لخروجنا من السجن ، ولذلك يلوح لي أننا سنقضي غربتنا في السجن . . . سمعنا اليوم أننا سننقل إلى سجن آخر مخصص بالمساجين الذين جاؤوا من القدس ونواحيها .

لا يمر يوم إلا رأيت من رفيقي الخواجا ليفين أطواراً عجيبة . . .
ماذا يهمني السجن لو كانت عائلتي قريبة مني ، أراهم كل يوم ويروني . وماذا تهمني القدس لو خرجت منها مع عائلتي ، اللهم على غير الحالة التي خرجت عليها من القدس؟ . . .
ردوا إلي عائلتي أو ردوني إلى عائلتي ، ثم احكموا علي بالنفي من بلادي إلى الأبد ، بل إذا عشت حكمت على نفسي بالنفي من القدس إلى أميركا ، حيث أضع ابني في أحسن مدارسها فيتخلق بأخلاقهم ويتأدب بأدابهم . ليس في اعتقادي أجمل وأسعد من المعيشة المدرسية في أوربا أو أميركا . وليس أدعى لسعادتي من أن أرى ابني بثياب اللعب عاري الساعدين والساقين ، مكشوف الرأس يشب على درج جامعة كولومبيا في نيويورك ، والهواء يعبث بشعره الذهبي إلى ساحة اللعب حيث يشترك مع اللاعبين بتلك الألعاب المروضة للجسم ، التي تقتضي السرعة والرشاقة والنشاط والإقدام والنظام والانتباه . بل ما أسعدني حين أجلس مع عائلتي الصغيرة لتناول الشاي في منزل صغير جميل أنيق في نيويورك أو بروكلن أو إحدى القرى المجاورة . . . بل ما أسعدني حين تقوم عن العشاء فندخل الصالون فيجلس سري على البيانو فيعزف ويغني ، أو يعزف على الفلوت أو الكمنجة . ما أسعدني حين يدعو سري أتراه من الفتیان والفتيات لتناول الشاي أو للخروج إلى الطبيعة بإزاء نهر حيث يتناولون الشاي . . . ما أسعدني حين أرى سرياً مكباً على كتبه ودفاتره

يهيئ فروضه المدرسية . . ما أسعدني حين يُعَيِّنُ أستاذاً في إحدى المدارس العالية، فيقف في تلامذته يُلقِي عليهم الدروس المفيدة اللذيذة، ويبث فيهم الحياة . . ما أسعدني حين أراه في المجتمعات العمومية خطيباً في المواضيع المفيدة الجميلة، فيُقابل الناس أقواله بتصديده الأيدي وهتاف الاستحسان . . . تلك آمالي وذلك مبعث سروري . . . جديرُ بمن كان مثلي رهين السجن بعيداً عن أهله وأحبائه كئيباً حزيناً أن يوجه آماله إلى المستقبل، ويطوف بأكفاف الخيال، ولو خمس دقائق، ويتلهى عن حاضره وماضيه بتصور آتية .

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيّق العيش لولا فسحة الأمل

الجمعة في ٤ ك ٢ غ سنة ١٩١٨

كنت أظن أن هذه الحرب تضع أوزارها بدون أن أصلى نارها، ولكن شاءت الأقدار أن تكون آلمي الأخيرة عظيمة جداً تفوت [=تفوق] مبلغ احتمالي . . كأن الأقدار كانت تتجاوزني في ما مضى من حياتي، لتضربني ضربة واحدة ولكن قاضية . . . كل فراق غير النفي هين محمول . . فارقت أحبائي بدون أن أتزوّد منهم النظرة الأخيرة ثم هم لا يعلمون عني ولا أنا أعلم شيئاً، فكأنهم واروني التراب . زارني اليوم بعض تلاميذ الكلية الصلاحية من الصفوف العالية وتوفيق جوهريّة وشحادة ملوك وكنت قد كلفت هذا الأخير بالأمس أن يضع رسائلي الى سلفي الدكتور جورج دعدس في نابلس في البريد مضمونة، فجاء اليوم ودفع اليّ الوصل وقد دفع هو أجرتها وأحضر لي كعكة كبيرة مع قطعة حلاوة وقليل من الزبيب وحب الآس . وقبل بضعة أيام زارني وأحضر لي زيباً مع جوز . . لا يزورني إلا أتانني بشيء ، وهنا محل لأن أجهر بالثناء عليه وأحب من سري أن يحفظ له وتوفيق جوهريّة ومخائيل القزاز وجورج خميس وسائر الأصدقاء الذين اهتموا بأمرى وعطفوا عليّ في غربتي هذه جميلهم . . أرسل اليّ الخواجا تادرس انه يشتغل بمسألتي وفقه الله وأحسن إليه وبلغه آماله بمنه وكرمه .

أرخص الظلام سجونه وأنا اتخطر في رواق السجن فهاجت أشجاني وعبثت بي أشواقي فجعلت أئن أنين
الشكلى ودموعي تتحدر كالمطر

آه وأشواقي لذياك الحمى وظما قلبي لذياك اللمى
لم يرق لي منزل بعد الحمى لا ولا مستحسن من بعد مي

السبت في ٥ ك ٢ غ سنة ١٩١٨م

ذهبنا اليوم الى الحمام وقد ساعدنا الحظ أنا ورفيقي وثلاثة آخرين ان الاغلال لم تكف لجميع المساجين

فذهبنا نحن الخمسة في مؤخرة المساجين غير مكبلين . الحمام بارد وسخ جداً يدخله المساجين فينزعون ثيابهم ثم يدخلون الى حجر الاستحمام عراة كما خلقهم ربهم . . . أما نحن الخمسة فقد وعدنا صاحب الحمام أن ندفع له أجره الحمام فأعنتى بنا . . . قلت : إن الحمام وسخ ومناشفه وسخة لا تخلو من القمل ولكن الذي مرّ عليه في السجن نحو شهر ثم مرّ عليه نحو اسبوعين لم ينزع ثيابه البيضاء عن بدنه ولم يغسل الا بعض وجهه وأطراف أصابعه ، ان من كان كذلك لا يبالي بوسخ مثل هذا الحمام .

الأحد في ٦ ك ٢ غ سنة ١٩١٨م

أقرأ الآن كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه ، وهو كتاب نفيس عميق . من يقرأ أدبيات اللغة العربية يعجب كيف أن أمة عندها مثل هذه الأدبيات تبلغ إلى هذه الدرجة من الانحطاط . . . كت أظن قبل اليوم أن الأدبيات هي التي تخلق الأمم ، وأما الآن وقد اطلعت على هذا الكتاب ، وأتذكر أنني اطلعت على كتب كثيرة قبله حافلة بالأبحاث العميقة والأدبيات الراقية ، فإني أميل إلى الاعتقاد أن الأمم هي التي تخلق الأدبيات لا الأدبيات تخلقها . فقد تكون الأدبيات راقية ، والأمة راقية وقد تكون الأدبيات راقية والأمة منحطّة . هذا موضوع واسع سأجبل القلم فيه في فرصة أخرى . . .

جاء اليوم جمال باشا الصغير ، فوعد زين العابدين أفندي أن يقدم استدعائي له فعسى أن يكن الفرج قريباً . غداً عيد الميلاد عند الشرقيين ، فعسى أن يلهم الله أحبائي الصبر والطمأنينة . متى رجعت إلى البيت قريباً جعلت كل أيامي أعياداً إن شاء الله .

إذا أراد من كان مثلي أن يتعزى فليس له إلا أحد أمرين : إما أن يصرف فكره عن حاضره وماضيه إلى آتية ، وبني علالي وقصوراً في الهواء ، ويتصور من السعادة في مستقبله ما يشاء ، وإما أن يقابل مصيبته بمصائب غيره ، أو يقابلها بما كان يمكن أن تكون عليه فيجدها خفيفة ، وفي ذلك بعض العزاء . على أن الأجدر بالعاقل الكبير النفس الشديد الشكيمة ، أن لا يخادع نفسه ولا يكذب حسّه ، بل أن ينظر إلى مصيبته كما هي لا يكبرها ولا يصغرها ، ثم يحمل على النفس ضيمها ويصبر صبر الكرام . ويقول مع أبي فراس [الحمداني] :

قؤول ولو ان السيوفَ جوابُ
وللموت حولي جيئةٌ وذهابُ

صبورٌ ولو لم تبقَ مني بقيّةٌ
وقدرٌ^(٤٨) وأهوال الزمان تنوشني

(٤٨) وقدرٌ: صاحب مكاتة .

ألاحظ أحوال الزمان بمقلّة بها الصدق صدق والكذاب كذاب
اشترت اليوم قميصاً فصار عندي قميصان، وسأشترى غداً كلسونا آخر وزوجي جوارب ومنشقين،
صغيرة للوجه وكبيرة للحمام.. عادت المياه إلى السجن ونفسي تحدثني أن أعود غداً إلى حماماتي.
ليس للسجين في النهار إلا أن يجلس في فراشه إن كان له فراش، أو على حصيرة إن أسعده الحظ فوجد
قطعة حصير، أو على الأرض، أو أن يسند ظهره خارج السجن إلى بعض جدرانها يتدفأ بحرارة الشمس إذا
كان النهار جميلاً، وإلا فليس له إلا أن يتخبط ذهاباً وإياباً في رواق السجن إلى أن تكلّ قدماه... كم أحتاج
في النهار إلى كرسي، ولو كرسي قهوة، لأجلس وأدخن أركلتي وأقرأ ما تيسر لدي من الكتب، أو أكتب ما
يتوارد على الخاطر فلا أجد، فأضطر أن أجلس على طرف الفراش وأتخذ من ركبتَي طاولة للكتابة، ولكن
لا أكتب قليلاً حتى تتحدّر رجلاي ولا أستطيع حراكاً... مع كل ذلك فإنني قد آلف هذه الحالة، ولكن أن
أسك دمعي فلا يتحدّر وقلبي فلا يتقطر، فليس لي إلى ذلك من سبيل...

كما نأوي في النهار إلى غرفة الجامع، حيث كما نقرأ ونكتب وحدنا، فأبوا علينا اليوم ذلك، فصرنا نجلس
في المحل الذي ننام فيه وحولنا المساجين، فلا نأكل إلا طوقونا بأنظارهم فلا نستطيع أن نطعمهم ولا نستطيع
أن نأكل، وهم ينظرون. أن نشبع وهم جياع. وفوق ذلك فإنهم لا يعرفون معنى للنظافة. فنراهم مهزولين
ضعفاء بسبب الجوع والوسخ وسوء المعيشة. رأيت اليوم بعيني السجن الذي ينام بجانبي، وأعني بقولي
إنه ينام بجانبي، أنه قد تكون رجلاه مع رجلي في فراشي، هذا السجن ضعيف مهزول ليس عليه إلا العظام
والجلد. لا يزال طول النهار نائماً صائماً، وإذا استيقظ استكن في فراشه والتحف بغطائه الوسخ الممزق،
واحتضن كانون النار، وحقه أن يفعل ذلك، لأن الفصل بارد جداً والسجن كبير جداً، وهو يعيش على التعيين
الذي لا يكفي طفلاً فضلاً عن رجل كبير. يأكل تعيينه ثم ينام ولا يستيقظ إلا في ميعاد التعيين الثاني، كأنه
من تلك الحيوانات التي تنام شطراً من السنة وتستيقظ شطراً آخر، أو من سكان أقاصي الشمال الذين
ينامون كل فصل الشتاء... هذا السجن رأيت بعيني يفتش ثيابه ويلتقط عنها القمل ويرميه بالقرب منه، فيقع منه
شيء كثير على فراشي.

- مدير السجن -

مدير السجن الباني أمي بذي اللسان فظ الأخلاق، ويكفي في بيان حالته أن أقول: إن له ثلاثة أولاد بين
المساجين أسكوا بسرقة. وقد سمعت أنه قص مسألة أولاده على بعض الذين حوله، أن أولاده سرقوا من
المحل الفلاني ما تبلغ قيمته مئتي ليرة، وأنفقوها في سبيل الشيطان الرجيم، ثم قال: إن أولاده الفاعلين

التاركين، مما أجل القلم عن ذكره، سرقوا هذه القيمة ولم يفظنوا أن يعطوا اباهم خمسين ليرة. هذا هو مدير السجن... إذا لم يكن بدّ من السجن حسب رأيكم، فليكن المدير على الأقل من أفضل الناس وأنزههم، ليكون مثلاً حسناً للمساجين.

الاثنين في ٧ ك ٢ غ سنة ١٩١٨م

اليوم عيد الميلاد عند الشرقيين. لست أشك أن كثيرين من أهلي وأصدقائي زاروا أحبائي في هذا النهار، وبالغوا في تطيب خاطرهم وتسليتهم.

دخلت السقيفة في الصباح، فلعبت بعض ألعابي ثم استحمت جيداً ولبست قميصي الجديد فشعرت بنشاط عظيم. وبعد الظهر جاءني الكلسون الجديد فلبسته، وغيّرت جواربي وأرسلت كل ثيابي الوسخة للغسل.

جاءني شحادة ملوك، وقال: إنه دخل على جمال باشا الصغير وقبل يده وكلمه بخصوصي، فأشار عليه أن يقدم له استدعاء فيساعدني، فقلت له أن يواجه الخواجا تادرس لكتابة الاستدعاء.

بعد الظهر جاءني الخواجا بديع السنونو يحمل صرة من بيت الخواجا تادرس فيها أربع قطائف ومطبقية فيها كبة، وقال لي: إن خاله وأستاذه ذهباً ليوافها البطريرك، وأنهما قدما استدعاء الى جمال باشا، ثم جاءني توفيق جوهرية فأعطيته طربوشي ليكويه، ثم جاءني مرة ثانية يحمل جريدة النهار، ثم جاءني رسم بك وطمأنتني. أحمد الله أنني لم أهمل، فعسى أن يجد أحبائي من أصدقائي ما ألقاه هنا إن شاء الله.

إذا أردت أن تعرف السجن الذي كنا فيه فتصور مكاناً واسعاً عالي السقف غير مبلط. فرشت فيه بعض حصر بالية، فيه نحو مئة وخمسين نفساً يقيمون فيه نهارهم وليلهم لا تدخله الشمس ولا يتجدد هواؤه لأن أكثر المساجين عراة ضعفاء مهازيل، فهم يحرصون على اغلاق نوافذه خوف البرد. ولا يزالون نهارهم وليلهم يدخلون ويوقدون النار للتدفئة أو للطبخ، بحيث تختلط أنفاسهم ودخان النار ودخان الأراكيل والسيكارات، أضف إلى ذلك الروائح المختلفة الكريهة، وروائح مطبوختهم، وروائح التدخين والتحشيش، أضف إلى ذلك جلبة المسجونين، هذا يعني وهذا يعزف على طنبوره، وهذا ينفخ بشبابه، وهذا يقهقه، وذاك يصيح والآخر ينادي على ثيابه ليبيعه في المزاد. وإذا جاء أحد إلى باب السجن يسأل عن أحد المساجين، جعل الواقفون عند الباب ينادونه باسمه بصوت عال يدوي به السجن، أضف إلى ذلك قعقة السلاسل في أرجل بعض المساجين، أضف إلى ذلك مناظر البؤس والشقاء... هذا هو السجن الذي كنا فيه.

الثلاثاء في ٨ ك ٢ غ سنة ١٩١٨م

أمس واليوم لم يزرنني أحد ولست أعرف ما تم . . مما يخفف عليّ السجن أن الطريق بيني وبين أحبائي مقطوعة، فإذا بقيت في السجن أو خرجت منه فكلاهما عندي سواء، فالحرية التي هي المطلب الأول قد أصبحت في نظري أمراً ثانوياً، وإنما مطلبي الأول هو أن أرجع إلى أحبائي، وما عدا ذلك فهو أمر ثانوي. كلا بل إن الحرية هي ما أتمنى الآن، وليس خروجي من السجن هو الحرية كلها، إذ ما الفائدة من خروجي إذا كنت لا أستطيع أن أرجع إلى أحبائي، فحريتي إذا مسلوبة، فإذا خرجت من السجن أو بقيت فيه فأنا لست حراً، وإذا شكوت الآن فلست أشكو من السجن، بل أشكو من انفصامي عن أحبائي، وإلا فلو كانت الطريق مفتوحة فأسمع عن أحبائي وهم يسمعون عني لكان خطبي هيئاً .

الأربعاء في ٩ ك ٢ غ سنة ١٩١٨م

من الطرق التي ينسى بها الإنسان مصائبه أن يفرغ إلى خياله في النهار، وإلى أحلامه في الليل، من يوم الاثنين الماضي استأنفت حماماتي وألعايي . . تحدثني نفسي أن الفرج قريب إن شاء الله .
من أقوال ابن مسكويه «وجوه الأمور الممكنة في أعقابها»
«انما يحسن العيش وتطيب الحياة بالظن الجميل والأمل القوي»
«الموت ليس برديء وإنما الرديء هو الخوف منه»
«الحزن ليس بضروري ولا طبيعي»

* * *

زارني اليوم الشيخ عبد القادر أفندي المصغر لأول مرة، وشرني أنهم سيطلبونني اليوم للاستيضاح عن أمري ثم يطلقون سراحي . بعد قليل أخذوني إلى قومندان الموقع، ومن هناك أرسلوني إلى دائرة جمال باشا الصغير، فسألوني عن أمري فأجبتهم باختصار ما خلاصته أن الحكومة في القدس أمرت بإبعاد التبعة الأميركية في القدس، فجاء البعض وامتنع الأكثر، وقد اتفق أن جاراً لنا في الدار التي نسكنها من التبعة الأميركية، كان من جملة الذين تأخروا عن تلبية طلب الحكومة، فجاء البوليس في مساء الثلاثاء في ٤ ك ١ غ سنة ١٩١٧م وأخذني من البيت وأخذني معه، لأنه ظن أنه كان مختبئاً عندي والحقيقة هي هذه . إنني لست صاحب الدار، وقد استأجر هذا الرجل بعض البيوت فيها من صاحبها، حين كنت موقوفاً في دائرة البوليس، وبعد خروجي من دائرة البوليس لم أهتم في اليوم الأول بالبحث عن هذا الرجل بل لم أره، لأنني كنت مشغولاً باستقبال أهلي وذوي الذين لم يتقطعوا ذلك النهار عن زيارتنا للسؤال عني، وإنما عرفت أن رجلاً

يهودياً من سكان القدس استأجر بعض البيوت الخالية في مدة غيابي ، ولم أعرف أنه أميركي لأن اليهود لا يعرفون في بلادنا إلا أنهم يهود ، ولم يتسع لي الوقت لأسأل عنه وأتعرّف به ، لأن البوليس جاء في اليوم الثاني من خروجي من السجن ، فإذا كان مختبئاً ففي بيته وليس في بيتي ، وإذا كان هناك أحد مسؤولاً عنه فصاحب الدار لا أنا ، ومع هذا فإني لم أعرف أنه أميركي . . هذا ما أحببته به ، وإذا كان الوقت مساءً أمهلوني إلى الغد ، وأنا في دائرة قومندان المركز لقيت موسى أفندي العلمي فكان بيني وبينه موقف مؤثر . قال لي : إنه مسافر غداً إلى الأستانة ، ووعدني أن يكتب عن طريق سويسرا إلى البيت ، يطمنّهم عني ، ودفع لي خمس ليرات ورق وريالاً من المتلكات ، وتأسف أنه لا يستطيع أن يدفع لي أكثر فشكرته شكراً جزيلاً ، إن هذا الجميل لدليل من أدلة كثيرة على مكارم أخلاق المسلمين في بلادنا ، وما أجدرني بالإعجاب بأخلاقهم والثناء على ما لقيت من فضلهم وعطفهم .

لم ألق مثل هذه الأخلاق إلا في اثنين أو ثلاثة من المسيحيين ، وأما أكثرهم فصعاليك لا أخلاق ولا أخلاق لهم .

إذا عشت في هذه البلاد فلن يكون لي علاقة بالمسيحيين إلا باثنين أو ثلاثة منهم ، بل ربما خرجت من جماعة المسيحيين ودخلت في جماعة المسلمين ، لأنني أكبر نفسي أن أكون في عداد أولئك الصعاليك ، إذا كنت في الشرق فكن مسلماً ، وإذا كنت في الغرب فكن مسيحياً .

كن من الفريق الراقي والسلام . . سأبسط فكري في غير هذا الموضوع بيان شاف إن شاء الله ، رجعت إلى السجن انتظر الغد ، ومن غرائب الاتفاق أنني شعرت في أول هذا النهار أن الفرج قريب ، كما ذكرت ذلك في أول هذه اليومية ، ولم ينتصف النهار حتى جاءني البشارة بالفرج ، وهذه أول مرة كنت فيها مهبط الوحي والالهام .

الخميس في ١٠ ك ٢ غ سنة ١٩١٨م

بعد الاستحمام بالماء البارد في السقيفة المعهودة ، تهيأت للذهاب إلى دائرة جمال باشا الصغير ، وفي الساعة التاسعة ذهبت محفوظاً [تحت الحراسة] ، ولكن والحمد لله غير مكبل ، فلم يكن جمال باشا قد جاء بعد ، فجعلت أروح وأجيء أنا والجندي المحافظ عليّ في شارع جمال باشا الكبير وأنا مشرد الفكر ، لقيت كثيرين من أصدقائي وكلهم مهتمّ بأمري .

فهمت ان خليل بك مشاور العدل كتب في تقريره عني أن يطلق سراحي بالكفالة الى أن ترد أوراقتي ، لأنهم لم يجدوا في مسألتي ما يوجب سجنني ، ولم يبق إلا أن يعرض ذلك التقرير على جمال باشا لامضائه ، ثم

يرسلونه إلى قومندان المركز فيخلي سبيلي .

انتظرت إلى الظهر فلم يجئ جمال باشا ، فرجعت إلى السجن ، وقد وعدني أصدقائي أن يتموا المعاملة اليوم قبل أن يسافر جمال باشا إلى درعا . . جعلت أروح واجيء أمام باب السجن ، وأنا أقول في نفسي : الآن يجيئون ، بعد قليل يجيئون ، إلى أن أرخى الليل سدوله فيئست من الخروج هذه الليلة ، وغدا الجمعة وبعد غد يسافر جمال باشا فلا أمل بالخروج إلا بعد رجوعه من درعا ، وقد يكون ذلك بعد أسابيع ، فوجمت وانقبض صدري واستولى عليه حزن شديد . لو حوا لي بالأمل من بعيد ثم حجبه عني ، وعشرات الآمال ليست بسهولة ، فكان السجن عليّ هذه الليلة أصعب من كل ليلة ، دفعت إلى ابرهيم الأسير ليرة ورقاً ليشتري لي عشاء ، وما كاد يذهب حتى طلبت فخرجت إلى مركز القومندان ، حيث كان ينتظرنني الخواجات تادرس وجرجي طرزي ، اشترطوا أن يكون الكفيل من أهل دمشق ، وإذ كان الوقت مساءً ، لم يكن بدّ من تكليف الخواجا طرزي بذلك لأن مخزنه قريب ، فبادر من فوره فشكرت مروءته شكراً جزيلاً ، ثم أطلق سراحي ، فخرجت مع الخواجا تادرس وكان الوقت ظلاماً ، فجعلنا نخط خبط عشواء ، وكان فرح الخواجا تادرس بخروجه من السجن فرحاً عظيماً كأنني أخوه . ونحن في الطريق اشتري حلوى احتفالاً بحريتي ، ولما دخلنا البيت لقيت من لطف قرينته ما كاد يذرف الدمع من عيني . ثم جاء أستاذي [نخلة زريق] وشكري أفندي الفران ، فتبادلنا القبلات . ما كدت أدخل بيت الخواجا تادرس ، حتى هاجمتني تذكارات عديدة . تذكرت يوم كنا نزرهم في القدس أنا وسلطانة وسري فخيّل إليّ أن سلطنة جالسة إلى جانبي وان سرياً يتحرك أمامي ، آه ثم آه ثم آه من سوء حظي ونكد طالعي . . .

من الجمعة في ١١ ك ٢ غ / ١٩١٨م إلى الخميس في ٣١ ك ٢ غ ١٩١٨

(١) أقمت في بيت الخواجا تادرس من ٢١ ك ١٠ إلى ٢١ ك ١٩ كاني في بيتي ، ولكن لم أتمكن من متابعة الكتابة فأجلتها إلى أن آخذ غرفة خصوصية . كنت أنزل صباحاً فأجلس في قهوة الكمال ، فأدخن بالأريكة وأشرب شايًا أو قهوة ، وأكتب رسائلي إلى أصدقائي . كتبت إلى عيسى العيسى في أنقرة ، وإلى وديع قيسي في السلط وإلى سلفي الدكتور دعوس في نابلس ، أطمئنتهم أنني أصبحت حراً ، وأن صحتي جيدة وأن حاجاتي متوفرة لدي . . . إلا أنني طلبت من سلفي الدكتور دعوس أن يرسل إليّ قيمة أستعين بها ريثما أستقر على حال ، وأدير شغلاً أعيش منه . . . كنا نسهو أكثر الليالي في بيت الخواجا تادرس ، فكان يسهر معنا أستاذي أو شكري أفندي فران . . . ففي بعض الليالي ساقنا الحديث إلى ديني في القدس فمال أستاذي والخواجا تادرس إلى تقريري على تهاوني بأمر الوفاء ، وأن المداينين كانوا دائماً يتناولوني بالسنتهم ، منهم

خالي جورج وابن خالتي ميري . . علي حين كنت أنتظر أن يكونا أعذر الناس لي وأصبرهم عليّ ، أولاً لأنهما كانا يعرفان حالتي المالية ، واني لم أتأخر في الوفاء إلا بسبب ذلك ، وثانياً لأن القيمة التي لهما عليّ قيمة قليلة لا تستحق أن يفضحاني عند الناس لأجلها . . إذا عشت والتينا كان بيننا موقف عتاب ، ولم أبدأ أن أكتب إلى سلفي أن يبلغ أم سري إذا مت أن تبذل وسعها في وفاء ديوني وأن تبدئ من خالي وابن خالتي ، لأنني أرى فضلها ثقيلاً عليّ . . الأجل ليرتين أو ثلاث تجعلني موضوع انتقاد يا ميري في كل مجلس ؟ . . ولكن الذنب ذنبي لست أدفعه . . .

(٢) عز عليّ كثيراً أن أخرج من السجن وأترك رفيقي في مصيبي فيه ، فكان همي حين خرجت أن أحث جماعته على الاهتمام بأمره ، والمبادرة إلى إنقاذه ، ولكن اليهود يخافون من لا شيء .

(٣) كان أول ما اهتمت به بعد خروجي أن أجد طريقة لإبلاغ أحبائي خبري ، فقصدت جمعية الهلال الأحمر ، حيث لقيت أصدقائي الدكتور فريد بك والدكتور سليمان بك فتأثرا لحالتي كثيراً ، وأشاروا عليّ أن أكتب رسالة وهما يرسلانها بواسطة الهلال الأحمر إلى سويسرا ومنها إلى القدس . . ووعد كل منهما أن يكتب إلى أحد أصدقائه في الأستانة أو سويسرا ليرسلوا الخبر إلي القدس . . سألاني عن حالتي وعمّا إذا كنت أحتاج إلى دراهم ، فقلت لهما وقد خنتني العبرة : لا يهمني إلا أن أطمئن عائلتي . . . جاءني في ٢١ ك ٢١ غ الخواجا أكوب ترجمان قنصلاتو النمسا في القدس ، وقال لي : إنه كتب إلى قرينته في القدس بواسطة النظارة الخارجية في الأستانة ، وكلفها أن تبلغ أم سري أنني أصبحت حراً وأني أسكن بجواره ثم لقيني الخواجا أرتين طورسيان وقال : إنه كتب إلى القدس بالواسطة ذاتها ، وكلفهم أن يطمئنا عائلتي عني ، ثم أبلغني الدكتور فاينكنبوم أنه كتب إلى القدس عن طريق الأستانة ، وكلفهم أن يزوروا أم سري ويطمئنها ، ثم لقيت خريستوف هوفمان أحد النزلة الألمانية في القدس ، وقد كان تلميذاً في مدرستي وكلفته إن كتب إلى عائلته أن يكلفهم أن يطمئنا عائلتي . . ولكن متى تصل هذه الرسائل إلى القدس ، وماذا تكون حالة أحبائي إلى أن يردهم خبري ، اللهم ألهمهم الصبر والشجاعة والاطمئنان . .

(٤) لا أذكر أحبائي إلا تقطع قلبي حشرات . قد أكون جالساً مع الناس فيخطرون ببالي فانتفض « كما انتفض العصفور بلله القطر » ، وأهز رأسي وأضرب يداً بيد وأرسل نفحات حارة كأن بي مساً من الجنون . . .

يكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
لا أتصورهم إلا مجموعين كأنهم كتلة واحدة . لا أذكر سرياً إلا وأذكر أمه ماسكة بيده أو واقفة بحياله ، وأذكر جدته يخفق قلبها عليه ، وعمته ترعاه بعنايتها . . لا يخلو شوقي إليهم من القلق عليهم والأسف على فراقهم . أخاف أن ينزل سري عن درج البيت فترل قدمه فيقع ، أخاف أن يلاعب الهرة فتحشمه بأظافرهما .

أخاف أن يغلق الباب فينطبق على أصابعه ، أخاف أن ينام فينكشف غطاؤه عنه . أخاف أن يتسلق الجدار بيننا وبين جيراننا فيقع . أخاف أن يلاعب أترابه فيدفعه أحدهم بغتة فيسقط إلى الأرض فيبكي . أخاف أن يلعب بالمقص فيجرح يده . أخاف عليه من خطرات النسيم . . . أجمل أدوار الإنسان إذا كان في سن سريّ ، وأعظم المصائب أن يفصل الأب عن ابنه في تلك السن . لم يكن ألدّ عندي وأدعى لغبتي وسعادتي من أن أمشي مع سريّ يداً بيد ، من أن أراقب حركاته وسكاته ، من أن أسمع أحاديثه وحكاياته ، من أن أداعبه وأركبه على ظهري ، من أن أرى نموّه الجسديّ والعقليّ ، من أن أرى وجهه الجميل وشعره الذهبيّ ، من أن أقبله وأشمه وأضمّه إلى صدري . آه من غدرات الزمان وفجاءات الليالي . . . أخاف أن يطول غيابي بحيث إذا رجعت لا أجد سريّاً إلا وقد جاوز هذا الدور الجميل من حياته . . . واحرّ قلباه عليك يا سريّ .

وأما أمي فلا أتصوّرها إلا محنية الظهر مطرقة الرأس دامعة الطرف ، تصعدّ الزفرات . . العفو العفويا أمي فقد قصرت بواجباتي نحوك ، ولست أتمنى على الله إلا أن أرجع وأراك ، وأكفّ عن سيّئاتي وأعوّض عن قصوري . . . وأما ميليا وسلطانة فإنني أثق بشجاعتهما وأفنتهما ، فلا أتصوّرهما إلا رافعتي الرأس تلوح على وجهيهما علائم القلق ، تخالطها أمارات الشجاعة ، قلباهما مضطربان ووجهاهما باسمان ، أفاخر بكما يا سلطنة ويا ميليا كل السيّدات والأوانس ، بل كل الرجال . . . وليس أدعى للغبطة والسعادة عندي من أن أرجع فأجدكم جميعاً على أحسن حال وأنعم بالإن شاء الله ، فنعيش في عشنا الأنيق الجميل ، ونذكر هذه الأيام بالخير . . . وعسى أن لا يطول غيابي لعلي أتمكن من إدراك سريّ في سنّه الخامسة ، فإن لكل يوم من أيام هذه السنة من عمر سريّ بهجةً وجمالاً غيرهما في غيرها من سني طفوليته . آه ما أسعدني إذا قدر لي الرجوع في هذه السنة ، فأرى سريّاً مشرق الوجه ممتلئ الجسم صحّة باسم الثغر برّاق العينين ، طلق اللسان خفيف الروح ، تتبعث من عينيه أنوار الذكاء وتلوح على وجهه علائم النجابة فألبسه أجمل الثياب ، وأخذه بيده فنسير في العالم مفتخراً به . سيكون بهجة بيتي ومبعث سروره وعنوان سعادته . . . نظرة إليك يا سريّ تمحو سيّئات هذا الزمان وتحجب عن ذاكرتي الآمي الماضية . ما أتعس الذين في مثل حالتي ، وليس لهم ولد مثلك يرجون لقاءه . إذا نزلت المصائب ولم يكن هناك شخص محبوب تحوم عليه الآمال ، فتلك مصائب عظيمة تثقل الكاهل وتقصم الظهر . الأمل بلقائك جعلني أهزأ بالسجن والأغلال والتعب والوسخ والقمل وسوء المعيشة وهوانها وتسفلها . بل قوى نفسي وحملني على العناية بصحّتي ، ومتابعة حمّاماتي والعابى والاعتصام بالصبر الجميل والتمسك بمبدأي القديم «الخطب هين» ، فإذا هاجمني اليأس دفعه الرجاء ، وإذا تألمت من الفراق تلذّدت بذكر اللقاء فأنا على الحالين صابر شاكر . . .

(٥) غرفتي : دمشق الفيحاء مكتظة بالمهاجرين والمبْعدين من كل أطراف البلاد ، فجعل الناس يكرون

[=يؤجرون] بعض غرفهم مفروشة كما يفعلون في أوروبا وأميركا وارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً، وقد تطرق بيوتاً كثيرة قبل أن تجد غرفة غير مسكونة . . . ومن الغرائب أنهم يؤثرون الشاب الأعزب على المتزوج . وقد سمعت أن كثيرين من المتزوجين إذا سُئلوا قالوا إنهم غير متزوجين . وقد أشار علي كثير من الخواجات والسيدات أن أنكر أنني متزوج . . . تعاليت عن ذلك علواً كبيراً . . . كنت أحب أن أسكن في لوكدة أو أتفق مع اثنين أو ثلاثة من أصدقائي فناخذ داراً ونسكن فيها وحدنا ، فلا نرى أحداً ولا أحد يرانا هرباً من مجاملة السيدات والأوانس فلم أوفق . . . وأخيراً وجدت غرفة مفروشة في منزل امرأة عجوز ، تسكن مع ابنتها وولدين صغيرين لابنة أخرى هاجرت إلى أميركا قبل الحرب ، ويسكن في غرفة أخرى بإزاء غرفتي طيب عسكري اسمه أحمد نوري الدين بك من قونيا ، أقام في القدس نحو سنة في المستشفى الفرنسي في اليوم كان تحت إدارة الدكتور عزت بك طيب العيون . وغرفتي تطل على الطريق تدخلها الشمس في الصباح من الجهة الشرقية ، وبعد الظهر من الجهة الغربية ، فيها سرير للنوم ومقعد وطاولة مع مرآة وطاولة أخرى للكتابة ، وكريسيان ، وهي مفروشة بحصير وبساط وتضاء بالكهربائية ، كان يسكنها قبلي الخواجا شكري فيعاني . ولا يسعني إلا أن أشكر صاحبة المنزل وابنتها ، فإنهما لم تزالا منذ سكنت عندهما تخفان لقضاء حاجاتي فهما توقدان لي النار وتغليان القهوة أو الشاي ، وتهيئان لي أركلتي وتغسلان ثيابي . الأم عجوز والابنة ليست صغيرة ، وكلاهما بسيطان بالنسبة إلى سيدات وأوانس دمشق الفيحاء ، ومع ذلك فإني أفضل أن انفصل عن محلة المسيحيين وأسكن قريباً من صديقي الأبر رستم بك ، حيث لا عين ترى ولا قلب يحزن . . . أقوم صباحاً فأشرب قهوة ، وأدخن وأكتب وأقرأ عددي النهار من جريدتي الشرق والمقتبس ، وإذا مللت من القراءة والكتابة أقلب صفحات كتاب شرح أسرار إحياء علوم الدين الذي استعرتة من الشيخ عبد القادر المصغر ، ثم أفتح نوافذ الغرفة وألعب ألعابي كلها ثم أستحم جيداً حسب عاداتي ، وبعد الحمام أفطر ثم أشرب الشاي وأدخن إلى الظهر ، ثم أخرج فإما أن أزور جماعة الهلال الأحمر أو أستاذي ، أو أنزل إلى البلد فأزور رستم بك ، وعند الساعة الرابعة أو الخامسة أرجع إلى غرفتي ، وفي المساء أزور الخواجا تادرس أو شكري أفندي الفران وفي بعض الليالي نتناول قليلاً من العرق ، وفي أغلب الليالي أوي إلى فراشي باكراً . صحتي جيدة جداً يزيد كل يوم جسدي امتلاءً وعظلي اكتنازاً . لا يراني أحد إلا أعجب بصحتي ، وتعجب كيف أستطيع أن أكتفي في هذه الأيام الباردة بهذه الثياب الخفيفة . لا شك أن الفضل في ذلك راجع إلى الأسلوب الذي أعيش عليه . . . كنت أحب أن يكون لدي كتب عديدة في مواضيع مختلفة ، أغذي بها دماغي وأقطع في دراستها أوقاتي ، كما أنني كنت أحب لو تساعدني حالتي المالية من درس اللغة الفرنسية حرصاً على الوقت أن يذهب سدى . . . لم تزل نفسي تحدثني منذ خرجت من السجن أن أضع رسالة صغيرة عن

دمشق الفيحاء أضمتها تأثرتي وملاحظاتي، وأجمع فيها ما قيل أو كتب عنها في الكتب القديمة والحديثة، وأضيف إليها خواطري، إلا أنه لم تهياً لي الأسباب إلى الآن، ولا أستطيع الكتابة عن أخلاق الناس وعوائدهم، إلا إذا دخلت البيوت واختلطت بكل الطبقات وهذا ما أتحاشاه، ومع هذا فإنني سأجرب أن أكتب شيئاً ولو على سبيل الفكاهة... هذه أول مرة جئت فيها إلى دمشق وستكون آخر مرة:

فإن سلمني الله	وبالصنع تولاني
فأوطاني أوطاني	وأعطيني أعطيني
وأخلى ذرعِي الدهر	وخلاني وخلاني
فإنني لا أجِد العو	د ما دام الجديدان

(٦) أستاذي [نخلة زريق]: يعيش في غرفة كبيرة قليلة الأثاث لا تدخلها الشمس، ولأن حالته المالية لا تمكنه من إيقاد النار فهي لا تزال باردة رطبة. فهتمت منه أنه لا يستطيع أن يتأق في طعامه كما كان يفعل في القدس، فيسبب سوء المعيشة ورداءة الطقس وقلق الفكر، زاد جسمه هزلاً ووجهه اصفراراً فأسفت لحالته، إلا أنني أرجو إذا مَرَّ فصل الشتاء أن تتحسن صحته إن شاء الله. لا يذكر القدس إلا حن إليها واشتاق إلى غرفته الأنيقة فيها. بل اشتاق إلى غبارها، وعنده أن يمشي في طرق القدس فيعلوه الغبار بل يملأ صدره، أحب إليه من أن يمشي في طرق دمشق الفيحاء أو على ضفاف بردأها. يفضل القدس على دمشق بفضل موقعها وجبالها ووهادها ومنازلها وطرقها وفصولها الأربعة وخضرتها وفواكهها وناسها، على كل ما في دمشق من ذلك. ولا يزال يردد قول من قال أن دمشق ليست إلا مطبخاً كبيراً للأكل، وبستاناً واسعاً للسفاهة وقرية كبيرة وغير ذلك. حالته المالية سيئة جداً ويا حبذا لو أستطيع أن أساعده، فإنه عندي بمنزلة أبي. لا بد لي من أن أستدين من كل مظنة لأقضي ولو بعض حاجاته والله الموفق...

(٧) دمشق الفيحاء: إن ما عرفته إلى الآن عن دمشق يكاد يحملني على الحكم عليها بالانحطاط، لولا أنني عاهدت نفسي على التآني في حكمي... إلى الآن لم أدخل إلا بيتاً أو بيتين من بيوتها، ولم أتعرف إلا بشخص أو شخصين من سكانها. ولكن لم أنفك منذ وطئت أرضها أجيل نظري هنا وهناك، أتصفح الوجوه وأراقب الحركات والسكنات بعين المنتقد المتفحص، وأقلب النظر في تأثرتي وملاحظاتي مبالغة في التثبت، ولذلك أمسك القلم الآن عن أن أكتب كلمتي عنها، وأضب [أخبي] على ما في نفسي إلى فرصة أخرى، والأمور مرهونة بأوقاتها. على أنني لست أدري ما الفائدة من الكتابة في هذا الموضوع، إلا إذا كان القصد منها التسلية والتلهي وقطع الوقت..

(٨) الفائدة الثالثة التي استفدتها من هذه الغربة، وإن كنت لا أجهلها، هي افتخاري بعائتي الصغيرة، بأبي



دمشق ١٨٩٨، ساحة المرجة ويظهر في الواجهة مكتب البريد العثماني وفندق فيكتوريا
وكان خليل السكاكيني يرسل رسائله إلى سلطنة وسري من هذا البريد بعد إطلاق سراحه من
السجن. مصدر الصورة: المصور سليمان الحكيم في مجموعة بدر الحاج. في كتابه صور
دمشق ١٨٤٠-١٩١٨ باريس، ٢٠٠٠



الترليفين في اللباس العربي وفي اللباس الأوروبي. القدس حوالي ١٩٢٥، المصدر توم
سيغيف، فلسطين الكاملة اليهود والعرب في فترة الانتداب البريطاني.

وامراتي وأختي وولدي على كل عائلة . . . ولو بعثت إلى العالم مرة ثانية لما أخذت غير عائلتي . أفتخر بصبر أمي ورزانتها وشجاعتهما وكرم أخلاقها وطيبة قلبها وعزة نفسها وعلو هممتها وطهارة أعراقها . لو قابلتها بألوف من الأمهات لما وجدت لها مثيلة ، كما أفتخر بسلطاتي وأختي ميليا ، فإن أخلاقهما أقرب إلى أخلاق الرجال منها إلى أخلاق النساء . يُعجبني منهما بنوع أخص استقلالهما وشرف أخلاقهما وعزة نفسيهما وذكاءهما وسرعة خاطرهما وأخلاقهما الراقية ، كأنهما ليستا من نساء هذه البلاد . وأما سري فهو عنوان فخري ، كنت ولا أزال إذا لقيت ولداً من سن سري أو أكبر أو أصغر قليلاً أقابله بسري ، ولست أخاف أن أنسب إلى الغرض والهوى إذا قلت : إني لم أر له مثيلاً ، وإذا عشت جعلت منه مثلاً راقياً للناس يضرب به المثل . إذا بعثت مرة ثانية إلى هذه الحياة لم اختر غير أمي وأختي وامراتي وولدي أما أو أختاً أو امرأة أو ولداً لي .

الاثنين في ١١ شباط/غ / ١٩١٨م

الطقس جميل ، السماء صافية ، مررت على صديقي الأبر رستم بك^(٤٩) فخرجنا نمشي على ضفتي بردى على طريق الربوة ، فتواردت على خاطري ألوف من التذكريات . تذكرت غدواتنا إلى قالونة أو برك سليمان أو أرتاس [= ارتاس] أو عين كارم أو عين فارة . أفضل تلك الينابيع الصغيرة التي تترقق مياهها الفضية في تلك الأودية الجميلة ، التي تكتنفها الجبال والآكام التي يسود فيها الهدوء ، على نهر بردى الغزير المياه ، الذي لا يمر بدمشق إلا بعد أن يترك هنا وهناك مستنقعات وبيلة ، ويحمل من الأقدار والأحوال ما يكمد به لونه وتنبو العين عنه . عين صغيرة تجري في بستان صغير فيه أشجار قليلة وارفة الظلال ، تنتقل بين أغصانها عصافير صغيرة جميلة الرياش ، أتقياً ظلالها مع أحبائي ندخن ونشرب قليلاً من البيرا ونأكل ما تيسر ، أحب إلي من نهر بردى ودمشق الفيحاء . أنا لا أحب البلدان الكبيرة المكنتزة بالناس ، حيث لا يستطيع الإنسان مهما عاش فيها أن يعرف كل واحد ويعرفه كل واحد فيها . بل أفضل أن أعيش في البلدان الصغيرة الأنيقة ، فإذا مررت في طرفها طارحت التحيات كل واحد . . . وإذا كان الناس يؤثرون السكن على ضفاف الأنهار فليسكنوا عند المنبع لا عند المصب ، أو على بعد من الأصل ، حيث لا تكون المياه نقية . . . أينما جلت في دمشق الفيحاء رأيت المياه تدفق ، ولكنك تستنكف أن تمد يدك إليها أو تضع رجلك فيها ، والأسلوب الذي يوزعون به المياه في البيوت أسلوب رديء ؛ نرى في كل بيت بركة مملوءة ماء يغسلون فيه أوانهم ثم لا يغيرون الماء إلا بعد زمان طويل ، لأن الماء الجديد إنما يجري على وجه الماء القديم لا يحل محله ، على أن الماء الجديد والقديم كليهما

(٤٩) رفيق خليل السكاكيني في دمشق ، التحق معه بركاب الأمير (الملك) فيصل ليصبح لاحقاً سكرتيره الخاص . من مؤسسي جمعية «العربية الفتاة» . صاحب المذكرات المشهورة عن نشوء الاتجاه القومي في نهاية العهد العثماني .

من بردى، ونهر بردى لا يصل دمشق ويخترقها من الجانب الواحد إلى الجانب الآخر إلا وهو وسخ. لو سكنت دمشق لقطعت مياه بردى عن بيتي، لا يجوز استعمال ماء بردى على حالته هذه إلا لسقي الأراضي.

الثلاثاء في ١٢ شباط/ع/ ١٩١٨م

كُتبت رسالة باللغة الفرنسية إلى أحبائي أرسلتها بواسطة الهلال الأحمر. أشد ما ألقاه في هذه الغربة هو انقطاع أخباري عن أحبائي وانقطاع أخبارهم عني. إذا كانت المكاتبات غير ممنوعة، فلماذا لا يختارون طريقاً أقرب رحمة بالناس. . . كُتبت رسالة أخرى باللغة الإنكليزية إلى الأرشمندرت تيموثاوس، أحد حاشية بطريك القدس داميانوس المبعدة إلى دمشق، أطلب منه أن يرسل إليّ دراهم لأنني في حاجة شديدة، وكذلك كُتبت رسالة إلى سلفي الدكتور دعدس في نابلس، ولست أدري كيف أعيش إذا لم تردني الدراهم في القريب العاجل. زارني بعد الظهر زين العابدين أفندي شاه، أحد أساتذة الكلية الصلاحية، فشرينا الشاي وتكلمنا في مواضيع مختلفة لذيدة، ثم لم أتمالك أن غنيت اغنية انكليزية. فحنقتني العبرات وجعلت أبكي للأطفال. دعيت في المساء لتناول العشاء في بيت الخواجا سليم بركات مع الخواجا أوغست فروجي أحد تلاميذي القدماء. . .

الأربعاء في ١٣ شباط/ع/ ١٩١٨م

خرج فؤاد يوسف الملك من مستشفى الهلال الأحمر ليسافر إلى سمخ، عند خاله يوسف أفندي العيسى وذهب إلى المحطة أمس مساءً، فما وصل هناك حتى وقع ميتاً رحمه الله، واليوم احتقلنا بجنازته وواريناه التراب، وقبره هو الرابع من الجهة الجنوبية من قبر عيسى بن فضول الصباغ، وهذا القبر مبني بالحجر الأحمر ومحاط بدرابزون حديد. كان المشيعون قليلين، فاضطرت أن أتأوب معهم في حمل النعش. ولما أنزلنا النعش في لحدّه انصرف الناس، فاضطرت أن أجرف التراب بنفسي مع حفار القبور، وهو شيخ لا يستطيع أن يقوم بالعمل وحده. مسكين الغريب. . . ملأت هذه الحادثة الأليمة قلبي حزناً. . . سمعت اليوم تأكيد وفاة صديقي الأبر، بل أخي الشقيق حسين أفندي سليم الحسيني، فأحسست أن الأرض تميد تحت أقدامي، فجعلت أغالط نفسي وأكذب هذا الخبر، ويلاه إذا كان هذا الخبر صحيحاً؛ إن فقد مثل حسين أفندي، ولا سيما في هذه الأيام التي قل فيها أصحاب المروءات لضربة قاضية على القدس، وأنا ذاهب مع توفيق الملك للاهتمام بجنازة أخيه، لقيت في طريقي رفيقي الخواجا ليفين مع جندي، فقال لي: إنه دعي للديوان العرفي، ولم أستطع أن أستفهم منه عن أمره بالتفصيل. ثم لقيت يهودياً من سكان القدس فقال لي: إنهم ربما ساقوه إلى

أنقرة، فشغلت هذه الأخبار فكري وسأهت باستطلاع الحقيقة غداً إن شاء الله . أويت مع توفيق الملك إلى غرفتي وأنا متأثر لمصيبته، وقد رأيت أن لا أزعجه بالتعزية بل أن أتركه لنفسه، وقد رجوت أن يكون لتأثير هذه المصيبة عليه، ما يجعله يبدأ بدور جديد من الحياة يكون فيه أنفع لنفسه ولذويه . زارنا بديع السنونو والخواجات نقولا ميري البرنيخ واكوب ونيس الأرمني، وقد فهمت منهما أن جرجي مخائيل الخوري مريض، وقد نقل إلى مستشفى العزة أول من أمس، فعسى أن يمن الله عليه بالشفاء قريباً ويرده إلى ذويه سالماً إن شاء الله .

الخميس في ١٤ شباط غ/١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية نزلت إلى البلد، فخرجت على الشيخ عبد القادر أفندي المصغر، وأبلغته ما سمعته بالأمس من أنهم ربما ساقونا إلى أنقرة، فكان من رأيه أن ذلك غير ممكن . ثم عرجت على السجن على رفيقي الخوجا ليفين فقال لي: إنه فهم أن ليس لنا أوراق اتهامية، فكلفت الحكومة جلال بك مدير بوليس القدس أن يقدم تقريراً عنهم، وأنهم دعوه إلى الديوان العرفي، فسألوه أولاً عن اختبائه في الدار التي نسكن فيها، فقال لهم: إنه لما أمسكه البوليس لأول مرة استعمله بضعة أيام ريشماً يكمل أشغاله التي تتعلق بشركات ضمانة ألمانية وغيرها فتركه، وقبل أن ينهي أشغاله جاءه البوليس فأخذه من فراشه وأودعه في السجن، على أن كثيرين غيره حضروا من تلقاء أنفسهم أو أحضرهم البوليس بعده، فلم يعاملوا كما عومل هو . ثم سأله هل تعرف خليل السكاكيني؟ فقال: ليس بيني وبينه معرفة شخصية، وإنما أعرفه من سكان القدس، لأن اليهود يعيشون وحدهم لا يكادون يخالطون غيرهم، وقد استأجرت البيوت في الدار التي يسكنها من صاحبها راغب أفندي قطينة لا منه، ونقلت إليها في مدة توقيفه في دائرة البوليس، ولم أجمع به إلا بعد أن أوقفنا في دائرة البوليس، ثم في السجن، ثم في سفرنا إلى دمشق، ثم في سجن دمشق . ثم سأله عن اختفائه يوم قررت الحكومة إبعاده بخصوص البانقنوط، فقال: لم أختف وإنما كنت غائباً عن القدس أثناء ذلك، في مزرعتي في وادي حنين حسب عادتي في الصيف في كل سنة .

وقد اطلعت على قائمة المبعدين فلم يكن اسمي واضحاً، فقدرت أن المقصود غيري لأنني لست الوحيد المسمى بهذا الاسم، ثم اطلعت في الجرائد أن تلك القائمة هي الأولى والأخيرة، ثم سمعت أن جمال باشا الكبير سيعفو عن الذين أبعدوا، وبعد صدور العفو رجعت إلى القدس، ثم سأله عن كفيل مسلم، فقال: لا أعرف هنا غير رستم بك مدير الكلية الصلاحية في القدس، فقالوا حسن . هذه خلاصة أجوبته ثم رجع إلى السجن . . . بعد الظهر رجعت إلى البلد فمررت على رستم بك، ومشيئاً قليلاً في شارع جمال باشا ثم رجعت إلى غرفتي . تناولت غدائي وعشائي عند أستاذي وكان الطعام «ششبرك» وهو الأكلة التي تحبها سلطاتي . . .

لا يسعني إلا أن أقول: إن قابليتي للأكل شديدة وقد استغرب أستاذي ذلك . . . وهنا محل لأن أكرر قولي: إن العناية بالصحة لأكبر دليل عندي على الرقي، وليس أدل على الانحطاط من إهمال الإنسان العناية بصحته وشبابه، وتعهّد نفسه بالتمرين على الأخلاق الطيبة وتغذية عقله بالأفكار الصحيحة والمبادئ القويمة .
أكتب يوميّتي هذه بسرعة لا تمكّني من بسط أفكارني وتأثيراتي في هذه الحياة، ولكن إذا رجعت إلى بلادني توسعت في كتابة ما اخترته في نفسي من التأثيرات، وما استقرّ في ذهني من الأفكار والمبادئ، التي أرجو أن يكون عنها انقلاب كبير في حياتي .

الجمعة في ١٥ شباط/ع/١٩١٨م

زرت اليوم بعد الظهر أنا وصديقي الأبر رستم بك الدكتور سبور وامراته في الصالحية فتناولنا الشاي .
خضنا في مواضيع مختلفة، قابلنا بين المسلمين والمسيحيين في بلادنا، قلت: كان يظن أن المسيحيين في بلادنا بسبب احتكاكهم بالأجانب وإقبالهم على اقتباس المدنية الأوربية ووفرة مدارسهم، أنهم أرقى من المسلمين، ولكن من أنعم النظر رأى خلاف ذلك . لا قيمة للإنسان إلا باخلاقه وعقله فإذا عرضنا المسيحيين والمسلمين على هذه القاعدة، وجدت أن المسلمين أجل شأنًا وأعلى قدرًا . أما من جهة الأخلاق فالمسلم أعزّ جانباً وأوفر مروءةً وأشدّ بأساً وأسرع نجدةً وأكرم نفساً وأوثق عهداً وذمماً، إلى غير ذلك من المزايا التي لا يبعد أن يكون سببها راجعاً إلى كونهم أصحاب البلاد، وأكثر عدداً من غيرهم، فضلاً عن أنه قد يكون لأديبات اللغة العربية التي هي لغتهم، حتى ما كان منها عامياً مبتدلاً، دخل في تكوين أخلاقهم . على حين كان المسيحيون ولا يزالون أقل عدداً مستضعفين أذلاء . والأخلاق الراقية لا تعيش مع الضعف والذل . . . وأما من جهة العقل فإن بين المسلمين كثيرين توفروا على قراءة التاريخ وأديبات اللغة، وبينهم من لا تمرّ به سنة إلا اطلع فيها على أهم الكتب التي ترجمت إلى اللغة العربية . وفي بيوت بعض الأسر القديمة مكاتب حافلة بالكتب المختلفة يتوارثونها ويعنون بالاحتفاظ بها، على حين قل أن نرى بين المسيحيين، من إذا خرج من المدرسة الأجنبية الابتدائية على انحطاطها يفتح كتاباً أو يقرأ جريدة، بل هم يكتفون بالمعرفة السطحية التي حصلوها وبعض الألفاظ الركيكة التي أفوها من اللغات الأجنبية، ثم تدرج الأيام وتكر السنون وهم ينفقون من رأس مالهم القديم . . . بل كما نحسب أن المرأة المسيحية أرقى من المرأة المسلمة، وأكثر حريةً واستقلالاً واحتراماً عند ذويها، ولكن من وقف على أحوال المسلمين رأى أن المرأة المسلمة صاحبة السيادة في بيتها محترمة الجانب حرة مستقلة طيبة الأخلاق ذات أياد بيضاء . . . هذا موضوع طالما تردّد في خاطري، وتكلّمت به في كل مجلس أو نادٍ، فأثرت الإشارة إليه هنا، وإن

كنت غير راضٍ عن كلمتي هذه فيه ، ولكن إذا رجعت إلى بلادي توسّعت فيه وأرضيت نفسي ومن يهتمهم هذه المواضيع إن شاء الله . . . قالت مسس سبور : من رأيي أن الإنسان يجب أن يكون في الشرق مسلماً وفي الغرب مسيحياً ، فقلت لها : هذا رأيي وقد ذكرته في يوميتي قبل اليوم ، ليس لأنني أفضل ديناً على آخر فأذهب إلى الاعتقاد أن المسلمين أرقى لأن دينهم أفضل ، ولكنني أعتقد أن المسلمين أرقى لأنهم أصحاب البلاد وأكثر عدداً فيها ، ولأنهم يعيشون على أدياتهم الماضية ، أدبيات المدينة الإسلامية في إبان مجدها . وليس أحط من المسيحي الذي ينتمي إلى طائفة صغيرة أو يخرج من كنيسته إلى كنيسته أخرى ، فالأرثوذكسيون مثلاً أصلب نفوساً وأعزّ جانباً وأقوى أخلاقاً من الكاثوليك ، لأن الأرثوذكس هم المسيحيون الأصليون فيها ، وهم أكثر عدداً من غيرهم . هذه من جملة الأحاديث التي خضنا فيها . . . وبعد أن تناولنا الشاي خرجت مع رستم بك ومشينا على طريق الصالحية حتى تجاوزنا منازلها ، ومن هناك انبسط أمامنا منظر دمشق ، وكانت الشمس قد آذنت بالغروب ، فكان المنظر بهيجاً جداً . إلا أنني أفضل مناظر القدس عليها ، ولا سيما إذا وقفت على طريق جبل الزيتون بالقرب من منزل المقفي ، فإنك تطل من هناك على جبال وأودية ومنخفضات ومرتفعات تأخذ بمجامع القلب . إذا قدر أن أسكن دمشق فإني أختار منزلاً في الصالحية ، لأن ذلك القسم من دمشق أجمل أقسامها منظرًا وأجمعها للشرائط الصحية . رجعت إلى غرفتي وصدري مفعم بالانفعالات والعواطف والحنين إلى أحبائي وإلى بلادي ، ولكن الخيرة في الواقع ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

السبت في ١٦ شباط/ع / ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية ، نزلت إلى المرجة ، فلقيت أستاذي في الطريق فمشينا معاً . تركته قليلاً وذهبت أزور رفيقي الخواجا ليفين ، وأخذت منه ليرتين عثمانيتين ذهبا ، ثم لحقت أستاذي فذهبنا زرنا الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المغربي ، ومحمد أفندي «كرد علي» في إدارة جريدة الشرق ، وهناك تعرّفت بالشاب الأديب خير الدين الزركلي ، ثم رجعنا إلى غرفة أستاذي حيث تناولنا الغداء ، ثم نزلت مرة ثانية إلى البلد فلقيت رستم بك والأستاذ عبد الرحمن أفندي سلام وجودت أفندي . في المساء زارني توفيق جوهرية وشكري القاري ، وقد أحضرا معهما فلوتاً صغيراً ، فعزفت عليه بعض أنغامي التي رجوت أن تخرج ما يختلج في صدري من العواطف والانفعالات ، ثم أحضرت لهما عود جاري الدكتور نوري بك فضرب عليه شكري القاري ، وغنياً كلاهما بعض أغان ذكرني بأيام هجرتي في أميركا ، حين كنت أجمع أبناء القدس ، ونعقد مجالس غنا [٤] أشبه بالمناحات .

الأحد في ١٧ شباط/غ/ ١٩١٨م

قلقت في منامي وحلمت أحلاماً مختلفة نقلتني إلى القدس: لقيت أبا داود ياسمينه، فبادرته بالسؤال عن صديقي الأيريل شقيقي الأعز حسين أفندي سليم الحسيني فطمأنني عنه، ثم لقيت سلفي الدكتور دعدس وامراته والآنسة جوليا كريدان فتبأثنا الأشواق، ثم حلمت أن قد صدر أمر بإبعادي إلى أنقرة...
الطقس جميل جداً. زارنا في الصباح إلياس أفندي الشدياق، فلم يتسع لي الوقت لأن ألعب فاكتفيت بالاستحمام. ذهبت عند الظهر إلى غرفة أستاذي فوجدته في فراشه لتلبك في معدته فتغديت وحدي. رجعت إلى غرفتي وصدري منقبض، فما جلست قليلاً حتى تولاني الضجر، فخرجت وذهبت إلى بيت الخواجا تادرس، وما جلست قليلاً حتى قمت فرجعت إلى غرفتي، ولم يستقر بي الجلوس حتى قمت فخرجت كأن بي دواراً أو مساً من الجنون، ثم رجعت إلى بيت الخواجا تادرس فلقيت هناك البطريك داميانوس والخواجا فوردز والخواجا وتسي والخواجا شدياق، وقد رأيت في وجه البطريك تغيراً قليلاً. جعلت أدخن السيكارة تلو السيكارة وأنا شارداً الفكر جامداً كالصنم. كان اليوم عيد ميلاد ابنة الخواجا تادرس الصغيرة، فزارها بعض أترابها من صبيان وبنات، لو كنا في القدس أو لو كانت عائلتي هنا لكان سري من جملة ضيوف دورث... تفقدت بنطلوني اليوم فوجدته لهلهلاً يكاد يتمزق كل ممزق، فحسبت لذلك كل حساب. كل يوم أرى من أحوال المرأة مع هذه البلاد ما يجعلني أفخر بأمي وأختي وسلطاتي. متى التقينا قصصت عليهم شيئاً كثيراً. لا يلجم لساني عن الشكوى إلا ما عرفت وأعرف من مصائب غيري، وإلا لكنت حقيقاً أن أجن. فإذا عشت وعاش أحبائي كفى بذلك غبطة أنسى بها أيامي هذه السوداء.

الاثنين في ١٨ شباط/غ/ ١٩١٨م

حلمت أنني كنت في القدس فكان سروري بلقاء أحبائي عظيماً... بعد استكمال الفروض اليومية عدت أستاذي، ومن هناك نزلت إلى البلد فزيت الشيخ عبد القادر أفندي المصغر، ثم عرجت على رفيقي الخواجا ليفين فشكا إلي طول حبسه فتأثرت له، ثم رجعت إلى غرفة أستاذي حيث تناولت الغداء... اليوم آخر شهري في غرفتي، وقد لقيت من معاملة صاحبة الدار ما جعلني أفكر في تدبير غرفة أخرى. نزلت إلى البلد مرة ثانية، فذهبت إلى دار المعلمين لأزور رستم بك فلم أجده ولكنني عدت زين العابدين أفندي لأنه مريض. قرأ لي بضعة أسطر من رسالة وردته من موسى فيضي أفندي العلمي مؤرخة في ٢ شباط، يرجوه فيها أن يبلغني أنه كتب إلى أحبائي عن طريق سويسرا، وأن الخواجا الفونس لونسو كتب يوم كتابة رسالته أيضاً بواسطة الخواجا كلارك في سويسرا... تناولت عنده الشاي ثم خرجت فاشترت زوجي جوارب. لقيت الخواجات تادرس وفريد كينزوفتش راجعين إلى البيت. أخذني الخواجا فريد ليريني غرفة معدة

للأجرة، فلما دخلنا وعرفهم بي جاءت فتاة وسألني عن أختي ميليا ، فعرتني هزة كما انتفض العصفور بالله القطر، فقلت لها أتعرفين أختي، فقالت: كيف لا وهي رفيقتي في المدرسة وقد عشنا معا أربع سنوات، وعرفتني باسمها وهي الأنسة عفيفة شطاحي، ثم سألتها عن صور المدرسة، فذهبت وأحضرت إحداها فلما رأيت أختي ميليا اغرورقت عيناى بالدموع. اتفقت أن أسكن عندهم على أجرة أربعة ريبالات في الشهر، ولكن الغرفة لا تخلو قبل يوم الخميس، ولذلك سأذهب غدا إلى بيت الخواجا تادرس وأسكن عندهم إلى يوم الخميس. كت قبل الظهر قد لقيت الخواجا أنطون السكاكيني فسألته، هل يعرف محلا أجد فيه غرفة للسكن، فأخذني إلى بيته وعرض علي غرفته، ولكن آثرت أن أسكن في بيت شطاحي لأنني آخذ حريتي أكثر في بيت غريب. لقيت في الطريق الارشمندرت تيموثاوس فطلب إلي أن أزوره غدا قبل الظهر. تناولت العشاء مع توفيق الملك في غرفتي، ثم جمع ثيابه وذهب إلى غرفته الجديدة، فعرتني وحشة.

الثلاثاء في ١٩ شباط/ع/١٩١٨م

جاءني الحلاق فقصت شعري وحلقت، ودفعت له نصف مجيدي عن الشهر الماضي وعشرة متليكات له، ثم استحممت وخرجت فأحضرت فطوري حمصاً مدمساً وقطعة حلوة، الأسعار مرتفعة جداً. لست أدري كيف أستطيع أن أعيش إذا طالت هذه الحال. لا أمر في الطريق في الليل أو النهار إلا رأيت أمهات يحملن أطفالاً يتسولن من المارين، ومع ضيق ذات يدي لا أستطيع إلا أن أمد يدي إلى جيبي وأعطيهم ما أقدر عليه...

زرت الأرشمندرت تيموثاوس فدفعت إلي عشر ليرات بانقنوط، فيكون مجموع ما أخذت منه رأساً [=مباشرة] أو عن يد أستاذي ثلاثين ليرة بانقنوط، وواحداً وعشرين ريالاً نقوداً. ثم نزلت إلى البلد فزرت الشيخ عبد القادر أفندي المصغر، ثم زرت رستم بك، فوعد أن يزور مع بعض الأساتذة أستاذي. لقيت في الطريق الخواجا نخلة طرزي قادماً من بيروت فبادلنا القبلات. بعد الظهر زار أستاذي [كل من] رستم بك والشيخ عبد الرحمان أفندي سلام، والياس أفندي شدياق ومترى أفندي تادرس والخواجا وتسي، فقطعنا الوقت في تفسير بعض آيات من القرآن، تحاشيت الخوض معهم فيها، لأنني لست أرى أعقم من البحث في مثل هذه المواضيع...

في المساء ذهبت إلى غرفتي، فأخذت كل أشيائي، وحمدت الله أن صاحبة البيت أم إبراهيم لم تكن هناك، فودعت ابنتها وخرجت وجئت إلى بيت الخواجا تادرس.. قبل أن أخرج اليوم من غرفتي صباحاً جاءني أم أنطون السكاكيني، وقالت: هيأنا لك الغرفة فاعتذرت إليها عن عدم إمكاني السكنى عندهم،

لأنني سأعيش الآن في بيت الخواجا تادرس . . في المساء جئت إلى بيت الخواجا تادرس وجاء الخواجا فريد كينزوفتش والخواجا شدياق، ثم نزلت جارتهم السيدة نجلا قيومجي وابنتها الأنسة أنيت، وسهرنا إلى نحو الساعة العاشرة والنصف، لعبنا ألعاباً مختلفة ورقصنا كأنني سلوت أحبائي، أو تناسيت أنني في غربة . . أحبائي أحبائي غيري على السلوان قادر، وما أنا إلا كما قال أبو فراس:

أراك عصي الدمع شيمتُك الصبرُ أما للهوى نهي عليك ولا أمرُ
بلى أنا مشتاق وعندي لوعة ولكن مثلي لا يُذاع له سرُّ

الأربعاء في ٢٠ شباط/غ / ١٩١٨م

بعد الفطور نزلت إلى البلد . عرجت على محل الخواجات طرزي، فأخذني الخواجا نخلة أبو نجيب إلى جانب، وقال: إذا كنت تحتاج إلى شيء فأرجو أن تعتمد عليّ، فشكرت مروءته، ومن هناك ذهبت أزور رستم بك فوجدته مشغولاً. كادت روحي اليوم تبلغ التراقي. كدت أبكي مراراً . . تكرّمت مسس تادرس بأن رفات بنطلوني. أكبر تعزية في غربتي هذه ما أجده من عطف أسرة الخواجا تادرس وعنايتهم. لا شك أن سلطانة ستقدر لهم ذلك حق قدره.

الخميس في ٢١ شباط/غ / ١٩١٨م

بعد الفطور نزلت مع الخواجا تادرس إلى البلد نزور الشيخ عبد القادر أفندي المصغر فلم نجده. ونحن راجعون التقينا به في الطريق، فقال: إنه راجع الوالي في أمر أبناء فلسطين النازلين في دمشق والتمس منه مساعدتهم، فكلفه الوالي أن يضع قائمة بهم لينظر في أمر إعاشتهم. حاولت اليوم أن أنظم بعض أبيات تترجم ما يكفه صدري، وإن كنت لا أستسهل النظم لقلّة العناية به من زمان طويل، وهذه بعض أبيات تلك القصيدة، وسأعيد النظر فيها:

ذكراني وإن أكن غيرَ ناسٍ بزمان جمّ الولاء مؤاسٍ
ذكراني أيام كنت سعيداً لا أقاسي من الجوى ما أقاسي
ذكراني ولو تصدّع قلبي وتلظت من ذكرهم أنفاسي
ذكراني ولا تراعا لدمعٍ بل نحري واترعت منه كاسي

...

كيف أنسى وحبهم في فؤادي أينما كنت ثابت الأساس

لا تراني إلا رأيتَ شجياً قلق الفكر دائم الوسواس
نقلت إلى غرفتي الجديدة في بيت أم إلياس شطاحي ، وأرجو أن أستطيب الحياة في هذه الغرفة . أولاً ،
لأنها أوسع وأنظف من غرفتي الأولى . وثانياً ، لأن أصحابها كرام من العائلات الراقية الطيبة ، يكفي ما بين
الآنسة عفيفة وأختي ميليا من الصداقة أيام المدرسة .

الجمعة في ٢٢ شباط/غ/١٩١٨م

نمت ليلة أمس لأول مرة في غرفتي الجديدة . استأنفت العايي وتحممت جيداً . السماء شاتية . لم أستطع
أن أنزل إلى البلد . تناولت الغداء في غرفة أستاذي . بعد الغداء جاء الخواجا تادرس وبقينا في غرفة
أستاذي إلى نحو الساعة الرابعة . ثم ذهبت مع الخواجا تادرس إلى بيته . عبثت بي الأشواق فاغرورقت
عيناي . مصيبي كبيرة ولكن لا أقابلها بمصائب غيري إلا كفتت دمعي وأجمت لساني عن الشكوى .
رجعت إلى غرفتي في المساء وسهرت قليلاً عند جيراني ، ثم جلست إلى طاولتي أتابع النظم فلم يفتح علي
إلا بيتين وهما :

يبق سبيل ، أدناهم إحياسي
في بلادي وإنهم جلاسي

إن يحلّ بيننا الفراق ولم
لست أخلو إلا تخيلت أني

السبت في ٢٣ شباط/غ/١٩١٨م

حلمت أني في القدس في بيتي مع أحبائي . هذه منة للأحلام لا تُودي ولا يُستوفى ثناؤها ، وهنا محل لأن
أعيد قولي : لا سبيل لمن كان مثلي إلى العزاء إلا أن يفرغ إلى خياله في اليقظة وإلى أحلامه في المنام . . . بعد
الألعاب والاستحمام والفقير والتدخين والقراءة والكتابة خرجت فنزلت إلى البلد ، فخرجت على محل
الخواجا طرزي ، فأخذت أبا نجيب وذهبت لأمر على رسم بك . اتفقنا أن أمر عليه غداً بعد الظهر لنزور
الخواجا طرزي في بيت أخيه . تناولت الغداء في غرفة أستاذي ، ثم نزلت مرة ثانية إلى البلد فزرت رفيقي
الخواجا ليفين في الحبس ، فقال : إن القنصل الإسباني عاد من سفرته ، وربما تابع اهتمامه بتخلية سييله .
لقيت هناك بعض الذين ساقهم سوء حظهم معنا من القدس إلى دمشق ولا يزالون في السجن ، ولكنهم في
حالة يرثى لها مهزولين ضعفاء صفر الوجوه ، يكادون أن يكونوا عراة ، فتأثرت لهم كثيراً ، ووددت لو أستطيع
أن أساعدهم بشيء . رجعت إلى غرفتي فعبأت أركلتي ، وجلست أتابع النظم ، فزدت على الأبيات السابقة
ببيتين آخرين وهما :

إن شوقي إلى ذوي لشوق علم الله ما له من قياس
إما أحاول كتمان شوقي أذاعته دموعي على جميع الناس
مرّ عليّ الخواجات تادرس وميّا قطّان، فذهبت معهما إلى بيت الخواجا تادرس حيث جلست قليلاً،
ثم ذهبت إلى غرفة أستاذي حيث تناولت العشاء، ثم رجعت إلى بيت الخواجا تادرس فسهرت قليلاً، ثم
رجعت إلى غرفتي وأويت إلى فراشي.

الأحد في ٢٤ شباط/غ / ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية نزلت إلى البلد، فلقيت جرجي ميخائيل الخوري ملتحمًا بعباءته يثنّ،
فسألته عن حاله، فقال: خرج بالأمس من المستشفى، وإنه لا يزال مريضاً، فأخذته إلى دكان يوسف مّري
اللحمي، وسألته عن حاجاته فلم يستطع أن يأكل غير قليل من اللبن، ثم وضعت ريبالاً مجيدياً في يد يوسف
مّري ليعطيه إياه بعد ذهابي. لقيني الخواجا سليم بركات، فدعاني لتناول الغداء عنده وكان غداءً فاخراً،
ثم رجعت إلى منزل الخواجا تادرس ولم يكن هناك، وبعد أن جلست قليلاً ذهبت أعود الخواجا شكري
فيعاني لأنه كان مريضاً بالحمى التيفوسية فوجدته قد تماثل من مرضه فهنّأته. ثم رجعت مع الخواجا تادرس
إلى منزله، وكان غاصاً بالزائرين. وبعد أن جلست قليلاً نزلت إلى البلد، فخرجت على الخواجا ليفين وأبلغته
أنه سيخرج من السجن بعد يومين أو ثلاثة، كما سمعت عن لسان القنصل الإسباني، ثم زرت رسّم بك
فمشينا قليلاً في شارع جمال باشا، وبعد ذلك رجعت إلى منزل الخواجا تادرس، فأدركت بعض الزائرين أو
الزائرات. تكلمنا عن تشابه المتزوجين في الملامح، إذا طال عهد زواجهما، بحيث تصبح الزوجة كأنها
أخت زوجها، ولا عجب فإنهما يقلدان بعضهما بعضاً في الابتسامات والحركات وملامح الغضب والحزن
والسرور والهم وغير ذلك. وهذا سرّ ما يرى من الشبه بين الأولاد والوالدين، فإنه فضلاً عما يكون هناك من
الشبه في شكل الرأس ولون الوجه والشعر وتركيب الجسم، فإنهم يكتسبون مع الوقت سائر الملامح، فإن
الولد يضحك مثل أبيه أو أمّه ويقلدهما في ملامح السرور أو الغضب وغيرهما. فجرتنا الحديث إلى ما بيني
وبين أمّ سري من المشابهة التامة، بحيث كان يظنّ كثيرون أنها أختي لا امرأتي. فسألت إحدى الزائرات هل
أمّ سري جميلة ولست أدري ماذا كان الجواب، لابنة الخواجا تادرس هرة تحبها وتبالغ في العناية بها، مرّ
عليها عدة أيام، تأكل ولا تشرب كأن بها مرضاً فبذلت جهودها في تمريضها وقد رقت عواطفها فإذا سألت
عن هرتها اغرورقت عينها، وانخرطت في البكاء فلما سمعتها تبكي تذكرت يوم قام سري من النوم فجعل
يزعجننا فأخذته إلى فراشي وأضجعه بجانبني فجعل إذا حرك يده أمسكها أو رجليه اضمّها إلى رجلي فلما

رأى اني جاد غير هازل بكى وجعل ينادي امه . تذكرت ذلك فجعلت دموعي تنحدر على وجنتي ، وما زادني التياغ ان ذلك كان قبل ان اترك البيت بايام قليلة . . .

الاثنين في ٢٥ شباط غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية نزلت الى البلد فأخذت رستم بك وعرجنا على بيت الشيخ عبد القادر أفندي المصغر فلقينا هناك محمد أفندي كرد علي ومفتي طولكرم والشريفي وهذان الأخيران كانا في السجن نحو سنتين وسبعة أشهر ، وكان الحكم عليهما بالسجن مؤبداً ، إلا أن الشيخ عبد القادر أفندي سعى لدى جمال باشا الصغير فاستصدر أمراً بالعتف عنهما فخرجا من السجن وعادا الى الحياة . سيكون لهذه المروءة صفحة بيضاء في التاريخ . . .

اتفقنا مع الشيخ عبد القادر أفندي ان نزور الخواجا تادرس بعد الظهر . . . ولما جاء الوقت اجتمعنا في بيت الخواجا تادرس انا وأستاذي ورستم بك والشيخ عبد القادر أفندي والشريفي وتناولنا الشاي وكان الشريفي لا يزال واجماً كأنه لا يزال في السجن . . . ارسل الي الخواجا ليفين ليرتين عثمانيتين ذهباً . قررت ان اشتري قميص نوم .

الثلاثاء في ٢٦ شباط غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية نزلت الى البلد فلقيت الياس افندي الشدياق وحمدي أفندي التير فذهبنا معاً الى بيت الشيخ عبد القادر افندي المصغر فلقينا هناك مفتي طولكرم والشريفي ولعلهما ضيفاه يسرني ما أراه من اقبال الناس على الشيخ عبد القادر أفندي ورجوعهم اليه في قضاء حوائجهم بحيث أصبح منزله ملاذ الراجي وكعبة القصاد . . . ساقنا الحديث إلى ذكر الشيب فجعل كلُّ يستشهد ببعض الآيات فيه ، وليس في اعتباري أجمل من قول القائل فيه ولعله ابن الرومي :

طلّاع شيبتين أمتا بي
إلى المقرض حبا للتصابي
لتشهد بالبراءة من خضابي
أقمت به الدليل على شبابي

نظرت إلى المرأة فروعتني
فأما شيبة ففرعت منها
وأما شيبة فصفحت عنها
فأعجب للدليل على مشيبي

وقول الآخر ولعله ابن المعتز :

يا شيب كيف وما انقضى زمن الصبي

عاجلت مني اللمة السوداء

لو أنها يوم المعاد صحيفتي

ما سرّ قلبي كونها بيضاء

....

ذكرتني هذه الجلسة بجلساتنا في القدس . حين كنت أجلس إلى طاولتي أمام كني وأوراقني ، إلى جانبي أبو الفضل [اسعاف النشاشيبي] وغيره من الأدباء الألباء . آه ما أشوقني إلى تلك الجلسات . . . ثم انفضت الجلسة فخرجت على رفيقي الخواججا ليفين ، وأبلغته أن المأمول أن يُطلق سراحه في يومين أو ثلاثة إن شاء الله . . . ثم جئت إلى غرفة أستاذي فتناولنا الغداء ، واتفقنا أن نزور مطران الأقباط ، فخرجنا فلقينا إلياس أفندي الشدياق فذهب معنا . تنقلنا في الحديث من موضوع إلى آخر ، حتى جئنا إلى انقسام الكنيسة المسيحية إلى طوائف مختلفة ، فجعل كل واحد يبدي رأيه في ذلك . فمنهم من قال : إن انقسام الكنيسة إلى طوائف عديدة منشأه حبّ الرئاسة ومنهم من قال حبّ الاستقلال ، ومنهم من قال إن هذا الانقسام عارٌّ على الكنيسة ، وعندني أن هذا الانقسام مع جواز أن يكون لحبّ الرئاسة أو حبّ الاستقلال دخل فيه حالة طبيعية ، لأن الدين المسيحي وإن يكن واحداً ، إلا أن الناس يختلفون باختلاف الأقاليم ، فكما يختلفون في العوائد والمشارب والأذواق والحالات العقلية والاجتماعية ، فلا بدّ أن يقع هذا الاختلاف في صبغاتهم الدينية ، فالمذهب المسيحي في الشرق غيره في الغرب ، بل إن الكتلكة في فرنسا غيرها في بلاد الإنكليز مثلاً ، بل إذا توسّعنا في الكلام ، قلنا : إن كل فرد يكاد يكون طائفة بنفسه فإنه مهما تشابه الناس فلا تضيع الشخصية ، ثم إن هذا الاختلاف وظهور طوائف جديدة لدليل على حيوية الدين المسيحي ، وإلا فإذا مرت الأجيال والناس محافظون على تقاليدهم وعقائدهم ، فإن ذلك دليل الشلل في أدمغتهم ونفوسهم . فإذا افتخرت طائفة أنها أقدم الطوائف ، وأنها قادت الدهر ، فذلك أدل على انحطاطها . على أنك إذا تفقّدت الطوائف القديمة ، رأيت أنها خاضعة لناموس التحول مثل سائر الكائنات ، ولو قابلتها اليوم بما كانت عليه قبل خمسين سنة على الأقل ، لرأيت أنها تغيرت تغيراً عظيماً وهي لا تدري . . هذا موضوع واسع أكتفي بالإشارة إليه هنا ، وإذا رجعت إلى بلادني كتبت فيه الفصول الطويلة إن شاء الله . . . في المساء سهرنا في بيت الخواججا تادرس ، أنا وأستاذي والخواججا طورسيان والخواججا أكوب من مستخدمي قنصلاتو النمسا في القدس ، وكان البحث عن حفظ يوم السبت أو يوم الأحد ، فذهب فريق إلى وجوب الانقطاع عن العمل في ذلك اليوم ، مهما اختلفت الأحوال والظروف ، على أنني أخالف ذلك . نعم يجب الانقطاع عن العمل يوماً في الأسبوع والأمة التي تصطلح على

الاستراحة يوماً في الأسبوع على الأقل أقدر من غيرها على الحياة، ولكن لا يجوز ذلك على إطلاقه. فإن هناك دواعي كثيرة تضطر الإنسان إلى الشغل يوم الأحد، وليس عليه في ذلك إثم ولا جناح. المقصود من الاستراحة يوماً في الأسبوع، أولاً الراحة الجسدية واستجمام القوى. وثانياً الامساك عن المطامع وقمع النفس عن الشره، ولكن إذا اضطررت إلى الشغل يوم الأحد للقيام بأود عائلتي عن غير طمع ولا شره فلا بأس. العمل مقدس إذا تجرد عن الطمع والشره، وإذا أردنا أن نضع شريعة جديدة للبشر وجب علينا أن نحدد ساعات العمل ونحرم على البشر ليس الشغل يوم الأحد فقط، بل الشغل في الليل أيضاً إذا لم يكن هناك ظروف اضطرارية. والخلاصة يجب أن نفهم روح الشريعة، لا أن نتقيد بحرفها، ولذلك قيل الحرف يقتل والروح تحيي . . .

الأربعاء في ٢٧ شباط غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية، نزلت إلى البلد، فخرجت على محل الخواجا طرزي، وكان أبو نجيب هناك، فتماسكنا بالأيدي وتدافعنا بالصدور ثم حملته بين يدي وركضت به من أول المخزن إلى آخره، فأحسست وأحس أنني قوي الجسم، وكم كنا نفعل مثل ذلك في مخزنهم في القدس. إن الأسلوب الذي أعيش عليه جعل جسمي كتلة من فولاذ. ليست الغبطة في الحياة أن يكون الإنسان غنياً ولو أنك في سبيل الغنى قواه، وتعجل الشيخوخة قبل أوانها، ولكن الغبطة أن يحافظ الإنسان على شبابه، ويبالغ في العناية بجماله وغضاضة إهابه. كانت السماء ماطرة فلم أستطع أن أتجول فاضطررت أن أرجع إلى غرفة استاذي لتناول الغذاء وما وصلت هناك حتى كانت الأمطار قد بللت ثيابي إلى الجلد، فنزعت ساكي فأخذتها الدادا ماري، وجعلت تقلبها على النار حتى جفت، لو تبللت ثياب غيري لأصابه الزكام وتعرض للنزلات الصدرية. في المساء زرت الخواجا تادرس، فجلسنا نكتب قائمة بأسماء المبعدين والمهاجرين من مسيحيي فلسطين حسب طلب الشيخ عبد القادر أفندي المصغر، ليقدمها إلى جمال باشا ليهتم بإعاشتهم، فبلغت الأسماء نحو مئة أو يزيدون.

الخميس في ٢٨ شباط غ سنة ١٩١٨م

بعد أن أكملت ألعابي الرياضية، زارني الخواجا نخلة طرزي مع نسييه الخواجا أبو عضل فأمهلتها ريثما استحم، ثم جعلنا يسألاني عن الأسلوب الذي أعيش عليه، كأن عراك أمس استدعى انتباههما إلى مزية الأسلوب الذي أعيش عليه وفوائده. فعزم أبو نجيب أن يجرب ذلك الأسلوب في نفسه وفي أولاده. بعد الظهر نزلت إلى البلد فلقيت الخواجا تادرس، فذهبنا إلى محطة السكة الحجازية لنشاهد استقبال فون سندرس

يمان باشا قومندان العرضي الأول [كذا]، وكان هناك على المحطة الضباط الألمان لاستقباله، فلما وصل القطار صدحت الموسيقى فنزل يتعرف بالضباط، وكانوا في صفٍ طويل حسب رتبهم فجعل يقف إلى كل واحد منهم يتعرف، فأعجبت بتلك الأجسام المملوءة قوة ونشاطاً مع كرهية للعسكرية. أفضل على الخدمة العسكرية جمعيات القوة أو جمعيات الكشافة التي ترمي إلى تقوية أجسام الناشئة وتربيتهم على الاستقلال والاعتماد على النفس والحرية والشجاعة والإقدام ومكارم الأخلاق. رجع أمس مساءً الخواجا شكري فران من سفرته مع قنصله، فذهبت مع أستاذي والخواجا تادرس للتسليم عليه، ثم ذهبنا مع الخواجا تادرس إلى بيته وسهرنا هناك إلى نحو الساعة الحادية عشرة، وكان عندهم الخواجا نخمن مع امرأته وابنتيه وابنة جيرانهم الأنسة انيت قيومجي .. ما أحوج البنات إلى تغيير كبير في طرق تربيتهن، وإلا فإنهن يعشن سخيقات العقل .. لا تزيدني الأيام إلا إعجاباً بأم سري وميليا .

الجمعة في أول آذار غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية جلست إلى طاولتي أكتب إلى سلفي الدكتور دعوس، وضمنت رسالتي قصيدتي السينية التي مطلعها:

ذكراني وإن أكن غير ناس بزمان جمّ الولاة مؤاس

ثم نزلت إلى البلد فسلمت الرسالة إلى رجل من نابلس يسافر اليوم إليها . ثم ذهبت مع الخواجا نخلة طرزي نزور الخواجا ليفين في سجنه، فوجدته يائساً من الخروج من السجن، فتأثرت له كثيراً وعزمت أن أبذل وسعي في الاهتمام بأمه . بلغني أن أحد الذين جاؤوا معنا من القدس وهو جندي من أمير أسود اللون اسمه نيازي، وقد كان السبب في سجنه أنه خرج للاستكشاف في نواحي وادي الصرار فرأى الانكليز قادمين فبلغ الخبر فانسحب الجيش، ثم رأوا أن الانكليز لم يجيئوا في ذلك النهار فسجنوه وساقوه معنا إلى دمشق، وقد كان قوي الجسم جميل الصوت لم يكف طول الطريق عن الغناء، وكانت أجمل أغانيه أغنية تركية يتكرر فيها «جانم دكتور»، هذا المسكين أصيب بالحمى التيفوسية فمات أمس فتأثرت لذلك كثيراً . وبلغني أن بقية الذين جاؤوا معنا قد خرجوا من السجن إلا توفيق المصري، فقد رأته في السجن في حالة يرثى لها رجعنا إلى مخزن الخواجا طرزي، وأنا هناك جاء الخواجا تادرس، وقال: مرّ عليّ زمان طويل أفتش عنك فقلت خير إن شاء الله، فقال: أهنتك فقد وصلت صورة أم سري وسري مع رسالة من سلفك الدكتور دعوس، ولما وقعت عيني على الصورة بكيت، بكيت حتى عاقني ارسال دمعي عن النظر، ثم أخذت الرسالة فوجدت فيها سلاماً من عمر أفندي الصالح وخمساً وعشرين ليرة بانقنوط. فأحسست كأنني

خرجت من هوة سحيقة، ثم وضعت الصورة في جيبى قريبة من قلبي ورجعت إلى غرفة أستاذي وعيناي لا تزالان مغرورتين، ولولا الحياء لكنت تابعت البكاء من الفرح أو الحزن . . بعد الغداء رجعت إلى غرفتي فجلست إلى طاولتي ووضعت الصورة أمامي:

علم الله ما له من قياس
دموعي علي جميع الناس
يبق سبيل، أدناهم إحساسي
في بلادي وإنهم جلاسي
فشديد على الزمان مراسي
ذاك داء يعيي الطبيب النطاسي
إن تجل الخطوب طود راس
إن شوقي إلى ذوي لشوق
إما أحاول كتمان شوقي أذاعته
إن يحل بيننا الفراق ولم
لست أخلو إلا تخيلت أني
لست أشكو إلا الفراق وإلا
ليس إلا الفراق يوجع قلبي
كل خطب يهون عندي فإني

ثم رجعت إلى غرفة أستاذي، وجاء الخواجا تادرس فخرجنا نمشي خارج باب توما في طريق القصاع حتى تجاوزنا المنازل . . لا يمر يوم إلا اشتد الغلاء . ثمن رطل الخبز من الجنس الثاني ثلاثون قرشاً نقوداً . وقس عليه سائر الحاجيات، الله يساعد أرباب البيوت، ولا أعجب إذا مات الناس جوعاً، يقال: إن المجلس البلدي يدفن كل يوم عدداً ليس بقليل من ضحايا الجوع. ولا تمر في الطرق في الليل أو النهار إلا رأيت كثيرين من المتسولين من نساء وفتيات وأطفال ليس عليهم غير الجلد والعظم، يتضورون جوعاً ويولولون، مشاهد تمزق القلب وتسوكف الدموع، ومع ذلك فإنك ترى زرافات الناس يروحون، ويجيئون، ولا تأخذ أحداً منهم رافة بهذه الانسانية المعذبة، كأن قلوب الناس قدت من الصخور. مثل هؤلاء الأغنياء الذين تتخمهم أطايب المأكولات فلا تزداد أجسامهم إلا امتلاءً وترهلاً شعباً ورياً، يجب على الحكومة أن تحجز أموالهم وأملآهم، وتنفقها في سبيل الإحسان إلى الفقراء، ورب قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل.

السبت في ٢ آذار غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية، جلست وراء طاولتي أكتب يوميتي، وإذا بالخواجا بديع السنونآت ومعه الدكتور حسين أفندي الخالدي راجعاً من بيروت، فتبادلنا القبلات، بلغني أن مدة مأذونيته قد انتهت، وأنه جاء إلى دمشق آملاً أن يعين في أحد مستشفياتها، وأن أخاه أحمد سيأخذ شهادة الصيدلية في آخر هذا الشهر ويدخل في خدمة الجيش. بعد أن جلسنا قليلاً نزلنا إلى البلد، فأخذته إلى دار المعلمين نسأل عن رسم بك فلم نجده هناك. قال عبد الرحيم أفندي، أحد ضباط الكلية الصلاحية في القدس، أن قد جاء إلى

دار المعلمين بوليس وأحد أفراد الجاندرمة يسألان عني من قبل الديوان العرفي ، فقلت : خيراً إن شاء الله .
اجتمعت بأصدقائي في المساء ، فجعل كل واحد يهون علي الأمر ، وتبرع كثيرون منهم أن يستقهموا غداً عن
مسألتي ، بل تبرع نصيف بك أبو زيد المحامي أن يتولى الدفاع عني . لما رجعت إلى غرفتي وكنت بدون
عشاء وكانت الأسواق قد أقفلت فلم أجد طعاماً ، طلبت من صاحبة البيت أن تقرضني قطعة خبز ، فما
كان من كرمها إلا أن احضرت لي خبزاً وزيتوناً وكبة فأكلت قليلاً . وجدت رسالة من رستم بك يقول : إنه
اجتمع اتفاقاً ، بأحمد جودت بك رئيس الهيئة التحقيقية في المجلس العرفي ، فسأله عن قضيتي فقال : إنه
يريد أن يسألني عن بعض المسائل ، وكلفه أن يبلغني أن أحضر غداً قبيل الظهر ، فأبت عليه مروءته إلا أن
يتكلف العناء في المجيء الي ليطمئنني ، هكذا هكذا والافلا لا . . لا حرمني الله منكم أيها الأصدقاء
الكرام ، وقدرني على مكافآتكم خيراً إن شاء الله .

الأحد في ٣ آذار غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية أسرع في النزول إلى البلد ، فذهبت رأساً إلى دار المعلمين أسأل عن
رستم بك فلم أجده ، ثم ذهبت إلى منزل الشيخ عبد القادر أفندي المصغر ، فلم أجده أيضاً فجعلت أروح
وأجيب في شارع جمال باشا ، لعلي أرى أحداً من أصدقائي قبل الذهاب إلى الديوان العرفي . لقيت
الصديق الأبر الخواججا تادرس وقد نزل إلى البلد ليطمئن علي ، وعند الساعة الحادية عشرة والنصف
دخلت الديوان العرفي أنا والخواججا تادرس فسألت عن أحمد جودت بك رئيس الهيئة التحقيقية ،
فأدخلوني إلى غرفته ، فوقفت في الباب ، وقلت : خليل السكاكيني ، فأشار الي ضابط في إحدى زوايا
الغرفة أن أدخل وأجلس علي كرسي أمام طاولته ، ثم جعل يسألني عن شغلي وعن علاقتي بالصلاحية ،
فقلت له لا أشغل الآن شيئاً وأما علاقتي بالصلاحية ، فقد كنت معلماً فيها في القدس ، وأما الآن فقد
انقطعت علاقتي بها إلا أن مديرها وعدني إذا فتحت المدرسة في دمشق أن أعود إلى التعليم فيها . وبعد
قليل اعتذر بكثرة أشغاله وكلفني أن أرجع بعد الظهر الساعة الثانية . فخرجت وقد استأنست بلطفه ، وكان
الخواججا تادرس ينتظرنني فرجعنا معاً لتناول الغداء . ذهبت إلى غرفة استاذي فتغديت ، جاءني الخواججا
بديع السنونو ، وقال : إن الشيخ عبد القادر أفندي المصغر ينتظرك في منزله الآن فقمي وذهبت حالاً ،
فوعده أن يذهب معي إلى الديوان العرفي إلا أنه جاءه بعض الزائرين ، فوعده أن يجيء بعد قليل فذهبت
وحدي . كلف أحمد جودت بك أحد الكتبة أن يأخذ إفادتي ، فبعد أن كتب اسمي ومحل وجودي
والحرفة التي اتعاطاها وتولدي وأني متزوج ، سألتني السؤالات [كذا] الآتية : كانت الحكومة في القدس قد

أعلنت أن الأميركان من السنة السابعة عشرة إلى الخمسين يجب أن يتركوا القدس إلى الداخلية، فهل سمعت بهذا الإعلان؟ فقلت أنني لم أسمع به لأنني كنت في ذلك الوقت موقوفاً بدائرة البوليس، إلا أنني وأنا هناك رأيت كثيرين من التبعة الأميركية موقوفين بقصد ابعادهم. فقال: ولماذا كنت موقوفاً فقلت لألحق بالكلية الصلاحية التي انتقلت من القدس إلى دمشق، وقد أعطيتي دائرة البوليس ورقة سفر. ثم قال: إن أحد التبعة الأميركية المسمى آلترليفين تأخر عن الحضور إلى دائرة البوليس، وبعد التحري عنه وجد مختبئاً في بيتك، فقلت له: إن في الأمر سوء تفاهم، فإن هذا الرجل لم يؤخذ من بيتي، بل من بيته، لأنني لست صاحب الدار التي أسكنها، وإنما صاحبها راغب أفندي قطينة، وقد استأجر هذا الرجل بعض بيوت فيها أثناء كنت موقوفاً في دائرة البوليس، وفي اليوم الثاني من خروجي جاء البوليس وأخذني وأخذني معه، ولم يتسع لي الوقت لأن أتعرف به، وهل هو من التبعة الأميركية أم لا. والدار التي أسكنها كبيرة فيها نحو عشرين غرفة ولها ثلاثة أبواب خارجية وثلاثة داخلية، والقسم الذي يسكنه الخواجا آلترليفين مستقل عن القسم الذي أسكنه بمدخله، ولسنا وحدنا نسكن الدار بل هناك بعض عائلات أخرى أيضاً. وبعد أن انتهينا من هذه السؤالات أمضيت، وقد لاحظت أنه يسألني حسب تقرير أمامه بامضاء وكيل متصرف القدس جلال بك مدير بوليسها، ثم دفع الورقة إلى أحمد جودت بك، وبعد أن أمر نظره عليها، قال: تستطيع أن تذهب الآن، وإذا احتجنا إليك طلبتك بواسطة رستم بك. استنتجت من هذا أنهم يحاولون أن ينهوا مسألتنا، فذهبت حالاً إلى السجن أبشر الخواجا ليفين فاطمان، قال لي: إن حسن أحمد دحجور من قرية عبوين توفي اليوم أيضاً بالحمى التيفوسية، فأسفت عليه كثيراً، مسكين لم يكن يقف إليّ [=معي] أيام كنت في السجن إلا تشوق إلى بلاده وحن إلى أهله. رجعت إلى محللتنا فلقيت الخواجا تادرس والخواجا الياس الشدياق، فذهبنا نزور شكري أفندي فران، وكان هناك أبو بسام كرد علي، وأستاذي، فلما قام إليّ أبو بسام وقبلني وجعل يذكر أيام زار المدرسة الدستورية ويثني على مبادئها وأساليبها، ولا سيما بستان الأطفال فيها ثم جلسنا حول مائدة الشراب، وبعد قليل جاء نصيف بك أبو زيد، جار شكري أفندي وأحضر خادمه، وهو غلام لبناني من الطائفة المارونية جميل الصوت يحسن كل ضروب الغناء، فجعل يغني فأطربنا كثيراً. وبعد أن اكتفينا من الشرب انصرفنا فذهبت مع الخواجا تادرس إلى بيته، وتعشيت معه، وسهرت هناك ثم جئت إلى غرفتي وأويت إلى فراشي.

الأثنين في ٤ آذار غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية نزلت إلى البلد، فذهبت رأساً إلى دار المعلمين، فالتف حولي بعض طلبة

الكلية الصلاحية من الصفوف العالية، وطلبوا اليّ أن أحاضرهم ببعض الدروس، فأمهلتهم ريثما يستتب حالي، ثم خرجت مع رستم بك فذهبنا لنمشي في شارع جمال باشا لأن الطقس جميل جداً، ثم لقينا أبا بسام كرد علي فأخذنا إلى إدارة [جريدة] المقتبس. أهم أخبار هذا النهار أن الحكومة أصدرت عفواً عن جميع المبعدين سياسة أو إدارة، فسررت لذلك كثيراً واستبشرت به خيراً، وإن كنت لا استفيد منه شخصياً لانقطاع الطريق بيني وبين أحبائي، إلا أنه يكفيني سروراً وعزاءً أن يرجع المبعدون الذين مثلي إلى بلادهم وذويهم، بعد أن قاسوا كثيراً في تغريبهم، ولا سيما صديقي الأبر عيسى العيسى، وهنا محل لأن أكرر قولي: أي إذا قابلت مصيبي بمصيبة غيري، كنت حقيقاً أن الجم لساني عن الشكوى. والخبر الثاني أن قد عقد الصلح بين روسيا والمانيا وحليفاتها، فعسى أن يكون مقدمة للصلح العمومي، فتضع الحرب أوزارها وتنفس الإنسانية الصعداء، وتحقق الدماء ويستتب السلام إن شاء الله. ثم قد فهمت من بعض مأموري الديوان العرفي أن مسألتنا أوشكت أن تنتهي، فتراً ساحتنا ويطلق سراحنا ونصبح احراراً، ولكن متى نرجع إلى بلادنا ونجتمع بأحبائنا؟

الثلاثاء في ٥ آذار غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية، نزلت إلى البلد فخرجت على محل الخواجا طرزي، فلقيت رسالتين من عيسى العيسى، الواحدة بتاريخ ٣ شباط والأخرى بتاريخ ٦ منه، جواباً على رسائلي إليه حين كنت موقوفاً في السجن وبعد اطلاق سراحي، يستزيدني فيها تفصيلاً عن مسألتني، ويظهر قلقه علي والدته وشقيقته. . . كتبت رسالة إلى سلفي الدكتور دعوس أشكر فيها مروءته وفضله. بعد الغداء نمت قليلاً ثم نزلت إلى البلد، فزرت رفيقي الخواجا ليفين فشكا إليّ طول حبسه، وقد بلغ به الضجر أقصى درجاته، فكدت أبكي له فشجعته وأمهلته بضعة أيام لأن الديوان العرفي يشتغل في إنهاء معاملتنا، فلوى رأسه ودخل سجنه بانساً فتأثرت كثيراً. ثم لقيت رستم بك، وشفيق أفندي، فمشينا إلى محطة البرامكة مشياً حثيثاً، وفي رجوعنا لقينا عبد القادر أفندي المغربي فاثينا على مقاله الافتتاحية في عدد اليوم من الشرق، وحشته على متابعة الكتابة في تقريع الأغنياء على اهمالهم أمر الفقراء. في المساء سهرنا في بيت الخواجا تادرس، وكان هناك الدكتور أمين أفندي أبو فاضل، فسألته عن جرجي الخوري، فقال: إنه أحسن اليوم، وقد اعطاه رخصة لعدة أيام للاستراحة فشكرته. . . لا أزال خائفاً أن تطول الحرب فيطول غيابي عن أحبائي. صورة سري وأمه تذكرني بعهد طفوليته حين كما في أوج سعادتنا. إن الحياة في البعد عنك يا سري لمريرة. إذا مشيت في الطريق فلقيت الناس يروحون ويحيون وأيدي أولادهم في أيديهم، اشتاقت يدي أن تمسك يدك وظهري أن

يحملك وآذاني أن تسمع كلماتك الحلوة، وعيني أن تراك وفي أن يقبلك وأنفي أن يشمك، وصدري أن يضمك، فتعروني لذلك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر، وأما أنت يا أمي وأنت يا سلطاتي وأنت يا أختي، وأنتم يا أحبائي وأصدقائي، فإن شوقي إليكم لعظيم لا تشفي غليله العبرات، ولا تفي وصفه العبارات، ولولا أنني أتجبر وأغالب شوقي وأتعهد نفسي بالتشجيع وأخاتل ضجري مخاتلة، لتصدع قلبي ولفطرت مرائري.

الأربعاء ٦ آذار غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية، نزلت إلى البلد فعرجت على رسم بك فلم أجده، ثم لقيت فوردر، وكان ذاهباً إلى المستشفى الألماني بالقرب من محطة البرامكة، فذهبت معه وكنت أمشي أحس بقوة ونشاط، لا شك أن أسلوبنا سيعتلب على العالم. رجعت إلى غرفة أستاذي فتناولت الغداء، ثم جئت إلى غرفتي فقرأت المشرق والمقتبس، ثم تمددت وبعد النوم تفقدت بنطلوني فوجدته قد تمزقت أطراف ساقيه، والقسم الذي بين فخذه، فلم أربداً أن أذهب إلى بيت الخواجا تادرس، لأكلف مسس تادرس أن ترفاه، فوجدتها تشكو الصداع فكلفت ابنتها الصغيرة دورث فأخذت الأبرة وجعلت ترفاه لألبسه وجعلت أضاحكها، قلت لها: لا تقولي لأحد أن بنطلوني ممزق. ثم وهي ترفاه جعلت أقول لها: أرجوك أن تنتهي لئلا تخزيني بإبرتك أو تخيطي جواربي بالبنطلون، فكانت تضحك ثم شكرتها ونزلت إلى البلد وأنا أفكر في شراء بدلة جديدة في القريب العاجل. مررت على محل الخواجات طرزي فأخذت أبا نجيب، ومشينا في شارع جمال باشا، وهو الشارع الوحيد الجميل في دمشق تزدهم فيه الأقدام. كنت قبل اليوم إذا تغربت عن بيتي أرتاح إلى رؤية الغيد الأوانس، وأما اليوم فأني لا أشعر بوجودهن، ولست أدري، هل ذلك لأنني تقدمت في السن أو لإشغال نفسي بالشوق إلى أحبائي، أو لاشمزاز نفسي من حال المرأة في دمشق. لم أزل كل النهار أفكر في رفيقي في السجن الخواجا ليفين، والتمس مساعدة الأصدقاء في السعي في سبيل خلاصه. في المساء ذهبت مع الخواجا الياس شدياق إلى بيت الخواجا جورج طرزي وكان على وشك الخروج مع امرأته لزيارة بعض أصدقائه، فسهرنا مع الخواجا نخلة، وجعلت أحدثهم عن أسلوبني في الحياة، فقال الخواجا نخلة: من يراك يظنك ابن خمس وعشرين سنة، وقال الخواجا شدياق: من ينظر إليّ وإليك يظنك ابني، وجعلت أبحث معهما في كيفية المعيشة، وكيف يجب على الغني أن يستعمل غناه، فصادف كلامي لديهما استحساناً وإيثاراً.

الخميس ٧ آذار غ سنة ١٩١٨م

حلمت أني كت في البيت جالساً إلى سلطاتي ، وكان عيسى العيسى معنا . . بعد استكمال الفروض اليومية نزلت إلى البلد فرجعت على رسم بك ، فلقيت عنده محمد أفندي الشريقي فمشينا قليلاً في شارع جمال باشا ، ثم اتفقنا أن نزل بعد الظهر ، فأذهب مع رسم بك نزور الخواجا ليفين . كلفت محمد أفندي الشريقي أن يستنهض همة الشيخ عبد القادر أفندي المصغر في الاهتمام بأمر رفيقي ، ثم عرجت على إدارة المقبس ، وكلفت أبا بسام أن يستفهم من الديوان العرفي عن قضيتنا ، ثم ذهبت فحلقت وتناولت الغداء مع أستاذي . لقيت في طريقي جرجي ميخائيل الخوري فوجدته أحسن ، ولم يتمالك أن بكى فتأثرت له ووعدته أن أزور رجال بطريكية القدس ، وأخذ منهم بعض الدراهم له . ثم جئت إلى غرفتي فعبأت أركيلتي وجلست إلى طاولتي أكتب يوميتي ، ثم خطر لي أن أكتب إلى سلفي الدكتور دعديس أكاشفه شوقي إلى سري . . . إن أيامي في دمشق متشابهة أصرف صباحي في العايي وحمامي وقراءتي وكتابتي ، وأصرف ما بعد الظهر في التجول في شارع جمال باشا وحدي أو مع رسم بك أو غيره من الأصدقاء ، وفي المساء أسهر في بيت الخواجا تادرس . . . لا يجول في صدري غير عواطف الشوق ولا تتعدى أحاديثنا المواضيع البسيطة . . بعد الظهر نزلت إلى البلد ، فذهبت مع رسم بيك وأستاذ اللغة التركية في دار المعلمين هرون بك إلى السجن نزور الخواجا ليفين . ثم رجعنا إلى شارع جمال باشا فجعنا نتردد فيه ذهاباً وإياباً . لقيت الخواجا تادرس ، فقال : أهنيك فقد بلغني الشيخ عبد القادر أفندي المصغر أن الديوان العرفي برأك ، وأن جمال باشا أمر بإحراق الكلية الصلاحية ، وأن تستوفي معاشاتك منذ تعطلت الكلية في القدس إلى الآن ، فحمدت الله بل حمدت الديوان العرفي ، بل حمدت جمال باشا بل حمدت حسن حظي ، بل ترحمت على صلاح الدين الأيوبي وقد نذرت على نفسي أن أزور قبره وأضع عليه باقة بنفسج ، يعبر أريجها عن شكري وعواطفني . . . ولولا خوفاً أن أحسب فضولياً لتطلعت على مقام جمال باشا وقدمت لمقامه الرفيع تشكراتي . . وبعد قليل لقيت الشيخ عبد القادر أفندي المصغر فأعاد عليّ ما بلغني الخواجا تادرس ، ثم لقيت عزت بك أحد أساتذة الكلية الصلاحية في القدس ، والذي كان بمعية متصرف القدس يوم ساقوني إلى السجن قادماً من بيروت ، وكان معه عارف بك أحد رجال البوليس في القدس ، وهو الذي جاء ليلاً إلى بيتي فأخذني مع الخواجا ليفين إلى السجن فقلت لعارف بك : أما كان في إمكانكم أن تركوني في بيتي وتعفوني من هذه المصيبة ، وتكسبوا أجري فقال : «ذلك نصيب» . ثم رجعت مع الخواجا تادرس إلى بيته ، وجاء معنا أستاذي فشربت قليلاً من العرق وتناولت العشاء عنده .

الجمعة في ٨ آذار غ سنة ١٩١٨م

في هذا اليوم يكون قد مرّ عليّ منذ خرجت من القدس مكبلاً بالرجال سوقاً كالمجرمين تسعون يوماً . . . لو خيروني بين أن انفصل عن بيتي وبين أن أملك العالم بأسره، لآثرت البقاء بجانب أحبائي على كل غنى العالم. الحياة مع أحبائي هي السعادة بل هي الغنى كله . . . ليست الجنة التي وعد بها المتقون أحب إليّ من بيتي . . . بعد استكمال الفروض اليومية نزلت إلى البلد فمررت على محل الخواجات طرزي فأخذت الخواجا يوسف أبو عضل فاشترى لي ثمانية ريالاً وربع بنطلوناً، وأعطيت حذائي للحذاء فوضع له كعباً. ولكن بعد أن لبست البنطلون وجدته ضيقاً عند فخذه ولم أمش به قليلاً حتى تفتق، فلم أربداً أن أردّه لصاحبه ولو خسرت بعض الدراهم . . . في الساعة الثانية بعد الظهر ذهبت إلى بيت الخواجا طرزي لتعرفني امرأته بنات جيرانها لأنهن طلبنني منها لأعلمهن اللغة الانكليزية، فاتفقنا أن نبدأ من يوم الاثنين من الساعة الواحدة إلى الثانية بعد الظهر، وأما الأجرة فقد أجلت البحث فيها حتى يمر علينا في الدرس عدة أيام . . . لقيت ابراهيم أفندي حلمي وهو فتى من بغداد يتولى كتابة جريدة سوريا الرسمية، فطلب إليّ أن أعلمه اللغة الانكليزية مع فتى آخر من تلامذة الكلية الصلاحية اسمه مسلم أفندي، وهذا الفتى كان يزورني كل يوم في سجنني ويعرض عليّ خدمته، فكنت أعجب بمروءته، فأجبتها إلى طلبهما بكل سرور، وسأبدأ من الأسبوع القادم، ولكن اشترطت على نفسي أن لا آخذ منهما أجرة، ويخيل إليّ أنني سأجد تلاميذ آخرين إن شاء الله . . . التقيت عند الساعة الخامسة برستم بك فذهبنا إلى قهوة الزهرة. إن صداقة رستم بك لثينة عندي لا يمر يوم إلا توثقت عراها وتوطدت أركانها، صداقة مبنية على الإعجاب بأخلاقه ومبادئه . . . تناولت العشاء عند أساذي وسهرت عنده قليلاً، وكانت السماء شاتية، فلما خرجت كان الظلام حالكاً والأمطار هاطلة، فما وصلت بيتي حتى كانت ثيابي من رأسي إلى قدمي مبللة إلى الجلد، ولست أدري كيف أستطيع أن ألبسها غداً . . . لقيت جرجي ميخائيل الخوري، فقال: إنه ذهب إلى بطريكية القدس، فدفعوا له ثلاث ليرات بانقوطة، لأنني كنت قد كلفتهم بمساعدته.

السبت في ٩ آذار غ سنة ١٩١٨م

لم ألبس اليوم لأن ثيابي في الغسيل، ولا أحب أن ألبس بالثياب التي ألبسها في النهار، ولكنني استحمت جيداً. بنطلوني وسائر ثيابي لا تزال مبللة من مطر أمس فجففها قليلاً على النار، ولا بد لي اليوم من شراء بنطلون جديد أو استعارة بنطلون رستم بك، إلى أن أتوقف إلى شراء بنطلون موافق [=على المقاس]. نزلت

إلى البلد فخرجت على رستم بك فذهبنا لنشتري بدلة . دخلنا أحد المخازن فقسمت بدلة طلبوا ثمنها خمساً وثلاثين ليرة، فأجفلت لذلك أي اجفال . . استعرت منه بنظولنا . وأجلنا شراء البدلة إلى فرصة أخرى . دفعت لصاحب البنطلون الذي اشتريته أمس ثم رددته نصف مجيدي . تناولت الغداء عند أستاذي ، ساقنا الحديث إلى حضور الصلاة يوم الأحد مع الجماعة ، فقلت له : أعجب للكنيسة البروتستانتية في هذا العصر ، كيف أنها لا تزال تعتمد في صلواتها على كتاب صلاة تتكرر فيه الصلوات بعينها في كل أحد ، كما تفعل الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية ، بل كما يفعل الصينيون . إذا لم تكن الصلاة مبتكرة صادرة عن الإحساس فلا معنى لها ، ولعل المسيح لم يقصد بقوله لتلاميذه إذا صليتم فقولوا أبانا ، أن يكرروا كلماته بحرفها وترتيبها ، بل أن يعتبروا الله أباً لهم وأن يضمنوا صلواتهم ما توحيه إليهم عواطفهم ، وأن لا يكثروا من الصلاة ، بل أن تكون صلواتهم مختصرة كالصلاة الربانية . ثم إن اجتماع الناس للصلاة معاً لا يقصد منه العبادة بل الدرس ، إلا إذا كان هناك داع عمومي تشترك فيه العواطف والإحساسات ، وأما العبادة فأصر أن ينفرد كل واحد فيها ليراعي في عبادته حاجاته وعواطفه الشخصية ، لأن كل واحد تختلف حالته الروحية عن الآخر ، وقل أن يشترك في حالة واحدة إثنان . ومما يندرج في ذلك التراتيل الروحية ، فالواحد قد توافقه الترنيمة الفلانية والآخر غيرها ، فلا يجوز أن ينحصر اختيار التراتيل في القسيس ، بل يجب أن يختار الشعب التراتيل التي توافق حالتهم الروحية ، ولا بأس إذا تعددت هذه التراتيل إلى الخمس أو الست ، وإلا فالقسيس هو الذي يترنم لا الشعب ، وأقرب الناس إلى ذلك هم جماعة الفرنس ، ولعل كنيستهم أقرب إلى المقصود من كنيسة ، وأرقى الكنائس جميعها ، لا قسيس فيها ولا كتاب صلاة ولا طقوس ، مثل العماد والاشترار وغير ذلك ، يحق لكل واحد إذا اجتمعوا للصلاة أن يتكلم بما توحيه إليه حالته الروحية رجلاً أو امرأة ، أو يختار الترنيمة التي توافقه أو يقرأ فصلاً من الكتاب المقدس ، وإذا تكلموا فلا يتكلمون بما لا يفهمونه هم ، ولا يفهمه أحد كما يفعل كثيرون من الوعاظ في الكنائس الأخرى ، بل ينتزعون المواضيع من حياتهم اليومية واختباراتهم الشخصية ، والذي لا يجد من نفسه باعثاً على الكلام أو يحس بالهام كما يقولون ، يلزم السكوت ، وإذا اكتفوا من الكلام والترنيل ينصرفون ، وبذلك قد تكون اجتماعاتهم طويلة يكثر فيها المتكلمون وقد تكون قصيرة . الخ .

زرت اليوم رفيقي في المصيبة الخواجا ليفين مرتين قبل الظهر وبعده . في المرة الثانية دفع إلي أحد المسجونين وهو من نابلس واسمه مصطفى ، مستخدم في السكة الحديدية ، ورقة يطلب مني فيها أن أشتري له ثلاث أواقي خبز لأنه جائع جداً ، وقد كان لما كنت في السجن حسن الحال ، فتأثرت لذلك كثيراً ، وعزمت أن أدفع له من جيبي ثمن الخبز ، لولا أن رفيقي الخواجا ليفين تعهد أن يدفع له هو . . يقولون أن

الديوان العرفي أنهى معاملة رفيقي ، ولم يجد عليه ما يوجب السجن ولكن متى يطلق سراحه؟ لعل هناك يداً
تؤجل اطلاق سراحه طمعاً في الرشوة . كل يوم نسمع أن الغلاء ضارب أطنابه في القدس ونواحيها ، وأن
الناس في ضيق عظيم فاستولى عليّ القلق ، وأخاف وأنا آكل وأشرب وأجد كل حاجاتي ميسورة هنا أن
تكون عائلتي لا تجد ما تسد به الرمق هناك . اللهم عجل بالفرج ، اللهم عجل بالفرج .

الأحد في ١٠ آذار غ سنة ١٩١٨م

استحمت باكراً ونزلت إلى البلد ، ولكنني لم أجد أحداً من الأصدقاء . رجعت فتناولت الغداء عند
أستاذي . بعد الظهر رجعت إلى غرفتي ونمت قليلاً ثم ذهبت مع أستاذي وزرنا الخواجا داوود يلين ،
وبعد ذلك نزلت إلى البلد ، فزرت رفيقي الخواجا ليفين ثم جئت إلى شارع جمال باشا ، فلقيت صديقي
الأبر رستم بك فقال لي أنه قابل اتفاقاً أحمد جودت بك ، رئيس الهيئة التحقيقية فبلغه تبرئتي ، بعد العشاء
زرت نصيف بك أبو زيد ، وكان هناك رئيس الديوان العرفي صائب بك والمدعي العمومي فيه زكي بك ،
ونسيم بك دعدس ، وعبد الله أفندي النشواتي وغيرهم حول مائدة الشراب ، وإذ كنت قد تناولت عشاءني
اعتذرت عن الشرب في أول الأمر ، ثم لما زاد الإقبال على الشرب أبوا عليّ امتناعي فلم أربداً أن
أشاركهم فشربت قليلاً ، ثم جاء عواد ولعله يهودي ، وبعض شبان من أنسباء نصيف بك ، فجعل العواد
يضرب على عوده ويغني ، ويساعده في الغناء ابن نصيف بك وخادمه . كان عبد الله النشواتي وهو خياط
ودكانه بجانب الديوان العرفي يتردد إليها مأمور الديوان العرفي من الرئيس فنازلاً ، وقد يزورونه في بيته
العامر جالساً إلى جانب زكي بك المدعي العمومي في الديوان العرفي ، فدعاني إلى جانبه وجعل يكلم
المدعي العمومي بقضيتي فوعدني بالمساعدة فشكرته ، وإن لم يعد مجال لهذه المساعدة ، لأن رئيس
الهيئة التحقيقية قرر منع محاكمتي ، ولئلا يطول الكلام وعدت أن أزوره في دكاوته غداً فنتوسع في الكلام
.. ثم عطف عليّ عبد الله النشواتي ، وقال : كانت الليلة ميعاد اجتماع جمال باشا والوالي ومفتش
المنزل ورئيس محكمة الجزاء (وعدد كثيرين من رجال الحكومة وأمراء العسكرية) في بيتي ، ولكنهم
ارسلوا فاعتذروا وأجلوا الزيارة إلى ليلة أخرى . ثم قال : كل أمراء العسكرية ورجال الحكومة في اصبع
الداعي الفقير مثل الخاتم ، فلم يسعني إلا الإعجاب بمقامه العظيم . . ولما اكتفوا وبلغ الشرب حده ، قمنا
وانصرفنا فمشيت مع رئيس الديوان العرفي والمدعي العمومي فيه وعبد الله النشواتي ، فلما صرنا بالقرب
من دار عبد الله أفندي مالوا ليكملوا سهرتهم هناك فاعتذرت ، فأبوا عليّ الانصراف ، فدخلت معهم
وحضرت مائدة الشراب ، وعدنا إلى ما كنا عليه ، ثم أرسل الرئيس الجندي خادمه ليحضر له عربة لأنه

لم يعد في استطاعته أن يمشي ، فذهب الجندي ولكنه لم يلبث أن رجع ، وقال : إنه لم يجد عربة ، وقر الرأي أن ينام الرئيس في بيت عبد الله النشواتي ، فقامت مع زكي بك وانصرفنا .. هذه ليلتنا فتأمل .. إذا لم يكن ما رأيته الليلة في حلم فإني لا أتمنى على الله إلا أن يعجل بالفرج لأقوض خيامي وأرحل عن هذه البلاد ، وأني لأمسك القلم عن بيان تأثراتي مما رأيت وسمعت هذه الليلة ، والله أعلم بالسرائر ومصير الأمور .

الاثنين ١١ آذار غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية ، نزلت إلى البلد فخرجت في طريقي على محل الخواجات طرزي ، فإذا أبو نجيب قد رجع من زحلة ، إذ قد ذهب إليها منذ بضعة أيام وقد اكتسب وجهه لوناً صحياً ، فأثنى على جمال زحلة ومناخها الطيب ، فإذا صح أن الكلية الصلاحية ستنتقل إليها فإني أرجو أن أغتبط فيها ، على أن المناخ الطيب لا يجدي ، إذا لم يكن أسلوب الحياة جيداً مستوفياً للشرائط الصحية .. ثم زرت رفيقي الخواجا ليفين في السجن ، فتعلق بي كما يتعلق الغريق بحبال الهواء ، وألح عليّ في الرجاء أن أهتم بأمره وأسعى في فكاهه ، فوعده أن أبدأ وسعي .. من هناك زرت رستم بك وأنا ذاهب إليه لقيني جندي عند محطة السكة الحجازية ، فقال : أين وثيقتك ؟ فقلت : لا أحمل وثيقة ، وبعد أن تردد قليلاً قال : لا بأس اذهب الآن ولما وصلت جسر بردى لقيني آخر ، فقال : أين وثيقتك ؟ فقلت له : أنا معلم في الكلية الصلاحية ووثيقتي هناك ، فقال : إذن لا تذهب حتى يجيء الضابط ، فوفقت ولففت سيكارة ريشما يجيء الضابط ، وبعد قليل قال لي : لا بأس اذهب . أخذت رستم بك وذهبتنا نزور الشيخ عبد القادر أفندي المصغر فلم نجده ، فتركنا بطاقة باسمينا ثم تركه وجئت إلى غرفة أستاذي ، فتناولت الغداء وحدي لأنه تأخر قليلاً ، ولأن عليّ درساً مع بنات زغيب الساعة الواحدة . وفي الوقت كنت في بيت زغيب . سألتني اخوهم عن رسم الدرس ، فقلت له : سننظر في ذلك بعد بضعة أيام ، فإن أعجب اخواتك أسلوب مضمينا في الدرس وإلا أوقفناه . ثم جاءت الأخوات وباشرنا الدرس ، وإني لأرجو أن يكن سررن به واستفدن منه .. وأنا راجع لقيني خادم الخواجا ليفين ، فقال : أرسلني الخواجا ليفين أفتش عنك لأنه يحتاج أن يراك الساعة ، فذهبت رأساً ، فكلفني أن أرى الخواجا داود يلين وقبيل المساء زرت الخواجا داود يلين ، وتباحثنا في الطرق التي يجب أن نتخذها لمساعدة الخواجا ليفين واطلاق سراحه .. بعد العشاء ، رجعت إلى غرفتي باكراً ، وكان في نيتي أن أزور بيت الخواجا تادرس ، لولا أن الظلام حالك والسماء تنذر بالمطر والطرق موحلة .. لم يزل قلبي كل النهار يخفق حيناً إلى أحبائي ، ولولا أنني كنت أشاغل نفسي لذرفت الدمع مدراراً ، اشتريت البنطلون الذي قسته

منذ بضعة أيام فلبسته وأرجعت بنطلون رستم بك . أحر بمن كان مثلي أن لا يصلح للحياة . إذا رأيت فقيراً يستعطي صرفت نهاري منقبض الصدر . إذا عاملت الناس كمت أنا المغبون . إذا غبت عن بيتي جزعت كأنني طفل . إذا نظرت في أحوال الناس سئمت الحياة . كل الناس أقدر مني على الحياة كأنني لست من الناس أو كأنني اضعفهم جميعاً . كلا بل أحس من نفسي ويعتقد الذين يعرفونني أنني قوي في جسدي ونفسي وعقلي ، ولكن الوسط الذي أعيش فيه لا يصلح له من كان بأخلاقي ومبادئ ، فإما أن أفصل عن هذا الوسط إلى وسط أرقى ، وأما أن أستبدل نفسي بغيرها ، أما أخلاقي فأسلسها وأتلون بكل لون ، وأما مبادئ فادوسها تحت أقدامي ، وألبس لكل حالة لبوسها ، وأعيش مع الناس كما يعيشون .

الثلاثاء ١٢ آذار غ سنة ١٩١٨م

ليلة أمس وليلة أول من أمس حلمت أنني كنت في القدس ، وأني كنت ماراً في الليلة الأولى مع أستاذاً من وسط الحرم الشريف ، فلاحقني رجل أفغاني أو هندي ويده خنجر ليضربني به ، فحذرني منه أستاذاً فالتفت إليه وقلت له : ماذا تريد ولولا أن حال بيني وبينه بعض الناس لاشتبكنا في القتال ، وفي الليلة الثانية حلمت أنني كنت ماراً من هناك فاعترضني رجل غريب ، وسألني : هل أنت مسلم أو مسيحي ؟ فقلت له : مسيحي ، ولكنني أحترم الإسلام وأحب المسلمين .

بعد استكمال الفروض اليومية نزلت إلى البلد ، وفوضت أمر الاهتمام بفكك رفيقي الخواجا ليفين إلى الخواجا داود يلين^(٥٠) رفيق خليل السكاكيني في دمشق ، التحق معه بركاب الأمير (الملك) فيصل ليصبح لاحقاً سكرتيره الخاص . من مؤسسي جمعية «العربية الفتاة» . صاحب المذكرات المشهورة عن نشوء الاتجاه العربي في نهاية العهد العثماني . . لقيني في الطريق محمد أفندي كرد علي وأخوه أبو بسام ، فقال : هيأنا لك محلاً ، ودبرنا إلى الآن خمسة عشر تلميذاً لتتولى تعليمهم فشكرتهما على ذلك .

بعد الغداء ذهبنا فعلمت تلميذاتي . ما أدلع المرأة في هذه البلاد يكشف أعلى صدرها وتلوين وجهها بالأصباغ المختلفة بحيث تظهر للناظرين كالدمى التي يلعب بها الأولاد الصغار ، ولكنهن إذا ضحكنا اقررن عن ثغور صفراء لا تلتئم مع ألوان وجوههن . . ثم نزلت إلى البلد فالتقيت بفريد أفندي كساب رفيقنا في الأساتنة ، فمشينا معاً في طريق جمال باشا ، ثم أخذته إلى دار المعلمين لأعرفه برستم بك وزين العابدين

(٥٠) داود يلين : (١٨٦٤ - ١٩٤١) عضو يهودي في مجلس المبعوثان العثماني عن القدس . زعيم صهيوني أصبح لاحقاً نائب رئيس بلدية القدس . نته السلطات العثمانية إلى دمشق في الحرب العالمية الأولى .

أفندي فلم نجدهما ، فمشينا على طريق الصالحية تتجاذب أطراف البحث في مواضيع مختلفة عن الشرق والغرب ، وجعل يحدثني عن شاب نبغ في بيروت اسمه يوسف اسطفان تخرج في رومية ، وأتقن لغات عديدة وتعمق في فلسفة اللغات والتاريخ والأدب والاجتماعيات ، يجيد في الكتابة ونظم الشعر والخطابة بلغات عديدة ، مما شوقني إلى الاجتماع به ، وهو الآن راهب ماروني ولكنه سيرك الرهبنة ويخرج إلى العالم ليعيش لبلاده ويعمل على ترقية الفكر وتنوير البصائر ، ثم جعل يسرد بعض أقواله ويبين بعض آرائه .. إلا أنني استشففت من كلامه وأقوال صاحبه استرسالاً في الخيال ، ثم ساقنا الحديث إلى زواجه وزواجي ، فقال لي : إن امرأته كاتبة أديبة ، وهي الآن تتوسع في دروسها العربية على الأستاذ عبد الله البستاني ، فقلت له : إن المرأة في بلادنا لا تحتاج إلى التوسع في درس اللغات ولكنها أحوج إلى اقتباس الأسلوب السكسوني في تربية أولادها ، فيجب أن تولع بالرياضة والاستحمام بالماء البارد ، وتشبه بالأوروبيات في الأخلاق والعادات ، وتجري على طريقتهن في تربية أولادها ، وإلا فلا يفيدنا درس اللغات شيئاً ، وجعلت أشرح له أسلوب الذي اتبعته منذ نشأتي والذي تشترك معي فيه سلطنة وسري ، فأعجب بأسلوبي وطلب إلي أن أعرفه به ، وأن أكتب له عنه ليقنع امرأته باتباعه في نفسها وفي ولدها .

سهرت مساءً في بيت الخواجا تادرس ، وكان هناك عائلة الخواجا نخمن ، وطبيب الأسنان الخواجا وديع ، والخواجا وتسي إلى نحو الساعة العاشرة .

الأربعاء ١٣ آذار غ سنة ١٩١٨م

قمت باكراً ولعبت كل ألعابي واستحمت جيداً بالصابون من رأسي إلى قدمي ، ثم جلست إلى طاولتي أكتب في يوميتي إلى الساعة العاشرة والنصف ، ثم نزلت إلى البلد فلقيت الشيخ عبد القادر أفندي المصغر ، فكلفته أن يأخذ وثيقتي إلى قومندان المركز ليمضيها ، فدخلنا إلى الدائرة فوجدناها غاصة بالناس ولم نجد قومندان المركز ، ثم تركته وذهبت زرت صديقي رستم بك وأخذته وجئنا إلى بيت عبد القادر أفندي وكان هناك محمد أفندي الشريقي فأقمنا إلى الظهر ، ثم جئنا إلى غرفة أستاذي وتناولت الغداء ثم ذهبت فعلمت تلميذاتي ، وبعد الدرس جئنا إلى غرفتي ، وما جلست إلى طاولتي حتى اغرورقت عينايا بالدموع حينما إلى سري وسائر أحبائي . أه ليتني أستطيع أن أطل عليهم فأبثهم أشواقي ثم أرجع إلى منفائي ، فلا الأحلام ولا الخيال يشفيان لي غليلاً ، قال لي رستم بك : إنه مسافر غداً إلى بعلبك لبضعة أيام ، فتمنيت لو أستطيع أن أرافقه ، فإنه موضع أنسي ومشككي ما في نفسي .

نزلت إلى البلد فخرجت على رفيقي الخواجا ليفين في سجنه، وتمنيت له الفرج القريب، ثم جئت إلى شارع جمال باشا وروحي قد بلغت التراقي، فأحسست كأن الدنيا كفة حابل^(٥١)، واستولى عليّ الذهول، فكنت أمشي كأنني خيال سار، فلم أربدا أن أرجع إلى محلّتنا، فجئت إلى بيت الخواجا تادرس، فأخذته وذهبنا إلى غرفة أستاذه حيث تناولت العشاء، ثم ذهبنا إلى بيت الخواجا تادرس، وذهب أستاذه معنا ولم يلبث أن جاء الخواجا شدياق.

الخميس ١٤ آذارغ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية جلست إلى طاولتي أكتب رسالة إلى سلفي الدكتور دعدس، ثم زارني الدكتور حسين أفندي الخالدي فقرأت عليه رسالتي فكاد يبكي، وعند الساعة العاشرة جاء ابراهيم أفندي حلمي ومسلم أفندي فأعطيتهما أول درس في اللغة الانكليزية، ولم نستق على أنفسنا إلا وقد قاربت الساعة الظهر، فقمنا وخرجت لأتناول غدائي عند أستاذه، وبعد الغداء ذهبت فعلمت تلميذاتي، ثم ذهبت فحلقت ورجعت إلى غرفتي فعبأت أركلتي وجلست أقرأ وأكتب، ثم نزلت إلى البلد فخرجت على رفيقي الخواجا ليفين في السجن فوجدت باب السجن مغلقاً، وعلى الباب جنديان للحراسة لا يسمحان لأحد أن يدخل، فسألت عن السبب، فقالا لي: ليلة أمس فرّ من السجن نحو خمسة وعشرين سجيناً، وبعد أن انتظرت قليلاً فتحا لي الباب، وناديت رفيقي فخاطبته من بعيد، ثم انصرفت على أمل أن أزوره غداً. رجعت إلى محلّتنا فأخذت أستاذه، وذهبنا نزور مطران الأقباط فلم نجده فذهبنا نزور الأرشمندرت ابراموس الكركي. كتبت رسالة أخرى إلى وديع قيسي في السلط.

في المساء دعاني الخواجا تادرس للعشاء، وأنا راجع إلى غرفتي وجدت جمهوراً كبيراً بالقرب من مدخل محلّتنا، فسألت عن السبب، فقيل لي: إن بعض ضباط الألمان تحرشوا ببنات راجعات من المشغل إلى بيوتهن، فتداخل الحارس فضربوه. كان ثمن رطل الخبز اليوم اثنين وثلاثين غرشاً ونصفاً فكيف يستطيع الناس أن يعيشوا بعد اليوم؟.

الجمعة ١٥ آذارغ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية جاء تلميذاي فعلمتهما إلى نحو الظهر، وبعد الدرس نزلت أزور رفيقي

(٥١) احسست كأن الدنيا كفة حابل: الحابل هو سانس الخيل، حيث يمسك الحبل بكف يده، ما يجعل الكف مضطرباً مع معالجة الخيل.

الخواجا ليفين في سجنه فتأخرت إلى نحو الساعة الواحدة بعد الظهر، ولذلك لم أبدأ أن أذهب رأساً إلى تلميذاتي واعتذر لهن عن عدم امكاني أن أعطيهم درساً اليوم، فأجلنا الدرس إلى الغد، ثم ذهبت فتناولت الغداء عند أستاذي ورجعت إلى غرفتي، فعبأت أركلتي وجلست أقرأ وأكتب، وفي الحقيقة لا أقرأ ولا أكتب لأن فكري مشرد، فلا أعني ما أقرأ ولا أعرف كيف أكتب. وبعد قليل لم أبدأ من أن آوي إلى فراشي لأتخلص من قلق اليقظة، وأنا نائم أمطرت السماء فأثرت أن أبقى في غرفتي إلى أن ينقطع المطر.

تأثرت كثيراً اليوم لحالة رفيقي، كل يوم نؤمله بالخلاص ثم تمر الأيام تلو الأيام، وهو رهين السجن يتجاذبه اليأس والرجاء، ولولا حسن حظي واهتمام أصدقائي بأمرى لدى جمال باشا، لكنت إلى اليوم شريكه في هذا الشقاء... إذا عددت ذوي قرباك، فذكرت الأب والأم والأخ والأخت والزوجة والولد والإبنة، فاجعل صديقك واحداً منهم، ورب أخ [لك] لم تلده أمك.

عند المساء ذهبت إلى بطيركية القدس، فلقيت الأرشمندرت تيموثاوس وكلفته أن يأخذ لي من البطيريك مبلغاً من الدراهم لأنني أصبحت في ضيق عظيم، فطلب إلي أن أمر عليه غداً بعد الظهر. بلغ اليوم ثمن رطل الخبز خمسة وثلاثين غرشاً، وإذا استمر على هذه الزيادة كل يوم، مات الناس جوعاً فقيرهم وغنيهم...

السبت ١٦ آذار غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية جاء تلميذاي فعلمتهما إلى الظهر، وبعد الغداء ذهبت فعلمت تلميذاتي.
- خطرات أفكار -

(١) الرجل أدق نظراً والمرأة أسرع خاطراً.

(٢) الرجل قد يحلم إذا غضب، وأما المرأة فلا.

(٣) أكاد أعتقد أن المرأة من غير فصيلة الرجل.

(٤) مهما استبد الرجل بالمرأة، فلا يستطيع أن يسحقها، وأما إذا استبدت المرأة بالرجل فإنها تسحقه.

(٥) مهما تكتم الرجل أمام المرأة فلا بد أن تقف منه على الحقيقة، وأما المرأة إذا تكتمت فلا يستطيع

الرجل أن يعرف من أسرارها شيئاً. قد تبوح لك المرأة بكل سر إلا بسرّها.

.....

ثمن رطل الخبز اليوم أربعون غرشاً ومليكان... ولا يرتفع ثمن الخبز حتى ترتفع أثمان سائر الأشياء، يقال: إن عدداً ليس بقليل من الأولاد الجياع طافوا الأسواق يتخطفون الخبز من الأفران، الله يستر من الأعظم.....

استحوذ عليّ شيء من القلق لأول مرة في غربتي هذه، بسبب هذا الغلاء الفاحش، إلى الآن لم أجد إلا دروساً قليلة لا تكفي لأسبوع، وقد صرت أخجل من نفسي أن أرجع إلى البطريك وإلى رفيقي في السجن في طلب نقود، لا بد من تفتيش عن دروس أخرى، ولكن من يستطيع أن يعلم أولاده في مثل هذه الأوقات، سأصبر يومين أو ثلاثة فإذا لم تتحسن الأحوال فلا بدّ من السعي المتواصل في تدارك الأمر، ولا بد حينئذ من اتخاذ التدابير الآتية:

- (١) أن أقصد في المعيشة ما أمكن، ولو لزم الأمر أن أكتفي بوجبتين في النهار، وأن أترك التدخين بتاتا.
- (٢) أن أسعى بواسطة الشيخ عبد القادر أفندي المصغر، أن آخذ فيزا من ادارة الاعاشة.
- (٣) أن أفتش عن دروس أخرى ولو اضطررت أن أخفض رسم الدرّس . . وعلى الله الاتكال.

الأحد ١٧ آذار غ سنة ١٩١٨ م

قلقت ليلة أمس بدون أن أعرف لذلك سبباً، فاتتني أن أشير في يومية أمس إلى أمرين: الأول أنني لقيت مساءً وأنا منصرف إلى غرفتي أم ابراهيم بربارة صاحبة غرفتي القديمة، فطلبت إليّ أن أقرضها بعض النقود، وإذ لم يكن معي شيء طلبت إليّ أن آخذ لها من يوسف مّريّ اللحمي ثلاث أواق خبز، فلم يسعني إلا إجابة طلبها وإن كنت أحوج منها إلى المساعدة. الثاني أنني ذهبت لأحلق فأسرف في أذني الحلاق توفيق، وهو فتى من لبنان جاء إلى دمشق في طلب الرزق فاشتغل بالحلاقة بأجرة لا تزيد عن ثمانية غروش في اليوم، أن أدفع الراشن [= بقشيش] الذي كنت أعطيه للأجير له، ففعلت، وقد طلب مني ذلك في المرة الماضية فدفعت له أربعة متليكات.

استحمت جيداً ولم ألعب، ولعلي أترك اللعب بعد الآن لئلا استهلك دقائق جسمي وأطلب المزيد من الأكل.

اليوم الأحد فتذكرت آحادي الماضية في القدس، ما كان أبهج آحادي وأرغد عيشي وأنعم بالي، يوم كنت أنزل في صباح الأحد أنا وسلطانة وسري إلى البلد، لنزور بعض الأقارب، فنمر من بين الزيتون في محلة سعد وسعيد، ثم نمر من محلة المصراة إلى باب الخليل، حيث نمسح أحذيتنا، ثم نمر من السوق الجديد، فطريق دير الروم فنلتقي بالأصحاب والمعارف، ثم نزور ابنة عمي حنة أو ابنة عمي ليبة أو أختي هيلانة، ثم نرجع من باب العمود أو من باب الخليل إلى البيت فنتناول الغداء ثم نقيل في فراشنا، وبعد القيلولة نشرب الشاي وأدخن أركيلتي، ثم نخرج في عصر النهار، إما إلى الطبيعة أو لزيارة بعض الأصدقاء، آه ما أجمل تلك الأيام، لقد كنت فيها من أسعد الناس . . بل ما أجمل مساء يوم الأحد حين نجتمع في عشنا الجميل الأنيق، ولا نخلو

من زيارة أبي الفضل وأبي جميل وسائر الأصدقاء . . إذا عادت الأيام عدنا إن شاء الله .
نزلت قبل الظهر الى البلد ، فزرت رفيقي الخوaja ليفين في سجنه ، المأمول أن يطلق سراحه غداً أو بعد
غد إن شاء الله . استقرضت منه ليرة عثمانية ذهباً ، فيكون مجموع ما استقرضته منه منذ خرجت من
السجن إلى الآن خمس ليرات ، ثم رجعت فذهبت إلى بطريركية القدس ، فسألت عن الأرشمندريت
تيموثاوس فلم أجده ، بعد الغداء جئت إلى غرفتي ، فدعاني جبراني لأشرب أركيلتي عندهم .
لا حديث للناس إلا عن الخبز ، ولا شيء يقلق أفكارهم مثل غلاته ، بلغ ثمن رطل الخبز اليوم خمسة
وأربعين غرشاً .

لما كنت في الطريق رأيت الأولاد فرقاً يركضون بعضهم إثر بعض وهم يهزجون ، فسألت ما شأنهم فقيل لي :
إنهم ثائرون ، ولا يمرون بفرن أو مطعم إلا انتهوا ما تصل إليه أيديهم ، فوددت لو كنت ولداً في سنهم لأشترك
معهم ، فإن الجمود أمام هذا الغلاء الفاحش لدليل على موت الأمة .

قيل : إن الوالي جمع كبار التجار والأغنياء وذوي الوجاهة والمقامات العالية للبحث في تلافى الأمر ، ولكن
ماذا يستطيعون أن يعملوا ، إذا كانوا لا يتفقون على خطة إلا أساؤوا استعمالها ؟ .

بعد أن شربت أركيلتي أويت إلى فراشي فتمت طويلاً ، لأعوض عما فاتني ليلة أمس بسبب القلق . . بعد
النوم ذهبت إلى بيت الخوaja تادرس ، وبقيت هناك إلى المساء ، ثم جئت إلى غرفة أستاذي فتناولت
العشاء ، ثم جئت إلى غرفتي فسهرت عند جبراني إلى الساعة العاشرة .

الاثنين ١٨ آذار غ سنة ١٩١٨ م

لا أزال في نهاري أفزع إلى خيالي وفي ليلي إلى أحلامي ، بعد استكمال الفروض اليومية أرسلت أشتري
خبزاً لفظوري ، وسألت عن ثمن الخبز فقيل بلغ اليوم ثمن الرطل خمسين غرشاً ، جاء مسلم افندي وحده ،
فأخذنا الدرس ثم خرجت فتناولت الغداء ، وذهبت فعلمت تلميذاتي .

بعد الدرس عرجت على بطريركية القدس فدفع لي الأرشمندريت تيموثاوس عشرة ريبالات ، ثم نزلت إلى
البلد فزرت رفيقي الخوaja ليفين .

ذهبت اليوم بعد الظهر مع أستاذي نزور مطران الأقباط وتناولنا الشاي وقبل أن ننصرف من عنده قام
فأحضر كأس كياك ، وإذ كان أستاذي لا يشرب فلم أر بدأ أن أشربهما كليهما ، وخرجنا ، لله در اليازجي
إذ قال :

لا تحسب الخمر شراباً ذائباً بل هي روح فهي تحيي الشاربا

الثلاثاء ١٩ آذار غ سنة ١٩١٨م

زرت أحباتي ليلة أمس في منامي ، ولسوء حظي لم ألبث أن انتهت فجعلت أتعمل في فراشي وأتقلب استدعاءً للنوم لعلي أعود إلى حلمي فلم أوفق . جاءني توفيق الحلاق باكراً فحلق لي ، ودفعت له نصف مجيدي رسم الشهر وعشرة متليكات له ، ثم لعبت ألعابي واستحمت جيداً . وما كدت أخرج من الحمام حتى طرق الباب ، وإذا بأستاذي ونصيف أبو زيد داخلان ، قال أبو زيد : لي كلمة [أريد أن] أقولها لك ، فدخلنا صالون جيراننا وأغلقتنا الباب ، فقال : بلغني أمس أن صائب بك رئيس الديوان العرفي سيقدر منع محاكمتك ، ولكن ربما حكموا بإبعادك ، فجتك لأبلغك ذلك قياماً بحق الصداقة ، لعلك تتمكن من تلافي الأمر ، ونصح لي أن أزور صائب بك في بيته اليوم صباحاً . أي صداقة بيني وبينك يا نصيف أبو زيد؟! أهون علي أن أنفي ، وأن يحكم علي بالإعدام من أن أخدم أغراض أمثالك يا نصيف ، عرفت في هذه الحياة كثيرين من الأشرار ممن فطروا على الأذى والاضرار بالناس ، يخلقون المشاكل وينصبون الحبال ليصطادوا في الماء العكر ، ولكن مثلك لم أر ، ومعاذ الله أن أبالي بك وبأمثالك ، إذا عشت وقفت نفسي على محاربة أمثالك رحمة بالناس والأيام بيننا .

جاء أحد تلميذي مسلم أفندي ولم يجئ إبراهيم أفندي حلمي ، فاعتذرت له عن تأجيل الدرس إلى الغد ، لأمر يقتضي خروجي الآن .

نزلت إلى البلد فعرجت على محل الخواجات طرزي ، فإذا هناك موسى أفندي العلمي راجعاً من الأستانة ، فتبادلنا القبلات وسررت به كثيراً ، طمأنني أنه حال وصوله إلى الأستانة كتب إلى بعض المصريين في سويسرا ، أن يكلفوا خاله إبراهيم أفندي الأنصاري أن يزور أم سري ويطمئنها عني ، وأن الخواجا الفونس لونسو كتب أيضاً إلى الخواجا كلارك بهذا الخصوص . فهتمت منه أن قد انفض مجلس المبعوثان ، وأن عائلته ربما جاءت إلى دمشق ، ثم أخذت الخواجا جورج طرزي وذهبت إلى عبد الله أفندي النشواني وأفضينا إليه بما بلغنيه نصيف أبو زيد ، بدون أن أذكر اسمه ، وكلفناه أن يرى رئيس الديوان العرفي بخصوصي . فهتمت منه أن المجلس يؤجل تبرئة رفيقي الخواجا ليفين إلى أن يروا أميركياً آخر تشبه مسألته مسألة ليفين ، واسم هذا الأميركي أدولف . ولولا تحرشي بالناس لفضحت أمرهم ورددت كيدهم في نحرهم ، ولكن رأيت الأليق بي أن أسكت ، وهل هذا هو النقص الوحيد في معاملتنا لأتولى اصلاحه بنفسي؟ . ثم ذهبت من هناك وزرت الشيخ عبد القادر أفندي المصغر ، فلما دخلت بيته إذا هناك حسن أفندي حماد من نابلس ، وهو الذي حكم عليه بالإعدام مع من حكم عليهم في أول الأمر ، ففر من وجه الحكومة واختفى إلى اليوم ، فتبادلنا القبلات الحارة وأنا لا أصدق نفسي ، بل كدت أحسب أنني في حلم . وبعد قليل فهتمت أن حسن أفندي حماد اختفى

في دمشق ولم يبرح منها ، وأنه تزوج فيها ورزق غلاماً ، وأن الشيخ عبد القادر أفندي ، هو الذي سعى لدى جمال باشا الصغير بالعمو عنه ، فقامت اجلالاً لسعيه المبارك ، وكررت ثنائي على همته العالية ومروءته السامية ، ما أجمل العمو وما أجل الذين يسعون في سبيله . وكدت أنسى نفسي لولا أن الشيخ سألني عن شأني ، فأفضيت إليه بأمرني فطمأنني ، وقال : لن يصيبك بسوء ما دمت حياً ، وإذا بدرت منهم أقل بادرة أقمت الدنيا على رؤوسهم ، ثم كلفته أن يمضي وثيقتي من قبل مركز القومندان ، فأشار علي أن أتصور لأضع صورتني على وثيقتي وهو يجري اللازم فشكرته وخرجت وأنا لا أزال أحسب نفسي في حلم . إذا لم يكن للشيخ من الأيادي البيضاء إلا استصدار العمو عن حسن أفندي حماد والشيخ سعيد مفتي طول كرم ومحمد أفندي الشريقي ، ثم مساعدته لي ، وإن لم يكن أمري أشبه بأمورهم ، لكفاه فضلاً لا ينتهي فخره ولا ينقطع ذكره ، أما أنا فساكون لساناً ناطقاً بفضل ما دمت حياً وسيدكر فضله في بيتي إلى الأبد .

بعد الظهر التقيت بالأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر ، وحسن أفندي حماد وغيرهما راجعين من عند جمال باشا ، وقد فهمت من حسن أفندي أن جمال باشا بالغ في تطيب خاطره وهناه على السلامة ، وقال : إن الحكم عليك لم يكن إلا اجتهاداً من سلفي ، وأما أنا فلي رأي آخر حسب اجتهادي ، ولا تجزع فقد حكم قبلك على الحسين ابن بنت النبي وكثيرين من آل البيت حسب اجتهاد أولي الأمر في ذلك الزمان ، وستكون الآن ضيفي إلى بضعة أيام ، ريثما تنتهي معاملتك ثم تمضي بسلام إلى بيتك

بمثل جمال باشا الصغير في اسمه الكبير ، في مروءته وشخصيته تبنى الممالك وتحيا الأمم وتمتلك القلوب ، ستسطر لك هذه المأثرة يا جمال باشا بالذهب ، ولا يذكر اسمك في الأعقاب إلا بالشكر والثناء والتعظيم والإجلال ، أكثر الله من أمثالك ووفقك في كل أعمالك . ثم ذهبنا إلى قهوة الزهرة ننظر الأستاذ ريثما يرجع من قضاء مهمة عرضت له . ولم نلبث حتى رجع فقمنا اجلالاً له ، بك تفخر القدس يا أستاذ ، بل تيه عجباً واختيالاً فقد يسرك الله في هذه الأوقات الحرجة لأعمال عظيمة ، لم يستطع أحد أن يقوم بها قبلك . يقول الأستاذ : إن هذه أول مرة دخل قهوة في دمشق ، ثم قمنا وذهبنا ، قال لنا في الطريق : إنه ساع في ارجاع بعض المبعدين من قونية ، وأنه سيسعى في ارجاع الباقيين ، فذكرناه بعيسى العيسى وخليل تادرس ، وقبل أن نفرق أخذت يده لأقبلها اعترافاً بفضل عليّ وعليّ غيري ، فسحبها من يدي وهو يستغفر الله . رجعت مع الخواجا تادرس وقلبي يخفق سروراً ، عرض عليّ الأستاذ أن أسكن عنده لأنه هيا لي غرفة في منزله فشكرته شكراً جزيلاً .

تعشيت عند الخواجا تادرس ، وسهرنا مع أستاذي إلى نحو الساعة العاشرة ، وكان هناك الخواجا

وتسي . . .

الأربعاء ٢٠ آذار غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية، كتبت رسالة أخرى إلى سلفي الدكتور جرجي دعدس، وحملتها ونزلت إلى البلد فخرجت على منزل الأستاذ فلم أجده، ثم تجولت هنا وهناك إلى الظهر، ورجعت إلى منزل الأستاذ فلم أجده أيضاً، فعزمت أن أسعى لألقاه بعد الظهر.

بعد الغداء رجعت إلى غرفتي وعبأت أركلتي وكتبت يومية أمس ثم نمت إلى الساعة الخامسة، لما نزلت التقيت اتفاقاً بالأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر، ومحمد أفندي كرد علي، قال لي محمد أفندي: إنه لا يزال يسعى في تدبير غرفة للدرس، أما التلاميذ فحاضرون، فقلت له: إذا وجدت الغرفة فأنا حاضر وخير البرّ عاجله.

آه ما أشوقني إلى حياة المدرسة، ولست آسف كأسفني على تعطيل الكلية الصلاحية في القدس، فقد كانت أرقى مدرسة في بلادنا، وقد كنت أجد في دروسي فيها لذة عظيمة لو طال بها العهد لتسنى لي أن أضع عدة كتب صغيرة، لم يسبقني إليها أحد، في القراءة العربية ودروس الأشياء والحساب والجغرافيا واللغة الانكليزية وفلسفة اللغة العربية وأحكامها.

ولكن هكذا شاءت الأقدار ونكد الطالع فلا حول ولا .. ونحن نمشي في شارع جمال باشا، التقيت بصديقي الحميم نور الدين بك الذي كان ياور زكي قومندان المركز في القدس في أول الحرب، فتبادلنا القبلات وتواعدنا أن نجتمع غداً بعد الظهر.

وعدني الأستاذ أن يسعى في فكك رفيقي الخواجا ليفين من السجن في القريب العاجل، وكرر عليّ أن أتصور لأضع صورتي على وثيقتي.

ذهبت مع أستاذي إلى بيت الخواجا شكري فران نزوره فلم يكن هناك، وبعد أن جلسنا قليلاً رجعنا فناولنا العشاء، ثم جئت إلى غرفتي وسهرت في بيت جيراننا إلى نحو الساعة العاشرة.....

كما أنه من علامات الانحطاط في الأمم ودخولها في دور الهرم، أنه تنتظر من حكوماتها أن تعمل لها كل شيء، فإذا تفشت الأمراض والأوبئة وقفت الأمة مكتوفة اليدين تنتظر من الحكومة أن تتخذ التدابير اللازمة لوقايتها من المرض، وإذا احتاجت إلى مدارس طلبت من الحكومة أن تنشئ لها المدارس، وإذا جاءت طلبت من الحكومة أن تهيء لها موائد الطعام إلى غير ذلك.

كذلك إذا انحطت الأمم في أفكارها الدينية، فإنها تسترسل في الاعتماد على الله، وتنتظر أن يتم لها كل شيء بواسطة أعجوبة من السماء، فهي تنتظر من الله أن يشفي المرضى وينمي المزروعات ويدبر الأرزاق ويفرج كل هم، بدون أن تعمل شيئاً، فإذا اتفق أن نالت أمنيته، قالت: هذا من فضل الله، وإذا لم تنلها

قالت: كل شيء بقضاء وقدر.

أهون على الأمم في دور انحطاطها أن تحج وتصوم، وتكرر صلوات لا معنى لها، وتضيء الشموع وتقدم القرابين وتنذر النذور وتبرك بالأضرحة وأذيال رجال الدين، من أن تمسك بروح الدين وتعيش بموجب تعاليمه العالية.

أهون على الإنسان في دور انحطاطه أن يقرأ الانجيل من أوله إلى آخره أو يسرد آيات القرآن والزيور والتوراة، من أن يمسك نفسه عن الكذب أو الإضرار بالناس أو يملك نفسه عند أقل التجارب، فكما أن الحكومات تعود الأمم في دور انحطاطها الاعتماد عليها، كذلك الأديان تعود الأمم إذا تفشى فيها الجهل أن تعتمد على الله. فالحكومات والأديان تبطل الهمم وتثبط العزائم وتشل الأعصاب وتخدر الحواس وتعود الإنسان عدم الاعتماد على نفسه. سأبسط هذا الموضوع في فرصة أخرى بما يترجم عن الفكر بيان وترتيب، لأنني لا أقصد مما أكتبه في يوميّتي هذه سوى التعليق ولذلك لا أتوخى البسط، وبسبب التسرع في الكتابة قد يجيء الفكر قلقلًا مشوشًا مقتضبًا، فأعلقه كما يجيء إلى أن أرجع إلى بيتي فأعيد النظر فيه، فأهذب حواشيه وأفرغه من البيان في قالب يرضيني إن شاء الله.

الخميس ٢١ آذار غ سنة ١٩١٨م

في هذا اليوم ينتهي شهري الأول في غرفتي ويدخل الشهر الثاني، ولا يسعني إلا أن أقول: إنني كنت مغتبطًا مسرورًا، فقد لقيت من أصحاب المنزل كل لطف وعناية كأنني واحد منهم، وتسنّى لي أن أتوفر على العايي وحماماتي كأنني في بيتي، ولو تفتنت أن أزن نفسي في أول الشهر، فلو وزنتها الآن لوجدت أن قد زاد مع الأيام وزني وامتلاً جسمي، بدليل ما أحسّ به من نفسي وما يراه غيري من التحسن المستمر والتجدد اليومي في قوتي ونشاطي، ولولا ما أخشاه من الشيب المدهام لكنت ضمنت شبابي إلى الأبد، بفضل الأسلوب الذي اتبعته منذ نشأتي إلى الآن، ولكن الشيب في النفس والهمة لا في الفودين واللمة. وما أجدرني أن أقول مع المتنبي:

ولو أن ما في الوجه منه حراب
وناب إذا لم يبق في الفم ناب
فأبلغ أقصى العمر وهي كعاب

وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه
لها ظفران كل ظفر أعدّه
يغير مني الدهر ما شاء غيرها

.....

حلمت ليلة أمس أنني كنت في القدس، وأنني لقيت حسين أفندي سليم فارتيمت على عنقه وقبله، وأنا أعجب كيف أشاع الناس أنه مات، ومن غرائب الاتفاق أنني لما قصصت حلمي على أستاذي، قال لي: إنه حلم في ذات الليلة، إنه كان في جنازة مشى فيها مفتي القدس وكبار الأسرة الحسينية فيها، فعسى أن تفسر الأحلام بعكسها، فإذا رجعنا لا نرى أو نسمع مكروها في هذه الأسرة الكريمة إن شاء الله

بعد استكمال الفروض اليومية جاءني الدكتور حسين أفندي الخالدي، فقال: إنهم قرروا إرساله إلى أدنه، وأنه ربما سافر يوم الاثنين، فعزمت أن أكلف الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر أن يسعى له في البقاء هنا. وبعد أن جلسنا قليلاً ولم يجئ تلميذاي قمنا فنزلنا إلى البلد من طريق جديدة لم نسر فيها قبل اليوم، فخصفت نعلي، ثم رجعت فتناولت الغداء في غرفة أستاذي وقد جاء معي توفيق جوهريّة وقد مرّ عليّ شهر لم أره لأنه كان مريضاً، قال لي: إن شحادة ملوك أخذ وثيقة من جمال باشا ليصور له الخط الحديدي من عمان إلى درعا ففر إلى القدس، فإذا صح ذلك فيكون قد أبلغ أحبائي أخباري . . ثم ذهبت فعلمت تلميذاتي، مع ما أراه من تأقهن في اللبس وتفننهن فيه، إلى ما يفوت حد المألوف، فإن إحداهن جلست أمامي بثوب قصير مكشوفة السواعد وأعلى الصدر كأنها دمية، فإني أراهن بسيطات القلب ساذجات الفطرة لم يبد لي منهن ما أنكره

بعد الدرس نزلت إلى البلد، فلقيت نور الدين بك، فجعلنا نروح ونجيء في شارع جمال باشا، فمر بنا الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر، فقال لي: قد وجد لك محمد أفندي كرد علي محلاً لنباشر التعليم، وسيكون لك فيه غرفة للسكنى، ثم كتب اسم رفيقي الخواججا ليفين، وقال: إنه ساع في فكاكه

اتفقت مع نور الدين بك أن أنزل مساء بعد الساعة الثامنة ليعرفني ببعض أصدقائه، ودلني على المحل الذي سنجتمع فيه .

زرت رفيقي الخواججا ليفين وطمأنته، وأخذت منه ليرتين عثمانيتين ذهباً، فيكون مجموع ما أخذت منه إلى الآن سبع ليرات، بعد العشاء نزلت إلى البلد إلى المحل الذي عينه لي صديقي نور الدين بك، وهو بيت الدكتور قدري بك في حارة القنوات، ووجدت هناك صديقي نور الدين بك ودكتورين آخرين، فسهرنا إلى نحو الساعة العاشرة والنصف .

الجمعة ٢٢ آذار غ سنة ١٩١٨م

اتفقت أمس مساء مع نور الدين بك أن أزوره اليوم قبل الظهر في منزله في الصالحية، ورسم لي الطريق، فبعد استكمال الفروض اليومية خرجت فركبت الترام إلى الجسر الأبيض، ثم جعلت أسير مسترشداً

بالرسم، وبعد الاستقصاء في البحث والسؤال لم أهدت إلى منزله فرجعت خائباً آسفاً .
بلغني اليوم أن قومندان المركز الجديد أشرف بك أمر أن يمنع السجناء من مخالطة الناس ولو من وراء
الباب، وان لا يأخذوا من الخارج طعاماً بل يعيشوا على التعيين الذي تقدمه لهم الحكومة، وقد ذهب اليوم
غلام رفيقي الخواجا ليفين يحمل له طعامه وحليبه فلم يستطع أن يراه أو يدخل إليه فطوره ولا غداءه،
فاستعظمت الأمر. إذا أصر أشرف بك على أمره مات السجناء جوعاً . . حشت جماعته على السعي في
الحصول على أمر بادخال الطعام إليه، فعسى أن يوفقوا .

بعد الظهر علمت تلميذاتي، إلى الآن لم تقرر رسم الدرس . سأطلب ستين فرنكاً عن الشهر .
ذهبت بعد العصر مع أستاذي خارج باب توما على أمل أن نجلس في قهوة هناك، ولكن إذ كان الوقت قد
قارب المساء رجعنا من حيث كنا، فذهبنا إلى بيت الخواجا شكري فران، فشربت هناك كأس نبيذ، ثم
ذهبت إلى بيت الخواجا تادرس فمكثت قليلاً ثم جئت إلى غرفتي . أحبابي أحبابي: إن يوماً أصرفه في
البعد عنكم لا أحسبه من عمري . . أي فرق بيننا وبين آباءنا وبين عصرنا وعصرهم، إذا كنا لا ندخل فكراً
جديداً في حياتنا اليومية، إذا كنا لا نزال نعيش كما يعيشون ونعتقد ما يعتقدون، وننظر إلى الحياة كما
ينظرون . ما الفائدة من وجودنا في هذا العصر الذي ترقى فيه العلوم، واتسعت المعلومات وانطلقت الأفكار
من قيودها إذا كنا لا نزال سطحيين، لم تتغير إلا بحسب الظاهر، ترى الرجل بثوبه الأوروبي فتبليه فيخلف
ظنك، أدخل بيته فلا تجد فرقاً بينه وبين جده، وبين امرأته وبين جدتها وبين أولاده وبينه يوم كان طفلاً،
اجلس إليه فتراه أعمى أصم أبكم مفلوج الدماغ أشل الأعصاب مخدر الحواس لا يفهم ولا يفهم:

من عصابة لما توسطتهم ضاقت عليّ الأرض كالخاتم
كأنهم من سوء إفهامهم لم يخرجوا بعد إلى العالم

السبت ٢٣ آذار غ سنة ١٩١٨م

استحمت باكراً وجلست وراء طاولتي أنتظر الخواجا تادرس، لأننا اتفقنا ليلة أمس، أن نذهب اليوم
صباحاً نزور الشيخ عبد القادر أفندي المصغر في منزله، وبعد قليل جاء فذهبنا، وما كاد يستقر بنا الجلوس
حتى جعل الناس يفدون، من جملتهم مطران الأقباط . . كأن بيته بيت وزارة يقصده ذوو الحاجات والأشغال
يلتمسون مساعدته وتوسطه، فعسى أن لا يضعض الزمان أركان هذه الوزارة، بل اسأل الله أن يثبت أركانها
إلى أن تنقضي أيام هذه الحرب . رجونا أن يسعى في ارجاع خليل تادرس وعيسى العيسى من منفاهما فوعد
أن يبذل جهده في القريب العاجل

بعد الغداء علّمت تلميذاتي، ثم جئت إلى غرفتي وقد جدّ بي الوجد، وهاجت الأشواق إلى احبائي .
مرّ عليّ مئة وخمسة أيام منذ تركت القدس، فمتى يكون اللقاء؟ . . ثم ذهبت إلى أستاذي فخرجنا نمشي
وصدري ضيق وروحي قد بلغت التراقي .

في المساء أخذت رسالة من أحمد الخالدي من بيروت، يطلب فيها مني أن أرسل إليه عشر ليرات في
القريب العاجل، لأنه في ضيق عظيم، فعزمت أن أسعى في تدبير هذه القيمة من الغد، وجاءتني رسالة من
توفيق جوهرية يطلب فيها مني أن آخذ له من رجال بطيركية القدس شيئاً من الدراهم، لأنه في احتياج
عظيم. ماذا يفعل الغريب إذا احتاج وانقطعت بينه وبين ذويه الأسباب؟ اللهم عجل بالفرج . .

الأحد ٢٤ آذار غ سنة ١٩١٨م

أحسست أمس وأول من أمس بألم في جانب صفاقي الأيمن ولم أدر له سبباً غير انقطاعي عن اللعب في
هذين اليومين، بسبب اضطراري إلى الاستحمام باكراً، فقامت اليوم ولعبت كل ألعابي واستحمت جيداً،
فشعرت بنشاط ولم يلبث أن زال الألم .

كان غداؤنا اليوم نباتاً يقال له قريص، يطبخونه في دمشق، وهذه أول مرة أكلت فيها هذا النبات، ومن جملة
مأكولات الدمشقيين الغربية الضفادع، ولكن لا مشاحة في الذوق . . ماذا يعمل احبائي اليوم، هل خرجوا في
هذا الصباح للزيارة أو لزموا البيت فزارهم بعض الأصدقاء، هل ذكرني سري فقال أين البابا متى يجيء البابا؟
فطمأنته سلطانة بأني سأجيء قريباً، وأحمل له هدايا جميلة من دمشق، أم اغرورقت عينها فاشاحت
بوجهها عنه؟ .

لا تبكي يا سلطانة، فإني لا أحب أن يرى سري أحداً منا يبكي، وإن كنت آسف أني لم أركم يوم خرجت
من القدس، فإني أشكر الله أني خرجت بدون أن أراكم، لأنني لا شك كنت استصعب موقف الوداع، كما
لا شك أنكم كنتم تستصعبونه. لو وقفنا ذلك الموقف فأني تأثير يكون له على سري؟ رحماك لا تجعلوا
سرياً يتصورني في حالتي المحزنة . .

بعد الغداء رجعت إلى غرفتي فنمت، وبعد النوم ذهبت مع أستاذي والخواجا تادرس والخواجا وتسي
نور الأرشمندرت أبراموس. أبلغنا أن قد صدر عفو عن المبعدين فرجع بعض المبعدين من أهل الكرك الذين
كانوا في أدنه وبقي فريق منهم هناك، إلى أن تدفع لهم الحكومة نفقة الطريق، فاستبشرنا خيراً وأصبحنا ننتظر
رجوع عيسى العيسى وخليل تادرس من أنقرة على أحرّ من الجمر . . ثم ذهبنا من هناك فخرجنا على بيت
الخواجا شكري فران، ولم يذهب الخواجا وتسي معنا فأحضرت مائدة الشراب، فما شربنا الكأس الأولى

والثانية حتى أخذتنا نشوة الشراب . لولا ما اعتقده من مضارّ الشرب لكنت من أكبر السكيرين . ثم ذهبت من هناك مع الخواجا تادرس إلى بيته وتناولت عنده العشاء ، وكان هناك بيت فيعاني ثم نزل جيرانهم وسهرنا الى الساعة الثانية عشرة .

الاثنين ٢٥ آذار غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية نزلت إلى البلد ، فلقيت الدكتور حسين أفندي الخالدي ، فأخبرته برسالة أخيه أحمد ، فقال : سعت قبلك في تدبير قيمة ارسلها إليه فلم أوفق ، فلا بد له من أن ينتظر قليلاً ريثما استوفي معاشاتي المتأخرة . سألته من قصدت من الأصدقاء ، فقال : قصدت صبحي عويضة وأخاه ، فقلت : سأقصد غيرهما ، ولا يجوز أن تترك السيد أحمد يشكو الحاجة ، ولو اضطررت أن أجمع القيمة من كثيرين ثم ذهبنا نزور الشيخ عبد القادر أفندي المصغر فوجدناه على أهبة الخروج فمشينا معا . أخذنا إلى زاوية الشاذلية ، فإذا فيها منزل أحد تلاميذي في الكلية الصلاحية محمود أبو الشامات . وهي دار قوراء في وسطها حديقة جميلة جداً ، فأخذنا كراسي وجلسنا أمام تلك الحديقة ، وقلت لهم : إذا كانت هذه زاوية الشاذلية ، فإني معتق الشاذلية من اليوم .

سألت تلميذي ، هل عنده شيء من دفاتر المدرسة فقام واحضر دفتر الصرف ، فأمررت نظري عليه وأسفت كثيراً على تعطيل تلك المدرسة الراقية ، وحننت إلى أيامي فيها ، يوم كنت أبذل أقصى ما في وسعي في احضار دروسي المتنوعة ، ولا آلو جهداً في توسيع مدارك التلاميذ وإكسابهم ملكة اللغة وبث الحياة في نفوسهم ، ولما قمنا دعاني الشيخ عبد القادر أفندي أن أوافيه بعد الظهر نحو الساعة الثالثة والنصف ، ليأخذني إلى محل آخر جميل ، ثم تناول العشاء معا فوعده بالاحضور . ثم ذهبت علمت تلميذاتي .

نزلت الساعة الثالثة إلى بيت الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي فلم أجده ، فأسفت على ضياع هذه الفرصة . رجعت فأخذت أستاذي وذهبنا زرنا مطران الأقباط . وقبل الانصراف أحضر لنا كأس كونيكا فشربتهما ، وقلت لهم : أرجو أن تدخلوا كأس كونيكا في الاستاتيكو ، فلا أزوركم إلا شربتهما فضحكوا . يظهر من أخبار هذين اليومين أن الحرب في الساحة الغربية بلغت أقصى الشدة ، فعسى أن تكون هذه المعارك آخر العهد بها . .

نظرت مع أستاذي في القيمة التي نحتاج إليها في الشهر ، فرأينا أننا نحتاج الى ستين ريالاً على الأقل ، منها عشرون ريالاً تدخله [= يكسبها] من الدروس التي يعطيها لبعض التلاميذ الذين دبرهم له بطريك دمشق ، والبقية يجب أن أدبرها أنا ، وعلى الله الاتكال .

الثلاثاء ٢٦ آذار غ سنة ١٩١٨م

قلقت ليلة أمس ، لغير سبب ولا علة ، وفي الصباح لعبت كل العابي واستحمت جيداً بالصابون من رأسي إلى قدمي . زال الألم الذي كنت أحس به في صفاقي وأحسست بنشاط عظيم .

ذهبت الساعة الحادية عشرة قبل الظهر إلى بيت الخواجا جورج طرزي ، وأعطيت ولده الفرد أول درس في اللغة العربية . . ثم ذهبت بعد الظهر وعلمت تلميذاتي ، سألتني عن الرسم فطلبت منهن خمسين فرنكاً في الشهر فاستكرنه ، وبعد أن استشرن أمهن ، جاءت فقالت : إن خمسين فرنكاً شيء كثير ولكننا ندفع لك ليرة انكليزية ، فقلت لهن : سأفكر وأرد لكن الجواب .

لا أدخل في بحث مع أستاذي إلا ارتاح إلى رأبي ، وإن كنت أخالف فيه رأيه بعض الأحيان ، فأمسك عن الجدال معه فيه تأدباً ومجاملة . ونحن على الغداء ذكرنا من نعرف من الأدباء والأساتذة والكتاب والشعراء في سوريا وفلسطين ، فلم يسعه إلا أن قال : لو ضمنا مجلس أنا أو أنت مع هؤلاء الأدباء ، لما وسعهم إلا أن يعترفوا أننا أقدر منهم وأصح رأياً وأبعد نظراً ، فعددت منه ذلك ثناءً علي .

بعد الظهر نمت قليلاً ثم خرجت ، فلقيت أستاذي قرب المساء فخرجنا على بيت الخواجا شكري فران فشربت قليلاً من العرق .

لقت اليوم تلميذي الخواجا هوفمن من نزالة الألمان في القدس ، فقال لي : إن صديقاً له في قنصلتو ألمانيا يحب أن يقرأ معي كتاباً في اللغة العربية ، فوعده أن أمر عليه غداً للبحث في ذلك .

في المساء ذهبت إلى بيت الخواجا تادرس ، ثم صعدت إلى بيت جيرانهم ، وكان هناك الخواجا شكري فيعاني وأخته والخواجا بديع السنونو والأنسة هري ابنة الخواجا تادرس ، والخواجا قدسي وشابان من عائلة قيومجي فسهرنا إلى الساعة الثانية عشرة . . ولا يسعني إلا أن أشير هنا إلى بعض تأثيراتي وملاحظاتني :

(١) ابتدأوا السهرة بالأغاز فجعل كل واحد منهم يقترح على الحضور لغزاً ليحلوه ولم تخل الأغازهم من ألفاظ بذية ، وقد عجبت كيف يجوز أن يتلفظ بمثل تلك الألفاظ في مجلس فيه النساء والبنات . وقد خطر لي أن أنصح لصديقي الأبر الخواجا تادرس أن يمنع ابنته من حضور تلك الجلسات وحدها ، قياماً بحق الصداقة . . بل عزمت أن ألزم العزلة إجلالاً لنفسني عن مثل هذه الاجتماعات ، إلا أنني أحب أن أحضر اجتماعاً أو اجتماعين من اجتماعاتهم ليتسنى لي الوقوف على أخلاقهم وآدابهم ، فإذا قلت كلمتي فيهم قلتها عن اختبار .

(٢) رأيت من إقبالهم علي ومقابلتهم كل حركاتي وكلماتي بالاغراب في الضحك والامعان في الاستحسان ، أن الحياة الاجتماعية غير مألوفة عندهم ، فإذا اتفق أن وجد في اجتماعاتهم من ألف هذه الاجتماعات ،

وعرف كيف يورد ويصدر ، ملك قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم يتصرف بها كيف شاء ، فمثلهم في المدينة مثل البدوي الداخل الى مدينة لأول مرة .

(٣) رأيت من الفتيات اهتماماً عظيماً باسترعاء انتباه الفتيان إليهن ، فلا يزلن في الاجتماعات يمازحن الفتيان ويتحرشن بهم بأيديهن ، ولو خرجن عن حدود اللياقة ، وهن لا يبرزن أمامهم إلا مكشوفات السواعد وأعلى الصدور ، مصبوغات الوجوه بثياب قصيرة لا تتجاوز الركب ، وجوارب شفافة تكاد تكون معها سيقانهم عارية ، وإذا جلسن وضعن رجلاً على رجل يظهرن سيقانهم . وقد بلغ الأمر من بعضهن مرة أنهن كشفن عن سيقانهم أمامي ، وجعلن يسألنني ساق من أجمل ، وقد بالغت إحداهن في الكشف عن ساقها حتى بدت ركبتهما ، بل ما فوق ركبتهما فقلت لها : تستطيعين أن تسألني أمك عن ذلك .

(٤) من جملة الألعاب التي يتعاطونها في الاجتماعات ، أن يخرج أحد الحضور من غرفة الاجتماع فيعين البقية بينهم شيئاً من الأشياء ثم يدخلونها فيطوف عليهم واحداً واحداً ويسأل كلاً منهم ثلاثة أسئلة ، كيف عروسي؟ وماذا أعمل بها وأين أضعها ، فيجعل كل واحد يجيبه بما يمثل ذلك الشيء ، ليستطيع أن يعرف ذلك الشيء الذي اتفقوا عليه فإن أصاب خرج غيره ، وإلا أخرجوه مرة ثانية ، فلما جاء الدور اليّ سألت إحدى الفتيات : كيف عروسي؟ فقالت : وجهها أحمر ، فرأيت أن الفرصة سانحة لأن أذعهم بالكلام ، فقلت لها : هل الاحمرار طبيعي أو اصطناعي ، تعريضاً بتهافت النساء عندهم على صبغ وجوههن . ثم سألت أخرى ، ماذا أعمل بها؟ فلم تخجل أن أجابني أنك تنام معها ، فكذت أن أتجاهل وأقول لها

[هنا صفحة مفقودة (أو أكثر) تضم باقي يومية ٢٦ آذار ١٩١٨ ، ويوميتا ٢٧ و ٢٨ آذار ، وقبل يومية ٢٩ آذار

تظهر وصية من السكاكيني ، احترازاً في حالة ضياع دفاتره ، يرجو ممن وجدها أن يوصلها لابنه سري . لاحظ

[الصفحة التالية]

خديج السكاكيني
من القدس

الرجاء من يقع في يده هذا الدفتر ان يتفضل بإرساله الى ولدي الوحيد

سوري السكاكيني
في القدس

ولابد ان يقابل احسانه هذا بالشكر الجزيل والجزاء الجليل

من يصنع الخبز لا يعدم حوازيه

ويذهب الفوف بيده الله والناس

وشعده في بيت السيدة ام الياس
شماحي في مأونة اشتم ثلثة
اسماكه محمد الخراب

نومرو ٥٧
٢٢٩ تاريخ ١٩١٨ م

الدفتر الثاني

سن ١٩١٨ تاريخ ١٢ م

السكاكيني يوصي بدفاتر يومياته . دمشق ١٩١٨

من يوم الجمعة ٢٩ آذار غ سنة ١٩١٨م إلى الاثنين أول نيسان غ ١٩١٨م
يوم الجمعة، فهم رستم بك من أحمد جودت بك، رئيس الهيئة التحقيقية في الديوان العرفي أن الديوان
العرفي قرر منع محاكمتي، ولكن رئاسة أخذ العسكر قررت إبعادي إلى أنقرة، فما كان منه إلا أن قابل
الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر فأبلغه ذلك، فوعد أن يبادر من فوره لتلافي الأمر.
يوم السبت، نزلت صباحاً فذهبت مع رستم بك إلى بيت الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر، ثم
خرجنا معاً فدخل الأستاذ دائرة رئاسة أخذ العسكر، وقابل حسني باشا بخصوصي، فوعد أن يسترجع
أوراق ابعادي التي تحولت الى الولاية ومنها الى دائرة البوليس، ثم ذهب بعد الظهر إلى دائرة الأوردو^(٥٢)
[كذا] وأخذ رسالة وصاة من خليل رفعت بك، إلى جميل بك مشاور العدل، فذهب هذا بنفسه إلى دائرة
البوليس واسترجع الأوراق.

ذهبت قبيل المغرب مع رستم بك إلى بيت الدكتور أحمد قدري بك، وهو من خيرة شبان دمشق، دمث
الأخلاق رحب الصدر عالي الهمة وافر المروءة مستكمل شرائط التهذيب، أعزب يعيش في دار واسعة وحده،
كانه من لوردات انكلترا، فأقبل علينا بأنسه وهشاشته، ثم هياً مائدة الشراب فشربنا قليلاً، وخضنا في مواضيع
مختلفة منها مسألة الزواج.. قلت: إن الناس يسيئون استعمال الزواج، ويضعون من قدره حتى الملوك، فقد
يكون زواجهم لأغراض سياسية، أكثر الناس يقصدون من الزواج اختيار امرأة جميلة أو غنية، والأمم الحربية
تقصد من الزواج كثرة النسل وتأييد فكرة عسكرية، إذا لم يكن بين الرجل وامرأته زواج روحي فليس زواجهما
زواجاً، أي لو عرضت على الرجل كل النساء فلا يختار غير امرأته، ولو عرض على المرأة كل الرجال فلا
تختار غير زوجها. الرجل يجب أن يكون للمرأة أكثر من زوجها، والمرأة يجب أن تكون للرجل أكثر من امرأته.
لذتهما الوحيدة أن يعيشا معاً في عش جميل أنيق، كأنهما شطران يكمل الواحد الآخر، لا رابطة بينهما إلا
الرابطة الروحية، ولا غرض لهما من الزواج إلا اشباع روجيهما، إلى غير ذلك مما لا يتسع له المقام.

وبعد أن اكفينا من الشراب دعانا لتناول العشاء، وبعد العشاء جاء ابراهيم أفندي حلمي، ولما وقف على
مسألتي، وعد أن يذهب غداً الى جميل بك مشاور العدل بخصوصي.

الأحد: نزلت صباحاً فذهبت مع ابراهيم أفندي حلمي وقابلنا جميل بك مشاور العدل في دائرته، وقبل
أن يعرفه بي، قال جميل بك: جاءني بالأمس الشيخ عبد القادر أفندي المصغر بخصوص رجل من القدس

(٥٢) الأوردو كلمة تركية تعني الجيش

اسمه خليل السكاكيني، قررت رئاسة أخذ العسكر إبعاده الى أنقرة، فاسترجعنا الأوراق وأبطلنا القرار ثم عرفه بي فشكرته كثيراً .

لا يسعني إلا أن أقول: إني لا أزال محظوظاً موقفاً بهمة الأصدقاء، لا حرمني الله منهم .
بعد الظهر جاء رستم بك و ابراهيم أفندي حلمي، فأخذاني إلى بيت الخواجا عبده كحيل أحد أفراد الطائفة البروتستانتية نعايده، وكان هناك وكلاء المدارس الأرثوذكسية، فجعلنا نتكلم عن أساليب التعليم، فأفضت في بيان آرائي مما لا أرى حاجة لذكره هنا، فقد وصفت ذلك في رسالة سأمثلها للطبع بعد الرجوع الى البلاد . ثم زرنا الخواجا تادرس .

كلفتم ابراهيم أفندي حلمي بمساعدة رفيقي الخواجا ليفين لدى جميل بك، إذا قرروا إبعاده من دمشق . أرجو أن تكون هذه خاتمة المشاكل التي عرضت لي في هذه الحياة، ولا يسعني إلا أن أشكر حوادث هذا الزمان، فقد أكسبتي دروساً ثمينة ليس هذا محل بسطها، وزادني إيماناً بالصدقة، وأثبتت بألف دليل أن الحق يعلو ولا يُعلى عليه، وأن الإنسان إذا كان مخلصاً طيب القلب سليم النية قويم المسلك، فلا خوف عليه ولا هو يحزن . . .

الاثنين في أول نيسان: حلمت ليلة أمس أني كنت في باب كيسة القيامة في القدس، فجاءني تلميذي الخواجا هوفمن أحد أبناء المستعمرة الألمانية في القدس يحمل إلي رسالة من سلطاتي في علبه من تنك، فما كدت أفضها وأتبع الخط وأقرأ بضعة أسطر منها حتى انتهت .

أرسلت مكاروف ابن صاحبة الدار ليشتري لي خبزاً وحلاوة للفطور، وبينما كان راجعاً تعرض له جندي فخطف قطعة الحلاوة منه ووضعها في فمه . الله يسر من الأعظم .

بعد الظهر جاءني الدكتور حسين الخالدي، وقال: إنه سيسافر غداً الى طول كرم، وفهمت منه أنه ليس معه غير متلكين، فقممت ونزلت معه إلى البلد وأخذت من الخواجا طرزي من أصل حساب الدرس مجيدين ونصفاً وأعطيتهما له، ثم جرت أن أجد غير الطرزي لأستدين له قيمة أخرى فلم أوفق . في المساء زرت الخواجا سليم بركات وعائده ثم زرت الخواجا تادرس .

الثلاثاء ٢ نيسان غ سنة ١٩١٨م

قلقت ليلة أمس، ولم أزل أتململ وأتقلب في فراشي كأني محموم إلى الصباح، ثم قمت ولعبت كل العابي، واستحممت جيداً وأفطرت، وجلست أدخن بأركيلتي فزارني الدكتور حسين الخالدي وشكري أفندي الحسيني الغزي، ثم قمنا فودعت حسين الخالدي ودعوت له بالسلامة والتوفيق . كان أمس موعد محاكمة

رفيقي الخواجا ليفين فحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر، وقد مرّ عليه في السجن حتى اليوم أربعة أشهر، فيكون قد حبس شهراً زيادة عن مدة الحكم، فكيف يعوض عليه هذا الشهر؟
ذهبت علمت الفرد طرزي وأعطيته أول درس في اللغة الانكليزية، ذهبت بعد الظهر لأعلم تلميذاتي فاعتذرن، رجعت إلى غرفتي فنمت ثم نزلت إلى البلد، اتفقت مع الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر، أن نبدأ بدرس اللغة الانكليزية من الغد.

طلبت من الخواجا ليفين بعض الدراهم فاعتذر، وأمهلني إلى ما بعد خروجه من السجن.
سهرنا في بيت الخواجا تادرس، وكانت ابنته دورث مريضة بنزلة صدرية، فقلقوا عليها كثيراً.

الأربعاء ٣ نيسان غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية نزلت باكراً إلى البلد، وذهبت توالى بيت الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر لنبداً بالدرس حسب الاتفاق أمس، فوجدته قد خرج، فذهبت إلى دار المعلمين أزور رستم بك فلم أجده ثم رجعت مرة ثانية إلى بيت الأستاذ فلم أجده، التقيت بموسى أفندي العلمي في محل الخواجات طرزي، فذهبنا أنا وهو والخواجا نخلة طرزي ومشينا على ضفاف بردى، وكان الطقس جميلاً، إلى أن جئنا إلى دار المعلمين، فخرج إلينا رستم بك واستأنفنا المشي على ضفاف النهر إلى الظهر، ثم جئت إلى غرفة أستاذي فوجدته قد سبقني فتعدى ونام، فتناولت الغداء وحدي، ثم ذهبت فعلمت تلميذاتي. قيل المغرب ذهبت مع أستاذي إلى بيت الخواجا شكري فران، وكان هناك أحد مستخدمي قنصلاتو ألمانيا، فطلب إلي أن أعطيه دروساً في اللغة العربية.

الخميس ٤ نيسان غ سنة ١٩١٨م

إذا أردت أن تحفظ شبابك وتجدد قوتك ونشاطك، وتلتذ بحياتك وتقوم بواجباتك أحسن قيام، وتربأ بنفسك عن الانحطاط البدني، وبعقلك عن الجمود والخمول، وبأهوائك عن التسفل وبأمالك عن أن يساورها اليأس، فخصص لنفسك ساعتين أو ثلاثاً إذا استطعت إلى ذلك سبيلاً في كل صباح تروض فيها جسمك رياضة قانونية ثم تستحم بالماء البارد صيفاً وشتاءً، وإذا استطعت فاستحم في الصيف مرتين في الصباح وبعد الظهر، ثم تقرأ أهم الكتب وأنفسها، ثم تكتب حوادثك وتأثراتك واختباراتك ثم تغذي جسمك بأحسن الأغذية، وإذا استطعت أن تقيل بعد الغداء فذلك أدعى للراحة واستجمام القوى، ثم إذا ساعدك الحظ فكان لك أصدقاء كرام أذكاء على جانب من العلم والأدب والمعرفة والذوق السليم، فاجلس اليهم أو

فأخرج معهم إلى الطبيعة تعش سعيداً إن شاء الله، وإن كنت متزوجاً ولك ولد مثل سري فاجعل من بيتك فردوساً تنعم فيه إلى أن يحين الأجل، فتذهب قرير العين مجبوراً بالخاطر مذكوراً بالخير مأسوفاً عليك.. هذا هو الأسلوب الذي يجب أن يعيش عليه الناس، وإلا فلا معنى للحياة، بل أحر بها أن تكون عبأً ثقيلاً بل سلسلة مصائب لا تنتهي إلا بالقبر.

لما كنا في أول عهد الشباب استحكمت منا الفلسفة السوداء، فكنا نعقد اجتماعات في بيت رئيسنا، الطبيب الذكر المأسوف عليه المرحوم داود صيداوي، وقد سدلت على جدران غرفته الستائر السوداء أو القاتمة، فكنا نجتمع إما في الظلام أو على ضوء ضئيل، وبعد أن نجلس كل واحد على حدة فنستغرق في التأمل والتفكير لا ننسب بنت شفة بضع دقائق، يفتح الرئيس الجلسة بصوت خافت ورؤوسنا مطرقة إلى الأرض بأسئلة وأجوبة رتبناها على هذه الصورة:

[س] من أنت؟ ج. لا شيء.

[س] ما هي آمالك ومسراتك؟ ج. لا شيء.

[س] ما هذه الأشباح الساكنة أو المتحركة؟ ج. لا شيء.

إلى آخر الأسئلة، ثم نقوم وقد تلاشنا.. ثم نخرج من تلك الظلمة كأننا خيالات سارية، ولم نكن نعبأ بالصحة والشباب والجمال، بحيث لم يمض علينا زمان طويل حتى دبّ الهرم في أجسامنا ونفوسنا، وكان عن ذلك أن ذهب رئيسنا المرحوم ضحية هذه الفلسفة السوداء.. ثم قيص لي أن ذهبت إلى بلاد الإنكليز، ثم ذهبت إلى أميركا، فأقعدت عن تلك الفلسفة السوداء، وأقبلت على الحياة وغيّرت أسلوبها فيها بفضل السياحة والمعيشة في وسط حيّ راق، ولم أرجع إلى بلادي، إلا وقد اكتسبت قوتي حيوية لا أزال أنفق منها إلى اليوم.

.....

أرسل إليّ البطريرك عشرة ريبالات ولكن بطريقة غريبة، أخذها الأرشمندريت تيموثاوس إلى بيت شوقي أفندي الملك ودفعتها إلى قرينته، وهذه سألت قرينة الخوجا جورج طرزي عني، ثم أرسلت القيمة إلى بيت تلميذاتي، ولست أدري على أي البيوت طافت هذه القيمة، وأي الأيدي تناقلتها قبل أن وصلتني. لقيني الخوجات زغيب، فقالوا: لك أمانة عند أختي، ثم لقيني الخوجا طرزي، وقال: هل وصلتكم الأمانة، فكنت أذهب إلى إدارة جريدة الشرق وأعلن فيها أن قد وصلتني القيمة فيطمئن الناس.

التقيت بعد الظهر على طريق جمال باشا بالأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر، فتناول من جيبه وثيقة من رئاسة أخذ العسكر أنني معلم في الكلية الصلاحية، فشكرته على ذلك كثيراً، واتفقنا أن نجعل الدرس الساعة الثالثة بعد الظهر بدلاً من الصباح، لقد قلدتني يا عبد القادر أفندي منّا لا يستوفى ثناؤها ولا ينقطع ذكرها، ومتى رجعت إلى بلادي، كنت لساناً ناطقاً بفضلك إن شاء الله.



داود صيداوي (توفي ١٩٠٨) الصديق الاعز لخليل السكاكيني وأخ
منانة صيداوي. صورة نادرة كما ظهرت على شاهد قبره في مقبرة
صهيون خارج اسوار المدينة. من مجموعة السيدة منى الحلبي

الجمعة ٥ نيسان غ سنة ١٩١٨م

حلمت الليلة أني رجعت إلى البيت، فلما دخلت كان سري يلعب في ساحة الدار، فلما رأني ركض إلي وهو يصيح: بابا بابا، فأخذته بيدي وحملته وجعلت أقبله، أه وا شوقي إليك يا سري .
قمت فلبست ثيابي، وخرجت مع ميشيل ابن صاحب المنزل لنشتري خبزاً وحليباً، فبعد أن اشترينا الخبز ذهبنا إلى بائع الحليب، فتفقد جيبه فوجد أن جزدانه قد سرق، فامتقع وجهه وكاد يبكي، فسألته كم كان في الجزدان؟ فقال: أربعة عشر متليكا، فتناولت من جيبى هذه القيمة ودفعتها له وطيبت خاطره، ثم رجعت إلى البيت فلعبت كل العايبى بحيث كان العرق يتصبب من كل جسدي، وقبل أن أستحم أويت إلى الفراش قليلاً ثم استحممت جيداً، وخرجت فعلمت تلميذي الفرد طرزي وبعد الغداء علمت تلميذاتي، ومن هناك نزلت إلى بيت الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر، فلم أجده، فخرجت أمشي قليلاً على أمل أن أرجع فأجده، فلقيت زين العابدين أفندي، فمشينا قليلاً ثم جئنا إلى بيت الأستاذ ولم يكن هناك فجلسنا ننتظره.

من المواضيع التي كان يدرسها زين العابدين أفندي في الكلية الصلاحية، تاريخ الأديان، ولذلك لا نجتمع إلا طرفنا هذا الموضوع. بعد قليل جاء الأستاذ ولم يكن وقت للدرس فأجلناه إلى الغد، ثم جئت إلى منزل مطران الأقباط، وقد سبقتني إلى هناك أستاذي والخوارجا قطان، وفي المساء عرجت مع أستاذي على بيت الخوارجا تادرس نعود ابنته دورث التي لا تزال في الفراش.

إذا رجع الناس بعد هذه الحرب إلى ما كانوا عليه قبلها، إلى حكومات مستبدة وشعوب كالأغنام، إلى رؤساء دين منافقين، ورجال سياسة طائشين، وأرباب سيف قساة، وأغنياء لصوص، وشعوب جاهلة خاملة بانسة شقية، فيا ضيعة الدماء ...

كان زمام الأمم في يد رجال السياسة، فلما نشبت الحرب وحشدت الجيوش أصبحت الكلمة النافذة لرجال السيف، فلو فئيت الأمم وجرت الدماء أنهاراً أبوا إلا الاستمرار على عنادهم والمضي في طغيانهم ...

السبت ٦ نيسان غ سنة ١٩١٨م

حلمت أني كنت موقوفاً فجاءت أمي تزورني، ثم رأيت أبا الفضل قلقاً حذراً، كأن أحداً يتعقبه ليمسكه ويسلمه للحكومة، لم ألب اليوم لأن صاحبة البيت تحتاج إلى المطبخ الذي أستحم فيه، فاكفيت بالاستحمام، ثم أفطرت خبزاً وجبناً وأوقيتي حليب مع شاي ثم جلست إلى طاولتي أدخن وأكتب.

بلغ ثمن رطل الخبز اليوم خمسة وأربعين غرشاً ، وعدني الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر بوثيقة خبز [إعانة] فإذا توفقت إلى ذلك هانت عليّ المعيشة نوعاً ما . .

ذهبت قبل الظهر فعلمت الفرد طرزي ، ثم جئت إلى غرفة أستاذي فتناولت الغداء ، وأنا هناك جاء سليم أفندي السماعيل الكركي يودع الأستاذ ، لأنه مسافر مع جماعته إلى الكرك اليوم وتناول ليرة ذهبية ودفعها إليه ، وهو آسف أنه لا يستطيع أن يساعده بأكثر من ذلك ، فأكبرت مروءته ثم تبادلنا القبلات ودعونا له بالسلامة والتوفيق ، فخرج وهو يكاد يبكي . أيها السماء متى تجيء نوبتنا ، لقد طالت هذه الغربة علينا وفقد الصبر ، ووهى الجلد ، وبلغت الروح التراقي .

علم الله ما له من قياس
دموعي على جميع الناس
أينما كنت ثابت الأساس
قلق الفكر دائم الوسواس
في بلادهم وأنهم جلاسي
سبيل أدناهم أحساسي الخ الخ

إن شوقي إلى ذوي لشوق
إن أحاول كتمان شوقي أذاعته
كيف أنسى وحبهم في فؤادي
لا تراني إلا رأيت شجيا
لست أخلد إلا تخيلت أني
إن يحل بيننا الفراق ولم يبق

بعد الظهر نزلت إلى بيت الشيخ عبد القادر أفندي المصغر ، وأعطيته أول درس في اللغة الإنكليزية ، ثم خرجت فلقيت رستم بك وشفيق أفندي صبري وموسى أفندي العلمي وزين العابدين أفندي ، فجعلنا نروح ونجيء في شارع جمال باشا ، وأنا كأني حاضر غائب . . لا يعزيني ويلجم لساني إلا ما ألقاه من عطف الأصدقاء وإقبالهم عليّ بأنسهم ولطفهم ، وما أرى وأسمع من مصائب الناس التي لو قابلت مصيبي بها لما كانت شيئاً يذكر .

الأحد ٧ نيسان غ سنة ١٩١٨م

أسعد الله صباحكم يا أعزائي ولا أراني فيكم مكروهاً . اليوم من أيام الربيع الجميلة ، السماء زرقاء والحقول خضراء ، آه لو أستطيع أن أكون بينكم فأخذ سرياً وأخرج إلى الطبيعة ، فتارة أمسكه بيدي وتارة أحمله على ظهري . ولا أزال أداعبه وأضحكه إلى أن نصل إلى أكمة تنبسط أمامها المناظر الجميلة ، فأرسله يلتقط الزهور البرية والحصى الصغيرة المغسولة بماء المطر أو بندي الليل ، ثم أرجع به إلى البيت فأجلس مع سلطاتي وأمي وأختي حول مائدة الطعام ، وبعد الغداء نأخذ سرياً إلى فراشه ، فنغني له أو أحكي له حكاية الجمل أو غيرها إلى أن يرن على جفنه الكرى ، ثم ننام وبعد النوم نقوم فنخرج لزيارة الأصدقاء ، أو نبقى في

البيت نستقبل الزائرين . . . ثم نخرج قبيل الغروب أنا وسلطانة وسري وميليا وأمي فتمشي حول المنزل، أو نخرج على بيت حسين أفندي أو أبي الفضل أو بيت عمه عبودة النشاشيبي، فتدخل أُمِّي وأختي وسلطانة إلى بيت عبودة وأدخل أنا إلى بيت الفضل، ويلعب سري مع صائب وأخته، ثم نرجع إلى البيت ونفوسنا مملوءة سروراً. آه ما كان أسعد عيشنا وأنعم بالنّا .

يكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسي لولا تأسينا

لم أكن احتاج إلى قوة التصور في قبل اليوم. ولكنني منذ تركتكم تنبّهت في هذه القوة. لا أفكر بكم إلا تصورت القدس وناسها وأشياءها وطرقها كأنني أتجول فيها. تارة أخرج من الدار فأمر من بين الزيتون فمحلة المصرة فطريق الباب الجديد فطريق يافا إلى باب الخليل، فأخرج في طريقي هنا وهناك وأتصور أنني لقيت أبا داود ويعقوب ابن خالتي ومثري أخاه وشكري ديب وعيسى الطبة وخالي جورج وصهري أبا سليم وأخي يعقوب وأمين صيداوي وأبا الفضل، وقد أتصور أنني صعدت إلى دار البلدية حيث أجلس إلى رئيسها المفضل حسين أفندي، فأجد عنده سعد الدين أفندي الخليلي وعبد القادر أفندي العففي أو اسماعيل بك أو موسى كاظم باشا أو محمد أفندي صالح أو غيرهم، ثم أنزل فأدخل من باب الخليل، فأخرج على مخزن الأميركان ثم أمر من السوق الجديد فألقى إبراهيم شماس وأخاه والحلاق ميناس وشريكه أبا سليمان، ثم أتابع السير فأمر على دكان سابا عبده، ثم أمر عن مستشفى الروم فدير الروم ثم أمر من محلة النصارى، فأمر من أمام الفرن، فألقى سابا ابن خالي ثم أعرج على بيت أختي هيلانة، ومن هناك أزور ابنة عمي حنة وابنة لبيبة، ثم أخرج من باب العمود فأمر عن صيدلية الحلبي فمخزن الدقاق، ثم أمر من أمام عمارة الرهبان الدومينيكان إلى البيت، فألقى أُمِّي جالسة أمام بيتها تدخن بأركيلتها، وسرياً يلعب في ساحة الدار، وميليا مشغولة بزائرتها الأوانس شاهنדה وإحسان ونفيسة، وسلطانة جالسة في غرفتها أو واقفة في المطبخ تهيء طعام سري، وقد أشم رائحة الطعام وأذوق طعمه فأدخل إلى مكبتي وأجلس وراء طاولتي وأدخن بأركيلتي وأقرأ في كتي أو أقلب دفاتري وأوراقي، ثم أقوم فأنادي سرياً وأخذه مع أمه وعمته فنتجول قليلاً، ثم نرجع إلى عشنا الجميل الأنيق. وقد أتصور أنني في بيتي جالس على شرفته مع أبي الفضل والحاج أمين أفندي الحسيني وأسحق أفندي درويش وأبي جميل وحلمي أفندي وتوفيق أفندي الحسيني وحنا حمامة، نتجاذب الأحاديث اللطيفة. أتمنى أن أخسر عشر سنين من حياتي وأرجع إلى بيتي حالاً.

بعد استكمال الفروض اليومية، جاءني توفيق جوهريّة ومعه شخص آخر من القدس من طائفة الأرمن،

اسمه يواكيم نسيب ميناخ الحلاق، وبعد أن جلسنا قليلاً قمت فأخذت توفيق وذهبنا إلى سجن الجامع المعلق في باب الجابية، نزور الخواجا ليفين، فوجدنا أنهم يمنعون حتى محادثة المسجونين من وراء الباب فانصرفنا أسفين. وجئنا إلى بيت الخواجا تادرس فوجدنا دورث قد تركتها الحمى من الأمس، فتجلت علامت السرور والاطمئنان على وجه أمها. لو كنت في محل الخواجا تادرس لربيت دورث وهري على الأسلوب الانكليزي، لعودتهما منذ نشأتهما الاستحمام بالماء البارد كل يوم، وأشربتهما حب الرياضة واللعب بالطابة والخروج الى الطبيعة كل يوم وربأت بهما عن معيشة البنات الشرقية، ولكن لعل له من الأحوال الحاضرة عذرا.. ثم أخذت توفيق إلى بطريركية القدس وقابلت الترجمان الأرشمندريت عبد المسيح، وكان في الاسطبل يغربل الشعير لخيول العرب، فوعد أن يأخذه إلى البطريرك، ثم تركته وجئت إلى غرفة أستاذي، فوجدته في فراشه لتلبك في معدته، فقلت له: أحسست أنا أيضاً بشيء من التلبك ولعل لطعامنا بالأمس للسبانخ أو اللبن دخلاً في ذلك، ثم تناولنا الغداء وجئت إلى غرفتي ونمت، وبعد النوم جاء الدكتور طنوس قعوار يزور جيراني، فنزلت عندهم فطلبوا مني أن أعزف لهم على الكمنجة ففعلت. وعدني رستم أن يجيء اليوم نحو الساعة الثالثة والنصف لنزور أستاذي أو الخواجا تادرس، فانتظرت إلى الساعة الرابعة فلم يجئ فقمت وذهبت إلى أستاذي فوجدته قد مل من الانتظار، وبعد أن لبس وخرجنا من البيت جعل يعنفني على إبطائي في المجيء وأنا أعتذر، ثم أخذته الحدة وقال: اذهب أنت وحدك وأنا أرجع إلى غرفتي. فلم يسعني إلا أن أسكت وأذهب إلى بيت الخواجا تادرس، وكان هناك الخواجا وتسي فبقينا هناك إلى المساء ثم أخذت الخواجا تادرس وذهبنا نزور شكري أفندي فران، فجلسنا حول مائدة الشراب، وشربنا قليلاً حتى أخذتنا نشوة الشراب ثم قمنا فانصرف هو إلى بيته وجئت أنا إلى غرفتي، فوجدت الدكتور طنوس قعوار عند جيراني، وقد عزم على المبيت عندهم، فسهرنا إلى نحو الساعة العاشرة والنصف.

الاثنين ٨ نيسان غ سنة ١٩١٨م

بعد أن لعبت كل العايبى نزلت لأستحم، وطلبت من الدكتور طنوس أفندي قعوار أن يحضر حمامي، فنزل وحضر حمامي من أوله إلى آخره، فاستحسن أسلوبى، ثم صعدت إلى غرفتي فجاء وجلسنا نتجاذب البحث في مواضيع مختلفة، فرأيت واسع الاطلاع متشبعاً بالأفكار العصرية، ثم كلفته أن يكتب في يوميتي هذه شهادته عني كطبيب، وهذه كلماته بخط يده:

شاهدت بنفسي استحمام الكاتب بالصابون والماء البارد، فرأيته يبدأ بفرك وجهه ورأسه و عنقه، ويحرك أثناء ذلك جميع العضلات، ثم يغسلهم بالماء البارد وينتقل إلى غسل جسمه، ويفرك الجلد حتى يحتقن ويحمر، ويحرك جميع العضلات التي لم يتمكن من تحريكها أثناء تمرين العضل، مثل عضلات الوجه والبطن، ثم يستحم بالماء البارد، وقد رأيت أن ذلك الأسلوب هو من أحسن الأساليب لتنمية النسيج العضلي وتقويته، وخصوصاً فرك الجلد والتمسيد، فإنه يقوي الجلد الذي هو السور الطبيعي للجسم البشري، ورأيت أن يتشبه ويتمثل به كل من يحب الصحة والحياة والنشاط والشباب، وأتمنى ذلك لكل ناشئة البلاد لكي يتولد منا شعب نشيط قوي يضاهي الشعوب الحية، ويستحق البقاء والحياة، فإن الحياة حق القوي الذي يكون كخليل أفندي حائزاً على جسم عضلي دموي قوي ودماغ جبار يستوعب المحاكمات السليمة والذاكرة القوية، فقد اعجبني جداً هيكله البشري البارز العضلات الواسع الصدر والجبهة، المستوي البطن، فأجلت البشر ورأيت أن الجمال واللذة موجودة في أمثال هذا الجسم القوي النشط فأغبطه وأهنئ أم سري على هذا الزوج النادر المثل الهنيء العيشة والصحية والذي يجتهد أن يعيش سعيداً ومسوراً.

الدكتور طنوس قعوار

أرجو أن تعرف سلطنة قيمتي بعد هذه الشهادة. وقد فات الدكتور أن يذكر في شهادته أن من يراني يظن أنني صغير السن لم أجاوز الثلاثين من العمر، كما قال لي هو نفسه، ومسألة العمر ليست قليلة الأهمية في نظر سلطنة، ولست أظن أنها تجرأ أن تقول لي بعد اليوم لقد خدعتني وأوهمتني قبل الزواج أنك صغير السن وأنت لست صغيراً، على أننا نحن الرجال مهما غالطنا في أمر العمر فلا ندرك السيدات في ذلك، أليس الأمر كذلك يا سلطنة؟! .

حدثني نفسي أن أتصور عاري الجسم إلا قليلاً اظهراً لفضل الأسلوب الذي أعيش عليه، وحثاً لسري أن يولع بأسلوبي إن شاء الله... بعد ذلك خرجت فعلمت تلميذي الفرد طرزي ثم تغديت، وبعد الغداء علمت تلميذاتي ونزلت رأساً إلى بيت الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر فلم أجده... فذهبت إلى دار المعلمين أمر على رستم بك، وإذ كان الطقس جميلاً خرجنا نمشي على ضفاف بردى، فتابعنا سيرنا الحثيث إلى الربوة فصعدنا إلى قهوة هناك على سفح الجبل وجلسنا قليلاً، وكان لمنظر الجبل والنهر في واديه وجمال الطقس تأثير كبير عليّ، ثم قمنا من هناك ورجعنا عن طريق

المزة، وهذه أول مرة زرت فيها هذه الأماكن، ولولا الخوف على الحذاء لترددت عليها كثيراً، بعد العشاء رجعت إلى غرفتي وسهرت عند جيراني.

الثلاثاء ٩ نيسان غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية، جاءني توفيق الملك وكنت على الفطور، وكان عندي الدكتور طنوس أفندي قعوار، وقد رأيت على وجه توفيق علانم الجوع فأشركته في فطوري، ولسوء الحظ لم يكن إلا خبزاً وحليباً، لأنني أصبحت هذا اليوم خالي الوطاب، ثم خرجت مع توفيق فسألته عن حاله فقال مر عليه يومان لم يأكل فيهما إلا شيئاً قليلاً وأنه جاءني ليستدين مني شيئاً ليشتري به ما يمسك رmqه، فبادرت إلى دكان يوسف مري اللحمي وأخذت منه خبزاً وحلاوة لتوفيق ثم تركته وأنا متأثر لحالته، وذهبت أزور بطربرك القدس فاستغرقت جلستنا وقتاً طويلاً، ذهبت بعدها إلى بيت الخواجا طرزي أعذر عن تأخري، وأجلنا الدرس إلى الغد. بعد الظهر علمت تلميذاتي ثم نزلت إلى بيت الشيخ عبد القادر أفندي المصغر فعلمته. نظرت اليوم مع أستاذي في حالتنا المالية، فوجدنا أننا قد صرفنا في الشهرين الماضيين أربعة آلاف غرش وأربع مئة، فإذا لم تدارك أمرنا في القريب العاجل وقعنا في ضيق عظيم مهما اقتصدنا، فلا يقل مصروفنا عن تلك القيمة، فمن أين ندبرها؟ لا يدخله هو في الشهر إلا عشرون ريالاً، فكيف أدبر بقية ما نحتاج إليه؟ يا حبذا لو أستطيع أن أسافر إلى نابلس فأعيش في بيت سلفي إلى أن ينتقضي أجل هذه الحرب، وإلا فالله أعلم كيف تكون معيشتي في دمشق.. في المساء رجعت إلى غرفتي فلما دخلت وجدت خليل بك الصلح قد جاء مع الدكتور طنوس أفندي قعوار يزورني، فتبادلنا القبلات وسررت بلقائه كثيراً وتذكرت زيارته في القدس. سهرنا إلى نحو الساعة الحادية عشرة.

الأربعاء ١٠ نيسان غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية، ذهبت فعلمت تلميذي الفرد طرزي، ثم عرجت على تلميذاتي فاعتذرت اليهن أنني لا أستطيع أن أجيء للدرس اليوم، ثم نزلت إلى البلد إلى لوكدة الخوام، حيث كان ينتظرني خليل بك الصلح، فذهبنا معاً إلى قهوة الكمال وجلسنا قليلاً، ثم استأذنت فذهبت وعلمت الشيخ عبد القادر

أفندي وبينت له حالتي المالية، فوعد أن يهتم غداً في تدبير وثيقة خبز لي من دائرة الإعاشة، ثم جئنا إلى قهوة الكمال فوجدت أن خليل بك الصلح قد استبطاني فذهب، جلسنا أنا والأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي ورستم بك ورياض الصلح وعفيف الصلح وعبد الرحيم شعر إلى نحو الساعة السادسة، ثم جاء خليل بك الصلح فوعد أن يزورني مساءً . . بعد العشاء جئت إلى غرفتي أنتظر الأصدقاء فلم يحن إلا رستم بك، وزين العابدين أفندي والدكتور طنوس وابن عمه شفيق أفندي، فسهرنا إلى نحو الساعة الحادية عشرة.

الخميس ١١ نيسان غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية، جلست إلى طاولتي اقرأ في [عدد جريدة] المقطف، وقد استعرت من الأستاذ جورج أفندي أبو عضل، ثم جاء الدكتور طنوس أفندي قعوار، فجلسنا تتجاذب أطراف البحث في مواضيع مختلفة. ليس أدل على أخلاق الرجل ومبلغ علمه وذكائه من حديثه، وإلا فإن كثيرين يحملون ألقاباً علمية ويشغلون مناصب عالية في هذا العالم، فإذا جلست إليهم شف حديثهم عن رأس مال قليل، وبضاعة مزجاة وقصر نظر، ليس العلم أن يمتلئ الدماغ بعلوم الأولين والآخريين بل إنه بوسع الفكر وبرهف النظر، ولذلك فإن كثيرين قد تكون أدمغتهم مملوءة ولكنها لا تزال صغيرة . . ثم خرجت فلقيت في طريقي توفيق الملك، فشكا الي ما يقاسيه من الجوع، وقد تبينت ذلك من وجهه، ولكن لم أدر كيف أستطيع أن أساعده وأنا فارغ الوطاب، لا أكاد أملك ما يقيم أودي . . ثم ذهبت فعلمت تلميذي الفرد طرزي، وبعد الغداء علمت تلميذاتي ثم نزلت فعلمت الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر، ثم رجعت إلى غرفتي، وقد احسست بجوع، فلم أر بداً أن أمر على الخواجا تادرس فأخذ منه قيمة قليلة لأشتري بها خبزاً وجبناً، وفي المساء رجعت إلى غرفتي وقد اكتفيت بطعام العصر عن العشاء. فجاء الدكتور قعوار وصعد جيراننا إلى غرفتي فسهرنا إلى نصف الليل، فعزفت لهم على الكمنجة ولعبنا على الكراسي وعلمتهم اللعبة التي يقال لها سلسلة السيدات . . لا أقابل جيرانني بغيرهم من أهل دمشق ممن أعرف، إلا ازددت احتراماً لهم.

الجمعة ١٢ نيسان غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية، خرجت إلى دكان يوسف متري التلحمي، وأحضرت خبزاً وجبناً فأفطرت، وإذا لم يكن عندي تنباك وليس معي دراهم استعرت من الدكتور طنوس قعوار خمسة متليكات فاشترت تنباً كما ثم عبأت أركيلتي وعبأ الدكتور أركيلة أخرى، وجلسنا نتقل في الحديث من موضوع إلى موضوع، ولولا ما يستدعي خروجي من الأشغال لجلست إليه نهاري كله، فليس ألد عندي من مثل هذه الجلسات.. ثم ذهبت علمت تلميذي الفرد طرزوي وكان أبوه هناك فحضر الدرس وسر من الأسلوب الذي اتبعته مع ابنه، إلا أنني لا أستطيع إلا أن أقول أنني أكره الدروس الخصوصية، وأفضل عليها أن أعلم صفوفاً كبيرة. ثم رجعت إلى غرفة أستاذي فتناولت الغداء وحدي لأنه تأخر في الحضور، لا يمر يوم إلا وقع بينه وبين الدادا ماري ما يدعو إلى التنافر على حين أنه أحوج الناس إلى حياة الدعة والهدوء والسرور. ولا سبيل إلى ذلك إلا أن يوسع الإنسان صدره ويتعود الاغضاء ويترك المناقشة في الكبيرة والصغيرة على حد قول الشاعر:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

بعد الغداء رجعت إلى غرفتي فوجدت توفيق الملك ينتظرنني فيها، ففهمت أنه جاء يطلب مساعدتي، على حين أنني أكاد أكون مثله في ضيق ذات اليد، ولست أدري كيف يستطيع أن يعيش هذا الرجل إذا كان يحتاج إلى مثلي، وهل يجوز لمن كان مثلي يعيش من فضل الناس أن يساعد غيره، أو ليس من الحزم أن أقول له: يا صاحبي آسف جداً أنني لا أستطيع، أن أساعدك، فاطرق باب غيري؟ وأني لأعجب كيف يتجرأ مثله أن يكلفني ما لا أستطيع ولا يسعني إلا أن أقول أنني تبرمت به ولولا القليل لصرفته خائباً، ولكن مع كل ذلك لم يسعني إلا أن دفعت له نصف ريال، وستكون هذه آخر مرة أساعده فيها، فإذا كان البخل عيباً فإن كرم المعدم مثلي أعيب.. دفعت لي تلميذاتي اليوم ستة مجيديات رسم الشهر مع أن أمهن قالت إنها ستدفع لي ليرة انكليزية.. بعد أن ذهب توفيق الملك أويت [إلى] فراشي قليلاً ثم قمت ونزلت إلى بيت الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر فلم أجده. في المساء سهرت في بيت جيراني.. لا يزال الرجل في الشرق هو المسؤول عن شرف امرأته وأخته وابنته، ولذلك يدعي أن له الحق في أن يكون المهيمن عليهن في حركاتهن وسكناتهن، لا يعاملهن إلا بالعنف والضغط، ولو استطاع لحجب عنهن النسيم غيرة عليهن وإيداناً بعدم ثقته بهن. ولا عجب إذا انحطت المرأة في الشرق، بل أن معاملة الرجل لها على تلك الصورة لأدل على انحطاطه، يجب أن يكون للمرأة شرف شخصي ويجب أن تكون هي المسؤولة فيه، وإذا كانت كذلك فلها الحق المطلق أن تكون حرة لا أن تفني نفسها في زوجها أو أبيها أو أخيها.. لا تستطيع المرأة أن تكون شريفة إلا إذا كان لها شرف شخصي، ولا تحافظ على شرفها إلا إذا كانت هي المسؤولة عنه، ولا تترقى في أفكارها وآدابها وأخلاقها

إلا إذا كانت حرة وهذا من حقوقها الطبيعية التي لا يجوز لأحد أن يرضن بها عليها ، أو يسلبها إياها .

السبت ١٣ نيسان غ سنة ١٩١٨م

فلسفة السرور

أشفق على أولئك الذين لا يعرفون السرور في حياتهم ، لا يستقبلون الأيام إلا بوجوه مقطبة وصدور منقبضة وأخلاق ضيقة لا يلتذون بشيء ، بل دأبهم الانتقاد والاعتراض والاستهجان والاستقباح والاشمئزاز والتبرم والتشكي ، فيزعجون أنفسهم ويزعجون الناس ، ولا بد أن يكون ذلك ناشئاً إما عن مرض في النفس أو في الجسم ، ولا دواء لهذا المرض مهما كان سببه إلا اتباع أسلوب في الحياة . وليس هذا محلاً لبسط هذا الأسلوب بالتفصيل ، ولكنني أكتفي بالإشارة إلى آثاره في نفسي هنا ، وموعدي بالكتابة فيه بعد رجوعي إلى البلاد قريباً إن شاء الله . . . أقوم من النوم فأحس أنني تلذذت في نومي ، وألعب فأحس أنني تلذذت بالعبابي ، وأستحم فأحس أن السعادة كلها في الاستحمام بالماء البارد ، وأكل فأتلذذ في أكلتي ، ولو كان خبزاً يابساً وأدخن بأركيتي فأحسب السعادة ، في التدخين ، وأقرأ أو أكتب فأتلذذ في ما أقرأ أو في ما أكتب ، أمشي فأتلذذ بالمشي وأجلس إلى أصدقائي فأتلذذ بالجلوس إليهم ، وأجتمع بالناس في الليل أو النهار فأتلذذ بالاجتماع بهم ، أقابل الصعوبات فأتلذذ في مقاومتها والتغلب عليها ، وتلم بي المصائب فأتعزى بالصبر والتحمل بل أكاد أتلذذ بما أكتشفه فيها من الدروس والعبر ، كل أصحابي يعرفون أنني صاحب هذه الفلسفة ويغبطوني عليها ، ويوم افتتاح جريدة فلسطين دعاني صديقي الأبر الخواجا عيسى العيسى إلى يافا لحضور الاحتفال بافتتاحها ، وقبل أن ألقى خطابي الذي هيأته لتلك الحفلة وكان موضوعه المدنية ، قام أحد الأصدقاء وقدمني للناس واقترح علي أن أحاضر المجتمعين بشيء عن فلسفة السرور ، فلم يسعني إلا أن ألبى طلبه ، وتكلمت عن فلسفتي بما قابله الجميع بالاستحسان والإيثار ، إذا رجعت إلى بلادي وقفت نفسي على التبشير بهذه الفلسفة إن شاء الله .

بعد استكمال الفروض اليومية ذهبت فعلمت تلميذي الفرد طرزي ثم علمت تلميذاتي ، ثم عرجت على بطريركية القدس فدفع إلي غبطة البطريك خمسة عشر ريالاً ، ووعدني أن يقرضني كل ما أحتاج إليه في مدة هذه الغربة . . . ثم نزلت إلى البلد لأعلم الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر فلم أجده ، فعرجت على الصديق الأبر رستم بك فذهبنا إلى قهوة الكمال ، وقد جاء معنا موسى أفندي العلمي ، وكان حديثنا الوقت كله عن الزواج وحالة المرأة ولا يتسع المقام لأن أشير إلى كل الأفكار التي تبادلناها . . . بعد العشاء سهرت عند

جيراني وكان الدكتور طنوس قعوار هناك .

الأحد ١٤ نيسان غ سنة ١٩١٨م

قلقت هذه الليلة لغير سبب ولا علة . بعد استكمال الفروض اليومية نزلت إلى البلد ، فلقيت الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر ورياض بك الصلح فمشينا معا ، قال لي الأستاذ أنه مسافر غدا إلى السلط لبضعة أيام ثم يرجع فنستأنف الدرس ، بعد الغداء رجعت إلى غرفتي وأويت إلى فراشي ، وبعد النوم عبأت أركلتي وجلست أكتب يومية ، وعند الساعة الخامسة نزلت من غرفتي لأخرج إما إلى القصاع فأجلس في قهوة هناك على نهر بردى ، أو أذهب إلى شارع جمال باشا ، فوجدت الأنستين عفيفة وملكة ابنتي جيراني في إيوان المنزل ، فدعوتهما للخروج معي فتكرمتا بالقبول ، فخرجنا وجاء معنا أخوهما ميشيل ونزلنا إلى شارع جمال باشا ، حيث لقينا موسى أفندي العلمي فعرفتهما به فمشى معنا ، ثم لقينا رستم بك فدعونا فسار معنا على ضفاف بردى ، إلى أن غابت الشمس . كم تمنيت لو كان أحبابي معنا ، فيشتركوا معي في التمتع بتلك المناظر الجميلة ، ولا سيما منظر النهر عند غروب الشمس . لا شك أن أختي ميليا تكون أشدنا سرورا لأنها لم تخرج إلى اليوم من القدس ، وأما سلطانة فقد جاءت إلى دمشق قبل الزواج مع ابن عمها أقيم . وقد سرني كثيرا ما آنته من ارتياح الأنستين عفيفة وملكة إلى هذه النزهة الجميلة ، وسرورهما برفقة رستم بك وموسى أفندي ، ولعلها أول مرة خرجتا مع أشخاص غرباء فضلا عن كونهما مسلمتين ، وقد ابتدأتا أن تفهما أن بين شبان المسلمين من هم أرقى من المسيحيين وأكمل آدابا وأرق جانبا ، وأظن أنني أكاد أكون المسيحي الوحيد الذي يتغنى بفضائل المسلمين ويعجب بآدابهم وأخلاقهم ويفضلهم على المسيحيين . . أستطيع أن أثق بشرف رستم بك وموسى أفندي أكثر من ثقتي بأقرب الناس إليّ ، فضلا عن غيرهم من المسيحيين الذين ليست آدابهم إلا طلاء مموها ، والذين إذا اجتمعوا بالفتيات لا تخلو كلماتهم ونظراتهم مما يدعو إلى سوء الظن بهم . ومن شاء أن يجادلني في هذا الأمر ، قلت له : هات من المسيحيين من يشبه رستم بك وموسى أفندي إن كنت من الصادقين . قبل العشاء زرت الخواجا تادرس فبادرني بالظن في بعض أصدقائي من المسلمين ، فلم يسعني إلا أن أعتذر بأني لم أتعش بعد ، وخرجت ووجئت إلى غرفتي وسهرت في غرفة الخواجا جورج شاهين عطية مع جيراني ، ولعبنا بالورق إلى نحو الساعة العاشرة ، ثم أويت إلى فراشي .

الاثنين ١٥ نيسان غ سنة ١٩١٨م

أصبحت اليوم وبني زكام ، ولست أدري له سبباً . لعل غطائي سقط عني بسبب الحر الشديد في الليالي

السابقة، فمنت بدون غطاء فأصابني الزكام، ومهما يكن السبب فلا دواء له عندي غير الحمامات الباردة والتغذية الجيدة، وبعد استكمال الفروض اليومية زارني الدكتور قعوار وابن عمه الخواججا شفيق، وقد جاء الدكتور [قعوار] ليودعني لأنه مسافر اليوم إلى فرقته في موش، فاستشعرت بالوحشة لفراقه، وقد لاحظت أنه يستصعب السفر هذه المرة لما وجد في إقامته في دمشق بيننا من الأأس والسرور، ولكن هي الحرب لا تبقي ولا تذر، ثم قمنا فودعته وأخذت رسالة كتبها إلى سلفي الدكتور دعديس في نابلس، ونزلت إلى البلد، ولم أتمكن أن أذهب إلى تلميذي الفرد طرزي. لقيت في طريقي عبد السلام أفندي كمال جاء من مقر وظيفته في حوران إلى دمشق ليومين أو ثلاثة فتبادلنا القبلات، ألح علي أن أتناول الغداء معه فاعتذرت شاكرًا. بعد الظهر علمت تلميذاتي ثم جئت إلى غرفتي فمنت، وبعد النوم نزلت إلى البلد فخرجت على ابراهيم أفندي حلمي في إدارة جريدة سورية الرسمية، وكلفته بمساعدة رفيقي الخواججا ليفين في إنهاء معاملته فوعدني خيرا، ثم لقيت موسى أفندي العلمي ورستم بك وزين العابدين أفندي، فمشينا قليلاً على شارع جمال باشا، ثم اتفقنا أن يجيئوا الليلة إلى غرفتي فيسهروا عندي. وبعد العشاء جئت إلى غرفتي، وجلست في غرفة جاري جورج أفندي عطية نلعب بالورق إلى أن جاء الأصدقاء، فسهرنا إلى نحو الساعة العاشرة، وأما جيراننا أم الياس وأولادها فقد ذهبوا يزورون بعض أصدقائهم، تجولنا في مواضيع مختلفة أهمها فائدة الدين، فلم يسعني إلا أن أصرح لهم برأيي، وهو أن الدين لم يعد له أهمية في الزمان الحاضر والمستقبل، بل إن دائرة المعارف اليوم حلت محل التوراة والإنجيل وبقية الكتب المنزلة التي كانت عبارة عن دائرة معارف الأولين، يوم كانت معلوماتهم قليلة ممزوجة بالأوهام والخزعبلات، وإن دائرة معارفنا اليوم تتجدد مع الزمان، على حين أن دائرة معارف الأولين لزمت حداً لا تتعداه من زمان طويل، فكيف يصح الاعتماد عليها، إلى آخر ما هنالك مما لا يتسع المقام هنا للإفاضة فيه.

الثلاثاء ١٦ نيسان غ سنة ١٩١٨م

حلمت الليلة أنني كنت في القدس أتجول في طرقها، فلقيتني ابنة عمي لبيبة فقالت لي: اختبي فإن الجنود يفتشون عنك، وقد عزموا أن يطوفوا المدينة ويفتشوها بيتاً بيتاً، فقلت لها: إذن كيف أختبي؟. بعد استكمال الفروض اليومية جاءني موسى أفندي العلمي فذهبنا مع أم الياس لنرى له غرفة لسكنه، ولكن لم نجد أحداً فأجلنا الزيارة إلى ما بعد الظهر، ولما رجعنا إلى الغرفة جاءني خبر من الخواججا ليفين أنهم ربما أبعدهم اليوم، وطلب الي أن أسعى في تأجيل إبعاده ريثما يستعد للسفر إذا لم أستطع أن أسعى في تغيير الحكم، فلم أربداً أن أترك دروسي اليوم في تلبية طلبه، فنزلت إلى البلد فلقيت اثنين من اليهود، وكانا يفتشان عني وقالوا:

ذهبتنا نسأل عنه في السجن فقيل لنا أنهم أخذوه منه ، فقدرت أنهم ربما جاؤوا به إلى الولاية ، وبعد قليل رأيناه مع جندي قادماً إلى الولاية ، فأبلغوه الحكم بالإبعاد وأمهلوه بضعة أيام ريثما يرجع الوالي من سفرته . أما أنا فذهبت إلى صديقي ابراهيم أفندي حلمي وطلبت منه أن يسعى في مساعدته بما يصل إليه إمكانية فوعدني خيراً . بعد الظهر نمت وفي الساعة الرابعة جاء موسى أفندي العلمي ، فذهبتنا مع الأنسة عفيفة لنرى الغرفة فلم تعجبني ، وقررنا أن نفتش عن غيرها ، وإذا لم نجد استأجرنا صالون جيراننا ، ولكن لا بد من تدبير تخت وفراش للنوم لأن أم الياس لم يبق عندها تخت ولا فراش . ثم نزلت مع موسى إلى البلد فمشينا قليلاً في شارع جمال باشا ، فلقينا عبد الحميد باشا الذي كان قومندان مركز القدس في أواخر عهد النهضة الأرثوذكسية ، وهو الآن متقاعد ، فسلمت عليه وتذكرت ذلك العصر الذهبي الذي جاهدت فيه جهاد الأبطال . . . وعند المساء رجعت فذهبت تová إلى بيت شكري أفندي فران أسأل عن أستاذي فلم أجده هناك ، فأمسكتني فجلستنا حول مائدة الشراب وشربنا قليلاً ، قال لي : إنه سمع من مصادر ثقة أن الحياة في القدس رخيصة جداً فسرت لذلك ثم جئت إلى غرفة أستاذي فتعشيت ورجعت إلى غرفتي ، فوجدت هناك الخواجا ليفين مع شخص آخر من أمته ، فتبادلنا القبلات وهنأته بالخلاص ، وسهر عندي إلى نحو الساعة العاشرة ، وقد عزمت أن أترك دروسي هذا الأسبوع احتفالاً بخلاصه ، ومع أسفي على ما أصابنا من الحوادث وما مرّ بنا من الشدائد فإني مسرور بأن أراه اليوم حراً ، وعسى أن تتوفق إلى إبقائه في دمشق إن شاء الله .

الأربعاء ١٧ نيسان غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية ، زارني الخواجا بديع السنونو ، وقد قرأت على وجهه علائم الوحشة والكتابة ، فسألته عن شأنه ، فقال : رأيت أمي وأخوتي في حلمي فأصبحت والشوق في صدري يقوم ويقعد . . ثم جاء الخواجا ليفين فأخذته فمررت على تلميذاتي وتلميذي أعترت إليهم عن عدم إمكانية أن أحضر للدرس اليوم ، ثم نزلت معه إلى البلد فعرضت له حاجة ، فذهب لقضائها وكلفني أن أنتظره في مخزن الخواجات طرزي نصف ساعة على الأكثر ريثما يرجع ، فذهبت فلقيت هناك موسى أفندي العلمي ، وانتظرت الخواجا ليفين نحو ساعة فلم يجئ فقممت وذهبت مع موسى أفندي إلى قهوة الكمال فعبأت أركيلة إلى الظهر . لقيت ابراهيم أفندي حلمي فأبلغني أن الحكم بإبعاد الخواجا ليفين قد قرّر وأمضي وذهبت الأوراق إلى الولاية ، وليس في الإمكان أرجاعها فتأسفت لفوات الوقت ، ولكن رفيقي الخواجا ليفين يقول : إن الوالي وعد قنصل اسبانيا بعدم إبعاده . بعد الغداء ، رجعت إلى غرفتي فنمت وبعد النوم عبأت أركيلتي وجلست وراء طاولتي ، فهاجني الشوق واغرورت عينايا وأحسست أن روحي بلغت التراقي ، وجعلت أئن أنين الشكلى .

مَتى تَضَع هذه الحرب أوزارها فنتنفس الصعداء وأرجع اليكم يا أحبائي فنجدد عهدنا الماضي .. أحس وأنا أروح وأجيء في دمشق الفيحاء كأنني في سجن ، ولولا التأسّي والتجلد لقصيت أسي .. أحضر لي بديع السنونو رسالتين من جرجي البيضا يقول : إنه في السوقيات^(٥٢) منذ أيام وإنما قطعوا تعيينه ، وليس يملك من الدراهم بارة ، ويرجوني أن أسعى في إخراجه من السوقيات لأنه من الصنوف التي قررت الحكومة تسريحها . وأن أستدين له قيمه يتبلغ بها إلى أن يمن الله بالفرج ، فلقيت الأرشمندريت عبد المسيح ترجمان دير الروم في القدس وعرضت عليه مسألة جرجي البيضا فوعد أن يساعده ، ثم سألت عن السوقيات فقيل إن في دمشق محال كثيرة للسوقيات ، ولم أعرف المحل الذي فيه جرجي البيضا منها فعزمت أن أتحرى عن ذلك غدا .. ثم زارني الخواججا ليفين وموسى أفندي العلمي ، فقمنا ونزلنا إلى البلد إلى شارع جمال باشا ، فبادرني الخواججا ليفين قائلاً : إن الذي نظم هذا الشارع مهندس يهودي ، فقلت في نفسي : عاد إلى شنشنته القديمة من التمدح بأمة والتغني بفضلها مما أقلقني به يوم كنا في السجن . ثم استأذنا في الإنصراف فذهبت مع موسى أفندي وعرجنا على دار المعلمين فخرج إلينا رستم بك وزين العابدين أفندي ، فمشينا على ضفاف بردى ، وجاء معنا صبحي أفندي عويضة . لا أمشي على ضفاف بردى إلا وددت لو كان أحبائي معي . على ذكر صبحي أفندي عويضة أشير هنا إلى نكته تتعلق به ، وهي أنه لما جاء إلى دمشق قبل بضعة أشهر وقتش عن غرفة في بيوت المسيحيين ، وجد أنهم لا يقبلونه لأنه مسلم فما كان منه إلا أن انتحل اسم جرجي الخوري ، واستأجر الغرفة التي أسكن فيها في بيت أم الياس وسكن عندهم مدة طويلة ، وهم لا يعرفونه إلا باسم جرجي الخوري ، فاتفق أن جاءت هيلانة حلبي إلى دمشق وزارت الأنسة عفيفة رفيقتها في المنزل ، فاكشفت أمره ، وقالت لهم : هذا صبحي عويضة لا جرجي الخوري ، فلم يسعه إلا أن يترك الغرفة من ذلك الحين ، على أن جبراني لا يذكره إلا بالخير لما رأوا من آدابه وأخلاقه الطيبة أثناء سكنه عندهم ، وصرنا كلما اجتمعنا به نذكر له ذلك فنضحك .. في المساء ذهبت رأساً إلى بيت الخواججا تادرس ، وكان على مائدة الطعام ، فتناول زجاجة العرق فصب له ولي فشربنا ثم تعشيت معهم ، وبعد العشاء جاء الخواججا وتسي فسهرنا قليلاً ، جئت إلى غرفتي فوجدت جبراني قد ناموا إلا الخواججا جورج عطية ، فدخلت عنده ، ولعبنا بالورق إلى الساعة العاشرة والنصف .. لم أزل منذ سكنت في غرفتي هذه أبشر بأسلوبي وأحث الجميع على إتباعه ، ومنذ بضعة أيام جعلت الأنسة أولغا أصغر بنات جبراني تستحم كل يوم بالماء البارد ، وقد جربت أختها ملكة الاستحمام بالماء البارد عدة مرات ، فأحببت أن أشير إلى ذلك في يوميّتي هذه كعلامة لنجاحي في التبشير بأسلوبي ، ومتى رجعت إلى بلادي توسعت في التبشير بلساني وقلمي إن شاء الله .

(٥٢) أماكن تجمع الجنود تمهيداً لارسالهم للحرب .

الخميس ١٨ نيسان غ ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية زارني موسى أفندي العلمي فأخذ كتاباً وجعل يقرأ فيه، وأخذت أكتب في يوميتي وأنا أدخن بأركيلتي، ثم جعلنا نتحدث ونعيد ذكرى أيام مضت، فهاجني الشوق، فأخذت كمنجتي وعزفت بعض أنغام كانت على سمعي مثل نواح الثكلى، واغرورقت عيناى وأحسست كأن يداً أخذت بخناقى، ولم أعد أستطيع أن أبلغ ربيقي. إن أشواقى مثل النار تحت الرماد فأقل هبة تذكىها، لتسنى يمىنى إن نسيتم وليلتصق لسانى [بحلقى] إن لم أذكركم يا أحبائى. إذا كان اللقاء لا يكون إلا بعد أن تضع هذه الحرب أوزارها فيا طول شوقى إليكم. . ثم خرجت فعلمت تلميذى الفرد طرزى، وبعد الظهر علمت تلميذاتى، ثم جئت إلى غرفتى، وبعد أن دخنت وكتبت أويت إلى فراشى واستغرقت في النوم إلى نحو الساعة الخامسة، ثم جاء موسى أفندي فنزلت معه إلى البلد، فمررنا على دار المعلمين حيث لقينا رستم بك وزين العابدين أفندي، فشددت عليهما أن يزوراني الليلة، ثم لقينا صبحى أفندي عويضة، فوعد أن يزورنا ثم مررت مع موسى أفندي على مخزن فاشترينا وتراً للكمنجة بخمسة عشر غرشاً ورقاً، ووجدنا في المخزن ميزاناً لوزن الناس، فوقفت عليه ووضعت متليكا في شق فيه فتحركت فيه إبرة مثل عقرب الساعة، فكان وزنى خمسا وسبعين كيلو ونصفاً، وعزمت أن أزن نفسي مرة في الأسبوع، ويا حبذا لو عرفت ذلك يوم خرجت من السجن لأرى الفرق بين وزنى اليوم ووزنى في ذلك اليوم. لا شك أنه كان يكون عظيماً لأنى خرجت من السجن وعلي آثار الهزال، وأما اليوم فلا يرانى أحد إلا أعجب بصحتى وامتلأ جسمى، والفضل في ذلك يرجع إلى الأسلوب الذى أعيش عليه، ولا بأس إذا عدت إلى الكلام عنه هنا :

(١) ألعاب رياضية وتمسيد : كان الناس في بلادنا من آباء وأساتذة يعتقدون أن اللعب خفة وإضاعة للوقت، ولذلك لم يكن الولد يبلغ الخامسة عشرة من عمره حتى يهجر أعباه ولهوه، ويتكلف الرزاة الكاذبة والظهور بمظهر الشيوخ قبل أوانه، بحيث ينتقل بذلك من الطفولية إلى الشيخوخة، فيلبس لبس الشيوخ، ويتكلم بكلام الشيوخ ويمشي مشى الشيوخ فلا يعرف الشيبية، وأما أنا فأقول: يجب على الانسان أن يحرص على شبابه، بل أن يكون ولداً ما استطاع كما قال الفيلسوف هربرت سبنسر . الخ.

(٢) الاستحمام بالماء البارد مرة كل يوم، ومرتين في الصيف، وليس الوضوء الذى يفاخر به المسلمون مما يغنى، لأنه لا يتناول إلا الوجه وأطراف اليدين والرجلين وقسماً آخر من الجسم، وأما أنا فأقول: يجب أن يستحم الانسان بالماء البارد والنقى من رأسه إلى قدمه، بعد أن يدلك جسمه بالصابون على طريقة قانونية ليس هنا محل بسطها .

(٣) التغذية الجيدة: اصطلح الناس على الأكتفاء بثلاث وجبات في النهار، ولا تجد ديناً من الأديان القديمة إلا وللصيام أهمية كبرى فيه، لأنهم كانوا يعتقدون أن الجسم عدو الروح فيجب إضعافه بالصيام والتشف، بل إن من المتهوسين من يجلد جسمه كل يوم، وأما أنا فأقول: إن الغذاء هو قوام حياة الإنسان وهو يتحول إلى عظام وأعصاب وعضل، بل يتحول إلى نور في العيون وسمع في الآذان وشم في الأنوف وذوق في الأفواه ولمس في الجلد، بل يتحول إلى دماغ وشعور ووجدان، بل يتحول إلى فكر ودين وخيال وسرور، إلى غير ذلك مما يزيد العلم، فليس هو حشو معدة وأمعاء كما كان الناس ولا يزالون يعتقدون، ولذلك يجب أن نطبق طعامنا على العلم الحديث، ويجب أن لا نكتفي بثلاث وجبات، بل أن نأكل ست مرات في النهار.

(٤) النوم: كما حطت الفلاسفة القديمة من قدر الطعام حطت أيضاً من قدر النوم، فكان المتهوسون في الدين ولا يزالون يحيون الليل قياماً للصلاة ويتجهدون، ومن صلواتهم صلاة منتصف الليل وصلاة السحر، وأما أنا فأقول إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش إلا إذا استوفى قسطه من النوم، بل لا بد من القيلولة بعد الغداء، فإنها أدعى للراحة واستجمام القوى وحفظ الشباب.

(٥) السرور والضحك: ليس شيء أدل على حسن الأخلاق وكرم النفس بل على الصبى من السرور والضحك، وليس أعون على الهضم وحفظ الصحة من الضحك، وهنا يعجبني المثل الانكليزي الذي يقول Laugh & Live أي «اضحك تحيا» السرور يكسب الوجه إشراقاً والعيون بريقاً وسائر الملامح جمالاً. ولذلك فإن من أهم أركان أسلوب السرور والضحك. كان الناس يفهمون من الدين أن من مقتضياته التحزن والكآبة، فترى رجال الدين يلبسون الثياب السوداء الطويلة الأذيال والأكمام، ويرخون شعور رؤوسهم ولحاهم ويجتنبون أماكن اللهو واجتماعات الأنس، كأن الضحك عندهم خطية لا تغتفر، وأما أنا فأقول: إن الحزن والكآبة خطيئة عظيمة بل مرض في النفس يفضي إلى مرض بل أمراض في الجسم وقد قال ابن مسكويه في كتابه تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق: أن الحزن ليس بضروري ولا طبيعي، فيجب أن تقبل على الحياة وتبهج بها وتحرص على إقامة الليالي والاجتماعات الأنيسة اللطيفة. يجب ان تعنى بالموسيقى والغناء. وإذا عرضت المصائب فيجب أن تتلقاها بشجاعة وصبر وطمأنينة، ولا ندع الحزن يأكلنا.

(٦) ساعات العمل. اكتفت الشرائع القديمة بتخصيص يوم واحد للراحة في الأسبوع، أي حددت أوقات العمل بالأيام، وأما أنا فأقول: إن يوماً واحداً للراحة في الأسبوع لا يكفي، بل لا غنى عن يومين على الأقل في الأسبوع ونضيف اليهما يوماً ثالثاً مرة كل شهر، ثم لا بد في كل عمل مهما كان نوعه من ثلاث عطل أسبوعان في أول السنة وأسبوعان في أواخر الربيع وشهران ونصف في الصيف على حسب اصطلاح

المدارس ، وأما أوقات العمل فيجب أن تحدد بالساعات لا بالأيام ، فلا يجوز أن يتجاوز العمل كل يوم الأربع ساعات ، ويجب أن يستريح العامل عشر دقائق بين الساعة والأخرى حسب اصطلاح المدارس الجديد . لماذا لا يكون العامل في شغله مثل التلميذ في مدرسته ، نوفر للتلميذ شرائط الصحة ووسائل الراحة ، ثم حين يخرج من المدرسة نزع به في معترك هذه الحياة ولا نبالي بصحته وراحته ، وهذا بحث يحتمل كلاماً طويلاً ليس هذا محل بسطه .

(٧) السياحة . . كان الاسرائيليون يحجّون إلى أورشليم مرة في السنة ، ولا يزال الحج فرضاً على من استطاع إليه سبيلاً من المسلمين ، ولو مرة في العمر ، وكان المسيحيون يحجّون إلى بيت المقدس بقصد التبرك ، وأما أنا فأقول يجب على الإنسان أن يطوف حول الأرض إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وإلا فيكفي أن يحج إلى البلاد الراقية ، أو يكفي أن يذهب إلى أقرب مرفأ فيركب البحر ويسافر إلى حيث تذهب به الباخرة ولو استغرق سفره الشهرين أو الثلاثة ، فإن ذلك يكسبه صحة ويجدد شبابه ويوسع مداركه ويعرفه بالعالم . . وقد بقي هناك أشياء كثيرة من مقومات أسلوب في الحياة سأسير إليها شيئاً فشيئاً كما توجيه إلي الأحوال والظروف .

في المساء زارنا بديع السنونو وصبحي أفندي عويضة وموسى أفندي العلمي ، فسهرنا في صالون جيراننا ، وسهر معنا الخواجا جورج عطية وأم الياس وبناتها وأولادها . بشرني الخواجا بديع أن قد وردت رسالة إلى الخواجا طورسيان من الخواجا كلارك في سويسرا يكلفه فيها أن يهدي سلام أم سري إليّ ، وأن يطمئنني عنهم ، فسرت لذلك سروراً عظيماً ، هذه أول مرة سمعت عن أحبائي . لا شك أنهم اطمأنوا عليّ فأخذت الكمنجة من فوري وعزفت عليها نغمة التحية . . دخلت الأنسة طورسيان على أم سري وبعد التحيات والمجاملات أخرجت رسالة وردتها من سويسرا من الخواجا كلارك يطمئنها فيها عن أبيها ، ويكلفها أن تطمئن أم سري عن خليل فأشرفت أسرتها ولمعت عينها ، ولم تتمالك أن نادت سرياً وجدته وعمته وبشرتهم بذلك . ثم اشتركوا جميعاً في شكر الأنسة طورسيان ، وجعلوا يبالغون في إكرامها ويستعيدونها قراءة تلك الأسطر من الرسالة التي تتعلق برجلهم وهم يقولون الحمد لله ، الحمد لله ويكررون عليها الرجاء إذا كتبت إلى أبيها أو الخواجا كلارك أن تبالغ في الشكر ، وأن تكلفه إهداء ألوف من القبلات والتحيات إلى خليل ، تقول أمي : طمأنيه وأوصيه بالصبر والعناية بالصحة ، وتقول ميليا : بلغيه أشواقنا ، ويقول سري : سلمني على البابا وقولي له أن يرجع حالاً ، وتقول سلطانة : بالغي ما شئت في الشكر وبث الأشواق ، ولا بد أنهم طلبوا منها عنوان الخواجا كلارك في سويسرا ليبادروا بالكتابة إليه ، ولا بد أن رسائلهم بعد اليوم سيتلو بعضها بعضاً . . وبعد أن انقضت تلك الجلسة خرجت أمي وأختي وسلطانة وسري يطوفون على الأصدقاء

والأهل والمعارف يبشرونهم بورود خبر عن خليل بعد هذه المدة الطويلة ، فلم يلبث أن انتشر الخبر ، ثم جعل الأصدقاء والأقارب يفدون على البيت يهنئون ، لا أستغرب احتفالكم يا أحبائي بورود خبري عليكم ، فقد احتفلت بورود سلامكم ، بل كدت أقف على قارعة الطريق وأبشر الناس من أعرف ومن لا أعرف . بل من رأني قرأ على وجهي علائم السرور والطمأنينة . إذا كان هذا سروري بورود سلامكم فكم يكون سروري إذا أخذت رسالة مطولة منكم تضمنونها كل ما يهمني من أخباركم السارة ، بل كم يكون سروري إذا قيل وضعت الحرب أوزارها فليرجع كل واحد إلى وطنه ، بل كم يكون سروري حين أرجع إليكم فأجدكم جميعاً سالمين . آه واشوقي إلى ذلك اليوم ، وإذا عشت فلا أعيش إلا على أمل اللقاء . ذلك الأمل هو قوام حياتي لا الاستحمام ولا الرياضة ولا الغذاء ، ولا كل وسائل الصحة تغني عنه قليلاً . «عدوني وامطلوا» فإني صابر شاكر .

الجمعة ١٩ نيسان غ/١٩١٨م

بعد الاستحمام واستكمال الفروض اليومية ، زارني الخواجا بديع السنونو والخواجا ليفين وموسى أفندي العلمي ومسلم أفندي ، فأخذت الكمنجة وعزفت عليها بعض أنغام احتفالاً بخبر أمس . ثم ذهبت فعلمت تلميذي الخواجا ألفرد طرزي ، وبعد الغذاء علمت تلميذاتي ، ولم أدخل بيتاً بل لم ألق أحداً إلا بشرته بورود سلام من أم سري . وقد خيل إلي أن الناس جميعاً أصدقائي يسرون لسروري . . بعد الظهر جاء الخواجا ليفين فنزلنا معاً إلى المدينة ، فالتقينا بموسى أفندي العلمي ، فدعوتهم لمرافقتي إلى محطة القدم لنزور جرجي الخوري في السوقيات هناك فاعتذر الخواجا ليفين وذهب لشأنه بعد أن دفع لي ريالاً ونصفاً ، وكنت قد مررت على الخواجا طرزي فأخذت منه ريالاً آخر ، ثم ذهبت مع موسى العلمي مشياً على القدم إلى محطة القدم ، وهذه أول مرة مشيت في هذه الطريق ، والأبنية على الجانبين حقيرة متداعية ، فخيّل إلي أنني أمشي في طرق قرية خربة قد استحوذ عليها البؤس والفقر والشقاء . وما وصلنا إلا وقد علانا الغبار . طلبت جرجي الخوري فجاءني حافياً بحالة يرثى لها فتأثرت كثيراً ، وما وقعت عينه علينا إلا وقد خنقته العبرة ، فتذكرت أيامه في القدس يوم كان يقف في باب دكانه كالأسد في عربنه وقابلتها [مع] ما هو عليه الآن فاستعظمت حوادث الزمان وصروف الليالي ، وبعد أن شجعناه بل عزيناه وتمنينا له أن يفك سراحه قريباً حسب الأمر الأخير بتسريح بعض صنوف العسكرية ، دفعت له ريالاً مجيدياً ، ودفع له موسى أفندي العلمي نصف ريال وودعناه ورجعنا ، ولا يسعني هنا إلا أن أثني على أخلاق موسى الطيبة . لا يعرف جرجي الخوري وجرجي الخوري لا يعرفه إلا بالاسم ، كلفته الذهاب معي لنزوره فلبى الطلب بارتياح وسرور ، بل كدت أوجل الزيارة

إلى الغد حين لم نجد تراماً ذاهباً إلى محطة القدم، فكان من رأيه أن نذهب مشياً على الأقدام لعل الرجل في ضيق، ولما رأى جرجي الخوري تأثر لحالته كأنه من أقربائه. لو كلفت مسيحياً ما كلفته به لاعتذر، أو على الأقل لذهب مكرهاً مجاملة لي... فهل بعد هذا من مزيد دليلاً على كرم أخلاق المسلمين ووفرة مروءتهم... ذهبت في المساء فتناولت العشاء في غرفة أستاذي وحدي، ثم ذهبت إلى بيت الخواجا تادرس فوجدت عنده شكري أفندي فران مع امرأته وابنته وأستاذي، فسهرنا قليلاً ثم جئت إلى غرفتي وجلست وراء طاولتي أدخن وأكتب.

السبت ٢٠ نيسان غ/ ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية خرجت فعلت تلميذي الفرد طرزي، وبعد الغداء ذهبت فعلت تلميذاتي، ثم جئت إلى غرفتي فعبأت أركلتي، وجلست أدخن، ولم ألبث أن سبحت في عالم الخيال، وحلقت بالفكر فوق القدس. متى تضعين أوزارك أيتها الحرب الملعونة؟.. مهما كانت تيجتك فلست إلا كما قال ابن الفارض في دمشق «غال برداها برداها».. ثم ذهبت فعلت ودفعت للحلاق رسم الشهر، وأنا هناك جاء رجل من مهاجري الأرمن، وتدل ظواهره وملامحه على أنه من كبار قومه ومعه ابنه وهو أكبر من سري قليلاً ليقص شعره، فتذكرت سرياً يوم كنا نأخذُه أنا أو عمته أو أمه لتقص شعره. وكم كنا نوصي الحلاق أن يتأنق في قص شعره وأن يضع له الروائح الطيبة، فكان سري حين يرجع من عند الحلاق يدنو من كل واحد منا لنشتم رائحته. ومع إعجابي بجمال سري فإن شعره آية جماله، فهو يشبه شعر أمه، ذلك الشعر الذي أحبه كثيراً، والذي يحبه الأوروبيون ويعجبون به كثيراً.

ثم خرجت على نية أن أنزل إلى البلد وأزور رستم بك أو التقي بغيره من الأصدقاء، ولكن بسبب الهواء الشديد والغبار، آثرت أن أذهب أزور بيت الفيحاني فتلقتني الأنسة رمزه وأمها بكل حفاوة وعبأتا لي أركيلة، وجلسنا نتكلم عن القدس وذكرنا سلطنة وسرياً وسائر الأحباب. لما كنت في دائرة البوليس موقوفاً جاءني يوماً سلطنة وسري وعمته، فأخذت سرياً وأجلسته على كرسي هناك وجعلت أباسطه وهو ساكت ذاهل، ثم التفت إلي وقال لي باللغة الإنكليزية هذه الكلمات «Papa you must come back home quickly» هذه آخر ما يرن في أذني من كلماته..

شئت الأقدار وسوء الحظ ونكد الطالع، أن أنفصل عنك يا سري فأحرم منك وتحرم مني زماناً طويلاً. ثم جئت إلى غرفة أستاذي فتناولت العشاء ورجعت إلى غرفتي فسهرت في بيت جيرانني. اشتد علي السعال في الليل والنهار يومين أو ثلاثة بحيث كنت إذا سعلت أحس كأن رأسي يتصدع وضلوعي تتمزق.



موسى العلمي ، ميليا السكاكيني و خليل السكاكيني في الاربعينات . مجموعة عائلة السكاكيني .

الأحد ٢١ نيسان غ سنة ١٩١٨م

اشتد علي السعال ليلة أمس فأزعجني كثيراً ، في الصباح جاء موسى أفندي العلمي يحمل أشياءه ليسكن عندنا ، فدعوته لحضور حمامي ليقتبس أسلوبه فيه ، إذا رجعت إلى بلادي علمت الناس أسلوبه في الاستحمام والدلك والتنشيف والألعاب .

بلغ سعر الليرة من الورق أربعين غرشاً ، كما بلغ ثمن رطل الخبز ثمانية عشر غرشاً ، بعد الحمام جاء توفيق جوهرية ، وقال : إنه مسافر غداً إلى عمان مع رفاقه ليكونوا بمعية جمال باشا الذي جعل مقره عمان ونواحيها ، فكلفته أن يجيء الليلة مع شكري القاري عندنا لنحبي ليلة غناء ، فوعد أن يجيء مع رفيقه هذه المرة . ثم نزلنا إلى البلد فخرجنا على رستم بك وشددنا عليه أن يجيء مع زين العابدين أفندي ، والشيخ أحمد الذي كان أستاذ التجويد في الكلية الصلاحية في القدس ، ثم مررنا على صبحي أفندي عويضة ودعوناه مع أخيه عبد السلام أفندي ، ثم لقينا بديع السنونو فدعوناه أيضاً . ثم رجعت مع موسى أفندي إلى غرفة أستاذي وتناولنا الغداء معاً ، ورجعنا إلى بيتنا فأوى هو إلى فراشه ، وجلست أنا وراء طاولتي أدخن وأكتب .

رب سائل يقول : لماذا تكتب هذه اليومية فأقول إن لي في كتابتها أغراضاً عديدة : أولاً ، قطع الوقت ، أن أجلس وراء طاولتي فأكتب ما يحضرني أحب إلي من التجول في الشوارع أو الجلوس في محال القهوة ، أو زيارة الناس ممن لا يفهموني ولا أفهمهم . ثانياً ، تدوين حوادثي وتأثيراتي في وقتها واستيعاب ما يمر بي من الدروس والعبر . ثالثاً ، وهو الغرض الأهم ان تكون يوميتي هذه كتاباً عائلياً أصور لهم أيامي في الغربة يوماً فيوماً ، ما ألد أن نجلس في المستقبل في ليالي الشتاء فأقرأ على أحبابي أخباري ، وأقابلها بأخبارهم التي أرجو أن تكون سلطنة قد تفتنت لكتابتها يوماً فيوماً . رابعاً ، ربما نشطت في المستقبل لوضع كتاب في الحياة أو في أسلوبه ، فأجد مواد كثيرة في يوميتي هذه أضمتها في ما أكتب إن شاء الله . على أنني آسف كثيراً أنني أكتب يوميتي هذه بسرعة ، وبدون أن أوفي كل بحث فيها حقه من الترتيب والاحاطة ، وفوق ذلك أن خطي سقيم لا يكاد يستطيع قراءته أحد غيري ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله . . ثم نمت وبعد النوم زارني الخواججا ليفين ومعه شخص آخر من يهود يافا اسمه الخواججا شلوش ، وقد قضى هذا في السجن في دمشق خمسة أشهر ، وبعد أن ذهبنا خرجنا أنا وموسى والأوانس عفيفة وملكة وأولغا وذهبنا إلى بستان البلدية ، وقد مررنا على رستم بك فذهب معنا ، والتقينا بابني جيراننا الياس وأخيه الصغير فراقنا . البستان جميل واسع فيه مسرح للغناء والرقص ودكة مسقوفة للأجواق الموسيقية ، فأخذنا مجالسنا بين المسرح والدكة على جانب الناس ، وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب فأضيء البستان بالأنوار الكهربائية ، الجوق الموسيقي نمساوي ، وجوق الغناء والرقص عربي ، وشتان ما بينهما ، أنغام الأول راقية حية مؤثرة ترقى بالنفس

وتبعث فيها الحياة والنشاط والسرور ، وأنغام الثاني منحنية ضعيفة أشبه بالنواح . العازفون بالموسيقى جنود في عنفوان الشباب ، والمغنون صعاكك ضعفاء مهازيل يمثلون البؤس والشقاء . كل نغمة للجوق الموسيقي حتى ضربات الطبل والصنوج تشف عن قوة وحياة ، وكل نغمة للجوق العربي تشف عن ارتخاء في النفوس ، فكأنها كانت تخرج من حلوق أموات لا أحياء . الجوق الموسيقي يمثل الغرب ، والجوق العربي يمثل الشرق . ذلك حي وهذا ميت . وكان الجوقان يتناوبان ، فإذا عزف الجوق الموسيقي بأنغامه فكأنه يبث الحياة في النفوس والأجسام ، وإذا عزف الثاني فكأنه ينشق الناس الكلو فورم ، ثم انصرف الجوق الأول وبقي الجوق العربي فجعلت المغنيات تتناوب الرقص على المسرح ، وما أشبه الرقص العربي بالغناء العربي ، لا حياة فيه ولا جمال . الرقص طبيعي في البشر يمثل الغناء أو النغمة الموسيقية تمثيلاً ، فكل حركة يديها الراقص برجله أو يده أو رأسه أو سائر جسمه ، يجب أن تكون لها علاقة بالموسيقى أو الغناء ، ولكن لو دققنا النظر لما رأينا في حركات الرقص العربي ما يترجم الغناء الذي يغنيه أو النغمة الموسيقية التي يرقص على توقيعها ، فقد تكون النغمة شيئاً وحركة الراقص شيئاً آخر ، الحياة الحياة إذا أردتم أن يكون لكم موسيقى أو غناء أو شعر أو أدب أو أي فرع من الفنون الجميلة بل إذا أردتم أن يكون لكم وجود فليكن فيه حياة وإلا فلستم الا هيكل بالية .. هذا بحث واسع سأوفيه حقه في فرصة أخرى .. ثم قمنا من هناك وجئنا الى البيت وكم وددت لو كان أحبائي معي .. لا تطيب لي الحياة إلا إذا اشتركوا معي فيها ... ثم جعل الاصدقاء يتوافدون فجاء رسم بك وزين العابدين أفندي وصبحي أفندي عويضة والخواججا بديع السنونو والخواججا فريد كينروفتش واما توفيق جوهرية وشكري القاري فلم يجيئاً ولعل لهما عذراً وأما استاذ التجويد فقد فات رسم بك ان يدعوه حين جاء للغداء في دار المعلمين ثم لم يجد طريقاً لابلأغه الخبر ، فاقصرنا في سهرتنا على بعض أغان انكليزية غنيها لهم وبعض أنغام عزفتها على الكمنجة ثم لعبنا على الكراسي وأخذنا الرهون وحكمنا على أصحابها أحكاماً مختلفة ، من أهمها أن حكمنا على رسم بك ان يرقص وكلفنا الأنسة عفيفة أن ترقص معه ففكرت بالاجابة مما دل على أنها من الحزب الجديد ، وحكمنا على زين العابدين أفندي أن يغني فغنى أغنية هندية دلتي على أن الغناء في الشرق كله من أدناه الى أقصاه على وتيرة واحدة لا حياة فيه ولا جمال .. وعند نصف الليل انقضت السهرة على أمل أن نعود الى مثلها في القريب العاجل نستوفي فيها الشروط اللازمة ..

الاثنين في ٢٢ نيسان غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية ذهبت فعلمت تلميذي ثم تلميذاتي وقد طلبن اليّ يوم السبت الماضي أن نجعل الدرس قبل الظهر لا بعده ، ولذلك ذهبت اليوم الساعة العاشرة الى الفرد طرزي والساعة الحادية عشرة

اليهن وبذلك أتمكن من الاستراحة بعد الظهر في هذه الأيام الحارة، وربما ابتدأت بالاستحمام مرتين في النهار في الصباح وبعد الظهر حسب عادتي في القدس... لا أحب أن أرجع إلى أحبائي بعد انقضاء هذه الحرب ضعيفاً هزليلاً مسترخي الجسم والنفس مقصوم الظهر محطم الرأس تلوح عليّ علامم الهرم والضعف والذل واليأس... بل أحب أن أرجع قوياً نشيطاً واسع الصدر عريض المنكبين مكتمز العضل غض الشباب قشيب الإهاب صحيح العواطف قوي الأمل جميل الظن فكّه النفس ضحوكاً، وفوق ذلك واسع الاختبار إن شاء الله..

بعد الساعة الرابعة ذهبنا إلى البستان البلدي أنا وموسى والآنستان عفيفة ومملكة وأخوهما ميشيل والمعلم جورج أفندي عطية. فسمعت من الغناء ورأيت من الرقص ما اشمازت له نفسي. لست ممن يسرون بمثل هذه المسرات الواطئة، ولذلك كدت أحسب نفسي غريباً عن الناس لا أفهمهم ولا يفهموني.

الثلاثاء ٢٣ نيسان غ سنة ١٩١٨م

جاءنا زين العابدين أفندي باكراً يدعونا للخروج معهم إلى الربوة فاستحمننا بسرعة زائدة، وذهبنا إلى دار المعلمين فوجدنا المدرسة كلها على أهبة الخروج، وكانت السماء غائمة ثم أخذت تمطر رذاذاً، ومع ذلك فلم تمنعنا عن الخروج، ونحن في الطريق اشتد المطر وما وصلنا إلا ونحن مبللين فأوينا هناك إلى رواق القهوة، وكان بين المدعويين رجل من بيروت اسمه الحاج عبد الرحيم أفندي الصفيح يحسن الانشاد والغناء، فجعل يغني وينشد ويساعده الشيخ أحمد أستاذ التجويد في الكلية الصلاحية، ثم أقلعت السماء فقمت مع رستم بك وموسى فركضنا إلى المزة وسررنا كثيراً، ولما رجعنا وجدنا التلاميذ يمثلون رواية هزلية، مثل أحدهم امرأة تريد الزواج، فكلفت خادمها كاملاً أن يفتش لها عن زوج، فأحضر لها أربعة لتختار واحداً منهم، وتخلل الرواية من الألفاظ والإشارات تصريحاً وتلميحاً ما يندى له الجبين حياءً، ومع ذلك فقد كان المدير والأساتذة وسائر المدعويين مسرورين يقابلون تلك الألفاظ والإشارات بالتصفيق، إلا رستم بك وموسى أفندي فقد شاركان في الاشمزاز والاستهجان.

وبعد الرواية أخذ مصور صورة التلاميذ والأساتذة، فانزويت مع موسى جانباً وجعلنا نتحدث عن القدس وعن نزهاتنا في مصيفهم في شرفات، فساقنا الحديث إلى ذكر منانة صيداوي وعادل جبر، وعمما بينهما من العلاقات الودية، إذا كان قصدهما الزواج فلا لوم ولا تريب وبالعشاء رجعنا في وع لقم نمشي ويبدأ، وكان الحاج عبد الرحيم أفندي يطرب الجميع بإنشاده وأغانيه فيقابلون كل كلمة من كلماته وكل لهجة من لهجاته بأعجاب عظيم كأنهم كلهم عشاق مفارقون... على أنك إذا لقيت كل واحد منهم غداً لقيت شخصاً

آخر، لا يتأوه ولا يتلوى ولا يئن ولا ينحني .

لا شك أن ذلك تأثير الغناء في النفوس، فهو يثير عواطف الغرام ويصور كل واحد أنه محب وأن محبوبه آية الجمال، فتارة يتصوره قريباً منه يغازله ويضحكه، وتارة يتصوره بعيداً عنه مجافياً له حظه من القلي والملا، إلى غير ذلك من التصورات والانفعالات التي لعبت ولا تزال تلعب بالبشر إلى الأبد، ما هو الحب؟ وهل يستطيع أن يعيش الإنسان بدون حب؟ أمسك القلم هنا وأضرب على ما [في] نفسي إلى فرصة أخرى.

الأربعاء ٢٤ نيسان غ سنة ١٩١٨م

قلقتني الأحلام ليلة أمس إلى القدس، فكأنني كنت في الجنة التي وعد بها المتقون. وأنا أستحم جاء المعلم نخلة يسأل عني، فقال له موسى: إننا كنا أمس في الربوة، فانقلب راجعاً بدون أن يقول كلمة، فلم أشك أنه مساءً. ثم ذهبت أعلم الفرد طرزي فوجدته قد ذهب مع أبيه إلى معمل لهم قريب من المنزل ليأخذه في أوموبيل، فأرسلت أمه تستدعيه فجاء. وما كدنا نجلس للدرس حتى مر الأوتوموبيل فهب من مجلسه وركض إلى المعمل، ولكنه لم يدرك الأوتوموبيل فرجع باكياً حاتقاً، وأقبل على أمه يوسعها سباً ولكماً وهو يكاد يتميز من الغيظ، فجعلت أمه وجدته وخالته يستعطفن خاطره، وهو لا يزداد إلا هياجاً ثم انقلب على الخادمة يضربها ويسبها، فوقفت أمام هذا المنظر متأملاً بل متألماً، وظهرت أمامي مسألة تعليم الأولاد وتربيتهم مشكلاً عظيماً يستعصي على أكثر الناس حله. ولو سئلت عن رأيي في ذلك لقلت: يجب على الوالدين أن لا يضعوا التجارب أمام أولادهم من جهة، وأن يقووا نفوسهم من الجهة الأخرى، بحيث إذا عرضت لهم التجارب تماسكوا عن الوقوع فيها أو قابلوها بشجاعة ورضى وسرور. وربما بسطت فكري في هذا الموضوع المهم في غير هذا الموضوع، ثم ذهبت من هناك إلى تلميذاتي فجاءتني الأم وعلائم الاستياء على وجهها تعترض على تعيبي أمس عن الدرس، ثم جاءت بناتها وجعلت كل واحدة تتناولني بكلمة، الواحدة، تقول: في الأسبوع الماضي خسرتنا يومين وها قد خسرتنا في هذا الأسبوع يوماً آخر، والأخرى تقول: ماذا تعلمنا في كل هذه المدة والثالثة تقول: نصرف الوقت بالضحك. هذه كلماتهن وأما نظراتهن، وحركات رؤوسهن وأكفهن وأيديهن ولهجة أصواتهن فما لا أستطيع تصويره بالكلام، فأضرب صفحاً عنه. والخلاصة فإنهن لم يوفرنني، بل لعله خيل لهن أنهن سيداتي وأنا عبدهن، فوقفت أتلقى سهام كلماتهن ونظراتهن وأنا لا أنس بنت شفة، وأنا أعجب من هذه المعاملة التي تشبه مساومة أشد التجار حرصاً وشحاً على أن الدرس الذي يخسرته أعوضه عليهن يوم آخر فعلام كل هذا الخوف؟ أولاً يجوز لي بعد أن

رأيت منهن ما رأيت ، أن أعاملهن بذات المعاملة ، أن أعلمهن على قدر القيمة التي يدفعنها لي ولا أبالي تعلمن أو لم يتعلمن ، بل ألا يجوز لي على الأقل أن أطلبهن ببقية الرسم الذي اتفقنا عليه ، فقد دفعت لي منذ أيام ستة ريبالات على حين أن الاتفاق كان على ليرة إنكليزية ، ولكن أجل نفسي عن أن أنزل إلى هذه الدرجة الذميمة من الشح واللؤم . وغاية ما أستطيعه أن أبلغهن في آخر هذا الشهر أنني لا أستطيع أن أعلمهن أكثر ولو مت جوعاً

بعد الدرس خرجت وأنا أكاد أتقياً من تلك المعاملة ، وذهبت إلى غرفة أستاذي لتناول الغداء ، ولكن رأيت مشيحاً بوجهه عني ، لا يطيق أن يكلف نفسه الكلام ، بل استلقى في زاوية مقعده لينام ، فلم أرَ بداً أن أكتفي بضع لقمات وخرجت حالاً . . . كل ما لقيته منذ خرجت من البيت إلى الآن ، لا يعادل عندي ما لقيته هذا اليوم من الهوان . وحدثني نفسي أن أترك كل دروسي وأستقل في طعامي عن أستاذي ، ولو اضطررت أن أكتفي من الطعام بوجبة واحدة ، ولو كانت خبزاً يابساً .

بعد الظهر نزلت إلى البلد فلقيت حسن أفندي حماد ، فبلغني أن الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر قد رجع من السلط ، فذهبت توا إليه فسلمت عليه ورجوته أن يسعى جهده في تدير وثيقة لي للسفر الى نابلس ، إذ لم أعد أستطيع أن أعيش في هذه البلاد ، فبالغ في تشجيعي وتطبيب خاطري والشعور معي ، وقال لي : سأبذل جهدي الآن في تأليف صف من أولاد كبار القوم لتتولى تعليمهم ، وسأدير لك وثيقة خبز من الاعاشة ، وفوق هذا فمتى رجع جمال باشا ، أخذت لك منه [إذنا] بالسفر ، فاصبر فإن الله مع الصابرين

كنت اتفقت مع ابراهيم أفندي حلمي ومسلم أفندي أن أبدأ بتعليمهم اللغة الإنكليزية منذ اليوم ، فذهبت أكلفهم الحضور الى بيت الأستاذ ليشتروا معاً في الدرس ، فلم أجد أحداً ، فرجعت إلى غرفة الأستاذ وأجلنا الدرس إلى الغد ، ثم خرجنا معاً أنا وهو ورياض بك الصلح ، فلقيت في الطريق صديقي العزيز نور الدين بك راجعاً من اطنه ، ثم جاء موسى أفندي العلمي ، فتركت الأستاذ ومشينا مع نور الدين بك الى منزله في الصالحية ، فدعا أخويه الصغيرين لأمتحانها فحضرا ، فرأيت من ذكائهما وحسن تربيتهما ما دهشت له .

وقد بلغ من اهتمامه بهما أن أحضر لهما معلمة مسيحية من الناصرة ، وهي من خريجات المدرسة الإنكليزية في يافا ، وقد كلفني أن أبين لها طريقتي في التعليم والتربية لتسير بموجبها معهما ، ولكن ما كدت أشرح طريقتي وأبين آرائي حتى أخذ نور الدين بك يتكلم عن التربية والتعليم ، وقد رأيت من آرائه وبعد نظره ما أدهشني ، ولا يسعني إلا أن أقول : إنه يكاد يكون الرجل الوحيد من كل من عرفت من مسلمي بلادنا الذي يحاول على قدر ما لديه من الوسائل ، ان يربي إخوته على أحسن المبادئ وأقوم الطرق . . . ثم رجعت مع موسى إلى ماوانا .

الخميس ٢٥ نيسان غ سنة ١٩١٨م

مرّ عليّ عدة أيام لا أملك شيئاً ، ولست أدري كيف كت أستطيع أن أدبر نفسي لو لم يعيش موسى معي . بعد استكمال الفروض اليومية ذهبت فعلت الفرد طرزي ثم تلميذاتي . مررت على غرفة أستاذي وقلت للدادا ماري ان لا ينتظروني للطعام هذه الأيام ، لأنني مشغول مع موسى وسائر الأصدقاء .

بعد الغداء نمت ثم خرجت مع موسى لنوافي نور الدين بك في قهوة الزهرة حيث كان ينتظرنا حسب الاتفاق أمس . لقينا في طريقنا رستم بك فدعانا لتناول بوزا في دكان هناك ، فلبينا دعوته ثم اعتذر بأنه مشغول ، فلا يستطيع أن يرافقنا بقية هذا النهار ، ولا أن يزورنا في المساء . جننا الى قهوة الزهرة فأخذنا نور الدين بك وذهبنا نزور الشيخ عبد القادر أفندي المصغر فلم نجده ، فلم نر بداً أن نرجع إلى بيتنا ، فجلست مع نور الدين بك وقرأت له شيئاً من يوميتي وشرحت له أسلوبي في الحياة فأعجب به ، ولكن قال : لا يمكن أن يكون مذهباً عموماً لأنه ليس كل الناس يستطيعون أن يتمموه ، فقلت له : وأي مذهب من المذاهب القديمة يستطيع جميع الناس العمل بموجبه ، ومع هذا فإن أسلوبي سهل ، وكلما ترقى الناس زاد عدد الذين يستطيعون الجري عليه ، ثم ذهب موسى فهياً عشاء لنا ، فتعشنا معاً وسهرنا في صالون جيراننا الى نحو الساعة التاسعة والنصف .

جاءني في أول المساء الخواجا ليفين مع رفيقه الخواجا يكدال ، وقال : إن البوليس بلغه أن يكون غداً صباحاً في الساعة السابعة والنصف في محطة السكة الحديدية لیسافرا إلى أنقرة ، وسألني : هل أستطيع أن أؤخر سفره يومين أو ثلاثة بواسطة أصدقائي ، فوعده أن أذهب بعد قليل فأبذل كل ما في وسعي . فبعد أن انتهت سهرتنا نزلت مع نور الدين بك ، وذهب موسى معنا ، فمررت على بيت الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر فلم أجده ، فعزمت أن أراجعه غداً صباحاً . . على أنني لا أستطيع أن أنكر أنني لا أحب التداخل في أمره ، فإنه فضلاً عن أنه كان السبب في مصيبي هذه ، لا أستطيع أن أمتج به أو اتخذه صديقاً ، لأنه يمثل في أفكاره وأخلاقه وتصرفه يهودياً قديماً بل لعل اليهود أنفسهم ينفرون منه ، ومع ذلك فإذا استطعت مساعدته فلا أتأخر لأمر واحد ، وهو كونه شريكاً في المصيبة .

الجمعة ٢٦ نيسان غ سنة ١٩١٨م

قمت باكراً جداً فاستحمت وكل من في الدار نيام ، وخرجت فذهبت رأساً إلى بيت الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر ، فوجدت أنه قد خرج فجئت إلى المحطة الحجازية بالقرب من شارع جمال باشا أطلب الخواجا ليفين ، لأنني قدرت أنه سيسافر منها فلم أجد أحداً ، فرجعت إلى غرفتي فأفطرت أنا وموسى

ثم ذهبت فعلمت الفرد طرزي وتلميذاتي أوما وفكتوريا واويل ثم جئت إلى غرفتي .
لقيت في الطريق الخواجا شلوش ، فقال : سافر الخواجا ليفين فأسفت كثيراً . لولا حسن الحظ لكنت رفيقه في سفرته هذه . . عرف منذ خرج من السجن أنهم سيبعدونه من دمشق فجعل يجري من محل إلى آخر ، ولم يترك واسطة إلا اتخذها تذرعا للبقاء في دمشق ولكنه لم يوفق ، ولعل ذلك ناشئ عن تردده ، فلا يعتمد على أمر أو يتخذ واسطة إلا في الدقيقة الأخيرة ، أو بعد فوات الوقت على حد قول الشاعر :
وربما فات قوم جل أمرهم مع التآني وكان الحزم لو عجلوا

بعد الدرس جئنا إلى مأوانا وكنا قد كلفنا في الصباح جارتنا أم الياس أن تطبخ لنا فولاً ، فاشترى موسى الفول واللحمة واشترت رطلاً من الخبز وأوقية جبنة ، ولكن لم يكن الغداء حاضراً فأكلنا خبزاً ولبناً وجبنة ، وأجلنا الفول إلى العشاء ، بعد الغداء نمت وبعد النوم أخذنا الأوانس عفيفة وملكة وأولغا ، والمعلم جورج ونزلنا إلى البلد فدعاهم موسى على بوزا ، أما أنا فقد اعتذرت وذهبت أزور الشيخ عبد القادر أفندي المصغر فلم أجده ، فذهبت إلى البستان البلدي ، وكان موسى قد سبقني مع الأوانس إليه فلقيت في طريقي نور الدين بك وصاحباً له من الضباط فجاء معي فجلسنا هناك ، إلى أن انتهت نوبة الجوق الموسيقي ، فقمنا وقد قررنا أن نزور نور الدين بك بعد العشاء .

كان عشاؤنا لذيذاً وربما اعتمدنا بعد اليوم أن نكلف أم الياس أن تطبخ لنا ، بعد العشاء ذهبنا إلى بيت نور الدين بك ، وجاء زين العابدين أفندي معنا فسهرنا إلى نحو الساعة الحادية عشرة ، وما وصلنا البيت إلا وقد صارت نحو الثانية عشرة ، هذه خلاصة حوادث النهار .

في هذا اليوم يحتفلون في القدس بنزول علم النبي موسى ، ومن اليوم تبدئ الحفلات الباهرة في القدس إلى آخر الأسبوع القادم ، وبعض الأسبوع الذي بعده .

في هذه الأيام كنا تنفرغ للروح والمجيء والتمتع بلذة البطالة ، آه على تلك الأيام .
منذ جاء موسى فسكن معي أكثرنا من الخروج مع الأوانس عفيفة وملكة وأولغا ، وإني أخشى أن يتخذ أهل دمشق ذلك سبيلاً للكلام عليهن ، ولذلك عزمت على الإقلال من هذه الخروج معهن ، وإذا خرجنا فيجب أن يكون أخوهن معهن ، لأن الناس لا يعرفوننا ليحسنوا الظن بنا ، وليس من المروءة أن تترك مجالاً لكلام الناس .

السبت ٢٧ نيسان غ سنة ١٩١٨م

يقول الذين ينكرون على المرأة حرمتها واختلاطها بالناس : إنها قد تتعرض بذلك لمواقف لا تأمن فيها المذلة ،

وإن أقوى النساء في أخلاقهن وأشدهن حرصاً على سمعتهن وشرفهن قد لا تستطيع الوقوف أمام تجربة صغيرة.. وإن عثرة المرأة لا تقال إلا الأبد. ولكن إذا قابلنا بين حرية المرأة على ما في ذلك من الخطر أحياناً وبين استعبادها وإنكار الحرية عليها بحجة أن ذلك أصون لشرفها، لرأينا أن الحرية أنفع لها وأعون على ترقيتها، وأن سقوط المرأة مع الحرية أقل من سقوطها مع عدم الحرية. على أن سقوط المرأة ليس نتيجة لازمة عن حرمتها أو عدمها، بل هو في الأغلب نتيجة عن الضعف البشري في الرجال والنساء عموماً. ثم لا تسقط امرأة إلا وسقط معها رجل، فلماذا تمنع المرأة حرمتها ولا تمنع الرجل حرمة.. ما هو الشرف؟ يختلف الشرف في الأمم باختلاف عوائدها واصطلاحاتها وتقاليدها، بل يختلف في الأمة الواحدة مع الزمان، قضت العوائد في الشرق أن تكون المرأة محجوبة فشرها في احتجابها فإذا خرجت فعبث النسيم بمنديلها بحيث يظهر شيء من وجهها، فقد أضاعت شرفها سواء في ذلك المسيحية أو المسلمة، ثم رفع الحجاب عن المسيحية، ولكن اقتضى الشرف أن تكون أكمامها طويلة بحيث لا يظهر شيء من معصمها، فإذا اتفق أن ظهر شيء منه فقد أضاعت شرفها، ثم اقتضى الشرف أنها إذا اجتمعت مع الرجال أن تجلس إلى جانب الرجال إلى جانب، أو الرجال في غرفة والنساء في غرفة، فإذا جلست المرأة إلى جانب رجل غريب فقد عرضت سمعتها للخطر. ثم تخطت هذا الدور فصارت تجالس الرجال وتحادثهم وتضحكهم ولا لوم عليها ولا تريب، ولكن إذا التقت بهم في الطريق ولو كانوا من أقرب الناس إليها، فلا يجوز أن تطارحهم السلام أو تظهر أنها تعرفهم، فإذا اتفق أن سلمت على رجل في الطريق، أو وقفت إليه، فقد أتت أمراً إداً. ثم تخطت هذه الأدوار فصارت تخرج وتدخل وتجالس الرجال، ولكن بشرط أن تكون أمها أو أبوها أو أخوها معها، فإذا خرجت وحدها فقد تعرضت للملام والانتقاد. لما كانت المرأة محجوبة كان الرجال إذا رأوا اتفاقاً وجه امرأة عبث بهم الغرام، ثم لما ألفوا رؤية الوجوه صاروا إذا رأوا الأعناق مكشوفة كان ذلك أدعى لغرامهم، ثم لما ألفوا رؤية الأعناق، ولم تعد رؤية الوجوه والأعناق تثير فيهم غراماً صاروا إذا رأوا ساعداً مكشوفاً كان ذلك عندهم أمراً عظيماً، ثم ألفوا رؤية الوجوه سافرة والأعناق والسواعد مكشوفة ولم يعودوا يرون في ذلك [أمراً مسيئاً] للمرأة، ولكن إذا اتفق أن بالغت المرأة في كشف أعلي صدرها، فقد كان ذلك مدعاة لسوء الظن بها، كان الرجل يكتفي أن يرى وجه المرأة، ولما صار ذلك مألوفاً صار يكتفي أن يجلس إليها في بيتها بين ذويها، ولما صار ذلك مألوفاً صار يكتفي أن يبادلها التحية من بعيد، ولما صار ذلك مألوفاً صار يكتفي لو يصادفها، ولما صار ذلك مألوفاً صار يود لو يستطيع أن يمشي إلى جانبها، ولما صار ذلك مألوفاً صار يود لو يستطيع أن يرقص معها. كان الرجل إذا أراد الزواج يعتمد في اختيار زوجة له على رأي أمه أو أخته، ثم لما رفع الحجاب صار يكتفي في اختيار زوجة له برؤيتها ولو مرة واحدة في بيتها أو في الطريق، ثم صار يشترط أن

يتعرف بها ويجلس إليها ، ثم لم يعد يكتفي بذلك بل صار يطلب أن يعاشرها في بيتها بين ذويها ، ثم لم يعد ذلك كافياً في اعتقاده ، فصار يحب أن يعاشرها وحدها ويدخل ويخرج معها في الليل وفي النهار قبل أن يقرر اختيارها زوجة له . وخلاصة الكلام أن الشرف أمر اعتباري ، بل يكاد يكون في أكثر مظاهره أمراً موهوماً ، ولا بد أن يأخذ الشرف مع الأيام صورة أخرى أقرب إلى العقل ، وسيصبح كثير مما تفاخر به ونحافظ عليه من الشرف آراء عتيقة لا يعاب بها أحد ، ولو كوشف المحافظون على تقاليدهم بما سيصير إليه شرفهم الموهوم في القريب العاجل ، لانشقت مراتهم أسفاً ، وتلظت أنفاسهم غيرة وحنقاً ، والإنسان كما يألف ويعتاد ، لا كما يعرف ويعتقد . وأمسك القلم هنا وفي ما تقدم كفاية ، ولعل لي عودة إلى هذا الموضوع .

بعد استكمال الفروض اليومية ذهبت فعلمت تلميذي وتلميذاتي ثم رجعت إلى غرفتي فتمت وبعد النوم نزلت إلى البلد فخرجت على محل الخواجات طرزي فلقيت هناك الخواجا طورسيان ، فسألته : هل ورد في ما جاءه من الرسائل من ابنته في القدس سلام لي من أم سري ، فقال : إن تلك الرسائل قديمة خرجت من القدس قبل نحو ثلاثة أشهر ، وليس فيها شيء من أم سري ، ففهمت أن الخبر الذي بلغنيه بديع السنونو قبل بضعة أيام عن ورود سلام من أم سري في إحدى رسائل الخواجا طورسيان عار عن الصحة ، ثم دخل المخزن الدكتور توفيق كنعان قادماً من نابلس فتبادلنا التحية ، وعزمت أن أستفهم منه عن بيت سلفي الدكتور جورج دعدس في غير فرصة .

رجعت إلى البيت فلقيت أستاذي قد جاء يسأل عني ، فاعتذرت إليه عن امتناعي عن تناول الطعام معه في هذه الأيام ، لأنني أصرف أكثر وقتي في الليل والنهار مع موسى ، ثم خرجنا فمشيت معه فلقيت في الطريق غلام الخواجا ليفين فدفع إلي رسالة منه ، يقول : إنه بعث إلي مع غلامه عشرين ليرة عثمانية ولعلها ورق . ثم عرجت على بطريكية القدس فدفع إلي الأرشمندرت تيموثاوس ثلاثة عشر ريالاً . بعد العشاء سهرت في بيت جيراننا ، وعند الساعة التاسعة جاء الخواجا بديع السنونو من قبل الأنسة رمزة فيعاني تدعوني لقضاء السهرة عندهم ، فلم يسعني إلا أن ذهبت فسهرنا إلى نحو الساعة الواحدة بعد نصف الليل ، وقضينا الوقت في سرد النكات والنوادر مما حضرني وحضرهم .

الأحد ٢٨ نيسان غ سنة ١٩١٨ م

قلقت ليلة أمس كثيراً ، ولعل لثلاثة كؤوس النبيذ التي شربتها في سهرة أمس دخلاً في هذا القلق ، قمت صباحاً فاستحمت جيداً ثم نزلت مع موسى إلى البلد ، فخرجنا على رستم بك ، وكلفناه أن يجيء الليلة مع زين العابدين لقضاء السهرة عندنا ، وكلفناه أن يدعو أستاذ التجويد أو الحاج عبد الرحيم أفندي الصفيح

إذا لم يكن قد سافر إلى بيروت . ثم رجعنا إلى البيت فتعدينا وكان الغداء حساء شعيرية ثم نمت . وعند الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر أخذنا الأوانس الثلاث ونزلنا إلى شارع جمال باشا ، فالتقينا برستم بك ومشينا في الشارع قليلاً ، ثم مشينا على ضفاف بردى إلى أن آذنت الشمس بالمغيب . تركنا موسى قليلاً وذهب ليسلم على الدكتور توفيق أفندي كعنان ، ولم يلبث أن رجع ، وقال : إن الدكتور وردته رسالة من امرأته لما كان في نابلس عن طريق سويسرا ، تنعي إليه وفاة صديقي الأبر أخي الحميم المرحوم المأسوف عليه حسين أفندي سليم ، فوقع عليّ هذا الخبر وقوع الصاعقة ، وإن كنت قد سمعت به قبل اليوم ، إلا أنني كنت أمني نفسي أنه خبر كاذب .. عسى أن تكون سلطنة وميليا وسري قد نابوا عني في موقف الوداع وفي سكب الدموع على ثراه .. مشيت مع جماعتي وأنا أكاد أن لا أعي ولكني تجلّدت .. كنت أحب أن أنفرد بنفسي على ضفاف بردى فأوفيه حقه من البكاء ، إلا أنني خشيت أن أكر صفو جماعتي ، فبكيت ولكن بغير دموع ، وحزنت ولكن تحت علائم السرور ، وغبت عن الوجود ، ولكن أوهمت أنني حاضر شاهد .

رجعنا إلى البيت وذهب موسى وأحضر الدكتور معه فتناولنا العشاء معاً ، وبعد أن جلس عندنا قليلاً اعتذر وانصرف ، ثم لم يلبث الاصدقاء أن جعلوا يتوافدون ، افتحنا سهرتنا بتكليف الأستاذ الشيخ أحمد أن يرتل لنا شيئاً من القرآن الكريم ، وبعد التجويد أخذ الأستاذ عبد الرحمن أفندي سلام العود وجعل يعزف عليه ، وجعل الأستاذ أحمد أفندي يطربنا بأغانيه وأناشيده ، أليس من قلة الوفاء أن أشرك في مثل هذه السهرة ، بعد أن تحققت وفاة صديقي الأبر ، العفو العفو يا أبا سليم :

لا أكؤس الراح تبدي من شمائلنا
سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا

وفي الساعة الواحدة والنصف بعد نصف الليل انقضت السهرة ، وأما حضور هذه السهرة فهم : رستم بك وزين العابدين أفندي والأستاذ الشيخ عبد الرحمن أفندي سلام ، والشيخ أحمد أفندي زروق وصبحي أفندي عويضة وأخوه عبد السلام أفندي ، وبديع أفندي السنونو واسحق أفندي الحلبي والأستاذ جورج أفندي عطية وجيراننا .

الاثنين ٢٩ نيسان غ سنة ١٩١٨م

قلقت ليلة أمس أيضاً ، ففقت واستحمت جيداً ، وما كدت أفرغ من الفطور حتى رجع موسى ومعه أحمد الخالدي فسرت بلقائه كثيراً ، فلم أر بداً أن أوجل دروسي الخصوصية إلى الغد ، وأن أفرغ اليوم للاحتفال بأحمد ، وإذا غضب تلاميذي فذلك أيسر خطب . استلمت العشرين ليرة بانقوطة التي تركها لي

الخوارجا ليفين عند احد أبناء ملته ، ودفعت منها عشرين غرشاً لغلامه يشوع . تناول أحمد الغداء معنا وإذا توفق للبقاء في دمشق أسكناه معنا ، وألفنا في منزل السيدة أم الياس مستعمرة قدسية صغيرة . خطر لنا أن نجتمع كل أبناء القدس الموجودين في دمشق وتتصور تذكراً لأيام هجرتنا هذه .

بعد الغداء نمت ثم أخذت أحمد ونزلنا الى البلد نزور الشيخ عبد القادر أفندي المصغر ، فلم نجده ، فذهبنا إلى دار المعلمين فأخذنا رسم بك وخرجنا نمشي على شارع جمال باشا . لقيت جبرا العيسى فوجدت عليه آثار المعيشة في البر ولكن صحته جيدة . ترك أمه وأخته في اربد وطمانني عن صحتهما ، مسكينة تلك الأم بل مسكينة تلك الأخت ، فقد حكمت عليهما الأقدار أن تهجرا وطنهما وتعرضا لمشاق الرحلة من محل إلى آخر ، بعيدتين عن ذويهما ، فهما في محل وعيسى في محل وبقية أفراد العائلة كلٌ منهم في محل . ألت جديراً إذا قابلت مصيبي بمصيبة هذه العائلة الكريمة أن أجم لساني عن الشكوى ، وأشكر الله على أن خطبي هين .

ثم جاء موسى والتقينا بالأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي وحاشية كبيرة من أصدقائه ، فجعلنا نروح ونجى في شارع جمال باشا ، وقد سرني ما رأيت من عطف الأستاذ على أبناء القدس كأنهم أخوته . ثم رجعت أنا وموسى وأحمد إلى البيت فتناولنا العشاء ، وكانت الأوانس عفيفة وملكة وأولغا قد ذهبن إلى الكنيسة مع المعلم جورج فما انتهينا من العشاء حتى تبعناهم إلى الكنيسة . من يقف على باب الكنيسة لا يظن نفسه أمام معبد ، يرى الأولاد يلعبون في ساحة الكنيسة جذلين ويرى الشبان جماعات جماعات هنا وهناك يتمازحون ويتسارون كأنهم في وليمة أو ملعب أو مرقص ، ومن وقت إلى آخر يدخلون الكنيسة لا يقبلوا الأيقونات ويضيئوا الشموع ويتقربوا إلى الله ، بل ليروا الغيد الأوانس وهن يرويهن ، كأنهم اتخذوا من الكنيسة موعد لقاء . هكذا كانت هياكل برياب وباخوس والزهرة وايزيس على عهد اليونان والرومان والمصريين القدماء . في أعلى الكنيسة أروقة خصوصية للنساء ، ويصلين فيها وراء جدار من الاخشاب المشبكة ، ولكنهن لا يصعدن إليها بل يؤثرن الصلاة في أرض الكنيسة ليكن قريبات من الرجال أو مختلطات بهم . وليست الشموع وروائح البخور وأصوات المرتلين وجمال أثواب الكهنة إلا لتنبه فيهم عواطف السرور والاستحسان ، بل عواطف الحب والغرام ، ولعل ذلك في الكنيسة الأرثوذكسية من آثار العبادة اليونانية القديمة ، عبادة باخوس إله الخمر . وقد سبق لي أن كتبت في هذا الموضوع في ما كتبه اثناء النهضة الأرثوذكسية ، وفي يومياتي السابقة ، مما أقام رهبان بطريركية القدس وأقعدهم ، وحمل البطريرك على اذاعة منشور بطريركي يحرمني فيه من الكنيسة ويحذر الطائفة من مخالطتي والإصغاء إلى آرائي وأفكاري ، ولكن ذلك لم يغير من الحقيقة شيئاً .

رجعنا إلى البيت فسهرنا في صالون جيراننا ، ألف موسى في السنين الأخيرة معاشرة البنات وقضاء الأيام الطويلة معهن في مصيفه في شرفات على غير ريبة ، فلما جاء إلى دمشق وسكن عندنا جعل يعاشر الأوانس عفيفة وملكة وأولغا كما كان يعاشر بنات نيفوريم الصغيرات ويمازهن كأنهن أخواته أو كأنه وكأنهن لا يزالون أطفالاً ، وقد حدثني نفسي أن أنبهه إلى ذلك وأن يقف في معاشرة البنات بعد اليوم عند حد الكلفة .. فالمزاح لا يستحسن إلا إذا كان قليلاً ولا سيما مع الغربيات ، وبعبارة أخرى مع غير الأخوات .

وزنت نفسي اليوم ، فكان وزني ستة وسبعين كيلواً ، وقد بلغ قبل أحد عشر يوماً خمسة وسبعين ونصفاً . منذ سكن موسى عندنا ، أي منذ ثمانية أيام وطعامنا على حسابه ، ولم أدفع غير ثمن رطلي خبز وأوقيتتي جبنة ، ولا يقل مصروفنا كلينا في اليوم عن مجيدين وفي أكثر الأيام يتجاوز هذه القيمة ، فضلاً عما كان يدفعه حين كما نذهب إلى البستان البلدي جماعة كبيرة ، ولذلك لا بد لي إما أن أستقل في طعامي أو أرجع إلى أساذي ، فلا يجوز في هذه الأيام أن يقبل أحد ضيافة أحد .. لولا ما أقاسيه من الشوق إلى ذوي ، ولولا ما يؤلمني من أخبار الحرب وما ألقاه أينما ذهبت من مشاهد البؤس والشقاء ، لكنت غربتى هذه نزهة جميلة .

الثلاثاء ٣٠ نيسان غ سنة ١٩١٨م

لم يطل ليلي ولكن لم أنم . بعد استكمال الفروض اليومية خرجت فحلقت ، ثم ذهبت فعلمت تلميذي وتلميذاتي ، لقيت في طريقي الدكتور سليمان بك ، فقال : أين أنت ؟ فقد مرّ زمان طويل لم يرك فيه أحد ، لا أنا ولا الخواجا تادرس ولا الخواجا وتسي فقلت : شغلت في هذه الأيام ببعض الأصدقاء من القدس ، ثم اتفقنا أن نبدأ بدرس اللغة الانكليزية من الأسبوع القادم ، وبعد أن تركته لقيت الخواجا تادرس ، ولكنه وقف إليّ بتكلف كأنه عاتب لاقطاعي عنهم كل هذه المدة .

رجعت إلى البيت فتناولت الغداء مع موسى ، ونحن على الغداء زارنا الدكتور توفيق كنعان ، فلما رأى إقبالي على الأكل جعل يمازحنا ويقول لموسى : أنصح لك أن لا تشترك معه في الطعام والإاكت المغبون . بعد الغداء نمت ، وقبل أن أقوم من فراشي جاء أحمد الخالدي وصبحي عويضة ، فقمتم ونزلت معهما إلى البلد . عرجت في طريقي على حذاء فخصفت نعلي . يا حذائي إذا صبرت إلى أن تنقضي هذه الأيام أجملت قدرك . لقينا رستم بك وشفيق أفندي صبري فمشينا على شارع جمال باشا إلى أن آذنت الشمس بالمغيب . وعد رستم بك أن يحضر مع غداً مساءً الحاج عبد الرحيم أفندي الصفح فدعونه مع زين العابدين للعشاء ، ونحن راجعان إلى البيت لقينا أساذي نخلة أفندي فدفعت إليه القيمة التي وصلتني من الخواجا ليفين

ودعواناه للعشاء معنا غداً مساءً . زارنا في المساء الخواجا اسحق الحلبي والخواجا أمين قعوار ، فسهرنا إلى نحو الساعة العاشرة .

الأربعاء أول أيار غ سنة ١٩١٨ م

بعد استكمال الفروض اليومية ذهبت فعلمت تلميذي ثم ذهبت لأعلم تلميذاتي فلم أجدهن ، فرجعت إلى البيت وخرجت مع موسى نشري لوازم الطعام للعشاء ، وقد قررنا أن يكون بطاطا . بعد الغداء نمت ثم قمت فذهبت أزور بيت فيعاني فعبأوا لي أركيلة وأخذت الأنسة رمزة ساكتي فرفأت فوقها ، فشكرتها شكراً جزيلاً . ثم ذهبت من هناك الى البلد فلقيت عبد الرحيم أفندي شعر ، فقال : إنه ذاهب إلى بيت الحاج عبد الرحيم أفندي الصنح ليجيء معه إلى بيتنا ، فرجعت توا إلى البيت ، فوجدت رسم حنا وزين العابدين أفندي وأستاذي وشكري أفندي فران ، ثم جاء موسى وأحمد فتناولنا العشاء معاً ، ونحن كذلك أرسل إلينا الحاج عبد الرحيم أفندي الصنح يعتذر عن عدم حضوره الليلة لمرض شديد ألم ببعض أهل بيته ، فكأنك صببت علينا ماءً بارداً ، بعد العشاء دخلنا الصالون وبعد قليل جاء الدكتور كنعان واسحق حلبي وأمين قعوار والمعلم جورج عطية ، ثم دخلت الأوانس الثلاث وأمنهن واخوتهن فغص المكان بنا فجعلنا ، نتجاذب البحث في مواضيع جدية ، كادت تنقلب بها جلستنا إلى جلسة علمية ، ثم جعلنا نغير المواضيع وتوارد النكات والنوادر إلى نحو الساعة العاشرة ، حين قام أستاذي والدكتور كنعان وشكري أفندي فودعوا وخرجوا ، وبعد انصرافهم أخذت جلستنا صورة أخرى ، فأخذت كمنجتي وجعلت أعزف عليها بعض أنغام ، وغنينا بعض أغان انكليزية وعربية ، ثم كلفنا الأوانس بالغناء فغنين أغاني جميلة جداً ، حمدنا معها سهرتنا وسررنا كثيراً . ولا يسعني هنا إلا أن أشكر جيراننا ، فقد بالغوا في مجاملتنا ، ولم يألوا جهداً في توفير أسباب السرور ، كما أنني حمدت تصرف موسى فإنه منذ يومين أخذ يعتدل في مداعبة الأوانس وممازحتهن ، ولا يخرج معهن عن حد الكلفة ، فقد نهته الى ذلك من طرف خفي .

الخميس ٢ أيار غ سنة ١٩١٨ م

بعد استكمال الفروض اليومية ، جاء رسم بك وزين العابدين أفندي فخرجنا مع الأوانس الى الكنيسة لحضور حفلة الغسل التي سيقوم بها بطريرك القدس مع حاشيته ، وبعد أن وقفت قليلاً في الكنيسة تركتهم وذهبت فعلمت تلميذي وتلميذاتي .

بعد الظهر نزلت مع موسى إلى البلد ، فلقينا الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر ، فكلفناه أن يحمل

رسالة من جمال باشا الكبير إلى جمال باشا الصغير في السلط بخصوص تعيين موسى في الكلية الصلاحية ، وقد وردت هذه الرسالة الى موسى من أبيه في الأستانة قبل بضعة أيام .

ثم ذهبنا إلى دار المعلمين ، فأخذنا رستم بك وزين العابدين أفندي وخرجنا نمشي في شارع جمال باشا . مر بنا الخواجا تادرس فأشاح بوجهه عني كأنه لم يرني ، لكن أحمد رآه فذهب ليسلم عليه فوقف له وتبادلا التحيات ، ومع أني كنت واقفاً معهما فإنه لم ينظر إليّ ولم يخاطبني بكلمة ، ولست أدري سبباً لهذا الإعراض غير انقطاعي عن زيارتهم هذه المدة بسبب انشغالي بموسى وأحمد وسائر الأصدقاء ، ومع تأثيري من تصرفه هذا ، فقد عزمت أن أستعطف خاطره وأستنزل رضاه ، ثم لقيني توفيق الملك وعلاتم الجوع بادية على وجهه ، وطلب إليّ أن أدبر له شيئاً يمسك به رمقه ، فاعتذرت له بأني لا أملك شيئاً وتأسفت لحالته كثيراً ، ولم ألبث أن انقبض صدري واسودت الدنيا في وجهي ولم أعد أعني . فجعلت أروح وأجيء مع الأصدقاء متاقلاً مسترخي الجسم مطرق الرأس ، كأنني أحمل جندياً أو حديداً . ثم جئت مع موسى وأحمد الى البيت ، ثم جاء اسحق الحلبي فسهرنا الى نحو الساعة التاسعة ، وعبثاً كنت أحاول أن أتلهى وأتكلف الضحك فإن نفسي لم تزل منقبضة . ثم قمنا وذهبنا إلى الكنيسة لنحضر قراءة الأناجيل . لقيني هناك يوسف ميري التلحمي ، فأسر في أذني أن قد أرسل إليه جرجي ميخائيل الخوري من يبلغه أن يكلفني أن أزوره غداً في السوقيات ، فإنه يكاد يموت جوعاً ، فكان ذلك ضغثاً على إباله . . وبعد أن وقفنا قليلاً في الكنيسة ، وكان الإنجيل الذي سمعناه باللغة اليونانية قرأه أحد مطارنة القدس ، رجعنا إلى البيت وأوتينا الى فراشنا .

الجمعة ٣ أيار غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية باكراً ، جاءني توفيق الملك وكنت على أهبة الخروج فنزلنا معاً إلى البلد ، وقد قرأت على وجهه أنه لا يزال جائعاً ، ولكن من يراه حالقاً بشيابه الأنيقة وحذائه الجميل وفي يده سبحة من الكهرباء الصفراء فلا يشك أنه من كبار الممولين ، ما أكثر الذين على شاكلة توفيق في هذه البلاد ، بل في العالم بأسره ينشأون على البطالة والكسل والكبرياء الفارغة متكئين على آباءهم وذوئهم ، وإذا مات آباؤهم وأنكرهم ذووهم ، اتكلوا على غيرهم واستحملوا الناس حوائجهم وأصبحوا عالة على الإنسانية . يكلفك الواحد الاهتمام بأمره وهو سيدك . . وإذا لم تتمكنك حالتك وضيق ذات يدك من مساعدته ، طعن في مروءتك وأوسعك لوماً وتقريعاً ، كأنه ينتظر منك أن تتسول من الناس على قارعة الطريق أو تبيع ثيابك ، بل أن تجوع وتبذل ماء وجهك ليعيش هو في مقامه الرفيع . ولا علاج لمثل هؤلاء إلا أن ينبذوا نبذ النواة ، فإذا

عاشوا أو ماتوا فعلى حدّ سوى . . ومع ذلك فإنني لم يسعني إلا الاهتمام بأمره . حشّته على قصد غيري ، فكلفني أن أقوم بذلك أنا بنفسي ، فلكيت الخواجا سليم بركات فوقف توفيق بعيداً ، وجئت أنا إلى سليم وبينت له حالة صاحبنا ، فقال : أعطيته لحدّ الآن خمسة ريالاً ، ولا أستطيع أن أعطيه أكثر ، ولماذا لا يشتغل بل لماذا لا يقصد متري تادرس وهو نسيبه ، فتركته وجئت إلى توفيق وأبلغته ذلك ثم تركته ورجعت ، فعلت تلميذي وتلميذاتي . ثم جئت إلى البيت فتعدينا وبعد الغداء نمت . ثم نزلت إلى البلد فأخذت صبحي أفندي عويضة لنذهب إلى محطة القدم لنطل على جرجي الخوري في السوقيات هناك ، وكنت قد عرجت على مخزن الطرزي فأخذت منه ريالاً وأربعين متليكا ، ثم ركبنا الترام وذهبنا فطلبنا جرجي الخوري فجاء ، فرأيتة أصفر الوجه هزيراً ، ولما رأنا بكى فعزينا ودفعت له ريالاً وودع له صبحي أفندي نصف ريال ، ووعد صبحي أن يكتب له استدعاء بأنه من المواليد الذين يشملهم العفو ليقدمه غدا . وهنا لا يسعني إلا الثناء على مروءة صبحي والتنويه بمكارم أخلاق المسلمين ووفرة مروءتهم . ثم رجعنا فجئت إلى البيت ، فوجدت أحمد فذهبنا معاً إلى الكنيسة حيث كان قد سبقنا موسى ، وبعد أن وقفنا خارج الكنيسة قليلاً لأنها كانت مزدحمة بالناس رجعنا إلى البيت ، وبعد قليل جاء أمين قعوار وعمه سامي أخو الدكتور طنوس وبيدع السنونو ، ثم جاء صبحي فسهرنا إلى نحو الساعة العاشرة والنصف . فاتي أن أقول إننا ونحن على العشاء جاء توفيق الملك فدعونا لتناول العشاء معنا فأجاب ولعله لم يأكل منذ يومين ، زارنا اليوم الدكتور توفيق كنعان ، فقال : إنه كتب إلى امرأته وطمأنها عن صحتي وصحة موسى .

السبت ٤ أيارغ سنة ١٩١٨م

في هذا اليوم يكون قد مرّ عليّ خمسة أشهر منذ أخذت من فراشي في بيتي في ٤ ك ١ غ سنة ١٩١٧م فودعت أحبائي وخرجت ، وكان ذلك الوداع الأخير . أشكر الله أنك كنت يا سري نائماً ولم تشهد ذلك الموقف الهائل ، وأرجو أن تكون سلطانة قد بالغت في التلطف في إبلاغك خبري ، فلم تروّعك ولم تحزنك . بل لو كنت يا سري مستيقظاً لكنت رأيت أباك رابط الجأش مطمئن الخاطر متجلداً ، حذار أن يبدو منه ما يروّعك أو يحزنك . لولاك يا سري لكنت بكيت عند الوداع بكاء الأطفال . لم يكن آدم حين خرج من الجنة أشد حزناً مني حين خرجت من بيتي ، بل ماذا كان بهم آدم حين خرج من الجنة إذا كانت حواء معه . ما دامت حواء معه فأينما ذهب ولو إلى الصحراء المغمورة بالرمال فهناك جنته ، ليست الجنة أن يعيش الإنسان في بستان وارف الظلال تجري من تحته الأنهار ، بل الجنة أن يكون الإنسان مع أحبائه . خرجت من بيتي وجئت إلى دمشق الفيحاء التي يقال عنها إنها جنة الله في أرضه ، ولكن ما دمت بعيداً عنكم فليست دمشق

إلا قفراً هامداً لا ظل فيه ولا نسيم .

بعد استكمال الفروض اليومية ذهبت فعلت تلميذي وتلميذاتي ، وبعد الغداء نزلت توأ إلى البلد ، فأخذت صبحي أفندي عويضة وذهبنا الى السوقيات في محطة القدم ، فدخل صبحي السوقيات وقدم استدعاء باسم جرجي الخوري وقد وجد هناك ممن يعرف من كلفه بتعقيب الاستدعاء وانهاء معاملته ، فرجعنا وقد عزمنا على متابعة العمل غداً ، فإذا خلصنا جرجي الخوري فيكون غداً عيداً عظيماً إن شاء الله . ثم لقيت توفيق الملك في المرجة ، فجاء يطلب مني نقوداً فاعتذرت بأني لا أملك شيئاً ، ثم جئت إلى غرقتي فعبأت أركلتي وجلست وراء طاولتي ونفسي ثملة من الحزن والكآبة والوحشة ، ثم خرجت فمررت على غرفة أستاذي فلم أجده . وأنا راجع لقيت أحمد الخالدي فبشرني أنهم عينوه في أحد مستشفيات دمشق مع اسحق الحلبي ، فسري عني ما أجده ، وسررت له سروراً عظيماً . ثم جئنا إلى البيت فأخذت الكمنجة وأغمضت عيني وجعلت أعزف بعض أنغام محزنة ، فجعلت دموعي تنحدر كالمطر . كنت أعزف وأنا أحلق في خيالي فوق القدس ، فرأيت سرياً وأمه وجدته وعمته وسائر أحبائي وذوي . أرجو أن تكونوا قد وطنتم النفس على استقبال هذا العيد برؤوس مرفوعة شجاعة وأنفة ، وأن تكونوا قد أقمتم الصبر ، صبر الكرام ، فإذا داهمكم الضجر نفيموه ، أو فاجأكم الجزع دفعتموه ، أو هاجمكم الشوق لقي من جاشكم الثابت ورصانتكم الراجحة ما يقل به كثيره ويخف تأثيره إن شاء الله . . لقيت اليوم الخواجا يلين ، فقال لي : إنه سمع من قنصل اسبانيا ان الخواجا ليفين بقي في حلب فحمدت الله .

قلقت ليلة أمس ، ولم أدر لذلك سبباً .

الأحد ٥ أيارغ سنة ١٩١٨م

أسعد الله صباحكم أيها الأحباء ، والهمكم الصبر والشجاعة والإطمئنان ، وجمعني بكم على أحسن حال وأنعم بال قريباً إن شاء الله . . بعد استكمال الفروض اليومية خرجت فحلقت ثم نزلت مع موسى إلى البلد ، فخرجنا على دار المعلمين نزور رستم بك وزين العابدين أفندي ، ثم خرجنا فعطفت على منزل الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي لأتمس مساعدته في تدير وثيقة خبز من إدارة الإعاشة للخواجا اندراوس العيسى ، الذي زارني اليوم صباحاً وشكا إلي ما يقاسيه من سوء المعيشة هو وأولاده ، فوعدت أن أبذل جهدي في تدير وثيقة خبز له ، ولكن لم أجده الأستاذ فعزمت أن أزوره غداً .

رجعنا إلى البيت للغداء ، وكان غداؤنا بطاطا ولبناً ثم نمت ، وبعد النوم زارنا بديع السنونو واسحق حلبي ، فخرجت مع بديع السنونو لأزور بيت خالة الخواجا تادرس فاستقبلوني بالعباب فاعتذرت ثم ذهبنا

لى بيت فيعاني للمعايدة .

أرسل إليّ رستم بك أنهم سيزوروني هذه الليلة مع الحاج عبد الرحيم أفندي الصفح . فاتني ان أقول إننا حين رجعنا من البلد للغداء لقينا توفيق الملك عند مدخل دارنا ينتظرنا ، فطلب مني أن أعطيه شيئاً من النقود فاعتذرت له بفراغ جيبي ، ثم قال : لم أكل منذ ليلة أمس ، فدعوته لتناول الغداء معنا . .

في المساء زارنا رستم بك والحاج عبد الرحيم أفندي الصفح وعبد الرحيم أفندي شعر ووهبة أفندي أستاذ الطبيعيات في الكلية الصلاحية ، وجميل بك مدير دار المعلمين في القدس والخواجا بديع السنونو والخواجا أمين قعوار ، والدكتور توفيق أفندي كعان وأحمد أفندي الخالدي ، فلما انتظم بنا المجلس اندفع الحاج عبد الرحيم أفندي الصفح يغني ، ومع إجادته في الغناء فإني لم أطرب كثيراً ولعل ذلك لأنني لم آلف الغناء العربي . وقد ارتجل الأستاذ جرجي أفندي عطية بيتين من الشعر في مدح الحاج عبد الرحيم أفندي وهما :

أمولاي قد أحييت لطفاً قلوبنا ويعذر في تقصيرنا خلقك السمعُ
مننت وما قمنا بإيفاء واجب فمنك أيا عبد الرحيم لنا الصفحُ
امتدت سهرتنا إلى نصف الليل . . رأيت على أن أزيد على بيتي الأستاذ جورج أفندي بيتاً ثالثاً وهو :
عسى ليلة أحييت فيها قلوبنا يكون لكل الناس من بعدها الصلحُ

الاثنين ٦ أيار غ سنة ١٩١٨م

قمت باكراً فلعبت واستحمت جيداً ، وبعد أن استكملت سائر الفروض اليومية ذهبت أعيد على بطريكية القدس ، ولكن وجدت البطريك لا يزال في فراشه ، فجلست إلى الأرشمندريت تيموثاوس واثنين آخرين من الرهبان . قال لي الأرشمندريت : إن البطريك سمع أن الخواجا تادرس لا يكون في مجلس إلا طعن في رجال بطريكية القدس ، وقال : إن البطريك لن يرجع إلى كرسيه لأن الشعب والرهبان مساؤون منه فلا بد أن يسقطوه وينتخبوا غيره ، وإن مالية الدير في القدس سيئة جداً وإن ديونه كثيرة يعجز عن وفائها . وقد كان عن كلامه هذا أن بعض الممولين هنا الذين حاول البطريك أن يعقد معهم قرضاً أمسكوا عن دفع المال ، فاستغربت ذلك ، وقلت له : لم أسمع شيئاً من هذا والخواجا تادرس هنا فليس أسهل من مراجعته في ذلك ، ثم خرجت فلقيت الأوانس عفيفة وملكة وبعض المعلمات ذاهبات إلى بيت مدام الكسيف للمعايدة فذهبت معهن . ثم ذهبت من هناك إلى بيت الخواجا جورج طرزي فعايدته ، ثم جئت إلى البيت فتناولنا الغداء . أخذت اليوم من أستاذي خمسة ريبالات أبقيت منها أربعة مع موسى ، بعد أن نمت قليلاً جاء زين العابدين

أفندي فذهبت معه نعايد بطيريك دمشق ، وهذه أول مرة زرت فيها البطريرك الدمشقي ، فظهر لي أنه رجل بسيط على شاكلة الأكليروس الأرثوذكسي في كل مكان . . لا شيء يؤلمني مثل أن أرى الرئاسة الدينية لا تزال موطدة الأركان رفيعة الذرى ، وأن أرى الناس عمياً صماً بكما سخفاء العقول . . يدخل الواحد مجلس البطريرك فيركع عند قدميه ويتبرك بأذياله ، ثم يتراجع فيجلس إلى جانب متهيأ متخشعاً ، أو كما يقولون متأدباً لا ينبس بنت شفة ، وإذا تجرأ على الكلام أكثر من قوله سيدي سيدي ، ومهما قال سيده تلقى كلامه بالإعجاب ، ولو كان أشبه بكلام المعتهين أو هذيان المحمومين . متى يجيء الزمان الذي تقدر فيه الشخص لشخصيته لا لسنه أو وظيفته ، ولآدابه لا لثيابه ، وعلمه وفهمه لا لذيله وكمه ، ذلك الزمان الذي ندخل فيه مجالس الناس بحرية وشجاعة وإباء ونجلس كما نشاء لا جامدين كالأصنام ، ونخاطبهم كما يخاطبوننا ونقف إليهم كما يقف الإنسان إلى أخيه أو صديقه أو أي شخص آخر ، لا كما يقف العبد أمام سيده ، وإذا كان هناك مجال للضحك ضحكنا ، أو للكلام تكلمنا ، أو للاعتراض اعتراضنا . متى تلغى السيادة من العالم فلا يكون سيد ولا عبد . متى تنزع هذه الثياب العتيقة البالية وتكسر هذه القيود الثقيلة ونجعل شعارنا في هذه الحياة الحرية والحقيقة والجمال . . . ثم خرجنا فرجعنا إلى البيت فوجدنا رستم بك ينتظرنا ، وبعد قليل أخذنا الأوانس وخرجنا إلى الحقول الخضراء على ضفاف نهر بردى إلى محل يقال له الشرف الأعلى أو «الأحد عشرية» ، مناظر جميلة جداً ذكرتني بأنهار بلاد الإنكليز وغاباتها الغيباء [كذا] حيث كنا نهيم مع الرفاق والرفيقات ، وتمنيت لو كان أحبائي معي .

في المساء جلسنا في رواق البيت فأخذت كمنجتي وجعلت أعزف عليها لعلني أسكن ثورة عواطفني بعض الشيء ، ولكن أنى ذلك . حننت إلى سهراتنا القديمة التي كنا نحياها من أول الليل إلى آخره ، نغني ونرقص ونشرب ونطرب . اشتقت أن يكون إلى جانبي أحبائي ، اشتقت إلى عناقهم وتقيلهم ومداعبتهم وممازحتهم . أحسست أن صدري كالبركان الهائج . . ثم كلفنا الأوانس أن يغنين فغنين «ويلي من الغرام» بأصوات رنانة رخيمة أقامتنا وأقعدتنا ، فمننا وكل واحد منا يغني ويولي من الغرام ، ما هو الغرام؟ سأخصص لهذا فصلاً برأسه [= كاملاً] في غير هذا الموضوع .

الثلاثاء ٧ أيارغ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية خرجت فعلمت تلميذي وتلميذاتي ، ثم رجعت إلى البيت فتغديت ونمت ، وبعد النوم جاء رستم بك وزين العابدين أفندي وأحمد أفندي الخالدي واسحق أفندي الحلبي ، فخرجنا نزور الخواجا تادرس لنعايده فلم نجده ، فرجعنا رأساً إلى البيت فأخذنا الأوانس ، وذهب المعلم جورج معنا

إلى المحل الذي ذهبنا إليه أمس ، فسررنا كثيراً . ولما رجعنا اتفقنا أن نخرج غداً إلى الربوة احتفالاً بمولد موسى [العلمي] الذي يقع في الغد في ٨ أيارغ .
في المساء زارنا أحمد أفندي الخالدي وصبحي أفندي عويضة واسحق أفندي الحلبي ، جاءتني رسالة من الدكتور حسين أفندي الخالدي من جلبولية يطمئنني عن صحته ويسألني عن أخيه أحمد ، ويشكو من انقطاع أخبار الجميع عنه فعزمت أن أكتب له غداً ، دعونا أحمد وصبحي واسحق للخروج معنا غداً بعد الظهر ، كلفت صبحي أفندي أن يدبر وثيقة خبز من إدارة الإعاشة للخواجا اندراوس العيسى .

الأربعاء ٨ أيارغ سنة ١٩١٨م

اليوم عيد مولد موسى أفندي العلمي ، وفي هذا اليوم يكون قد مرّ عليّ منذ خرجت من القدس مكبلاً مسوقاً كالمجرمين في جناح الظلام خمسة أشهر ، لأنني خرجت من القدس في ٨ ك ١٤ سنة ١٩١٧م .
نزلت من غرفتي إلى غرفة موسى ، وكان لا يزال نائماً قبلته قبله العيد ، ثم استحمت واستكملت الفروض اليومية . وبعد الحمام زارنا الخواجا اندراوس العيسى فدعوته لتناول الفطور معي ، ثم جاء مسلم أفندي فعبأت أركلتي وعبأت أركيلة للخواجا اندراوس وأخذت الكمنجة وجعلت أعزف عليها .
كانت الفروض اليومية التي أتمتها قبل الخروج من البيت في الصباح أربعة وهي (١) الألعاب الرياضية (٢) الاستحمام بالماء البارد (٣) الأكل (٤) المطالعة والكتابة . وأما اليوم فإني أزيد عليها أنه يجب على الإنسان قبل خروجه من البيت أن يغني قليلاً ، أو يعزف على بعض الآلات الموسيقية . . ليخرج إلى العالم مسروراً مملوءاً قوة ونشاطاً ، يجب على الأم قبل أن ترسل ولدها إلى المدرسة أن تجعله يخرج على نغم الموسيقى ، فإن ذلك يث فيه روحاً عالية ويملاً صدره بهجة وسروراً ، فإذا خرج خرج نشيطاً مشرق الوجه باسم الثغر عذب الروح ، وقضى نهاره كله مبتهجاً مغتبطاً مسروراً ، ثم يجب أن تعلمه ولو مارشاً واحداً ، فإذا مشى في الطريق غناه بفكره ومشى على توقيعه ، فإن ذلك يعوّده السرعة والنظام في حركاته كلها . وإذا رجع في المساء فيجب عليها أن تستقبله على نغم الموسيقى . الموسيقى الموسيقية يجب أن نغدها من ضروريات الحياة مثل الهواء والماء والغذاء والرياضة ، بل يجب أن تكون من الدروس الابتدائية ، مثل القراءة والكتابة والحساب ، يجب أن يكون في كل بيت آلة أو آلتان أو أكثر من الآلات الموسيقية ، يجب أن يعرف كل واحد من أفراد العائلة الضرب على آلة وأن يحسن الغناء . البيت الذي لا تنقطع فيه الأصوات الموسيقية لا يدخله الكدر . والأمة التي تغني وتعزف هي أمة سعيدة راقية ، وقد أصبحت لفظة موسيقى مرادفة في اللغات الأوروبية لكلمة ثقة ، فإذا قالوا : إن فلانا ليس في نفسه

موسيقى ، عنوا بذلك انه لا يوثق به ولا يعتمد عليه .

وليس هنا موضع الكتابة في الموسيقى فسأكتب فيها في فرصة أخرى ، ولكنني إذا رجعت إلى بلادي أدخلت الموسيقى في مدرستي كدرس ابتدائي . . أما سري فلا يخرج أو يدخل ، إلا على صوت الموسيقى إن شاء الله .

ذهبت فعلت تلميذي وتلميذاتي ثم رجعت إلى البيت فتغدينا وخرجنا جميعاً ، وقد أخذنا معنا سلة طعام أقراص لحمة مقلوة وخبزاً ، ومررنا على دار المعلمين فأخذنا رستم بك ومشينا ، أما زين العابدين أفندي فقد تأخر قليلاً . أوينا هناك إلى قهوة في سفح الجبل كثيرة الأشجار وارفة الظلال تتدفق المياه من جوانبها ، ولما آذنت الشمس بالمغيب هيأنا مائدة الشراب ، وشربنا نخب موسى أفندي ودعونا له بالغبطة والسعادة والاقبال ، ثم زارنا الدكتور قدرى بك فاشترك معنا ، ثم جاء العشاء الذي أوصى به رستم بك وكان فاخراً جداً كثير الأشكال والألوان فتعشنا ، وبعد العشاء قمنا . أما تأثراتي في يومنا هذا فلست أطمع أن آتي على بيانها هنا . وصلنا البيت نحو الساعة الحادية عشرة .

الخميس ٩ أيارغ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية خرجت فعلت تلميذي وتلميذاتي ، ثم رجعت إلى البيت فتناولت الغداء ثم نمت ، وبعد النوم زار جيراننا الخواجا جورج أبو عضل وأخوه الدكتور توفيق ، وقد عرفت الدكتور من زمان طويل يوم زار أخته مدام الخواجا نخلة طرزي في القدس فدخلت وسلمت عليهما ، ثم نزلت مع الأستاذ جورج أفندي عطية وموسى إلى البلد ، وإذا بكوكبة من خيالة الحورانيين جاؤوا إلى دمشق لإعلان اخلاصهم ووطنيتهم فجعلوا يمرون من أمام الولاية وهم يهزجون بأهازيجهم الحماسية وفي أيديهم السيوف والبنادق والرماح .

التقينا برستم بك وزين العابدين أفندي والأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر ، فجعلنا نمشي في شارع جمال باشا إلى أن آذنت الشمس بالمغيب فرجعنا إلى البيت فتعشيت ، ثم ذهبت إلى بيت الخواجا تادرس أودعهم لأنهم ذاهبون غداً إلى قرية أبون لقضاء فصل الصيف ، إلا أنني لاحظت أنهم لا يزالون عاتين عليّ ، ولذلك لم ألبث أن ودعت وخرجت ورجعت إلى البيت ، وكان الجيران مع موسى وأحمد واسحق لا يزالون ساهرين ، فعبأت أركلتي وجلست أدخن وروحي سابحة في عالم الخيال .

الجمعة ١٠ أيارغ سنة ١٩١٨م

استغرقت العايمي ساعة وحمامي ساعة أخرى، ثم أفطرت وعبأت أركيلتي وجلست أذخن وأكتب، وأنا كذلك زارني رشيد أفندي أبو خضرا وتوفيق الملك فقص علي رشيد أفندي خلاصة تاريخه منذ ترك القدس مبعداً الى قونية، الى أن رجع الى دمشق الآن. استغرقت جلستنا وقتاً طويلاً فتأخرت عن تلميذي الفرد فذهبت ووعدته ان أعوضه هذه الساعة بأن أزيده نصف ساعة غداً ونصف ساعة في الدرس الثاني، ثم ذهبت أعلم تلميذاتي فوجدتهن مع أمهن واقفات في الباب، فلما رأتهن أمهن جعلت تصلب لي [= ترسم لي الصليب] على ما رأت من امتلاء جسمي وسمني واشراق وجهي، فمر بنا الخواجا تادرس، فقالت له: ألا ترى أن دمشق قد لاءمت الخواجا السكاكيني فسمن، فقال لها: إن السرفي ذلك نفسه لا هواء دمشق، لقد أصبت يا خواجا تادرس، ولكن ذلك لا ينبغي فضل الأسلوب الذي أعيش عليه.. وإذا كان هذا تأثير أسلوبني مع قلة وسائلني وضيق ذات يدي وقلق فكري، فماذا يكون تأثيره لو كنت في بيتي وكانت أحوالي ميسورة قليلاً؟. لو حسنت طعامي وأضفت إلى العايمي اللعب بطابة الرجل [= كرة القدم] أو التنس، أو خرجت إلى الطبيعة عصر كل نهار أو ركبت حصاناً، وكانت سلطاتي إلى جانبي على حصانها فنجري جنباً في الحقول في الهواء النقي الطلق، ثم نرجع الى البيت فناخذ دوشاً بارداً ثم نغير ثيابنا وتناول قليلاً من الطعام، ثم نعقد الاجتماعات اللطيفة فنرقص ونغني ونعزف على البيانو والكمنجة، لا هم يقلقنا ولا طوارئ تكدر صفونا، على أن ما لا يدرك كله، لا يترك كله، ومتى رجعت إلى بلادي فوجدتهم سالمين علمت الناس كيف يكون الشباب دائماً والجمال ناضراً والصفو وافراً والعيش رغيداً والحياة راقية.

بعد الدرس رجعت الى البيت فتغديت ثم نمت، وبعد النوم نزلت مع موسى الى بيت الشيخ عبد القادر أفندي المصغر لتناول الشاي، وقد دعانا أمس مع رسم بك وزين العابدين أفندي ولكن لم نجده، وكان الحر شديداً جداً فلم نر بداً أن نرجع الى البيت، فودعنا رسم بك وزين العابدين أفندي وجئنا الى البيت فغلينا شاياً وشربنا وأكلنا خبزاً وزيتاً ولبناً مع زيت.

في المساء جاءنا زين العابدين أفندي من قبل محمود أو محمد أفندي الحبال يدعوننا لتناول العشاء في بيته، فاعتذرنا فألح فلم نر بداً أن نذهب معه، ولكن قبل أن نصل إلى بيت حبال أفندي، اعتذرت بأني أنتظر ضيوفاً في البيت هذا المساء، فرجعت وحدي وذهب موسى معهم وبقيت أنتظر رشيد أفندي أبو خضرا، ولكنه لم يجيئ.. لولا الأمل بقاء أحبائي قريباً لاخترت طريق هذه الحياة.

ولو صبا نحونا من علو مطلعته بدر السما حي لم يكن حاشاك يصبينا
كلفت منذ أيام الأنسة عفيفة أن تكتب في يوميتي هذه أغنية «ويلي من الغرام» بخط يدها، تذكراً

لاجتماعاتنا اللطيفة، فتكرمت بالاجابة وكتبت ما يلي:

مسبب السقام
لواعج الهوى

ويلي من الغرام
قد قصرت أيامي

دور

أسكب من دموعي
من جمرة الجوى

قد بت في هجوع
في قلبي الوجيع

دور

ولم يكن نحيبني
ويلاه ما الدوا

فزاد بي لهيبني
يغني عن الطبيب

دور

وسهمه قتال
يشفي من الردى

داء الهوى عزال
دواؤه الوصال

دور

إن تعلموا عذابي
لويمنفع البكا

أواه يا صحابي
تبكوا على مصابي

دور

رشيقه القوام
بالحسن والضيا

قدهيجت غرامي
شقيقه التمام

دور

والنور منها لاحا
من زهرها الشذا

رأيتهما صباحاً
في روضة قد فاحا

دور

وتلثم الازهارا
تطير في الهوا

تعانق الأشجارا
وتنظر الأطيارا

دور

وكسيت حدادا

قد لبست سوادا

والغفم والأسى

الحزن فيها سادا

دور

كالطير فوق الغصن
حزني بالطف الغنا

سمعتها تفني
قد هيجت بي

دور

أبدي لها سلامي
والدمع كالندى

أقدمت باحترام
والقلب باضطرام

دور

وقد رأيت دموعي
للحسن قد دها

فقلت بالخشوع
أي أسى مريع

دور

ومسحت لآلي
تقول يا فتى

فالتفتت للجال
من دمعها السيال

دور

دعني وشأنني دعني
زهر الهوى ذوى

ماذا تروم مني
أذهب وقل وغن

دور

ولم أعد أراه
ونورها انطفأ

قدمت من أهواه
قد جمدت عيناه

دور

ولم يطق بعادي
قد ضمّته الثرى

من عاش في ودادي
من ضمّته فؤادي

دور

حوى شقيق البدر
من ذا الكذي حوى

فالقبر مثل صدري
لكنه لا يدري

دور

حوى جميل الرسم
ينتظر الفنا

دور

يرجى ولا هناء
بعهد الذي هوى

دور

فقد قفلت قلبي
بذيقني الردي

دور

يجمعني ببدي
هناك قد حلا

دور

غيرها

هل تطيقين الفراقا
لوع القلب احتراقا

دور

في الرزايا وفضيلة
مُهل في اليد حيلة

دور

إن قلبي ذاب بأسا
وأنا في الحب خنسا

دور

والدي مني السلاما
ناشرا نفع الخزامى

حوى بديع الاسم
لم يبق غير جسمي

لم يبق لي رجاء
ما طاب لي البقاء

لا تطمعن بحبي
وقد سألت ربي

يقطع حبل عمري
فالحب طي القبر

مهجة الصب المعنى
إن يوم البعد عنا

زعموا الصبر دواء
أسفي والصبر معدو

هات لي يا صخر قلبا
وأنا أولى بصخر

يا نسيم الصبح بلّغ
واحمل الشوق لأمي

السبت ١١ أيار غ سنة ١٩١٨م

لا يضمني مجلس إلا تطرقنا في الحديث إلى ذكر أسلوب و فلسفة السرور ، فأخذ في البيان والحث على اعتناق مذهبي واتباع طريقي ، واتخذ من امتلاء جسمي واكتناز عضلي وإشراق وجهي وقوتي ونشاطي وشبابي وسروري الدائم براهين تشهد بصحة أسلوب وقيمة فلسفتي . متى رجعت إلى بلادي وقفت نفسي على إعلان مذهبي والأمور مرهونة بأوقاتها . . . بعد استكمال الفروض اليومية ذهبت فعلت تلميذي وتلميذاتي ثم جئت إلى البيت فتعدت ونمت ، وكان الحرّ شديداً جداً ، فلم أرَ بدأً بعد النوم من أن أستحم مرة ثانية ، فتابعتي موسى في ذلك . زارني عجاج أفندي راجعاً من بلاده لانتقضاء مدة مأذونته ، وبعد أن جلسنا قليلاً خرجت فنزلت مع موسى والأستاذ جورج أفندي عطية إلى بيت الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر ، حيث سبقنا رسم بك وزين العابدين أفندي ودرويش أفندي أبو العافية وكثيرون غيرهم ، ولم يكن الأستاذ هناك فانتظرناه إلى أن جاء ، فتناولنا الشاي ثم جاء أستاذي نخلة وغيره ، بحيث كنا نحو اثني عشر شخصاً وكانت جلستنا لطيفة جداً ، أدركنا فيها أبحاثاً مختلفة جميلة . . في المساء زارنا رشيد أفندي أبو خضرا وتوفيق الملك .

الأحد ١٢ أيار غ / ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية نزلت مع موسى والآنتين عفيفة وملكة إلى بيت الأستاذ عبد القادر أفندي المصغر ، لأنه طلب مني بالأمس معلمة لتعلم أخته فكلفت الأنسة عفيفة ولكن لم نجده ، فصعدت الآستان عند أخته وذهب موسى إلي دار المعلمين وبقيت أنا في غرفة الاستقبال في الطابق الأسفل ، ثم نزلت الآستان فذهبتنا إلى دار المعلمين فخرج معنا رسم بك وزين العابدين أفندي وشيعانا إلى آخر شارع جمال باشا ، وقد اتفقنا أن نخرج بعد الظهر إلى المحل الذي ذهبنا إليه في الأسبوع الماضي . بعد الغداء نمت ثم استحمت للمرة الثانية ، وقد ابتدأت بالاستحمام مرتين في النهار منذ الأمس ، وبعد قليل جاء رسم بك وزين العابدين أفندي فخرجنا مع الأوانس والأستاذ جورج أفندي عطية ، ولما قاربنا منزل تلميذاتي أطلن علينا من نوافذ المنزل ، وسألني الأنسة أدما باللغة الإنكليزية كيف حالك؟ فأشرت إليهن أنني أطرش لا أسمع ، فأعدن السؤال بصوت عال وهن يضحكن . لا أبدي حركة أو أشير بإشارة أو أقول كلمة إلا قابلها الناس هنا بالضحك؟ كأنني ممثل هزلي ، سأتمرّن على ذلك في غربتي هذه حتى إذا رجعت إلى أحبائي ملأت حياتهم ضحكاً وسروراً إن شاء الله ، ثم تابعتنا سيرنا فخرجنا من باب توما وجاوزنا محلة القصاع إلى

الحقول الخضراء التي يخترقها نهر بردى، وصرفنا وقتنا بالضحك والسرور، ثم رجعنا في المساء فأمسكنا برستم بك وزين العابدين، فتعشنا معا وسهرنا إلى نحو الساعة الواحدة بعد نصف الليل نغني ونضحك، وقد أبدت ما استطيعه من ضروب الممازحة بحيث ثملنا من الضحك. زارنا رشيد أفندي أبو خضرا وتوفيق الملك ولكنهما انصرفا باكرا.

الاثنين ١٣ أيارغ/ ١٩١٨م

كنت أحسّ قبل اليوم بوقر في أذني اليمنى وقد عرضتها على الطبيب الاختصاصي الدكتور مكر في القدس، فقال: لا تحتاج إلا إلى غسل قتهاونت بأمرها اعتماداً على الأذن اليسرى، وكنت إذا ماشيت أحدا أمشي إلى يمينه حتى أن أصدقائي ألفوا ذلك، فصاروا يعذرونني إذا أخذت الجانب الأيمن، لأن اللياقة تقتضي بحسب اصطلاح أهل هذا الزمان أن يترك الواحد جانبه الأيمن لغيره، ولا سيما إذا مشى مع امرأة أو آنسة أو من هو أكبر منه سناً أو قدراً. ومنذ يومين أحسست بوقر في أذني اليسرى على إثر الحمام ولعله مسبب عن زكام، فأصبحت لا أسمع إلا إذا أدت أذني من أفواه المتكلمين، أو إذا كان صوت مخاطبي عالياً وأحياناً أضاحك الجلاس فأمثل الطرش أحسن تمثيل، يخاطبني الواحد فأوهمه أنني لم أسمع فيذني فمه من أذني ويرفع صوته، فأسأل جاره ماذا يقول، وقد يسألني الواحد كيف حالك فأجيبه نهارك سعيد. يكلمني بالشرق فأجيبه بالغرب، على أنني وإن كنت أحياناً لا أكتفي بحواسي الخمس، بل أتمنى لو كان لي عشر حواس لأدرك ما بدا وما اختفى، وأفهم ما دق وما جلّ، إلا أنني في بعض الأحيان أحمد الصمم، بل أتعامى فلا أرى وأتظاهر بالزكام فلا أشم وأعايش الناس كأنني قطعة جماد لا أحسّ ولا أعي، تفادياً من المؤثرات السمجة والمشاهد الدنيئة مما أمسك القلم عن الخوض فيه، وإن كنت أضب منه في نفسي على شيء كثير... بعد استكمال الفروض اليومية ذهبت فعلت تلميذي وتلميذاتي، ثم رجعت إلى البيت فتغديت ونمت ثم استحمت مرة ثانية، ونزلت مع الآنستين عفيفة وملكة والأستاذ جورج أفندي عطية فلقينا زين العابدين أفندي، فمشينا في شارع جمال باشا إلى أن آذنت الشمس بالمغيب، ثم رجعنا إلى البيت. تناولت العشاء مع موسى في السوق.

الثلاثاء ١٤ أيارغ/ ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية خرجت فعلت تلميذي وتلميذاتي. دفعت لي تلميذاتي ستة ربات عن الشهر الماضي الذي انتهى في ١٢ من الشهر الحالي، ثم جئت إلى البيت فتغديت ونمت، وبعد النوم

استحمت. وعند الساعة الرابعة أخذت الأنسِين عفيفة وملكة وموسى أفندي ونزلنا إلى بيت الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر، وبعد أن تناولنا الشاي صعدت الأنسَان إلى غرفة شقيقة الأستاذ لتعلمها، وذهب موسى إلى دار المعلمين وبقيت أنا في غرفة الاستقبال إلى أن فرغ الدرس، فجاء موسى ورسّم بك وزين العابدين أفندي فخرجنا نمشي في شارع جمال باشا، وكنت أمشي منفرداً إمامهم أو وراءهم اختلاءً بنفسي. في المساء زارنا أحمد وصبحي فسهرنا إلى نحو الساعة الحادية عشرة والنصف، وفي كل الوقت لم أترك الكتاب من يدي أوهم أنني أقرأ فيه، والحقيقة إنني مشرد الفكر قلق البال مملوءٌ ضجراً. وتمنيت لو أرجع إلى العزلة لأخلو بنفسي وأحلق في عالم الخيال، إلى أن تنقضي أيام هذه الغربة فأرجع إلى بلادي لا علي ولا لي

كل يوم أكسب من علاج [=التعامل مع] هذا الزمان ومخالطة أبنائه ومعايشتهم ودرس طبائهم والوقوف على ما بدا وما اختفى من أحوالهم، اختبارات جديدة اخترتها في نفسي، حتى إذا رجعت إلى بلادي حاولت أن أطبق حياتنا البيئية عليها . . . أهم تلك الاختبارات كيف يجب أن يعيش الرجل مع ذويه، وفي الهيئة الاجتماعية، وكيف يجب أن تعيش المرأة أمّاً وأختاً أو زوجة أو ابنة، وعلى أي المبادئ يجب أن تقوم الحياة العائلية والسعادة البيئية، إلى غير ذلك مما لا يتسع له المجال هنا وسأحاول جهدي في مدة غربتي هذه، أن أنعم النظر في هذه الاختبارات، وأتوفّر على درسها والتثبت منها، ولعلي لا أعدم فرصة للكتابة عنها في ما يجيء من يوميّتي هذه والأمور مرهونة بأوقاتها.

الأربعاء ١٥ أيارغ/١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية خرجت عند الساعة التاسعة، فزرت بيت الفيحاني وجلست إلى الأنسة رمزة وأمها أسائلهما وتساؤلاني وأمنيتهما بالفرح وتمنياني وأشجعهما وتشجعاني، بل أعزبهما وتعزبانني، ثم ذهبت فعلمت تلميذي وتلميذاتي، وفي رجوعي عرجت على بطريكية القدس فوجدتهم على الطعام فكلمت أحد الخدم أن يبلغ الأرشمندرت تيموثاوس أنني زرته، ثم عرجت على غرفة أستاذي، وأنا هناك جاء سيزر ابن الخواجا شكري فران، فقال: إن الخواجا بومرت أحد مستخدمي قنصلاتو ألمانيا، أرسلني إليك لتواجهه اليوم أو غداً بخصوص دروس في اللغة العربية، ثم جئت إلى غرفتي فتعدّيت ونمت وبعد النوم استحمت. كان الاتفاق أمس أن نذهب مع الأوانس بعد أن تفرغنا من تعليم شقيقة الأستاذ

الشيخ عبد القادر أفندي المصغر إلى آخر محلة الصالحية ، فجلس في قهوة هناك ، ثم نرجع في ضوء القمر ، فكلفت الأستاذ جورج أفندي عطية أن يرافق الأوانس مع موسى ورستم بك وزين العابدين أفندي ، لأنني قررت أن أراجع الدكتور سليمان بك في مستشفى الهلال الأحمر بخصوص ما أحس به من الوقر في أذني . قالوا : نتظرك في دار المعلمين ، فقلت : قد أتأخر . وفي الحقيقة لم أجد في نفسي ميلاً إلى الذهاب معهم ، بل عزمت أن ألزم الكلفة بعد اليوم فلا أميل كل الميل ولا أنسحب كل الانسحاب ، لأنني أخشى إذا رفعت الكلفة أن يساء فهمي وأن يكون في ذلك ما يشجع غيري على الاعتساف . . . خرجت فلقيت أستاذي فمشينا معاً واتفقنا أن يسبقني إلى زيارة مطران الأقباط ريثما أمر على الدكتور سليمان ، فافترقنا وجئنا إلى مستشفى الهلال الأحمر فكلفت الدكتور أن يفحص أذني ، فاستمهلني إلى الغد بين الساعة التاسعة والعاشر قبل الظهر ، واتفقنا أن أبدأ بتعليمه اللغة الإنكليزية مساء يوم الاثنين القادم ، ثم لقيت الخواجا بومرت فقال : أنتظرك مساء يوم الجمعة وعلى ذلك سأكون مشغولاً في كل ليالي فيتها لي العذر في الامتناع عن حضور السهرات . ثم جئت إلى منزل مطران الأقباط فلم أجد ، فنزلت إلى البلد على أمل أن ألقى أحداً من الأصدقاء ، فلم أجد أحداً فرجعت إلى محلتي ، ولأنني قدرت أن أصحابنا سيتأخرون في الصالحية ذهبت رأساً إلى بيت الخواجا شكري فران ، فلقيت أستاذي هناك ، وكان الخواجا شكري يشرب فأشركني معه ثم رجعت إلى البيت فتعشيت ، وكان جيراننا قد ذهبوا لزيارة بعض أصدقائهم فجلست ألعب بالورق مع موسى ، ولم يكن في المنزل غير الأنسة أولغا ، وأما إخوتها الصغار والأستاذ جورج أفندي عطية فقد ناموا باكراً . فهت من موسى أنهم ذهبوا إلى بيت الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي فلم يجدوا أحداً ، ثم ذهبوا إلى دار المعلمين فلم يجدوا أحداً فرجعوا رأساً إلى البيت ، وبعد أن لعبت مع موسى خرجنا نمشي في ضوء القمر لعلنا نجد جيراننا راجعين فلم نلق أحداً ، فرجعنا إلى البيت وأويت إلى فراشي .

الخميس ١٦ أيارغ / ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية ، زارني الخواجا اندراوس العيسى ، وفهمت منه أنه يرجو أن يجد شغلاً قريباً ، ثم خرجت فحلقت وقصصت شعري ، ثم ذهبت إلى مستشفى الهلال الأحمر ففحص الدكتور سليمان بك أذني فلم يجد فيهما شيئاً . وإنما قال : إنهما تحتاجان إلى غسل وأعطاني غلصريناً لأضع منه في أذني كل يوم قليلاً ثم أرجع بعد ثلاثة أو أربعة أيام فيغسلهما ، ثم ذهبت علمت تلميذي وتلميذاتي وفي

رجوعي عرجت على بطريكية القدس ، فدفع لي الأرشمندريت تيموثاوس عشرة ريبالات ، على حين كنت أقدر أن آخذ أكثر لأنني أحتاج إلى أكثر من ريبال ونصف كل يوم ، فضلاً عن أنني أحتاج إلى بدلة صيفية وبعض ثياب بيضاء ، فقال : سأعرض ذلك على البطريك . جئت إلى البيت فتناولت الغداء ودفعت لموسى ثمانية ريبالات من أصل المصروف ، وقد دفعت له قبل اليوم نحو مضاعف هذه القيمة ، وذلك جزء يسير من مصروفنا اليومي . ونحن على الغداء قال موسى : سأذهب نحو الساعة الثانية والنصف إلى بيت الدكتور سبور ، وقد قال لي رستم بك إنه ينتظركم نحو الساعة الخامسة والنصف لتذهبوا معاً إلى الصالحية فنرجع معاً في ضوء القمر ، ولكنني كنت في حالة نفسية لا تساعدني على إجابة مقترحه ثم نمت ، وبعد النوم استحمت جيداً وكانت الأنسان قد رجعتا من المدرسة فعرضت عليهما أن نذهب إلى الصالحية ، ولعلهما أدركتا أنني منقبض الصدر فاعتذرتا وقالتا : ما لنا نراك منذ يومين في قلق واضطراب وانباض على خلاف عادتك ؟ فقلت لهما : قد أكون مثل ذلك في بعض الأيام ، ثم نزلت إلى البلد فلقيت رستم بك وزين العابدين أفندي ، فدعواني لتناول العشاء معهما ، فرأيت أن أطلق نفسي من سأمها وانباضها وأرجع إلى أنسي ولو مكرهاً ، لأنني إذا انقبضت عن الأنس والسرور سرت عدواي إلى كل من حولي ، كما أنني إذا كنت مسروراً بثت السرور في نفوس من يحاططني ، وبعد العشاء أخذت رستم بك وزين العابدين معي وجئت إلى البيت ، وفي الطريق اشترت وتراً لكمنجتي دفع ثمنه رستم بك ، فلقينا هناك أحمد وموسى واسحق وصبحي ، وكانت الأنسة ملكة قد أوت إلى فراشها ولو تأخرنا قليلاً لنام الجميع فأخذت كمنجتي وجعلت أعزف عليها ولم آل جهداً في مباسطة الجميع ، وموانستهم ، فغنيا ولعبنا بعض الألعاب إلى نصف الليل . . . ظهرت اليوم إصابة بالكوليرا ، وقى الله البلاد منها . .

الجمعة ١٧ أيارغ/ ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية ذهبت فعلمت تلميذي وتلميذاتي . ما أحوج المرأة بنتاً أو زوجة إلى الاقتداء بالمرأة الأوربية في حياتها . يجب أن تولع بالألعاب الرياضية والاستحمام بالماء البارد ، فإن ذلك يكسبها صحة ورشاقة وجمالاً ، ويرقي أخلاقها ويكبر نفسها ويعلي همّتها ويزيد نشاطها ويملأها بهجة وسروراً . . . رجعت بعد الدرس إلى البيت فتغديت ثم نمت ، وبعد النوم استحمت مرة ثانية ثم عبأت أركلتي وجلست في رواق المنزل ، فجاء الأستاذ جورج أفندي عطية وصبحي أفندي وأحمد أفندي فقرأت عليهم يومية ١٨ نيسان حيث أودعتها خلاصة مذهبي . في المساء ذهبت إلى غرفة الخواجا بومرت وابتدأنا في قراءة مقدّمة ابن خلدون فوجدت أن معرفته باللغة العربية وأحكامها ليست قليلة ، وسيكون الدرس مرتين في الأسبوع

مساء يوم الثلاثاء ومساء يوم الجمعة .

السبت ١٨ أيارغ / ١٩١٨م

بعد استكمال الفروض اليومية زارني الخواجا أندراوس العيسى يحمل رسالة من جرجي مخائيل الخوري يطلب مساعدتي ، فلم أبدأ أن أقوم وأنزل إلى البلد لأطلب مساعدة الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر ، فوجدته على أهبة سفر إلى الناصرة فالسلط ، فكتب لي رسالة إلى مدير السوقيات رشدي بك يلتمس منه إطلاق سبيل جرجي الخوري ، لأنه من مواليد ٨٢ [١٨] الذين شملهم العفو من الخدمة العسكرية ، ثم ودعته ورجعت ، فعلمت تلميذي وتلميذاتي . وبعد الظهر لم أستطع أن أستحم مرة ثانية لأنه يوم غسل عند جيراني ، فنزلت إلى البلد ومررت على صبحي أفندي عويضة ، لأنه وعدني أن يذهب معي إلى السوقيات في محطة القدم ، فانتظرنا الترام مدة طويلة فلم يحن فأجلنا الزيارة إلى الغد صباحاً . لقيت عبد الرحيم أفندي الصفح والأستاذ الشيخ أحمد أفندي زروق أستاذ التجويد فدعوتهما للسهرة عندنا غدا مساءً ، ثم زرت رسم بك وزين العابدين أفندي في دار المعلمين ، وإذ كنت قد وعدت الأنستين عفيفة وملكة أن ننزل إلى شارع جمال مساءً هذا النهار لنرجع في ضوء القمر ، تركت رسم بك وزين العابدين أفندي ، وجئت إلى البيت ، ولكن وجدت الأنستين غير قادرتين على الخروج لشدة تعبهما من الغسيل ، فرجعت إلى رسم بك وزين العابدين اللذين كانا في انتظارنا في شارع جمال باشا ، اعتذرت عن الأنستين ، ثم رجعت إلى البيت وأويت إلى الفراش باكراً .

الجمعة ١٤ حزيران غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح ، ذهبت فعلمت تلاميذي ، وبعد الظهر جاءني تلميذان جديدان يطلبان مني أن أعطيتهما دروساً في اللغة الإنكليزية ، أحدهما شوكت أفندي الشطي وهو الذي جاء إليّ ، وأما الآخر فهو مسلم أفندي أحد طلبة الكلية الصلاحية في القدس ، وقد كتبت أعطيته بعض دروس في اللغة الإنكليزية مع رفيقه حلمي أفندي ابراهيم ، ثم تعرض لنا ما منعنا من متابعة الدرس ، ثم عاد فطلب إليّ أن أعطيه وحده ، فكتبت أمهله من وقت إلى آخر حتى اعتقدت أنه عدل عن الدرس بالمرة ، فأرسل إليّ اليوم رفيقه شوكت أفندي ولعله أوصله إلى الباب ولم يدخل ، وبعد أن اتفقنا على الوقت والرسم وعدد الدروس في الأسبوع ، قال لي : إن رفيقه الآخر هو مسلم أفندي ، فعجبت من تشبّهه واهتمامه واصراره على أن يأخذ دروساً مني . وفي المساء علمت الخواجا بومرت . دفعت اليوم إلى موسى رباين من أصل الحساب .

السبت ١٥ حزيران غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح ذهبت فعلمت الفرد طرزي ، ولكن ثبت لدي أنه لا يستطيع أن يدرس ولا بدّ من امهاله شهرين أو ثلاثة أو أكثر . . بعد أن علمت تلميذاتي دخلنا الصالون فأسمعوني بعض قطع على الكرامافون ^(٥٤) .

بعد الظهر زارنا بعض أصدقاء موسى من الألمان ، فهيانا مائدة الشاي فلم يتسع لي الوقت لأن أذهب للدرس الإفرنسي ، وبعد قليل جاء الدكتور أمين أفندي أبو فاضل يعود الأستاذ جورج أفندي عطية ، فدعونا لتناول الشاي . وفي الساعة السابعة استأذنت وذهبت لأعلم تلميذي جاد أفندي السويدان ، وذهب الدكتور معي فقال لي في الطريق : أغبطكم على هذه المعيشة . وبعد الدرس رجعت إلى البيت وكان في نيتنا أن نذهب إلى المدينة ، فقالت لنا الأوانس : لا يحق لكم أن تتركونا فعدلنا وسهرنا معهن في رواق المنزل . كل يوم أونس في موسى ترقياً في الفكر واقبالاً على الحياة ونزوعاً إلى أبعاد الآمال ، ولا يجلس الواحد منا إلى الآخر إلا كان حديثنا في أجمل المواضيع وأسماها ، فاتني أن أذكر أنني قلقت الليلة في نومي .

الأحد ١٦ حزيران غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح نزلت مع موسى إلى البلد ، وزرنا زين العابدين أفندي في دار المعلمين فوجدناه صائماً . متى يجيء الوقت الذي يعيش فيه الناس بحسب الأصول العلمية لا بحسب آراء الآباء والأجداد منذ الوف من السنين . لست أنكر أنه قد يمر بالإنسان أيام لا يستطيع أن يطعم فيها شيئاً ، إما لقلق فكره أو لحزن ألم به ، والصيام في مثل هذه الأيام طبيعي ، وإذا أكل الإنسان فيها فقد يكون طعامه مضرّاً بصحته لأن الطعام مع القلق أو الحزن سمّ قاتل ، وأما إذا كان الإنسان في حالته الطبيعية صحيح الجسم مقبلاً على الحياة منهمكا في شغله ، فما معنى الصيام ، إلا إذا جارينا الاقدمين ، وقتلنا : إن الجسم عدو النفس ، فيجب اضعافه وإذلاله ، وهذا رأي منقوض فلا يجوز بوجه من الوجوه التمسك به . . هذا بحث واسع ولي فيه كلام طويل ، ليس هذا محله . .

ثم لقينا الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر راجعاً من نابلس ، فسألناه عن أخته ، هل سافرت إلى القدس أم لا . فقال : بعد أن تم كل شيء لم نشأ أن تذهب وحدها بل اشترطت أن يذهب أخوها معها ، ولذلك لم يكن بدّ من إرجاعها إلى دمشق . ثم قال لي : إنه أخذ مكثوبي إلى سلفي الدكتور دعديس وذهب

(٥٤) عن التكريرية gramophone ؛ الحاكي ، وهو أول جهاز استخدم لسماع الاسطوانات الموسيقية .

بنفسه ليزوره مساءً فلم يجده هناك وبعد أن طرق الباب كثيراً فتحوا له وأخذوا المكتوب وقالوا: متى رجع الدكتور من غيابه أجبني عليه. ووعدني الأستاذ أن يبذل جهده في ارسالي إلى نابلس لأعيش فيها بقية مدة الحرب، فيا حبذا لو صحت الأحلام.

بعد الظهر زارنا أصدقاء موسى الألمان قتناولنا الشاي ثم خرجنا معهم، فمشينا في حقول دمشق في جهة القصاع، ثم ذهبنا معهم إلى محلهم فدعونا للعشاء وكان بيضاً مقلواً وسقونا نبيذاً. لما كانوا عندنا كلفنا أحدهم أن يغني فغنى أغنيتين ألمانيتين ثم غنيت اغنية انكليزية، فما كان من أحدهم إلا أن بكى. تنافرت اليوم أم الياس مع بناتها فحبات الطعام عنهن.

الاثنين ١٧ حزيران غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح، جاء تلميذاي شوكت أفندي الشطي ومسلم أفندي وأخذنا الدرس الأول، ثم ذهبت فعلمت الخواجا بيرن، أما الفرد طرزي فقد عدلت عن تعليمه منذ اليوم، ثم ذهبت لأعلم تلميذاتي فوجدتهن على أهبة الخروج للزيارة، فأجلنا الدرس إلى الغد.

بعد الغداء أعبى أركيلتي وأجلس إلى الطاولة ألعب بالورق مع موسى إلى نحو الساعة الواحدة والنصف أو الثنتين، ثم ناوي إلى فراشنا للقلولة ولكن عراة لا نلتحف إلا بشرشف أو احرام من القطن، وقبل أن ننام أكلف موسى أن يمشي على ظهري فنضحك كثيراً، نام ساعة أو ساعة ونصف أو أكثر، وبعد النوم ندخل الحمام معاً فيفرك لي ظهري وأفرك له ظهره، ولا نفك في أثناء الحمام عن الغناء والضحك. لعل موسى لم يظهر عارياً قبل اليوم أمام أحد. ويسرني كثيراً اقباله على اتباع أسلوب في الحمام، فإذا قعدت في طبق الماء قعد في طبقه، وإذا فركت بطني فرك بطنه يقلدني في كل شيء. وبعد الحمام تناول الشاي.

قررنا أن نذهب الليلة إلى بيت الطرزي فذهبت عند الساعة السابعة وأعطيت تلميذي جاد سويدان أفندي درسه، ثم حلقت وذهبتنا إلى السهرة، وكان هناك بيت مصابني والخواجا جان قدسي وأخته، ثم جاء الدكتور فؤاد أفندي كحيل والدكتور أمين أبو فاضل وامراته وفتاة أخرى، والخواجا نذرة روميه والخواجا جوسيف أستاذ الموسيقى وقد أحضر معه «الأكورديون» فلعب عليها ألعاباً جميلة، سهرنا إلى نحو الساعة الثانية عشرة.

الثلاثاء ١٨ حزيران غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح، ذهبت فعلمت تلميذي الخواجا بيرن بعد أن علمت تلميذي شوكت ومسلم في الصباح، وبعد درس الخواجا بيرن ذهبت عند تلميذاتي قبل الوقت، فجلسنا في الصالون فلعبت الآتسة

بعض أنغام تركية وأوربية . أوقفت اختهم السيدة أديل درسها هذا الشهر ، وقد كان في نية الأنستين فيكتوريا وأدما أن توقفنا الدرس إلا أنهما رأتا أن تتابعاه فأكون قد خسرت الآن من دخلي ريالين عن دروس السيدة أديل وخمسة ريالات عن دروس الفرد طرزي .

بعد الظهر استحممنا وتناولنا الشاي . لا تزال جارتنا أم الياس غاضبة على بناتها لا تكلمهن ولا تطعمهن شيئاً مما أسفنا له كثيراً .
في المساء ذهبت علمت الخواجا بومرت .

الأربعاء ١٩ حزيران غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح ، جاء تلميذاي شوكت ومسلم ، ثم ذهبت فعلمت الخواجا بيرن ، ومن هناك ذهبت إلى قنصلاتو ألمانيا ، حيث ينتظرنني الخواجا شكري فران ، فسألني عن الكلية الصلاحية وعن أساتذتها ودروسهم ، ثم ذهبت فعلمت تلميذاتي .

بعد الغداء جلست أعب بالورق مع موسى ، ونحن كذلك جاءت أم الياس وقالت : إنها تحتاج الى غرفتنا ، فقلت لها : ونحن أيضاً نحب أن نخرج من عندكم . وبعد أن استوفينا فروض المساء خرجت مع موسى نفقش عن محل . لم يسع الأوانس إلا أن بكين من معاملة أمهن لنا . وقد عزمنا إذا لم نجد محلاً مناسباً أن نذهب إلى لوكدة دسكس .

في المساء ذهبت فعلمت تلميذتي الخواجا جاد سويدان ، زارنا في المساء صبحي واسحق وأحمد . سيسافر أحمد غداً إلى بيروت ومنها إلى حمص فودعته .

الخميس ٢٠ حزيران غ سنة ١٩١٨م

لا يسعني إلا أن أقول : إن تعليمي اللغة الإنكليزية قد أفادني كثيراً ، وإذا رجعت إلى بلادي اشتغلت بتعليمها وأقبلت على مطالعة كتبها . كما أنه لا يسعني إلا أن أشكر حسن حظي الذي ساقني إلى دمشق ، حيث استطعت أن أجد دروساً خصوصية أعيش منها ..

كل يوم يمر بي من الخواطر ويعرض لي من الملاحظات والتأثيرات ، ما كنت أحب لو يتسع لي الوقت لأن أحرص على تدوينها في أوقاتها ، ولكن الأحوال تضطرنني إلى الإسراع في الكتابة فاقصر على الحوادث البسيطة .

بعد استكمال فروض الصباح جاء تلميذاي شوكت ومسلم ، وبعد الدرس ذهبت فعلمت الخواجا بيرن ،

وأنا هناك أرسلت إليّ الأّسة عفيفة أن أمرّ عليها بعد الدرس .

وقفت إليّ هي وأختها الأّسة ملكة تستعطفان خاطري ، وتلحان عليّ أن أغض النظر وأن أبقى في بيتهم ، فإن أهمهم ندمت على ما صدر منها ، فقلت لهما لا يهمني إلا أن تعودوا إلى حياتكم السابقة ، وتبالغوا في العطف على أمكم ، فإن بقائي عندكم أو خروجي أمرٌ ثانوي . ومن هناك ذهبت لأعلم تلميذاتي فوجدت الأّسة أدما في الصالون وراء البيانو وإلى جانبها أحد جنود الهلال الأحمر يعلمها أغنية تركية مبتذلة ، مما كدت أستنج منه أن العائلات الدمشقية ولا سيما الغنية منها تعيش بدون فكر . الرجال مقبلون على أشغالهم لا يهمهم من الدنيا الا جمع الدينار ، والنساء والفتيات لاهمّ لهن إلا التزين بدون أن يميزن بين الحسن والرديء ، بين اللائق وعدمه . ثم دعوت الأّستين فيكتوريا وأختها أدما للدرس فجاءتا مكرهتين . وإذا حاولت أن أعلمهما شيئاً جديداً أو أكلفهما أن تكتباً فرضاً أو تعيدا عبارة تأففتا كأنهما تنتظران أن تتعلما اللغة الإنكليزية بالوحي والالهام مما حدثني نفسي معه ان أذهب ولا أرجع .

في المساء سهرنا في بيت فيعاني .

الجمعة ٢١ حزيران غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح ، جاء تلميذاتي فاعتذرت لهما بأني سأقل اليوم إلى محل جديد ، ثم جمعنا ثيابنا وأشياءنا ونقلنا إلى بيت السيدة أم ميري الخورية ، بالقرب من بيت أستاذي نخلة أفندي ، وبالقرب من كيسة الروم الأرثوذكسية . أخذنا عندها غرفة واحدة بتختين على حساب ليرتين فرنساويتين وريال في الشهر ، ثم ذهبت عند تلميذاتي وعرضت عليهن أن نوقف الدرس الآن ريثما ينتهي فصل الحرّ فاستغربن ذلك لأنهن كن ينتظرن أن يعرضن ذلك أنفسهن ، فعاجلتهن به قبل أن يفاجئتنني به ولكن أمهن أصرت أن نكمل هذا الشهر ، فقلت : لا بأس . ثم مررت على الخواجا بيرن فترجمت له مقالة عن الدكتور ميخائيل مشاقة منشورة في النشرة الأسبوعية بقلم حفيده ، ثم جنّا إلى غرفتنا الجديدة فنمنا ، ولكن لم نعرف أن ننام أولاً بسبب الحر الشديد ، وثانياً لكثرة البق فرأينا أن نفتش عن محل آخر أو نذهب إلى اللوكدة ، فذهبنا بعد الظهر الى بيت فيعاني فذهبت معنا الأّسة رمزة مع ابن خالتها الخواجا اسكندر صروف نفتش عن محل ، فلم نجد محلاً يناسبنا فانقبض صدري .

في المساء ذهبت علمت تلميذتي الخواجا بومرت ، فدفع لي ريالين من أصل حساب هذا الشهر .

السبت ٢٢ حزيران غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح خرجت فعلمت الخواجا بيرن، ثم علمت تلميذاتي، أما تلميذاتي فقد كلفتهما المجيء إلى لوكدة دمشق، وإذ لم نقل إليها لم يجداني فجاء إلى محلنا الجديد بعد فوات الوقت فأجلنا الدرس إلى يوم الإثنين. بعد الظهر استحمنا وكان أصدقاء موسى الألمان قد وعدوا أن يزورونا الليلة، فركت موسى يستعد لاستقبالهم، وجئت إلى بيت أم الياس شطاحي لأدفع لها ثلاثة أرباع الريال عن تحت موسى، فوجدتها قد اصطلحت مع بناتها، فأحطن بي وعلانم الانعطاف والتأثر بادية على وجوههن، ولم يزلن بي حتى وعدتهن أن نبذل وسعنا في التخلص من الغرفة الجديدة والرجوع إلى غرفتنا، ثم ذهبت معي الأنسة عفيفة والآنسة أولغا لتستعطفنا خاطر موسى أفندي، واتفقنا أن نذهب مع ضيوفنا الألمان إلى بيت أم الياس، فركت موسى ينتظر ضيوفه ورجعت مع عفيفة وأولغا، وبعد قليل جاء موسى مع أصدقائه الألمان.

استأذنت فذهبت وعلمت الخواجا جاد سويدان، سهرنا إلى نحو الساعة العاشرة ثم أخذنا الأوانس ونزلنا مع الضيوف إلى المرجة نوصلهم إلى بيتهم، فأمسكوا بنا فدخلنا وبالغوا في إكرامنا، ولما رجعنا دخلنا مع الأوانس فعبأوا لي أركيلة ودخنت إلى نحو الساعة الثانية عشرة، ثم ذهبت ونمنا في غرفتنا الجديدة.

الأحد ٢٣ حزيران غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح دعونا صاحبة البيت إلى غرفتنا، وقلنا لها لأسباب عديدة نضطر أن نترك الغرفة على أسف منا ودفعنا لها ريالين عن الليلتين، ثم نقلنا أشياءنا ورجعنا إلى غرفتنا فاستقبلونا بالهشاشة والبشاشة، ثم نزلت مع موسى نزور زين العابدين أفندي في دار المعلمين، وبقينا هناك إلى نحو الظهر ونحن راجعان من أمام ادارة الشرق نادانا الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المغربي، وقال: جاء ضابط يسأل عن موسى ليأخذه معه إلى الأستانة وهو مسافر غدا، فرأى موسى أن يغتتم هذه الفرصة ويسافر معه، وبعد الغداء في مطعم فلسطين تركت موسى يفتش عن صاحبه، وجئت إلى الغرفة فنمت وبعد النوم استحممت. اليوم عيد العنصرة^(٥٥)، وكان فراق موسى وأشواقني إلى البيت وتذكاري هذا اليوم وخواطر أخرى وتأثرات عديدة هاجمتني معاً فانقبض صدري، ولم أملك نفسي عن البكاء، فدخلت غرفتي فجاءت الأنسة عفيفة فرأت الدموع في عيني فتأثرت كثيراً فشكرتها.

(٥٥) عيد العنصرة: يصادف بعد خمسين يوماً من عيد الفصح، أي خمسين يوماً بعد عيد قيام السيد المسيح، وهي ذكرى حلول الروح القدس على تلاميذ المسيح عندما كانوا مجتمعين في القدس، وحيث أعطوا الحكمة ومعرفة لغات كثيرة.

في المساء سهونا في صالون جيراننا ، وجاء صبحي أفندي وزين العابدين أفندي .

الاثنين ٢٤ حزيران غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح جاء تلميذاتي فعلمتهما ثم ذهبت فعلمت تلميذتي الخواجا بيرن . فانتني أن أذكر أنني أخذت مساء يوم السبت عشرين فرنكا من الخواجا جاد سويدان وليرة عثمانية ذهبا من الخواجا بيرن فدفعتهما الى موسى مع ربالين آخرين . ثم رجعت فعلمت تلميذاتي . رجع موسى من البلد فقال : إنه قابل صديقه الشيخ عبد الرحمن أفندي رياض شيخ زاوية الهنود في القدس فقال له : إنه أخذ أمرا من جمال باشا بالسفر إلى الأساتنة وأنه يستطيع أن يأخذ معه اثنين آخرين بحسب ذلك الأمر ، ولذلك فهو يستطيع أن يأخذ موسى معه ، فوجدنا أن ذلك أوفق من أن يسافر مع الضابط .

في المساء ذهبت فعلمت الخواجا جاد سويدان ، وبعد أن رجعنا جاء يزورنا زين العابدين أفندي مع الشيخ عبد الرحمن أفندي رياض ، والأستاذ الشيخ عبد الرحمن أفندي سلامة وصبحي أفندي عويضة واسحق أفندي حلبي فسهرنا الى نحو الساعة الثانية عشرة . ميعاد السفر يوم الخميس ، ولكن من الممكن أن يؤخر بضعة أيام . . .

من جملة فوائد هذه الغربة أنني عرفت فيها نفسي . عرفت أنني أستطيع أن أحافظ على مبادئ وأرباب نفسي عن التسفل والانحطاط ، ليس في السعة فقط ، بل في الضيق أيضا فانا هو أسس واليوم وغدا .

من الثلاثاء ٢٥ حزيران إلى الجمعة في ٢٨ حزيران غ سنة ١٩١٨م

مساء يوم الثلاثاء عزمنا على اقامة حفلة وداع للعزيم موسى ، فاعتذرت إلى تلميذتي الخواجا بومرت . زارنا بيت فيعاني وبيت صهرهم صيدح والدكتور زاهي حداد وهو يحسن الضرب على الكمنجة ، وصبحي واسحق حلبي وأصدقاء موسى الألمان فغنينا ولعبنا وسررنا كثيرا الى الساعة الثانية عشرة .

مساء يوم الأربعاء كان الاتفاق أن يجيء الشيخ أحمد أستاذ التجويد وعبد الرحيم أفندي الصفح ومرتلو الكنيسة الارثوذكسية فدعونا بيت فيعاني وأستاذي وبقية الأصحاب ولكن لم يجيء أحد منهم بل جاء زين العابدين أفندي مع الشيخ النعساني والشيخ عبد الرحمن أفندي سلام والشيخ عبد الرحمن أفندي رياض شيخ الهنود في القدس وأستاذي وصبحي واسحق حلبي والدكتور زاهي حداد وعزت طنوس والدكتور جورج ايوب وبشارة حبابو وبيت فيعاني ، فاغتنقت كثيرا لتغيب أستاذ التجويد وعبد الرحيم الصفح ومرتلي الكنيسة الارثوذكسية بعد أن كنا على يقين من مجيئهم وعزمت أن لا أعود الى اقامة مثل هذه

الاجتماعات ، ومما ساءني أيضاً أن الآنسة عفيفة لزمت فراشها وأختها الآنسة ملكة خرجت في أول الليل مع الخواجا حنا عطية واخته الى ضوء القمر مع اننا قلنا إن الحفلة ستكون مزدوجة لوداع موسى واحتفالاً بسلامة جورج عطية .

مساء الخميس دفع اليّ جاد سويدان نصف ليرة فرنساوية بقيمة رسم الشهر الأول عن دروسه ذهبنا انا وموسى وصبحي والدكتور زاهي حداد وجارتنا أم الياس وبناتها الآنستان عفيفة وملكة وسهرنا في بيت فيعاني إلى نحو نصف الليل .

الجمعة ٢٨ حزيران غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح جاء تلميذاي شوكت أفندي ومسلم أفندي فعلمتهما وعلمت الخواجا بيرن . لم أزل أفكر في سريّ وقد تذكرت يوم كنت أحمله على ظهري أغني له «عمي سريّ» فيجيبني بياع الزيت . اواه ثم اواه لقد كنت من أسعد الناس ضربتني الأقدار ضربة لم أستفق إلا وأنا حليف الجزع والهّم والكآبة والشقاء .

السبت ٢٩ حزيران غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح والفراغ من دروسي نزلت مع موسى الى البلد لنزور أصدقاءنا الألمان الخواجات ليمن وشروك ولووفيك فتصورنا في صحن منزلهم وموسى جالساً وهم وقوف . سأحتفظ بهذه الصورة تذكراً لأيام الغربة .

دعنتي تلميذاتي لزيارتهم مع الدكتور زاهي الحداد وعزيزي موسى غداً مساءً . في المساء زارنا أصدقاءنا الألمان والدكتور أيوب وبشارة حبابو وعزت طنوس وأخوه وزين العابدين أفندي والأستاذ الشيخ عبد الرحمن أفندي سلام .

الأحد ٣٠ حزيران غ سنة ١٩١٨م

في المساء أخذت موسى والدكتور زاهي وذهبنا إلى بيت تلميذاتي ، فلم يكن هناك غير الأم وبناتها فأقبلن علينا بأنسهن ولطفهن ، وجعلت الآنستان أدما وفكتوريا تتناوبان العزف على البيانو ، وجعلت أنا والدكتور تتناوب العزف على الكمنجة . لا يجمعني مجلس مثل هذا إلا افتتحت العزف على الكمنجة بعزف نغمة ارسال السلام الى أحبائي .

سهرنا الى نصف الليل ثم خرجنا وقد حملنا في نفوسنا تأثيرات جميلة . وكان أشدنا سروراً موسى ، إلا

أنه عتب عليّ لأني لم أعرفه بتلميذاتي إلا في الدقيقة الأخيرة قبل سفره، وذكّرني أيام الصبي حين كنت لا أجلس إلى الحسان إلا فاض قلبي حبا وGRAMA. وأما اليوم فإني لا أجلس في مثل هذه المجالس إلا قلت مع ابن زيدون:

ولو هوى نحونا من أفق مطلعته بدر السما لم يكن حاشاكِ يصيبنا

الاثنين أول تموز غ سنة ١٩١٨م

زارنا في المساء الدكتور زاهي والدكتور أيوب وأصداؤنا الألمان، لقد مللت هذه السهرات وتعبت كثيراً، فإذا سافر موسى غداً رجعت إلى حياتي الماضية وانقطعت عن هذه الاجتماعات والسهرات، وجعلت أنام نحو الساعة العاشرة.

الدكتور زاهي ورفاقه مسافرون غداً إلى الناصرة فودعناهم ودعونا لهم بالسلامة والتوفيق.

الثلاثاء في ٢ تموز غ سنة ١٩١٨م

عزيزتي سلطنة

ستجدين في يوميتي هذه خلاصة حوادث أيامي وليالي، وما تخلل ذلك من التأثيرات والملاحظات والخواطر والآراء والدروس والعبر، مما أرجو أن تسري بقراءته. وستجدين بين تلك السطور بعض كلمات لأصدقائي تفضلوا بكتابتها تشف عن كرم أخلاقهم وجسـن ظنهم، وعمـا لقيه أسلوبـي في الحياة من استحسانهم. لا تقولي إن في الاستكثار من هذه الشهادات اعترافاً مني بأنني لست أهلاً لأن أكون موضع ثقتك، كلا فإني لم أحرص على إيداعها هذه الأوراق إلا على سبيل الفكاهة والدعابة، وإلا فإن زوجك الكريم أجل من أن يحتاج إلى شهادة تؤذن بوفائه وأمانته، فإنك تعرفين أنه مثل الوفاء والأمانة. أليس كذلك؟ ودونك هذه الكلمة للصديق الأبر أعز الناس عليّ تلميذي بل أخي بل صديقي بل ولدي موسى أفندي العلمي، الذي سأقص عليك من مآثره ما لا يتسع من هذا المقام، إن شاء الله، وهذه هي كلمته بخط يده:

كلمات قليلة أودع بها الأيام الجميلة التي قضيتها معك يا أستاذي العزيز.

إن مغناطيسيتك القوية وتأثيرك الغريب المدهش كان له منذ أول معرفتي بك أكبر وقع عليّ.. وكثيراً ما كان راشدي في كثير من أعمالي إن لم أقل في كلها، ولكنني لم يخطر ببالي قط أن سأعيش معك مدة طويلة، ليس فقط في دار واحدة بل في غرفة واحدة.

إن التزامي لك طول هذه المدة في ذهابك وإيابك، في رواحك ومجيتك، في أكلك ونومك، في تأثرك وسرورك، في غضبك وفرحك، في حمامك ووضوئك، وأكد أن أقول في المحل الذي لا يسمى.. كل ذلك كان له أكبر تأثير عليّ.. يكفي أنه جعل أيام وحدتي هنا التي لا تطاق سروراً ونشاطاً، حتى أنني لا أقدر أن أترك الشام بل لا أقدر أن أتركك، فما الشام إلا أنت - وحاشاك أن تتشبه هي بك.. كانت الشام وما زالت في نظري شؤماً سيئاً. ولكني أحب هذا الشؤم، أحب هذا المكان السيء الرديء لوجودك فيه يا أستاذي العزيز.. أحببتك دائماً واحترمتك في كل وقت، ولكن لم تمتزج روحي بروحك، ولم أفهمك حق الفهم إلا في هذا المنفى. وإنني أشكر التقادير التي قادتني من بين أهلي وأحبتي في الأستانة لأصل الى هذه النتيجة، وهي غاية ما أريد.

كم سنذكر يا أستاذي العزيز حينما نكون مجتمعين حول الطاولة في بيتك الجميل وبجانبك سريّ وبالجانب الآخر أم سريّ، وأمامك أمك العزيزة وأختك المحترمة وكلهم ينظرون إليك باستغراب ودهشة، يتسمعون أخبارك، وأنت تسرد كل شيء بالتفصيل التام وتستهديني في كل مكان.. كم سنكون سعداء في ذلك اليوم يا أستاذي العزيز.. حينما يسألك سريّ عما إذا أتيت له بجدي صغير من تلك الشام التي طالما سمع ترداد اسمها من أمه لأنك فيها.. أه ما أشوقنا إلى ذلك اليوم.. إلى ذلك العيد.. إلى ذلك الإله المعبود.. نعم إن يومنا ذاك هو إلهنا وإليه نسجد طالبين أن يعجل بالمجيء...

ولا أخالك تنسى أن تسرد على عائلتك المحبوبة أنني قمت ببعض الواجبات المفروضة عليّ مع أستاذي العزيز.. كالمشي على ظهرك عاري الجسم مثل الشياطين، فكنت تتأفف من حرارة رجلي الأمر الذي أدى بك إلى وضع غطاء بين رجليّ وظهرك.. أو فركي ودلكي ظهرك وقت الاستحمام، ثم صبّ الماء على ظهرك ورأسك وصدرك. وأهمّ من ذلك كله الموالد والأناشيد والأغاني والصلوات، والتراتيل الكنائسية التي كنا نقيمها في الحمام.. فحقاً أقول: إن أجمل الساعات كنا نقضيها في الحمام وفي غرفة النوم، أليس كذلك يا أستاذي العزيز.. ولكن أنا أيضاً لا أنكر فضلك عليّ. فكم مرة حممتني وكم مرة كبستني قبل قيامي من النوم صباحاً.. لا أظنك تنسى كم كنت أعذبك قبل أن أترك فراشي، وكم كنت تستعمل من الحيل للوصول الى ذلك.

كل ذلك لا أظنك تنساه، ولكن أخاف أن تنسى اللبن والزيت، والزيت واللبن، واللبن مع الزيت، والزيت مع اللبن.. أخاف أن تنسى البط والأوز والدجاج التي كنا نأكلها كل يوم، فنتعذب بسبب ذلك بغسل أضراسنا مرتين في النهار أو أكثر.. أخاف أن تنسى (الفايف

أوكلوك تي) Five o'clock tea. وكم كانوا يحسدوننا عليها.. كثير من الأشياء أخاف أن تنساها، ولكن سأذكرك بها هناك، هناك، عند العائلة العزيزة إن شاء الله.

أما أنا فستبقى محفورة في قلبي ذكرى الساعات الجميلة التي كنا نقضيها معاً. بدون أن يعكر علينا أحد لذتها وصفوها. تلك الأويقات الذهبية التي كانت تسرح أرواحنا فيها ما فوق السماوات السابعة، فتطل على العالم من العلو الشاهق محتقرة الدناءة والسفالة التي فيه. محتقرة تلك الحشرات الواهية التي تعبت به. محتقرة كل شيء لأنها أعلى وأسمى منه. نعم تلك الأحاديث الملائكية.. كلا فالملائكة لا يفهمون أحاديث مثل هذه.. إذا فتلك الأحاديث الالهية.. هنا أيضاً أقف.. فالآلهة منغمسون في ملذاتهم.. إذا فتلك الأحاديث السكاكينية.. نعم السكاكينية.. قد ملكت عواطفني وشعوري وأفكاري.. وسأعيش في مستقبلي على نورها الدائم المشرق في قلبي.

سأذكر ما دمت حياً بفخر واحترام. لأنني تلميذك المخلص لك ولمبدئك. سأذكر أنفتك وضميرك، وشرفك، وقوتك، وثباتك أمام التجارب المدهشة التي اعترضتك وما زعزعتك ولا زلزلتك. فقد وقفت أمام أكبر وأعظم التجارب. والملائكة في مكانك يسقطون.. وأما أنت فبقيت أنت، وكما كنت، وكما ستبقى، إن شاء أو لم يشأ أبو عيسى...

سأذكر ذلك باخلاص وفخر، وسأصرخ أنني تلميذ ذلك الرجل الذي لا كالرجال.. ولكن لا تظن أنني سأعفو عن هفوتك وتقصيرك الذي لا يغتفر يا أستاذي العزيز.. لا تظن أنني إن ذكرت الأيام الجميلة السعيدة التي قضيتها معك أنسى ما لا ينسى. كلا، فإنك مهما اعتذرت ومهما كفرت في المستقبل، لن أنسى أنك منعتني خلال المدة الطويلة التي عشتها معك عن التعرف بالملائكة المطهرين.. كلا لن أنسى ذلك، بل لربما أنسى كل شيء ما عداه.. إنك انتظرت إلى أن عرفت أن سفري قد تحقق. فأخذتني إلى هناك.. أخذتني إلى ذلك البيت الجميل، إلى ذلك القصر البديع، إلى تلك السماء الزاهرة. إلى موطن الملائكة والأبرار.. نعم أخذتني، ولكن لن أنسى أنك أخذتني في آخر الأوقات.. ما أجمل تلك الساعات القليلة التي قضيناها وأرواحنا تناجى الاله يا أستاذي العزيز.. ولكنك آه منك، فقد مكرت وأنت خير الماكرين..

آه ما أجمل تلك الدقائق القليلة التي قضيناها وأرواحنا ترفرف في السماء وحولنا الملائكة يترنمون.. هذا من نصيب عائلتي الحزينة لفراقي. فإنك لو أخذتني قبل الآن إلى ذلك الفردوس، لاستحال رجوعي للأستانة مهما كان إلحاحهم عليّ، ولبقيت إلى أن تتفجر عواطفني فأسبح

تأنها في أمواجها الزاخرة.. لن أنسى اللونين اللطيفين الجميلين، الأبيض والأحمر، الطهارة والحب، ما أجمل ازدواجهما يا استاذي العزيز على من كان لون وجهه الطبيعي لون الحب.. أه ما اتعس الأيام التي تقضي على الفتى بالابتعاد من المكان الذي يحبه. فيضيق صدره وينكمش فؤاده، ويعيش بانساً تعيساً بعيداً عن من يحب أن يكون بالقرب منه.. ولكن ساعيش في بعادي لذكر أجمل ساعاتي وأحن شوقاً إلى ديار رايت فيها أنوار (فعلى) [كذا] وقبل أن أتم هذه الكلمات، قبل أن أتركك وأسافر، قبل أن أقبلك قبلة الوداع، أعدك يا استاذي العزيز.. أعدك أنني سأبقى محافظاً على مبدئك الشريف. على نصائحك الأبوية، على روح مواضعنا واحاديثنا الجميلة.. سأبقى محافظاً على كل ذلك، ليحق لي أن أقول في المستقبل بكل اعجاب أنني تلميذك الأمين.

موسى أفندي [توقيع]

في المساء ذهبت مع موسى إلى بيت فيعاني الجديد في القصاع في منزل عبده كحيل نودعهم.

الأربعاء في ٣ تموز سنة ١٩١٨م

تركت دروسي اليوم تفرغاً لوداع موسى والتزود منه، وعدني أن يشرع في كتابة يوميته التي افتحتها بكتابة كلمتي فيها. طلبت منه حسابي فأبى وأصر على رفض الخمس والعشرين ليرة البانقوطة التي كتبت أودعتها عنده، مما أذكره له بالشكر والثناء.

استحمننا بعد الظهر لآخر مرة، وبعد الحمام تناولنا الشاي ثم جاء الخواجا لودفيك أحد أصدقائنا الألمان فأخذناه وذهبنا أولاً إلى بيت صيدح نودعهم، ومن هناك ذهبنا إلى بيت فيعاني، وفي المساء جاء مرتلو الكنيسة الأرثوذكسية لوداع الخواجا جورج عطية، وجاء رستم بك وزين العابدين أفندي وأستاذي لوداع موسى، وبعد انصرافهم جلست وراء الطاولة أكمل كتابة كلمتي لموسى.

الخميس ٤ تموز سنة ١٩١٨م

قننا باكراً جداً فاستحمت، وأما موسى فلم يستحم، ثم خرجنا وقلبي يكاد يتفطر حزناً على فراق موسى الذي كان موضع أنسي ونجواي، وقد ابتدأت أشعر بشيء من اليأس داخلي لأول مرة [ومن] الخوف أن أصاب بالحمى التيفوسية فأموت غريباً، فأوصيت موسى بسري وأنا أكاد أغص برريقي وأشرق بدمعي.

ثم قبلت موسى قبلات حارة، وأقلع القطار وعدت أدراجي وأنا لا أكاد أعني . لتوافقك السلامة يا موسى وليسول الله مكافأتك فقد سافقتك التقادير إلى دمشق لتفريح كربي والتوسيع عليّ ، وإلا فإن الله أعلم ماذا كانت حالتي . حملته رسالة الى الخواججا ليفين في حلب أطلب منه أن يرسل إليّ دراهم .
في المساء جاء صبحي أفندي عويضة فذهبنا معاً إلى بيت فيعاني ، وقد وردته رسالة من الخواججا كلارك في سويسرا تظمنه عن أبيه وينعي اليه وفاة صديقي الأبر المرحوم حسين أفندي سليم فانقبض صدري وأحسست أن روحي بلغت التراقي .

الجمعة ٥ تموز سنة ١٩١٨م

في هذا اليوم ابتدئ شهري الثامن منذ أخذت من فراشي . تلك ليلة أهول ما مر وما سيمر بي في هذه الحياة ، أسلمت نفسي فيها للأقدار وخرجت غير مبال أردد في نفسي قول أستاذي أبي الطيب :
فأني شئت يا طريقي فكوني أذاةً أو نجاةً أو هلاكاً

ومع شوقي إلى أحبائي وحنيني إلى أيامي الماضية وعيشتي الراضية ، فإني إذا طال هذا الغياب ، فما أجدرني بأن أكون راضياً شاكراً لما تلقيته في محنتي هذه من الدروس المفيدة مما أشرت الي بعضه في يومي هذه . واني أرجو أن يكون أحبائي قد استفادوا كما استفدت . ما أدراني لعل انفصالي عن بيتي لمدة سنة أو أكثر أو أقل نافع لي ولهم ، ومما أذكره هنا من فوائد هذه الغربة أنني عرفت فيها قيمتي ، فهو ذا قد مرّ عليّ سبعة أشهر ودخلت في الشهر الثامن ولم يسأل عني أحد كإني من سقط المتاع ، ولست أشك أنني إذا رجعت إلى بلادي بعد هذه الغربة سأكتشف فوائد كثيرة تنتظرني . سأعرف من أحوال أحبائي وموقف أصدقائي وأقاربي بإزائي وإبازاء أحبائي ، ما لم أكن أعرفه . والخلاصة فإني لا يسعني إلا أن أكون شاكراً . .
بعد استكمال فروض الصباح ذهبت فعلمت تلاميذي جميعهم ، وبعد استكمال فروض المساء ذهبت فزرت أستاذي ، وكان عنده القس بطرس موسى ، ومن هناك ذهبت فعلمت تلميذي الخواججا بومرت ، ولما رجعت إلى البيت وجدت زين العابدين أفندي ورستم بك ساهرين عندنا .

السبت ٦ تموز سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح علمت تلاميذي كلهم ، وبين الساعة العاشرة والحادية عشرة أخذت درساً في

اللغة الفرنسية، بعد الظهر كتبت قد اتفقت مع صبحي أفندي عويضة أن أنزل إلى البلد، فذهب معاً عند الخياط أمين توما لتفصيل بدلة لي، ولكن إذ كان الطقس حاراً جداً والهواء عنيماً بحيث عقد من الغبار غيوماً، آثرت أن أبقى في البيت وأرسلت أعتذر إلى صبحي أفندي.

بعد الساعة السادسة خرجت فذهبت زرت رجال بطيركية القدس وصدري منقبض وحشة وكآبة، وقلبي يكاد يذوب شوقاً إلى أحبائي، ثم ذهبت فعلّمت الخواجا جاد سويدان، وبعد الدرس ذهبت فسهرت في بيت فيعاني. وكانوا قلقين جداً على ابن بنتهم جبران صيدح، لأنه مطلوب للخدمة العسكرية، وكانت الأنسة رمزة أشدهم اهتماماً بهذه المسألة فتأثرت لها كثيراً. مسكينة رمزة فقد عجلت عليها هذه الحرب المشؤومة بالهرم قبل أوانه، أنزع من صدر الفتاة آمالها، فإنها تصير إلى الشيخوخة بخطى واسعة.

الأحد ٧ تموز سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح نزلت إلى البلد أسعى في مساعدة جبران صيدح، فذهبت إلى بيت الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر، فوجدت أنه قد سافر، وجعلت كلما لقيت أحداً من أصدقائي أسأله عن طريقة لمساعدة جبران فلم أوفق. ثم ذهبت إلى دار المعلمين، فتناولت الغداء مع رستم بك وزين العابدين أفندي واتفقنا أن يزورانا بعد الظهر. ثم رجعت إلى البيت نحو الساعة الثالثة فعبأت أركلتي وجلست أدخن وأتلهى بالكتابة والقراءة إلى أن غلب عليّ النعاس، فنمت إلى نحو الساعة الخامسة، ثم استحمت جيداً نحو ساعة ونصف، وما كدت أخرج من الحمام حتى جاء رستم بك وزين العابدين أفندي فجلسنا في رواق المنزل، وكانت الأوانس الكريزمات معنا، إلا أنني لم أر الأم منذ أمس مما لم أشك معه أن بينها وبين بناتها شيئاً من النفور، فأخذت الأنسة عفيفة إلى جانب وسألتها عن الأمر، فقالت لي: إنها منذ انتهت أخوي الصغيرين أمس، ظنت أننا أوعزنا إليك بذلك أو أنك انتصرت لنا عليهما، فغضبت، فقلت: لا شك أنها غاضبة عليّ أيضاً. إذا كانت هذه حالة أم الياس فما أصعب المعيشة معها. في المساء جاء صبحي أفندي فذهبنا جميعاً وذهبت الأنسة عفيفة وملكة معنا إلى بيت فيعاني حيث سهرنا إلى نحو نصف الليل. يا سلطانة لولاك لاحترت جنس النساء ولم أقم لهن وزناً. ما أثقل الحياة بدون الجنس اللطيف، ولكن ما أحطها إذا لم تكن الحسان مثلك يا سلطانة. إذا عشت إلى يوم اللقاء، قصصت عليك من أحوال المرأة والفتيات شيئاً كثيراً.

الاثنين ٨ تموز سنة ١٩١٨م

في مساء مثل هذا النهار بعد نصف الليل من ٨ ك ١ غ سنة ١٩١٧م خرجت من القدس مكبلاً بالحبال كالمجرمين، ما كان أشد هول تلك الليلة عليّ، سأذكرها ما دمت حياً.. بعد استكمال فروض الصباح جاء تلميذاي مسلم وشوكت ثم ذهبت فعلمت الخواجا بيرن، ومن هناك نزلت إلى البلد فأخذت صبحي أفندي وذهبتنا عند الخياط فأخذ قياسي، وكانت الأجرة التي اتفقنا عليها أربعة عشر ريالاً. ثم رجعت إلي تلميذاتي فذكرنا العزيز موسى أفندي وأريتهما الظرف الذي أودع فيه صورة أمه وأخته وسلمه إليّ مختوماً بختمه، فما كان من الأنسة أدما إلا أن أخذت الظرف لترى العنوان والختم، ولكنها غافلتني فقصت الختم وفتحت الظرف ورأت صورة أمه وأخته، فقلت لها: ماذا أقول له إذا رجع؟ فقالت: سأعذر إليه. فعسى أن لا يسوءك ذلك يا عزيزي موسى.

بعد الظهر نمت ثم استحمت جيداً، وفي المساء ذهبت فعلمت الخواجا جاد سويدان فلقيت عنده أخاه حنا قادماً من حيفا، فبلغني سلام القس يعقوب خضر، فكلفته أن يبلغه سلامي.

رجعت إلى البيت فجاء صبحي أفندي فسهرنا قليلاً في رواق المنزل نلعب بالورق، وكان أهل البيت كلهم قد ناموا ما عدا الأنسة أولغا فإنها سهرت معنا تونسننا بلطفها، وهنا محل لأن أثني عليها ثناءً جميلاً.

قلقت ليلة أمس، ولعل سبب ذلك فنجانا قهوة شربتهما في بيت فيعاني.. نام صبحي عندي في تخت موسى. منذ تركني موسى إلى اليوم لا أزال أتعذب بأمر طعامي، وسأنتظر قليلاً فإذا قرر صبحي أن ينتقل إلى بيتنا ويعيش معنا اشتركتنا بالطعام ووكلت إليه أمره، وإلا فلا غنى عن أن أرجع إلى أستاذي، وإلا كان أمر الطعام مشكلاً كبيراً يعني حله..

إلى اليوم لم آخذ من أحبائي خبراً أطمئن إليه، ولست أدري لذلك سبباً. هل كتبوا فضاعت رسائلهم أو داهمتهم مصائب لم تكن بالحسبان فشغلتهم عني، أو أهملوني فأصبحت عندهم نسياً منسياً، أولم يهتدوا إلى طريقة لإيصال أخبارهم إليّ. ومهما كان السبب فإنني لا أسامحهم على هذا الإبطاء، وهم يعرفون أنني على مثل الجمر في انتظار أخبارهم، لو فرضنا أن سلطنة وميليا لم تعرفا كيف تكتبان فما بال الأقارب والأصدقاء لا يكتبون، لماذا لم يكتب يعقوب ابن خالتي، لماذا لم يكتب أبو الفضل أو أبو داود أو أبو جميل أو غيرهم من الأصدقاء على كثرتهم وشدة ولائهم؟.. كل أبناء فلسطين في دمشق من مسيحيين ومسلمين ويهود وردتهم عدة رسائل وتلغرافات إلا أنا، هل أنا الشخص الوحيد الذي أهملت فنسيت، اللهم صبراً، اللهم صبراً.

لست أشك أن أخباري وصلتهم، فإذا صح أن شحادة ملوك خلص إلى القدس، فقد نقل إليهم أخباري

وطمائهم عني ، ثم بلغني أن الكركيين الذين كانوا في دمشق ، عند رجوعهم الى الكرك ، كان الإنكليز قد أخذوا السلط فذهبوا مع من ذهب من أهل السلط إلى القدس ولا شك أنهم طمانوهم عني . ثم كنت قد لقيت بعد خروجي من السجن صالح أفندي قاقيش من أهل السلط ، وهو من الذين ذهبوا من أهل السلط إلى القدس ، فلا بد أنه لقي أحد أصدقائي أو أقاربي فطمأنهم عني ، ثم إن الدكتور شدياق الذي كان في السلط عند مجيء القدس فأخذ أسيراً ، لا بد أنه زار أحبائي فطمأنهم عني ، ثم إني كنت قد كتبت إلى بعض أصدقائي في السلط أطمئنتهم عني وهؤلاء كانوا من جملة الذين ذهبوا إلى القدس مع الإنكليز عند انسحابهم من السلط ، فلا بد أنهم زاروا أم سري وقرأوا لها رسائلي إليهم ، فضلاً عن أنني كتبت عن طريق سويسرا عدة رسائل ، وعن أن بعض الأصدقاء هنا ذكروني في رسائلهم إلى ذويهم ، فلا بد أن إحدى هذه الرسائل قد وصلتهم ، فما بالهم قد قطعوني لست أدري لذلك سبباً ، والغائب حجة معه . بلغوني أن أمي لا تزال في قيد الحياة وأن سرياً لا يزال يذهب إلى مدرسته ، وأن سلطنة وميليا قد وجدتا شغلا في إحدى المدارس ، ثم اقطعوا اخباركم ما شئتم فلا أتعب ولا أشكو .

الثلاثاء ٩ تموز سنة ١٩١٨م

دخلت مع صبحي أفندي إلى غرفة الاستحمام فغسلني وغسلته ، وقد أخذته رعدة البرد لعدم اعتياد الاستحمام بالماء البارد ، ولكن إذا سكن عندي أشركته في حماماتي كل يوم . يعجبني من صبحي طهارة ذيله ومروءته ورجوليته ، وسأشربه افكاره ومبادئه مع الأيام إن شاء الله ، وأرجو أن يكون في مستقبله من الأفراد القليلين الذين يفتخر بهم .

لم يجرئ تلميذاي شوكت ومسلم اليوم ، بسبب أن اليوم وقفة عيد الفطر . بعد الفطور نزل صبحي إلى عمله ووعد أن يرجع في المساء لينا معندي ، وذهبت أنا فعلمت الخواجا بيرن ، ومن هناك ذهبت فأخذت درساً في اللغة الفرنسية ، ثم ذهبت إلى تلميذاتي فاعتذرن فرجعت إلى البيت ، فلقيت رستم بك وزير العابدين عاندين من مدرسة البنات ، فقد دعيا لحضور الامتحان فيها .

بعد الغداء نمت نحو ساعتين ثم قمت فاستحمت جيداً ، واستغرق حمامي نحو ساعة ونصف ، وبعد الحمام هيأت الشاي وقد بلغ ثمن الأوقية من الشاي اليوم ثلاثة ريالات . إذا طالت هذه الحرب أو قصرت فلا بد لي ما دمت بعيداً عن البيت أن أقبل على نفسي فاستكمل محاسنها ، وأن استوعب ما يمر بي من الدروس حتى إذا رجعت إلى البيت وجدوا مني شخصاً جديداً إن شاء الله .

في المساء ذهبت لأعلم الخواجا بومرت فاعتذر بانحراف صحته ، فرجعت إلى البيت وتعشيت بيضاً

مقلّواً ، وجاء صبحي فسهرنا الى نحو الساعة الحادية عشرة . . كلما تعرّفت بأخلاق الفتيات هنا ازداد اعتباري بسلطاتي ، أفضل الفتيات من تحب الجلوس إليها ولكن تهيّبا وتكروم مجلسها ، لا من تحب الجلوس إليها ولو سمحت لك نفسك وآدابك لعبت بها وملت منها ما تشاء . . بعض العائلات هنا وفي كل محل تؤثر الأم أو الأب أن يموت أولاده جوعاً من أن يخسر في النفقة عليهم شيئاً ، وأعجب العائلات من يكون لها الأملاك فتعيش على الشيء القليل بل تمسك على أولادها الطعام ، ولا تبيع شيئاً من أملاكها أو ترهنه ، ولو استطاعت أن ترسل أولادها ليتسولوا على قارعة الطريق لما رأت في ذلك شيئاً أو عيباً . كل ذلك خير عندها من أن تخسر شيئاً من أملاكها ، أو تصرف شيئاً من وارداتها ، لا شك أن ذلك نهاية في غرابة الأخلاق .

الأربعاء ١٠ تموز سنة ١٩١٨م

قمت أنا وصبحي باكراً واستحمامنا جيداً ثم أفرنا . لم يجئ تلميذاي اليوم أيضاً ، فاعتمت الوقت وجلست وراء طاولتي أدخن وأكتب وأقرأ . لا أمسك كتاباً لأقرأ أو قلماً لأكتب إلا تذكرت بيتي وطاولتي وأركيلتي وكتبي وأوراقتي . لست أشك أنني لو بقيت في القدس لكنت قرأت أكثر ووسعت معلوماتي ، ولكن الدروس والاختبارات التي تلقيتها في غربتي هذه أثنى عندي من مطالعة مئات من الكتب ، ولست أدري كيف كان يمكنني أن أتلقى هذه الدروس ، وأكتسب هذه الاختبارات التي أشرت إلى بعضها في يوميتي هذه ، واخترت الباقي في نفسي لولا هذه الغربة . . ولذلك لا يسعني إلا أن أكون راضياً شاكراً ، وأن أقول مع أبي الطيب أستاذي :

سبحان خالق نفسي كيف لذتها
في ما النفوس تراه غاية الألم
نعم لست أنكر أن هناك جهات كثيرة سوداء لهذه الغربة ، لا أستطيع أن أصرف النظر عنها ، منها ما أقاسيه من الشوق وما أجده من الحنين إلى أحبائي ، ومنها سوء المعيشة واختلالها مما أخشى أن يؤثر على صحي ويعاجلني بالهرم قبل أوانه ، فأرجع إلى البيت وقد وخطني الشيب وتجعد وجهي ، إلا أنني أحاول على قدر إمكاني أن أحافظ على شبابي وقوتي ونشاطي ، فعسى أن أتمكن من الظفر بأمنيّتي إن شاء الله ، ومنها ما أجده من القلق على أحبائي . أخشى أن تلم بهم الأمراض فلا يستطيعون دفعها ، ولا يجدون من يقف بإزائهم ، ولا سيما بعد وفاة صديقي الأبر الرحوم حسين أفندي سليم الحسيني ، كما أخشى أن يحتاجوا فلا يعرفون كيف يدبرون أنفسهم ولا يجدون من الأصدقاء من يشملهم بنظرة ، ولكن من كان له من الأصدقاء مثل أبي جميل وأبي الفضل وأبي داود ، كان حقيقاً أن يطمئن مهما طالت هذه الحرب واشتدت حلقات الضيق . ولذلك عزمت أن أغالب أشواقني وأدافع القلق وأعتصم بالصبر وأستدري بالطمأنينة إلى أن يقضي الله أمراً

كان مفعولاً . . . ثم ذهبت فعلت الخواجا بيرن ، أقول أعلمه والحقيقة أنني لا أعلمه بل أصرف الوقت ، وأكثر من الوقت في أحاديث مختلفة ، كلانا مبشران هو يبشر بالمسيح وأنا أبشر بأسلوبي . يقول : ألا تصلي ، فأقول : لا . يقول : ألا تستغفر الله عن زلاتك ، فأقول : لا . يقول : ألا تشكر الله على إحسانه إليك ، فأقول : لا . يقول : ألا تعتمد على الله فأقول : لا ، إلى آخر ما هنالك مما يتلقاه بالاستغراب ، ولعله يشفق عليّ أن يكون مصيري إلى جهنم . ومن هناك ذهبت فعلت تلميذاتي ، ثم رجعت إلى البيت فتعديت ونمت وبعد استكمال فروض المساء ذهبت فعلت تلميذي الخواجا جاد سويدان ، ولما رجعت زارنا الخواجا لودفيك والخواجا شروك أصدقاء موسى فسهرنا إلى نصف الليل .

الخميس ١١ تموز سنة ١٩١٨م

نام صبحي أفندي عندي ، وبعد استكمال فروض الصباح خرجت فعلت الخواجا بيرن ، ومن هناك ذهبت فأخذت درسا في اللغة الفرنسية ، ثم ذهبت لأعلم تلميذاتي فلم أجدهن ، فنزلت إلى البلد لأقيس بدلتني فوجدت دكان الخياط مغلقة ، ثم لقيت صبحي أفندي فجئنا معا الى البيت . تعديت بيضا مسلوفا ولينا ، وأما صبحي فلم يأكل ، ثم نمنا وبعد النوم اغتسلنا معا ، وأريته أسلوبي في الاستحمام فعزم على اتباعه وقرر أن ينتقل إلى غرفتي ويعيش معي . بعد تناول الشاي جلست وراء طاولتي أدخن وأكتب .

عزيزتي سلطانة أرجو أن تكون هذه المصيبة قد علمتك كما علمتني ما لم تكوني تعلمين . أرجو أن تكون قد رفعتك إلى أعلى درجات الكمال . أتصورك دائما مقبلة على العناية بسري واشرايه روحك الطيبة ، وتنشئه على الأخلاق الفاضلة . أرجو أن تكوني مع ميليا وأمي ساهرات على صحته ، محافظات على حماماته ، حتى إذا رجعت وجدته ممتلى الجسم مشرق الوجه براق العينين ، تلوح على وجهه علائم النجابة والذكاء فاستلمه منكن ، وأقوم بواجباتي نحوه . ترى كيف تصرفن أوقاتكن ، من تزرن ومن يزوركن . لا أذكر القدس إلا ذكرت ألوفاً من الناس ، أذكر أخي يعقوب وأختي فروسو وأولادها جورج وهدى وليديا ونايفة وماري وشفيق وعيسى وابنة عمي حنة ، وأولادها نجيب ويوسف ونجلا ، وأذكر ابنة عمي ليبة وأولادها جورج وكل بناتها وأبا سليم ، أذكر أختي هيلانة وأولادها وزوجها ، أذكر خالي جورج وامراته وبناته ، أذكر يعقوب ابن خالتي وأخاه متري ، أذكر فلاديمر وايكور ونيقولا ، ولعلمهم رزقوا أخوا جديداً أو أختاً جديدة بعد تركي القدس ، أذكر أبا الفضل وأحن إليه وأعجب بأخلاقه الراقية وذكائه الغريب ، وأرجو أن يكون قد نال أمنيته من هذه الدنيا ، أذكر أبا جميل وأيامنا في دير غسانة ، وأيامنا في القدس يوم كنا لا تفارق بعضنا بعضاً دقيقة ، وأعجب بوفائه ومروءته وشجاعته وذكائه ، وأذكر أبا داود

صاحب الهمة العالية والنفس الكبيرة والأخلاق الطيبة . لقد كان آخر من رأيت في القدس ، فقد لازم نافذة السجن الى الدقيقة الأخيرة ، أذكر جمال الحسيني واخوته واحداً واحداً وأباه ، أذكر رجائي الحسيني وأخاه ابراهيم ، اذكر الحاج أمين وأتصور ما يحمله وجهه الكريم من علائم الإخلاص والوداد ، أذكر صديقي المرحوم المأسوف عليه حسين أفندي ، أذكر ليلنا الأخيرة يوم كنت أرى منه عطف الأخ على أخيه ، أذكر عارف بك وعادل بك الترجمان وأباهما الطيب الفاضل ، وأترحم على المرحوم المأسوف عليه ، احسان ، الذي لا يبرح من مخيلتي ، أذكر الحاج راغب أفندي الخالدي صاحب الوجه المبارك . ومن عساي أعدد من الأصدقاء وغيرهم ، قدر الله أن أرجع فألقى الجميع على أحسن حال ، وأنعم بال إن شاء الله . .

في المساء ذهبت فعلمت الخواجا جاد سويدان ، ومن هناك ذهبت إلى بيت فيعاني فلقيت هناك مستر فوردر والخواجا اسكندر صروف وامراته والخواجا فكتور بيروتي ، ثم جاء صبحي أفندي فسهرنا الى الساعة الحادية عشرة ، ونحن راجعان رأنا حوزي من القدس اسمه اسحق قريطم فدعانا لركوب عربته وأوصلنا إلى محلنا فشكرناه . أخذت من الخواجا سويدان ثلاثة ريالات من أصل رسم هذا الشهر .

الجمعة ١٢ تموز سنة ١٩١٨م

فاتني أن أذكر أنني دفعت للخواجا بشارة توما ، أستاذي في اللغة الافرنسية ريالاً ونصفاً رسم الشهر الماضي . قمنا نحو الساعة الخامسة والنصف فاستحمنا ثم أظفرتنا حلياً ودبساً وبيضاً ، ثم جلست وراء طاولتي أدخن وأكتب . لم يجئ تلميذاي اليوم أيضاً .

يا حبذا لو أستطيع أن أرجع إلى احبائي في القريب العاجل ، قبل أن يبرح بي الشوق ويخونني الصبر . .

ذهبت فعلمت الخواجا بيرن الأسوجي ، ومن هناك ذهبت فعلمت تلميذاتي . بعد الظهر نمت ثم استحممت جيداً ثم تناولت الشاي ، وعند الساعة السادسة نزلت لأرى رستم بك بخصوص سهرة غد في بيت فيعاني فنزل معي صبحي والأوانس الكريمت فمشينا قليلاً في شارع جمال باشا . استوثقت من رستم بك أنه كلف أستاذ التجويد الشيخ أحمد أفندي زروق وعبد الرحيم أفندي الصفح لسهرة غد ، ثم دعاني مع صبحي لسهرة نقيمها الليلة في بيت أحد الأصدقاء فلم أر بداً أن أذهب فأعتر للخواجا بومرت . وبعد العشاء نزلت مع صبحي أفندي إلى محل الدعوة بالقرب من محطة الحجاز . لم يكن بين المدعوين أو الحضور غير فتاة واحدة . . وكان العواد الأمير أبو اللمع وهو يحسن الضرب على العود كثيراً . امتدت سهرتنا الى الساعة الثانية بعد نصف الليل . وكان هناك أيضاً كمال بك المهندس المصري الذي كان زارنا في القدس مراراً مع عادل جبر ، فاستغرب وجودي في دمشق ولما عرف مسألتي تأثر كثيراً . .

السبت ١٣ تموز سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح، لم يجئ تلميذاي شوكت ومسلم، ثم ذهبت لأعلم الخواجا بيرن فلم أجده، ومن هناك ذهبت فحلقت وقصصت شعري ثم ذهبت لأعلم تلميذاتي، فكلفني أن أكتب رسالة باللغة الانكليزية الى الخواجا وتسي جواباً على رسالة منه، يقول فيها إنهم اتقلوا من عمان إلى درعا، وأنه وردته رسالة قبل أسبوع من امرأته بخط يدها، فغبطه في نفسي، وقلت: متى تجيئني رسالة بخط يدك يا سلطنة. أحاشيك من أن تكوني قد نسييتي أو أهملتني وأستعذ بالله من أن تكون قد أمت بكم مصائب لم تكن بالحسبان، فلم تعرفي كيف تكئين لي. وفي رجوعي إلى البيت لقيت عز الدين الشوا، خرج منذ الصباح يفتش عن بيتي فلم يهتد إليه فأخذه معي، وفي بعض الطريق لقيت المعلم جريس طشته أحد أساتذة المدرسة الألمانية الخارجية في القدس. قال لي: إنه مسافر غداً إلى نابلس، فكلفته أن يحمل لي رسالة إلى سلفي الدكتور دعدس، وإذا لم أتمكن من كتابتها، فلينب عني في سؤال خاطرهم.

بعد استكمال فروض المساء ذهبت فخرجت على بيت فيعاني لأرى ماذا هيأوا ومن دعوا لسهرتنا الليلة، فعرفت أنهم لم يستوثقوا من مجيء الأمير أبو اللمع، فحشتهم على دعوته قبل فوات الوقت، أو على الأقل أن يدبروا عودة فيضرب عليه ميشيل. ثم ذهبت فعلمت تلميذي الخواجا جاد سويدان، وبعد الدرس جئت إلى السهرة، فكان البيت حافلاً بالمدعوين على ضيقه، الخواجا بيروتي وعائلته والخواجا أيوب وأمرأته، ومدام عرقنجي وابنها وبناتها، ورستم بك، وزين العابدين أفندي، وكمال بك المهندس، والاستاذ الشيخ أحمد، وعبد الرحيم أفندي الصفح، والأوانس عفيفة وملكة وأولغا واخوهن الخواجا الياس وصبحي وعائلة صيدح، وآخرون كثيرون لا يتسع المقام لتعداد أسمائهم، أخص منهم بالذكر عبد الرحمن أفندي النصولي.

امتدت سهرتنا إلى الساعة الثانية بعد نصف الليل. . المسيحيون ولا سيما السيدات لا يفهمون الغناء العربي، ولا يطربهم إلا هذه الأغاني الزقاقية التافهة، ومما أضحكني أنه لما كان ينشد عبد الرحيم أفندي الصفح قصيدة الشيخ سلامة حجازي في روميو وجوليت، جعلت مدام أيوب ومدام أخرى تبكيان كأنهما فهما القصيدة فتأثرتا جداً. أعوذ بالله من العواطف الكاذبة المصنعة [=المصطنعة].

الأحد ١٤ تموز سنة ١٩١٨م

في مثل هذا اليوم، يكون قد مرّ عليّ سبعة أشهر منذ دخلت دمشق، معاذ الله، بل دخلت سجن الجامع المعلق فيها. لم يكن يخطر لي في بال، أن الأقدار ستفصلني عن أحبائي مثل هذه المدة. لو قيل لي إنك

ستفصل عن أحباتك ستة أشهر أو سبعة لقدرت أني لا أستطيع أن أعيش، لاعتقدت أني سأستسلم إلى الحزن والكآبة وأصرف ليلي ونهاري في البكاء والعيول، لاعتقدت أن صدري سيضيق وصبري سينفذ من اليوم الأول، لاعتقدت أني سأصبح في وقت قصير ضعيف الجسم صغير النفس هزيباً ذليلاً، بل لاعتقدت أني سأعجز عن احتمال هذه المصيبة، وأنني سأموت جوعاً وصبراً وذللاً وحرناً وكآبة وشوقاً، إلى غير ذلك، ولكن أحمد الله أني صرفت هذه المدة وأنا صابر شاكر.

ومع ما يضطرم في صدري من الشوق وما يخالجنني من القلق، فقد لقيت هذه المصيبة بصدر رحب وجأش ثابت، واجتزت هذه الأيام مرفوع الرأس عزيز النفس مطمئن الخاطر، حسن الرجاء قوي الأمل صحيح الجسم، قوياً نشيطاً مقبلاً على الحياة، محافظاً على أسلوبه ومبدئي، بل كدت أجعل غربتي هذه نزهة جميلة، فمن جملة فوائد هذه الغربة أني عرفت فيها أني أقوى مما كنت أظن وأقدر على الحياة. بعد استكمال فروض الصباح نزلت إلى دار المعلمين، وتناولت الغداء مع رستم بك وزين العابدين أفندي، ثم رجعت إلى غرفتي وقد وعداني أن يزورانا الليلة.

بعد الظهر عند الساعة السادسة زرت تلميذاتي، وكان الحر شديداً جداً، لقيت عندهم [كذا] الدكتور سليمان بك، أشار عليّ أن أكتب رسالة إلى أم سريّ باللغة الانكليزية، فيأخذها معه إلى الأستانة، وهناك يرسلها إلى القدس بواسطة الهلال الأحمر.

في المساء زارني الخواججا توما بنايوت، واخته مدام الدكتور قطان وابن عمه والخواججا اندريا، ثم جاء رستم بك وزين العابدين أفندي فسهرنا إلى نحو الساعة الحادية عشرة. مدام قطان تلميذة سلطانة، وأجمل صور سلطانة صورة وقفت فيها بين مدام قطان يوم كانت تلميذة في المدرسة، وبين كريمة جميل. كنت إذا نظرت إلى تلك الصورة سجد قلبي في صدري. مدام قطان أخذ زوجها أسيراً منذ نحو سنة، فهي تشبه سلطانة من حيث أنها بعيدة عن رجلها الذي تحبه وتشتاق إليه، إلا أن سلطانة في بيتها بين الأهل والأصدقاء، وهذه غريبة بعيدة عن كل الناس ما عدا اخاها الخواججا توما وولديها. وقد سرنى ما رأيته فيها من الشجاعة والاطمئنان، وعنايتها بصحتها وصحة ولديها، وما تحرص عليه من التأني في ثيابها وثياب ولديها، فإذا كانت كذلك وهي غريبة، فما أجدر سلطانة أن تكون كذلك بل أحسن حالاً وهي في بيتها. غنينا الأغنية الانكليزية المشهورة

Say darling say, when I am far away

إلى أن جئنا فيها إلى

When the war is o'er to you I'll return

قلت: هذه الأغنية عرفتها من عهد بعيد ، ولم يكن يخطر في بالي أنها ستكون لسان حالي وترجمان عواطفني .

إذا قابلت نفسي بالدكتور قطان وسلطانة بدمام قطان لا يسعني إلا أن أكون شاكراً . الدكتور في الأسر وامراته في الغربية ، وأنا حرّ هنا وامراتي في بيتها . لست أدري ماذا تكون حالتني لو كنت في محل الدكتور وامراتي مع ولدي في بلاد غريبة . أول ما يخطر في بالي أنني كنت حاولت الفرار واللحاق بامراتي وولدي ، ولو عرضت نفسي للخطر ، ذلك أفضل عندي من أن أترك امراتي وولدي يعانيان الشقاء في الغربية ، إلا إذا كان أخوها معها ، فذلك قد يحملني على الاطمئنان عليها نوعاً ما . اللهم عجل بالفرج ، اللهم عجل بالفرج ، فقد كفى ما تعانيه هذه الانسانية من الشقاء .

الاثنين ١٥ تموز سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح ، جلست وراء طاولتي أنتظر تلميذي شوكت أفندي ومسلم أفندي فلم يجيئا ، ثم ذهبت عند تلميذي الخواججا بيرن فجعل يحدثني عن آرائه الدينية ، فلم يسعني إلا أن أقول له : إننا فرقا كبيرا ، أنت تستمد شريعتك من الكتب المنزلة بلا بحث ولا تكبد ولا تدبر ولا تفكير ، تسلم بها تسليماً أعمى ، وأنا أستمد شريعتي من نفسي وعقلي واختباراتي وحياتي اليومية ، لا أسلم بشيء إلا بعد أن أعرضه على عقلي وعلى ما يؤيده اختباري واختبار الناس أجمع ، فإذا وجدته صحيحاً قبلته ، ولو خالفت فيه المألوف ، وإذا وجدته غير صحيح نبذته ولو أسند الى نبي أو فيلسوف عظيم أو قديس . أنا لا أمتنع عن الزنى لأنه قيل لا تزن ، ولكن لأن هناك أسباباً عديدة يؤيدها العلم والاختبار تجعلني أمتنع عن الزنى . أنا لا آتي شيئاً إلا إذا اعتقدت صحته ونفعه ، ولا أمتنع عن شيء إلا إذا عرفت ضرره وفساده ، أنا لا أمتنع عن الشيء لأنني أخاف من السماء أو من الأرض ، ولا أعمل شيئاً رغبة في الثواب العاجل والآجل . أنا لا أخاف من جهنم ولا أرغب في السماء ، الى آخر ما هنالك . فعاتبني على قولي له : إنك تستمد شريعتك من الكتب المنزلة بلا تفكير ، فأسفت كثيراً أن يكون في كلامي ما يمس احساساته ، على أنني قبل أن أبدأ كلامي قلت له ، اسمح لي أن أتكلم بحرية ولا تغضب إذا كان في كلامي شيء من الصراحة ، ومع ذلك فقد اعتذرت له وفسرت له قولي بأنك منذ تعلق بالروحيات لم تعد ترجع إلى فكرك ، بل افنيت نفسك في المسيح ، فإذا قلت فالمسيح هو الذي يقول ، وإذا فكرت فيفكر المسيح . ولم أزل به حتى سررت عنه ما يجد ، ثم جعل يقص علي تاريخ حياته وكم قاسى في هذه الدنيا منذ كان تلميذاً في المدرسة الى اليوم ، وكم لقي من المحن والشدائد وكم عارك الدهر ، فقلت : لأنك قاسيت كثيراً وتألمت كثيراً فأنا أحترمك ، لأن الشدائد والصعوبات

هي التي تعمل الرجال، والذي يعيش في هذه الدنيا بدون أن يتألم أو يتعب أو يغالب الصعوبات، فلا يمكن أن يكون رجلاً... ثم تركه وذهبت لأعلم تلميذاتي فاعتذرن.

في المساء ذهبت أعلم الخواجا سويدان فاعتذر بأنه سينقل من غرفته الليلة، لأن جاره صاحب الدار محموم بالحمى التيفوسية، فرجعت إلى البيت فوجدت أنه قد وقع خلاف بين أم الياس وبناتها أفضى إلى الخصام، وقد فحصت عن هذا الخلاف فوجدت أساسه المال، الأم تحب أن يكون مصروف البيت في يدها، وإذا كانت الدراهم في يدها قُترت على بناتها وأولادها، بل جوعتهم حرصاً على الدراهم وخوفاً من أن يجوعوا في المستقبل البعيد. فلا تراها إلا قلقة تضرب أخماساً لأسداس، فهي تطالب بناتها أن يعطوها ما يحصلونه من شغلهم، وتطالب ابنها أن يشتغل ويدفع لها معاشه. وكان دماغها لا يستطيع أن يتحمل الاهتمام بكل شيء، أو لأن الحرص يغلب عليها فهي لا تزال قلقة وحريصة، هذا أساس الشر.

غافلت بناتها اليوم ففتشت البيت فوجدت الدراهم، دراهم بناتها، والدراهم التي أودعها عندهن صبحي أفندي، فأخذت الجميع وخبأته، ففتشت البنات فوجدن الدراهم، فلما رجعت الأم افتقدت الدراهم فلم تجدها، فاحتمت الخصام بينهن، فما كان من الأم إلا أن تناولت عصا من خيزران، وجعلت تضرب بناتها على صدورهن وظهورهن وأيديهن مما كدت أتميز له غيظاً.

أما الدروس التي تعلمتها من هذا فهي أولاً: أن لا أكل إلى أمي أو إلى سلطانة أمر الاهتمام بالبيت، فإن ذلك يهيج أعصابهن ويورثن القلق، وثانياً، إذا رجعت إلى البيت حنيت رأسي أمام أمي وسلطانة وأختي احتراماً لهن على كرم أخلاقهن، وترفعهن عن الحرص الذميمة إن شاء الله.

الثلاثاء ١٦ تموز سنة ١٩١٨م

قمنا اليوم على صراخ البنات والأم، وقد بلغ الهياج من أم الياس أقصى درجاته والعياذ بالله. وقد سرني كثيراً ما رأيته من ابنهم الصغير مكاروف من حنوه على أمه، فقد رأيته يهجم على أمه ويمسك بيديها لئلا تلطم بهما وجهها والدموع في عينيه.

بعد استكمال فروض الصباح خرجت لأعلم تلميذتي، فقال: إنه مسافر بعد يومين أو ثلاثة إلى حيفا، ولذلك فهو مضطر أن يقف الدرس، ودفع لي ليرة عثمانية بقية حسابه، ثم قال لي: مر عليّ زمان طویل في سوريا وفلسطين وتعرفت بكثيرين على اختلاف الطبقات والنحل، فكان مستواهم في نظري واطناً، ولكن منذ عرفتك وسمعت آراءك وأفكارك، وعرفت مبادئك وأخلاقك ارتفع مقام السوريين في نظري، وصرت أحبّ لهم مني قبلاً، فشكرته ثم ودعته وخرجت. وبعد أن علمت تلميذاتي دفعت لي الأنسة فكتوريا ربالين

وقالت: إن أختها أداما ستدفع لي غداً وأما أختها ادليل ستعود الى الدرس غداً أو بعده .
في المساء علمت الخواججا بومرت .

الأربعاء ١٧ تموز سنة ١٩١٨م

أحضرت بدلتي من عند الخياط، أما بدلتي القديمة فقد علقتها في غرفتي للراحة، بعد أن صابرت الأيام
وقاومت الدهر وتجلدت على مض النوازل . .
بعد استكمال فروض الصباح جاء تلميذاي شوكت أفندي ومسلم أفندي، ثم خرجت فزرت تلميذي
الخواججا بيرن، ومن هناك زرت الأستاذ جورج أفندي أبو عضل، وأرسلنا ندعو الخواججا بشارة توما
أستاذي في اللغة الافرنسية، فقرأت عليهما أسلوبي وبعض آرائي من يوميتي ثم خضنا في أساليب التعليم
وأصول التربية، فقابلا آرائي بالاستحسان، ثم ذهبت مع الخواججا بشارة إلى بيته وأخذت منه درسا
افرنسياً، ومن هناك ذهبت فعلمت تلميذاتي .

بعد الظهر ابتدأت في تعليم تلميذ جديد اللغة الانكليزية اسمه رفيق جلاد، وهو فتى نجيب يعرف اللغة
الانكليزية، فقررنا أن يكون درسنا في الجزء الرابع من Royal readers . ولا شك أن هذه الدروس
ستفيدني في معرفة اللغة الانكليزية . أرسله إلي أبو بسام أحمد كرد علي . سأعطيه خمسة دروس في
الأسبوع بثلاثين فرنكاً في الشهر .

في المساء علمت الخواججا جاد سويدان، وبعد الدرس ذهبت مع صبحي وسهرنا في بيت مدام قطان
وكان هناك أخوها الخواججا توما بنايوت وابن عمه الخواججا جورج وصهره الخواججا، اندريا ومدامته (مدام
الخواججا توما) وسيدات وأوانس . امتدت سهرتنا الى نحو الساعة الحادية عشرة، دعوتهم لزيارة بيت فيعاني
غداً مساءً .

الخميس ١٨ تموز سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح جاء تلميذاي شوكت افندي ومسلم أفندي، ابتدأنا الدرس من الساعة
السادسة، قبل أن آخذ الحمام . وبعد الدرس خرجت فزرت الخواججا بيرن فأودع في يوميتي هذه كلمته لي
في الصفحة الثانية . ثم ذهبت لأعلم تلميذاتي فلم أجدهن، فرجعت الى البيت، فقيل لي جاء الأستاذ نخلة
أفندي زريق يسأل عنك وهو ينتظرك في غرفته، فذهبت لأراه فقال لي: جاء عاصم بك السعيد من قونيه،
وهو نازل الآن في لوكدة فكتوريا، وقد أشار عليه الخواججا تادرس أن يسكن عندك، فزره بهذا الخصوص .

فنزلت فلقيت رستم بك فذهبنا معاً الى لوكدة فكتوريا فوجدنا عاصم بك في فراشه، وقد كان مصاباً بالدوسنطارية فوعد أن ينتقل غداً إلى دارنا . لما رجعت إلى البيت وجدت التلميذ الجديد ينتظرني فأعطيته درساً .

بعد الظهر زارني الخوجا لودفيك الألماني، وقال: إنه مسافر غداً إلى ألمانيا، فجاء يودعنا فسررت له كثيراً . كلفته أن يكتب من ألمانيا إلى أم سري ووعده أن أزورهم بعد الظهر بعد استكمال فروض المساء . نزلت إلى البلد فزرت الخوجا لودفيك، وقال: إذا كتبت رسالة مختصرة إلى القدس حملتها معي، وأودعتها البريد في ألمانيا فشكرته، ثم لقيت صبحي أفندي فذهبنا وأكلنا بقلادة، وذهبت رأساً إلى تلميذي جاد سويدان، ومن هناك ذهبت إلى بيت فيعاني وبعد قليل جاء صبحي والخوجا توما بنيوت وامراته وأخته مدام قطان وابن عمه الخوجا جورج، وأما جيراننا فتخلفوا عن الزيارة لأن رستم بك وزين العابدين أفندي زاروهم . سهرنا إلى نصف الليل .

الجمعة ١٩ تموز سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح، جاء تلميذاي شوكت أفندي ومسلم أفندي فعلمتهما، ثم خرجت فلقيت الخوجا اندراوس العيسى وعلى وجهه علائم القلق والاضطراب، فحرت في أمري، ماذا أعمل له وكيف أساعده، لو كان وحده يقاسي العناء في دمشق لكان الخطب هيناً، ولكن هناك عائلته، بناته وأولاده يشاطرونه هذا الشقاء . والمسكين يجري من محل إلى آخر من الصباح إلى المساء على غير جدوى، يطوف ما يطوف ثم يأوي إلى بيت صغير حقير بدون أثاث ولا ريش، فيجد أولاده في انتظاره وهم يتضورون جوعاً، ولا يخلو بيته من اثنين أو ثلاثة من أولاده في الفراش من المرض وسوء المعيشة . لا افكر به وبهم إلا تمزق قلبي، وددت لو أستطيع أن أساعده ولو بشيء قليل، ولو أكراماً لخاطر أخيه صديقي الأبر عيسى العيسى، الذي مرّ له من المواقف في حياتي ما أذكره فأشكره، ولكن أنى لي ذلك وأنا سيء الحال صفر الكفّ، ومع ذلك فلم أستطع إلا أن أمد يدي إلى جيبي، وأتناول ريالاً لا أملك غيره وأدفعه له .

وبعد قليل مرّ بنا رجل يحمل طفلاً ابن سنة ونصف أو سنتين ينادي في الأسواق، من ضاع له ولد منذ ثلاثة أيام . لا شك أن أمه المسكينة لما رأت أنها لا تستطيع أن تعوله وتعول نفسها ألقته على قارعة الطريق، فالتقطه ذلك الرجل فجعل يطوف به الأسواق يفتش عن ذويه . فتأثرت جداً وكدت أبكي، وأسفت انه لم يكن معي غير أربعة متلكات فدفعتها للرجل .

بعد الظهر زرت أصدقاءنا الألمان لأودع الخواجا لودفيك الذي يسافر غداً صباحاً ، فطلب إلي أن أكتب رسالة إلى أم سري يحملها معه ويودعها البريد في ألمانيا الى سويسرا ، ورسالة أخرى الى موسى العلمي ، لأنه سيراه في الأستانة . وعدوا أن يزورونا في المساء ، إلا أنني تأخرت قليلاً في درسي مع الخواجا بومرت ، فلما رجعت إلى البيت وجدتهم قد انصرفوا .

السبت في ٢٠ تموز سنة ١٩١٨م

قمت صباحاً باكراً وكُتبت رسالتين ، الواحدة إلى أم سري والأخرى إلى موسى فأخذهما صبحي أفندي ونزل ليودع الخواجا لودفيك .

جاء تلميذاي شوكت أفندي ومسلم أفندي ، ودفعا لي سبعة ريالات رسم الشهر الأول من الدرس . بعد الظهر ذهبت عيّدت على الخواجا إيليا زغيب أخي تلميذاتي ، ثم ذهبت لأعلم الخواجا جاد سويدان فلم أجده ، فذهبت من هناك الى بيت الخواجا فيعاني لتناول العشاء ، وكان مدعواً معي صبحي أفندي والخواجا فوردر والخواجا خريستو طرزي فشربنا قليلاً من العرق ، ثم جلسنا إلى مائدة الطعام وكان العشاء شوشبركاً وكبة ، وبعد العشاء صعدنا إلى الصالون وسهرنا الى نحو نصف الليل وسررنا كثيراً . لما رجعنا وجدنا أن رستم بك وزين العابدين أفندي كانا ساهرين في بيت جيراننا ، وقد انصرفا قبل رجوعنا بقليل . . جاء اليوم عاصم بك السعيد ، وسكن عندنا .

الأحد ٢١ تموز سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح ، جاء زين العابدين أفندي ليأخذ الآستين في عربة ليعرفهما بآنسة تركية مشهورة بالأدب والعلم ، وكان رستم بك ينتظرهم في البلد . عاتبني زين العابدين أفندي لأنني لم أخبر الآستين أن تنزلا إلى البلد في الساعة الثامنة ، حيث ينتظرهما رستم بك وزين العابدين ، فقلت له : لم تكلفني بذلك ولم يخبرني أحد ، وإذا كنتم قد اتفقتم على ذلك سلفاً فلم يبق حاجة إلى ذلك التكليف ، وكان يجب على الآستين أن تنزلا من تلقاء نفسيهما ، ثم دعاني لتناول الغداء أو العشاء فاعتذرت بسبب الحر وبعد المسافة ، ثم أخذت عاصم بك وذهبنا زرنا مطران الأقباط .

وبعد استكمال فروض المساء أخذت عاصم بك وذهبنا نزور بيت فيعاني . وقبل أن نخرج طلبت إلي الآستان أن أنتظر ريثما يجيء رستم بك وزين العابدين أفندي عند الساعة السادسة فنخرج معا ، فقلت لهما :

قد وعدت بيت فيعاني أن أذهب الآن لنزور معهم بيت الخواجا بيروتي ، فإذا جاء رستم بك وزين العابدين أفندي فتعالوا معاً إلى هناك ، وخرجت ولكن لم يرقهما ذلك وأحساً أنني أتملص منهم .
لست أنكر أنني وإن كنت أراعي خواطر الأوانس والسيدات ، وأحب مجالسهن والخروج معهن ، إلا أنني شديد المراس لا يصطلي لي بنار . . بل أكاد أكون شيطاناً رجيماً أفحص القلوب واختبر الكلى . .
لم نكد نستقر في أماكننا في بيت الخواجا فيعاني حتى جعل ضيوفهم يتوافدون . جاءت السيدة نجلا قيومجي وابنتها أنيت وبعض سيدات آخر ، ومدام مدور وابنتها وزوجها وولدها ، فكلفوني أن أعزف على الكمنجة فعزفت ، وغنينا ثم عزفت نغمة رقص ، فقام الخواجا شكري فيعاني ورقص مع الأنسة أنيت قيومجي . بقينا هناك إلى المغرب ثم رجعنا إلى البيت وتناولنا العشاء . عزم جيراننا على الخروج في ضوء القمر ، فكلفوا صبحي أفندي أن يخرج معهم ، وبقيت أنا وعاصم بك وحدنا فسهرنا إلى نحو الساعة العاشرة والنصف .

إذا لم يكن بدّ من الدين في هذا العالم ، فكان يجب أن لا يكون دين رجل واحد أو نبي واحد أو مرسل واحد ، فإذا مات أو صعد إلى السماء كما يقولون ختم على ذلك الدين ولم يعد يتغير ولا يتبدل ، بل يجب أن يتولاه من يجيء بعده من التلاميذ والصحابة والأتباع ويزيدوا فيه أو ينقصوا منه حسب سنة [نظرية] النشوء والارتقاء [لداروين] ، وحسب مقتضى الزمان والأحوال والظروف شأن المذاهب العلمية والفلسفية التي ترتقي مع الزمان وتتغير وتتبدل ، بحيث لا يبقى لصاحبها إلا فضل الوضع والسبق . ولا يخفى أن بعض المبادئ الأساسية تبقى خالدة ، ولكن أكثر المبادئ لا تزال عرضة للنقض والتغيير ، فإذا كان الدين واجب الاتباع ، فليكن ذلك في مبادئه الخالدة لا في كل مبادئه ، ولعل لي عودة إلى هذا الموضوع .

ما دام الدين الإسلامي يجيز الطلاق وتعدد الزوجات ، فكيف تأمن الفتاة المسلمة أن زوجها لا يطلقها أو يتزوج عليها . لو كنت مسلماً لزهّدت أختي أو ابنتي في الزواج ، إلى أن يقوم من رجال الدين من يشبّه أن الطلاق وتعدد الزوجات ممنوعان قطعياً .

الاثنين ٢٢ تموز سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح ، جاء تلميذاي شوكت أفندي ومسلم أفندي ، فأخذنا درسهما . علمت من شوكت أفندي أن له أخاً كان ضابطاً في الجيش العثماني في جبهة فلسطين ، فوقع أسيراً في قبضة الإنكليز ، ثم التحق بجيش الشريف ، فوقع جريحاً وأسر ، وهو الآن في مستشفى دمشق يمرضه أخوه شوكت . لا شك أن ذلك من غرائب الاتفاق . بعد الدرس خرجت إلى بيت الخواجا بشارة توما وأخذت درساً في اللغة

الإفريقية، ثم ذهبت فعلمت تلميذاتي وقد ابتدأت أدرسهما في الكتاب المعروف بـ First year English . إن تعليم مثل تلميذاتي من أصعب الأمور . يردن أن يتعلمن ولكنهن لا يحضرن درساً ، ولا يستطعن الصبر على كدّ الذهن وإعمال الفكر . بعد استكمال فروض المساء ، انتظرت تلميذتي رفيق الجلاد ، فلم يجئ فقمت وذهبت إلى بيت فيعاني وفي طريقي عرجت على تلميذاتي قليلاً ، ثم ذهبت إلى بيت فيعاني ، وأخذت معي الشماس نقولا عبد الله ، وهو خريج مدرسة المصلبة ومدرسة خامكي في الاسنّة ، وقد كان في القدس في أول عهد النهضة الأرثوذكسية ، ونحن هناك قال شكري أن قد ورده رسالة من أخيه نصري ، فهبت رمزة واختطفت الرسالة وجعلت تقرأها بلهفة ، فانتقلت بالفكر إلى أحبائي في القدس ، وماذا يكون تلهفهم إلى سماع أخباري ، ذكرت سلطاتي وميليا حين جاءتا في مساء آخر أيامي في القدس ، ووقفاً أمام نافذة السجن والحرب مستعرة في جوار القدس ، والقنابل تتساقط هنا وهناك والناس في هرج ومرج ، والجنود تتراكم في الطرق ، والخوف مستول على الجميع ، ولكن كل ذلك لم يمنعهما من أن تزوراني والليل قد أرخى سدوله ، فحفت عليهما وألححت عليهما بالذهاب إلى البيت ، ولست أدري هل وصلتا بأمان أم عرض لهما في طريقهما ما يروع ، أو ألم بهما ما لم يكن في الحساب . ويلاه . . متى يجيئني من أخبارهم ما أطمئن إليه وأغبط به . . . جالت الدموع في عيني ، ولولا الحياء والتجلد لبكيت بكاء الأطفال . . ثم ذهبت فعلمت تلميذتي الخوارجا جاد سويدان في بيته الجديد في الدار التي يسكنها الخوارجا سليم بركات ، وبعد الدرس دعاني الخوارجا سليم وسقاني كأس عرق ، ثم جئت إلى البيت فعتشينا وذهبنا أنا وصبحي وعاصم بك إلى بيت الخوارجا توما بنايوت ، وكان هناك زائرون كثيرون ، منهم الخوارجا فريد قبوات وأخته الأنسة ماري والأنسة وديعة خوري والأنسة نجية خوري ، وقد وصلت بالأمس أخت الخوارجا توما من حلب مع زوجها الخوارجا سقراط ، ولما كاد ينتصف الليل كلفوا الأنسة ماري قبوات أن تغني ، فلم تتمنع وأنشدت أغنية طويلة جميلة جداً ، وأجادت فيها كل الإجادة . ومما أشير إليه هنا بالاستحسان أن أخاها الخوارجا فريد كان يشجعها ، فأطل الجيران من النوافذ وصعدوا إلى السطوح فصفقنا لها تصفيقاً حاراً مراراً ، وقررنا أن نسهر مساء يوم الأربعاء في بيت فيعاني .

الثلاثاء ٢٣ تموز سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح ، جاء تلميذاتي فعلمتهما ثم ذهبت لأعلم تلميذاتي فاعتذرن ، فنزلت إلى البلد ، فمررت على صبحي ورجعنا معاً ، ونحن في الطريق لقينا الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر ورياض بك الصلح ، وأحمد أفندي كرد علي أبو بسّام وآخرين ، فأمسكوا بي وساقوني أمامهم ولم يمهلوني أن

أعتذر إلى صبحي، فمشيت أمامهم إلى أن وصلنا إلى بيت العضم [العظم] (٥٦) في البزورية، وهو البيت المشهور الذي زاره امبراطور ألمانيا ويزوره كل السياح من الأوروبيين، وكان هناك غيرنا، ولعل أكثرهم طفليون مثلي، وبعد قليل دعينا لتناول الغداء، وكان فائراً جداً، وبعد أن تناولنا القهوة شكرنا صاحب البيت سامي بك العضم وخرجنا. اليوم كان عيد الحرية، فاعتذرت إلى تلميذي الخواجا بومرت وذهبت سهرت في بيت فيعاني.

الأربعاء ٢٤ تموز سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح، جاء تلميذاي فعلمتهما ثم ذهبت إلى بيت أستاذي الخواجا بشارة توما ولم تأخذ درساً، ولكن شغلنا وقتنا بأحاديث مختلفة، ثم ذهبت فعلمت تلميذاتي. في المساء ذهبت علمت الخواجا جاد سويدان، وبعد الدرس ذهبت إلى بيت فيعاني على أمل أن تجيء الأنسة ماري قبوات مع جماعة الخواجا توما بنايوت، ولكن لم يجئ إلا مدام قطان ومام بنايوت والخواجا جورج بنايوت، وأما البقية فقد تخلفوا عن المجيء لأن أكثرهم منحرفو المزاج، اتفقنا أن نسهر مساء يوم السبت في بيت الخواجا بنايوت، احتفالاً برسالة مدام قطان التي جاءتها من زوجها الدكتور من مصر في تاريخ ١٠ ك ١٠ سنة ١٩١٧م.

الخميس ٢٥ تموز سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح، جاء تلميذي شوكت أفندي وحده، لأن مسلم أفندي منحرف المزاج، وبعد الدرس نزلت مع عاصم بك إلى البلد، فالتقينا برستم بيك وذهبنا إلى قهوة الزهرة. مللت هذه الدروس الخصوصية بل مللت دمشق بل مللت الحياة. فإذا لم يجعل الله بالفرج مت ضيراً وهماً وشوقاً. تغدينا في البلد في مطعم الجغليط أبو الديب ثم جئنا إلى البيت. بعد الظهر لزم عاصم بك فراشه لأنه أحس بحمي فقلقت كثيراً. نزلت أدعو له طيب البلدية رشدي أفندي العطار فلم أجده. في المساء ذهبت علمت الخواجا جاد سويدان، ثم رجعت إلى البيت فتعشيت، وبعد أن دخنت بأركيلتي ذهبت إلى بيت فيعاني في القصاع، فخرجنا نمشي في ضوء القمر. عزمت الأنسة رمزة على اتباع أسلوبه فسررت لذلك كثيراً.

الجمعة ٢٦ تموز سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح، جاء تلميذاي شوكت أفندي ومسلم أفندي، وبعد الدرس خرجت إلى بيت

(٥٦) قصر آل العظم، حكام دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بناه أسعد باشا العظم، وما زال قائماً إلى الآن.

أستاذي الخواجا بشارة توما ، فشغلت الوقت في تعليمه أسلوب في الرياضة الجسدية والفرك والاستحمام ، وقد رأيت بسبب قلق الفكر أن أوقف دروسي في اللغة الإفرنسية ، ثم ذهبت فعلمت تلميذاتي . بعد الظهر زارنا الخواجا بشارة توما مع الأستاذ الخواجا جورج أبو عضل ، فقرأت لهم بعض نظراتي في يوميتي هذه ، وتطرقنا إلى مواضيع أخرى لذيدة . في المساء ذهبت علمت الخواجا بومرت ، وفي طريقي إليه عرجت على بيت الخواجا شكري فران فسقاني قليلا من العرق ، أحسست معه نشوة الشراب . ونحن عليّ الدرس سمعنا في بعض المنازل المجاورة فتاة تغني بصوت جميل جدا ، نبه في صدري عواطف رقيقة جدا ، ولما رجعت إلى البيت وجدت هناك رسّم بك ، وبعد العشاء خرجنا مع الأوانس الكريعات إلى القصاع نمشي في ضوء القمر ، وما رجعنا إلا وقد انتصف الليل . .

السبت ٢٧ تموز سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح ، جاء تلميذاي فعلمتهما ، وفي الساعة الحادية عشرة ذهبت فعلمت تلميذاتي . بسبب اختلاطي ببعض العائلات في هذه البلاد ، يتسنى لي أن أدرس أخلاق البنات والنساء ، وأما الرجال فأظن أنني قد وقفت على شيء كثير من أخلاقهم . . لا شيء أذ عندي من أن أفهم الحياة ، وأن أمشي في هذه الدنيا بعيون مفتوحة وعقل مفكر . . . بعد الظهر جاءني تلميذ جديد اسمه حمدي حلاوة من أهالي غزة ، ولكنني عزمت أن لا آخذ دروسا جديدة ، ولذلك سأكلف سابا الصانع بتعليمه . بعد استكمال فروض المساء ، غلينا قهوة فشربنا ، ثم جلسنا أنا وعاصم بك حول الطاولة نلعب بالورق وتتجاذب أطراف الحديث إلى المساء ، ثم ذهبت فعلمت الخواجا جاد سويدان فدفع لي من رسم هذا الشهر ريبالا ونصف ، وكنت قد أخذت منه قبل اليوم ثلاثة ريبالات . الخواجا جاد سويدان من مسيحيي حيفا وهو الآن يشتغل في المستشفى الألماني كضابط ، ولكن في كل مرة أرى من معاملته للجندي الذي في خدمته ما أشمئز له كثيرا ، ويؤيد ما اعتقده دائما ، من أن مسيحيي هذه البلاد إذا خولوا شيئا من النفوذ أو السلطة أظهروا ما تنطوي عليه نفوسهم من اللؤم . . واني لأستطيع أن أتصور أولئك المسيحيين الصعاليك في القدس ويافا الآن كيف يصعرون خدودهم ويشنون أعطافهم كبرا وخيلاء ، على حين كانوا قبل أن تسقط هذه البلاد في أيدي الإنكليز أذل من وتد . الذين كانوا يلبسون البرنيطة قبل الحرب استبدلوها بالطربوش ، والذين لم يكونوا يتنازلون للسلام على أحد الوطنيين صاروا يتملقون الكبير والصغير ، والذين كانوا يدعون الشجاعة والرجولية صاروا إذا رأوا غير شيء ظنوه رجلا . . . المسيحيون في بلادنا إلا القليل منهم ، إذا ضغطت عليهم ذلوا وتطامنوا للصغار ، وإذا رفعت الضغط عنهم صعروا خدودهم وشمخوا بأنوفهم ورفعوا رؤوسهم ونصبوا صدورهم ، وذهبوا في الكبر والخيلاء كل مذهب .

الأحد ٢٨ تموز سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح، ذهبت زرت أستاذي نخلة أفندي زريق وبقيت عنده إلى الظهر، فطلب غداءه وكان باميا، فدعاني فأكلت قليلاً، ثم جئت إلى البيت وكان صبحي أفندي قد هياً لنا كباباً ولبناً فأكلنا، وبعد الغداء لعبت بالشدة مع عاصم بك ثم أوينا إلى فراشنا. وبعد استكمال فروض المساء نويت أن أذهب إلى بيت فيعاني، فذهبت معي الآسة عفيفة وأختها الآسة أولغا. في الطريق لقيت الخواجا شكري صوصة فقال لي إنه كان في حلب حيث لقي الخواجا أتر ليفين فكلفه أن يبلغني أنه أرسل الي عن يد [بواسطة] الخواجا ليفشتس الاسرائيلي عشرين ليرة ذهباً، وأنه ينتظر مني علماً بوصولها. كان بيت فيعاني غاصاً بالزائرين والزائرات، فأخذ الخواجا ميشيل وعزف عليها بعض قطع جميلة وغنت الآسة رمزة بعض أغانيها. ثم رجعنا في المساء إلى البيت. زارنا الليلة رستم بك وابن عمه يوسف بك حيدر، وزين العابدين أفندي، فكلفوا أن أعزف على الكمنجة، ففعلت ثم جعلت الأوانس يغنين أغانيهن المعهودة إلى نصف الليل.

الاثنين ٢٩ تموز سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح، انتظرت تلميذي فلم يجيئاً، فقامت ونزلت إلى البلد أفتش عن الخواجا ليفشتس حتى اهتديت إليه، فقال لم يرده شيء من الخواجا التريلفين. ثم رجعت إلى تلميذاتي فعلمتهن. وبعد الظهر زارنا الخواجا جورج أبو عضل والخواجا بشارة توما، ثم دخل علينا شكري أفندي التاجي قادماً من قونية، فتبادلنا القبلات والتحيات، ثم أخذ عاصم بك إلى جانب وانصرفت أنا إلى مداعبة الآسة ملكة والخواجا جورج فضحكنا كثيراً، وقلت لهم: هذا مثال من فلسفة السرور. في المساء أوى عاصم بك إلى فراشه لأنه أحس بحمى خفيفة، وذهبت أنا مع صبحي أفندي نزور مدام قطان، وكان هناك أخوها توما وابن عمه وأخته مدام الخواجا سقراط، ثم جاءت مدام الخواجا توما. ورد على مدام قطان رسالتان أخريان من زوجها فقرأتها، ولكن وجدت أن هناك سطرًا منتزعا من الرسالتين، فمال الي الخواجا توما وأسرفي أذني أنه هو الذي انتزع السطر من الرسالتين، لأنه ورد في ذلك السطر أن الدكتور قطان جرح في يده جرحاً بليغاً ألجأ إلى قطعها فأسفت كثيراً. هل يجوز إذا قابلت مصيبي بمصيبة غيري إن أفتح فمي بالشكوى. وعند الانصراف تكلمت علي مدام قطان بناموسية، فشكرتها كثيراً.

الثلاثاء ٣٠ تموز سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح، جاء تلميذاي شوكت أفندي ومسلم أفندي فعلمتهما، ثم زارنا خليل تادرس

وبدع السنونو وسابا الصانع . قص علينا خليل تادرس تاريخ منفاه في أنقرة من أوله إلى آخره ، وكيف كان يتبرم بعيسى ويتبرم عيسى به فيتقاطعان مدة ثم يتآلفان ، فلم استغرب ذلك لأن عيسى شيء و خليل تادرس شيء آخر ، ثم ذهبت فعلمت تلميذاتي وبعد الظهر لزمت البيت إلى المساء . حسب العادة ألعب مع عاصم بك بالورق ، وفي المساء دعينا للسهرة في بيت مدام الكسيف ، فذهبت أنا فعلمت الخواجا بومرت ومن هناك ذهبت إلى بيت مدام الكسيف ، حيث سبقتني الأوانس عفيفة وملكة وأولغا مع صبحي أفندي ، وكان هناك الأستاذ جورج أبو عضل والمعلمة سلمى أبو طيخ والمعلمة فايقة كوك ، فلعبنا قليلا على الكمنجة أنا والفتاة آه ، ربيبة مدام الكسيف ، وغنت الأوانس بعض الأغاني إلى أن انتصف الليل .

الأربعاء ٣١ تموز سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح ، جاء تلميذاي شوكت أفندي ومسلم أفندي ، ثم ذهبت فعلمت تلميذاتي . كويت اليوم طربوشي الجديد الذي أهديته موسى أفندي العلمي ولبسته . فاتي أن أذكر أن قد زارنا بالأمس شكري أفندي التاجي ، وهو مسافر إلى نابلس فحملته رسالة إلى سلفي الدكتور دعدس . بعد الظهر زارنا سابا الصانع واسحق حلبي . لما رجع سابا من بيروت ، أحضر معه قطعة القماش التي أوصاه عليها موسى ، ولكنه صرف بقية القيمة التي دفعها إليه ، وهي نحو سبع عشرة ليرة بانقنوط ، وهو يرجو أن يشتغل هنا وفيها . في المساء ذهبت زرت الخواجا شكري فران وكان عنده أستاذي ورجل آخر من بيروت اسمه البحاح ، فشرينا وضحكنا كثيرا ، ثم رجعت إلى البيت ، وقد أخذتني نشوة الشراب ، فسهرنا إلى نحو الساعة الحادية عشرة .

الخميس أول آب سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح جاء تلميذاي فعلمتها ، ثم جلست إلى عاصم بك نلعب بالورق وتتجاذب أطراف الحديث ، إلى أن صار ميعادُ درس تلميذاتي فذهبت وعلمتهن . بعد الظهر زارنا أستاذي نخلة أفندي زريق وسابا الصانع وبقيا إلى المساء . بعد العشاء نوبت أن أزور بيت فيعاني ، ولكن عاصم بك وصبحي أفندي صرفاني عن عزمي فسهرنا في البيت . أحضر لي صبحي أفندي رسالة من سلفي الدكتور دعدس بتاريخ ٢٦ تموز يدعوني فيها لقضاء عطلة الصيف عندهم ، ويكلفني أن أشتري له قطعة قماش ليعملوا منها بدلات صيفية للأولاد ، فحدثني نفسي أن أسعى بالذهاب إليهم لأشتم رائحة بلادي ، والقي في السيدة إملي [شقيقة سلطنة] وكل أفراد عائلتها صورة أحبائي وأبرد بلقائهم غليل أشواقي . آه ما أشوقني إليكم يا أحبائي ، ولا أحس بعاطفة شوق إلا أحسست بلوعة تمزق القلب وتذيب الأحشاء . . أرسل إلي الحذاء حذائي الجديد .

ما هو سبب انقطاع أخباركم عني يا أحبائي . لا يخطر لي فكر سوء إلا فزعت إلى مغالطة نفسي ، فأقول :
ارسلوا فضاعت رسائلكم ، وأتعزى أن غيري أيضاً لم تردهم رسائل من أحد مثل بديع السنونو وعاصم بك
السعيد والخواججا ميري تادرس . إذا وردتني رسالة منكم تبشرنني بأنكم أحياء ترزقون ، أقمتم الحفلات
وأحييت الليالي إعلاناً لسروري العظيم إن شاء الله .

الجمعة ٢ آب غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح ، جاء تلميذاي فعلمتهما ، ثم ذهبت فعلمت تلميذاتي . بعد الظهر نزلت مع
عاصم بك إلى البلد ، فجلس أمام مطعم الجفليط أبو الديب ، وذهبت أنا إلى دار المعلمين أزور رستم بك ،
فوجدت هناك يوسف بك حيدر ومحمود أفندي حيدر وآخرين جلوساً على شرفة الدار يشربون الشاي ،
وبعد قليل خرجنا ، فجئت إلى عاصم بك ، وجاء صبحي أفندي فتناولنا العشاء في مطعم الجفليط . أكلت
أنا أرزاً مع باميا ، ثم جئنا إلى البيت فذهبت رأساً عند تلميذتي الخواججا بومرت ، وبعد الدرس دفع الي ريالين
من أصل الحساب ، ومن هناك ذهبت إلى بيت فيعاني حيث كان ينتظرنني صبحي أفندي ، ولم تكن هناك
رمزة ولا أخوها لأنهما ذهبا إلى السينما توغراف . قال لي صبحي أفندي : إن أستاذي نخلة جاء يسأل عني
فقمنا لعلنا ندركه قبل أن ينام ، ولكن رجحت أنه نام لأن الساعة كانت فوق العاشرة ، فجئنا إلى البيت وسهرنا
قليلاً ثم نمنا .

السبت ٣ آب غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح ، جاء تلميذاي شوكت أفندي ومسلم أفندي فعلمتهما ، ثم لعبت مع عاصم
بك بالورق ، إلى أن جاء ميعاد درس تلميذاتي فذهبت وعلمتهن . بعد الظهر زارنا أستاذي نخلة أفندي
ليأخذني معه إلى بيت مدام قطان ، لسؤال خاطرها بعد أن وردها ذلك الخبر المشؤوم عن زوجها ، ولكن لم
نلبث قليلاً حتى جاء مسلم أفندي ومعه ضابط اسمه منير أفندي ، كان تلميذاً في الكلية الصلاحية في سنتها
الأولى ، فاضطررنا أن نؤجل زيارة مدام قطان إلى الغد ، ثم خرجت مع عاصم بك وأستاذي نمشي إلى
القصاع ، ولما وصلنا بيت فيعاني كانت الأنسة رمزة جالسة في جناح المنزل ، فدعتنا فدخلنا ، ونحن
راجعون اشترينا عرقاً الأوقية بخمسة عشر غرشاً ، واشترينا خياراً وبنودرة وتفاحاً وجبنة وقضامة ، وجئنا
إلى البيت وهيأتنا مائدة الشراب ، ولم نلبث قليلاً أن زارنا محمد علي بك الضابط الشركسي صاحبنا في
القدس ، ويحيى أفندي الشركسي مدير التلغراف في يافا ، فسهرنا إلى نصف الليل .

الأحد ٤ آب غ سنة ١٩١٨م

في مثل هذا اليوم، يكون قد مرّ عليّ منذ أخذت من فراشي في القدس في ٤ ك ١٤ غ سنة ١٩١٧م ثمانية أشهر. لم أكن في حياتي أصبر على الفراق، وأرقى نفساً وأطهر قلباً وأسمى أخلاقاً وأقرب إلى الكمال مني في مدة غربتي هذه.. سافرت قبل اليوم ولم أكن أباً، فلم يكن يمر بي يوم إلا بكيت بكاء الأطفال. وأما اليوم وغربتي هذه ليست كغربتي تلك، فإني موطن النفس على الصبر، بل كدت أجعل غربتي نزهة جميلة، وأما سائر عواطفني فإني أكاد أكون قطعة جماد، وما أجدرني أن أقول مع المتنبي :

وغير فؤادي للغواني رمية

أو

وبي عن غوانيتها وإن وصلت صدُّ

أو مع ابن زيدون :

ولو صبا نحونا من أفق مطلعته بدر السما لم يكن حاشاك يصبينا

ولكن لا يسعني إلا أن أقول: أني أحس أن روحي بلغت التراقي. لا يستطيع أحد أن يصبر على ما صبرت عليه. لولا المبادئ التي ربيت عليها منذ نشأتي، ولولا اعتصامي بالأمانة لكنت وجدت في دمشق مجالاً واسعاً أسرح فيه وأمرح.. بعد الظهر زرت مع رستم بك وابن عمه يوسف بك الدكتور احمد قدرى بك فجلسنا حول مائدة الشراب إلى أن اكتفينا، ثم قمنا لتناول العشاء، أما عاصم بك، فقد اعتذر عن المجيء معنا، ولم أحب أن أشدد عليه لئلا تحدثه نفسه بالاشتراك معنا في الشرب، وهو لم يملك صحته بعد. رجعت إلى البيت نحو الساعة الحادية عشرة.

الاثنين ٥ آب غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح، جاء تلميذاي شوكت أفندي ومسلم أفندي، وبعد الدرس جلست إلى عاصم بك نلعب بالورق، ثم خرجت أعلم تلميذاتي فاعتذرن. قال لي منذ يومين الخواجا بليان أن قد وردني كتاب من الخواجا التريفيين، وأنه أودعه في إدارة المهاجرين من اليهود، فذهبت اسأل عنه فلم أهد إليه. بعد الظهر زارنا رستم بك وابن عمه يوسف بك، وزين العابدين أفندي وأستاذي نخلة أفندي. لم أكن أبالي قبل اليوم بغربتي، ولكن منذ أيام أخذت أشعر بوحشة، بل صرت أحس كأن روحي بلغت التراقي حيننا إلى أحبائي.. وهذه حالة لم أعتدها قبل اليوم، وإذا لم أتداركها بالصبر والتلهي إلى أن يأتي الله

بالفرج، ذبت كما يذوب الشمع أمام النار. في المساء ذهبت علّمت الخواجا جاد سويدان فدفع لي ثلاثة ريبالات من أصل الحساب.

الثلاثاء ٦ آب غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح، جاء مسلم أفندي وحده، فعلمته، ثم نزلت مع عاصم بك إلى البلد، فذهبت أنا إلى منزل الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المصغر أزوره فلم أجده. وذهب عاصم بك إلى البنك، فاستلم مئة وخمسين ليرة وردته من أحد أصدقائه من حلب، ثم أخذنا صبحي أفندي وذهبتنا إلى أحد محال الحلوى فأكلنا بقللوة. بعد الظهر زارني مسلم أفندي ومير أفندي، وفي المساء ذهبت علّمت الخواجا بومرت، ومن هناك ذهبت إلى بيت مدام قطان، حيث سبقني صبحي أفندي مع أم الياس والآستين عفيفة ومملكة. وبعد السهرة، رجعتنا إلى البيت فأكلت، وعبأوا لي أركيلة فدخنت.

الأربعاء ٧ آب غ سنة ١٩١٨م

بعد استكمال فروض الصباح نزلت إلى البلد، فلقيت في طريقي الدكتور أحمد قدري بك فمشينا معاً قليلاً، لا ألتقي بالدكتور قدري بك إلا أعجبت بأخلاقه ومبادئه، ورأيت من لطفه وعطفه ما أقدّره قدره. بعد أن تركته ذهبت إلى دار المعلمين أزور رستم بك فلم أجده، فرجعت إلى صبحي أفندي فأخذته إلى قهوة الكمال فدخنا وشربنا لبناً مبرداً. ثم جننا إلى البيت فتغدينا، وبعد الغداء استحمنا بدون أن أنام، ثم نزلت إلى البلد فزرت الدكتور قدري بك في محل عيادته، فوجدته مشغولاً بمعاينة مرضاه، فتركته وذهبت إلى دار المعلمين، فلم ألق إلا زين العابدين أفندي يشغل بكتابه تاريخ الأديان، فقرأ علي شيئاً من مقدمته فوافقته على بعض آرائه فيه، ولم أوافق على البعض الآخر، ولا يتسع المقام هنا لسرد ما دار بيني وبينه، إلا أنه حاول جهده أن يدافع عن نفسه فلما وجد أنني لا أقتنع بكلامه، أخذته الحدة، فقال: يظهر لي أنك لا تحب أن تفهمني، فقلت له: قف هنا واسحب كلامك لأنه يشف عن أنك تعتقد أنني مكابر، إما عن غرور بنفسي أو عن حسد لك، وهذه إهانة كبيرة. وبعد الجدال الطويل سحب كلامه واعتذر، ثم جاء رستم بك وعليه آثار التعب فاستحم بالماء البارد، ووعد أن يزورنا مع زين العابدين أفندي في هذه الليلة، ولذلك تخلفت عن الذهاب إلى تلميذي جاد أفندي سويدان. أخذت اليوم رسالة من موسى أفندي العلمي تشف كل كلمة فيها عن وداده وإخلاصه. في المساء جاء رستم بك وزين العابدين أفندي، وكنت قد شربت قليلاً مع عاصم بك وأخذتني نشوة الشراب، فرقصنا وغنينا ولعبنا ألعاباً مختلفة وطربنا كثيراً إلى نصف الليل. . أحبائي أحبائي لقد طال الغياب، فإذا لم يقدر لنا الله اللقاء قريباً، وهي جلدني وضاق علي الأرض برحبها.

الخميس ٨ آب غ سنة ١٩١٨م

في مساء هذا اليوم بعد نصف ليله، يكون قد مرّ عليّ ثمانية أشهر منذ خرجت من القدس، مع عشرة آخرين مكبلين بالحبال، كل اثنين معاً، ولم يكن يرونا شيء سوى ما كنا نتصوره من حالة أحبائنا حين يطلبوننا في غد ذلك الليل، فلا يجدوننا، ولم نصل منتصف الطريق بين أريحا والسلط، إلا وقد فرّ منا واحد وهو يوسف الشهابي أبو رياح، على حين كنا نخاف عليه من المشي المتواصل والبرد الشديد ومشقة السفر، لأنه لم يمر عليه اليوم الثاني إلا وقد تقرحت قدماه وصار يمشي في مؤخرتنا يجرح نفسه جراً. لا شك أن إبعادنا على تلك الصورة كان مخيفاً جداً، فضلاً عما كان يهددنا من الخطر بسبب سوء المعيشة، ولكن نشكر الله أن قد عبرت بنا تلك الأيام، ثم أيام السجن من بعدها ولم نصب بسوء. ولست أشكو اليوم إلا من انقطاع أخبار أحبائي عني. هذا ما يقلقني في الليل والنهار، وقصاري المأمول من فضل الله ولطفه أن يكونوا قد ألهموا الصبر والطمأنينة، واجتازوا هذه المدة بالسلامة إن شاء الله... أجبت موسى على رسالته ونزلت إلى البلد فذهبت مع رستم بك وصبحي أفندي واشترت محارم وأغراضاً أخرى. بعد الظهر نزلت إلى البلد، فذهبت إلى دار المعلمين لتهم بسهرتنا الليلة، فقال رستم بك: أنه سيتناول العشاء مع عبد الرحيم الصفح وبعض الأصدقاء، وبعد العشاء يجيئون جميعاً إلى بيتنا، فرجعت إلى عاصم بك فاخذنا عرقاً وكل لوازمه، وجئنا إلى البيت وجلسنا نشرب، ثم جعل الأصدقاء يتوافدون، جاء رستم بك وزين العابدين أفندي وعبد الرحيم أفندي الصفح وعبد الرحيم أفندي شعر، والاستاذ الشيخ أحمد زروق أستاذ التجويد، والتسمي من أدباء نابلس، وشكري أفندي الناجي والخواجات شكري فيعاني واسحق حلبي وسابا الصانع، والخواجا توما بنايوت وامراته، ومدام قطان والخواجا اندريا، والخواجا جورج ابن عم الخواجا توما، وحمو الخواجا توما والخواجا جورج أبو عضل، ثم جاء العواد فسهرنا إلى نحو الساعة الواحدة بعد نصف الليل وسررنا كثيراً، سنذكر هذه الليالي الجميلة بالخير إن شاء الله.

الجمعة ٩ آب غ سنة ١٩١٨م

في صبيحة هذا اليوم، كنا على طريقنا إلى أريحا. خيل إليّ في ذلك اليوم أن الحظ أشاح بوجهه عني، وأن الزمان قلب لي ظهر المجن، وأن الأقدار تلح في عداوتي وتضمّر لي سوء، ولكن سرعان ما تبدلت الأحوال، ولم تلبث أن انقضت تلك الغمامة السوداء التي كانت تهددنا بانقراض الصواعق، فعسى أن لا يعود الزمان إلى مثل تلك الحالة المشؤومة إن شاء الله..

سكون يوميتي هذه أثنى كتاب في مكتبي، سأقرأها على أحبائي. إذا رجعت إلى بلادي خصصت سنة كاملة للحفلات في الليل والنهار، وعوضت عن هذه الأيام التي صرفتها بعيداً عن أحبائي. وغاية ما أرجوه

أن أجدهم جميعاً على أحسن حال ، وأنعم بال إن شاء الله .

أهنا تنتهي يوميات السكاكيني في دمشق، حيث يفر من دمشق إلى مصر ومنها إلى القدس.. لا يوجد في يوميات السكاكيني ما يغطي هذه الفترة، ونقتبس هنا عدة فقرات وردت في كتاب «كذا أنا يا دنيا» تحت عنوان الفرار من دمشق تغطي هذه الفترة.. وقبل أن نختتم المجلد الأول.. ننشر صفحات من دفتر مستقل، أراد السكاكيني أن يحكي فيه قصته الحقيقية مع التر ليفين، بعد أن زال خطر الدولة العثمانية، فالرواية مختلفة عما كتبه مناجاة لسري، وعما أورده في يومياته في دمشق . [

الفرار من دمشق

ما جاء شهر آب من سنة ١٩١٨ إلا والثورة العربية قد عظم أمرها ، فأبت على رفاقي الكرام في دمشق ووطنيتهم الصادقة وهمهم العالية إلا أن ينضموا إليها ، فخرجوا من دمشق في العاشر من آب ، وقد كان لي الشرف أن أكون معهم .

ما أعظم الفرق بين دخولي دمشق وخروجي منها ! دخلتها مع المجرمين مكبلاً ، وخرجت منها مع عصبة من أهل الشرف والوطنية الصادقة .

لم يكن يخطر لي في بال أن يكون في هذه البلاد رجال مثل هؤلاء الرجال . إن أمة فيها مثل هؤلاء لن تموت . خرجنا من دمشق وليس أمامنا إلا أحد أمرين : إما أن تحسبنا الحكومة فتقطع علينا الطريق ثم تسوقنا للموت صلباً ، وإما أن نجو فتابع سيرنا في طريق الشرف . وضعنا من أول الأمر الخطر أمام عيوننا ، فإن أصابنا فهذا هو الذي كان في الحساب ، وإن نجونا فذلك من وراء الأمل ، وإذا عزمنا فتوكل ، وقل مع المتنبى :

فأنى شئت يا طريقي فكوني اذاة أو نجاة أو هلاكاً

لا شك في أن الحرب ستضع أوزارها بعد حين ، ولكن اقتحامنا الأخطار الآن ولو في الساعات الأخيرة من عمر هذه الحرب أشرف وأبعد في الفخر .

فررنا من دمشق وقطعنا الصحراء إلى مقر الأمير فيصل ، ثم جئت إلى مصر عن طريق البحر الأحمر (العقبة) فمنعتني الحكومة الإنكليزية من دخول فلسطين ظلماً وعدواناً . فأقمت في مصر نحو شهرين تعرفت فيها بنخبة رجال مصر البارزين .

الفصل الخامس
حلمي

المقدمة

راجع ﴿يومياتي في﴾ ٢٠/١١/١٩١٧ و ١/١٢/١٩١٧ و ٣/١١/١٩١٤
لي في كلمتي هذه ثلاثة أغراض - الأول - سرد قصتي، إجابة لطلب كثيرين من الأصدقاء، الذين كت
أمهلهم إلى هذا الاجتماع [كذا] فأسردها على الجميع.. كما فعل ذلك الفلاح الذي خرج يوماً على حماره
ليحطب، وبعد أن أثقل ظهره بالحطب، رجع به، وكان الجبل وعراً كثير الصخور والمزالق، وفي حضيضه
نهر جار، فاصطدم الحمار بصخرة فوق وجعل يتدحرج من صخر إلى صخر، إلى أن هوى في النهر وغرق.
فوقف صاحبنا على قمة الجبل، وجعل ينادي، أهل قريته كما يفعل المستغيث، فهرعوا إليه رجالاً ونساءً
وفي أيديهم السلاح فسألوه: ما الخطب؟ فقال: خرجت اليوم لأحطب، وبينما كنت راجعاً وقع الحمار في
النهر وغرق، فليكن ذلك معلوماً عندكم، فإذا رجعت الآن إلى القرية فلا يسألني كل واحد على حدة، أين
حمارك؟.

الغرض الثاني، إعلان شكري وإجمال ثنائي إليكم على ما لقيت من المروءة والعناية والعطف والإلتفات من
أصدقائي، منذ خرجت من القدس إلى أن رجعت إليها.
الغرض الثالث، عرض ما عنَّ للخاطر الكليل من الآراء والخواطر، مسافة هذه الرحلة.

- حلمي -

مساء يوم الثلاثاء الواقع في ٢٧ ت ٢ غ/١٩١٧، أي: منذ سنة، أُوتيت إلى فراشي، وما كدت أغمض
عيني حتى انتقلت إلى عالم الأحلام، فحلمت حلماً طويلاً كثير الحوادث استغرق من نومي نحو سنة، إليكم
خلاصته...

الوقت ليل والبرد شديد، ودوي المدافع في جوار القدس كالرعد القاصف، وإذا بالباب يطرق طرقة خفيفاً
فتحت، وإذا برجل يهودي من الأمة اليهودية وقف أمامي وقفة الخائف المستجير... أعلنت الحكومة أن
كل أميركي من السنة السادسة عشرة إلى الخمسين يجب أن يسلم نفسه للحكومة في مدة أربع وعشرين
ساعة، ومن لا يسلم نفسه يُعتبر جاسوساً، ومن خبأ أميركياً عمداً أو بلا عمد يُعتبر جاسوساً أيضاً..
فصاحبنا لم يسلم نفسه، بل فر من وجه الحكومة ولعله طرق أبواباً كثيرة قبل أن يصل إلي، فلم يقبلوه، فوعدت
بين أمرين: بين أن أقبله فأخالف أوامر حكومتي وأتعرض لغضبها وانتقامها، ولا سيما في أيامها الأخيرة وقد

ضاع رشدها وطاش حلمها ، وبين أن أصرفه من حيث جاء فأخالف بذلك (آداب قومي أدب وأدبيات) لغتي التي أولعت بها منذ الصغر ، ووقفت نفسي على إحيائها وتعزيزها ، تلك الأدبيات المملوءة بالحض على إجارة المستجير ، وإغاثة المستغيث ، وتأمين الخائف وإجابة الصّارخ... إذا قبلته خنت دولتي ، وإذا صرفته من حيث جاء خنت لغتي ، فأبي الخيانتين أرتكب؟ مرت بي هذه الخواطر بسرعة البرق فلم أتردد أخيراً في قبوله... معاذ الله أن أقبل جاسوساً ، ولكن الرجل فرّ لأنه لا يهون عليه أن يسلم نفسه للحكومة ، فترك أهل بيته تحت رحمة الأقدار ، ويخرج في تلك الأوقات التي كانت قنابل المهاجمين تمطر الطرق كلها فلا يخلو المرور فيها في الليل أو النهار من خطر . ومن لا تحدّثه نفسه في حالة صاحبنا أن يفرّ من وجه الحكومة ويعصي أوامرها الطائشة الجائرة؟! فإذا صحّ أن يكون هناك جرم فهو جرم الفرار لا جرم الجاسوسية . وإذا لم يكن هو جاسوساً في اعتباري ، فهل أكون أنا جاسوساً إذا قبلته في بيتي؟ على أن ذلك لا يدفع الخطر عني إذا علمت الحكومة أنه مختبئ عندي ، ولا تقيم لرأبي هذا وزناً ولا تقبل لي عذراً . ولكن الرجل التجأ إليّ فلا يسعني إلا أن أقبله . قلت في نفسي : إنه لم يلتجئ إليّ بل التجأ إليّ قومي في شخصي ، التجأ إليّ (أدبيات) لغتي قبل الإسلام وبعده . التجأ إليّ ذلك البدوي الذي أجار [أثى] الضبع حين لجأت إلى خيمته من وجه مطاردتها ، بل إلى ذلك البدوي الذي حمى الجراد الزاحف على أرضه ممن كان يتعقبه لدفع غائلته . التجأ إليّ عوف بن الشيباني والسموأل بن حيان ، بل إلى ذلك الجمّ الغفير من رجال التاريخ الذين كانوا يجيرون المستجير ويغيثون المستغيث ، ولو عرضوا أنفسهم للخطر... وهنا لا يسعني إلا أن أقول: إنه خولني شرفاً عظيماً بالتجائه إليّ ، إذ جعلني وأنا الضعيف العاجز أهلاً لأن أمثل روح تاريخنا (وأدبياتنا) في إجارة المستجير . كما أرجو أن يسرّ قومي أن رجلاً غربياً لجأ إليهم في شخصي ، بعد أن أنكره قومه وأغلقوا دونه أبوابهم فقبلته باسمهم... والخلاصة أن الرجل ليس جاسوساً ، ولم يلتجئ إليّ خليل السكاكيني كما يتبادر إلى الذهن ، ولكنه التجأ إليّ الأمة العربية في أحد أفرادها ، ولست ممن يتخلون عن هذا الموقف الشريف . كما أجل نفسي أن أكون من العابثين بشرف قوميّته المستهينين (بأدبياتها) وإن عرضت نفسي بذلك لخطر الإعدام صلباً أو رمياً بالرصاص . وإذا كنت مجنباً عليّ فليس الذي التجأ إليّ هو الجاني عليّ ، إذ لم يكن أسهل من أن أردّه من حيث جاء ، كما ردّه ذووه ، ولكن الذي جنى عليّ هو (أدبيات) لغتي بل شرف أمّتي ، وإذا كانت إجارة المستجير جنائية فيجب أن تؤخذ بها الأمة بأسرها لا أحد أفرادها ، بل يجب أن (تحرق أدبياتها) وتحرق كتبها ويطمس على تاريخها ، ويُمحى ذكر شعرائها وأدبائها من أقدم عهد التاريخ إلى اليوم ، بل يجب أن نستبدل بلغتنا أخرى ، وتخلق بغير أخلاقنا وتؤدّب بغير آدابنا وتتغنى بغير فضائلنا... تعالينا عن ذلك علواً كبيراً...

وفي يوم السبت الواقع في أول كانون الأول/ ١٩١٧م، بينما كنت جالساً وراء مكتبي أكتب حوادث النهار، طُرق الباب الخارجي فنزلت لأفتح، وإذا برجل من البوليس يقول: مدير البوليس يطلبك. فلم أشك أنهم عرفوا أن الرجل مختبئ عندي، فأمهلت البوليس في الباب ريثما أهين نفسي، وجئت إلى صاحبنا وقلت له: انج بنفسك، وأما أنا فقد أخذت ولا حول ولا، فاضطرب الرجل وامتعق لونه وخاف خوفاً عظيماً، ولم يعرف كيف ينجو. تركته على تلك الحالة وجئت إلى دائرة البوليس، فقالوا لي: ابق هنا. وجدت كثيرين من أميركيين ويهود وعرب أخص منهم بالذكر جرجي أفندي الحمصي، وبيديع أفندي السنونو، والياس أفندي الشدياق، وبعض رهبان دير الروم، ففهمت أن شأني كشأنهم ولم أشك أنهم إنما جمعونا بقصد إبعادنا من القدس، فأفرخ روعي واطمأنت على الرجل، وبادرت من فوري وأرسلت إلى البيت، أقول لهم أن يطمئئنا الخواجا التريثين، إذ ليس هو المقصود بل أنا، وإن يقوه في البيت إلى أن تعبر هذه الأيام السود، وشجعتهم وطلبت منهم أن يهيئوا لي لوازم السفر. ثم جعلت أتصور كيف أترك البيت في مثل هذا الوقت الحرج، والانكليز على الأبواب والقنابل تتساقط على أطراف المدينة، ثم ما أدراني أن الحكومة تأمر في الغد أن يخرج السكان من القدس بقضيمهم وقضيضهم، فأين يذهبون ومن يعتني بهم؟ فأظلمت الدنيا في وجهي. ولكنني رأيت أن لا أستسلم إلى الجزع، وقلت: الموت مع الناس رحمة، وجعلت أتلهي بالحديث مع هذا وذاك. لم أذق الغمض الليل كله. وفي الصباح جاؤوا بآخرين حتى غص المكان بهم، فكنت أرى الدموع في وجوه كثيرين فيها جمني البكاء فأردته وأتجلد.. علام تريد الحكومة إبعادي من القدس؟ هل تظن أن الإنكليز قد يحتاجون إليّ وأنا لا أصلح إلا لأن أكون معلماً، ولا أحب إلا أن أكون مستقلاً في عملي. فإذا جاء الإنكليز أوبقيت البلاد في [يد العثمانيين]، أو خرجت إلى يد غيرهم، فإني لا أشغل إلا بالتعليم، ولا أعلم إلا ما يوحيه إليّ ضميري ويطمئن إليه وجداني. لا أتزلف من أحد ولا أخدم أغراض أحد.. بل لست إلا إنساناً محضاً، أي لا أنتمي إلى حزب من الأحزاب الدينية أو السياسية، بل أعد نفسي وطنياً أينما كنت، وأشغل في ترقية الوسط الذي أعيش فيه عثمانياً كان أم عربياً أم إنكليزياً، أم مسيحياً أم إسلامياً أم بوذياً (راجع [يوميتي] ٢١ و ٢٨ / ٣ / ١٩١٥) ولا أشغل إلا في خدمة العلم، والعلم لا وطن له.. وما هي الوطنية؟ إذا كانت الوطنية أن يكون الإنسان أينما كان حراً مستقلاً، صحيح الجسم قوياً نشيطاً مستنير العقل حسن الأخلاق، فهذه وطنيتي. وأما إذا كانت في تفضيل دين على آخر ومصالح على مصالح، أن يعادي الإنسان أخاه الإنسان، إذا لم يكن من بلاده أو مذهبه، فلست وطنياً.. ولست أشك أن الحكومة لم تختصنا بالإبعاد إلا بناءً على وشاية بعض الصعاليك من سماسرة السوء، ممن ضاقت في وجوههم أبواب الرزق الحلال، فاتخذوا الجاسوسية مورد رزق وهو أخبث الموارد، فجعلوا يقدمون التقرير تلو التقرير، أن فلاناً أجنبي

النزعة عدو الدين والدولة، وأنه من الجمعية العربية الثورية. وأن حكومة تقيم لوشايات مثل هؤلاء الصعاليك وزناً لعل شفا جرف هار لو فطنت، بل إن من أصحاب المكانة من كان يحاول أن يسود صحيفة بعض الوطنيين في نظر الوطنيين أنفسهم، كأن يقول: إن فلاناً يكره المسلمين ولا يثلج صدره إلا إذا رأى الأجنبي يذلهم ويتحكم برقابهم، وراحوا في كل مجلس يفتنون عليه الباطل ويقولون عليه البهتان، ويتمونه بكل تهمة شنيعة فلم يعبا بهم أحد.. وفي مساء الخميس أحضروا سعيد أفندي أبو خضرا، فلم يكذب يدخل حتى اغرورقت عيناه بالدموع، فجعلت أشجعه وأنا أحوج منه إلى من يشجعني ولكن لم يلبث ان (أطلق سراحه) فسرنا لذلك كثيراً، وفي صباح الجمعة جاءني ولده فؤاد يحمل رسالة منه، ففضضتها، فإذا بها ثلاثون ورقة باقنوط يقدمها لي لأستعين بها على السفر، ويعدني أنه سيعتني بأسرتي عنايته بأسرته، فأكبرت مروءته وأصفيته شكري، ثم جاء عمر أفندي الدقاق يسأل عن سعيد أفندي أبو خضرا، فقلت له: أطلق سراحه أمس مساء، فلم يكن منه إلا إن ذهب وأرسل مع أخيه مبلغاً من الدراهم، فاعتذرت فلم يقبل لي عذراً، فلم يسعني إلا أن أقبله، وأنا معجب بهذه المروءة في مثل هذه الأيام التي خلعت قلوب الناس، فجعلوا إذا رأوا غير شيء ظنوه رجلاً، وأفسدت أخلاقهم فتخلى الأخ عن أخيه.. وفي المساء كان صديقي الأبر الطيب الذكر، ذو الأيادي البيضاء عليّ وعلى غيري المرحوم المأسوف عليه حسين أفندي سليم قد راجع المتصرف عزت بك بشائي، وأخذ منه أمراً باطلاق سراجي فخرجت أحمد الله، بل أحمد حسن حظي، بل أحمد أصدقائي الكرام على ما لقيت من عطفهم وعنايتهم.

مرّ عليّ بعد اطلاق سراجي أربعة أيام وأنا ملازم بيتي، لا أخرج منه إلا قليلاً، وأنا أعتقد أنني نجوت، وأن الرجل الذي التجأ إليّ لم يدر به أحد.. ولكن في الساعة الثالثة بعد نصف الليل من مساء يوم الثلاثاء الواقع في ٤ ك ١٩ غ سنة ١٩١٧ بينا كنت نائماً مطمئناً، طرق الباب الخارجي طرقةً شديداً. من الطارق؟ أملتجئ آخر؟ ليس هذا طرق ملتجئين. أصدق؟ ليس هذا وقت زيارة. الطرق مستمر، أقوم فأفتح أم أتركهم يطرقون الباب حتى يكفوا فيصرفوا؟ الطرق مستمر، من الطارق؟ هو ذا البعض قد تسور الحائط، حركة أقدام في ساحة الدار، أحاطوا بالمنزل، قعقة سلاح، فلم أشك أنهم قوة عسكرية عرفت أن الرجل مخبئ عندي فجاءت لتأخذنا فهبيت من فراشي، وجئت إلى غرفة صاحبنا، فطرقت عليه الباب لعلني أتمكن من تهريبه فلم يستيقظ. هو ذا الجنود على باب المنزل الداخلي. فليس إلا التسليم، فجئت إلى الباب ففتحت، وإذا بالباب عارف بك (قومسيير) البوليس ومعه عجوز يهودية، جاءت تدلهم على البيت. قال: ابن آثر ليئين؟ فدلتهم على غرفته فأيقظوه فأخذوه وأخذوني معه، ولم أشك أننا هالكون فودعت أحبائي الوداع الأخير، وخرجت مع رجال البوليس والجنود، ولكن لا تسلوا كيف كان خروجي. ومن هذه العجوز الدليلة؟ حين

التجأ إليّ الخوارجا آلر ليقين، أكد لي أنه لا يعرف أحد أنه جاء إليّ. دعونا في أوقات الأكل يشاركنا في طعامنا فلم يكن يأكل إلا قليلا من الخبز، مع حبات زيتون وكأس شاي. وبعد أيام بينا نحن لاهون غافلون أطل من النافذة فرأى يهودياً فناداه، وكلفه أن يرسل إليه تلك العجوز لتحضر له الطعام في حينه، فكانت تروح وتجيء كل يوم، فاهتدى إليها البوليس الذي كان يتعقبه، فسألها عن ملجأه فأنكرت فضربها ضرباً أليماً فاعترفت فجاءت تدلهم عليه. قومه أنكروه وقومه دلوا عليه. لماذا لا تأكل من طعامنا أيها الرجل؟ سامحك الله! إذا كان طعامنا نجساً في اعتبارك، فنحن نجسون أيضاً لأننا نتغذى بالنجاسة، فكيف التجأت إلينا؟! أيتها الأديان، بل أيتها العقول السخيفة لقد جنيت علينا، وكم لك من ضحايا.. أخذونا إلى دائرة البوليس في عمارة الدومينيكان، فلقيت هناك الأستاذ الشيخ عبد الرحمن سلام، أستاذ اللغة العربية في الكلية الصلاحية، وقد أوقفوه ليسوقوه إلى دمشق ليلتحق بالكلية الصلاحية فيها، إذ نقلت (الكلية) إليها قبل بضعة أيام، فبادرته بقولي: أيها الأستاذ، ربما كنت آخر من أرى في هذه الحياة، فاعلم اني كتبت إلى الدقيقة الأخيرة من حياتي مخلصاً أميناً، فجعل يشجعني ويطيب خاطرني.. أقمنا في دائرة البوليس يومين ولم يهتم بنا أحد، لأن رجال الحكومة كانوا في اضطراب عظيم، ولعل ذلك كان من حسن حظنا، ولولاه لتفرغوا لنا فحاكمونا وحكموا علينا ونفذوا الحكم تشفياً وانتقاماً منا وارهاباً لغيرنا، وغاية ما هناك، إن رجال البوليس أخذوا رفيقي فسألوه بضعة أسئلة، ثم أدخلوني، وسألوني: أتعرف هذا الرجل؟ فقلت: نعم، وجعل مدير البوليس يصوب نظره الشزر في ويصعده، وهو يهز رأسه كأنه يعني أيها الخائن الغادر لقد وقعت في أيدينا. ثم اجتمعوا وكتبوا عنا تقريراً طويلاً بما كان وبما لم يكن، ثم نقلونا إلى السجن العسكري في عمارة الروس، ولكنهم أدخلونا إلى غرفة خصوصية مع ثمانية آخرين كان البعض منهم مكبلاً بالسلاسل، ومنعوا اختلاطنا بالمسجونين الآخرين، فلم نشك أننا في اعتبارهم من المجرمين الكبار.. أقمنا في هذا السجن يومين كنا نرى من نوافذه الجنود نقر من ساحات القتال والجرحى ينقلون إلى المستشفيات، والناس يتراخضون لا يلوي الواحد على الآخر.. وآخر من زارني سيدتي أم سري وأختي جاءتا في مساء آخر أيامي في الحياة أو في القدس إذا كتبت لي الحياة. ووقفنا أمام نافذة السجن والحرب مستعرة والقنابل تتساقط هنا وهناك، والناس في هرج ومرج، والجنود تتراخض والخوف مستول على الجميع، فخفت عليهما وألححت عليهما بالإنصراف، ولم أعد أدري أوصلتا بالسلامة أم عرض لهما في طريقهما ما يروع. ذلك ما كان يشغل أفكاري في كل مدة منفاي. وقد عجبت كيف جاءتا وحدهما ولم يرافقهما أحد من أهلي أو أصدقائي في مثل تلك الساعة الهائلة، ولكنني قلت في نفسي: لعلهم خائفون أو لعل لهم عذراً آخر وأنت تلوم.. ثم أطل علي صديقي الأبر أبو داود حنا ياسمينه، ثم استولى الليل فنمنا.. لا يتسع المقام لأن أصف لكم السجن الذي كنا فيه، ولا

أحوال رفاقنا المسجونين العقلية والنفسية وما دار بيننا من الأحاديث، ولكن كما فهمنا منهم أن الذين يحكم بإعدامهم يجيئونهم في نصف الليل، فيوقظونهم ويأخذونهم للإعدام، وبيننا نحن نيام سمعنا حركة في السجن، ثم دخل علينا الجند وسلاحهم في أيديهم فقمنا وقد استولى علينا الذعر، ولم نشك أنهم آتون ليأخذونا للإعدام. تلك ساعة هائلة لست أنساها ما دمت حياً. ثم كبلونا بالحبال من اليدين اثنين اثنين أنا والتر ليشين وثمانية آخرون؛ ثلاثة أتراك وواحد مصري واثنان من أفراد الجاندرمة وآخران من أبناء القدس اسم أحدهما خالد واسم الآخر يوسف الشهابي أبو رباح. كت مكبلاً من اليدين إلى رفيقي في المصيبة آتر ليشين، وكان الوثاق شديداً، بحيث أحسست أن الدم يكاد يتفجر من يدي، فلما طلبت منهم أن يخففوا الوثاق قليلاً، قالوا: «ما نبالي لو مت»، ثم خرجنا من السجن، وقد رثى لنا كل من كان هناك من المسجونين والمحافظين. وبعد أن خرجنا فهمنا أنهم سيأخذوننا إلى دمشق فاطمأنا قليلاً، وتعلقنا بحبال الأمل. ولم نجاوز غير بعيد حتى لقينا قومندان القدس فوقنا أمامه موقف العبيد أمام سيدهم، فصاح فينا صيحة كهزيم الرعد ردد صداها الليل الحالك فأخذونا ومرّوا بنا على السجن داخل القدس ليأخذوا المسجونين فيه، وقد اتفق أن دار أحدنا وهو يوسف الشهابي أبو رباح أمام ذلك السجن، فجعل ينادي ابنه رباحاً بصوت تخنقه العبرات، فجاؤوا إليه فجعل يودعهم ويبكي ويوصيهم بولده، وجعلنا نبكي معه، كأن كل واحد منا يودع ذويه. أشكر الله أنهم أخرجونا بدون أن نرى أحداً من أحبائنا، وإلا كان موقف الوداع مما لا نستطيعه ولا يستطيعونه. وكانهم خافوا أن يدركهم الوقت فتركوا أولئك المسجونين المساكين، وساقونا فخرجنا من باب الأسباط كالأغنام المسوقة للذبح. وكنت أحس، ونحن ماشون في جنح ذلك الظلام الدامس لا نبس بنت شفة، لأن كل واحد منا كان مشغولاً بمناجاة نفسه، كأننا سائرون في جنازة. تابعنا سيرنا على طريق أريحا، وكانت مكتظة بالجنود الفارين وعرباتهم ومدافعهم، فقلنا: إذا لم نر المهاجمين داخلين فقد رأينا المدافعين خارجين. وجئنا في طريقنا إلى مغارة فصدر الأمر من رئيس المحافظين [الحرس] أن نقف فوقنا، فأخذونا إلى تلك المغارة وقالوا: ناموا قليلاً هنا، فلم يلبث رفاقنا أن استلقوا على الأرض وناموا، فعجبت كيف ينام من كان في مثل حالتهم. وأما أنا ورفيقي فلم نعرف كيف نجلس لأن وثاقنا كان شديداً، فإذا جلس الواحد منا هوى الآخر فوقه، وإذا بأحد رفاقنا، يقول: أرجوك ان تجلس بالقرب مني وتدرأ البرد عني لأن ثيابي خفيفة جداً، فحزنت لحالته كثيراً. وبعد قليل قمنا وتابعنا سيرنا إلى أن ارتفعت الشمس في كبد السماء، فجعلت الطيارات تحوم فوق رؤوسنا فوددنا لو تصيبنا قذائفها وتريحنا من هذا الشقاء والهوان، أو تشغل المحافظين علينا فتمكن من الفرار، ولكن لا هذا ولا ذلك. ثم جئنا إلى صخرة كبيرة في الطريق فجلسنا في ظلها نستريح وإذا بمدير البوليس وعارف بك الذي أخذني من بيتي ماراً من على حصانين أعجفين هزيلين بدون ركب ولا

لجم ، وعلى وجهيهما علامت الذل والصغار فتبادلنا النظرات ؛ أما نحن فقد كان لسان حالنا أنكما لا تستطيعان أن تشمتا بنا فإن حالتكما أسوأ من حالتنا ، وأما هما فلا شك أنهما كانا يودان لو لم نرهما لئلا نشمت بهما . ثم تابعنا سيرنا إلى أن وصلنا إلى أريحا فوجدناها تنتفش بالجند والضباط المنهزمين ، فلم يجدوا محلاً يؤونا إليه غير اسطبل في أطراف البلد ، فجلسنا على التراب وهاجمتنا روائح الإسطبل الكريهة . وكان همي أن أجد أحداً من أبناء القدس لأكلفه تدبير طعام لنا ، لأنه كان مرّ عليّ نحو ثلاثين ساعة لم يدخل طعام ولا شراب في فمي ، ولأستدين منه قيمة أستعين بها إلى أن نصل إلى دمشق . فلم يكن يمر بنا أحد إلا أعرض وأشاح بوجهه عنا وتصام عن ندائنا ، وحقهم أن يفعلوا ذلك لئلا يؤخذوا بجريرتنا . ثم لم ألبث أن رأيت الفتى الأغرّ ميخائيل القزاز أحد تلاميذي ، فراعته ما رأى من حالتي ولم يتمالك أن دخل عليّ بدون استئذان والدمع يكاد يتفجر من عينيه . ثم ذهب فأحضر بعض الكراسي فجلسنا ثم أحضر قهوة فشربنا ، ثم ذهب فأحضر طعاماً فآخراً فأكلنا ، ومبلغاً من النقود وفوطة وبعض مناديل لأنني خرجت بالثياب التي عليّ فارغ الجيب بدون طعام ولا ثياب . طلبت منه ورقاً وقلماً فكتبت رسالة إلى البيت أشكره إليهم وأشجعهم . وبعد قليل جاء سمعان الخوري ومعه طفلة له ، وفي يدها سلة طعام ، فوقف في الباب وناولني السلة وأخذ يطيب خاطري ويشجعني فشكرته . وفي الصباح جاء ميخائيل القزاز يحمل سلة طعام فيها ما يكفيننا جميعاً عدة أيام ، فحملتها ومشينا وأنا أردد الشكر على همة هذا الفتى الكريم وأشكره إليكم اليوم .

وقبل أن نصل إلى نهر الأردن ، والوقت ليل ، مرت بنا كوكبة من خيالة البدو ، فجعل بعض الرفاق يستغيثون بهم أن يخلصونا فكانهم لم يسمعوا نداءهم ومروا على خيولهم مسرعين . تابعنا سيرنا على طريق العربات ، وكنا عبثاً نحاول أن نحملهم على أن يأخذونا من طريق آخر ، لأنهم خافوا أن يضلوا الطريق ، أو أن تقع في يد البدو فيخلصونا ، إلى أن خيم الظلام ونحن لا نزال بعيدين جداً عن السلط . فقرر رأي المحافظين أن نبيت ليلتنا في مغارة هناك على سفح الجبل كان يأوي إليها بعض الأرمن الذين يشتغلون في الطريق . أدخلونا إلى أقصاها زحفاً على البطون وناموا هم على الباب . وهنا خطر لرفاقنا أن يفروا فتركناهم وشأنهم ، ولما قمنا في الصباح جمعت أطفال الأرمن وفرقت عليهم بعض الدريهمات باسم ولدي سري ، ثم تفقدونا فإذا واحد منا قد فرّ تحت جناح الظلام ، وهو يوسف الشهابي فدعونا له بالسلامة . ثم مشينا إلى السلط وكان الصباح جميلاً ، فأخذ أحد رفاقنا وهو أسود اللون من (مدينة أزمير التركية) يغني ، وجعل المحافظون يطلقون الرصاص طرباً كأننا كأننا غزاة فاتحون إلى أن وصلنا السلط فسمعنا أنهم احتقلوا بالأمس لاسترداد القدس . أخذونا إلى بعض البيوت الخربة المهجورة ، ووقفوا على الأبواب محافظين ، فبادرت من فوري وكتبت رسالتين ، الواحدة إلى أحمد أفندي عبد المهدي والأخرى إلى الصديق شكري خليل الجمل ، لأنني كنت

أعرف أنه في السلط، أما الأول فأرسل إليّ أنه سيسعى في خلاصي، ثم تركنا السلط ولم أره ولعله لم يوفق، فجز عليه أن يراني في حالتي تلك، وأما الثاني فبادر فأرسل إليّ الطعام والشراب والتقود والثياب مع رسالة لطيفة يقول فيها: إذا رجع إلى القدس قبلي اهتم بذوي اهتمامه بذويه، فشكرت الله أني لم أخل من الأصدقاء الكرام. وفي صباح الأربعاء قبل بزوغ الشمس مشينا إلى عمان حيث أودعونا سجنها. رأيت في دخولنا إليها بعض من أعرف، فناديناهم فأعرضوا عنا إلا الخواجا برامكي وهو يشتغل في عمان، فأرسل إليّ ولداً كان يحضر لنا الماء وسائر ما نحتاج إليه. ثم خرجنا من عمان قبل الفجر ومشينا إلى المحطة. أربعة أيام مشينا على الأقدام مشياً متواصلًا، وأنا ورفيقي تتعاون على حمل سلة الطعام. كان جورباي قد تمزقا في الطريق وكادا يدميان قدمي، فنزعتهما ولبست حذائي بدون جوربين.

خرجنا من القدس والمحافظون، وهم البانيون، أشداء لا ينظرون إلينا إلا شزراً، وما مر علينا يومان أو ثلاثة إلا أصبحنا كالإخوان. ولو كانت الجنود العثمانية كلها مثل أولئك المحافظين، لكانت الأمة العثمانية أعز جانباً وأشد منعة وبأساً. أجسام قوية تلوح على وجوههم علائم العظمة والشجاعة والإباء. ثم ركبنا السكة الحديدية وقصدنا درعا فوصلناها عند المساء، وكان البرد شديداً والسماء تنذر بالمطر، فأطللنا من نوافذ القطار لعلنا نرى أحداً ممن نعرف. رأيت الخواجا شكري الخوري فحييته عن بُعد وناديته فحيًا ولم يجي، ولعله خاف أن يقع تحت شبهة. ثم مر أحد تلاميذي الألباء، جرجي الخميس، فناديته فجاء، فلما رأيته مكبلاً هاله أمرى واغرورقت عيناه بالدموع، وسألني عن حاجتي، ثم ذهب فأحضر ما تيسر من طعام وحاجات أخرى، فشكرته. نمنا تلك الليلة في القطار، وفي الصباح سار بنا القطار إلى دمشق فوصلناها يوم الجمعة الواقع في ١٤ ك ١٦ غ سنة ١٩١٧م، فسلمونا لقومندان المركز، وهنا ودعنا أصحابنا المحافظين وداع الإخوان. وبعد قليل نقلنا إلى سجن الجامع المعلق في باب الجابية أمام سوق مدحت باشا، حيث نمنا ليلتنا الأولى في غرفة صغيرة لم أجد فيها محلاً للجلوس فضلاً عن النوم. وهذه الغرفة يضعون فيها السجناء الجدد، إلى أن يأخذوهم إلى الحمام ويطهروا ثيابهم ثم ينقلوهم إلى السجن. وفي صباح السبت أخذونا مكبلين بالحديد إلى الحمام. وقد كنت في المساء تمكنت من إرسال ورقة إلى الصديق الأبر ذي الهمة العالية والأخلاق الراقية الخواجا ديمتري تادرس أعلمه بأمرى، فجاء في الصباح إلى السجن يسأل عني، فقيل له: إنهم ذهبوا إلى الحمام فوقف ينتظر خروجنا، فلما رأيته مكبلاً بالحديد شجعني وطمأنني. في كل هذه المدة لم أفتر عن التفكير في أحبائي في القدس وتصور الحالة التي يكونون عليها حين يطلبونني فلا يجدونني، وماذا يتنازعهم من الأفكار ويفاجئهم من الهواجس، فكنت أشرق بدمعي. ما أجمل الحياة بدون مصيبة، ولكن إذا وقعت المصيبة فيجدد بالعاقل أن يخفف وقعها ويستفيد منها، والمصائب وإن حلت فلا بد أن

يكون فيها مكنن لذة أو مظهر جمال أو جانب نفع . أما اللذة في مصيبي هذه ، فهو ما كنت أشعر به من أني ذهبت ضحية الواجب ، وأما مظهر الجمال فيها فهو ما كنت أشعر به من القوى الحيوية على احتمال المشاق . كنت أظن انه إذا مر علي يوم ولم استحم فيه ، أو إذا تتابعت الليالي ولم يذق جفني غمضاً ، أو إذا اختلفت معيشتي أو ساورتني الأحزان وتقسمتني الهموم ، واستحوذ علي القلق وبلغ مني اليأس ، أو اضطررت إلى اقتحام المشقات ، أني أصبح كالخرقة البالية ، ولكن رأيت أن الأسلوب الذي اتبعته منذ أول نشأتي قد سهل علي احتمال المشاق والأتعاب ، وأن فلسفة السرور التي تشبعت منها ، قد مكنتني من مقابلة هذه المصيبة بصدر رحب وقلب مطمئن وجأش ثابت ، ولم أتخل عن مبدأي القديم : «الخطب هين» ..

مرت بنا الأيام تلو الأيام وأنا صحيح الجسم لا أعبا بالتعب ولا بالجوع ولا بالسهر ولا الوسخ ولا القمل ولا الأغلال . فلا شك أن أسلوبنا سيتغلب على العالم كله . على حين كنت أرى رفاقي مع أنهم أضخم مني أجساماً وأكثر عضلاً وآلف مني لهذه المعيشة السيئة ، قد أصبحوا مثل الخرقة البالية . لا احتملون البرد كما أحتمله ، وأنا أكاد أكون عارياً ، ولا يطيقون المشي كما أطيقه ولا يستطيعون السهر كما أستطيعه ، فكان الواحد إذا نام لا يقوم ، وإذا قعد لا يتحرك كأنهم بلا عظام ولا عضل . وأما أنا فقد مرت كل مدة السفر : إذا مشينا مشيت في الطليعة بنشاط وأنا أحمل سلة الطعام وهي ثقيلة ، وإذا أوتنا الى محل لا أقعد بل أتخطر فيه ذهاباً وإياباً ، وإذا نمت فلا أنام إلا غراراً ، ومرات عديدة أقوم في الليل أتخطر في المحل الذي نأوي إليه ، ورفاقي نيام يغطون .. لا شك أن الفضل في ذلك عائد إلى الأسلوب الذي اتبعته في حياتي وليس هذا محلاً لبسطه فأرجئه إلى فرصة أخرى .

أما جانب النفع في مصيبي هذه فقد علمتني ما لم أكن أعلم . فاجأتني هذه المصيبة وفي من الماضي أفكار قديمة ونزعات فلسفة ملتبسة ، فلم أخلص منها إلا وقد تجددت أفكاري واستقرت نزعاتي ، وأصبحت على الجملة شخصاً جديداً . وإذا شئت أن أتلو عليكم ما استفدته من مصيبي لامتد نفس الكلام وضاق المقام ، وربما ألمحت إلى شيء منها في عرض كلامي ، على أنني عزمتم أن أضمنها رسالة خصوصية والأمور مرهونة بأوقاتها ..

بعد قليل زارني في السجن الخواجنا تادرس وأستاذي الفاضل السيد نخلة زريق ، وقد كان من شواهد النحو التي مرت بنا في أثناء الدرس ، يوم كما تلاميذ ، هذا البيت :

أسجنا وقتلاً واشتياقاً وغربة ونأي حبيب ، إن ذا لعظيم
فلما رأيت أستاذي قلت له : أسجناً وقتلاً واشتياقاً وغربة ونأي حبيب .
فأجابني من وراء القضبان الحديدية : إن ذا لعظيم ، واغرورقت عيناه بالدموع .

حياتي في السجن

استغرقت حياتي في السجن ثلاثين يوماً حسبتها دهرًا .. إذا أردت أن تعرف السجن الذي كنا فيه، فتصور مكاناً واسعاً عالي السقف غير مبلط، فرشت فيه بعض حصر بالية هي فراش المسجونين، فيه نحو مئة وخمسين نفساً، وقد يزيدون، الواحد إلى جانب الآخر، يقضون فيه نهارهم وليلهم، لا تدخله الشمس ولا يتجدد هواؤه، لأن أكثر المسجونين عراة ضعفاء مهزلة فضلاً عن المرضى منهم، فهم يحرسون على إغلاق نوافذه وأبوابه خوف البرد. ولا يزالون نهارهم وليلهم يدخنون ويوقدون النار للتدفئة أو للطبخ، فتختلط أنفاسهم بدخان النار ودخان النارجيلات والسيكارات [كذا]، أضف إلى ذلك الروائح المختلفة الكريهة؛ روائح مطبوختهم وروائح التدخين والتحشيش، أضف إلى ذلك جلبة المسجونين؛ هذا يعني وهذا يعزف على طنبوره، وهذا ينفخ بشبابة، وهذا يقهقه وذاك يصيح والآخر ينادي على ثيابه يبيعها. وإذا جاء أحد إلى باب السجن يسأل عن أحد المسجونين جعل الواقفون عند الباب ينادونه باسمه بصوت عال يدوي به السجن، أضف إلى ذلك قعقة السلاسل في أرجل بعض المسجونين وأيديهم وأعناقهم، أضف إلى ذلك مناظر البؤس والشقاء ..

هذا هو السجن الذي كنا فيه؛ حالة أكثر المسجونين مما تصدع له القلوب وتفتط المرائر، ويا حبذا لو كنت غنياً لأشترى لهذا ثوباً ولذاك طعاماً وللآخر دخاناً وأعطي غيره شيئاً من النقود، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة. ومع هذا أشركت كثيرين في طعامي وفي القيمة القليلة التي معي من النقود. إن عشت فسأهم بأمر السجن. سأحاول أن تكون لي علاقة بالمسجونين أساعدهم وأهمهم بأمرهم وأعلمهم القراءة والكتابة، وأرفع نفوسهم وأنير بصائرهم وأكون صديقاً لهم في السجن وبعده .. يدخل بعضهم السجن وفي جيبه بعض الدرهمات وعليه بعض الثياب ثم لا يلبث أن ينفق درهماته ويأخذ في بيع ثيابه (بالمزاد) ويصبح وهو عاري الجسم يتفقف من البرد، ويتضور من الجوع ولا أحد يهتم بأمره. وحينئذ إما أن يستعطي من السجناء الجدد، وإما أن يتعاطى السرقة، وإما أن يموت جوعاً وبرداً. أوصيك يا سري أن لا يفوتك الإهتمام بالسجناء وإن كنت لا تعرفهم. ألف جمعية من كرام الناس للعناية بالسجين وتفقدته ومساعدته، وخصص شيئاً من دخلك لهذه الغاية إن شاء الله.

مدير السجن الباني أمي بذيء اللسان فظ الأخلاق، ويكفي في بيان حالته أن أقول: إن له ثلاثة أولاد بين السجناء أمسكوا بسرقة. وقد سمعت أنه قص مسألة أولاده على بعض الذين حوله، أن أولاده الثلاثة سرقوا من المحل الفلاني ما تبلغ قيمته مئتي ليرة، وأنفقوها في سبيل الشيطان الرجيم، ثم قال: إن أولاده الفاعلين التاركين، مما أجل القلم عن ذكره، سرقوا هذه القيمة ولم يفتنوا أن يعطوا أباهم خمسين ليرة!!!

هذا هو مدير السجن ! إذا لم يكن بدُّ من السجنون حسب رأيكم ، فليكن المدير على الأقل من أفضل الناس وأنزهم ليكون مثلاً حسناً للمسجونين .

كان السجن الذي ينام على قرب مني ضعيفاً مهزولاً ليس عليه إلا العظام والجلد . كان يصرف نهاره نائماً صائماً ، وإذا استيقظ استكن في فراشه والتحف بغطائه الممزق الوسخ واحتضن كانون النار ، وحقه أن يفعل ذلك لأن الفصل بارد والسجن كبير جداً . وكان يعيش على التعيين [طعام ادارة السجن] الذي لا يكفي طفلاً ، فضلاً عن رجل كبير ؛ يأكل تعيينه ثم ينام ولا يستيقظ إلا في ميعاد التعيين الثاني ، كأنه من تلك الحيوانات التي تنام شطراً من السنة وتستيقظ شطراً آخر .

هذا السجن كان مصاباً بالحمى التيفوسية ، وقد رأيت بعيني مراراً يفتش ثيابه ويلتقط عنها القمل ويرميه بالقرب مني ، فيقع منه شيء كبير على فراشي ويتسرب إلى ثيابي .

قرأت كثيراً عن السجنون في أوربا ، عن نظافتها ، بحيث تكاد تكون جدرانها وأرضها كالمرايا الصقيلة ، عن استيفائها شرائط الصحة ، عن الحدائق الجميلة التي تحيط بها ، عن المكاتب الحافلة بالكُتب المفيدة اللذيذة ، إلى غير ذلك مما تحسب معه سجوننا قطعة من جهنم . ولكن مع كل ذلك أفضل سجوننا على علاقتها لأمر واحد ، وهو حرية السجنون في سجنه ، فإني قد صرفت مدة سجنني في المطالعة والكتابة . كتبت ما أشاء إلى من أشاء فلا يمنعني أحد ، ولا يمر كتابي على مراقب ، بل أكتب في يومياتي تأثيراتي وملاحظاتي وآرائي وخواطري ، ولا يوجد من يسألني ماذا تكتب . يكفي في السجنون الشرقية أن السجناء يخالط بعضهم بعضاً وهناك مجال كبير للتعارف والتآخي ، وفي ذلك ما يذهب بالسامة والضجر . لا تجد في السجنون الشرقية سجيناً معتقلاً في غرفة وحده لا يجوز أن يخالط أحداً ولا أن يقرأ أو يكتب . وكم قرأت عن بعض السجناء في سجون أوربا كم كانوا يتألمون من امتناعهم عن القراءة والكتابة مدة سجنهم وقد تتجاوز عدة سنوات . وإليكم تقاً من يومياتي أيام سجنني :

مع ما أنا عليه من القلق على أحبائي ، وما أقاسيه من سوء المعيشة في السجن وتسفلها وهوانها يكفي أنه مر نحو عشرين يوماً لم أغير فيها ثيابي البيضاء ، وإذا لم أغيرها في القريب العاجل ، أكلني القمل وتراكت علي الأوساخ ، وأنتت رائحتي وتعرضت لخطر الجرب . أفضل أن أبقى عارياً معرضاً للبرد من أن أبقى ثيابي البيضاء علي . إن ما أحس به من الحكمة في بدني يكاد يحرمني القرار بل يورثني الجنون . أخجل من نفسي أن أنزع ثيابي وأتلقى ، أو أن أحك ظهري أو صدري بجدران السجن كما يفعل المسجونون . مع كل ذلك لا يسعني إلا أن أكون شاكراً ، ليس لأن مصيبتني أخف من مصيبة غيري ، ولكن لما لقيته من الدروس وما اكتسبته من الاختبار في مدة هذا السجن . وفي اعتقادي أنه إذا قدر لأحد أن يزور السجن ولو شهراً في

حياته، كان حقيقاً أن يكون شاكراً راضياً، وإلا فإن هناك أشياء كثيرة يجهلها، ولا يمكن أن يعرفها إلا إذا زار السجن بنفسه.

لم أكن أفكر قبل اليوم بالسجناء، بل كان كل اهتمامي مصروفاً إلى المدرسة. نعم يجب أن نهتم بالتعليم والتربية، ولكن لا يجوز أن نهمل أمر السجين. وهنا وأنا في قرارة السجن رفيق كثيرين من السجناء، أعيش كما يعيشون وأنا لم كما يتألمون، أرفع صوتي الضعيف بالاحتجاج على وجود السجن في العالم. لماذا وجدت السجن؟ لا يجوز أن يكون الغرض منها الانتقام، فإن الانتقام روح قديمة عاشت عليها الأمم في أزمان توحشها وهمجيتها ولعلها كانت نافعة لهم، وأما اليوم فيجب أن تلغى كلمة انتقام من قاموس كل أمة. إذا لم يكن السجن للانتقام فلا يبقى له من غرض إلا التأديب كما يزعمون. السجن لا يصلح أن يكون وسيلة للتأديب، ولا سيما إذا كان في مثل حالة سجوننا، بل أحربه أن يؤدي إلى غير الغرض الذي يقصد منه، بل هو أشبه أن يكون للانتقام منه للتأديب. كانت المدارس إلى الزمن الأخير صورة مصغرة عن العالم، فكانت تقاص التلاميذ بالضرب والجلد والسجن، ثم عدلت عن القصاص في معالجة التلاميذ وتقويم أودهم، فكذلك الأمة يجب أن تعدل عن قصاص المجرمين، وكما ان المدارس لا تهتم بالذنب بل بسببه لإزالته، كذلك الأمم يجب أن لا تهتم بالأجرام بل بأسبابها لإزالتها، كثير من غلطات التلاميذ وذنوبهم هم غير مسؤولين عنها، قد يكون الذنب ذنب الوالد أو ذنب الأستاذ نفسه، فضلاً عن أنها قد تكون ناشئة عن أسباب خارجية، فبأي حق تقاص التلميذ عليها. كذلك الأجرام، فإن كثيراً منها لا يجوز أن يكون المجرمون مسؤولين عنها، فكيف تقاصهم؟ كثير من غلطات التلاميذ ليست حقيقية، بل ليست ذنوباً، ولكن الاستاذ إما بسبب عسر هضمه أو حدة مزاجه أو قصر نظره أو شكاسة أخلاقه أو لؤم طباعه أو جهله أو غير ذلك من الأسباب، يتوهمها ذنوباً تستحق القصاص، وإذا كانت أشبه بالذنوب أكبرها وقدر لها من القصاص أكثر مما تستحق، فما دام باب القصاص مفتوحاً، وما دام الاستاذ ذا سلطة مطلقة، فلا بد أن يقع ظلم أو سوء استعمال، كذلك الحال في أمر الاجرام، فإن كثيراً من الاجرام التي ألقى بسببها الناس في غياهب السجن ليست أجراءً حقيقية، ولكن الحاكم توهمها اجراماً لتسرع في حكمه أو لحدة في مزاجه أو لتقص في عقله، أو لغير ذلك من الأسباب، فأصدر حكمه بالسجن ظلماً وعدواناً.

السجن أسلوب قديم يجب الاقلاع عنه، والمجرمون لم يعودوا في نظر علماء النفس مجرمين بل مرضى، ولذلك يجب الغاء السجن، واعتماد طريقة أخرى منطبقة على العلم الحديث. السجن لا تقلل الاجرام في العالم بل تزيدها، السجن لا تصلح السجين بل تفسده، ولا سيما إذا كان حدثاً، فبدلاً من الاهتمام بالاجرام يجب الاهتمام بأسبابها أنزلوا التجارب فتزول الاجرام، لماذا حكمت على هذا بالسجن؟ لأنه سرق، لماذا

سرق؟ لأنه فقير، لماذا هو فقير؟ لأسباب عديدة لا محل لها هنا، فبدلاً من الاهتمام بسرقة متى وقعت وكيف وقعت، يجب الاهتمام باستقصاء الأسباب إلى أن نصل إلى السبب الأصلي فنزيله، وقد يكون السبب الأصلي غلطة اجتماعية فكيف يؤخذ الفرد الواحد بها؟!

بناءً على ما تقدم يجب أن يكون الحاكم إما طبيباً أو أستاذاً أو أباً، إذا فحصني الطبيب فوجد بعد التروي والتدقيق واستشارة غيره من نطس الأطباء، أنني أحتاج إلى عملية جراحية وكان موضع ثقتي، فإني أسلمه نفسي باختياري وليس لأنه ذو سلطة عليّ، ليس لأحد سلطة على أحد. هذا موضوع واسع لم أهتم به قبل اليوم وقد شغل أفكاري منذ دخلت السجن، ولا يتسع الوقت الآن لأن أوفيه حقه، ولكن إذا خرجت من السجن جعلت له قسماً من وقتي والأمور مرهونة بأوقاتها.

كم كنا حين نحضر تمثيل رواية روميو وجوليت نبكي، حين يحكم على روميو بالنفي من بيرون، ولا سيما حين يسمع ذلك الحكم وحين يودع بيرون قائلاً «بيرون موطن حبي، بيرون مسكن قلبي، بيرون مستودع آمالي، بيرون جنتي ونعيمي، بيرون بيرون» فكأنني كنت أبكي في ذلك اليوم على نفسي في هذا اليوم قبل مجيئه، فأنا اليوم روميو وأحبائي جوليت والقدس بيرون.

صدر أمر بتخلية سبيل كثيرين من السجناء قبل انقضاء مدة سجنهم، وبدلاً من بقية المدة يجلدون، فجمعوهم في صحن الجامع وكانوا ينادون كل واحد بدوره، فيستلقي على وجهه فيمسك اثنان بيديه واثنان برجليه، ويجعل أحد الضباط أو مدير السجن يضربه بعضاً على مؤخر ظهره. وكنا في نوافذ السجن نرى ونسمع ونعد العصي، فتذكرت المثل القائل: «ليس الذي يعد العصي مثل الذي يأكلها»، وكان بينهم رجل كبير السن فبعد أن ضربوه ثمانين عصاً كادت تجهز عليه، وجدوا أنهم ضربوه عن غيره، فتأمل.

كنت أظن أن هذه الحرب تضع أوزارها بدون أن أصلى نارها، ولكن شاءت الأقدار أن تكون الآمي الأخيرة عظيمة جداً تفوق مبلغ احتمالي، كأن الأقدار كانت تتجاوزني في ما مضى من حياتي، لتضربني ضربة واحدة ولكن قاضية، كل فراق غير النفي هين محمول، فارقت أحبائي بدون أن أتزود منهم النظرة الأخيرة، ثم هم لا يعلمون عني وأنا لا أعلم عنهم شيئاً، فكأنهم واروني بالتراب...

إذا أراد من كان مثلي أن يتعزى فليس له إلا أحد أمرين: إما أن يصرف فكره عن حاضره وماضيه إلى آتیه، وبني علالي وقصوراً في الهواء، ويتصور من السعادة في مستقبله ما يشاء، وإما أن يقابل مصيبتيه بمصائب غيره، أو يقابلها بما كان يمكن أن تكون عليه فيجدها خفيفة، وفي ذلك بعض العزاء، على أن الأجدر بالعاقل الكبير النفس الشديد الشكيمة، أن لا يخادع نفسه ولا يكذب حسه، بل أن ينظر إلى مصيبتيه كما هي لا يكبرها ولا يصغرها ثم يحمل على النفس ضيمها ويصبر صبر الكرام، ويقول مع أبي فراس الحمداني:

صبورٌ ولو لم تبق مني بقيةٌ
وقورٌ وأحوال الزمان تنوشني
ألاحظ أحوال الزمان بمقلّة

قؤول ولو ان السيوفُ جواب
وللموت حولي جيئةٌ وذهاب
بها الصدق صدق والكذاب كذاب

ذهبنا اليوم إلى الحمام، وقد ساعدنا الحظ أنا ورفيقي وثلاثة آخرين أن الأغلال لم تكف لجميع السجناء، فذهبنا نحن الخمسة في مؤخرة الجميع غير مكبلين.

الحمام بارد وسخ جدا يدخله السجن فينزح ثيابه ثم يدخل إلى حجر الاستحمام عارياً كما خلقه ربه، أما نحن الخمسة فقد وعدنا صاحب الحمام أن ندفع له شيئاً فاعتنى بنا، قلت: إن الحمام وسخ ومناشفه وسخة لا تخلو من القمل، ولكن الذي مرّ عليه نحو شهر في السجن ثم مرّ عليه نحو ثلاثة أسابيع لم ينزع ثيابه البيضاء عن بدنه ولم يغسل إلا بعض وجهه وأطراف أصابعه، إن من كان كذلك لا يبالي بوسخ مثل هذا الحمام.

بقي في يومياتي شيء كثير عن حياتي في السجن لا يتسع الوقت لأن أشير إليها فاكفني بما تقدم. وقبل أن أخرج منه لا يسعني إلا أن أجهر بالثناء على الذين كانوا يزوروني فيه، أخص منهم بالذكر الخوaja تادرس وأستاذي نخلة أفندي زريق، والخواجات بديع السنونو والياس الشدياق وتوفيق جوهرية وشحادة ملوك وشكري القاري، ورستم بك حيدر وزين العابدين أفندي والأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المغربي ومسلم أفندي صبري.

وفي اليوم الأخير من أيام سجنني زارني الأستاذ الشيخ عبد القادر أفندي المظفر، فعاتبته على إبطائه عني، فاعتذر وقال: جئت أبشرك أنك ستخرج اليوم، ولم ألبث أن أخذت إلى دائرة جمال باشا الصغير محفوظاً تحت الحراسة، ولكن والحمد لله غير مكبل، فلم يكن جمال باشا قد جاء بعد، فجعلت أروح وأجيب أنا والجندي المحافظ عليّ في شارع جمال باشا الكبير، وأنا مشرد الفكر. لقيت كثيرين من أصدقائي الخوaja تادرس ورستم بك وزين العابدين أفندي وغيرهم كلهم مهتم بأمرني. فهمت أن خليل بك مشاور العدل كتب في تقريره عني أن يطلق سراحي بالكفالة إلى أن ترد أوراق اتهامي، لأنهم لم يجدوا في مسألتي ما يوجب سجنني، ولم يبق إلا أن يعرض ذلك التقرير على جمال باشا لإمضائه، وبعد ذلك يرسلونه إلى قومندان المركز فيخلي سبيلي.

انتظرت إلى الظهر فلم يجئ جمال باشا فرجعت إلى السجن، وقد وعدني أصدقائي أن يتموا المعاملة اليوم قبل أن يسافر جمال باشا إلى درعا، جعلت أروح وأجيب أمام باب السجن، وأنا أقول في نفسي: الآن

يجينون، بعد قليل يجينون إلى أن أرخى الليل سدوله، فينست من الخروج هذه الليلة، وغدا الجمعة وبعد غد يسافر جمال باشا، فلا أمل بالخروج إلا بعد رجوعه من درعا، وقد يكون ذلك بعد أسابيع، فوجمت وانقبض صدري واستولى عليّ حزن شديد. لو حوا لي بالأمل من بعيد ثم حجبه عني، وعشرات الآمال ليست بسهولة، فكان السجن عليّ هذه الليلة أصعب منه في كل ليلة، وبينما أنا في تلك الحالة طلبت فخرجت إلى مركز القومندان، حيث كان ينتظرنني الخواجهات تادرس وجرجي طرزي، اشترطوا أن يكون الكفيل من أهل دمشق، وإذا كان الوقت مساء لم يكن بدّ من تكليف الخواجا طرزي ذلك، فبادر من فوره فشكرت مروءاته شكراً جزيلاً، ثم أطلق سراحي فخرجت مع الخواجا تادرس، وكان الوقت ظلاماً فجعلنا نخبط خبط عشواء، وكان فرح الخواجا تادرس وأهل بيته بخلاصي عظيماً، وما وصلنا البيت حتى جاء أساذي وبعض الأصدقاء فتبادلنا القبلات وشكرنا الله.

انتهى الكتاب الثاني، ويليه الكتاب الثالث

مفردات استخدمها السكاكيني ولم تعد شائعة حالياً

هناك مفردات شبه منقرضة وردت في اليوميات يفهم معناها في الغالب من خلال السياق، لكن رأينا من المفيد إيراد الأبرز منها وفق الترتيب الأبجدي، وإيراد أمثلة توضيحية لما رأيناه ضرورياً .

المفردة القديمة	معناها	مثال
اتوقع	ارتمي	اتوقع على قدميك
اسطولا هوائياً	اسطولا جويًا	
اعتصاب	احتجاج	
اميله	ميوله	
اواجه	اقابل	
برأسه	كاملاً	خصصت فضلاً برأسه للموضوع
بروغرام	برنامج	
تأثيراتي	انطباعاتي	
التبعة	الجمالية	
التشخيص	التمثيل	
تقاضوني	الزموني	تقاضوني حضور الصلوات والاجتماعات
الحرب العمومية	الحرب العالمية	
رجال الخفية	رجال المخابرات والأمن	
شعبة أخذ العسكر	دائرة التجنيد	
الشعور الجنسي	الشعور القومي	.. مع ما يقال من تنبه الشعور الجنسي لدى الأمة اليهودية
العلائق	العلاقات	
عينوا	قرروا	
الكهربائية	الكهرباء	
المحافظين	الحراس	
مرسح	مسرح	
المشاركة	الإشراف	المشاركة على الانتخابات
مطالب	مطالب	
المكاتب	المكاتب	
نظاماتها	انظمتها	
نمي	وصل	

الفهرست*

* نرفق بكل كتاب من يوميات السكاكيني فهرست بأسماء الأعلام، والأماكن، والمؤسسات، والصحف، والمجلات، تسهلاً لاستخدام اليوميات من قبل الباحثين، ونأمل في الكتاب الأخير أن نرفق فهرست موحداً يشمل كافة كتب اليوميات.

أسماء الأعلام

- «أ»
- ابو عضل ٢٤٥، ٢٥٣، ٢
- ابو فراس الحمداني ٢٢١، ٣٨١،
- ابو قاسم ١٧٨،
- ابي الفضل / اسعاف النشاشيبي ٥٩، ١٠٠، ١١٠، ١٤٥،
- ١٤٨، ١٥٢، ١٥٦، ١٧٥، ٢٤٤، ٢٦٢، ٢٨١، ٢٨٣، ٣٤٤،
- ٣٤٦، ٣٤٧،
- احاد هعام ٢٠، ٢١،
- احسان ٢٨٣،
- احسان الترجمان ١٥٨، ٣٤٨،
- احمد افندي زروق ٣١٠، ٣٣٠، ٣٤٨، ٣٦٥،
- احمد افندي عبد المهدي ٣٧٥
- احمد الخالدي ٢٤٧، ٢٧٠، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤،
- ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٣٣،
- احمد جودت بك ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٥، ٢٧٥،
- احمد قدرى بك ٢٧٥، ٣٦٣، ٣٦٤،
- احمد محمود الحسيني ١٠٨،
- احمد نوري الدين بك ٢٢٨،
- ادما ٣٢٥، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٧، ٣٤٤، ٣٥٣،
- ارتين طورسيان ٢٢٧، ٢٩٦،
- أرسون ٢٣،
- اساف هليفي / أتر ليفين ٢٢،
- اسحق افندي ابو السعود ١٢٦
- اسحق افندي الحلبي ٣١٠، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٦، ٣١٨،
- ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٩، ٣٣٣، ٣٣٦، ٣٦٥،
- اسحق افندي درويش ٢٨٣،
- اسحق قويطم ٣٤٨،
- اسكندر الخوري البيتجالي ٩٢
- ابا داود ياسمينه ٢٢٨، ٢٨٣،
- ابراهيم افندي الانصاري ٢٦٣،
- ابراهيم افندي حلمي ٢٥٣، ٢٥٩، ٢٦٣، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٩١،
- ٢٩٢، ٣٠٥، ٣٣٠،
- ابراهيم الاسير ٢١٥، ٢٢٦،
- ابراهيم الحسيني ٩٧، ٣٤٨،
- إبراهيم زوانه ٣٩،
- ابراهيم شماس ٩١، ٩٢، ١٤٧، ٢٨٣،
- ابراهيم نسيبة ١٠٨،
- ابري ١٧، ١٩، ٢٠، ٢١، ٥٥، ٦٠، ٦١، ٦٥،
- ٦٦، ٦٨، ٧٣، ٧٥، ٧٧، ٨٢، ٨٤، ٨٥، ٨٦،
- ابن الرومي ٢٤٣،
- ابن الفارض ١٦٤، ٢٩٨،
- ابن المعتز ٢٤٣،
- ابن خلدون ٣٢٩،
- ابن زيدون ٣٣٨، ٣٦٣،
- ابن سناء الملك ١٦٦،
- ابن مسكويه ٢٢١، ٢٢٤، ٢٩٥،
- ابو الطيب ٣٤٢، ٣٤٦،
- ابو اللمع ٣٤٨، ٣٤٩،
- ابو بسام احمد كرد علي ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٧، ٣٥٧،
- ابو جميل ٢٦٢، ٢٨٣، ٣٤٤، ٣٤٦، ٣٤٧،
- ابو داوود ٣٤٤، ٣٤٦، ٣٤٧،
- ابو سليم قريظم ١٥٩، ٢٨٣، ٣٤٧،
- ابو سليمان ٢٨٣،
- ابو شديد ١٣٧،

الحلاق مينا ٢٨٤، ٢٨٣ ،
 الخوري ابراهيم فرح ٣٤ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ،
 الخوري عيسى قسطندي ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ١٥٤ ،
 الدا ماري ٢٤٥ ، ٢٨٨ ، ٣٠٦ ،
 السلطان عبد الحميد ١١ ، ١٤ ،
 السموال بن حيان ٣٧٠ ،
 السيدة اديل ٣٣٣ ، ٣٥٣ ،
 السيدة املي ٣٦١ ،
 الشريف حسين ١١ ، ٢٤ ،
 الشماس سيذروس ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١١ ،
 الشماس تقولا عبد الله ٣٥٧ ،
 الشيخ احمد ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣١٠ ، ٣٣٦ ، ٣٤٩ ،
 الشيخ النعساني ٣٣٦ ،
 الشيخ سعيد ٢٦٤ ،
 الشيخ سلامة حجازي ٣٤٩ ،
 الشيخ عبد الحميد ٢٠٨ ،
 الشيخ عبد القادر المزغر / المصغر ١١٩ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ٢٢٤ ،
 ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ،
 ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٥ ،
 ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٠ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ،
 ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١١ ،
 ٣١٣ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ،
 ٣٢١ ، ٣٤٣ ، ٣٥٧ ، ٣٨٢ ،
 الشيخ محمد صالح ١٠٨ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ٢٨٣ ،
 الفرد طرزي ٢٧١ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،
 ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ،
 ٣٠٧ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٤٣ ،
 الفونس لونسو ٢٢٨ ، ٢٦٣ ،

اسكدر صروف ٣٣٤ ، ٣٤٨ ،
 اسماعيل النجار اللقاوي ١٠٩ ، ١١٢ ،
 اسماعيل بك ٧٤ ،
 اسماعيل بك الحسيني ١٦٨ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٨٧ ،
 ١٨٨ ، ٢٨٣ ،
 اشرف بك ٢٦٨ ،
 أشيل سيقلي / صيقلي ٣٩ ، ٥٤ ، ٧٣ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٩٣ ،
 أقيم مشبك ٣٦ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ،
 ١٥٩ ، ٢٩٠ ،
 الارشمندريت ابراموس الكركي ٢٥٩ ، ٢٦٩ ،
 الارشمندريت ثيموثاوس ٢٣٤ ، ٢٣٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٧٨ ،
 ٣٠٩ ، ٣١٧ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ،
 الارشمندريت دونيسوس / دوتيسوس ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١١ ،
 ١١٤ ،
 الارشمندريت عبد المسيح ٢٨٤ ، ٢٩٣ ،
 الارشمندريت يوسف ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،
 الامير شكيب ارسلان ١٣٢ ،
 أترلين ١٦ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ١٨٢ ، ١٩٤ ، ٢٠٥ ،
 ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ،
 ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ،
 ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٦ ،
 ٢٧٧ ، ٢٨٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ،
 ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣٤٢ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ،
 ٣٧٤ ،
 الحاج امين افندي الحسيني ١٤٠ ، ١٤٤ ، ٢٨٣ ، ٣٤٨ ،
 الحاج عبد الرحيم افندي الصفح ٣٠٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ،
 ٣١٧ ، ٣٣٠ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٦٥ ،
 الحسين ٢٦٤ ،
 الحلاق توفيق ٢٦١ ، ٢٦٣ ،

- القس بطرس موسى ٣٤٢ ،
القس يعقوب خضر ٣٤٤ ،
القسيس Nick ١٣٥ ،
القواس يوسف ١٢٢ ،
الكتسليير / الكوتسليير ٨٥،٨٢،٧١،٦٥،٦٠،٥٩ ،
اللنبي ٢١٧ ،
اللورد بلايث ١٤٠ ،
المتنبي ١٦٨، ١٣٤، ١٣١ ،
المسيح (ع) ١٩٩، ١٦٥ ،
المعلم جورج ٣٠٧، ٣١١ ،
المعلم عساف ٤٠ ،
الملك فيصل ٢٥٧، ٣٦٦ ،
المهندس كمال بك ٨٨، ٣٤٨، ٣٤٩ ،
الياس / ابن الجيران / اخو الاوانس ٣٠١، ٣٤٩ ،
الياس افندي فراجي ١٩، ٢٠، ٢١، ٨١، ٨٢، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٩٩ ،
الياس الخوري اسكندر عيدة ٣٦ ،
الياس الشدياق ١٨٤، ١٨٦، ١٨٧، ٢٣٨، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠ ،
٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٩، ٣٧١، ٣٨٢ ،
الياس مشبك ٤٢، ١٨٣ ،
الياهو فراجي ١٩ ،
ام ابراهيم ٢٣٩ ،
ام ابراهيم بربارة ٢٦١ ،
ام الياس ٢٩٣، ٢٩٦، ٣٠٧، ٣١١، ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٣٧ ،
٣٤٣، ٣٥٢، ٣٦٤ ،
ام الياس شطاحي ٢٤١، ٣٣٥ ،
ام انطون السكاكيني ٢٣٩ ،
ام متري الخورية ٣٣٤ ،
امين افندي ابو فاضل ٢٥٠، ٣٣١، ٣٣٢ ،
امين توما ٣٤٣ ،
- أمين صيداوي ٣١، ٢٠٨، ٢٨٣ ،
امين قعوار ٣١٣، ٣١٥، ٣١٧ ،
أتيوف ٨٥، ٨٢، ٦٥، ٥٠ ،
أتموس ٥٤ ،
اندرواس العيسى ٣١٦، ٣١٩، ٣٢٨، ٣٣٠، ٣٥٤ ،
اندرية ٣٥٠، ٣٦٥ ،
أنضوني الغوري ٣٦، ٣٢، ٤٠، ٤٤، ٤٥، ٤٧ ،
أنضوني حنايا ٤٠، ٤١، ٤٧ ،
أنضوني مشبك ١١٣، ٦٣، ٥٥ ،
انطوان ايوب ١٨٣ ،
انطون السكاكيني ٢٣٩ ،
انور بك المحاسبي ١٣٤، ١٣٥ ،
انيت قيومجي ٢٤٠، ٢٤٦، ٣٥٦ ،
انيس افندي الخوري ٢١٥ ،
انيسة ٩٩ ،
أوجين جوريتش ٥٤ ،
اودلف ٢٦٣ ،
اوغست فروجي ٢٣٤ ،
اولغا ٢٩٣، ٣٠١، ٣٠٧، ٣١١، ٣١٢، ٣٢٨، ٣٣٥، ٣٤٤ ،
٣٤٩، ٣٦٠، ٣٦١ ،
ايزيس ٣١١ ،
ايليا زغيب ٢٥٦، ٢٧٨، ٣٥٥ ،
ايوب ايوب ٣٤٩ ،
- «ب»
بترسن ١٤٢ ،
بديع السنونو ١٨٤، ١٨٦، ١٨٧، ٢١٦، ٢٢٣، ٢٣٥، ٢٤٧ ،
٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٦، ٢٩٧، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٥ ،
٣١٦، ٣١٧، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٧١، ٣٨٢ ،

برامكي ٣٧٦،

بروفر ١٥٦،

برياب ٣١١

بشارة حبايو ٣٣٦،

بشارة افندي حبيب ٣٤، ٣٨، ٤٠، ٤٢، ٤٣، ٤٥، ٤٦

بشارة توما ٣٤٨، ٣٥٣، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠،

بلفور ١٣، ٢٥،

بندلايمون ١٨١،

بندلي الجوزي ١٥، ٥٤، ٦٤، ٦٧، ٨٢،

بنيامين بن اسرائيل برشطين/عبري Ibry ٢٠

بوتيه ٣١،

بومرت ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٦، ٣٤٥، ٣٤٨، ٣٥٣،

٣٥٥، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٤،

بيرثا ١٣٧،

بيرن الاسوجي ٣٣٢، ٢٤٨، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦،

٣٣٧، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٤٩، ٣٥١، ٣٥٣،

«ت»

ترجمان دير اللاتين ١٨٤،

تودر يانكو ٣٩، ٤٠، ٤٦، ٤٧،

توفيق الحسيني ١٠٤، ٢٨٣،

توفيق المصري ٢٤٦،

توفيق الملك ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٩، ٢٨٦، ٢٨٨، ٣١٤،

٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣٢١، ٣٢٥، ٣٢٦،

توفيق جوهريه ٢٠٨، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٣٧، ٢٦٧، ٢٦٩،

٢٨٣، ٣٠٢، ٣٠١، ٣٨٢،

توفيق فرح ٣٧،

توفيق كنعان ٦٤، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٥، ٣١٧،

٣٢٠،

توما بنايوت ٣٥٠، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦٥،

«ج»

جاد سويدان افندي ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٤٣،

٣٤٤، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٧،

٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٤،

جان قدسي ٣٣٢،

جبرا العيسى ٣١١،

جبران صيدح ٣٤٣، ٣٤٩،

جرجي ٦٦،

جرجي افندي الحمصي ١٨٤، ٣٧١،

جرجي افندي عطية ٣١٧، ٣٢٠،

جرجي اليضا ٢٩٣،

جرجي الخوري ٢٩٣، ٢٩٧،

جرجي حبيب حنايا ٤١، ٩٩،

جرجي خميس ١١٣، ١٤٣، ١٥٦، ٢٢٠، ٣٧٦،

جرجي دعدس ٢٠٠، ٢١٦، ٢٢٠، ٢٢٦، ٢٣٤، ٢٣٨،

٢٤٦، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٩، ٢٦٥، ٢٩١، ٣٠٩، ٣٣١، ٣٤٩،

٣٦١،

جرجي زيدان ٧٦،

جرجي طرزي ٢٢٦، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٥، ٢٥٠، ٢٥١،

٢٥٣، ٢٥٦، ٢٦٣، ٢٧١، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٨٦، ٢٩٢، ٢٩٧،

٣١٧، ٣١٨، ٣٨٣،

جرجي قرط ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٧٨،

جرجي مخايل الخوري ٢٣٥، ٢٤٢، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٣،

٢٩٨، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣٣٠،

جرجي نقولا الحلبي ٣٩،

جريس افندي جوهريه ١١٠،

جريس سعيد ٣٧،

٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ،
٦٢ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٠٠ ، ١٠٧ ،
١٢٤ ،

جوسيف ٣٣٢ ،

جوليا ٨٦ ،

جوليا كرايديان ٩١ ، ٢٣٨ ،

جوليا مزهر ١٢٧ ،

جوليت ٢١٤ ، ٣٤٩ ، ٣٨١ ،

جون جري هيل ٢٠ ،

جون وايتنك ١٣٩ ،

«ح»

حاخام باشي اليهود ١٤٨ ،

حافظ ابراهيم ٧٤ ،

حسن احمد دحبور ٢٠٨ ، ٢٤٩ ،

حسن افندي حماد ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٣٠٥ ،

حسن جار الله ٥٥ ،

حسني باشا ٢٧٥ ،

حسين افندي سليم الحسيني ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٩ ، ٥٥ ،

٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٧ ، ١٠٢ ، ١١٠ ، ١١١ ،

١١٧ ، ١٢٥ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٥ ،

١٤٧ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٨ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،

١٧٨ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٦٧ ،

٢٨٣ ، ٣١٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٧٢ ،

حسين الخالدي ٢١٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ،

٣١٩ ،

حلمي افندي ١٣٥ ، ٢٨٣ ،

حلمي حسيني ٩٧ ، ١٠٤ ، ١١١ ،

حمدي افندي التير ٨٥ ، ١٤٦ ، ٢٤٣ ،

جريس طيشة ٣٤٩ ،

جلال بك ٢٠٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤٩ ،

جليل عبده ١٣٤ ،

جمال الداودي ١٠٨ ،

جمال باشا ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،

١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٧٤ ، ٣١٤ ، ٣٤٨ ،

جمال باشا الصغير ١٥٧ ، ٢٠١ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،

٢٢٦ ، ٢٢٥ ، ٢٣٥ ، ٢٤٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ ، ٣٠١ ، ٣٠٥ ، ٣١٤ ،

٣٣٦ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ،

جمال بيك ١٣٩ ، ١٤٠ ،

جمال / قائد عسكري ١٢٣ ،

جميل افندي نسبية ١٨٧ ،

جميل الخالدي ٩١ ،

جميل الزنايري ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ،

٩٢ ، ١٢٤ ،

جميل بك ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٣١٧ ،

جواد بن اسماعيل بك الحسيني ١٧٨ ، ١٨١ ،

جودت افندي ٢٣٧ ،

جورج / ابن عم توما ٣٦٥ ،

جورج / ابن لبيبة ٣٤٧ ،

جورج افندي ابو عضل ٢٨٧ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ ، ٣٥٣ ، ٣٥٩ ،

٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٥ ،

جورج ايوب ٢٣٦ ، ٢٣٨ ،

جورج بنايوت ٣٥٣ ، ٣٥٨ ،

جورج شاهين عطية ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩١ ، ٢٩٦ ، ٣٠٣ ،

٣١٠ ، ٣١٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ،

جورج متى ١٥ ،

جورج / خاله ٢٢٧ ، ٢٨٣ ، ٣٤٧ ،

جورجي زخريا ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ،

داود دعدس ١٥٤,٣٧ ،
داود صيداوي ٢٧٨ ، ٢٧٩ ،
داود كمال قواس ١٢٢ ،
داود يوسف الحرامي ٥٤ ،
داوود يلين ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٣١٦ ، ٣٦٣ ،
دراج ٢٣ ، ٢٤ ،
دورث نادرس ٢٥١ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ،
دوستويفسكي ٧٤ ،
دوسيئوس ١٠٣ ،
ديمتر نادرس ٢٠٠ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ،

«ر»

راحيل ٢٠٩ ،
راغب افندي الخالدي ٣٤٨ ،
راغب افندي قطينية ٢٤٩ ،
راغب بك النشاشيبي ٣٨ ، ٤٧ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ٢٣٥ ،
رجاني الحسيني ٣٤٨ ،
رستم بك ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ،
٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ،
٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،
٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ،
٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ،
٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ ،
٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٨ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ،
٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ،
٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٨٢ ،
رستم حنا ٣١٣ ،
رشدي افندي العطار ٣٥٨ ،
رشدي بك / مدير السوقيات ٣٣٠ ،

حمدي حلاوة ٣٥٩ ،
حنا ابو نقولا ٤٣ ، ٣٦ ، ٣٥ ،
حنا اسطفان ٩٧ ، ٣٧ ،
حنا الملك ٤٢ ،
حنا ايوب عمران ١٥٠ ،
حنا حمامة ٥٥ ، ٦٣ ، ٨٦ ، ١١٣ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ٢٨٣ ،
حنا سويدان ٣٤٤ ،
حنا شكلف ١٠٢ ، ١٤٥ ،
حنا عبد الله العيسى ١٥ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٧٨ ، ٨١ ،
حنا عطية ٣٣٧ ،
حنا فرح ١٤٥ ،
حنا ياسمينه ١٥٢ ، ١٨٥ ، ٣٧٣ ،
حنة ٤٩ ، ١٢٧ ، ١٣٨ ، ١٥٨ ، ٢٦١ ، ٣٤٧ ،

«خ»

خريستو طرزي ٣٥٥ ،
خريستوف هوفمن ٥٧ ، ٢٢٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ ، ،
خليل بك الصلح ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٣٨٢ ،
خليل بيدس ٧١ ، ٩١ ، ٩٢ ،
خليل نادرس ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ،
٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ،
٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ،
٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ،
٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٨ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ،
٣٢١ ، ٣٥٣ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ،
خليل رفعت بك ٢٢٥ ، ٢٧٥ ،
خليل مطران ٧٤ ،

«د»

دارون ٣٥٦ ،

رشيد افندي ابو خضرة ٣٢٦، ٣٢٥، ٣٢١

رضا بك ٨٥،

رفلة الحمصي ٨١،

رفيق جلاد ٣٥٧، ٣٥٣،

رمزه فيعاني ٣٥٨، ٣٥٧، ٣٤٣، ٣٢٧، ٣١٢، ٣٠٩، ٢٩٨،

٣٦٢، ٣٦٠

روننصن ٦٤،

روتشيلد ٥٩، ٥٥، ٢٠،

روحاني الروم ١٤٨، ١٤٧،

روحي الخالدي ١٩، ١٥،

روشن بك ١٥٦، ١٥٣، ١٥٢، ١٥١، ١٤٨، ١٤٥، ١٤٤،

١٥٧،

روميو ٣٨١، ٣٤٩، ٢١٤،

رياض الصلح ٣٥٧، ٣٠٥، ٢٩٠، ٢٨٧،

ربور الإفرتسي ٤٣،

«ز»

زاهي حداد ٣٣٨، ٣٣٧، ٣٣٦،

زكي بك ٢٥٦، ٢٥٥، ١٤٢،

زهران ٢١٠، ١٤٥،

زين العابدين افندي ٢٨٢، ٢٨١، ٢٥٧، ٢٣٨، ٢٣٤، ٢٢١،

٢٨٧، ٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٤، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٧، ٣٠٩،

٣١٠، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٠، ٣٢١،

٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٥، ٣٣٦،

٣٣٧، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥٤، ٣٥٥،

٣٥٦، ٣٦٠، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٨٢،

«س»

سابا الصانع ١١٦، ١١٧، ١٥٦، ٣٥٩، ٣٦١، ٣٦٥،

سابا الفران ١٨٣،

سابا سعيد ٩٧،

سابا عبده ٢٨٣، ١٨٣، ٨٤،

سارة الشوا ١٤١،

سارة جورج ١٤٣، ١٠١، ١٠٠، ٨٢،

سالم بك ٨٨،

سامي بك العظم ٣٥٨،

سامي قعوار ٣١٥،

سبور ٣٢٩، ٢٣٦، ١٥٢، ١٥١، ٨٤، ٦٧،

سترلنك ١٤٢، ١٣٨،

سعد الدين افندي الخليلي ٢٨٣، ١٨١،

سعيد افندي الحسيني / ابو خضرا ١٣٤، ١٨٥، ١٨٦،

٣٧٢،

سقراط ٣٥٧،

سلامة موسى ٧٤،

سلاميان ٥٤،

سلطانة حلبى ١٠٠،

سلطي اليراهيم ٣٤،

سلمة ابو طيخ ٣٦١،

سليم افندي السماعيل الكركي ٢٨٢،

سليم السلفيتي ٧٨، ٣٩،

سليم القاري ٤٠،

سليم ايوب ١٥٠، ١٣٥، ١٢٤،

سليم بركات ٣٥٧، ٣١٥، ٢٧٦، ٢٤٢، ٢٣٤،

سليمان الحكيم ٢٣١،

سليمان بك ٣٢٨، ٣١٢، ٢٢٧، ٢١٣،

سليمان بن الشيخ محمد صالح ٨٤،

سليمان داود ٧٨، ٣٦،

سمعان الخوري ٣٧٥،

«ش»

شارل ايوب ١٢٤، ١٢٦، ١٣٥، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣،

شاهنده ٢٨٣،

شاهين عطية ٤٠،

شحادة ملوك ٢٠١، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٦٧، ٣٤٤، ٣٨٢،

شدياق ٣٤٥،

شروك ٣٢٧، ٣٤٧،

شريف افندي ١٥٣،

شريف النشاشيبي ١٠٨،

شفيق افندي ٢٥٠، ٢٨٢، ٢٨٧، ٢٩١، ٣١٢، ٣٤٧،

شكري افندي التاجي ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٥،

شكري افندي الحسيني الغزي ٢٧٦،

شكري افندي الفران ٢٢٦، ٢٢٩، ٢٤٩، ٢٦٥، ٢٧١،

٢٧٧، ٢٩٢، ٢٩٨، ٣١٣، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٣، ٣٥٩، ٣٦١،

شكري الخوري ٣٧٦،

شكري القاري ٢٠١، ٢٣٧، ٣٠١،

شكري خليل الجمل ٣٧٥،

شكري ديب ٣٩، ٦٠، ٦٤، ٦٦، ٦٧، ٩٢، ١٠٨، ١٢٧، ١٣٤،

٢٨٣،

شكري رصاص ٣٥، ٣٦، ٥٥، ٦٤،

شكري صوصة ٣٦٠،

شكري فران ٢٤٦، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٨٤،

شكري فيعاني ٢٢٩، ٢٧١، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٦٥، ٣٦٧،

شمر ٥٧،

شلوش ٣٠١،

شنقيطي ١٤٤،

شوقي افندي ٢٧٨،

شوكت افندي الشطي ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٣٧،

٣٤٩، ٣٥١، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٦٠، ٣٦١،

٣٦٢، ٣٦٣،

«ص»

صائب بك ٢٥٥، ٢٦٣،

صادق بك ٦٥،

صالح افندي قاقيش ٣٤٥،

صبحي ٢١٦،

صبحي الغصين، ٥٤

صبحي عويضة ٢٧٠، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٦، ٣٠١، ٣٠٢،

٣١٠، ٣١٢، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٩، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٣،

٣٣٦، ٣٣٧، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧،

٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨،

٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٥، ٣٤٨، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٤،

٣٦٥،

صلاح الدين الايوبي ١٠٨، ١٠٩،

«ط»

طاهر الحسيني ١٠٨،

طبلايوس ٤٤،

طناس ١٢٧، ٤٩،

طنوس قعقور ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩١، ٣١٥،

«ع»

عادل افندي جبر ١١٥، ١٢٥، ١٣٤، ١٣٥،

١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٠، ١٤٤، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٣، ٣٠٣، ٣٤٨،

عادل بك الترجمان ٣٤٨،

عارف افندي الحسيني ١٤٩، ١٥٢،

عارف بك ٢٢، ٢٣، ٢٥٢، ٣٤٨، ٣٧٢، ٣٧٤،

- عاصم بك السعيد ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١،
 ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٦٥،
 عبد الحميد باشا ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٥٠، ٦٠، ٢٩٢،
 عبد الرحمن افندي التصولي ٣٤٩،
 عبد الرحمن افندي سلام/ة ٢٣٧، ٢٣٩، ٣١٠، ٣٣٦، ٣٣٧،
 ٣٧٣،
 عبد الرحمن اليوسف ١٣٢،
 عبد الرحمن بدر ٢٠٢،
 عبد الرحيم بك ١٥٥،
 عبد الرحيم شعر ٢٨٧، ٣١٣، ٣١٧، ٣٦٥،
 عبد السلام افندي كمال ٢٩١، ٣٠١، ٣١٠،
 عبد العزيز جاويش ١٤٩، ١٥٧،
 عبد القادر افندي العفيني ٢٨٣، ٢٨٧،
 عبد القادر الجزائري ١٣٢،
 عبد القادر العلمي ١٥٩،
 عبد القادر المغربي ١٥٤، ١٥٧، ٢١٥، ٢٣٧، ٢٥٠، ٣٣٥،
 ٣٨٢،
 عبد الله افندي النشواني ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٦٣،
 عبد الله البستاني ٢٥٨،
 عبد علي ٣٦، ٨٢،
 عبده كحيل ٢٧٦،
 عبري «Ibry» ٢٠، ٢١،
 عبودة النشاشيبي ٢٨٣،
 عجاج افندي ٣٢٥،
 عز الدين الشوا ٣١، ٤٨، ٨٢، ١٠٢، ١٤١، ٣٤٩،
 عزت بك ١٨٣، ١٨٥، ١٨٦، ٢٠٣، ٢٢٩، ٢٥٢،
 عزت طنوس ٣٣٦،
 عزمي بك ٣٢، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤١، ٤٢،
 ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧،
- عزيز «الخادم» ٩٧،
 عزيز بك ٢٣، ٢٤، ٣٧٢،
 عزيزة ١١٨،
 عفيف الصلح ٢٨٧،
 عفيفة ٢٩٢، ٢٩٣، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٧، ٣١١،
 ٣١٢، ٣١٧، ٣٢١، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٣٤، ٣٣٥،
 ٣٣٧، ٣٤٣، ٣٤٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٤،
 عفيفة ٣١، ٢٤١،
 عفيفة شطاحي ٢٣٩،
 علي افندي الريماوي ٣١،
 علي افندي جار الله ٣٢، ١٣٩، ١٤٤، ١٤٥،
 ١٥٢، ١٧٩، ١٨٠،
 علي النشاشيبي / ابو حسين ١٠٤، ١٢٥، ١٣٥،
 عمر افندي الدقاق ١٨٥، ١٨٦، ٣٧٢،
 عمر افندي بيطار ٩١،
 عمر بن الخطاب ١٣٧،
 عمر محمود الصالح ١٥٩، ٢٤٦، ٢٠٨،
 عودة السالم ٣٤،
 عوف بن الشيباني ٣٧٠،
 عيسى ٣٤٧،
 عيسى البطة ٣٦، ٣٩، ٤١، ٤٢، ٧٤، ٧٨، ٩٢، ٢٨٣،
 عيسى اليببي ٤١، ٩٢،
 عيسى العيسى ١٥، ١٩، ٤٢، ٦٥، ٦٧، ٦٨،
 ٧١، ٧٢، ٩٣، ٩٤، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٩، ١٨٢، ١٨٥، ١٨٨،
 ٢٢٦، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٨٩، ٣١١، ٣٥٤،
 ٣٦١،
 عيسى بن فضول الصباغ ٢٣٤،
 عيسى حنا خميس ١٠٨،

«غ»

- غادة الاندلسي ٦٤ ،
غلاستون ١٢٧ ،
غليوم ١٢١ ،
فون سندرس ٢٤٥ ،
فون كريس ١٧٠ ،
فيشر ١١٨ ، ١٧٤ ،
فيضي افندي العلمي ٦٠

«ف»

- فؤاد افندي كحيل ٣٣٢ ،
فؤاد سعيد ١٨٥ ،
فؤاد يوسف الملك ٢٣٤ ،
فائقة كوك ٣٦١ ،
فايك الألماني ٣٦ ،
فتحي بك ٦٥ ،
فخري حسيني ١٤٠ ، ٩٧ ،
فرح انطوان ٦٤ ،
فرنسيس الخياط ٨١ ، ٧٨ ،
فروسو السكاكيني ٣٤٧ ، ١٩٩ ،
فريد افندي كساب ٢٥٧ ،
فريد بك ٢٢٧ ، ٢١٣ ، ١٦٩ ، ١٦٨ ،
فريد قبوات ٣٥٧ ،
فريد كينزوقتش ٢٣٨ ،
فسر ١٧٧ ، ١٣٧ ،
فكتور بيروتي ٣٤٩ ، ٣٤٨ ،
فكتوريا ٣٥٢ ، ٣٣٧ ، ٣٣٤ ، ٣٣٣ ،
فلاديمر وايكور ٣٤٧ ،
فوتي اطليل ٣٩ ،
فوتي اليوناني ١٥٥ ،
فوردر ٣٥٥ ، ٣٤٨ ، ٢٥١ ،
فوردرز ٢٣٨ ،

«ق»

- قذري بك ٢٦٧ ،
قدسي ٢٧١ ،
قسطندي دعدس ٤٢ ،
قسطندي سلامة ٣٧ ،
قسطندي لباط ٣٧ ،
قطان ٣٦٠ ، ٣٥٨ ، ٣٥١ ، ٢٨١ ،
قيومجي ٢٧١ ،

«ك»

- كاتينكو حنانيا ٨٤ ، ٦٦ ، ٦٤ ،
كاظم بك ١٥٢ ،
كامل افندي الحسيني ١٥٢ ، ١٤٩ ، ١٣٢ ،
كامل بك صوايا ١٥٥ ، ١٥٢ ، ١٥١ ، ١٥٠ ، ٣٧ ،
كنن هتشنس ٨٢ ،
كريمة زكي داوودي ١٥٨ ،
كسطاكي افندي سابا ١٨٣ ،
كلارك ٣٤٢ ، ٢٩٦ ، ٢٦٣ ، ٢٣٨ ، ٦٤ ،
كورت ٨٦ ، ٨٥ ، ٨٢ ، ٤٢ ،

«ل»

- ليية ٤٩ ،
ليية نصيف ٣٤٧ ، ٢٦١ ، ٦٥ ،

مدام الدكتور قطان ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٥٨، ٣٦٠،
 ٣٦٢، ٣٦٥،
 مدام الكسيف ٣١٧، ٣٦١،
 مدام ايوب ٣٤٩،
 مدام عرقنجي ٣٤٩،
 مدتم مدور ٣٥٦،
 مدحت بك ١٥٢،
 مس اندرسن ٨٥، ٨٢، ٤٧،
 مس بست «Miss Best» ٨٢، ٣٣،
 مس تادرس ٢٤٠، ٢٥١،
 مس سبور ١٥١، ٢٣٧،
 مس كار ١٠٠، ١٠١،
 مس واي Mrs Way ٤٨، ٤٩، ٩٧، ١٠٩، ١١٧،
 ١٤١، ١٤٨،
 مس وايتنك Mrs Whiting ٤٨، ١٨٠،
 مس ولس ٨٤، ٨٥،
 مستر ارثر مايرس ١٨٠،
 مستر ارنت ١٨٠،
 مستر جاسي يتس ١٨٠،
 مستر دوتورن ٦٤،
 مستر رونولدس ١٢٢،
 مستر رينولدس / Mr Reynulds ٩١، ١٣٥، ١٤٣،
 مستر سايكس ١٤٢،
 مستر فورد ١٢٢،
 مستر كلاونس ١٨٠،
 مستر آير ١٠٠، ١٤١، ١٨٠،
 مسلم افندي ٢٥٣، ٢٥٩، ٢٦٣، ٢٩٧، ٣٠٥، ٣١٩، ٣٣٠،
 ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٧، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٩، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٤،
 ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٤،

لوفيك ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٧، ٣٥٤، ٣٥٥،
 ليذا ٣٤٧،
 ليفشيس الاسرائيلي ٣٦٠،
 «م»
 ماجد بك ١٠٩، ١٣٩،
 مار بولس ١٦٥،
 ماري قبوات ٣٥٧، ٣٥٨،
 ميري العني ٣٥،
 ميري تادرس ٩٢، ١٨٥، ٢٣٩، ٣١٥، ٣٦٢،
 ميري فراج ٣١، ٣٧،
 ميري / ابن خالته ١٥٤، ١٨٣، ٢٢٧، ٢٨٣، ٣٤٧،
 ميا قطان ٢٤٢،
 محمد «ص» ١٢١،
 محمد افندي الشريقي ٢٤٣، ٢٥٢، ٢٥٨، ٢٦٤،
 محمد افندي / كرد علي ٢٣٧، ٢٤٣، ٢٤٩، ٢٥٧، ٢٦٥،
 ٢٦٧،
 محمد الخطيب ٢٠٩،
 محمد علي بك ١٥٢، ٣٦٢،
 محمد / محمود افندي الجبال ٣٢١،
 محمود ابو الشامات ٢٧٠،
 محمود افندي الراغب الحسيني ١٨٠،
 محمود افندي حيدر ٣٦٢،
 محمود الصالح ٢٠٨،
 مخايل اطليل ٣٦، ٣٩، ٤٠، ٤٤، ٤٧،
 مخايل القزاز ٢٠١، ٢٢٠، ٣٧٥،
 مخايل مشاقه ٣٣٤،
 مدام الخواجا توما بنايوت ٣٥٣، ٣٥٨، ٣٦٠،
 مدام الخواجا سقراط ٣٦٠،

نجلاء ٣٤٧
 نجلاء قيومجي ٢٤٠، ٣٥٦،
 نجيب ٣٤٧
 نجيب الجمل ٣٦، ١٣٧
 نجيب الحداد ٦٤،
 نجيب نصار ١٥، ١٩، ٢٣، ٢١٥،
 نجية خوري ٣٥٧،
 نخلة ابو نجيب ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٥، ٢٥١،
 نخلة زريق ١٥، ٧٨، ١١٠، ١٤٩، ١٥٢، ٢٠٩، ٢٢٦،
 ٢٣٠، ٢٠٤، ٣١٢، ٣٢٥، ٣٣٤، ٣٥٣، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢،
 ٣٦٣، ٣٧٧، ٣٨٢،
 نخلة طرزي ٢٣٩، ٢٤٦، ٢٥١، ٢٧٧، ٣٢٠،
 نخلة كن ٣٦، ٤٠، ٤١، ٤٧،
 نخمن ٢٤٦، ٢٥٨،
 نسيم بك دعس ٢٥٥،
 نصري الفران ٣٥٧،
 نصيف بك ابو زيد ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٥، ٢٦٣،
 نعمتي العلمي ٣١،
 نقيسة ٢٨٣،
 نقولا ... ٣٤٧
 نقولا مّري البرنخ ٢٣٥،
 نور الدين افندي الدروري ٢٠٢
 نور الدين بك ١٥١، ١٥٢، ٢٦٥، ٢٦٧، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧،
 نور الدين يارو ١٢٢،
 نوري الدين افندي ١٤٦، ١٥١،
 نوري بك ٧٤،
 نوري بك ٤٠، ٢٣٧،
 نيازي ٢٤٦،
 نيشه ٢٠٧،

مسلم افندي صبري ٣٨٢،
 مكاروف ابن ام الياس ٣٥٢،
 ملاوي عبده ٧٨،
 ملكة ٢٩٣، ٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٧، ٣١١، ٣١٢، ٣١٧، ٣٢٥،
 ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٤، ٣٣٧، ٣٤٣، ٣٤٩، ٣٦٠،
 ٣٦٤، ٣٦١،
 ملهنس ١٥٦
 مدوح عدوان ٢٤، ٢٣،
 منانة ٣١
 منانة صيداوي ١٠٤، ١٠٥، ١٠٧، ١٠٨، ٢٧٩، ٣٠٣،
 منير افندي ٣٦٢، ٣٦٤،
 موسى افندي ١٢٥،
 موسى البديري ٥٨،
 موسى الشتين ٢٠٤، ٢٠٧،
 موسى فرج الله ٩١،
 موسى فيضي العلمي ٣١، ٥٤، ٨٦، ١٠٨، ١١٣، ٢٢٥،
 ٢٣٨، ٢٦٣، ٢٧٧، ٢٨٢، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢،
 ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥،
 ٣٠٦، ٣٠٧، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٧،
 ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣١، ٣٣٢،
 ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٤٧، ٣٥٥،
 ٣٦١، ٣٦٤، ٣٦٥،
 موسى كاظم باشا ٢٨٣،
 ميليا السكاكيني ٣١، ٦١، ٧٤، ١٤٤، ١٥٨، ١٨٥،
 ٢١٠، ٢٢٨، ٢٣٣، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٦، ٢٨٣، ٢٩٠، ٢٩٦،
 ٢٩٩، ٣١٠، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٥٧،

«ن»

نايفة ٣٤٧،

يكدال ٣٠٦ ،
 يواكيم نسيب ٢٨٤ ،
 يوسف ٣٤٧
 يوسف اسطفان ٢٥٨ ،
 يوسف الحرامي ٦١ ،
 يوسف الشهابي / ابو رياح ٣٧٥ ، ٣٧٤ ، ٣٦٥ ، ١٩٥ ،
 يوسف العيسى ١٥ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ،
 ٤٢ ، ٤٣ ، ٧٢ ، ٧١ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٥٤ ، ٢٣٤ ،
 يوسف القاطرجي ١٠٨ ،
 يوسف بك حيدر ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ،
 يوسف حداد ١٤
 يوسف ضياء الخالدي ١٤ ، ١٥ ،
 يوسف قرط ١٥٠ ،
 يوسف مري التلحمي ٢٤٢ ، ٢٦١ ، ٢٨٦ ، ٢٨٢ ، ٣١٤ ،
 يوسف / السكاكيني ١٩٩ ، ٨١ ،

Canon Hichenes 125

Dr.Peterson 124،

Dr.Stirling 124، 128، 137،

Mr Forder 119، 128،

Mr.Sykes 125،

نيفوريم ٣١٢ ،

«ه»

هربرت سبنسر ٢٩٤ ،
 هرتمل ١٤
 هرون بك ٢٥٢ ،
 هري تادرس ٢٨٤ ، ٢٧١ ،
 هوياور زكي بك ١٤٦ ، ٢٦٥ ،
 هيلانة حلبي ٤٩ ، ٢٦١ ، ٢٨٣ ، ٣٤٧ ، ٢٩٣ ،

«و»

وتسي ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٥٨ ، ٢٦٤ ، ٢٦٩ ، ٢٨٤ ، ٢٩٣ ، ٣١٢ ،
 ٣٤٩ ،
 ودع ٢٥٨ ،
 ودع سنونو ٩٧ ، ٢٧١ ،
 ودع قيسي ٢٢٦ ، ٢٥٩ ،
 ودعة خوري ٣٥٧ ،
 وهبة افندي ٣١٧ ،
 وهبة العيسى ٩١ ، ٩٣ ،

«ي»

ياكروبوس ١١١ ، ١١٣ ، ١١٤ ،
 يحيى افندي الشركسي ٣٦٢ ،
 يعقوب اطليل ١٤٥ ،
 يعقوب السكاكيني ٣٤٧ ،
 يعقوب الغصين ٥٤ ،
 يعقوب جريس خليل ٤٩ ،
 يعقوب فراج ٦١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٣٤ ،
 يعقوب / ابن خالته ٢٨٣ ، ٣٤٧ ،

أسماء الاماكن

«أ»

- ابو غوش (قرية) ١٤٠ .
 ادنة ٢٦٧ .
 اريد ٣١١ .
 ارتاس / ارتاس ٢٣٣ .
 الاردن ١١٢, ٩٤, ٤٣ .
 اريحا ٢٠١, ١٩٥, ١٩٤, ١٧٤, ١٧٣, ١٧١, ٦٤, ٥٤, ٣٩ .
 ٣٧٥, ٣٧٤, ٣٦٥ .
 الاناضول ١٨ .
 ازير ٣٧٥, ٢٤٦, ١٤٩ .
 الأستانة ٢٢٧, ٢٢٥, ٢١٣, ١٤٠, ١٣٤, ١١٧, ٥٨, ٣٩, ٣٥ .
 ٢٥٧, ٢٦٣, ٢١٤, ٢٣٥, ٣٣٦, ٣٣٩, ٣٤٠, ٣٥٠, ٣٥٥ .
 ٣٥٧ .
 اسبانيا ٣١٦, ١٢٦, ١١٥, ٢٢ .
 الاسماعلية ١٥٤ .
 اطنة ٣٠٥ .
 افريقيا ١٥٨, ١٢٠, ٦١, ٥٧, ١٨ .
 اقرة ٣٠٦, ٢٧٦, ٢٧٥, ٢٣٥ .
 انكلترا ١٢٣, ١١٦, ١١٥, ١٠٤, ١٠١, ١٠٠ .
 ١٢٦, ١٢٧, ١٢٨, ١٣٢, ١٣٣, ١٤٢, ٢٧٥ .
 اورشليم ٢٩٦ .
 اوسند ١٣٤ .
 ايران ١٢٠ .
 ايطاليا ١٤٣, ١٣٤, ١١٧, ١١٥, ١٠٠ .
- باب الاسباط ٣٧٤, ٢١٤ .
 باب الجاية ٣٧٦, ٢٨٤, ٢١٣, ١٩٥ .
 باب الخليل ١٤٥, ١٣٩, ١٣٢, ١١٦, ١٠٤, ١٠٠ .
 ٢٨٣, ٢٦١, ٢١٧, ١٤٧ .
 باب العمود ٢٦١ .
 باب الوادي ١٧٠ .
 باب توما ٣٢٥, ٢٦٨ .
 الباب الجديد ٢٨٣, ١٨٨, ١٤٥ .
 باب حطة ١٢٢ .
 باريس ٦٥, ٦٣ .
 بازل ١٤ .
 البانيا ١١٩ .
 بتر ١٨١ .
 البحر الاحمر ٣٦٦ .
 البحر الاسود ١١٥ .
 البرتغال ١١٧ .
 بردى ٣١٨, ٣١٠, ٢٩٣, ٢٩٠, ٢٥٦, ٢٣٤, ٢٣٣ .
 برزسل ١٥٦, ١٣٤ .
 برك سليمان ٢٣٣ .
 برلين ١٨٧ .
 بروكن ٢١٩ .
 بريطانيا ٦٧, ٢٤, ٢٣, ٢٠, ١٧, ١٣ .
 البزورية ٣٥٨ .
 البقة ٦٥, ٦٤, ٦٠, ٣١ .
 بغداد ٦٠ .
- بتر السج ١٨٧, ١٧٠, ١٤٥ .

جبل الزيتون ٤٩، ٦١، ١٠٠، ١١٦، ١٥٤، ١٧١، ١٧٦، ٢٣٧.
جبل المشارف ٢٠.
جزيرة العرب ٦١، ٥٧.
الجسر الأبيض ٢٦٧.
جفنة/ جفنا ١٠٧، ١٠٩.
جلجولية ٣١٩.
جمعية الشبان المسيحية ٢٠.
جمعية الناشئة الاسلامية ٢٠.
جنق قلعة ١٥٦.

«ح»

حارة القنوات ٢٦٧.
حلب ٢٢، ٢٠٥، ٣٤٢، ٣٥٧.
حمص ١٣٤، ٣٣٣.
حوران ١١٩، ٢٩١.
حيفا ٦٤، ١١٧، ١٥٦، ٢١٥، ٣٤٤، ٣٥٢، ٣٥٩.

«خ»

خان يونس ١٢٥.
الخضر ١٧٤.
الخليج العجمي ١١٧.
الخليل ١٤٥، ١٤٧، ١٦٨، ١٧٠، ٢٠٢.

«د»

درعا ٢٢٦، ٢٦٧، ٣٤٩، ٣٧٦، ٣٨٣.
دير الروم ٢٦١، ٢٨٣.
دير غسانة ٢٠٨، ٣٤٧.
دير ياسين ١٨٠.

بلجيكا ١٢٠، ١٢٤، ١٣٢.

بلغاريا ١١٧، ١١٨.

البلقان ١١٥، ١١٩، ١٢١.

بوزن ١٣٥.

بيت أكسا ١٨٠، ١٨٤، ١٨٨.

بيت جالا ٣٤، ٤٣، ٧٨، ١٥٩.

بيت حنينا ١٨٤.

بيت صيدح ٣٤١.

بيت لحم ٣١، ٧٨، ١٥٩، ١٨١.

بيت العظم ٣٥٨.

بيت المقدس ٢٩٦.

بيوتية ١٨٨.

بيرنبالا ١٨٠، ١٨١.

بيسان ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨.

بيرزيت ١٠٧، ١٠٩.

بيروت ١١، ١٥، ٥٤، ٦٠، ٨١، ١٥٩، ٢٠٤، ٢٢٨، ٢٣٩، ٢٤٧.

٢٥٨، ٢٦٩، ٣٠٣، ٣١٠، ٣٣٣، ٣٦١.

البيرة ١٣٤، ١٧٤، ١٧٨.

«ت»

تركيا ١٤، ١٨، ٢٣، ٢٤، ١٠٠، ١٠١، ١١٣، ١١٥،
١١٧، ١١٨، ١٢٠، ١٢٣، ١٢٤، ١٣٢، ١٣٣،
١٤٢، ١٤٣، ١٥٨، ١٥٩.

«ج»

الجامع المعلق ٢٠١، ٢١٣.

الجامعة العبرية ٢٠.

جبل الدروز ٢٠١.

«ر»

راس ابو حلاوة ١٧٩، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٤

رام الله ١٠٧، ١٠٩، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٤، ١٦٤، ١٧٣، ١٧٤،
١٧٨، ١٨٣

رفع ١١٨.

الرملة ١٣٩، ١٨٨.

روسيا ١٨، ٢٠، ٢٢، ٣٩، ٥٤، ٦٢، ٧٣، ٨٧، ١٠٠،

١٠١، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٢٠، ١٢٦،

١٢٧، ١٣٢، ١٣٣، ١٤٢، ١٤٤، ١٥٧، ١٥٨، ٢٥٠.

رومانيا ١١٧، ١١٨، ١٤٣.

رومية ٢٥٨.

«ش»

شارع جمال باشا الكبير ٢٢٥، ٢٤٢، ٢٤٨، ٢٥٠،

٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧٨، ٢٨٢،

٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٣٠٦، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٤،

٣٢٠، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٨٢.

الشام ٢٣، ٦٥، ٩٩، ١١٧، ١٣١، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٤،

١٥٠، ١٥٦، ١٥٨، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ٣٣٩.

شعفاط ١٤٠، ١٤٤، ١٧١، ١٧٤، ١٧٨، ١٧٩،

١٨٠، ١٨٢، ١٨٣.

شنلر ١٧٧.

«ص»

الصاحية ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٦٧، ٣٠٥، ٣٢٨، ٣٢٩.

صربيا ١٢٤.

صيدا ٢١٦.

«ز»

زحلة ٢٥٦.

«ص»

ساحة المرجة ٢٣١، ٢٣٧.

سعد وسعيد ١١٠.

السلط ١٧١، ١٩٤، ١٩٥، ٢٥٩، ٢٩٠، ٣٠٥، ٣١٤، ٣٣٠،

٣٤٥، ٣٦٥، ٣٧٥، ٣٧٦.

سمخ ٢٣٤.

سوريا ٥٣، ٥٧، ٦٣، ٨١، ٢٧١، ٣٥٢.

السوق الجديدة ١٤٧، ٢٦١، ٢٨٣.

سوق مدحت باشا ١٩٥، ٣٧٦.

السويس ٩٩، ١٠١، ١٠٤، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٩، ٢١٥،

سويسرا ٦٦، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٣٨، ٢٦٣، ٢٩٦، ٣١٠، ٣٤٥،

٣٥٥.

سيناء ١٨.

«ع»

العراق ٥٧،

القسطل ١٧٤، ١٧٩، ١٨٠.

القطامون ١٨٤.

القفقاس ١٥٣، ١٥٩.

قليليا ١٧٠.

قهوة الزهرة ٢٥٣، ٢٦٤، ٣٠٦، ٣٥٨.

قهوة الكمال ٢٢٦، ٢٨٧، ٢٨٩، ٣٦٤.

قونيا/قونية ٢٢٨، ٢٦٤، ٣٢١، ٣٥٣.

«ك»

كاله ١٢٠.

كراكوف ١٣٤، ١٣٥.

الكرك ٢٦٩، ٢٨٢، ٣٤٥.

«ل»

اللذ ١٣٩.

«م» المالحة ٩٩، ١٨١.

المانيا ١٨، ٢٣، ٩٨، ١٠٠، ١٠١، ١١٠، ١١٥، ١١٧،

١١٨، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٤٣، ١٥٨،

٢٥٠، ٢٧١، ٢٧٧، ٢٢٧، ٣٣٣، ٣٥٤، ٣٥٥.

لبنان ١٥، ٢٦١.

لفتا ١٠٤، ١٤٠، ١٧١، ١٧٤، ١٧٦، ١٧٨، ١٨٠، ١٨٣.

لندن ٢٠، ٦٥.

لوكددة الخوام ٢٨٦.

لوكددة فكتوريا ٣٥٣، ٣٥٤.

ليل ١٣٤.

«م»

مادبا ١٠٧.

العقبة ١١٥، ١٢٣، ١٢٤، ٣٦٦.

عبون ٢٠٨، ٢٤٩.

عمارة الدومينيكان ٣٧٣.

عمارة نوتردام ١١٦، ١٤٥.

عمان ١٩٥، ٢٠١، ٢٦٧، ٣٠١، ٣٤٩، ٣٧٦.

عين فارة ٢٣٣.

عين كارم ١٨٦، ١٨٨، ٢٣٣.

«غ»

غزة ٣٤، ١٠٢، ١٠٤، ١٢٤، ١٢٨، ١٣٧، ١٦٨، ١٧٠،

١٨٧، ٢١٦، ٣٥٩.

«ف»

فرنسا ١٣، ٢٣، ٧٣، ١٠١، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٢٦،

١٢٧، ١٢٨، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٤٢، ١٥٨، ٢٤٤.

فلسطين ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٩، ٢٠،

٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٤٣، ٥٣، ٥٥، ٦١، ٦٦، ٦٤، ٩١، ٩٤، ١١٢، ١٣٥، ١٤٨،

١٦٨، ٢٧١، ٣٤٤، ٣٥٢، ٣٥٦، ٣٦٦.

فندق «فاست» ٢٠، ٣٨، ٤٧، ٥٥.

«ق»

القاهرة ٩٩.

قرية الجيب

١٧٦، ١٨٠، ١٨٦.

قرية النبي صموئيل ١٧٤، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠،

١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦، ١٨٨.

قرية جبرين ١٨٣.

قرية قالونة ١٧٤، ١٨٦، ١٨٧، ٢٣٣.

مالطة ١٨٨ .

محطة البرامكة ٢٥٠، ٢٥١ .

المحطة الحجازية ٢٣٤، ٣٠٦، ٣٧٦ .

محطة السكة الحجازية ٢٤٥، ٣٤٨ .

محطة القدم ٢٩٧، ٢٩٨، ٣١٦، ٣٣٠ .

محلة المصراة ٢٦١، ٢٨٣ .

محلة النصارى ٢٨٣ .

مدينة مس ١٢٧ .

مصر ١٧، ١٨، ٥٣، ١١٥، ١١٥، ٥٤، ٥٧، ٦١، ٦٣، ٦٤،

٧٣، ٧٥، ٨٧، ٩١، ٩٣، ٩٤، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠٣،

١٠٤، ١٢٧، ١٣١، ١٣٢، ١٣٥، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٨، ١٤٩،

١٥٤، ١٦٨، ١٨٨، ٣٦٦ .

مضيق الدردنيل ١٢٤، ١٥٩ .

مطعم الجفاليط ٣٥٨، ٣٦٢ .

مطعم فلسطين ٣٣٥ .

مغارة ١٣٢ .

مكة ١٤٠ .

«ن»

نابلس ٦٠، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٤٢، ١٤٤، ١٧٠، ١٧١،

١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٨، ١٨٧، ٢٠٠، ٢١٦، ٢٢٠، ٢٣٤،

٢٤٦، ٢٥٤، ٢٦٣، ٢٨٤، ٢٩١، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١٠، ٣٣١،

٣٣٢، ٣٤٩، ٣٦١، ٣٦٥ .

الناصره ١١٤، ٢٠٤، ٣٠٥، ٣٣٠، ٣٣٨ .

النبي موسى ١٨٤ .

النمسا ١١٧، ١١٨، ١٣٢، ١٣٣، ١٤٣، ٢٢٧، ٢٤٤ .

نهر الاردن ٣٧٥ .

النيل ١٨٨ .

نيويورك ٦٥، ٢١٩ .

«ه»

الهند ١٨، ١٢٠، ١٥٣، ١٥٨ .

هولندا ١٣٤ .

«و»

الولايات المتحدة ٢٢ .

وادي الصرار ٢٤٦ .

وادي جنين ٢٣٥ .

«ي»

يافا ٢، ٣٢، ٣٣، ٣٧، ٤٢، ٤٣، ٤٣، ٥٣، ٥٥، ٦٤، ٦٥،

٦٨، ٧٨، ٨٤، ٩١، ٩٣، ١١٦، ١١٧، ١١٨،

١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٨، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٩، ١٤٢،

١٤٣، ١٤٩، ١٦٨، ١٧٠، ١٧١، ١٧٤، ١٨١، ١٨٨،

٢٨٣، ٣٠١، ٣٠٥، ٣٥٩، ٣٦٢،

اليابان ١١٧،

اليمن ١١٩،

اليونان ١١٠، ١٦٣،

المؤسسات والجماعات

- «أ»
 الابريشيات ٣٣، ٣٦، ٤٤.
 ادارة الاعاشة ٢٦١، ٢٨٧، ٣٠٥، ٣١٦، ٣١٩.
 ادارة البريد ١١٨.
 اكسفورد ٧١.
- «ب»
 الباب العالي ١١٥.
- «ج»
 الحرم الشريف ١٠٩، ١٣٢، ١٤٧، ٢٥٧.
 حزب الدير ٤٣.
 حزب الشعب ٤٣.
- «د»
 دائرة الاوردو ٢٧٥.
 دائرة البوليس ١٣٤.
 دائرة الرديف ١٤٥.
 الدائرة العسكرية ١٢٥.
 دائرة المعارف ٣٥، ٣٦، ٤٨، ٥٨، ٥٩، ٨٦، ٩١، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٨، ١٣٦، ١٤٢، ١٥٦، ٢٩١.
 دار المعلمين ٤٨، ٥٩، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٧٧، ٢٨٥، ٢٩٣، ٢٩٤.
 ٣٠٢، ٣٠٣، ٣١١، ٣١٤، ٣١٧، ٣٢٠، ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٢٨.
 ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٥، ٣٤٣، ٣٥٠، ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٦٥.
 دير الروم ٩٧، ١١٧، ١٢٦، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٦، ١٤٦، ١٨٥، ٢٩٣، ٣٧١.
 دير الصليب ١٨٣، ١٨٨.
 دير اللاتين ١٢٤، ١٢٦.
 الدير ٤٤، ٤٧، ٤٩، ١٠١، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٤.
- «هـ»
 البطيركية ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٧١، ١٢٤.
 بطيركية القدس ٢٦٢، ٢٦٩، ٢٨٤، ٢٨٩، ٣٠٩، ٣١٧، ٣٢٧، ٣٤٣، ٣٢٩.
 بلدية القدس ١٠٩، ٣٢٢، ٢٠.
 بلدية يافا ٩١.
 البنك الافرنسي ١١٨.
 البنك الانكليزي ١١٦.
 البنك الوطني ١٥٠، ٨٥.
 بنك كريديليون ١١٦، ١١٨.
 بيت قسطندي الخوري ٣٣.
- «و»
 الجامعة الاسلامية ١٠١، ١١٥، ١٢٠، ١٢٣.
 الجامعة العبرية ٢٠.
 جامعة كولومبيا ٢١٩.
 جماعة الفرنس ٢٥٤.
 جماعة الكويكرس ٤٥.
 جمعيات الاصلاح ٦٣.

الديوان العرفي ١٣٩، ١٥٤، ١٤٢، ٢٣٥، ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥٢ «ق»
٢٥٥، ٢٦٣، ٢٧٥.

قنصلاتو فرنسا ١١٥.

قومسيون معارف اللواء ١١٢.

القلعة العسكرية ١٠٩.

القومسيون / الكومسيون ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٤١، ٤٣، ٤٤،
٤٦، ٤٧، ٧٢، ٨١، ٨٥، ١٠٠، ١١٢، ١٢٥.

«ر»

الريجي «دائرة التبغ» ٣٧، ١٥٠.

«س»

سجن الجامع المعلق ١٩٥، ٢٠١، ٢١٣، ٢٨٤، ٣٤٩، ٣٧٦ «ك»

سجن دمشق ٢١٤.

السفارة الألمانية ١٢٣.

الكلية الصلاحية ١٨٥، ١٨٦، ١٨٩، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٣٤

٢٣٥، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٦، ٢٦٥

٢٧٠، ٢٧٨، ٢٨١، ٣٠١، ٣٠٣، ٣١٤، ٣١٧، ٣٣٠

٣٦٢، ٣٦٣.

كلية صلاح الدين ١٥٦.

كبرج ٧١.

كنيسة الاربعين شهيد ٤٠.

كنيسة القيامة ٢٧٦.

كنيسة المطران الانكليزي ٤٥.

كنيسة مار يعقوب ٣٤، ٣٩، ٤٠، ٤٦، ٥٣.

كنيسة مطران الانكليز ١٢١.

الكنيسة الأرثوذكسية ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٣، ٣١١

٣٣٦، ٣٤١.

الكنيسة البروتستانتية ٥٠.

«ش»

شبكة الجاسوسية اليهودية نيللي ٢٣.

شركة الاستيطان اليهودية (يكا) ١٩.

الشركة العثمانية ١١٦، ١٢٣، ١٢٦، ١٢٨، ١٣١، ١٤٣.

شعبة اخذ العسكر ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٥، ١٥٦،

٢٧٨.

«ط»

الطائفة البروتستانتية ٢٧٦.

«ع»

العمارة الروسية ١١٥، ١٣٢، ٣٧٣.

عمارة نوتردام ١١٦.

«ل»

لوكدة الخوام ٢٨٦.

لوكدة رفض ١٤٧.

لوكدة فكتوريا ٣٥٣، ٣٥٤.

«ف»

فندق فيكتوريا ٢٣١.

المستعمرة الألمانية ٢٧٦ .
المستعمرة الأمريكية ١٠١، ١٠٢، ١٣٩، ١٤٧، ١٨٠، ...
. ١٨١
المكتب السلطاني ١٣٤، ٥٨، ٥٧، ٥٥، ٤٨ .
المناطق السكنية ٣٣ .
المنتدى العسكري ١٣٢ .
مجلس المبعوثان ٨٣، ٨١، ٧٨ .
مجلس المتولية ٣٣، ٣٦، ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٤،
. ٤٥
مجلس المتولين ٣٩، ٤٠، ٤٣، ٤٦ .
مجلس الوكلاء ٣٧، ٣٦، ٣٢ .
محكمة الاستئناف ١٨٣ .
مدارس الروم الارثوذكس ١٠٢، ٩٣، ١١٢، ١٦٩ .
مدرسة الآثار الأمريكية ٦٤ .
مدرسة الأميركيان ٤٨ .
مدرسة الايتام ١٧٥ .
مدرسة البنات الداخلية ٦٥، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٨، ١١٠،
. ١٢٥، ١٢٤
مدرسة الشبان الاعدادية ١٥ .
مدرسة الفرير ١٣٥ .
مدرسة القدس الابتدائية ١٠٨ .
مدرسة القدس للروم الارثوذكس ١٠٩ .
مدرسة المصلبة ٩٩، ٣٥٧ .
مدرسة بيت جالا الروسية للبنات ٤٠ .
مدرسة خامكي ٣٥٧ .
مدرسة دار العلوم الاسلامية ٩١، ٩٣ .
مدرسة راتزبون ١٢٢، ١٥٦ .
مدرسة روضة المعارف ٨٤، ١١١ .
مدرسة شنلر ١٧٦، ١٧٧، ١٨٢ .

لوكدة الالمان ١٥٤ .
لوكدة Hansman ١٣٧، ١٣٨ .

«م»

المؤسس الصحي الامريكاني ١٨٨ .
المجلس البلدي ٣٣، ٥٧، ٥٨، ١٠٩، ١٤٥، ١٥٦، ١٥٨،
. ٢٧٤
المجلس العرفي ٢٤٨ .
المجلس العمومي ٣٢، ٤٧، ٥٣ .
المجلس المختلط ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٦، ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٤١،
. ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٧، ٨٧، ٩١، ٩٢، ١١٤ .
المدارس الانكليزية ٧٣، ١٣٤، ١٣٥ .
مدرسة راتزبون ١٢٢ .
المدارس الروسية ٧٣، ١٣٤ .
المدارس الفرنسية ٧٣، ١٣٤ .
مدرسة الفرير ١٣٤ .
المدرسة الاجنبية الابتدائية ٢٣٦ .
المدرسة الارثوذكسية ٩١، ١١٠ .
المدرسة الالمانية الخارجية ٣٤٩ .
المدرسة الانكليزية ٣٠٥ .
المدرسة الداخلية ٤٣، ١٠٣ .
المدرسة الدستورية ١٧، ٣٣، ٥٣، ٥٨، ٧٣، ٩٤، ١١٠، ١١١،
. ١١٢، ١١٦، ١١٧، ١٢٥، ١٣٥، ١٤٥، ١٦٩، ٢٤٩ .
المدرسة الصلاحية ٣١، ١٠٩، ١٥٣، ١٦٩ .
المدرسة الكبيرة ١١٠ .
المستشفى الالمانى ٥٤، ١٥٧، ٢٥١، ٣٥٩ .
المستشفى الانجليزى ٣٢، ٨٦، ١٣٧ .
المستشفى الروسى ١٣٢ .
المستشفى الفرنساوى ٢٨٨ .

- مدرسة كيسة مطران الانجليز / St.Georg's , ٩١ , ١٣٥ ,
١٣٦ .
مستشفى الروم ٢٨٣ .
مستشفى دمشق ٣٥٦ .
مستعمرة الالمان ١٥٦ .
مستعمرة الامريكان ١٠١,٤٨ .
مسجد النبي داوود ١٠٩ .
مقبرة مامن الله ١٠٨ .
مكتب البريد العثماني ٢٣١ .
- نظارة المدارس الارثوذكسية ١٠٣ .
نظارة مدارس الروم في فلسطين وما وراء الاردن ١١٢ , ١١٤ .
- «ه»
الهلال الاحمر ١٦٨ , ١٦٩ , ٢٢٧ , ٢٢٩ , ٢٣٤ , ٣٢٨ , ٣٣٤ ,
٣٥٠ .
هيئة ادارة المدارس ٨٦,٧٢,٧١ .
- «و»
الوزارة الفاتيكانية ١٦٧ .
- «ن»
نظارة الداخلية ١٠٩ .

صحف ومجلات

- جريدة اقدم ٨٧ .
جريدة البرهان الطرابلسية ١٥٤ .
جريدة سوريا الرسمية ٢٩١ , ٢٥٣ .
جريدة الشرق ٢٧٨ , ٢٣٧ , ٢٢٩ .
جريدة فلسطين ٢٨٩ , ٦٨ , ٦٧ , ٥٤ , ٤٤ , ٤٢ , ٢٣ .
جريدة الكرمل ٢١٥ .
جريدة المشرق ٢٥١ .
جريدة المقتبس ٢٥١ , ٢٥٠ , ٢٢٩ .
جريدة النهار ٢٢٣ .
مجلة المقتطف ٢٨٧ , ١٥ .
المقطم ١٣٩ .

ربما كانت شخصية السكاكيني متعددة الأبعاد والقيم الإنسانية هي التي ساعدته على رؤية نجاحاته وإخفاقاته بمنظار النسبية البعيدة عن مواقف المبشرين بالمثاليات المطلقة. فصاحب اليوميات وطني يرى عيوب مجتمعة ويحاول إصلاحها بالتربية والتعليم والقدوة الحسنة. ورغم نقده للدولة العثمانية وإدارتها لشؤون السيادة والحكم كما عاينها في القدس فإن موقفه القومي لا يدفعه إلى تحميل الأتراك كل أوزار الانحطاط والتأخر كما فعل بعض رجال السياسة والفكر بعد زوال العثمانيين وقدم حكم الإنكليز. فالسكاكيني الناقد للاستبداد والفساد لا تدفعه وطنيته إلى مواقف قومية متعصبة وحاقدة على الأتراك بشكل كلي. فهو يعبر عن خشيته من دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا ويتوقع هزيمة جيوشها إذا قامت بمهاجمة الإنكليز في مصر. وعندما يحصل ما يخشاه وتسير الجيوش العثمانية نحو سيناء فهو يتحدث عن "جيوشنا" التي يخاف عليها من التعب والعطش والجوع في الصحراء مقابل "الأعداء" الإنكليز. وهو الذي ضاق بالاستبداد وفساد الحكم العثماني لا يسعه إلا أن يعترف "أن العنصر التركي قد دبت فيه الحياة وكنت أتمنى لو تدب الحياة في العنصر العربي".

د. عادل مناع

الثلاثاء في ٢٠ ت ٢٠ غ/١٩١٧م

استيقظنا على أصوات المدافع تدوي من بعيد ولعلها في الجهة الغربية. ثم لم تلبث أن ظهرت طيارة من بعيد في الجهة التي تدوي فيها أصوات المدافع. وفي الوقت ذاته ظهرت ثلاث طائرات في سماء القدس ووجهتها طريق نابلس. مرت كواكب كثيرة من الخيالة والمجانة، فذهبت في طريق جبل الزيتون، ثم تركت الطريق واجتازت في الحقول إلى طريق نابلس... اشتدت المدفعية قبل الظهر، وكان يتخللها دوي طلقات المتراليوز، مما يستتج منه أن محلّ الضرب قريب... أعلنت الحكومة اليوم أن السفر إلى نابلس ممنوع، وأما من شاء أن يسافر من أهل القدس فليس أمامه إلا طريق أريحا وطريق السلط... مما استدلّ منه كثيرون أن طريق نابلس مقطوعة. مرت بنا عدة أيام ونحن لا نأكل غير الخبز والزيتون، واليوم أصبحت ولا تنباك عندي فضاقت أخلاقي وتولّاني الضجر... أثبت هذه الملاحظة هنا لتعجب من غرائب عقول البشر. هذه الأيام أهمّ أيام التاريخ، والجيوش تتفانى هجوماً ودفاعاً والأمم بأجمعها شاخصة بأبصارها مشرّبة بأعناقها لترى نتيجة هذه الحرب الطامة، هل هي عليها أو لها... والرجل مثلي تضيق أخلاقه ويتولّاه الضجر لأنه أصبح ذات يوم وليس عنده تنباك!!! ولكن ما هذه الحرب وعلام هذا التطاحن؟! بالأمس كانت الأمم دائبة في حياتها اليومية يُعامل بعضها بعضاً، يجوس الإنكليزي خلال الديار الألمانية، والألماني خلال الديار الإنكليزية فلا ينظر إليه أحد شزراً ولا تبرد الوجوه من رؤيته، فما أعلنت الحرب حتى صار كل واحد للآخر عدواً بيّناً. أليس ذلك من غرائب العقول، بل من دلائل الجنون؟! فليس ضجري من عدم التنباك أكثر غرابة من قيام الأمم بعضها على بعض.

خليل السكاكيني